لَقْطَةُ الْعَجْلَانِ وَبَلَّةُ الظَّمْآنِ مِنْ مُخْتَصَرَاتِ الشَّيْخِ هَيْثَم سَرْحَان

الجزء الثَّالثُ

ويحتوي على كِتابَين:

تَهْذِيبُ «مُذَكِّرَةِ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ»
تَهْذِيبُ «شَرْح: أُصُولٌ فِي التَّفْسِيرِ»

ويَليهما مُلحقٌ يحتَوي بعضَ المُتُون المُهمَّة لطالب العلم:

متن: «الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ»
متن: «الْفَتْوَى الْحَمَوِيَّةِ الْكُبْرَى»
«فَتْحُ رَبِّ الْبَرِيَّةِ بِتَلْخِيص الْحَمَوِيَّةِ»
متن: «الْعَقِيدَةِ التَّدْمُرِيَّةِ»
«تَقْرِيبُ التَّدْمُرِيَّةِ»
متن: «مُقَدِّمَةٌ فِي أُصُول التَّفْسِيرِ»
متن: «الْقَوَاعِدُ الْحِسَانُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»

جمعها وهذَّبها ووضَّحها الفقيرُ إلى عفو ربِّه:

هيثم بن محمَّد سرحان

المُدرِّس بمعهد الحرم بالمسجد النَّبويِّ -سابقًا- والمُشرف على معهد السُّنَّة
mahadsunnah.com
sarhaan.com

غفر الله له ولوالديه ولمن أعانه على إخراج هذا الكتاب

الطَّبعة الأولى

الرَّجاء التَّواصل على:

islamtorrent@gmail.com

فسح وزارة الإعلام



فِهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ













مُقَدِّمَةُ الـمَجْمُوع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسِنا، ومن سيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾[النِّساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾[الأحزاب].

أمَّا بعد؛ فهذا هو الجزء الثَّاني من المجموع المُسمَّىٰ «لَقْطَةُ الْعَجْلاَنِ وَبَلَّـةُ الظَّمْـآنِ مِـنْ مُخْتَصَرَاتِ الشَّيْخِ هَيْثَم سَرْحَان»، وهو مجموعٌ يحتوي بعض المُؤلَّفات المُختصرة المهمَّة لطالب العلم في أبوابٍ شتَّىٰ، قد طُبعت مُتفرِّقةً خلال عدَّة سنواتٍ، وقد قمنا بإخراجهـا في شكلٍ أكاديميٍّ يعتمد علىٰ الجداول والتَّقاسيم، وتتخلَّلهـا اختبـاراتٌ يُقـيِّم الطَّالـب مـن خلالها تحصيله لهذه العلوم، وقد اقتصرنا في هذا الجزء الثَّاني علىٰ مجموعة كتبٍ:

- «تَهْذِيبُ مُذَكِّرَةِ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ»، وهو تهـذيبٌ وتوضـيحٌ لاختصـار العلَّامـة الشَّـيخ محمَّد بن صالحٍ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ متن «العقيدة الواسطيَّة» لشيخ الإسلام أحمـد بـن عبد الحليم ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- «تَهْذِيبُ شَرْحِ: أُصُولٌ فِي التَّفْسِيرِ»، وهو اختصارٌ وتهذيبٌ لشرح العلَّامة الشَّيخ محمَّد بن صالحٍ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ متنه «أصولٌ في التَّفسير»، والَّذي ذكر فيه قواعد مهمَّةً لمن رام تفسير القرآن.



وتتميمًا للفائدة؛ فقد ألحقنا في آخر هـذا المَجمـوع عـدَّة متـونٍ مهمَّـةٍ لطالـب العلـم، واقتصرنا علىٰ المتن لكون أكثر المسائل مُفصَّلةً فيما سـبق مـن الكتـاب، أو لكـون شـرح المتن يطول، وهذه المتون هي:

- متن «الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ» لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ.
- متن «الْفَتْوَىٰ الْحَمَوِيَّةِ الْكُبْرَىٰ» لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ.
- «فَتْحُ رَبِّ الْبَرِيَّةِ بِتَلْخِيصِ الْحَمَوِيَّةِ» للعلَّامة الشَّيخ محمَّد بن صالحٍ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.
- متن «الْعَقِيدَةِ التَّدْمُرِيَّةِ» لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ.
- «تَقْرِيبُ التَّدْمُرِيَّةِ» للعلَّامة الشَّيخ محمَّد بن صالحٍ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.
- متن «مُقَدِّمَةٌ فِي أُصُولِ التَّفْسِيرِ» لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ.
- متن «الْقَوَاعِدُ الْحِسَانُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» للعلَّامة الشَّيخ عبد الرَّحمن بن ناصرٍ السِّعديِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

نسأل الله الحيَّ القيُّوم أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به القـارئ والكاتب والمُساعد، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ محمَّدٍ النَّبيِّ الأمِّيِّ، وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين، سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عمَّـا يصفون، وسلامٌ علىٰ المُرسلين، والحمد لله ربِّ العالمين.

الكتاب الأوَّل:

تَهْذِيبُ:

«الْـمُذَكِّرَةِ عَلَى الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ»

للشَّيخِ العلَّامة: مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ

من إعدادِ الفقيرِ إلى عفوِ ربِّه:

هيثم بن محمَّد سرحان

المُدرِّس بمعهد الحرم بالمسجد النَّبويِّ -سابقًا-

والمُشرِف على معهد السُّنَّة



المُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسِنا، ومن سيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[النِّساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[الأحزاب].

أمَّا بعد؛ فإنَّ أهمَّ ما يعتني به المسلم عمومًا وطالب العلم خصوصًا ضبط مسائل التَّوحيد والاعتقاد، إذ إنَّ الاعتقاد هو أساس الدِّين الَّذي بعث الله به المُرسلين، وقد كتب أهل العلم من أهل السُّنَّة والجماعة المُتقدِّمين والمُتأخِّرين في الاعتقاد كتبًا كثيرةً، ومن أكثر ما انتفع به النَّاس في هذا الباب كتب شيخ الإسلام أبي العبَّاس أحمد بن عبد الحليم بن تيميَّة الحفيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد تلقَّاها أهل العلم بالقبول، واعتنوا بتدريسها للطلَّاب، وتحفيظهم إيَّاها، ومن أخصر هذه الكتب رسالة «العقيدة الواسطيَّة» هذه الَّتي بين أيدينا، والَّتي قال فيها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٦٤): (**كَانَ سَبَبُ كِتَابَتِهَا أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيَّ مِنْ أَرْضِ وَاسِطٍ بَعْضُ قُضَاةِ نَوَاحِيهَا، شَيْخٌ يُقَالُ لَهُ رَضِيُّ الدِّينِ الواسطيُّ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ، قَدِمَ عَلَيْنَا حَاجًّا، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالدِّينِ، وَشَكَا مَا النَّاسُ فِيهِ بِتِلْكَ الْبِلَادِ وَفِي دَوْلَةِ التَّتَرِ مِنْ غَلَبَةِ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، وَدُرُوسِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ، وَسَأَلَنِي أَنْ أَكْتُبَ لَهُ عَقِيدَةً تَكُونُ عُمْدَةً لَهُ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ، فَاسْتَعْفَيْت مِنْ ذَلِكَ وَقُلْت: قَدْ كَتَبَ النَّاسُ عَقَائِدَ مُتَعَدِّدَةً؛**



فَخُذْ بَعْضَ عَقَائِدِ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ، فَأَلَحَّ فِي السُّؤَالِ وَقَالَ: مَا أُحِبُّ إِلَّا عَقِيدَةً تَكْتُبُهَا أَنْتَ، فَكَتَبْتُ لَهُ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ وَأَنَا قَاعِدٌ بَعْدَ الْعَصْرِ، وَقَدْ انْتَشَرَتْ بِهَا نُسَخٌ كَثِيرَةٌ فِي مِصْرَ، وَالْعِرَاقِ، وَغَيْرِهِمَا)، فانظر يا رعاك الله كيف لرسالةٍ يكتبها في جلسةٍ واحدةٍ بعد صلاة العصر أن يجعل الله فيها من النَّفع ما لا يُعدُّ ولا يُحصىٰ، ويقيِّض لها الخلق الكثير من أهل العلم يشرحونها، ويعلِّقون علىٰ مسائلها، ويحفِّظونها لطلَّابهم، فاللَّهمَّ اجز شيخ الإسلام خير ما جزيت عالمًا ربَّانيًّا ناصحًا، وبالإضافة إلىٰ كون السَّائل الَّذي أجابه شيخ الإسلام إلىٰ كتابة هذه الرِّسالة من واسطٍ، فإنَّ لتسمية «الواسطيَّة» مُناسباتٍ أخرىٰ نلخِّصها فيما يلي:

سبب تسمية هذه الرِّسالة بالواسطيَّة:

[١] كون السَّائل من واسطٍ بالشَّام.	[٢] أنَّه ذكر فيها وسطيَّة أهل السُّنَّة في أمورٍ مُتفرِّقةٍ.	[٣] أنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتبها في وسط عمره.	[٤] أنَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ توسَّط فيها، ويُقال: إنَّه توسَّط بالواسطيَّة، ثمَّ حمىٰ بالحمويَّة، ثمَّ دمَّر بالتَّدمُريَّة.	[٥] أنَّه كتبها عند الصَّلاة الوُسطىٰ -صلاة العصر-، وانتهىٰ منها قبل المغرب، وهذا من تمام بركة هذه الرِّسالة.

سبب دراسة العقيدة الواسطيَّة:

[١] نصيحة العلماء بها.	[٢] التَّدرُّج في الدِّراسة، فهي تلي كتاب التَّوحيد.	[٣] أنَّها من أسهل كتب شيخ الإسلام.	[٤] أنَّها تضبط مُعتقد أهل السُّنَّة في أمورٍ مُتفرِّقةٍ.	[٥] أنَّها مدخلٌ لفهم كتب العقيدة.	[٦] أنَّ الله وضع لها القبول.	[٧] عناية العلماء بها وكثرة شروحها



كَيْفَ نَقْرَأُ كُتُبَ شَيْخِ الإِسْلَامِ؟

يُنبَّهُ هنا إلىٰ أنَّ كلام شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ في كثيرٍ من كتبه صعب الفهم لطالب العلم المُبتدئ، ولهذا يُنصح بالتَّدرُّج في قراءة كتبه، فنبدأ بالكتب السَّهلة مثل «رفع الملام عن الأئمَّة الأعلام» و«العقيدة الواسطيَّة»، فإذا أشكلت هذه الكتب علىٰ الطَّالب وما استطاع أن يفهم كلام شيخ الإسلام فيها فلابدَّ أن يطلب تُرجمانًا يُترجم له، فكأنَّ شيخ الإسلام يتكلَّم بغير اللُّغة العربيَّة الَّتي يفهمها عامَّة النَّاس، وخير تُرجمانٍ له هو تلميذه العلَّامة ابن قيِّم الجوزيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنَّ الطَّالب إذا تتلمذ علىٰ ابن القيِّم فإنَّه بإذن الله يوصله إلىٰ شيخ الإسلام، فإذا أشكل علىٰ الطَّالب فهم كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ فليتتلمذ علىٰ كتب العلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنَّ كلامه سهل العبارة كثير الفائدة، والله تعالىٰ أعلم.

وقد كتب الشَّيخ العلَّامة محمَّد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ مُذكِّرةً علىٰ «العقيدة الواسطيَّة» لطلَّاب المعاهد العلميَّة، وهي مذكِّرةٍ قيِّمةٌ رتَّب فيها أبواب الرِّسالة، وشرحها شرحًا مُختصرًا يبيِّن مقصود شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، كما أنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ شرح العقيدة الواسطيَّة شرحًا مبسوطًا عرض فيه لدقائق مسائلِها، فرأينا أن نخرج المُذكِّرة في حُلَّةٍ جديدةٍ عن طريق جدولة المُحتوىٰ، وتوضيح ما يحتاج إلىٰ توضيحٍ بشيءٍ من الاختصار، وألحقنا بها اختبارًا يتمكَّن الطَّالب من خلاله من مُراجعة مَقروئِه، وتقييم تحصيلِه.

نسأل الله الحيَّ القيُّوم أن يجزي الشَّيخين خير الجزاء، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به القارئ والكاتب والمُساهم، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ محمَّدٍ النَّبيِّ الأمِّيِّ، وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين، والحمد لله ربِّ العالمين، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٢٨): (**نَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَهْدِيَنَا وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ؛ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا**).



فِهْرِسُ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ

أقسامُ «العقيدة الواسطيَّة»:

[٦] الخاتمة:	[٥] فصولٌ متفرِّقةٌ في الاعتقاد:	[٤] وسطيَّة أهل السُّنَّة:	[٣] الأدلَّة من السُّنَّة:	[٢] الأدلَّة من القرآن:	[١] المُقدِّمة:
دعا فيها الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعله ومن يقرأ الكتاب من أهل السُّنَّة الَّذين ذكر اعتقادهم.	ذكر المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عددًا من الفصول في:	ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسطيَّة أهل السُّنَّة والجماعة بين الأمم في أمورٍ خمسةٍ.	ساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلَّةً كثيرةً من السُّنَّة الصَّحيحة في إثبات الأسماء والصِّفات.	ساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلَّةً كثيرةً من القرآن في إثبات الأسماء والصِّفات.	من قوله: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) إلىٰ: (مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ)

معيَّة الله عَزَّوَجَلَّ، وقربه، وإجابته، والإيمان بأنَّ القرآن كلام الله مُنزَّلٌ غير مخلوقٍ، ورؤية المؤمنين ربَّهم عيانًا بأبصارهم، والإيمان باليوم الآخر، وبالقدر، وحقيقة الإيمان، واعتقاد أهل السُّنَّة في الصَّحابة، وكرامات الأولياء، وطريقة أهل السُّنَّة والجماعة العمليَّة.



تَرْجَمَةُ شَيْخِ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ

هذه التَّرجمة مُختصرةٌ من مَداخل الشَّيخ بكر بن عبد الله أبو زيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

مُلخَّص حياته رَحِمَهُ اللَّهُ:

هو تقيُّ الدِّين أبو العبَّاس أحمدُ بنُ عبد الحليمِ بنِ عبدِ السَّلامِ ابنُ تيميَّةَ، الحَرَّانيُّ نسبةً إلىٰ حَرَّانَ، وهي مدينةٌ تقع بتركيَّا اليوم.

[١] مَولدُه: وُلد رَحِمَهُ اللَّهُ في عاشر ربيعِ الأوَّل سنة ٦٦١هـ.

[٢] أوصافُه: كان جَهورِيَّ الصَّوتِ، فصيحًا، سريعَ القراءةِ، تعتريه حِدَّةٌ ثمَّ يقهرها بحِلمٍ وصَفحٍ، كأنَّ عينيه لسانان ناطقان، إذا أخذ يتكلَّمُ ازدحمت العبارة في فَمِه، نشأ في تَصوُّنٍ تامٍّ، وعفافٍ، وتألُّهٍ، واقتصادٍ في المَآكلِ والمَلبسِ، بَرًّا بوالدَيه، تقِيًّا، وَرِعًا، عابدًا، ناسكًا، صوَّامًا، قوَّامًا.

[٣] وفاتُه: تُوفِّي رَحِمَهُ اللَّهُ ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، عن ٦٧ عامًا و٨ أشهرٍ و١٠ أيَّام.

نُبُوغه في العلم:

[١] حَفِظ القُرآنَ في الصِّغرِ.

[٢] أتقن العلوم مِن: التَّفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والعربيَّة، والتَّاريخ، والجبر، والمُقابلة، والمنطق، وغيرها.

[٣] ناظر وهو دون البُلوغِ.

[٤] أفتىٰ وبدأ في التَّأليف في ١٧ من عُمُرِه.

[٥] درَّس في ٢١ من عُمُرِه، وبدأ درس التَّفسير وعُمُرُه ٣٠ سنةً.



مِن مَواطن القوَّة لديه رَحِمَهُ اللَّهُ:

التَّوحيد، والثَّبات، واللَّهج بذكر الله، وطاعة رسوله ﷺ، والاتِّفاق مع أنصار الإسلام والسُّنَّة، والصَّبر.

ما رزقه الله من قوَّة البدن، واعتداله، وقوَّة الأداء في صوته، فكان جهوريًّا يستولي القلوب.

قوَّةُ الحفظ، فكان قلَّما حفظ شيئًا فنسيه، وفرطُ الذَّكاء، وسيلان الذِّهن، وسرعة الإدراك.

قُوَّته في الطَّلب والتَّلقِّي، والأخذ عن الشُّيوخ، حتَّىٰ دار في دمشق علىٰ أكثر من مائتي شيخ.

قُوَّتُه في مَواقفِه الجهاديَّة، والمَغازي الإسلاميَّة، وكسر شوكة المَلاحِدة والباطنيَّة.

قُوَّتُه في تفجير دلالات النُّصوص، وشقِّ الأنهار منها، واستخراج كنوزها.

قُوَّتُه في البحث والقراءة والمُطالعة.

قُوَّتُه في حياته الجادَّة، الَّتي لا تعرف الهزل، فضلًا عن سافل الأخلاق من الغيبة والنَّميمة، مَجالِسُه عامِرةٌ بالخير.

قُوَّتُه في ضبط النَّفس، فلا لذَّة له أكبر من نشر العلم، وتدوينه، والعمل به، والدَّعوة إليه، والوقوف أمام المفسدين. رفض الأُعطِيات، وقنع بما يأتيه من أخيه ممَّا يسُدُّ حاجته، ما تزوَّج ولا تسرَّىٰ قطُّ؛ لا رغبةً عن هذه السُّنَّة؛ ولكنَّه مُثقَلُ الظَّهر بهموم الدَّعوة والجهاد.

قُوَّتُه في التَّأليف (كتب جُلَّ مُؤلَّفاتِه من حفظِه).

قُوَّتُه في تَعبُّدِه، وتَأَلُّهِه، ومُداومة الذِّكر والأوراد، لا يشغله عنها شاغلٌ.

قُوَّتُه في مَواقِفِه مع الوُلاة، في النُّصح والأمر والنَّهي.



سَبقُه العِلمِي رَحِمَهُ اللَّهُ:

[١] التَّجديد في تحقيق التَّوحيد: بعد طول غيابٍ، وحمايةِ جنابه، وحماية حِمَاه بدقائق أصبحت نورًا يقتدي به المُصلِحون.

[٢] التَّجديد في الفقهيَّات: وهي لا تُحصىٰ كثرةً.

[٣] التَّجديد في علوم المَنطق والفلسفة: هدم من خلالها أقوالَهم وقواعدَهم.

التَّأليفُ:

تأليفه أَلْفِيٌّ عن اجتهادٍ مُطلَقٍ، وتعدُّدِ مَعارفَ، وتجديدٍ، بقلمٍ مَطبوعٍ قائلٍ لا ناقلٍ، فلا يُعرَف مثلُه في كثرة التَّأليف.

مَوضوعُ تآليفه رَحِمَهُ اللَّهُ:

[١] لم يُؤلِّف ابتداءً مُتونًا علىٰ الجادَّة المَعهودة في الفقه مثلًا علىٰ الأبواب، وإنَّما هي فتاوىٰ وأجوبةٌ وردودٌ وبحوثٌ في مسائلَ حقَّق فيها.

[٢] جُلُّ تآليفه في دائرة الرُّدودِ -وهي غيرُ مَردودةٍ-، والفتاوىٰ وأجوبة السَّائلين والمُعترضين -وهي أجوبةٌ مُسدَّدةٌ مَحمودةٌ-.

[٣] ربَّما كتب تأليفًا للتَّذكُّر.

[٤] كتب ابتداءً رسائله وهو في السِّجن (مُناصحَتُه للوُلاة، ووَصاياهُ للعُلَماءِ).

[٥] كتب ابتداءً بعض الشُّروح.

[٦] بلغت فتاويه مَبلغًا عظيمًا في الفقهيَّات، وتحرير الخلاف فيها؛ ممَّا شمِلَ جميع أبوابِ الفقهِ.



مَزايا مُؤلَّفاته رَحِمَهُ اللهُ:

[١] هو في تآليفه قائلٌ لا ناقلٌ، إنَّما النَّقل عنده للتَّدليل والإسنادِ، لا أنَّه مادَّة الكتاب. وليس له فيها علىٰ غير الدَّليل مُعوَّلٌ.

[٢] تقديم أقوال الصَّحابة علىٰ مَن سواهم، وعِنايتُه بعلل الأحكام، وأوصافِها المُناسبةِ، ومَدارِكِها، ووُجوهِ الاستدلالِ مِنها.

[٣] تميُّزُها بالفقه المَقاصِديِّ للتَّشريع، ونشرِ مَحاسن الشَّريعة، وحِكمِها، والسِّعةِ والشُّمولِ مِن ذكر الخلاف، وأدلَّته، ووُجوهِ الاستدلالِ.

[٤] تنوُّع الفَوائِدِ في بحث المسألةِ الواحدةِ بالاستِطرادِ التناسُبِيِّ، وحُسنُ التَّرتيبِ، وجَودةُ التَّصنيفِ، ومَزيَّةُ التَّكرارِ.

[٥] العدلُ، والإنصافُ، والدِّقَّة في بحث المَسائل، وحالَ مُقارَعَةِ الخُصومِ، وعدمُ الافتراء عليهم، نفسُه تَوَّاقَةٌ إلىٰ إصلاح أحوال النَّاس.

[٦] السَّجِيَّةُ المُتدفِّقةُ بالجاذبيَّةِ في صياغته وأُسلوبه؛ لما فيها من الجَزالَةِ مِن جهةٍ، والعُذوبةِ من جهةٍ أُخرىٰ، وإحياءُ الألفاظ المَوروثةِ أصالةً عن صَدر هذه الأمَّةِ.

ممَّا أُوذِيَ بسببه رَحِمَهُ اللهُ:

[١] «الواسطيَّة».

[٢] «الحمويَّة».

[٣] مسألة منع شدِّ الرِّحال إلىٰ القبور.

[٤] فتاواه في الطَّلاق، لاسيما جعلُ الطَّلاق الثَّلاث بلفظٍ واحدٍ واحدةً.



مَكان تَأليفه رَحِمَهُ اللَّهُ:

[١] بعضُها في دِمشقَ.

[٢] بعضُها في مِصرَ.

[٣] بعضُها في السِّجن فيهما، وكانت أكثرَ سَجنةٍ ألَّف فيها السَّجنةُ الأخيرةُ.

هل رجعَ رَحِمَهُ اللَّهُ عن شيءٍ من كُتُبِه؟

لا يُعلَم أنَّه ألَّف شيئًا ورجع عنه؛ سوىٰ ما أشار إليه في مَنسَكِه الأخير بقوله: (كنتُ كتبتُ مَنسكًا في أوائلِ عُمري، فذكرتُ فيه أدعيةً كثيرةً، وقلَّدتُ في الأحكام من اتَّبعتُه قبلي مِن العلماء، وكتبتُ في هذا ما تبيَّنَ لي مِن سُنَّة رسولِ الله ﷺ). «مجموع الفتاوىٰ» (٢٦/ ٩٨).

من أهمِّ مُؤلَّفاته رَحِمَهُ اللَّهُ:

[١] **في بيان اعتقاد أهل السُّنَّة والرَّدِّ على أهل الزَّيغ:**

«الواسطيَّة»، «الحمويَّة»، «التَّدمريَّة»، «الفرقان بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان»، «الرَّدُّ علىٰ المَنطق»، «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة»، «درء تعارض العقل والنَّقل»، «الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دين المَسيح»، «اقتضاء الصِّراط المُستقيم مُخالفة أصحاب الجحيم»، «تلبيس الجهميَّة»، «الصَّارم المَسلول علىٰ شاتم الرَّسول»، «الوسيلة»، وغيرها كثيرٌ...

[٢] **في الفقه والأصول:**

«شرح عمدة الفقه»، «شرح المُحرَّر»، «السِّياسة الشَّرعيَّة»، «رفع المَلام عن الأئمَّة الأعلام».

[٣] **الرَّسائل والفتاوىٰ:**

عددها كبيرٌ، جمع أكثرها الشَّيخ عبد الرَّحمن بن محمَّد بن قاسم العاصميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «**مَجموع الفتاوىٰ**» الَّذي طُبع في ٣٥ مُجلَّدًا.



له تلاميذُ كثيرٌ جداًّ، برزوا في علومٍ شتَّى من علوم الشَّريعة، وأشهرُهم:

- شمسُ الدِّين أبو عبد الله مُحمَّدُ بنُ أبي بكرٍ ابنُ قيِّم الجوزيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٧٥١هـ).
- شمسُ الدين أبو عبد الله مُحمَّدُ بنُ أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٧٤٨هـ).
- شمسُ الدِّين أبو عبد الله مُحمَّد بنُ أحمد بنِ عبد الهادي المَقدسيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٧٤٤هـ).
- عمادُ الدِّين أبو الفداء إسماعيلُ بنُ عمر بنِ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٧٧٤هـ).
- جمالُ الدِّين أبو الحجَّاج يوسفُ بنُ الزَّكِيِّ عبد الرَّحمن بن يوسفَ المِزِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٤٢هـ).
- شمسُ الدِّين أبو عبد الله مُحمَّدُ بنُ مُفلحٍ المَقدسيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٦٣هـ).
- علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف البرزليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٧٣٩هـ).

ممَّا قاله في مَدحه تلميذُه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَاقْرَأْ تَصَانِيفَ الْإِمَامِ حَقِيقَةً ... شَيْخِ الْوُجُودِ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي
أَعْنِي أَبَا الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ ذَلِكَ الْـ ... ـبَحْرِ الْمُحِيطِ بِسَائِرِ الْخُلْجَانِ

...

وَلَهُ الْمَقَامَاتُ الشَّهِيرَةُ فِي الْوَرَىٰ ... قَدْ قَامَهَا لِلَّهِ غَيْرَ جَبَانِ
نَصَرَ الْإِلَٰهَ وَدِينَهُ وَكِتَابَهُ ... وَرَسُولَهُ بِالسَّيْفِ وَالْبُرْهَانِ
أَبْدَىٰ فَضَائِحَهُمْ وَبَيَّنَ جَهْلَهُمْ ... وَأَرَىٰ تَنَاقُضَهُمْ بِكُلِّ زَمَانِ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ بِسِلَاحِهِمْ ... أَرْدَاهُمُ تَحْتَ الْحَضِيضِ الدَّانِي
كَانَتْ نَوَاصِينَا بِأَيْدِيهِمْ فَمَا ... يَلْقَوْنَنَا إِلَّا بِحَبْلِ أَمَانِ
فَغَدَتْ نَوَاصِيهِمْ بِأَيْدِينَا فَمَا ... يَلْقَوْنَنَا إِلَّا بِحَبْلِ أَمَانِ
وَغَدَتْ مُلُوكُهُمُ مَمَالِيكًا لِأَنْـ ... ـصَارِ الرَّسُولِ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ



مُقَدِّمَة المُذكرة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد؛ فهذه مُذكِّرةٌ للمُهمِّ من مُقرَّر السَّنة الثَّانية الثَّانويَّة في المعاهد العلميَّة في التَّوحيد علىٰ «العقيدة الواسطيَّة» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ، نسأل الله أن ينفع بها كما نفع بأصلها إنَّه جوادٌ كريمٌ.

شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ:

هو العالم العلَّامة شيخ الإسلام تقيُّ الدِّين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السَّلام بن تيميَّة، وُلد في حرَّان في العاشر من ربيعٍ الأوَّل سنة ٦٦١هـ، ثمَّ تحوَّلت عائلته إلىٰ دمشقَ فكانت مَوطن إقامته، وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ عالمًا كبيرًا، وعَلَمًا مُنيرًا، ومُجاهدًا شهيرًا، جاهد في الله بعقله وفِكرِه، وعلمِه وجسمِه، وكان قويَّ الحُجَّة لا يصمد أحدٌ لمُحاجَّته، ولا تأخذه في الله لومة لائمٍ إذا بان له الحقُّ أن يقول به؛ ومِن ثمَّ حصلت له مِحَنٌ من ذوي السُّلطان والجاهِ، فحُبِس مِرارًا، وتُوفِّي مَحبوسًا في قلعة دمشق في ٢٠ من شوَّالٍ ٧٢٨هـ.

«الْعَقِيدَةُ الْوَاسِطِيَّةُ»:

كتابٌ مُختصرٌ جامعٌ لخلاصة عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة من أسماء الله وصفاته، وأمر الإيمان بالله واليوم الآخر، وما يتَّصل بذلك من طريقة أهل السُّنَّة العمليَّة، وسبب تأليفها أنَّ بعض قضاة واسطٍ شكوا إلىٰ شيخ الإسلام ما كان عليه النَّاس من بدعٍ وضلالٍ، وطُلب منه أن يَكتب عقيدةً مُختصرةً تُبيِّن طريقة أهل السُّنَّة والجماعة فيما يتعلَّق بأسماء الله وصفاته، وغير ذلك ممَّا سيُذكَر في تلك العقيدة؛ ولذلك سُمِّيت «العقيدة الواسطيَّة».



أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: هم من كان علىٰ مثل ما عليه النَّبيُّ ﷺ وأصحابه:

[١] اعتقادًا.	[٢] وقولًا.	[٣] وعملًا.

لـماذا سُمُّوا أهل السُّنَّة والجماعة؟

[١] لتَمسُّكِهم بالسُّنَّة.	[٢] ولاجتماعهم عليها.

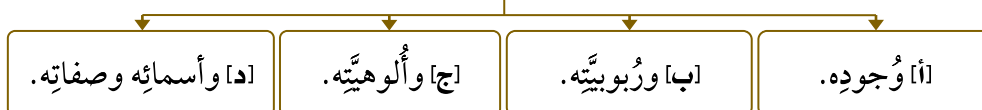


اعْتِقَادُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

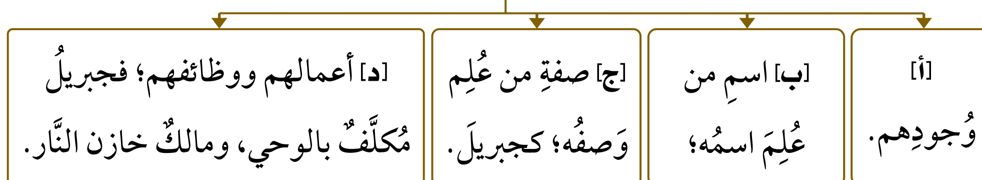
هو الإيمان بـ:



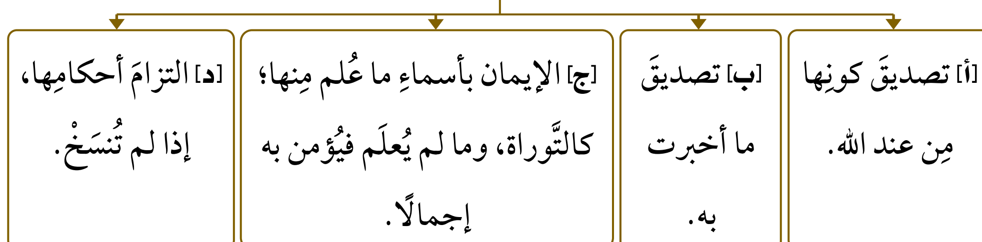
[١] الإيمان بالله يتضمَّن الإيمان بـ:



[٢] الإيمان بالملائكة يتضمَّن الإيمان بـ:



[٣] الإيمان بالكتب يتضمَّن:





[٤] الإيمان بالرُّسل يتضمَّن الإيمان بـ:

[أ] الإيمانَ بأنَّهم صادقون في رسالتهم.

[ب] الإيمانَ بأسماء من عُلِمَت أسماؤُه منهم، وما لم يُعلَم فيُؤمن به إجمالًا.

[ج] تصديقَ ما أَخبَروا به.

[د] التزامَ أحكام شرائعهم غير المَنسوخة.
والشَّرائع السَّابقة كلُّها مَنسوخةٌ بشريعة محمَّدٍ ﷺ.

[٥] الإيمان باليوم الآخر

الإيمانَ بكُلِّ ما أخبر به النَّبيُّ ﷺ ممَّا يكون بعد الموت.

[٦] الإيمان بالقدر يتضمَّن:

الإيمانَ بأنَّ كلَّ شيءٍ واقعٌ بقضاء الله وقدرِه.



طَرِيقَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ

طريقتهم:

إثباتُ ما أثبتَه اللهُ لنفسه في كتابه، أو علىٰ لسان رسوله ﷺ، من غير:

[١] تحريفٍ: وهو **لغةً:** التَّغيير، **واصطلاحًا:** (تغيير لفظ النَّصِّ أو معناه).

- **[أ] تغيير اللَّفظ:** تغيير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النِّساء] من رفع الجلالة إلىٰ نصبها؛ ليكون التَّكليمُ من موسىٰ لا من الله.
- **[ب] تغيير المعنى:** تغيير معنىٰ استواء الله علىٰ عرشه من العُلُوِّ والاستقرار إلىٰ الاستيلاء والملك؛ لينتفي عنه معنىٰ الاستواءِ الحقيقيِّ.

[٢] ولا تعطيلٍ: وهو **لغةً:** التَّرك والتَّخلية، **واصطلاحًا:** (إنكار ما يجب لله من الأسماء والصِّفات).

- **[أ] تعطيلٌ كُلِّيٌّ:** كتعطيل الجهميَّة.
- **[ب] تعطيلٌ جزئيٌّ:** كتعطيل الأشعريَّة، الَّذين لم يثبتوا من صفات الله إلَّا سبع صفاتٍ.

حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ وَالْكَلَامُ لَهُ
إِرَادَةٌ وَكَذَاكَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ

[٣] ولا تكييفٍ: وهو: (إثبات كيفيَّة الصِّفة)؛ كقول: استواء الله علىٰ عرشه كيفيَّته كذا وكذا!

[د] ولا تمثيلٍ: وهو: (إثبات مُماثلٍ للشَّيء)؛ كقول: يد الله مثل يد الإنسان.

الفرق بينهما: أنَّ التَّمثيلَ ذكر الصِّفة مُقيَّدةً بمُماثلٍ، والتَّكييفَ ذكرُها غيرَ مُقيَّدةٍ به.

هذه الأربعة الـمُتقدِّمة: كلُّها حرامٌ، ومنها ما هو كفرٌ أو شركٌ، ومن ثَمَّ كان أهل السُّنَّة والجماعة مُتبرِّئين من جميعِها.



الْوَاجِبُ فِي نُصُوص الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

الواجبُ:
إجراؤُها علىٰ ظاهرِها، وإثباتُ حقيقتِها لله علىٰ الوجه اللَّائق به، وذلك لوجهين:

[١] أنَّ صرفها عن ظاهرها مُخالفٌ لطريقة النَّبيِّ ﷺ وأصحابه.

[٢] أنَّ صرفها إلىٰ المجاز قولٌ علىٰ الله بلا علمٍ، وهو حرامٌ.

أَسْمَاءُ اللهِ وَصِفَاتُهُ تَوْقِيفِيَّةٌ:

والتَّوقيفيُّ: (ما توقَّف إثباتُه أو نفيُه علىٰ الكتاب والسُّنَّة)، بحيث لا يجوز إثباتُه ولا نفيُه إلَّا بدليلِ منهما، فليس للعقل في ذلك مَجالٌ؛ لأنَّه شيءٌ وراء ذلك.

أَسْمَاءُ اللهِ وَصِفَاتُهُ:

[١] **مُحكَمةٌ:**
في معناها؛ فإنَّ مَعناها معلومٌ، والمُحكَم ما كان واضحًا.

[٢] **مُتشابهةٌ:**
في حقيقتِها؛ لأنَّ حقائقها لا يعلمها إلَّا اللهُ، والمُتشابهُ ما ليس واضحًا.



أَسْمَاءُ اللهِ تَعَالَى غَيْرُ مَحْصُورَةٍ [بِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ]

أسماءُ الله تعالىٰ غيرُ مَحصورةٍ بعددٍ مُعيَّنٍ؛ لقوله ﷺ في الدُّعاء المَأثور: «**أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**». أخرجه أحمد.

وما استأثر اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بعلمِه فلا سبيل إلىٰ حصرِه والإحاطةِ به.

كيف الجمع بين هذا وما جاء في السُّنَّة من أنَّها تسعةٌ وتسعون؟

جاء في الحديث: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**». مُتَّفقٌ عليه.

معنىٰ الحديث: أنَّ مِن أسماء الله تسعةً وتسعين اختُصَّت بأنَّ من أحصاها دخل الجنَّة، فلا يُنافي أن يكون له أسماءُ أخرىٰ غيرُها، ونظيرُ ذلك أن تقولَ: عندي خمسون درعًا أعددتها للجهاد، فلا ينافي أن يكون عندك دُروعٌ أخرىٰ.

ومعنىٰ إحصاء أسماء الله أن يُعرَف لفظُها ومعناها، ويُتعبَّدَ لله بمُقتضاها.

القاعدة أنَّ العدد إذا ذُكر في الكتاب أو السُّنَّة أو كلام أهل العلم:

[١] ولم نجدْ في نُصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ ما يزيدُ علىٰ هذا العددِ؛ صارَ العددُ له مَفهومٌ، أي: لا يُزادُ عليه، مثلَ: أركانِ الإسلامِ، وأركانِ الإيمانِ؛ كما في حديثِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٢] وإنْ وجدْنا في نُصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ ما يزيدُ علىٰ هذا العددِ؛ صارَ العددُ ليس له مَفهومٌ، أي: يُزادُ عليه بما وردَ في الكتابِ والسُّنَّةِ، مثلَ قوله ﷺ: «**خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ...**»، وقولِه: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ...**».



كَيْفَ يَتِمُّ الإيمانُ بأَسْمَاءِ اللهِ؟

إذا كان الاسمُ الأحسَنُ:

[١] مُتعدِّيًا: فتمامُ الإيمان به إثباتُ:

- [أ] الاسم.
- [ب] الصِّفةِ الَّتي تضمَّنها.
- [ج] الأثرِ الَّذي يترتَّبُ عليه.

مثل: (**الرَّحيم**)، فتثبتُ الاسم وهو الرَّحيمُ، والصِّفةَ وهي الرَّحمةُ، والأثرَ وهو أنَّه سبحانه يرحمُ بهذه الرَّحمة.

[٢] لازمًا: فتمامُ الإيمان به إثباتُ:

- [أ] الاسمِ.
- [ب] الصِّفةِ الَّتي تضمَّنها.

مثل: (**الحيِّ**)، تثبت الاسمَ وهو الحيُّ، والصِّفةَ وهي الحياةُ.

وعلىٰ هذا فكلُّ اسمٍ مُتضمِّنٌ لصفةٍ، ولا عكسَ.



صِفَاتُ اللهِ تَعَالَى باعْتِبَارِ الثُّبُوتِ وَعَدَمِه

تنقسم إلى:

[١] **ثبوتيَّةٍ:** وهي الَّتي أثبتها الله لنفسه؛ كالحياة، والعلم.

[٢] **سَلبيَّةٍ:** وهي الَّتي نفاها الله عن نفسه؛ كالإعياء، والظُّلم.

الصِّفة السَّلبيَّة يجب فيها:

[١] الإيمان بما دلَّت عليه من نفيٍ.

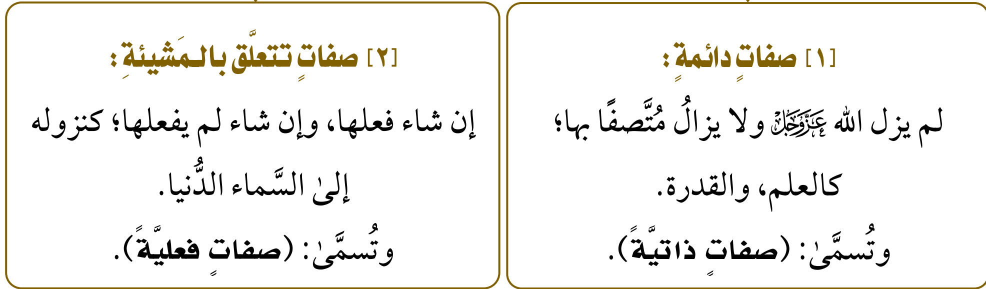
[٢] وإثبات ضدِّه.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف]، يجب الإيمان بانتفاء الظُّلم عن الله، وثبوت ضدِّه وهو العدل الَّذي لا ظُلمَ فيه.



صِفَاتُ اللَّهِ باعْتِبَارِ الدَّوَامِ وَالْحُدُوثِ

تنقسمُ الصِّفاتُ إلى:



[١] **صفاتٍ دائمة:**

لم يزل الله عَزَّوَجَلَّ ولا يزالُ مُتَّصفًا بها؛ كالعلم، والقدرة.

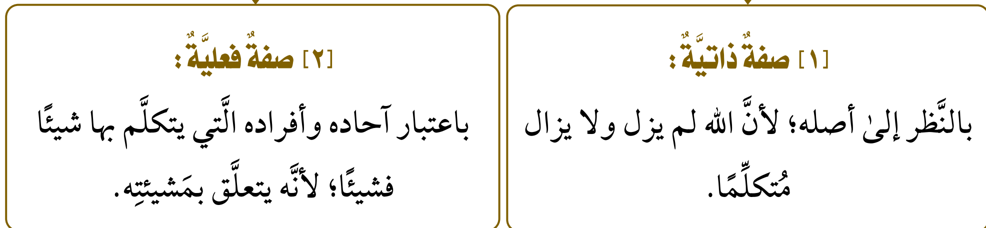
وتُسمَّىٰ: (**صفاتٍ ذاتيَّةً**).

[٢] **صفاتٍ تتعلَّق بالمَشيئةِ:**

إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها؛ كنزوله إلىٰ السَّماء الدُّنيا.

وتُسمَّىٰ: (**صفاتٍ فعليَّةً**).

وربَّما تكون الصِّفةُ ذاتيَّةً وفعليَّةً معًا؛ كالكلام فإنَّه:



[١] **صفةٌ ذاتيَّةٌ:**

بالنَّظر إلىٰ أصله؛ لأنَّ الله لم يزل ولا يزال مُتكلِّمًا.

[٢] **صفةٌ فعليَّةٌ:**

باعتبار آحاده وأفراده الَّتي يتكلَّم بها شيئًا فشيئًا؛ لأنَّه يتعلَّق بمَشيئتِه.



الإلْحادُ في الأَسْماءِ والصِّفات

تعريفُه:

[١] **لغةً:** الميل.

[٢] **اصطلاحًا:** (الميل عمَّا يجب اعتقادُه أو عملُه).

يكون الإلحادُ في:

[١] **أسماء الله:**
لقوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾[الأعراف:١٨٠].

[٢] **وآياته:**
لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾[فصِّلت:٤٠].

أنواعُ الإلحادِ في أسماءِ الله:

[١] أن يُنكر شيئًا منها، أو ممَّا تضمَّنته من الصِّفات؛ كما فعل الجَهميَّة.

[٢] أن يُسمِّي الله بما لم يُسمِّ به نفسَه؛ كما سمَّاه النَّصارىٰ أبًا.

[٣] أن يَعتقد دَلالتَها علىٰ مُماثلة الله لخلقه؛ كما فعل المُشبِّهة.

[٤] أن يشتقَّ منها أسماء للأصنام؛ كاشتقاق المُشركين العُزَّىٰ من العزيز.

أنواعُ الإلحادِ في آياتِ الله:

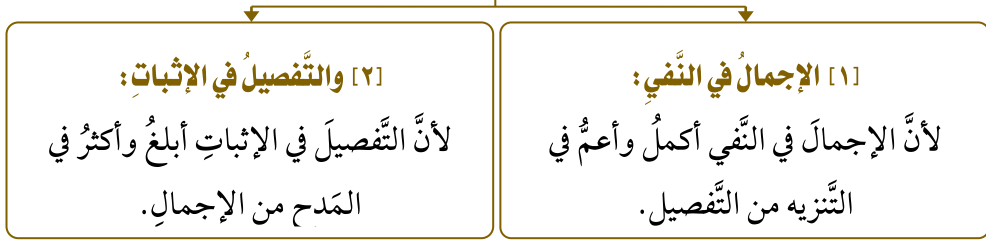
[١] **الكونيَّة (المَخلوقاتُ):** وهو إنكارُ انفراد الله بها، بأن يعتقد أنَّ أحدًا انفرد بها أو ببعضها دونَه، وأنَّ معه مُشاركًا في الخلق أو مُعِينًا.

[٢] **الشَّرعيَّة (الوحيُ النَّازل على الأنبياء):** وهو تحريفُها، أو تكذيبُها، أو مُخالفتُها.

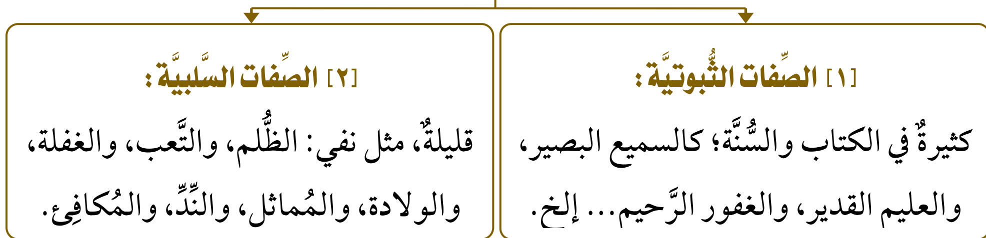


طَرِيقَةُ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي صِفَاتِ اللَّهِ [مِنْ حَيْثُ الإِجْمَالُ وَالتَّفْصِيلُ]

طريقتُهما غالبًا:



هل الصِّفات الثُّبوتيَّة أكثر في القرآن والسُّنَّة أم السَّلبيَّة؟





سُورَةُ الإِخْلاص

هي: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الاخلاص].

لماذا سُمِّيت سورةَ الإخلاصِ؟

[١] لأنَّ الله أخلصَها لنفسه، فلم يذكر فيها إلَّا ما يتعلَّق بأسمائِه وصفاتِه.

[٢] لأنَّها تُخلِّصُ قارئها من الشِّركِ والتَّعطيل.

سبب نُزولِها:

أنَّ المشركين قالوا للنَّبيِّ ﷺ: انسُب لنا ربَّك من أيِّ شيءٍ هو! أخرجه أحمد والتِّرمذيُّ.

صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّها «تَعدِلُ ثُلُثَ القُرْآنَ»؛ وذلك لأنَّ القرآنَ يتضمَّنُ:

[١] الإخبارَ عن الله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] والإخبارَ عن مَخلوقاتِه.

[٣] والأحكامَ -وهي: الأوامرُ والنَّواهي-.

وسورة الإخلاص تضمَّنت النَّوعَ الأوَّل وهو الإخبار عن الله عَزَّوَجَلَّ.

ما تضمَّنته سورةُ الإخلاصِ من أسماءِ اللَّه عَزَّوَجَلَّ:

[١] **اللَّه**: المَألوهُ المَعبودُ حُبًّا وتعظيمًا.

[٢] **الأحد**: المُنفرِدُ عن كلِّ شريكٍ ومُماثِلٍ.

[٣] **الصَّمد**: الكاملُ في صِفاتِه، الَّذي افتقرت إليه جميعُ مَخلوقاتِه.



ما تضمَّنته سورة الإخلاص من صِّفات الله عَزَّوَجَلَّ:

[١] الألوهيَّة.	[٢] الأحديَّة.	[٣] الصَّمديَّة.	[٤] نفي الولد منه؛ لأنَّه غنيٌّ عن الولد، ولا مثيل له.	[٥] نفي أن يكون مولودًا؛ لأنَّه خالق كلِّ شيءٍ، وهو الأوَّل الَّذي ليس قبله شيءٌ.	[٦] نفي المُكافئ له، وهو المُماثل له في الصِّفات؛ لأنَّ الله ليس كمثله شيءٌ لكمال صفاتِه.



آية الكُرسيِّ

هي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾[البقرة].

لماذا سُمِّيت آية الكُرسيِّ؟

لذكر الكُرسِيِّ فيها (ولم يُذكَر في غيرِها من آيِ القرآنِ).

مِن فَضلِـــــها:

[١] أنَّها أعظم آيةٍ في كتاب الله؛ لحديث أُبيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مُسلم.

[٢] أنَّ من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظٌ، ولا يقربه شيطانٌ حتَّىٰ يُصبح. أخرجه البخاريُّ.

ما تضمَّنته آية الكُرسِيِّ من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ:

[١] **الله**: تقدَّم معناه.

[٢] **الحيُّ**: ذو الحياةِ الكاملةِ، المُتضمِّنةِ لأكملِ الصِّفاتِ الَّتي لم تُسبَق بعدمٍ، ولا يَلحَقُها زَوالٌ.

[٣] **القَيُّومُ**: القائمُ بنفسِه القائمُ علىٰ غيره، فهو غنيٌّ عن كلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ مُحتاجٌ إليه.

[٤] **العَلِيُّ**: العالي بذاته فوق كلِّ شيءٍ، العالي بصفاته كمالًا، فلا يَلحَقُه عيبٌ ولا نقصٌ.

[٥] **العَظيمُ**: ذو العظمة، وهي: الجلالُ، والكِبرياءُ.



ما تضمَّنته آية الكُرسيِّ من صفات الله عَزَّوَجَلَّ:

[١] انفرادُ الله بالأُلوهيَّة.

[٢] المَشيئةُ.

[٣] انفرادُه بالمُلك الشَّامل لكُلِّ شيءٍ: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

[٤] كمالُ قُدرَته بعِظَمِ مَخلوقاتِه: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾.

[٥] كمالُ عَظمَتِه وسُلطانِه، حيث لا يشفعُ أحدٌ عنده إلَّا بإذنِه.

[٦] نفيُ النَّومِ والسِّنَةِ -وهي: النُّعاس- عنه؛ لكمالِ حياتِه وقَيُّومِيَّتِه.

[٧] كمالُ عِلمِه، وشُمولُه لكلِّ شيءٍ: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ وهو الحاضر والمُستقبل، ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ وهو الماضي.

[٨] كمالُ عِلمِه، وقُدرَتِه، وحِفظِه، ورَحمَتِه؛ من قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾، أي: لا يُثقِلُه ولا يُعجِزُه.

الكُرسيُّ وعِظَمُه:

الكُرسِيُّ مَوضِعُ قَدَمي الرَّحمن سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وهو مِن أعظم المَخلوقاتِ؛ كما جاء في الحديث: «**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلَقَةِ**».

وهذا يدلُّ على عظمة الخالقِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

والكُرسِيُّ غيرُ العرشِ؛ لأنَّ الكُرسِيَّ مَوضِعُ القدمين، والعرش هو الَّذي استوى عليه اللهُ، ولأنَّ النُّصوصَ دلَّت على المُغايَرَةِ بينهما.



الأوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾[الحديد].

هذه الأسماءُ الأربعةُ فسَّرَها النَّبيُّ ﷺ كما في «صحيح مسلم»:

[١] الأوَّلُ: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ».

[٢] الآخِرُ: «وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ».

[٣] الظَّاهِرُ: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ».

[٤] الباطِنُ: «وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ».

معنى قوله ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**:**

أي: محيطٌ عِلمُه بكُلِّ شيءٍ جملةً وتفصيلًا.



عِلْمُ اللَّه عَزَّوَجَلَّ

معنى العلم:

[١] **لغةً:** (إدراكُ الشَّيء علىٰ حقيقتِه).

[٢] **علم اللّٰه تعالىٰ:** كاملٌ، محيطٌ بكلِّ شيءٍ:

[أ] جملةً.

[ب] وتفصيلًا.

الأدلَّة من القرآن على العلم:

[١] **الجمليّ:** قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦﴾ [النِّساء].

[٢] **التَّفصيليّ:** قولُه تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾[الأنعام].

ومن أدلَّة علم الله بأحوال خلقه قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ٢٨٣﴾[البقرة]، وقولُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود].

مَفاتِحُ الغَيبِ: خَزائنُه أو مَفاتيحُه، وهي:

[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

[٢] ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾.

[٣] ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾.

[٤] ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾.

[٥] ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾[لقمان]، **والخَبيرُ** هو: (العليمُ ببَواطِنِ الأُمورِ).



قُدْرَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وقُوَّتُه

مَعنى القُدرةِ والقُوَّةِ لُغةً:

[١] القُدرةُ:

هي التَّمكُّن من الفعلِ بلا عجزٍ.

[٢] القُوَّةُ:

هي التَّمكُّن من الفعلِ بلا ضعفٍ.

قُدرةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ شاملةٌ كلَّ شيءٍ:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢٨٤﴾[البقرة].

قُوَّةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ شاملةٌ كلَّ شيءٍ:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾[الذَّاريات]، واسم الله (المَتينُ) معناه: (الشَّديدُ القُوَّة).

الفرقُ بينَ القُدرةِ والقُوَّة:

[١] أنَّ القوَّةَ أخصُّ من القُدرةِ من وجهٍ:

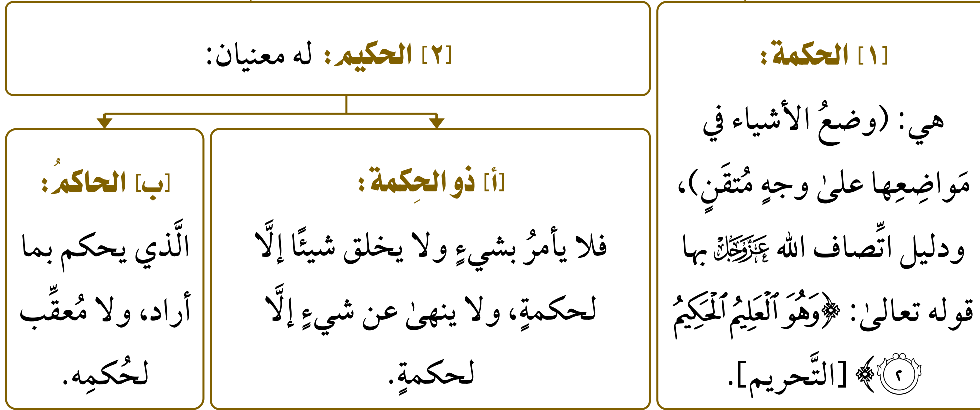
القُوَّة بالنِّسبة للقادر ذي الشُّعور أخصُّ؛ لأنَّها قُدرَةٌ وزيادةٌ.

[٢] وأعمُّ منها من وجهٍ:

بالنِّسبة لعموم مكانها؛ لأنَّها يوصف بها ذو الشُّعور وغيرُه، فيُقال للحديد مثلًا: قويٌّ، ولا يُقال له: قادرٌ.



الحِكمةُ والحَكيمُ



معنى كلٍّ منهما:

[١] **الحكمة:**
هي: (وضعُ الأشياء في مَواضِعِها علىٰ وجهٍ مُتقَنٍ)، ودليل اتِّصاف الله عَزَّوَجَلَّ بها قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ [التَّحريم].

[٢] **الحكيم:** له معنيان:

[أ] **ذو الحِكمة:**
فلا يأمرُ بشيءٍ ولا يخلق شيئًا إلَّا لحكمةٍ، ولا ينهىٰ عن شيءٍ إلَّا لحكمةٍ.

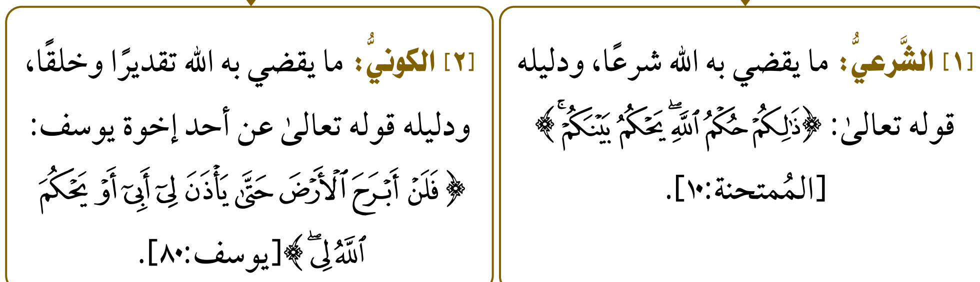
[ب] **الحاكمُ:**
الَّذي يحكم بما أراد، ولا مُعقِّب لحُكمِه.



أنواعُ حِكمةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ:

[١] **الشَّرعيَّة:**
مَحِلُّها الشَّرعُ، وهو ما جاءت به الرُّسل من الوحي؛ فكلُّه في غاية الإتقانِ والمَصلحةِ.

[٢] **الكونيَّة:**
مَحِلُّها الكونُ، أي: مخلوقات الله، فكلُّ ما خلقه الله فهو في غاية الإتقانِ والمَصلحةِ.



أنواعُ حُكمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ:

[١] **الشَّرعيُّ:** ما يقضي به الله شرعًا، ودليله قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ [المُمتحنة:١٠].

[٢] **الكونيُّ:** ما يقضي به الله تقديرًا وخلقًا، ودليله قوله تعالىٰ عن أحد إخوة يوسف: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ [يوسف:٨٠].



الرِّزق

الرِّزقُ:

[١] تعريفُه:

(إعطاءُ المَرزوقِ ما ينفعُه).

[٢] دليلُه:

قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾[الذَّاريات: ٥٨]، وقولُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود:٦].

الرِّزقُ نوعان:

[١] عامٌّ:

ما يقوم به البدن من طعامٍ وغيره، وهو شاملٌ لكلِّ مَخلوقٍ.

[٢] خاصٌّ:

ما يصلُحُ به القلبُ من الإيمان، والعلم، والعمل الصَّالح.



مَشِيئَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَإِرَادَتُهُ

مَشِيئَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ هي إرادتُه الكونيَّةُ، وهي عامَّةٌ في:

[١] أفعال الله عَزَّوَجَلَّ:

لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[السَّجدة:١٣].

[٢] أفعال العباد:

لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾[الأنعام:١٣٧].

إرادَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ صفةٌ من صفاتِه، وتنقسمُ إلى:

[١] إرادةٍ كونيَّةٍ:

وهي الَّتي بمعنىٰ المَشيئة.

ودليلُها قولُه تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

[٢] إرادةٍ شرعيَّةٍ:

وهي الَّتي بمعنىٰ المَحبَّةِ.

ودليلها قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[النِّساء: ٢٧].

الفرقُ بين إرادَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الكونيَّةِ وإرادتِه الشَّرعيَّة:

[١] الكونيَّةُ:

لابدَّ فيها من وُقوعِ المُرادِ.

وقد يكون المُرادُ فيها مَحبوبًا إلىٰ الله، وقد يكون غير مَحبوبٍ.

[٢] الشَّرعيَّةُ:

لا يلزم فيها وُقوعُ المُرادِ.

ولا يكون المُرادُ فيها إلَّا مَحبوبًا لله.



الْمَحبَّةُ والْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ

من صفات الله عَزَّوَجَلَّ: (الـمَحبَّة)؛ لقولِه تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، ولا يجوز تفسير المَحبَّة بالثَّوابِ؛ لأنَّه مُخالفٌ لظاهر اللَّفظ وإجماع السَّلف، وليس عليه دليلٌ.

ومن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: (الْوَدُودُ)؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾[البروج]، والوُدُّ: (خالصُ المَحبَّة).

قالَ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾[النِّساء:٩٦]، فيها صِفتَان:

[١] **المغفرة:** هي: (سَترُ الذَّنب والتَّجاوُزُ عنه).

[٢] **الرَّحمة:** وهي صفةٌ تقتضي الإحسان والإنعام، وتنقسم إلىٰ:

[أ] **عامَّةٍ:** وهي الشَّاملة لكلِّ أحدٍ، ودليلُها قولُه تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٥٦]، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر:٧].

[ب] **خاصَّةٍ:** وهي الَّتي تختصُّ بالمُؤمنين، ودليلُها قولُه تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب].

ولا يصحُّ تفسير الرَّحمة بالإحسان؛ لأنَّه مُخالفٌ لظاهر اللَّفظ وإجماع السَّلف، ولا دليل عليه.



الرِّضَا وَالْغَضَبُ وَالكَرَاهَةُ وَالْمَقْتُ وَالأَسَفُ [وَالانْتِقَامُ]

من صفات اللَّه عَزَّوَجَلَّ:

[١] الرِّضا: مُقتَضاها: مَحبَّة المَرضِيِّ عنه، والإحسان إليه، ودليلُها: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة:١١٩].

[٢] الغضب: مُقتَضاها: كراهةُ المَغضوبِ عليه، والانتقامُ منه، ودليلُها: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النِّساء:٩٣].

[٣] السُّخط: معناها قريبٌ من صفة الغضب، ودليلُها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ [محمَّد:٢٨].

[٤] الكراهة: من صفات الله الفعليَّة، مُقتَضاها: إبعادُ المَكروه، ومُعاداتُه، والدَّليل عليها: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ [التَّوبة:٤٦].

[٥] المقت: وهو أشدُّ البُغض، والبُغضُ قريبٌ من معنىٰ الكراهية، ودليل المقت: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصَّفّ].

ومن صِفات اللَّه عَزَّوَجَلَّ الأسفُ، وله في اللُّغة مَعنيان:

[١] الغضب: وهذا جائزٌ علىٰ الله، والدَّليل قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزُّخرُف:٥٥]، أي: أغضبونا.

[٢] الحُزن: وهذا لا يجوز علىٰ الله، ولا يصحُّ أن يُوصَف به؛ لأنَّ الحُزن صفة نقصٍ، والله عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عن النَّقص.

ولا يجوز تفسير الرِّضا بالثَّواب، والغضبِ بالانتقام، والكَراهةِ والمَقتِ بالعُقوبةِ؛ لأنَّه مُخالفٌ لظاهر اللَّفظ وإجماع السَّلف، وليس عليه دليلٌ.



الْمَجِيءُ وَالإِتْيَانُ

من صِفات الله عَزَّوَجَلَّ الفعليَّة الثَّابتة له على الوجه اللائق به:

[١] **الْمَجِيءُ:** لقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾[الفجر].

[٢] **الإِتْيَانُ:** لقوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[البقرة:٢١٠].

ولا يصحُّ تفسير هاتين الصِّفتين بمَجيءِ أو إتيانِ أمرِه عَزَّوَجَلَّ، لأنَّه مُخالفٌ لظاهر اللَّفظ وإجماع السَّلف، ولا دليل عليه.

والمُراد بقوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾[الأنعام:١٥٨] = طُلوعُ الشَّمس من مَغربِها الَّذي به تنقطع التَّوبة؛ كما جاء تفسيره بذلك مَرفوعًا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ. أخرجه أحمد والتِّرمذيُّ.

ما وجه ذكر المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أدلَّة مَجيء الله عَزَّوَجَلَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥﴾[الفرقان]، مع أنَّه ليس في الآية ذكرُ المَجيء؟

وجه ذلك أنَّ تشقُّقَ السَّماء بالغمام وتنزيلَ المَلائكة إنَّما يكونان عند مَجيءِ الله عَزَّوَجَلَّ للقضاء بين عباده؛ فيكون من باب الاستدلال بأحد الأمرين علىٰ الآخر لما بينهما من التَّلازُم.



بعض الصِّفات الذَّاتيَّة

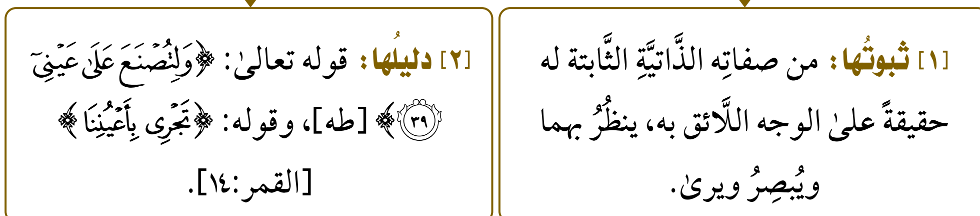
من صِفات الله عَزَّوَجَلَّ الوجهُ:



ومن صِفات الله عَزَّوَجَلَّ اليدان:



ومن صِفات الله عَزَّوَجَلَّ العينان:





ولا يجوز تفسيرُ العينين بالعلم ولا بالرُّؤية مع نفي العين؛ لأنَّه مُخالِفٌ لظاهر اللَّفظ وإجماع السَّلف علىٰ ثبوتِ العين لله، ولا دليل عليه.

والجواب عن تفسير بعض السَّلف قوله تعالىٰ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[القمر:١٤] أي: بمرأىً منَّا = أنَّهم لم يُريدوا بذلك نفي حقيقة مَعنىٰ العينِ، وإنَّما فسَّروها باللَّازم مع إثباتِهم العينَ، وهذا لا بأس به، بخلاف الَّذين يُفسِّرون العين بالرُّؤية ويُنكرون حقيقة العين.

الوجوه الَّتي وردت عليها صفتا اليدين والعينين ثلاثةٌ:

[١] الإفرادُ:

- ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١].
- ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ٣٩﴾ [طه].

[٢] التَّثنيةُ:

- ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].
- «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَإِنَّهُ بَيْنَ عَيْنَيِ الرَّحْمَنِ». أخرجه ابن نصرٍ والأصبهانيُّ.

[٣] الجمعُ:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس:٧١].
- ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤].

والجمع بين هذه الوجوه:

- أنَّه لا مُنافاة بين الإفراد والتَّثنية؛ لأنَّ المُفرد المُضاف يَعُمُّ، فإذا قيل: (يد الله وعين الله) شمل كلَّ ما ثبت له من يدٍ أو عينٍ.
- وأمَّا التَّثنية والجمع فلا مُنافاة بينهما أيضًا؛ لأنَّ المَقصود بالجمع هنا التَّعظيم، وهو لا يُنافي التَّثنية.



السَّمع

صفة السَّمع لله عَزَّوَجَلَّ:

[١] **ثبوتُها:** من الصِّفات الثَّابتة لله عَزَّوَجَلَّ حقيقةً على الوجه اللَّائق به.

[٢] **دليلُها:** قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾[البقرة].

لسمع الله عَزَّوَجَلَّ معنيان:

[١] **الإجابة:** من الصِّفات الفعليَّة، ومثالُه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾[إبراهيم:٣٩].

[٢] **إدراك المَسموع:** من الصِّفات الذاتيَّة، مثاله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾[المجادلة:١]، وقد يُراد به:

[أ] **النَّصر والتَّأييد:** كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾[طه].

[ب] **التَّهديد:** كقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾[آل عمران:١٨١]، وقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾[الزُّخرف:٨٠].



الرُّؤْيَةُ

الرُّؤية صفةٌ ثابتةٌ لله عَزَّوَجَلَّ حقيقةً على الوجه اللائق به، ولها مَعنيان:

[١] **البصر:** وهو: (إدراكُ المَرئيَّاتِ والمُبصَراتِ)، ودليلها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾[طه]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشُّورىٰ]، وقد يُرادُ به:

[أ] **النَّصر والتَّأييد:** مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾[طه].

[ب] **التَّهديد:** كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾[العلق].

[٢] **العلم:** ودليلها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾ [المعارج]، أي: نَعلَمُه.

العَفُوُّ

اسم الله العَفُوُّ:

[١] **مَعناه:** هو: (المُتجاوِزُ عن سيِّئاتِ الغيرِ).

[٢] **دليلُه:** قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٩٩﴾ [النِّساء].



الْمَكْرُ وَالْكَيْدُ وَالْمِحَالُ

معنىٰ هذه الكلمات مُتقاربٌ، وهو: (التَّوصُّل بالأسباب الخفيَّة إلىٰ الانتقام من العَدُوِّ).

حكمُ إطلاقِها على الله عَزَّوَجَلَّ:

[١] **عند الإطلاق:** لا يجوز وصف الله بها وصفًا مُطلقًا؛ لأنَّها تحتمل المَدح والذَّمَّ، والله سبحانه مُنزَّهٌ عن الوصف بما يحتمل الذَّمَّ.

[٢] **عند التَّقييد:** يجوز وصفُه عَزَّوَجَلَّ بها مُقيَّدةً، فيوصَفُ الله بها علىٰ وجهٍ تكون مدحًا لا يحتمل الذَّمَّ دالًّا علىٰ علمِه، وقُدرتِه، وقُوَّتِه، فهذا جائزٌ؛ لأنَّه يدلُّ علىٰ كمال الله عَزَّوَجَلَّ.

دليلُ هذه الصِّفات:

[١] **الـمَكرُ:** ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال].

[٢] **الكَيدُ:** ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ [الطَّارق].

[٣] **الـمحالُ:** ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾ [الرَّعد].

الـمَكرُ والكَيدُ والـمِحالُ صفاتٌ:

[١] **مدحٍ:** إذا كانت لإثبات الحقِّ، وإبطال الباطل.

[٢] **ذمٍّ:** فيما عدا ذلك.

ولا يجوز أن يُشتَقَّ من هذه الصِّفات أسماءُ لله فيُقال: الماكر، والكائد؛ لأنَّ أسماء الله الحُسنىٰ لا تحتمل الذَّمَّ بأيِّ وجهٍ، وهذه عند إطلاقِها تحتمل الذَّمَّ كما سبق.



مِنْ نُصوص الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّة

ذكر المُؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ آياتٍ كثيرةً في الصِّفات السَّلبيَّة، منها ما نذكره هنا:

نفى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن نفسِه:

[١] السَّمِيَّ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم].

[٢] الكُفْءَ: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾[الإخلاص].

[٣] النِّدَّ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة:٢٢].

معنىٰ هذه الألفاظ الثَّلاثةِ مُتقاربٌ، وهو: (الشَّبيه والنَّظير)، ونفيُ ذلك عن الله يتضمَّن: انتفاءَ ما ذُكر، وإثباتَ كمالِه؛ حيثُ لا يُشابِهُه أحدٌ لكمالِه.

نفيُ الولدِ والشَّريكِ والوَلِيِّ عن الله عَزَّ وَجَلَّ:

قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ [الإسراء]، فأمر اللهُ بحمدِه لانتفاءِ صفاتِ النَّقصِ عنه، وهي:

[١] الولدُ: ونفيُه عن الله عَزَّ وَجَلَّ يتضمَّن مع انتفائِه كمالَ غِناهُ.

[٢] الشَّريك: ويتضمَّنُ كمالَ وَحدانيَّتِه وقُدرَتِه.

[٣] الوليُّ من الذُّلِّ: ويتضمَّنُ كمالَ عِزِّه وقَهرِه.

تنبيهٌ: نفي الوليِّ هنا لا ينافي إثباتَه في مَوضعٍ آخرَ؛ كقولِه تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البقرة:٢٥٧]، وقولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾[يونس]؛ لأنَّ المَنفيَّ هو الَّذي سببُه الذُّلُّ، أمَّا الوليُّ بمعنىٰ الوَلايَةِ فليس بمَنفِيٍّ.



الأمرُ بتسبيحِ الله عَزَّوَجَلَّ وتنزيهِه عن كلِّ نقصٍ:

قاله تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[الجمعة:١]، والتَّسبيحُ: (تنزيهُ الله عن النَّقص والعيب)، وذلك يتضمَّن كمال صِفاتِه.

وفي الآية دليلٌ علىٰ أنَّ كلَّ شيءٍ يُسبِّح الله تسبيحًا حقيقيًّا بلسانِ الحالِ والمَقالِ؛ إلَّا الكافرَ، فإنَّ تسبيحَه بلسانِ الحالِ فقط؛ لأنَّه يصفُ الله بلسانِه بما لا يليقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

نفيُ الولدِ وتعدُّدِ الآلهة والأمر بتنزيه الله:

قال تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾[المؤمنون]، ففي هذه الآية:

[١] **نفيُ اتِّخاذِ الولدِ.**

[٢] **نفيُ تعدُّدِ الآلهةِ.**

[٣] **تنزيهُ اللَّه:** عمَّا وصفه به المُشركون.

وهذا يتضمَّن مع انتفاءِ ما ذُكِرَ: كمالَ الله، وانفرادَه بما هو من خصائصِه.

برهنَ اللهُ على امتناعِ تعدُّدِ الآلهةِ ببُرهانَين عقليَّين:

[١] لو كان معه إلهٌ لانفرَدَ عن الله بما خلق، ومن المَعلوم عقلًا وحِسًّا أنَّ نظامَ العالَم واحدٌ، لا يتصادَمُ ولا يتناقَضُ، وهو دليلٌ علىٰ أنَّ مُدبِّرَه واحدٌ.

[٢] لو كان مع الله إلهٌ آخرُ لطلبَ أن يكون العُلُوُّ له، وحينئذٍ: إمَّا أن يغلب أحدهما الآخر فيكون هو الإله، وإمَّا أن يعجز كلُّ منهما عن الآخر فلا يستحقَّ واحدٌ منهما أن يكون إلهًا؛ لأنَّه عاجزٌ.



تحريم الفواحش:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

وهذه المُحرَّماتُ الخمسُ أجمعت عليها الشَّرائع.

وفي تحريم الله عَزَّوَجَلَّ لهذه المُحرَّمات الخمس إثبات صفتين لله عَزَّوَجَلَّ:

[١] **الحكمة.**

[٢] **الغيرة.**

ومعنىٰ قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: ما لم يُنزِّل به دليلًا، وهو قيدٌ لبيان الواقع؛ لأنَّه لا يمكن أن يقوم الدَّليل علىٰ الإشراك باللهِ، وعلىٰ هذا فلا مَفهومَ له.

وفي هذه الآية ردٌّ علىٰ:

[١] **المُشبِّهة:**

في قوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ لأنَّ المُشبِّهة أشركوا به حيث شبَّهوه بخلقِه.

[٢] **المُعطِّلة:**

في قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ المُعطِّلة قالوا علىٰ الله ما لا يعلمون، حيث نَفَوا صفاتِه عنه بحُجَج باطلةٍ.

وهذا هو وجهُ مُناسبةِ ذِكرِ هذه الآيةِ في العقيدةِ.



العُلُوُّ وأقسامُه

العُلُوُّ هو الارتفاع، وأقسامُ عُلُوِّ الله تعالى ثلاثةٌ:

[١] **عُلُوُّ الذَّات:** ومَعناهُ أنَّ الله بذاتِه فوقَ خلقِه.

[٢] **عُلُوُّ القَدْرِ:** ومَعناهُ أنَّ الله ذو قدرٍ عظيمٍ، لا يُساويه فيه أحدٌ من خَلقِه، ولا يعتريه معه نقصٌ.

[٣] **عُلُوُّ القَهْرِ:** ومَعناهُ أنَّ الله تعالىٰ قهَرَ جميع المَخلوقاتِ، فلا يَخرُجُ أحدٌ منهم عن سُلطانِه وقَهرِه.

أدلَّة عُلُوِّ الله عَزَّ وَجَلَّ:

[١] **الكتاب:** قولُه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

[٢] **السُّنَّة:** قولُه ﷺ: «**رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّماءِ**». أخرجه أحمد وأبو داود. وإقرارُه الجارية حين سألها: «**أَيْنَ اللهُ؟**»، قالت: في السَّماء، فلم يُنكِر عليها، بل قال لسيِّدها: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**». أخرجه مسلمٌ. وفي حجَّة الوداع أشهدَ النَّبيُّ ﷺ ربَّه علىٰ إقرار أمَّته بالبَلاغ، وجعل يرفع إصبعه إلىٰ السَّماء ثمَّ ينكُتُها إلىٰ النَّاس وهو يقول: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**». مُتَّفَقٌ عليه.

[٣] **الإجماع:** فهو مَعلومٌ بين السَّلف، ولم يُعلَم أنَّ أحدًا منهم قال بخلافِه.

[٤] **العقل:** لأنَّ العُلُوَّ صفةُ كمالٍ، واللهُ سبحانه مُتَّصِفٌ بكلِّ كمالٍ، فوجب ثبوتُ العُلُوِّ له.

[٥] **الفطرة:** فإنَّ كلَّ إنسانٍ مَفطورٌ علىٰ الإيمان بعُلُوِّ الله، ولذلك إذا دعا ربَّه وقال: يا ربِّ؛ لم ينصرف قلبُه إلَّا إلىٰ السَّماء.

والَّذي أنكرَه الجهميَّةُ من أقسام العُلُوِّ عُلُوُّ الذَّات، ونرُدُّ عليهم بما سبقَ في الأدلَّة.



اسْتِوَاءُ اللَّهِ عَلَى عَرْشِهِ

الاستواء:

[١] مَعناهُ:

عُلُوُّه واستقرارُه عليه، وقد جاء عن السَّلف تفسيرُه بـ: العُلُوِّ، والاستقرارِ، والصُّعودِ، والارتفاعِ، والصُّعودُ والارتفاعُ يرجعان إلىٰ مَعنىٰ العُلُوِّ.

[٢] دليلُه:

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقد ذُكِرَ في سبعة مَواضِعَ من القرآنِ، في: سورة الأعراف، ويونس، والرَّعد، وطه، والفرقان، وتنزيل السَّجدة، والحديد.

يُرَدُّ على من فسَّرَ الاستِواءَ بالاستيلاءِ والـمُلكِ بأمورٍ:

[١] أنَّه خلافُ ظاهر النَّصِّ.

[٢] أنَّه خلافُ ما فسَّرَه به السَّلفُ.

[٣] أنَّه يلزم عليه لوازمُ باطلةٌ.

العرشُ:

[١] **لغةً:** سريرُ المُلكِ الخاصُّ به.

[٢] **شرعًا:** ما استوىٰ اللهُ عليه.

وهو من أعظم مَخلوقاتِ الله، بل أعظم ما علمنا منها، فقد جاء عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَلَقَةِ**». أخرجه ابن حبَّان. فتبارك الله ربُّ العالمينَ.



الْمَعِيَّةُ وَالْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعُلُوِّ

الـمَعيَّة:

[١] مَعناها لغةً:

المُقارنَةُ والمُصاحبةُ.

[٢] دليل ثُبوتِها لله عَزَّوَجَلَّ:

قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤].

تنقسم المعيَّة إلى قسمين:

[١] عامَّةٍ:

هي: الشَّاملة لجميع الخلق؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

ومُقتَضاها: الإحاطةُ بالخلقِ علمًا، وقُدرةً، وسُلطانًا، وتدبيرًا.

[٢] وخاصَّةٍ:

هي: الَّتي تختصُّ بالرُّسل وأتباعهم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التَّوبة:٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾[النَّحل].

ومُقتَضاها مع الإحاطةِ: النَّصرُ، والتَّأييدُ.

الجمعُ بين الـمَعِيَّةِ والعُلُوِّ من وجهين:

[١] أنَّه لا مُنافاةَ بينهما في الواقعِ، فقد يجتمعان في شيءٍ واحدس، ولذلك تقول: (ما زلنا نسيرُ والقمرُ معنا)؛ مع أنَّه في السَّماءِ.

[٢] أنَّه لو فُرِضَ أنَّ بينهما مُنافاةً في حقِّ المَخلوقِ لم يلزم أن يكون بينهما مُنافاةٌ في حقِّ الخالقِ؛ لأنَّه ليس كمثلِه شيءٌ، وهو بكلِّ شيءٍ مُحيطٌ.



لا يصحُّ تفسيرُ مَعِيَّةِ الله بكونِه معنا بذاتِه في الـمَكانِ؛ لأمورٍ:

[١] أنَّه مُستحيلٌ علىٰ الله، حيث يُنافي عُلُوَّه، وعُلُوُّه مِن صِفاتِه الذَّاتيَّةِ الَّتي لا ينفكُّ عنها.

[٢] أنَّه خلافُ ما فسَّرَها به السَّلفُ.

[٣] أنَّه يلزَمُ علىٰ هذا التَّفسيرِ لوازمُ باطلةٌ.

مَعْنَى كَوْنِ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ

يحتمل أنَّ (في) بمعنى:

[١] **على:** فتكون بمعنىٰ (علىٰ السَّماء) أي: فوقها؛ كما جاءت بهذا المعنىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام:١١]، أي: عليها.

[٢] **الظَّرفيَّة:** والسَّماء يُقصد بها:

[أ] **العُلُوّ:** فيكون المعنىٰ أنَّ اللهَ في العُلُوِّ، وقد جاءت السَّماء بمعنىٰ العُلُوِّ في قوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[الرَّعد:١٧].

[ب] **الأجرامُ الـمَحسوسةُ:** وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّه يوهم أنَّ السَّماء تحيطُ بالله، وهذا مَعنًىٰ باطلٌ؛ لأنَّ اللهَ أعظمُ من أن يُحيطَ به شيءٌ من مَخلوقاتِه.



قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي كَلَامِ اللهِ تَعَالَى

قولُهم: أنَّه صفةٌ من صفاته، لم يزل ولا يزال يتكلَّم بكلامٍ حقيقيٍّ، بصوتٍ لا يُشبه أصواتَ المَخلوقينَ، وحروفٍ، يتكلَّمُ بما شاءَ، ومتىٰ شاءَ، وكيف شاءَ.

أدلَّة أهل السُّنَّة على إثبات:

[١] **صفة الكلام:** كثيرةٌ، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النِّساء]. وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣].

[٢] **أنَّه بصوتٍ:** قولُه تعالىٰ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم]. وقولُه ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّي، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟**...». مُتَّفقٌ عليه.

[٣] **أنَّه بحروفٍ:** قولُه تعالىٰ: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]، فمَقولُ القولِ هنا حُروفٌ.

[٤] **أنَّ كلامه** عَزَّوَجَلَّ **بمشيئته:** قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فالتَّكليمُ حصل بعد مَجيءِ موسىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام.

كلامُ اللهِ تعالى:

[١] **صفةُ ذاتٍ:** باعتبار أصلِه، فإنَّ الله لم يزلْ ولا يزالُ قادرًا علىٰ الكلام مُتكلِّمًا.

[٢] **صفةُ فعلٍ:** باعتبار آحادِه؛ لأنَّ آحاد الكلام تتعلَّق بمَشيئتِه، متىٰ شاء تكلَّم.

أكثَرَ المُؤلِّفُ من ذِكر أدلَّةِ الكلام؛ لأنَّه أكثرُ ما حصلت فيه الخُصومةُ ووقعت به الفتنة.



قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

القرآنُ الكريمُ:

[١] كلامُ اللَّه:	[٢] مُنزَّلٌ:	[٣] غيرُ مَخلوقٍ:	[٤] منه بدأ:	[٥] وإليه يعود:
دليلُهم قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة:٦]، يعني: القرآنَ.	ودليلُهم قولُه تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]. وقولُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾ [الأنعام].	والدَّليلُ قولُه تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف:٥٤]، فجعل الأمرَ غيرَ الخلقِ، والقرآنُ من الأمرِ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشُّورىٰ:٥٢]، ولأنَّ القُرآنَ من كلامِ الله؛ وكلامُ اللهِ صفةٌ من صِفاتِه؛ وصِفاتُ اللهِ غيرُ مَخلوقةٍ.	ومَعناهُ: أنَّ اللهَ تكلَّم به ابتداءً.	ومَعناهُ: أنَّه يرجعُ إلىٰ اللهِ في آخرِ الزَّمانِ حينما يُرفَعُ من المَصاحفِ والصُّدورِ؛ تكريمًا له إذا اتَّخذه النَّاسُ هُزُوًا ولَهْوًا.



السُّنَّةُ - وَقَدْ وَرَدَ فِيهَا صِفَاتٌ لَيْسَتْ فِي الْقُرْآنِ

معنى السُّنَّة:

[١] **لغةً:** الطَّريقة.

[٢] **اصطلاحًا:** (شريعة النَّبيِّ ﷺ من: قوله، أو فعله، أو إقراره؛ خبرًا كانت أو طلبًا).

الواجبُ تجاه سنَّة النَّبيِّ ﷺ:

[١] **الواجب:** الإيمانُ بما جاء فيها واجبٌ؛ كالإيمان بما جاء في القرآن، سواءٌ في أسماء الله وصفاته، أو في غيرها.

[٢] **الدَّليل:** لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[الحشر:٧]، وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[النِّساء:٨٠].



صِفَةُ النُّزُول

نزولُ اللهِ إلى السَّماءِ الدُّنيا:

[١] دليلُه: قوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ؛ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟». مُتَّفقٌ عليه.

[٢] مَعناه عند أهل السُّنَّة: أنَّه ينزلُ بنفسِه سُبحانَه نُزولًا حقيقيًّا يليقُ بجَلالِه، ولا يَعلَمُ كيفيَّتَه إلَّا هو.

[٣] علاقتُه بالعُلُوِّ: نزولُه سُبحانَه إلىٰ السَّماء الدُّنيا لا يُنافي عُلُوَّه؛ لأنَّ الله سُبحانَه ليس كمثلِهِ شيءٌ، ولا يُقاسُ نُزولُه بنُزولِ مَخلوقاتِه.

ذهبَ أهلُ التَّأويلِ إلى أنَّه نزولُ أمرِه، ونردُّ عليهم بما يأتي:

[١] أنَّه خلافُ ظاهرِ النَّصِّ، وإجماعِ السَّلف.

[٢] أنَّ أمرَ اللهِ ينزلُ كلَّ وقتٍ، وليس خاصًّا بثُلثِ اللَّيلِ الآخرِ.

[٣] أنَّ الأمرَ لا يُمكنُ أن يقول: (مَن يدعوني فأستجيب له؟) إلخ.



الفَرَحُ والضَّحِك

الفرح صفةٌ لله عَزَّوَجَلَّ:

[١] **معناها:** فرحٌ حقيقيٌّ يليقُ بالله، ولا يصحُّ تفسيرُه بالثَّوابِ؛ لأنَّه مُخالفٌ لظاهر اللَّفظ، وإجماع السَّلف.

[٢] **دليلُها:** قوله ﷺ: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ...**». أخرجه مسلمٌ.

الضَّحك صفةٌ لله عَزَّوَجَلَّ:

[١] **معناها:** ضحكٌ حقيقيٌّ يليق بالله، وفسَّره أهلُ التَّأويل بالثَّواب، ونردُّ عليهم بأنَّه مُخالفٌ لظاهر اللَّفظ وإجماع السَّلف.

[٢] **دليلُها:** قوله ﷺ: «**يَضْحَكُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، كِلَاهُمَا يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ**». مُتَّفقٌ عليه.

صورة المسألة الَّتي في الحديث: أنَّ كافرًا يقتُلُ مُسلمًا في الجهادِ، ثمَّ يُسلِم ذلك الكافرُ، ويموتُ علىٰ الإسلام، فيَدخُلانِ الجنَّةَ كلاهما.



العَجَبُ


العَجَبُ صفةٌ لله عَزَّوَجَلَّ:
[١] معنى العَجَبِ في حقِّه عَزَّوَجَلَّ:
[أ] الـمُثبَتُ:
عجبٌ حقيقيٌّ يليقُ بالله، سببُه خروجُ الشَّيء عن نظائرِه، أو عمَّا ينبغي أن يكونَ عليه.
[ب] الـمَنفيُّ:
ما كان سببُه الجهلُ بسبَبِ المُتعجَّب منه؛ لأنَّ اللهَ لا يخفىٰ عليه شيءٌ.
[٢] دليلُه من الكتابِ:
قولُه تعالىٰ: ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ علىٰ قراءة ضمِّ التَّاء.
[٣] دليلُه من السُّنَّة:
قولُهُ ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ». أخرجه أحمد وابن ماجه.
وفسَّر أهلُ التَّأويل العَجَبَ بثوابِ الله أو عُقوبَتِه، ويُرَدُّ عليهم بأنَّه خلافُ ظاهرِ النَّصِّ وإجماعِ السَّلفِ.



القَدَمُ

القَدَمُ صفةٌ لله عَزَّوَجَلَّ:

[١] مَعناها:

فسَّر أهلُ السُّنَّة الرِّجْلَ والقَدَمَ بأنَّها حقيقيَّةٌ علىٰ الوجه اللَّائق بالله.

وفسَّر أهلُ التَّأويلِ الرِّجلَ بالطَّائفة -أي: الطَّائفةُ الَّذين يضعُهم اللهُ في النَّار-، والقدم بالمُقدَّمين إلىٰ النَّار.

ونردُّ عليهم بأنَّ تفسيرَهم مُخالِفٌ لظاهر اللَّفظ وإجماع السَّلف، وليس عليه دليلٌ.

[٢] دليلُها:

قولُه ﷺ: «**لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَىٰ فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ** -وفي روايةٍ: **عَلَيْهَا قَدَمَهُ**-؛ **فَيَنْزَوِيَ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ، قَطْ!**». مُتَّفَقٌ عليه.



حَدِيثَان فِي الصِّفَات

الحديث الأوَّل:

قال ﷺ: «رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجِعِ؛ فَيَبْرَأَ».

أخرجه أبو داود.

وفيه إثبات جملةٍ من صفات الله عَزَّوَجَلَّ:

[١] ربوبيَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] عُلُوُّه في السَّماءِ.

[٣] تَقَدُّسُ أسمائِه عن كلِّ نقصٍ.

[٤] الرَّحمة.

[٥] أنَّ له الأمر في السَّماءِ والأرضِ، فحكمُه فيهما نافِذٌ.

[٦] الشِّفاءُ، وهو رفعُ المَرضِ.

الحديث الثَّاني:

قَوْلُهُ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وفيه إثبات صفتين من صفات الله عَزَّوَجَلَّ:

[١] إثباتُ المكانِ لله.

[٢] أنَّه في السَّماء.



كَوْنُ اللَّهِ تَعَالَى قِبَلَ وَجْهِ الْمُصَلِّي

المُقابلةُ صفةٌ لله عَزَّوَجَلَّ:

[١] **إثباتها:** ثابتةٌ لله حقيقةً علىٰ الوجه اللَّائق به، ولا تُنافي عُلُوَّه.

[٢] **دليلُها:** قولُه ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ...**». مُتَّفقٌ عليه.

الجمعُ بين المُقابلة والعُلُوِّ من وجهين:

[١] أنَّ الاجتماعَ بينهما مُمكنٌ في حقِّ المَخلوق؛ كما لو كانت الشَّمسُ عند طُلوعِها، فإنَّها قِبَلَ وجهِ مَن استقبلَ المَشرِقَ، وهي في السَّماءِ، فإذا جاز اجتماعُها في المَخلوقِ فالخالقُ أَولىٰ.

[٢] أنَّه لو لم يُمكنِ اجتماعُها في حقِّ المَخلوقِ، فلا يَلزَمُ أن يمتنعَ في حقِّ الخالقِ؛ لأنَّ الله ليس كمثلِه شيءٌ.



القُرْبُ

قُربُ الله تعالى من عِباده:

[١] مَعناهُ:

هو دُنُوُّه منهم، وهو قُربٌ حقيقيٌّ يليق بالله تعالىٰ، ولا يُنافي عُلُوَّه؛ لأنَّه تعالىٰ بكلِّ شيءٍ مُحيطٌ، ولا يُقاسُ بخَلقِه؛ لأنَّه ليس كمثلِه شيءٌ.

[٢] دَليلُه من القرآنِ:

قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦].

[٣] دَليلُه من السُّنَّةِ:

قوله ﷺ: «**إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا**». مُتَّفقٌ عليه.



رُؤْيَةُ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

رُؤيةُ المُؤمنين لله عَزَّوَجَلَّ ثابتةٌ بـ:

[١] **الكتاب:** قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾[يونس:٢٦]، وقد فسَّر النَّبيُّ ﷺ الزِّيادة بالنَّظر إلىٰ وجهِ اللهِ. أخرجه مسلمٌ.

[٢] **السُّنَّة:** قوله ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**». مُتَّفقٌ عليه.

التَّشبيهُ في هذا الحديث للرُؤيَةِ بالرُّؤيَةِ، لا للمَرْئِيِّ بالمَرْئِيِّ؛ لأنَّ كافَ التَّشبيه داخلةٌ علىٰ فِعلِ الرُّؤيةِ المُؤوَّلِ بالمَصدرِ، ولأنَّ اللهَ ليس كمِثلِه شيءٌ.

والمُرادُ بالصَّلاتين المَذكورَتَين صلاتا الفَجرِ والعَصر.

رُؤيةُ اللَّه عَزَّوَجَلَّ خاصَّةٌ بـ:

[١] **بالآخرة:** ولا تكونُ في الدُّنيا؛ لقولِه تعالىٰ لمُوسىٰ حينَ سألَه رُؤيتَه ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾[الأعراف:١٤٣]، وقولِه ﷺ: «**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّىٰ تَمُوتُوا**». أخرجه ابن ماجه والحاكم.

[٢] **بالمُؤمنينَ:** ولا تشمَلُ الكُفَّارَ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين].



دَليلُ كَونِ الرُّؤيةِ بالعين:

[١] أنَّ اللهَ أضافَ النَّظر إلىٰ الوجهِ الَّذي هو مَحلُّ العين؛ فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾[القيامة].

[٢] أنَّه جاء في الحديث: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا**». أخرجه البُخاريُّ.

وفسَّره أهلُ التَّأويلِ برُؤيةِ الثَّواب، أي: إنَّكم سترون ثوابَ ربِّكم، ونرُدُّ عليهم بأنَّه خلافُ ظاهر اللَّفظ وإجماع السَّلف، وليس عليه دليلٌ.



مَذْهَبُ الْجَهمِيَّةِ وَالأَشْعَرِيَّةِ وَالْكلابيَّةِ فِي كَلَامِ الله

مَذاهب الفِرق الثَّلاث في كلامِ الله:

[١] **الجهميَّة:** أنَّه خلقٌ مِن مَخلوقاتِه، لا صفةٌ من صِفاتِه، وإنَّما أضافَهُ الله إليه تشريفًا وتكريمًا؛ كما أضاف إليه البيتَ والنَّاقة في قولِه: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾[الحج:٢٦]، وقولِه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٧٣].

[٢] **الأشعريَّة:** أنَّ الكلام صِفةٌ من صِفاتِه، لكنَّه هو المَعنىٰ القائمُ بالنَّفس، وهذه الحُروفُ مَخلوقةٌ لتُعَبِّر عنهُ.

[٣] **الكُلاَّبيَّة:** مثل قول الأشعريَّة، إلَّا أنَّهم سَمَّوُا الألفاظَ حكايةً لا عبارةً.

وعلىٰ مَذهبيهما: ليس كلامُ الله تعالىٰ بحَرفٍ وصوتٍ، وإنَّما هو المَعنىٰ القائمُ بنفسِه.



وَسَطِيَّةُ هَذِهِ الأُمَّةِ بينَ الأُمَمِ

هذه الأُمَّةُ وسطٌ بين الأُمَمِ:

ودليل ذلكَ قولُه تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَـٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾[البقرة:١٤٣]، وقولُه: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران:١١٠].

[١] مِثالُ وسطيَّتها في العِباداتِ:

ما رفعَه اللهُ عن هذه الأمَّة من الحرجِ والمشقَّة اللَّذَين كانا علىٰ مَن قبلها، فهذه الأمَّة إذا عَدِموا الماءَ تيمَّموا وصَلَّوْا في أيِّ مَكانٍ، بينما الأممُ الأخرىٰ لا يُصَلُّون حتَّىٰ يجدوا الماءَ، ولا يُصَلُّون إلَّا في أمكِنَةٍ مُعيَّنةٍ.

[٢] مِثالُ وسطيَّتها في غيرِ العِباداتِ:

القصاصُ في القتل كان مَفروضًا علىٰ اليَهودِ، ومَمنوعًا عند النَّصارىٰ، ومُخيَّرًا بينه وبين العَفوِ أو الدِّية عند هذه الأمَّة.

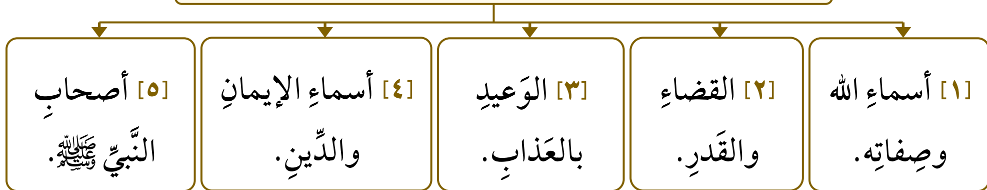


أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَسَطٌ بَيْنَ فِرَقِ الأُمَّةِ

فِرَقُ هذه الأُمَّةِ:

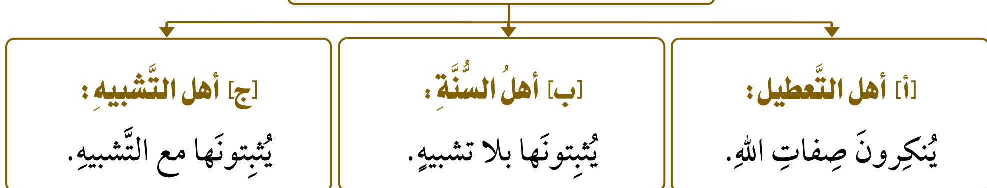
فِرَقُ هذه الأمَّةِ ثلاثٌ وسبعونَ فرقةً، والنَّاجي مِنها مَن كانَ علىٰ مِثلِ ما عليه النَّبيُّ ﷺ وأصحابُه، وكلُّها في النَّارِ إلَّا النَّاجيةُ؛ لقوله ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةٌ**»، قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**». [حديثٌ مُلفَّقٌ – يُنظر «العرش» للذَّهبيِّ.]

أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ وسطٌ بين فِرَقِ الأمَّةِ في أُصولٍ خَمسَةٍ:



[١] أسماءِ الله وصِفاتِه.	[٢] القضاءِ والقَدرِ.	[٣] الوَعيدِ بالعَذابِ.	[٤] أسماءِ الإيمانِ والدِّينِ.	[٥] أصحابِ النَّبيِّ ﷺ.

[١] في بابِ أسماءِ اللَّه وصِفاتِه:



[أ] **أهل التَّعطيل:** يُنكِرونَ صِفاتِ اللهِ.	[ب] **أهلُ السُّنَّة:** يُثبِتونَها بلا تشبيهٍ.	[ج] **أهل التَّشبيه:** يُثبِتونَها مع التَّشبيهِ.



[٢] في بابِ القضاءِ والقَدرِ (الَّذي عبَّرَ عنه الـمؤلِّفُ بأفعالِ الله):

[أ] **الجَبريَّة:**
يُثبِتونَ قضاءَ الله في أفعالِ العبدِ، ويقولون: إنَّه مُجبَرٌ لا قُدرةَ له، ولا اختيارَ.

[ب] **أهلُ السُّنَّة:**
يُثبِتونَ قضاءَ اللهِ في أفعالِ العَبدِ، ويقولون: إنَّ له قُدرَةً واختيارًا أودَعَهُما اللهُ فيه، مُتعلِّقَين بقضاءِ اللهِ.

[ج] **القَدَريَّة:**
يُنكِرونَ قضاءَ الله في أفعالِ العبدِ، ويقولون: إنَّ العبدَ قادرٌ مُختارٌ، لا يتعلَّق فِعلُه بقضاءِ اللهِ.

[٣] في بابِ الوَعيدِ بالعَذابِ:

[أ] **الوَعيديَّة:**
يقولونَ: فاعلُ الكَبيرةِ مُخلَّدٌ في النَّارِ.

[ب] **أهلُ السُّنَّة:**
يقولونَ: مُستحِقٌّ لدُخولِ النَّارِ دونَ الخُلودِ فيها.

[ج] **الـمُرجِئة:**
يقولونَ: لا يدخُلُ النَّارَ، ولا يستحِقُّ ذلكَ.

[٤] في بابِ أسماءِ الإيمانِ والدِّين:

[أ] **الـمُرجِئة:**
يُسَمُّون فاعلَ الكَبيرةِ مُؤمنًا كاملَ الإيمانِ.

[ب] **أهلُ السُّنَّة:**
يقولون: إنَّه مُؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، أو: مُؤمنٌ بإيمانِه فاسقٌ بكَبيرَتِه.

[ج] **الـمُعتزلة والحَروريَّة:**
يُسَمُّون فاعلَ الكَبيرةِ غيرَ مُؤمنٍ، لكنَّ:

- **الـمُعتَزلة:** يقولونَ: لا مُؤمِنٌ ولا كافرٌ، في مَنزلةٍ بين مَنزلتين.
- **الحَروريَّة:** يقولونَ: إنَّه كافرٌ.



[٥] في بابِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ:

[أ] الرَّوافض:
بالَغوا في حُبِّ آلِ النَّبيِّ ﷺ، وغَلَوْا فيهم حتَّىٰ أنزَلوهُم فوقَ مَنزلَتِهم.

[ب] أهلُ السُّنَّةِ:
يُحبُّونَ الصَّحابة جميعَهم، ويُنَزِّلون كلَّ واحدٍ مَنزلَتَه الَّتي يستحقُّها من غير غُلُوٍّ ولا تَقصير.

[ج] الخَوارج:
يُبغِضون آلَ النَّبيِّ ﷺ ويَسُبُّونَهم.



طَوَائِفُ الْمُبْتَدِعَةِ الذين أَشَارَ إِلَيْهِمُ الْمُؤَلِّفُ فِي هَذِهِ الأُصُولِ السَّابِقَةِ

ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أربع طوائفَ:

[١] الجهميَّة: وهم أتباعُ الجهم بن صفوان، الَّذي أخذ التَّعطيل عن الجعد بن درهم، وقُتِل في خُراسان سنة ١٢٨هـ.

[٢] الـمُعتزلة: وهم أتباعُ واصل ابن عطاءَ، الَّذي اعتزل مجلس الحسن البصريِّ حين كان الحسنُ يُقرِّر أنَّ فاعل الكبيرة مُؤمنٌ ناقص الإيمان، فاعتزله واصلٌ وجعل يُقرِّر أنَّ فاعلَ الكبيرةِ في منزلةٍ بين مَنزلتينِ.

[٣] الخوارج: سُمُّوا بذلك لخُروجهم علىٰ إمام المسلمين، ويُقال لهم: الحَرورِيَّة؛ نسبةً إلىٰ حَروراء، مَوضعٌ بالعراق قرب الكوفة، خرجوا فيه علىٰ عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كانوا من أشدِّ النَّاس تَديُّنًا في الظَّاهر، حتَّىٰ قال فيهم النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابِه: «**يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ**»، «**يَقْرَءُونَ الْقُرْءَانَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ؛ فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». مُتَّفقٌ عليهما.

[٤] الرَّوافض: سُمُّوا شيعةً لتَشيُّعِهم لآل البيتِ، وسُمُّوا روافض لأنَّهم رفضوا زيد بن عليِّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالبٍ، حين سألوه عن أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فأثنىٰ عليهما، وقال: (هما وزيرا جدِّي)، يعني: النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فانصرفوا عنه ورفضوه.



[١] مذهبُ الجهميَّة:

[أ] في الصِّفاتِ:	**[ب] في أفعالِ العبادِ:**	**[ج] في الوعيدِ وأسماءِ الإيمانِ والدِّين:**
إنكارُ صفاتِ الله، وغُلاتُهم يُنكِرون حتَّىٰ الأسماءَ، ولذلك سُمُّوا بالمُعطِّلة.	أنَّ العبدَ مَجبورٌ علىٰ عمله، ليس له قُدرةٌ ولا اختيارٌ، ومِن ثَمَّ سُمُّوا جَبريَّةً.	أنَّ فاعل الكبيرةِ مُؤمنٌ كاملُ الإيمانِ، ولا يدخل النَّارَ، ولذلك سُمُّوا مُرجِئَةً.

فهم أهلُ الجيماتِ الثَّلاث: تجهُّمٌ، وجَبرٌ، وإرجاءٌ.

[٢] مذهبُ المُعتزلةِ:

[أ] في الصِّفات:	**[ب] في أفعالِ العبادِ:**	**[ج] في الوعيدِ:**	**[د] في أسماءِ الإيمانِ والدِّينِ:**
إنكارُ صفاتِ الله كالجهميَّة.	أنَّ العبد مُستقِلٌّ بفعلِه، يفعل بإرادةٍ وقُدرةٍ مُستقِلًا عن قضاء الله وقدره، عكس الجهميَّة؛ ولذلك سُمُّوا قدريَّةً.	أنَّ فاعل الكبيرة مُخلَّدٌ في النَّار، عكس الجهميَّة القائلين بأنَّه لا يدخلُ النَّارَ، ولذلك سُمُّوا الوَعيديَّة.	أنَّ فاعل الكبيرة في مَنزلةٍ بين مَنزلتين، ليس مُؤمنًا ولا كافرًا، عكس الجهميَّة القائلين بأنَّه مُؤمنٌ كامل الإيمان، ولذلك سُمُّوا أصحاب المَنزلة بين مَنزلتينِ.

[٣] مذهبُ الخَوارج:

في الوعيدِ: أنَّ فاعلَ الكبيرةِ مُخلَّدٌ في النَّار، كافرٌ يحِلُّ دمُه ومالُه، ومِن ثَمَّ استباحوا الخُروجَ علىٰ الأئمَّة إذا فسقوا.



[٤] مذهبُ الرَّوافضِ:

في الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّهم يغلُونَ في آلِ بيت النَّبيِّ ﷺ، ويُفضِّلون عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه على جميع الصَّحابةِ، ومنهم من يُفضِّلُه على النَّبيِّ ﷺ، ومنهم من يجعله ربًّا.

اليَوْمُ الآخِرُ

اليَوْمُ الآخِرُ:

هو يومُ القيامةِ.

ويدخلُ في الإيمان به: كلُّ ما أخبر به النَّبيُّ ﷺ ممَّا يكونُ بعد الموتِ؛ كفتنة القبرِ، وعذابه، ونعيمه، وغير ذلك.

والإيمانُ به واجبٌ.

ومَنزِلتُه من الدِّين أنَّه أحدُ أركان الإيمانِ السِّتَّةِ.



فِتْنَةُ القَبْر

فِتْنَةُ القَبْرِ: سُؤالُ المَلكين (مُنكَرٍ ونكيرٍ) المَيِّتَ عن: ربِّه، ودينِه، ونبيِّه:

[١] جوابُ المُؤمن:
يُثبِّتُ الله الَّذين آمنوا بالقول الثَّابت، فيقول المُؤمن: (ربِّيَ اللهُ، وديني الإسلامُ، ونبيِّي مُحمَّدٌ ﷺ).

[٢] جوابُ المُرتاب أو الكافر:
يقول: (هاه هاه، لا أدري، سمعتُ النَّاسَ يقولون شيئًا فقُلتُه).

فِتنةُ القَبرِ عامَّةٌ لكلِّ ميِّتٍ إلاَّ:

[١] الشَّهيدُ.

[٢] من مات مُرابطًا في سبيلِ اللهِ.

[٣] الرُّسل لا يُسأَلونَ؛ لأنَّهم المَسؤولُ عنهم.

واختُلِفَ في غير المُكلَّفِ؛ كالصَّغير:

[أ] فقيلَ: يُسألُ؛ لعُمومِ الأدلَّةِ.

[ب] وقيلَ: لا؛ لعدمِ تكليفِهِ.

قَولُ أهلِ السُّنَّةِ في نعيمِ القبرِ وعَذابِهِ:

أنَّه حقٌّ ثابتٌ.

لقولِه تعالىٰ في آلِ فِرعونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾[غافر]، وقولِه في المُؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصِّلت].



ولقولِه ﷺ في الكافر حين يُسألُ في قبره فيُجيبُ: «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ عَبْدِي؛ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّارِ»، وقولِه في المُؤمن إذا سُئِلَ في قبره فأجابَ: «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي؛ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا مِنَ الْجَنَّةِ».

أخرجه أحمد وأبو داود.

هل عذابُ القبرِ ونعيمُه على الرُّوحِ أم البدَنِ؟

[١] علىٰ الرُّوحِ فقط.

[٢] وقد تتَّصلُ بالبدن أحيانًا.

هل عذابُ القبرِ ونعيمُه يستمرَّان؟

[١] العذاب:

[أ] على الكافرين: مُستمِرٌّ.

[ب] على الـمُؤمنين: بحسبِ ذُنوبِهم.

[٢] النَّعيم:

للمُؤمنين خاصَّةً.

والظَّاهرُ استمرارُه.

الجوابُ على ما ثبت من توسيع قبر الـمُؤمن وتضييقه على الكافر، مع أنَّه لو فُتِح لوُجِد بحالِه:

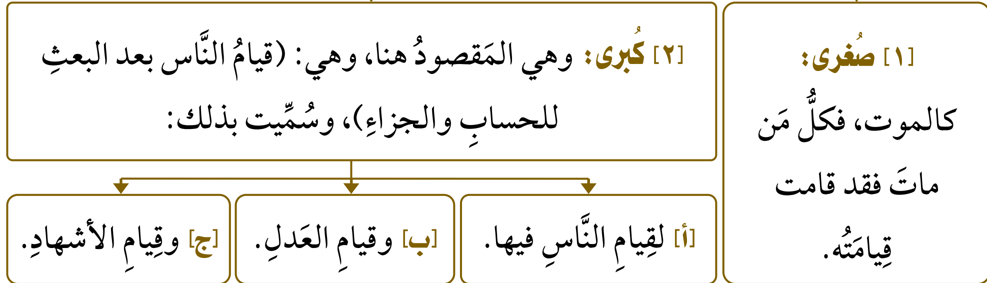
[١] أنَّ ما ثبتَ في الكتاب والسُّنَّة وجب تصديقُه والإيمانُ به، سواءٌ أدركته عقولُنا وحَواسُّنا أم لا؛ لأنَّه لا يُعارَضُ الشَّرعُ بالعقل، لا سيما في الأمور الَّتي لا مجالَ للعقلِ فيها.

[٢] أنَّ أحوالَ القبر مِن أمورِ الآخرة الَّتي اقتضَت حكمةُ الله أن يَحجُبَها عن حواسِّ الخلقِ وعقولِهم امتحانًا لهم، ولا يجوز أن تُقاسَ بأحوالِ الدُّنيا؛ لتَبايُن ما بين الدُّنيا والآخرةِ.



القِيَامَةُ

القِيامةُ نوعان:



[١] **صُغرى:** كالموت، فكلُّ مَن ماتَ فقد قامت قِيامَتُه.

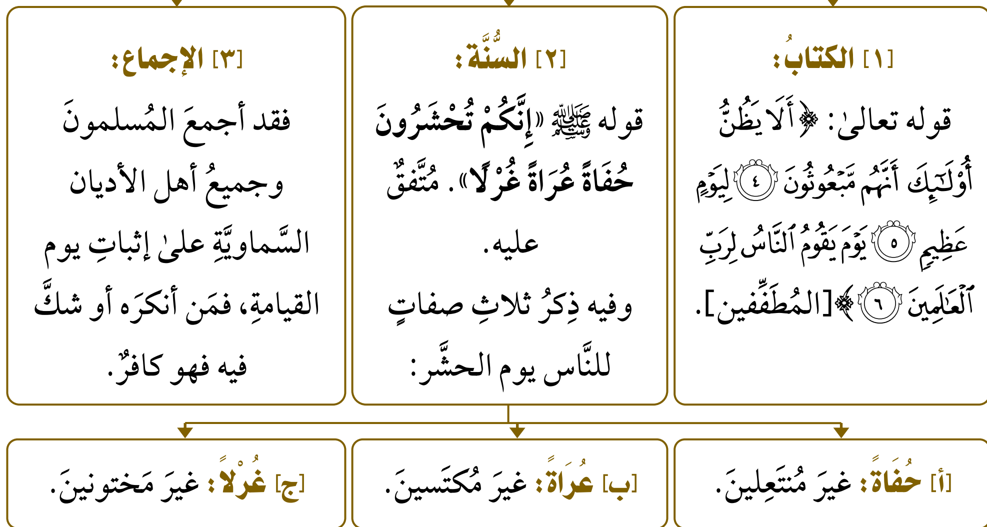
[٢] **كُبرى:** وهي المَقصودُ هنا، وهي: (قيامُ النَّاس بعد البعثِ للحسابِ والجزاءِ)، وسُمِّيت بذلك:

[أ] لِقيامِ النَّاسِ فيها.

[ب] وقيامِ العَدلِ.

[ج] وقِيامِ الأشهادِ.

أدلَّة ثُبوتِ القِيامةِ:



[١] **الكتابُ:** قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾[المُطفِّفين].

[٢] **السُّنَّة:** قوله ﷺ «**إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**». مُتَّفقٌ عليه.
وفيه ذِكرُ ثلاثِ صفاتٍ للنَّاس يوم الحشَّر:

[أ] **حُفَاةً:** غيرَ مُنتَعِلينَ.

[ب] **عُرَاةً:** غيرَ مُكتَسينَ.

[ج] **غُرْلاً:** غيرَ مَختونينَ.

[٣] **الإجماع:** فقد أجمعَ المُسلمونَ وجميعُ أهل الأديان السَّماويَّةِ علىٰ إثباتِ يوم القيامةِ، فمَن أنكرَه أو شكَّ فيه فهو كافرٌ.

أشراطُ السَّاعة:

للقِيامةِ عَلاماتٌ تُسمَّىٰ الأشراطَ؛ كخُروج الدَّجَّال، ويَأجوجَ ومَأجوجَ، وطُلوعِ الشَّمس من مَغرِبِها، وجُعِلت لها هذه الأشراطُ؛ لأنَّها يومٌ عظيمٌ وهامٌّ، فكان لها تلك المُقدِّماتُ.



الأَشْياءُ الْتِي ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ أَنَّهَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

ذكر المُؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ سبعة أمورٍ تكون يوم القِيامةِ:

الأوَّل: دُنُوُّ الشَّمس مِن الخَلقِ

بقَدرِ ميلٍ أو ميلَينِ، فيَعرقُ النَّاس بقَدرِ أعمالِهم، فمنهم:

[١] مَن يَصِلُ عرقُه إلىٰ كعبيه.

[٢] مَن يُلجِمُه

[٣] مَن بين ذلِكَ.

[٤] مَن يسلَمُ مِن الشَّمسِ، فيُظِلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلَّا ظلُّه؛ مثل: الشَّابِّ إذا نشأ في طاعةِ الله، والرَّجلِ المُعلَّقِ قلبُه بالمَساجِدِ.

الثَّاني: وضعُ الـمَوازينِ (جمعُ ميزانٍ)

[١] **عملُها**: يضعُها اللهُ لتُوزَنَ فيها أعمالُ العِبادِ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[المؤمنون].

[٢] **حقيقةُ الميزانِ**: حقيقيٌّ، له كِفَّتان، خلافًا للمُعتزلة القائلين بأنَّه العدل لا ميزانٌ حقيقيٌّ.

[٣] **تعدُّدها**: ذُكر في القرآن مجموعًا، وفي السُّنَّة مَجموعًا ومُفردًا:

- [أ] **فقيل**: إنَّه ميزانٌ واحدٌ، وجُمِع باعتبارِ المَوزونِ.
- [أ] **وقيل**: مُتعدِّدٌ بحسب الأمم أو الأفراد، وأُفرِدَ باعتبارِ الجنسِ.



الثَّالث: نشرُ الدَّواوينِ

أي: فتحُها وتوزيعُها، وهي: (صحائف الأعمال الَّتي كتبتها المَلائكةُ علىٰ الإنسانِ)، قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[الإسراء].

[١] **فالـمُؤمن:** يأخذُ كتابَه بيمينه، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾[الانشقاق].

[٢] **والكافرُ:** يأخذ كتابه:

[أ] **من وراء ظهره:** قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾[الانشقاق].

[ب] **بشماله:** قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾[الحاقَّة].

والجمعُ بين هذه والَّتي قبلها إمَّا باختلاف النَّاس، وإمَّا بكَونِ الَّذي يأخُذُها بشِمالِه تُخلَعُ يدُه من وراءِ ظهرِه.

الرَّابع: الحسابُ، وهو مُحاسَبةُ الخَلائقِ على أعمالِهم، وكيفيَّته:

[١] **للمُؤمن:** أنَّ الله يخلو به فيُقَرِّرُه بذُنوبه، ثمَّ يقول: «**قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**». مُتَّفقٌ عليه.

[٢] **للكافر:** أنَّه يُوقَفُ علىٰ عملِه، ويُقرَّرُ به، ثمَّ يُنادىٰ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾[هود].

وأوَّل ما يُحاسَبُ عليه العبدُ من حُقوقِ الله الصَّلاةُ.

وأوَّل ما يُقضىٰ بينَ النَّاس الدِّماءُ.



ومن النَّاسِ من يدخُلُ الجنَّة بلا حسابٍ، وهم الَّذين «لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». مُتَّفقٌ عليه. ومنهم عُكاشة بن مِحصَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الخامسُ: الحَوضُ المَورودُ

يُعطَىٰ للنَّبيِّ ﷺ في عَرَصاتِ القِيامةِ -أي: مَواقِفِها-، يَرِدُه المُؤمنون من أمَّته، ومن شرب منه لم يظمأ أبدًا، طولُه شهرٌ وعَرضُه شهرٌ، وآنيتُه كنُجومِ السَّماءِ، وماؤُه أشدُّ بياضًا من اللَّبَنِ، وأحلىٰ من العسل، وأطيب من رائحة المِسكِ.

ولكلِّ نبيٍّ حوضٌ يرِدُه المُؤمنون من أُمَّتِه، لكنَّ الحوضَ الأعظمَ حوضُ النَّبيِّ ﷺ.

وقد أنكر الُمعتزلةُ وُجودَ الحَوضِ، وقَولُهم مَردودٌ بما تواترت به الأحاديثُ من إثباتِه.

السَّادس: الصِّراطُ

وهو الجسرُ المَنصوبُ علىٰ جهنَّمَ، أدقُّ من الشَّعر وأحدُّ من السَّيف، عليه كلاليبُ تخطِفُ النَّاس بأعمالِهم.

يمرُّون عليه علىٰ قدر أعمالهم: فمنهم من يمُرُّ كلَمحِ البصرِ، ومنهم من يمُرُّ كالبَرقِ، ومنهم من يمُرُّ كالرِّيحِ، ومنهم من يمُرُّ كالفرسِ الجَوادِ، ومنهم من يمُرُّ كرَكائبِ الإبلِ، ومنهم من يَعدو عَدْوًا، ومنهم من يَمشي مَشيًا، ومنهم من يزحَفُ زَحفًا، ومنهم من يُخطَفُ فيُلقىٰ في النَّارِ فيُعَذَّبُ بقَدرِ عَمَلِه.

فإذا عبروا الصِّراطَ وُقِفوا علىٰ قنطرةٍ بين الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقتَصُّ لبَعضِهم من بعضٍ قصاصًا تزولُ به الأحقادُ والبغضاءُ؛ ليدخلوا الجنَّةَ إخوانًا مُتَصافِّينَ.



السَّابع: الشَّفاعة

[١] حقيقتُها:

هي: (التَّوسُّطُ للغيرِ بجلبِ المَنفعَةِ، أو دَفعِ المَضرَّةِ)، ولا تكون إلَّا:

- **[أ]** بإذنِ الله للشَّافع.
- **[ب]** ورِضاهُ عن المَشفوعِ له.

[٢] أقسامها:

تنقسم إلىٰ قسمين:

- **[أ] خاصَّة:** بالنَّبيِّ ﷺ.
- **[ب] عامَّة:** له، ولغيره من: النَّبيِّينَ، والصِّدِّيقينَ، والشُّهداءِ، والصَّالحينَ.

ذكرَ المُؤلِّفُ منها نَوعينِ:

الشَّفاعةُ العُظمى: حيثُ يشفعُ في أهلِ المَوقفِ إلىٰ الله ليقضِيَ بينهم، بعد أن تُطلَبَ الشَّفاعةُ من آدمَ، فنوحٍ، فإبراهيم، فموسىٰ، فعيسىٰ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فلا يَشفعونَ، حتَّىٰ تنتهي إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فيَشفعَ، فيَقبلَ اللهُ منه.

وهذا من المَقامِ المَحمودِ الَّذي وعدَهُ اللهُ بقولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ [الإسراء].

شفاعتُه في أهل الجنَّة: أن يَدخُلوها.

ذكرَ المُؤلِّفُ منها نَوعينِ:

الشَّفاعةُ فيمن استحقَّ النَّارَ: من المُؤمنين ألَّا يدخُلَها.

الشفاعة فيمن دخلها: من المُؤمنينَ أن يَخرجَ منها.

وهذانِ النَّوعانِ يُنكرُهما المُعتزلةُ والخَوارجُ؛ بناءً علىٰ قولهم: إنَّ فاعلَ الكَبيرةِ مُخلَّدٌ في النَّارِ، فلا تنفَعُه الشَّفاعةُ.

ويُخرِجُ الله أقوامًا من النَّارِ بغير شَفاعةٍ؛ بل بفضلِه ورحمَتِه، ويبقىٰ في الجنَّة فضلٌ عمَّن دخلَها من أهل الدُّنيا، فيُنشئُ اللهُ لها أقوامًا، فيُدخِلُهم الجنَّةَ.



الإيمانُ بالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ

حُكمُه ومَعناه:

[١] حُكمُه:

الإيمانُ بالقضاءِ والقَدَرِ واجبٌ، ومَنزِلَتُه مِن الدِّين أنَّه أحدُ أركانِ الإيمانِ السِّتَّةِ؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». أخرجه مسلمٌ.

[٢] مَعناه:

أن تُؤمِنَ بأنَّ كُلَّ ما في الكَونِ من مَوجوداتٍ ومَعدوماتٍ، عامَّةٍ وخاصَّةٍ = فإنَّه بمَشيئة اللهِ وخَلقِه، وتعلَمَ أنَّ ما أصابكَ لم يكُن ليُخطِئكَ، وما أخطأكَ لم يكُن ليُصيبَكَ.

درجاتُ الإيمانِ بالقَدَرِ:

[١] درجةُ العلمِ والكتابةِ:

ودليلها قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [الحج].

[٢] درجةُ المَشيئةِ والخَلقِ:

ودليلُ المَشيئةِ قولُه تعالىٰ: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم]، ودليلُ الخلِق قولُه تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرَّعد:١٦].

[أ] العلمُ: أن تُؤمِنَ بعلمِ الله المُحيطِ بكُلِّ شيءٍ جُملةً وتفصيلًا.

[ب] الكتابة: أن تُؤمِنَ بأنَّ الله كتب مَقاديرَ كلِّ شيءٍ في اللَّوحِ المَحفوظِ بحسب علمِه.

[ج] المَشيئة: أن تُؤمِنَ بمَشيئةِ الله العامَّةِ، وأنَّ ما شاء كانَ وما لم يشأ لم يكُن، سواءٌ في أفعالِه أو أفعالِ الخَلقِ.

[د] الخلقُ: أن تُؤمِنَ أنَّ الله خالقُ كلِّ شيءٍ سواءٌ ممَّا فعلَه أو فعلَه عبادُه.



أنواعُ الكِتابةِ:

[١] الكِتابةُ في اللَّوح الـمَحفوظ:

قبلَ خلقِ السَّماوات والأرضِ بخمسين ألف سنةٍ، ودليلُها قولُه ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». أخرجه بنحوه أصحاب «السُّنن».

[٢] الكِتابةُ العُمريَّةُ:

وهي ما يكتُبُه الملَكُ المُوكَّلُ بالأرحام علىٰ الجنين في بطن أمِّه إذا تمَّ له أربعة أشهرٍ، فيُؤمَرُ المَلَكُ بكتب رِزقِه، وأجلِه، وعملِه، وشقيٌّ أم سعيدٌ، ودليله حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الثَّابتُ في «الصَّحيحين».

وهذه الدَّرجة يُنكرها غُلاةُ القَدريَّةِ قديمًا.

الـمَشيئةُ والخَلقُ ثابتان في أفعالِ الله وأفعالِ الخَلقِ:

دليلُ الـمَشيئةُ:

[أ] في فعل اللَّه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السَّجدة:١٣].

[ب] في فعل العبد: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢].

دليلُ الخَلقُ:

[أ] في فعل اللَّه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف:٥٤].

[ب] في فعل العبد: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصَّافَّات٩٦].



مَشِيئَةُ العَبْدِ وَقُدْرَتُه:

[١] ثبوتُهما: أثبت الله للعبد مَشيئةً وإرادةً، وهي القُدرةُ.

[٢] دليلُهما: لقوله تعالىٰ: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغابن:١٦].

[٣] علاقتُهما بمَشيئة الله: تابعتان لمشيئة الله تعالىٰ؛ لقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التَّكوير].

ضلَّ في درجةِ المَشيئةِ والخَلقِ طائفتان:

[١] القدريَّةُ: زعموا أنَّ العبد مُستقِلٌّ بإرادتِه وقُدرَته، ليس لله في فِعلِه مَشيئةٌ ولا خَلقٌ.

والرَّدُّ عليهم: بقولِه تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾[التَّكوير]، وقولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[الأنعام:١١٢].

[٢] الجبريَّةُ: زعموا أنَّ العبدَ مَجبورٌ علىٰ فِعلِه، ليس له فيه إرادةٌ ولا قُدرةٌ.

والرَّدُّ عليهم: بقولِه تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾[التَّكوير]، وقولِه: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة:٢٢٣].

الاعْتِمَادُ عَلَى الْقَضَاءِ السَّابِقِ وَتَرْكُ الْعَمَلِ:

لا يجوزُ الاعتمادُ علىٰ القضاءِ السَّابقِ وتركُ العملِ؛ لأنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قالوا: يا رسولَ الله؛ أفلا نتَّكلُ علىٰ الكتاب الأوَّلِ وندعُ العملَ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[اللَّيل].



مَجوسُ هذه الأمَّةِ القَدريَّةُ:

الَّذين يَقولونُ: إنَّ العبدَ مُستقِلٌّ بفِعلِه.

سُمُّوا بذلكَ لأنَّهم يُشبِهون المَجوسَ القائلين بأنَّ للعالَمِ خالِقَينِ: النُّور يخلُقُ الخيرَ، والظُّلمَةُ تخلُقُ الشَّرَّ.

وكذلك القدريَّة قالوا: إنَّ للحَوادِثِ خالِقَينِ، فالحَوادِثُ الَّتي مِن فعلِ العبدِ يخلُقُها العبدُ، والحَوادِثُ الَّتي مِن فعل الله يخلُقُها اللهُ.

الْجَبْرِيَّةُ يُخْرِجُونَ عَنْ أَحْكَامِ اللهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا، فَمَا وَجْهُ ذَلِكَ؟

وجه ذلك أنَّ الجبريَّة لا يُفرِّقون بين فعلِ العبد اختيارًا وفعلِه بدون اختيارٍ، كلاهُما عندهم مُجبَرٌ عليه كما سبق، وإذا كان كذلك صارَ ثوابُه علىٰ الطَّاعةِ وعقابُه علىٰ المَعصيةِ لا حِكمةَ له، إذ الفعلُ جاءَ بدون اختيارِه، وما كان كذلك فإنَّ صاحبَه لا يُمدَحُ عليه فيَسْتحِقُّ الثَّوابَ، ولا يُذَمُّ عليه فيستحِقُّ العِقابَ.



الإيمَانُ



الإيمَانُ:

[١] **لغةً:** التَّصديق.

[٢] **اصطلاحًا:** (قولُ القلبِ واللِّسانِ، وعملُ القلبِ والجَوارحِ).

[أ] **قولُ القلبِ:** تصديقُه وإقرارُه.

الدَّليل: قولُه ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ... إلخ». أخرجه مسلمٌ.

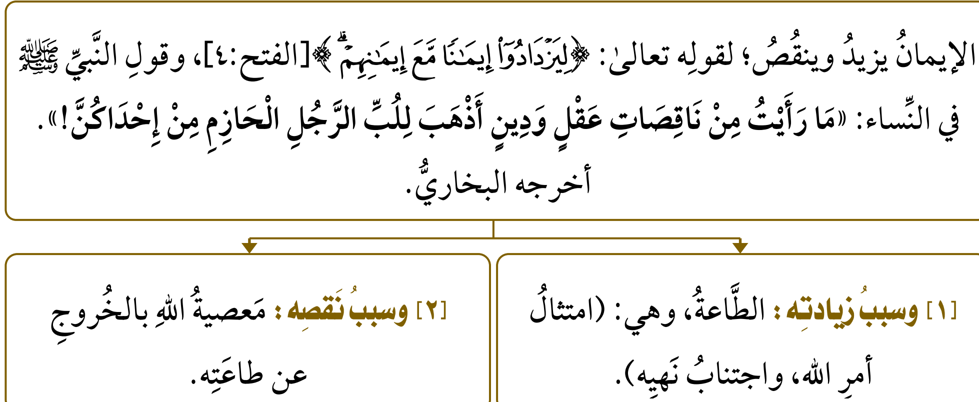
[ب] **قولُ اللِّسانِ:** إرادتُه، وتوكُّلُه، ونحوُ ذلك من حَركاتِه.

[ج] **عملُ القلبِ:** نُطقُه.

[د] **عملُ الجَوارحِ:** الفعلُ والتَّركُ.

الدَّليل: قولُه ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**». أخرجه مسلمٌ.

فقولُ: (لا إله إلَّا اللهُ) قولُ اللِّسانِ، وإماطةُ الأذىٰ عن الطَّريقِ عملُ الجَوارحِ، والحياءُ عملُ القلبِ.



زيادةُ الإيمانِ ونُقصانُه:

الإيمانُ يزيدُ وينقُصُ؛ لقولِه تعالىٰ: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[الفتح:٤]، وقولِ النَّبيِّ ﷺ في النِّساء: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ!**». أخرجه البخاريُّ.

[١] **وسببُ زيادتِه:** الطَّاعةُ، وهي: (امتثالُ أمرِ اللهِ، واجتنابُ نَهيِه).

[٢] **وسببُ نَقصِه:** مَعصيةُ اللهِ بالخُروجِ عن طاعَتِه.



الكَبيرةُ:

[١] تعريفُها:

(كلُّ ذنبٍ قُرِنَ بعُقوبةٍ خاصَّةٍ)؛ كـ: الزِّنى، والسَّرقة، وعُقوق الوالِدَين، والغشِّ، ومحبَّة السُّوء للمُسلمين، وغيرِ ذلك.

[٢] حُكم فاعلها:

[أ] من حيثُ الاسمُ: أنَّه مُؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، أو مُؤمنٌ بإيمانِه فاسقٌ بكبيرتِه، وليسَ خارجًا من الإيمان.

لقولِه تعالىٰ في القاتلِ عمدًا: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨]، فجعلَ اللهُ المَقتولَ أخًا للقاتلِ، ولو كان خارجًا من الإيمان ما كان المَقتولُ أخًا له.

ولقوله تعالىٰ في الطَّائفتين المُقتتِلَتَين: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩] إلىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات:١٠]، فجعلَ اللهُ الطَّائفتين المُقتتِلَتَين مع فعلِهما الكبيرةَ إخوةً للطَّائفةِ الثَّالثةِ المُصلِحَةِ بينهما.

[ب] من حيثُ الجزاءُ: أنَّه مُستحِقٌّ للجَزاءِ المُرتَّبِ عليها، ولا يُخلَّدُ في النَّارِ، وأمرُه إلىٰ اللهِ؛ إن شاءَ عذَّبه بما يستحِقُّ، وإن شاء غفر له.

لقولِه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨].

خَالَفَ أَهْلَ السُّنَّةِ فِي فَاعِلِ الْكَبِيرَةِ ثَلَاثُ طَوَائِفَ:

[١] الـمُرجئةُ: قالوا: إنَّهُ مُؤمنٌ كاملُ الإيمانِ، ولا عقابَ عليه.

[٢] الخَوارجُ: قالوا: إنَّه كافرٌ مُخلَّدٌ في النَّارِ.

[٣] الـمُعتزلةُ: قالوا: لا مُؤمنٌ ولا كافرٌ، في مَنزلةٍ بين مَنزِلَتَينِ، وهو مُخلَّدٌ في النَّارِ.



هَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ؟

[١] الإيمانُ المُطلَقُ:

الفاسقُ لا يدخُلُ في اسمِ الإيمانِ المُطلَقِ -أي: الكامل-؛ كما في قولِه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾[الأنفال].

[٢] مُطلَقُ الإيمانِ:

وإنَّما يدخُلُ في مُطلَقِ الإيمانِ -أي: في أقلِّ ما يقعُ عليه الاسمُ-؛ كما في قولِه تعالىٰ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[النِّساء:٩٢]، فالمُؤمنُ هنا يشمَلُ الفاسِقَ وغيرَه.



الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وآلُ بيْتِ النَبيِّ ﷺ

من هو الصَّحابيُّ؟

هو: (من اجتمعَ مع النَّبيِّ ﷺ أو رآهُ -ولو لحظةً- مُؤمِنًا، وماتَ علىٰ ذلك).

مَوقِفُ أهلِ السُّنَّةِ من الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم:

[١] مَحبتُّهم.

[٢] والثَّناءُ عليهم بما يَستحِقُّونَ.

[٣] وسلامةُ قُلوبِهم من البَغضاءِ والحِقدِ عليهم.

[٤] وسلامةُ ألسنتِهم من قولِ ما فيه نقصٌ أو شتمٌ للصَّحابةِ.

كما وصفَهم اللهُ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر]، وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**». مُتَّفقٌ عليه.

اختِلافُ مَراتبِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم:

تختلفُ مَراتِبُ الصَّحابةِ؛ لقولِه تعالىٰ: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾[الحديد:١٠].

وسببُ اختلافِ مَراتِبِهم:

[١] قوَّةُ الإيمان.

[٢] العلمُ.

[٣] العملُ الصَّالح.

[٤] السَّبق إلىٰ الإسلام.



أفضل الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

[١] جنسًا:

أفضلهم جنسًا المُهاجرونَ ثمَّ الأنصارُ؛ لأنَّ الله قدَّمَ المُهاجرين عليهم، فقال تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[التَّوبة:١١٧]، ولأنَّهم جمعوا بين الهِجرةِ من دِيارِهم وأموالِهم والنُّصرةِ.

[٢] عينًا:

أفضلُهم عينًا: أبو بكرٍ ثمَّ عمرُ بالإجماعِ، ثمَّ عثمانُ ثمَّ عليٌّ علىٰ رأيِ جمهورِ أهلِ السُّنَّةِ الَّذي استقرَّ عليه أمرُهم، بعدما وقعَ الخلافُ في المُفاضَلَةِ بين عليٍّ وعُثمانَ، فقدَّمَ قومٌ عُثمانَ وسكتوا، وقدَّم قومٌ عليًّا ثمَّ عُثمانَ، وتوقَّفَ قومٌ في التَّفضيلِ.

ولا يُضلَّلُ من قال بأنَّ عليًّا أفضلُ من عُثمانَ؛ لأنَّه قد قالَ به بعضُ أهلِ السُّنَّةِ.

الْخُلَفاءُ الأَرْبَعَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالتَّرْتيبِ:

[١] أبو بكرٍ:

ثبتَتْ خلافته بإشارةٍ من النَّبيِّ ﷺ إليها، حيث قدَّمَه في الصَّلاة، وفي إمارةِ الحجِّ، وبكونِه أفضلَ الصَّحابة فكانَ أحقَّهم بالخِلافَةِ.

[٢] ثمَّ عمر:

ثبتَتْ خلافتُه بعهدِ أبي بكرٍ إليه بها، وبكونِه أفضلَ الصَّحابةِ بعد أبي بكرٍ.

[٣] ثمَّ عثمان:

ثبتت خلافتُه باتِّفاقِ أهلِ الشُّورىٰ عليهِ.

[٤] ثمَّ عليٌّ:

ثبتت خلافتُه بمُبايَعَةِ أهلِ الحلِّ والعَقدِ له، وبكَونِه أفضلَ الصَّحابةِ بعد عُثمانَ.



أَهْلُ بَدْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

هم الَّذين قاتلوا في غزوةِ بدرٍ مِن المُسلمينَ، وعددُهم ثلاثمائةٍ وبضعةَ عشرَ رجلًا.
والفضيلةُ الَّتي حصلت لهم أنَّ الله اطَّلع عليهم وقال: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». مُتَّفقٌ عليه.
ومَعناهُ أنَّ ما يحصُلُ منهم من المَعاصي يغفِرُه اللهُ بسبب الحسنةِ الكبيرةِ الَّتي نالوها في غزوة بدرٍ، ويتضمَّنُ هذا بِشارةً بأنَّه لن يَرتَدَّ أحدٌ مِنهم عن الإسلامِ.

أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

هم الَّذين بايعوا النَّبيَّ ﷺ عام الحُدَيبِيَةِ علىٰ قِتالِ قُريشٍ، وألَّا يفِرُّوا حتَّىٰ المَوت، وسببُها ما أُشيعَ مِن أنَّ عثمانَ قتلته قُريشٌ حين أرسله النَّبيُّ ﷺ إليهم للمُفاوضَةِ.
وسُمِّيتْ بيعةَ الرِّضوان لأنَّ اللهَ رضيَ عنهم بها، وعددُهم نحوُ ألفٍ وأربَعِمائةٍ.
والفضيلةُ الَّتي حصلت لهم هي:

[١] رِضَا اللهِ عنهُم:
لقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨].

[٢] سَلامَتُهم مِن دُخولِ النَّارِ:
لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر أنَّه: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**». أخرجه أحمد وأصحاب «السُّنن».



آلُ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ:

[١] **مَن هم؟**
هم: زوجاتُه، وكلُّ مَن تحرُمُ عليه الزَّكاةُ مِن أقارِبِه المُؤمِنينَ؛ كآلِ عليٍّ، وجعفرٍ، والعبَّاسِ، ونحوِهم.

[٢] **الواجبُ نحوَهم:** المَحبَّةُ والتَّوقيرُ والاحتِرامُ:

[أ] لإيمانِهم بالله.

[ب] ولقَرابتِهم من النَّبيِّ ﷺ.

[ج] ولتنفيذِ الوَصيَّةِ الَّتي عَهِدَ بها رسولُ الله ﷺ، حيثُ قال: «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**». أخرجه مسلمٌ.

[د] ولأنَّ ذلك مِن كمالِ الإيمانِ؛ لقولِه ﷺ: «**وَاللهِ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ للهِ وَلِقَرَابَتِي**». [أخرجه أحمد بمعناه.]

ضَلَّ في آلِ بيْتِ النَّبيِّ ﷺ طَائِفتَان:

[١] **الرَّوافِضُ:**
حيثُ غَلَوْ فيهم، وأنزلوهُم فوقَ مَنزِلَتِهم، حتَّىٰ ادَّعىٰ بعضُهم أنَّ عليًّا إلهٌ.

[٢] **النَّواصِبُ:**
وهم الخَوارجُ الَّذين نصَبُوا العداوةَ لآلِ البيتِ، وآذَوْهُم بالقَولِ والفِعل.

زوجاتُ النَّبيِّ ﷺ أفضلُ نساءِ هذه الأمَّة:

[١] لمَكانتهنَّ عند رسولِ الله ﷺ.

[٢] ولأنهنَّ أمَّهاتُ المُؤمنينَ.

[٣] ولأنَّهنَّ زوجاتُ النَّبيِّ ﷺ في الآخرةِ.

[٤] ولطَهارتِهنَّ مِن الرِّجسِ.

ولذلك يَكفُرُ من قذَفَ واحدةً منهنَّ؛ لأنَّ ذلك يستلزِمُ نقصَ النَّبيِّ ﷺ وتدنيسَ فِراشِه.



مَن أفضلُ زوجاتِ النَّبيِّ ﷺ؟

أفضلُهُنَّ خديجةُ وعائشةُ، وكلٌّ واحدةٍ منهما أفضلُ من الأخرىٰ من جهةٍ:

[١] مزيَّةُ خديجةَ:

- أنَّها أوَّلُ من آمن بالرَّسولِ ﷺ.
- وأنَّها عاضَدَتهُ علىٰ أمره في أوَّل رسالتِه.
- وأنَّها أمُّ أكثرِ أولادِه، بل كلِّهم إلَّا إبراهيمَ.
- وأنَّ لها منزلةً عاليةً عندَه، فكان يذكُرُها دائمًا.
- أنَّه لم يتزوَّج عليها حتَّىٰ ماتَت.

[٢] مزيَّةُ عائشةَ:

- حُسنُ عِشرتِها مع النَّبيِّ ﷺ في آخرِ أمرِه.
- وأنَّ اللهَ برَّأها في كتابِه ممَّا رماها به أهلُ الإفكِ، وأنزل فيها آياتٍ تُتلىٰ إلىٰ يومِ القِيامَةِ.
- وأنَّها حَفِظتْ مِن هديِ النَّبيِّ ﷺ وسُنَّتِه ما لم تحفظهُ امرأةٌ سِواها.
- وأنَّها نشرتِ العلمَ الكثيرَ بين الأُمَّةِ.
- وأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يتزوَّج بكرًا سواها، فكانت تربيتُها الزَّوجيَّةُ علىٰ يدِه.
- وأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال فيها: «**فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ**». مُتَّفقٌ عليه.

مَوْقِفُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْخِلَافِ وَالْفِتَنِ الَّتِي حَصَلَتْ بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ:

مَوقفُهم في ذلكَ أنَّ ما جرىٰ بينهم فإنَّه باجتهادٍ من الطَّرفين، وليسَ عن سوءِ قَصدٍ، والمُجتهِدُ إن أصابَ فله أجرانِ، وإن أخطأَ فله أجرٌ واحدٌ، وليسَ ما جرىٰ بينهُم صادرًا عن إرادةِ عُلُوٍّ ولا فسادٍ في الأرض؛ لأنَّ حال الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ تأبىٰ ذلك، فإنَّهم أوفَرُ النَّاسِ عُقولًا، وأقواهُم إيمانًا، وأشدُّهُم طلبًا للحقِّ، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**». مُتَّفقٌ عليه. وعلىٰ هذا فطريقُ السَّلامةِ أن نسكُتَ عن الخَوضِ فيما جرىٰ بينهُم، ونرُدَّ أمرَهم إلىٰ اللهِ؛ لأنَّ ذلك أسلَمُ مِن وُقوعِ عَداوةٍ أو حِقدٍ علىٰ أحدِهم.



مَوْقِفُ أَهْلِ السُّنَّةِ أنَّ الآثَارَ الْوَارِدَةَ فِي مَسَاوِئ بَعْضِ الصَّحَابَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ:

[١] **صحيحٌ:** لكنَّهم مَعذورونَ فيه؛ لأنَّه واقعٌ عن اجتهادٍ، والمُجتهِدِ إذا أخطأ فله أجرٌ، وإذا أصابَ فله أجرانِ.

[٢] **غيرُ صحيحٍ:** إمَّا لكَونِه كذبًا من أصله، وإمَّا لكَونِه زيدَ فيه، أو نُقِصَ، أو غُيِّرَ عن وجهِه، وهذا القسمُ لا يَقدحُ فيهم؛ لأنَّه مَردودٌ.

الصَّحابةُ ليسُوا معصومينَ منَ الذُّنوبِ، فإنَّهم يُمكنُ أنْ تقعَ منهم الـمَعصيةُ كما تقعُ مِن غيرِهم، لكنَّهم أقربُ النَّاسِ إلى الـمَغفرةِ لعدَّةِ أسبابٍ:

[١] تحقيقُ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ.

[٢] السَّبقُ إلى الإسلامِ والفَضيلةُ، وقد ثبتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهم خيرُ القُرونِ.

[٣] الأعمالُ الجَليلةُ الَّتي لم تَحصُل لغيرِهم؛ كغزوةِ بدرٍ، وبيعةِ الرِّضوانِ.

[٤] التَّوبةُ من الذَّنبِ، فإنَّ التَّوبةَ تجُبُّ ما قبلَها.

[٥] الحَسَناتُ الَّتي تَمحو السَّيِّئاتِ.

[٦] البلاءُ، وهي المَكارِهُ الَّتي تُصيبُ الإنسانَ؛ فإنَّ البلاءَ يُكفِّرُ الذُّنوبَ.

[٧] دُعاءُ المُؤمنينَ لهُم.

[٨] شفاعةُ النَّبيِّ ﷺ الَّتي هم أحقُّ النَّاسِ بها.

وعلى هذا فالَّذي يُنكَرُ مِن فعلِ بعضِهم قليلٌ مُنغمِرٌ في مَحاسِنِهم؛ لأنَّهم خيرُ الخَلقِ بعد الأنبياءِ، وصَفوةُ هذه الأمَّةِ الَّتي هي خَيرُ الأُمَمِ، ما كانَ ولا يكونُ مِثلُهم.



الشَّهَادَةُ بالجَنَّةِ أَو النَّار

الشَّهادةُ بالجنَّةِ على نَوعين:

[١] عامَّةٍ:

أن نشهَدَ لعُمومِ المُؤمنينَ بالجنَّةِ دونَ شخصٍ بعَينِه، ودليلُها قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ [الكهف].

[٢] وخاصَّةٍ:

أن نشهَدَ لشخصٍ مُعيَّنٍ بالجنَّةِ، وهذا يتوقَّفُ علىٰ دليلٍ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ، فمَن شهِدَ له النَّبيُّ ﷺ شهدنا له؛ مثل: العشرة، وثابتِ بن قيسِ بن شمَّاسٍ، وعُكاشة بن مِحصَنٍ، وغيرِهم مِن الصَّحابةِ.

الشَّهادةُ بالنَّارِ على نَوعين:

[١] عامَّةٍ:

أن نشهَدَ علىٰ عُمومِ الكُفَّارِ بأنَّهم في النَّارِ، ودليلُها قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا﴾ [النِّساء:٥٦].

[٢] وخاصَّةٍ:

أن نشهَدَ لشَخصٍ مُعيَّنٍ بالنَّارِ، وهذا يتوقَّفُ علىٰ دليلٍ من الكتابِ والسُّنَّةِ؛ مثل: أبي لهبٍ وامرأتِه، ومثلَ: أبي طالبٍ، وعَمرِو بن لُحَيٍّ الخُزاعِيِّ.



قَوْلُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالْجَماعَةِ فِي كَرَامَاتِ الأَوْلِياءِ

القولُ في الكَراماتِ:

[١] **قولُ أهلِ السُّنَّةِ:** أنَّها ثابتةٌ واقعةٌ، ودليلُهم في ذلك ما ذكَرَه اللهُ في القُرآنِ عن أصحابِ الكهفِ وغيرِهم، وما يُشاهِدُه النَّاسُ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ.

[٢] **قولُ الـمُعتَزلةِ:** خالف فيها المُعتزلَةُ مُحتَجِّينَ بأنَّ إثباتَها يوجِبُ اشتباهَ الوَلِيِّ بالنَّبيِّ، والسَّاحِرِ بالوليِّ.

والرَّدُّ عليهم بأمرين:

[أ] أنَّ الكرامَةَ ثابتةٌ بالشَّرعِ والمُشاهدَةِ، فإنكارُها مُكابَرَةٌ.

[ب] أنَّ ما ادَّعَوْهُ:

من اشتباهِ الوَلِيِّ بالنَّبيِّ: غيرُ صَحيحٍ؛ لأنَّه لا نبيَّ بعد مُحمَّدٍ ﷺ، ولأنَّ النَّبيَّ يقولُ: إنَّه نبيٌّ، فيُؤَيِّدُه اللهُ بالمُعجِزةِ، والوَلِيُّ لا يَقُول: إنَّه نبيٌّ.

من اشتباهِ السَّاحرِ بالوَلِيِّ: غير صحيحٍ؛ لأنَّ الوَلِيَّ مُؤمنٌ تقيٌّ، تأتيه الكَرامَةُ مِن اللهِ بدونِ عملٍ لها، ولا يُمكنُ مُعارضَتُها، أمَّا السَّاحرُ فكافرٌ مُنحرِفٌ يحصُلُ له أثرُ سِحرِه بما يتعاطاهُ مِن أسبابِه، ويُمكِنُ أن يُعارَضَ بسِحرٍ آخرَ.

مَعنى الوَلِيِّ والكَرامةِ:

[١] **الوَلِيُّ:** كلُّ مُؤمنٍ تقِيٍّ، قائمٍ بطاعةِ الله تعالىٰ علىٰ الوَجهِ المَطلوبِ شَرعًا.

[٢] **الكَرامَةُ:** أمرٌ خارقٌ للعادةِ، يُظهِرُه اللهُ علىٰ يدِ وليٍّ مِن أوليائِه تكريمًا له أو نُصرةً لدينِ اللهِ.



فوائدُ الكَرامةِ:

[١] بيانُ قُدرَةِ اللهِ.

[٢] نُصرَةُ الدِّينِ، أو تكريمُ الوَليِّ.

[٣] زِيادَةُ الإيمانِ والتَّثبيتِ للوليِّ الَّذي ظهرَت علىٰ يدِه وغيرِه.

[٤] أنَّها مِن البُشرىٰ لذلك الوليِّ.

[٥] أنَّها مُعجزةٌ للرَّسولِ الَّذي تمسَّكَ الوليُّ بدينِه؛ لأنَّها كالشَّهادةِ للوليِّ بأنَّهُ علىٰ حقٍّ.

الفرقُ بينَ الكَرامةِ والـمُعجِزةِ:

أنَّ الكَرامةَ تحصُلُ للوَلِيِّ، والمُعجزةَ للنَّبيِّ.

الكَرامةُ نَوعانِ:

[١] في العُلومِ والـمُكاشَفات:

بأن يحصُلَ للولِيِّ مِن العلمِ ما لا يحصُلُ لغَيرِه، أو يُكشَفَ له من الأمورِ الغائبةِ عنه ما لا يُكشَفُ لغَيرِه؛ كما حصلَ لعُمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حينَ كُشِفَ له وهو يخطُبُ في المَدينةِ عن إحدىٰ السَّرايا المَحصورةِ في العِراقِ، فقال لقائدها -واسمُه: ساريةُ بنُ زُنَيمٍ-: (الجبلَ يا ساريةُ)، فسمِعَه القائدُ فاعتصمَ بالجبل.

[٢] في القُدرةِ والتَّأثيرِ:

بأن يَحصُلَّ للولِيِّ مِن القُدرةِ والتَّأثيراتِ ما لا يحصُلُ لغَيرِه؛ كما وقع للعلاءِ بن الحَضرمِيِّ حين عبَرَ البحرَ يمشي علىٰ مَتنِ الماءِ.



طَريقَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

طَريقَتُهُمْ فِي سِيرَتِهِم وَعِلْمِهِمْ:

[١] اتِّباعُ آثار النَّبيِّ ﷺ وآثار الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

[٢] الأمرُ بالمَعروفِ والنَّهيُ عن المُنكَرِ، علىٰ ما توجِبُه الشَّريعةُ.

[٣] النُّصحُ لوُلاةِ الأُمورِ.

[٤] النُّصحُ لجَميعِ الأُمَّةِ.

[٥] الدَّعوَةُ إلىٰ مَكارِمِ الأخلاقِ ومَحاسِنِ الأعمالِ.

[٦] النَّهيُ عن مَساوِئِ الأخلاقِ.

الصِّفةُ الأولى: الاتِّباعُ

اتِّباعُ آثار النَّبيِّ ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وآثارِ الأوَّلينَ السَّابقينَ مِن المُهاجِرينَ والأنصارِ؛ امتثالًا لقولِه ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي...**». الحديثُ أخرجه بعض أصحاب «السُّنن». والخُلَفاءُ الرَّاشدون هم الَّذين خَلَفوا النَّبيَّ ﷺ في أُمَّتِه في: العلمِ، والإيمانِ، والدَّعوةِ إلىٰ الحقِّ.

وأولىٰ النَّاس بهذا الوَصفِ الخُلفاءُ الأربعةُ: أبو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

الصِّفةُ الثَّانية: الأمرُ بالـمَعروفِ والنَّهيُ عن الـمُنكرِ

[١] الـمَعروفُ: ما عُرِفَ حُسْنُه شَرعًا.

[٢] الـمُنكَرُ: ما عُرِفَ قُبحُه شَرعًا.

فما به أمرَ الشَّارعُ به فهو مَعروفٌ، وما نَهىٰ عنه فهو مُنكَرٌ.



شُروطُ الأمرِ بالـمَعروفِ والنَّهي عن الـمُنكَر:

[١] أن يكونَ المُتولِّي لذلك عالمًا بالمَعروفِ وبالمُنكَرِ.

[٢] ألَّا يخافَ ضررًا علىٰ نفسِه.

[٣] ألَّا يترتَّبَ علىٰ ذلك مَفسدَةٌ أكبَرُ.

الصِّفةُ الثَّالثةُ: النُّصحُ لوُلاةِ الأمورِ

طريقتُهم النُّصحُ لوُلاةِ الأُمورِ، وإقامةُ الحجِّ، والجِهادِ، والجُمَعِ، والأعيادِ معهم، سواءٌ كانوا أبرارًا أو فُجَّارًا، والتزامُ السَّمعِ والطَّاعةِ لهم؛ ما لم يَأمُرُوا بمَعصيَةِ اللهِ.

الصِّفةُ الرَّابعةُ: النُّصحُ لجَميعِ الأُمَّة

طريقتُهم النُّصحُ لجميعِ الأُمَّةِ، وبَثُّ المَحبَّةِ، والأُلفَةِ، والتَّعاوُنِ بين المُسلِمينَ، مُطَبِّقِينَ في ذلك قولَ النَّبيِّ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**». مُتَّفَقٌ عليه. وقولَه: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ = كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ**». مُتَّفَقٌ عليه.

الصِّفةُ الخامسةُ: الدَّعوَةُ إلى مَكارمِ الأخلاقِ

الدَّعوَةُ إلىٰ مَكارِمِ الأخلاقِ، ومَحاسِنِ الأعمالِ؛ كالصِّدقِ، والبِرِّ، والإحسانِ إلىٰ الخَلقِ، والشُّكرِ عند النِّعَمِ، والصَّبرِ علىٰ البَلاءِ، وحُسنِ الْجِوارِ والصُّحبَةِ، وغيرِ ذلك من الأخلاقِ المَحمودةِ شرعًا وعُرفًا.



الصِّفةُ السَّادسةُ: النَّهيُّ عن مَساوئِ الأخلاقِ

النَّهيُ عن مَساوئِ الأخلاقِ؛ كالكذبِ، والعُقوقِ، والإساءةِ إلىٰ الخَلقِ، والتَّسخُّطِ مِن القَضاءِ، والكُفرِ بالنِّعمَةِ، والإساءةِ إلىٰ الجيرانِ والأصحابِ، وغيرِ ذلك من الأخلاقِ المَذمومَةِ شرعًا أو عُرفًا.

الأُمُورُ التِي يَزِنُ بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالأَعْمَالِ وَالأَخْلَاقِ:

[١] **الكِتابُ:** وهو القُرآنُ.

[٢] **السُّنَّةُ:** وهي: (قولُ النَّبيِّ ﷺ، وفعلُه، وإقرارُه).

[٣] **الإجماعُ:** وهو: (اتِّفاقُ العُلماءِ المُجتَهِدينَ مِن هذه الأُمَّةِ بعد النَّبيِّ ﷺ علىٰ حُكمٍ شَرعِيٍّ).
والإجماعُ الَّذي ينضبِطُ ما كان عليه السَّلفُ الصَّالحُ؛ إذ بعدَهُم كثُرَ الاختِلافُ، وانتَشرَتِ الأُمَّةُ.

ولم يَذكُرِ المُؤلِّفُ القياسَ؛ لأنَّ مَرَدَّهُ إلىٰ هذه الأصولِ الثَّلاثةِ.

الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ وَالأَبْدَالُ:

[١] **الصِّدِّيقُونَ:** الصَّادقونَ باعتقادِهم، وقولِهم، وعملِهم، والمُصدِّقونَ بالحقِّ.

[٢] **الشُّهَدَاءُ:** الَّذين قُتِلوا في سبيلِ الله، وقيلَ: العُلماءُ.

[٣] **الصَّالِحُونَ:** الَّذين صَلُحَتْ قُلوبُهم وجَوارِحُهم بما قاموا به مِن الأعمالِ الصَّالحةِ.

[٤] **الأَبْدَالُ:** الَّذين يخلُفُ بعضُهم بعضًا في نصرِ الدِّينِ، والدِّفاعِ عنهُ، كلَّما ذهب منهُم واحدٌ خلَفَه آخرُ بدَلَهُ.

وكلُّ هؤلاءِ الأصنافِ الأربعةِ مَوجودونَ في أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ.



الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ إِلَى قِيامِ السَّاعَةِ:

[١] الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ:

هم: أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ الَّذين قال فيهم النَّبيُّ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**»، وفي روايةٍ: «**حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**». أخرجه الشَّيخان بنحوه.

[٢] الْمُرَادُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ:

قُربُ قِيامِها، وإنَّما أوَّلناهُ بذلك لأجلِ أن يصِحَّ الجمعُ بينه وبين حديث: «**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ**». أخرجه البخاريُّ. وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ هم خِيارُ الخَلقِ بعد الأنبياءِ، فلا يمكنُ أن تُدرِكَهُم السَّاعةُ.

نسألُ اللهَ أن يجعلَنا من أهل السُّنَّة والجماعةِ، وألَّا يُزيغَ قُلوبَنا بعد إذ هدانا، وأن يهبَ لنا مِنه رحمةً؛ إنَّهُ هو الوَهَّابُ.

وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ، وعلىٰ آلِه وصَحبِه أجمعينَ.



اختبارٌ على الواسطيَّة

[١] اخترِ الإجابةَ الصَّحيحة:

- لماذا ندرس قواعد الأسماء والصِّفات الَّتي وردت في «العقيدة الواسطيَّة»؟
  - ☐ لأنَّها طريقة أهل السُّنَّة والجماعة في دراسة الأسماء والصِّفات.
  - ☐ لأنَّ القواعد تجمع أمورًا كثيرةً مُتفرِّقةً في كلامٍ مُوجَزٍ مُختصرٍ.
  - ☐ لأنَّنا بهذه القواعدِ نستطيع الرَّدَّ على أهل البدع. ☐ الجميع.
- من وضع هذه القواعدَ؟
  - ☐ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ☐ قِسمٌ منها في الأصل نصٌّ من الكتاب والسُّنَّة.
  - ☐ قسمٌ ثانٍ وضعه أهلُ السُّنَّةِ والجماعة. ☐ القسم الثَّاني وُضع عن طريق الاجتهاد.
  - ☐ الجميعُ إلَّا الأوَّل.
- لماذا وُضِعت هذه القواعدُ؟
  - ☐ حتَّى يجمعوا مسائل شوارد في قاعدةٍ موجزةٍ.
  - ☐ لأنَّ هذه هي طريقة السَّلف في دراسة الأسماء والصِّفاتِ. ☐ كلاهما.
- ما الَّذي نفعلُه إذا خالفت هذه القواعدُ النَّصَّ؟
  - ☐ المقصود بها القسم الأوَّل. ☐ المقصود بها القسم الثَّاني. ☐ العبرة بالنَّصِّ.
  - ☐ العبرة بالقاعدة. ☐ الأوَّل والثَّالث.
- لماذا؟
  - ☐ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾[النِّساء:٥٩]. ☐ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾[آل عمران:٧]. ☐ لقوله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾[النُّور]. ☐ الأوَّل والثَّالث.

- خلاصة هذه القواعد:

□ إثبات كلِّ ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ. □ تنزيه الله تعالىٰ عن مُماثلة المخلوقين. □ أنَّ المعانيَ معلومةٌ، والكيفيَّةَ عند الله، والسُّؤالَ عنها بدعةٌ. □ الجميعُ.

- هل اختلف الصَّحابة في هذه القواعد؟ □ نعم. □ لا.
- هل التَّفويض هو طريقة الصَّحابة؟ □ نعم. □ لا.
- ينبني علىٰ القول بالتَّفويض:

□ تكذيب القرآن. □ تجهيل النَّبيِّ ﷺ والصَّحابة، والسَّلف الصَّالح.

□ استطالة الفلاسفة. □ الجميع.

- هل تُنسخ الأسماء والصِّفات؟ □ نعم. □ لا.
- ما هي الحكمة من المُتشابه؟

□ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الأنبياء]، ونحن عبيدٌ، والعبد ليس له إلَّا السَّمع والطَّاعة و الرِّضا والتَّسليم. □ حتَّىٰ يُعلَم الَّذين في قلوبهم زيغٌ.

□ حتَّىٰ يجتهد العلماء ويردُّوا الآيات المُتشابهة إلىٰ الآيات المُحكمة، ويحصل لهم بهذا الأجر. □ حتَّىٰ يُعلَم أنَّ القرآن لا يمكن أن يكون فيه تعارضٌ أو اختلافٌ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النِّساء]. □ الجميع.

- هل آياتُ الأسماء والصِّفات من المُحكم أم من المُتشابه؟

□ من المُحكم البيِّن الواضح من حيث المعنىٰ. □ من المُتشابه تشابُهًا مُطلقًا، لا يعلمها إلَّا الله ﷻ من حيث الكيفيَّةُ. □ الأوَّل والثَّاني.

- هل في القرآن ما لا يمكن الوصول إلىٰ معناه؟ □ نعم. □ لا.
- لماذا؟

□ لأنَّ الله خاطبنا لما نعقل ونفهم. □ لأنَّ الله أمرنا بتدبُّر كلامه، ولم يستثن شيئًا.

□ الجميع.

- أقسام النَّاس في المجاز: □ ثلاثةٌ. □ أربعةٌ. □ اثنان.
- والرَّاجح منها: □ القسم الأوَّل. □ القسم الثَّالث.



- وسبب ذلك:

□ حتَّىٰ تكون القاعدة مُطَّردةً. □ لأنَّ شيخ الإسلام قال بأنَّه اصطلاحٌ حادثٌ، حدث بعد انقراض القرون الثَّلاثة المُفضَّلة، ولم يقل به الصَّحابة والتَّابعون وأتباعهم.

□ أنَّه سلاح أهل البدع. □ أنَّه يفتح باب شرٍّ علىٰ النَّاس؛ لأنَّه من فتح هذا الباب يبدا في التَّلاعب في نصوص الكتاب والسُّنَّة. □ أنَّ من أنكر المجاز لا يلحق اسمٌ، بخلاف من أنكر حرفًا واحدًا من القرآن فإنَّه قد يكفر. □ الجميع.

- سبب دراسة الأسماء والصِّفات:

□ حتَّىٰ نحقِّق التَّوحيد؛ بل لا يكون موحِّدًا حتَّىٰ يُفرد الله بأنواع التَّوحيد الثَّلاثة.

□ تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ فيها حياة القلوب، وأعظم شيءٍ لحياتها وأشرف العلوم التَّعرُّف علىٰ الله. □ دخول الجنَّة؛ لقوله ﷺ: «**للهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**».

□ لأنَّ هذا هو الأصل الَّذي كان عليه السَّلف.

□ حتَّىٰ لا نقع فيما وقعت فيه الفرق الضَّالَّة من التَّمثيل والتَّعطيل.

□ لندعو الله تعالىٰ بها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠].

□ الجميع.

- طريقة دراسة الأسماء والصِّفات:

□ العلم عبادةٌ، ولابدَّ أن نسير علىٰ النَّهج الَّذي سار عليه النَّبيُّ ﷺ والصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

□ أن يكون الغرض من الدِّراسة تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا لمَّا سُئل الإمام مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عن الاستواء طأطأ رأسه وعلاه العرق؛ لأنَّه سُئل عن عظيم.

□ ذكر الدَّليل أوَّلًا، ثمَّ الاعتقاد ثانيًا، والمُخالفون لأهل السُّنَّة يعتقدون أشياء ثمَّ يبحثون لها عن أدلَّةٍ فلا يجدونن فيتخبَّطون ويقعون في البدع.

□ نطبِّق طريقة الشَّافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (آمن تهتد)، فنؤمن بما جاء عن الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ مُراد الله عَزَّوَجَلَّ، ونؤمن بما جاء عن رسول الله ﷺ علىٰ مُراد رسول الله ﷺ. □ الجميع.



- كيف نُدرِّس الأسماء والصِّفات للعَوامِّ؟

☐ ندرِّسهم كلَّ الأمور، ونفصِّل لهم، ونذكر لهم الرُّدود وأقوال أهل البدع.

☐ لا ندرِّسهم شيئًا. ☐ نتدرَّج بهم حتَّىٰ نصل إلىٰ الكمال.

- هل يجوز أن نشير باليد عند الكلام عن الصِّفات؟

☐ العبرة بالمُخاطب. ☐ يجوز بما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أشار.

☐ لا يجوز؛ خوفًا من أن يتوهَّم المُخاطب التَّمثيل.

- الإلحاد يكون في: ☐ الآيات. ☐ الأسماء والصِّفات. ☐ الجميع.
- ينقسم الإلحاد في ... إلىٰ قسمين: ☐ الآيات. ☐ الأسماء والصِّفات. ☐ الجميع.
- والقسمان هما:

☐ شرعيٌّ. ☐ كونيٌّ. ☐ إنكاريٌّ. ☐ الأوَّل والثَّاني. ☐ الأوَّل والثَّالث.

- وينقسم الإلحاد في ... إلىٰ خمسة أقسام: ☐ الآيات. ☐ الأسماء والصِّفات.
- ينقسم التَّحريف إلىٰ: ☐ أربعة أقسام. ☐ ثلاثة أقسام. ☐ قسمين.
- في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾[النِّساء]؛ هناك من جعل المُتكلِّم هو موسىٰ عليه السلام، وهذا تحريفٌ في: ☐ الألفاظ. ☐ المعاني.
- التَّعبير بالتَّحريف أولىٰ من التَّعبير بالتَّأويل:

☐ لأنَّ هذا هو الَّذي جاء في القرآن فلا نعدل عنه. ☐ لأنَّه أقرب للعدل، فهم أهل تحريفٍ وليسوا أهل تأويل. ☐ تنفيرًا للنَّاس منهم؛ لأنَّ أهل التَّحريف لو وصفتهم بالتَّأويل فرحوا. ☐ لأنَّ التَّاويل ليس كلُّه مذمومًا، فما دلَّ عليه دليلٌ فهو صحيحٌ مقبولٌ، وما لم يدلَّ عليه دليلٌ فهو فاسدٌ مردودٌ، أمَّا التَّحريف فكلُّه مذمومٌ. ☐ الجميع.

- التَّعبير بالتَّمثيل أولىٰ من التَّعبير بالتَّشبيه:

☐ لأنَّ التَّمثيل هو الَّذي جاء به القرآن، وهو منفيٌّ مُطلقًا؛ بخلاف التَّشبيه.

☐ لأنَّ نفي التَّشبيع علىٰ الإطلاق لا يصحُّ، فكلُّ مَوجودَين لابدَّ أن يكون بينهما قدرٌ مُشتركٌ يشتبهان فيه، ويتميَّز كلُّ واحدٍ بما يختصُّ به. ☐ لأنَّ النَّاس اختلفوا في مُسمَّىٰ التَّشبيه، فجعل بعضهم إثبات الصِّفات تشبيهًا. ☐ الجميع.

- التَّكييف يكون بـ: ☐ اللِّسان. ☐ القلب. ☐ البَنان. ☐ الجميع.



- تُعلم كيفيَّة الصِّفة بـ: ☐ الرُّؤية بالعين. ☐ وجود المثيل. ☐ إخبار الصَّادق. ☐ الجميع.
- أقسام التَّعطيل: ☐ اثنان. ☐ ثلاثةٌ. ☐ أربعةٌ.
- أقسام الإنكار: ☐ اثنان. ☐ ثلاثةٌ. ☐ أربعةٌ.
- ينقسم إنكار التَّأويل إلىٰ:

☐ تأويلٍ له مُسوِّغٌ في اللُّغة. ☐ تأويلٍ ليس له مُسوِّغٌ في اللُّغة.

☐ إنكار تكذيب. ☐ إنكار جحودٍ. ☐ الأوَّل والثَّاني. ☐ الثَّالث والرَّابع.

- دلالات الاسم: ☐ دلالة المُطابقة. ☐ دلالة التَّضمُّن. ☐ دلالة الالتزام. ☐ الجميع.
- الاسم مُشتقٌّ من:

☐ السُّمُوِّ وهو الارتفاع؛ فالمُسمَّىٰ يرتفع باسمه ويتبيَّن ويظهر.

☐ السِّمة وهي العلامة؛ فهو علامةٌ علىٰ مُسمَّاه. ☐ الجميع.

- الدَّليل علىٰ أنَّ أسماء الله عَزَّوَجَلَّ غير محصورةٍ بعددٍ:

☐ قوله ﷺ: «**أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**».

☐ قوله ﷺ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**».

- معنىٰ «**مَنْ أَحْصَاهَا**»:

☐ أحصاها عدًّا. ☐ أحصاها حفظًا. ☐ آمن بها وعمل بمُقتَضاها. ☐ الجميع.

- يتحقَّق الإيمان بالاسم:

☐ بإثباته. ☐ بتنزيه الله تعالىٰ عن مُشابهة المَخلوقين.

☐ بتحقيق قاعدة: (المعنىٰ معلومٌ، والكيف مَجهولٌ، والسُّؤال عنه بدعةٌ). ☐ الجميع.

- لا يتحقَّق الإيمان بالاسم إلَّا بـ:

☐ الإيمان به اسمًا من الأسماء الحسنىٰ. ☐ الإيمان بما تضمَّنه من صفةٍ.

☐ الإيمان بما تدلُّ عليه الصِّفة من الأثر والحكم إذا كان الاسم مُتعدِّيًا. ☐ الجميع.

- يُعرَف الاسم بأنَّه مُتعدٍّ: ☐ إذا اشتُقَّ منه مصدرٌ. ☐ إذا اشتُقَّ منه فعلٌ. ☐ الجميع.
- من أمثلة الاسم المُتعدِّي: ☐ السَّميع. ☐ النَّصير. ☐ الحيُّ. ☐ الحفيظ. ☐ القيُّوم.
- يُعرَف الاسم بأنَّه لازمٌ: ☐ إذا لم يُشتَقَّ منه مصدرٌ. ☐ إذا لم يُشتَقَّ منه فعلٌ. ☐ الجميع.



- من أمثلة الاسم اللَّازم:

☐ الحيُّ. ☐ العظيم. ☐ العليُّ. ☐ البارئ. ☐ الخالق. ☐ الأوَّل. ☐ القويُّ.

- دعاء الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه من: ☐ دعاء المسألة. ☐ دعاء العبادة. ☐ الجميع.
- من أمثلة دعاء المسألة: ☐ يا غفورُ اغفر لي. ☐ يا رحيم ارحمني. ☐ الجميع.
- من أمثلة دعاء العبادة:

☐ خوف الله عَزَّوَجَلَّ لأنَّه رقيبٌ، فلا يفعل ولا يقول إلَّا من يرضي الله عَزَّوَجَلَّ.

☐ التَّوكُّل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ الأمور؛ لأنَّه هو العزيز الرَّحيم. ☐ الجميع.

- هل الأسماء مُختصَّةٌ؟ ☐ منها ما هو مُختصٌّ. ☐ منها ما هو غير مُختصٍّ. ☐ الجميع.
- حكم التَّسمِّي بأسماء الله عَزَّوَجَلَّ:

☐ جائزٌ. ☐ مُحرَّمٌ. ☐ فيه تفصيلٌ.

☐ الأسماء المُختصَّة لا يصحُّ التَّسمِّي بها إطلاقًا؛ مثل الرَّحمن، وربِّ العالمين.

☐ الأسماء غير المُختصَّة يصحُّ التَّسمِّي بها علىٰ أنَّها أعلامٌ محضةٌ، فإن قُصد بها الوصف الَّذي لا يكون إلَّا لله مُنع التَّسمِّي بها. ☐ الجميع إلَّا الأوَّل والثَّاني.

- هل أسماء الله عَزَّوَجَلَّ أعلامٌ أم أوصافٌ؟ ☐ أعلامٌ. ☐ أوصافٌ. ☐ أعلامٌ وأوصافٌ.
- طرق عدِّ أسماء الله عَزَّوَجَلَّ:

☐ الاعتماد علىٰ العدِّ الوارد في الحديث، والزِّيادة فيه ضعيفةٌ.

☐ طريقة المُقتصرين علىٰ ما ورد بصيغة الاسم، وهو مذهب الظَّاهريَّة.

☐ طريقة المُتوسِّعين الَّذين أثبتوا كلَّ الأسماء، واشتقُّوا من كلِّ صفةٍ اسمًا.

☐ طريقة المُتوسِّطين أو المُعتدلين، وهي طريقة أهل السُّنَّة والجماعة، أثبتوا كلَّ الأسماء الواردة بصيغة الاسم في الكتاب والسُّنَّة، وأخذوا من بعض الصِّفات أسناء بشركين: أن تتضمَّن الصِّفة المدح والكمال، وأن تثبت من الكتاب أو السُّنَّة الصَّحيحة. ☐ الجميع.

- هل يُشتقُّ من الصِّفة اسمٌ؟ ☐ نعم. ☐ لا. ☐ يُؤخذ بشروطٍ، فإن اختلَّت لم يُؤخذ.
- ما هي شروط اشتقاق الاسم من الصِّفة؟

☐ أن تتضمَّن مدحًا وكمالًا. ☐ أن تثبت من الكتاب أو السُّنَّة الصَّحيحة. ☐ الجميع.

- أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: ☐ مُشتقَّةٌ. ☐ جامدةٌ.



- معنىٰ ذلك: ☐ أنَّ كلَّ اسم لابدَّ أن يتضمَّن صفةً. ☐ أنَّ كلَّ صفةٍ لابدَّ أن تتضمَّن اسمًا.
- هل أسماء الله عَزَّوَجَلَّ مُترادفةٌ أم مُتباينةٌ:

☐ مُترادفةٌ باعتبار دلالتها علىٰ ذات الله عَزَّوَجَلَّ. ☐ مُتباينةٌ باعتبار معانيها. ☐ الجميع.

- وضِّح ذلك:

....

....

....

- معنىٰ كون أسماء الله عَزَّوَجَلَّ توقيفيَّةً:

☐ أنَّه لا مجال للعقل والاجتهاد فيها. ☐ أن نتوقَّف فيها علىٰ ما ورد في الكتاب والسُّنَّة.

☐ الجميع.

- والدَّليل علىٰ كونها توقيفيَّةً:

....

....

- هل الأسماء أكثر أم الصِّفات؟ ☐ الأسماء أكثر. ☐ الصِّفات أكثر.
- لماذا؟ ☐ لأنَّ كلَّ اسم مُتضمِّنٌ لصفةٍ. ☐ لأنَّ كلَّ صفةٍ يُشتقُّ منها اسمٌ.
- أقسام الأسماء الحسنىٰ باعتبار إطلاقها علىٰ الله: ☐ اثنان. ☐ أربعةٌ. ☐ ثلاثةٌ.
- الحُسن في الأسماء معناه: ☐ الكمال. ☐ بلوغ الحسن غايته. ☐ الجميع.
- يكون الحسن في: ☐ كلِّ اسم مُنفردٍ. ☐ جمع الاسم إلىٰ غيره من الأسماء. ☐ الجميع.
- والدَّليل علىٰ ذلك:

....

....

- أقسام الصِّفات: ☐ اثنان. ☐ ثلاثةٌ. ☐ أربعةٌ.
- القول في الصِّفات المَنفيَّة:

☐ نفيُها عن الله عَزَّوَجَلَّ كما نفاها عن نفسه، وكما نفاها عنه رسوله ﷺ.

☐ إثبات كمال ضدِّها. ☐ الجميع.



❁ الفرق بين الصِّفة والخبر أنَّ:

☐ باب الأخبار أوسع من باب الصِّفات. ☐ باب الصِّفات أوسع من باب الأخبار.

❁ القول في الجهة والمكان لله عَزَّوَجَلَّ:

☐ نسأل عن المُراد من السُّؤال لتعليهم اللَّفظ الوارد في الكتاب والسُّنَّة، أو لإبطال قولهم.

☐ لم يردا في الكتاب والسُّنَّة؛ فلا نثبت ولا ننفي. ☐ الأوَّل والثَّاني.

❁ القول في الجسم لله عَزَّوَجَلَّ:

☐ نثبته. ☐ ننفيه. ☐ لم يرد ذكره في الكتاب والسُّنَّة، فلا نثبته ولا ننفيه.

❁ هل ظاهر الأسماء والصِّفات مُرادٌ أم لا:

☐ هذا السُّؤال لم يرد عن السَّلف. ☐ نقول: ماذا تريد بهذا السُّؤال، لتوقعنا في التَّعطيل أم في التَّمثيل؟ ☐ إذا أردت به ظاهر آيات الأسماء والصِّفات فظاهرها معلوم المعنىٰ، ونؤمن أنَّ لها كيفيَّةً ليق بجلال الله وعظمته، لكنَّنا لا نعلمها، هذا الظَّاهر المُراد.

☐ إذا أردت انَّ ظاهر نصوص الأسماء والصِّفات التَّمثيل فهذا غير مُرادٍ. ☐ الجميع.

❁ سبب تسمية هذه الرِّسالة بـ«العقيدة الواسطيَّة»:

☐ أنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر فيها وسطيَّة أهل السُّنَّة والجماعة بين الفرق الأخرىٰ.

☐ أنَّ الرِّسالة كانت إجابةً لسؤال أحد قضاة بلدة واسط. ☐ الجميع.

❁ مدَّة كتابة شيخ الإسلام لـ«العقيدة الواسطيَّة»:

☐ شهرٌ. ☐ أسبوعٌ. ☐ من بعد العصر إلىٰ قبل المغرب.

❁ الانتقادات علىٰ «العقيدة الواسطيَّة»:

☐ أنَّ مُؤلِّف الرِّسالة معصومٌ، ولا يمكنه الوقع في الخطأ. ☐ فيها أخطاءٌ، لكن يردُّ عليها الشَّارح بلطفٍ أثناء الشَّرح حتَّىٰ لا تكون سلاحًا لأهل البدع.

❁ أقسام «العقيدة الواسطيَّة»: ☐ ثلاثةٌ. ☐ تسعةٌ. ☐ اثنا عشر.

❁ من مُميِّزات «العقيدة الواسطيَّة»:

☐ أنَّها وجيزةٌ مُختصرةٌ، ومع ذلك تشمل مُعظم مباحث الاعتقاد عند أهل السُّنَّة.

☐ أنَّ مُؤلِّفها تحرَّىٰ ذكر ألفاظ النُّصوص؛ كـ(التَّحريف) بدل التَّأويل.

☐ أنَّها مُدعَّمةٌ بنصوص الكتاب والسُّنَّة. ☐ الجميع.



- سبب دراسة «العقيدة الواسطيَّة»:

☐ نصيحة العلماء بها؛ لأنَّنا طلَّابٌ، وليس لنا أن نبتدع طريقةً جديدةً في طلبنا للعلم.

☐ أنَّها من أسهل كتب شيخ الإسلام وأحسنها.

☐ أنَّها من أحسن ما كُتب في مُجمل اعتقاد أهل السُّنَّة. ☐ كثرة شروحات العلماء عليها.

☐ أنَّ فيها الكثير من نصوص الكتاب والسُّنَّة. ☐ الجميع.

[٢] حدِّد نوع الإلحاد في الأمثلة التَّاليَّة:

السُّؤال	إلحادٌ في الآيات	إلحادٌ في الأسماء والصِّفات
شرعيٌّ:	☐	☐
كونيٌّ:	☐	☐
إنكار الأسماء كلِّها أو بعضها، أو إنكار ما دلَّت عليه من المعاني:	☐	☐
إثبات الاسم وإنكار الصِّفة:	☐	☐
تسمية الأصنام باللَّات والعُزَّى:	☐	☐
تسمية الله عَزَّوَجَلَّ بما لم يُسمِّ به نفسه؛ مثل: العلَّة الفاعلة، أو ثالث ثلاثةٍ، أو القادر علىٰ الاختراع:	☐	☐
قول: (الطَّبيعة تخلق الأشياء):	☐	☐
قول: (القرآن مخلوقٌ):	☐	☐
قول: (خداي) باللُّغة الفارسيَّة:	☐	☐

[٣] اربط الأسماء الحسنى بنوعها:

الاسم:	الأسماء المُفردة:	الأسماء المُقترنة:	الأسماء المُزدوجة:
العزيز:	☐	☐	☐
الرَّحمن:	☐	☐	☐
الرَّحيم:	☐	☐	☐



الاسم:	الأسماء المُفردة:	الأسماء المُقترنة:	الأسماء المُزدوجة:
السَّميع:	☐	☐	☐
البصير:	☐	☐	☐
الأوَّل والآخر:	☐	☐	☐
الظَّاهر والباطن:	☐	☐	☐

[٤] اربط الصِّفات بنوعها:

الاسم:	ذاتيَّةٌ:	فعليَّةٌ:	خبريَّةٌ:
صفة اليدين:	☐	☐	☐
صفة الكلام:	☐	☐	☐
خلق آدم:	☐	☐	☐

[٥] اربط السَّبب بدليله:

الاسم:	دفع ما ادَّعاه الكاذبون في حقِّه عَزَّوَجَلَّ:	دفع توهُّم النَّقص:	العموم:
قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورىٰ].	☐	☐	☐
قوله تعالىٰ: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم].	☐	☐	☐
قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء].	☐	☐	☐

[٦] أجب بـ «صح» أو «خطأ»:

السُّؤال	صح	خطأ
۞ نردُّ علىٰ من جعل المُتكلِّم في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النِّساء] هو موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣].	☐	☐



السُّؤال	صح	خطأ
۞ جعل لفظ (استوىٰ) في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] بمعنىٰ (استولىٰ) من تحريف المعاني.	☐	☐
۞ الجواب الصَّحيح لمن سأل عن الكيفيَّة هو: (الكيف مجهولٌ، والسُّؤال عنه بدعةٌ).	☐	☐
۞ أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ محصورةٌ بعددٍ.	☐	☐
۞ معنىٰ (القول في الذَّات كالقول في الصِّفات) أنَّ إثبات ذاتٍ لله تعالىٰ ليست ذوات المخلوقين يلزم منه إثبات صفاتٍ لله تعالىٰ ليست كصفات المخلوقين.	☐	☐
۞ القول في بعض الصِّفات كالقول في البعض الآخر إذ لا فرق.	☐	☐
۞ كلُّ كمالٍ للمخلوق يكون كمالًا للخالق.	☐	☐

[٧] املأ الفراغ فيما يلي:

۞ اذكر قواعد الأسماء والصِّفات:

....

....

....

....

....

....

....

....

....



اختبارٌ عامٌّ في العقيدة:

[١] اختر الجواب الصَّحيح فيما يلي:

السُّؤال	الخيارات		
مُؤلِّف «ثلاثة الأصول وأدلَّتها»:	محمَّد بن سليمان التَّميميُّ.	محمَّد بن عبد الوهَّاب.	جميع ما تقدَّم.
أركان الإيمان:	خمسةٌ.	ستَّةٌ.	سبعةٌ.
شهادة أن (لا إله إلَّا الله) لها:	ركنان.	ثمانية أركانٍ.	سبعة أركانٍ.
إفراد الله بتدبير الكون وإنزال المطر هو توحيد:	الألوهيَّة.	الرُّبوبيَّة.	الأسماء والصِّفات.
ممَّا ينافي أصل التَّوحيد:	الشِّرك الأكبر.	الشِّرك الأصغر.	البدع.
نهى النَّبيُّ ﷺ مُعاذًا أن يُبشِّر النَّاس لئلَّا:	يتنافسوا.	يتَّكلوا.	جميع ما تقدَّم.
التَّمسُّح بالحجر الأسود تبرُّكًا:	مَشروعٌ.	مَمنوعٌ.	فيه تفصيلٌ.
من يزور القبور ليدعو الله عندها:	مُشركٌ.	مُبتدعٌ.	مُوحِّدٌ.
الصَّلاة في المساجد الَّتي فيها قبورٌ:	صحيحةٌ.	باطلةٌ.	مَكروهةٌ.
ما يعطيه أحد الخصمين للقاضي:	هدايا عُمَّالٍ.	رِشوةٌ.	الجميع.
أوَّل المخلوقات:	القلم.	العرش.	الكرسيُّ.
القائل: (لا يوصَف اللهُ إلَّا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يُتجاوز القرآن والحديث) هو:	شيخ الإسلام ابن تيميَّة.	ابن القيِّم.	الإمام أحمد.
جحدُ شيءٍ من أسماء الله وصفاته:	نفاقٌ.	كفرٌ.	فيه تفصيلٌ.



السُّؤال	الخيارات		
القائل: (من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن نفىٰ ما وصف الله به نفسَه أو وصفه به رسولُه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيهٌ) هو:	البخاريُّ.	أبو حنيفة.	نُعيم بن حمَّادٍ.
ألَّف بعض العلماء كتبًا خاصَّةً في الكبائر، من أهمِّها:	«الكبائر» للذَّهبيِّ.	«الكبائر» لمحمَّد بن عبد الوهَّاب.	الجميع.
أخلصَ العبادة لله لكنَّه خالف هدي النَّبيِّ ﷺ:	مُشركٌ.	مُوحِّدٌ.	مُبتدعٌ.
إضافة النِّعم إلىٰ غير الله:	مُحرَّمٌ.	جائزٌ.	واجبٌ.
الصَّحابة في باب الأسماء والصِّفات:	قائلون بالحقِّ.	ساكتون عنه.	قائلون بالباطل.
مُؤلِّف «الحمويَّة» هو:	ياقوت الحمويُّ.	ابن عثيمين.	ابن تيميَّة.
ظاهر نصوص الصِّفات:	مُرادٌ.	غير مُرادٍ.	فيه تفصيلٌ.
ما كان مَنحوتًا علىٰ شكل صورةٍ:	صنمٌ.	وثنٌ.	الجميع.
ينتقصون الصَّالحين ويجحدون فضلَهم:	غُلاةٌ.	جُفاةٌ.	وسطٌ.

السُّؤال	الخيارات	
العُبوديَّة تنقسم إلىٰ:	قسمين.	ثلاثة أقسامٍ.
الولاية تنقسم إلىٰ:	قسمين.	ثلاثة أقسامٍ.
تسبيح الطُّيور عُبوديَّةُ:	قهرٍ.	طاعةٍ.
من عُبد من دون الله وهو غير راضٍ:	طاغوتٌ.	ليس بطاغوتٍ.
شروط (لا إله إلَّا الله):	سبعةٌ.	ثمانيةٌ.



السُّؤال	الخيارات	
حقُّ العباد علىٰ الله يُسمَّىٰ:	حقًّا واجبًا.	حقَّ تفضُّلٍ.
ما أضافه الله لنفسه ينقسم إلىٰ:	ثلاثة أقسامٍ.	خمسة أقسامٍ.
(الله ورسوله أعلم) تُقال:	في حياة النَّبيِّ ﷺ.	في كلِّ وقتٍ.
في الأمور الشَّرعيَّة يُقال:	الله أعلم.	الله ورسوله أعلم.
هل خالف مُعاذٌ نهي النَّبيِّ ﷺ؟	نعم.	لا.
هل الحكم خاصٌّ بمُعاذٍ؟	نعم.	لا.
مَصير من يلقىٰ الله وهو مُصِرٌّ علىٰ ذنبٍ دون الشِّرك:	العذاب.	هو تحت المشيئة.
حديث «لَا يَسْتَرْقُونَ»، زاد فيه مُسلمٌ: «وَلَا يَرْقُونَ»، هذه الزِّيادة:	صحيحةٌ.	ضعيفةٌ.
تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله شركٌ:	أكبرُ.	أصغرُ.
من غيَّر العلامات الَّتي يُهتدىٰ بها في الطَّريق:	مَلعونٌ.	آثمٌ.
الغُلُوُّ يكون في:	الأقوال والأفعال.	ما تقدَّم مع الاعتقادات.
أجر الصَّلاة علىٰ رسول الله ﷺ:	لا يختصُّ بمكانٍ.	يزيد عند قبره.
يتجرَّأ الشَّيطان علىٰ دعوة النَّاس إلىٰ الشِّرك:	مع وجود العلم والعلماء.	عند فقد العلماء.
بُغض بعض الأرقام:	من التَّشاؤم.	مُباحٌ.
اعتقاد أنَّ النَّجم سببٌ في نزول المطر مع اعتقاد أنَّ الله هو الفاعل:	صحيحٌ.	شركٌ أصغرُ.
رجلٌ تصدَّق لوجه الله، ثمَّ ألقىٰ اللهُ له في قلوب المؤمنين المحبَّة والثَّناء:	مُرائي.	مُخلصٌ.
تصدَّق لله حتَّىٰ تتضاعف أموالُه:	مُشركٌ.	مُخلِصٌ.



السُّؤال	الخيارات	
سُمِّي عبدًا للدِّينار:	لعبادته له.	لرضاه وسخطه لأجله.
أجمع النَّاس علىٰ أنَّ من استبانت له سنَّةٌ لم يكن له أن يدعها:	لقول أحدٍ.	إلَّا لقول الأئمَّة الأربعة.
إضافة النِّعمة لغير الله كفرٌ:	أكبرُ.	أصغرُ.
قول: (الزَّمن غدَّارٌ):	مُحرَّمٌ.	يجوز؛ لأنَّه من باب الإخبار.
قول: (وُلد فلانٌ سنة المجاعة):	مُحرَّمٌ.	يجوز؛ لأنَّه من باب الإخبار.
التَّسمِّي بالعزيز والكريم والحليم:	لا بأس به.	مُحرَّمٌ.
في الحديث: «**الْحَارِثُ**...»:	اسمٌ من أسماءِ الشَّيطان.	أصدقُ الأسماء.
قول: (اللَّهمَّ إنِّي أسألك بوجهك الكريم أن توفِّقني لحفظ القرآن):	مُحرَّمٌ.	جائزٌ.
قول من رأىٰ فاسقًا غنيًّا: (هذا لا يستحقُّ هذه الأموال):	جائزٌ.	مُحرَّمٌ.
حكم من أنكر القضاء والقدر:	كافرٌ.	آثمٌ.
قوله: (في نفسي شيءٌ من القدر) أي:	شكٌّ واضطرابٌ.	إنكارٌ وجحودٌ.
قول: (لن يقبل الله توبتك):	جائزٌ.	مُحرَّمٌ.
ديانةٌ وضعيَّةٌ قوميَّةٌ تتشكَّل من خليطٍ من الدِّيانات الوثنيَّة، والكتابيَّة، والعقائد والفلسفات الأخرىٰ:	الصَّابئة.	المَجوسيَّة.
ديانةٌ وضعيَّةٌ ثانويَّةٌ، يُقدِّس أتباعُها النَّار، وهي ديانة الفرس قبل الإسلام:	المَجوسِّية.	الصَّابئة.
كلمةٌ أعجميَّةٌ تعني النِّفاق والخروج من الدِّين:	الزَّندقة.	الصَّابئة.



السُّؤال	الخيارات	
نواقض الإسلام:	عشرةٌ.	كثيرةٌ.
ترجع النَّواقض في جملتها إلىٰ:	قولٍ وعملٍ واعتقادٍ وشكٍّ.	قولٍ وعملٍ واعتقادٍ.
أجمع السَّلف علىٰ إثبات الصِّفات:	ولم يختلفوا فيها.	لكن اختلفوا في شيءٍ منها.
الكبائر:	مَعدودةٌ.	مَحدودةٌ.
كلُّ أمرٍ خارقٍ للعادة، غيرِ مَألوفٍ للآدميِّين، يُجريه الله علىٰ أيدي أوليائه تأييدًا لهم، أو إعانةً، أو تثبيتًا، أو نصرًا للدِّين) يُسمَّىٰ:	مُعجزةً.	كَرامةً.
الكَرامةُ:	لا يُمكن أن تُعارَضَ.	يُمكن أن تُعارَضَ.
العلامات الَّتي تكون قريبًا بين يدي السَّاعة وتأتي مُتتابعةً تُسمَّىٰ:	علاماتٍ كُبرىٰ.	علاماتٍ صُغرىٰ.
الشَّهادة بالجنَّة والنَّار تنقسم إلىٰ:	مُطلَقةٍ ومُقيَّدةٍ.	عامَّةٍ وخاصَّةٍ.
النِّدُّ هو:	المَثيلُ والشَّريكُ.	الضِّدُّ والمُخالِفُ.

السُّؤال	الخيارات			
التَّوحيد ينقسم إلىٰ:	رُبوبيَّةٍ، وأُلوهيَّةٍ، وأسماءٍ وصفاتٍ.	مَعرفةٍ وإثباتٍ، وإرادةٍ وقصدٍ.	جميع ما تقدَّم.	ما تقدَّم ويُضاف إليه الحاكميَّة.
﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[النَّحل:١٢٠] أي:	قدوةً.	إمامًا.	مُعلِّمًا للخير.	جميع ما تقدَّم.
يصحُّ أن يقول:	توكَّلت عليك.	وكَّلتك.	توكَّلت علىٰ الله ثمَّ عليك.	الجميع إلَّا الأوَّل.



السُّؤال	الخيارات			
الحلف بالله كاذبًا:	شركٌ أصغرُ.	كبيرةٌ.	مُحرَّمٌ.	فيه تفصيلٌ.
من مُؤلَّفات محمَّد بن عبد الوهَّاب:	«مُختصر السِّيرة».	«أصول الإيمان».	«التفسير».	جميع ما تقدَّم.

[٢] أجب بـ «صح» أو «خطأ»:

السُّؤال	صح	خطأ
كلُّ مَن في الكون عبادٌ لله حتَّىٰ الكافر.	☐	☐
كلُّ الحيوانات تُسبِّح الله إلَّا الوزغ.	☐	☐
من آمن بواحدٍ من أنواع التَّوحيد دون الباقي لم يكن مُوحِّدًا.	☐	☐
تقسيم التَّوحيد إلىٰ أقسام من البدع لعدم الدَّليل.	☐	☐
علاقة التَّوحيد بالإيمان أنَّ الإيمان عامٌّ والتَّوحيد جزءٌ منه.	☐	☐
العبادة تكون باللِّسان والجوارح فقط:	☐	☐
أوجب الواجبات برُّ الوالدين.	☐	☐
أعظم المُحرَّمات: الزِّنىٰ، وقتل النَّفس الَّتي حرَّم الله.	☐	☐
يُحرَّم كتم العلم بكلِّ حالٍ.	☐	☐
أعظم الظُّلم ظلم العبد غيرَه في نفس، أو مالٍ، أو عرض.	☐	☐
(لا إله إلَّا الله) ذكرٌ وليست بدعاءٍ.	☐	☐
يوجد من يقول: (لا إله إلَّا الله)؛ ولكنَّها لا تزن عند الله شيئًا.	☐	☐
يمنع جواز الرُّقية من الأمراض الحسِّيَّة والمَعنويَّة إلَّا من العين والحُمَةِ.	☐	☐
الشِّرك الأكبر مُبيحٌ للدَّم، والمال؛ ما لم يكن ذِمِّيًّا أو مُعاهَدًا.	☐	☐
الفرق بين الرَّاقي والمُسترقِي أنَّ المُسترَقيَ سائلُ مُستعطٍ مُلتفتٌ إلىٰ غير الله بقلبه، والرَّاقي مُحسنٌ.	☐	☐
النَّحر من أعظم العبادات البدنيَّة.	☐	☐
لا يجوز لعن أصحاب المعاصي إلَّا علىٰ وجه العموم.	☐	☐
الأماكن المُعَدَّة لمُحاربة الله ورسوله لا تجوز الصَّلاة فيها إلَّا المساجد.	☐	☐



خطأ	صح	السُّؤال
☐	☐	وإذا أمكن تحويلها لأماكن للطَّاعة حُوِّلت.
☐	☐	يصحُّ شدُّ الرَّحل للصَّلاة في مسجد قُباءٍ.
☐	☐	الذَّهاب لأماكن الشِّرك المُندَثرة يصحُّ إذا كان من باب التَّذكير.
☐	☐	يصحُّ الذَّهاب إلىٰ غار حِراءٍ لمَعرفه ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ من التَّعبُّد.
☐	☐	من تعلَّم شيئًا من التَّنجيم فقد تعلَّم شيئًا من السِّحر.
☐	☐	قول المُؤلِّف: (الطِّيَرة المَذمومة) مَفهومُه أنَّ هناك طِيَرةً مَمدوحةً.
☐	☐	الأخذ بالأسباب يُنافي التَّوكُّل.
☐	☐	إذا خاف المُسلم الوقوع في الرِّياء فله تركُ العبادة.
☐	☐	باب إرادة المرء بعمله الدُّنيا أخطر من باب الرِّياء.
☐	☐	الرُّؤيا قد تكون سببًا للتَّشريع.
☐	☐	يجوز أن يقول: (ربِّي يُحبِّني) لمَن حصلت له نعمةٌ.
☐	☐	يجوز أن يقول: (أقبلت ريحٌ مُمطرةٌ).
☐	☐	الرِّدَّة هي الخروج من الدِّين بفعل ما يُناقضه.
☐	☐	الجهميَّة هم أصحاب الجيمات الثَّلاثة.
☐	☐	لا فرق بين الرِّياء في كلمة: (لا إله إلَّا الله)، وفي الصَّدقة.
☐	☐	يجب مَحبَّة الرَّسول ﷺ أشدَّ من مَحبَّة الولد والوالد والنَّاس أجمعين.
☐	☐	الحوض مَوردٌ عظيمٌ تردُه أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ يوم القيَّامة.
☐	☐	الفسق قسمان: كُلِّيٌّ ينقل عن الملَّة -وهو الكفر الأكبر-، وجُزئيٌّ لا يُخرج من الملَّة -وهو المعاصي-.
☐	☐	هناك فرقٌ في الحكم الشَّرعيِّ بين كون المُستهزئ بالله تعالىٰ أو برسوله ﷺ جادًّا وكونه هازلًا.
☐	☐	طوائف أهل البدع عندهم من الضَّلال بقدر ما فارقوا به جماعة المُسلمين.
☐	☐	طريقة السَّلف مُجرَّدُ الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقهٍ لذلك.
☐	☐	طريقة السَّلف تفويضُ المعنىٰ.
☐	☐	الحقُّ الَّذي يجب اعتقادُه لم يدُلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة، لا نصًّا ولا ظاهرًا.
☐	☐	طريقة السَّلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم.



السُّؤال	صح	خطأ
۞ لا مُنافاة بين العُلُوِّ والمَعيَّة، فإنَّ المعيَّة لا تستلزم الاختلاط والحلول في المكان.	☐	☐
۞ كلُّ واحدٍ من فريقى التَّعطيل والتَّمثيل فهو جامعٌ بين التَّعطيل والتَّمثيل.	☐	☐
۞ لا فرق بين مذهب السَّلف ومذهب المُؤوِّلين في نصوص الصِّفات، فإنَّ الكُلَّ اتَّفقوا علىٰ أنَّ الآيات والأحاديث لا تدلُّ علىٰ صفات الله.	☐	☐
۞ المِعراج هو رحلته ﷺ من مكَّة إلىٰ بيت المَقدِس.	☐	☐
۞ مِن طُرق علاج الرِّياء تذَكُّر المَوت وسَكَراتِه.	☐	☐

الكتاب الثَّاني:

تَهْذِيبُ:

«شَرْحِ: أُصُولٌ فِي التَّفْسِيرِ»

للشَّيَخِ العلَّامة: مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

من إعدادِ الفقير إلى عفو ربّه:

هيثم بن محمَّد سرحان

المُدرّس بمعهد الحرم بالمسجد النّبويّ -سابقًا-

والمُشرِف على معهد السُّنَّة



المُقَدِّمَةُ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسِنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾[النِّساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾[الأحزاب].

أمَّا بعد؛ فإنَّ أجلَّ العلوم وأشرفها علم الشَّريعة الَّذي به قِوام الدِّين، وإنَّ أهمَّ ما ينبغي للمُسلمِ العنايةُ به من عُلوم الشَّريعةِ بعد توحيدِ الله عَزَّوَجَلَّ علمُ التَّفسير الَّذي به يفهم المسلم كلامَ ربِّه عَزَّوَجَلَّ، قال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أَوَّلُ الْعِلْمِ حِفْظُ كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَفَهُّمُهُ، وَكُلُّ مَا يُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِهِ فَوَاجِبٌ مَعَهُ**)، وقال ابن عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب التَّفسير: (**عَلِمْتُ أَنَّ شَرَفَ الْعِلْمِ عَلَىٰ قَدْرِ شَرَفِ الْمَعْلُومِ، فَوَجَدْتُ أَمْتَنَهَا حِبَالًا، وَأَرْسَخَهَا جِبَالًا، وَأَجْمَلَهَا آثَارًا، وَأَسْطَعَهَا أَنْوَارًا = عِلْمَ كِتَابِ اللهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، الَّذِي لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، الَّذِي اسْتَقَلَّ بِالسُّنَّةِ وَالْفَرْضِ، وَنَزَلَ بِهِ أَمِينُ السَّمَاءِ إِلَىٰ أَمِينِ الْأَرْضِ، هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي جُعِلَ لِلشَّرْعِ قِوَامًا، وَاسْتَعْمَلَ سَائِرَ الْمَعَارِفِ خُدَّامًا**).

ثمَّ إنَّ الله جلَّ في عُلاه أنزل القرآن العظيم علىٰ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ أفصح الخلق، وأمره بالبيان فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾[النَّحل]، فقام النَّبيُّ ﷺ بأحسن البيان وأتمِّه، ففهم ذلك عنه الصَّحابة الأكرمون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ثمَّ التَّابعون ومن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين، وقد اعتنىٰ العلماء سلفًا



وخلفًا بعلم التَّفسير، وألَّفوا فيه المُؤلَّفات الكثيرة، واعتنىٰ جملةٌ منهم ببيان القواعد الَّتي يُبنىٰ عليها فهم كلام الله ﷻ، حتَّىٰ لا يُحمَّل القرآن ما لا يحتمل من المعاني الباطلة الَّتي يروِّج لها أهل الزَّندقة والإلحاد، ومن المُؤلَّفات المُختصرة في هذا الباب الَّتي تلقَّاها العلماء بالقبول رسالةٌ قيِّمةٌ للشَّيخ العلَّامة محمَّد بن صالحٍ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ١٤٢١هـ) سمَّاها: «أصولٌ في التَّفسير»، بيَّن فيها أهمَّ الأصول الَّتي يُبنىٰ عليها علم التَّفسير، ثمَّ شرحها رَحِمَهُ ٱللَّهُ شرحًا وافيًا طُبع في مُجلَّدٍ كاملٍ، فرأينا أن نخرج هذا الكتاب لطالب العلم ومُريده في حُلَّة جديدةٍ، قصدنا فيها التَّوسُّط في البسط بين المتن وشرحه، وانتهجنا فيها طريقة جدولة المُحتوىٰ تسهيلًا له وتيسيرًا، مع بعض الإضافات اليسيرة حسب ما تقتضيه الحاجة لتوضيح مقصود المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكلام.

نسأل الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن ينفع به الكاتب والقارئ، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ رسوله الأمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين، والحمد لله ربِّ العالمين.



مُلَخَّصٌ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ:

قال جلال الدِّين البُلقينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عُلُومُ الْقُرْآنِ مَا حَوَاهُ الْقُرْآنُ الشَّرِيفُ مِنْ أَنْوَاعِ عِلْمِهِ الْمَنِيفِ، وَيَنْحَصِرُ فِي أُمُورٍ ستَّةٍ:

[١] **مَوَاطِنُ النُّزُولِ وَأَوْقَاتُهُ وَوَقَائِعُهُ:**	**اثْنَا عَشَرَ نَوْعًا:** الْمَكِّيُّ، الْمَدَنِيُّ، السَّفَرِيُّ، الْحَضَرِيُّ، اللَّيْلِيُّ، النَّهَارِيُّ، الصَّيْفِيُّ، الشِّتَائِيُّ، الفِرَاشِيُّ، النَّومِيُّ، أَسْبَابُ النُّزُولِ، أَوَّلُ مَا نَزَلَ وآخِرُ مَا نَزَلَ.
[٢] **السَّنَدُ:**	**سِتَّةُ أَنْوَاعٍ:** الْمُتَوَاتِرُ، الْآحَادُ، الشَّاذُّ، قِرَاءَاتُ النَّبِيِّ ﷺ، الرُّوَاةُ، الْحُفَّاظُ.
[٣] **الْأَدَاءُ:**	**سِتَّةُ أَنْوَاعٍ:** الْوَقْفُ، الِابْتِدَاءُ، الْإِمَالَةُ، الْمَدُّ، تَخْفِيفُ الْهَمْزَةِ، الْإِدْغَامُ.
[٤] **الْأَلْفَاظُ:**	**سَبْعَةُ أَنْوَاعٍ:** الْغَرِيبُ، الْمُعَرَّبُ، الْمَجَازُ، الْمُشْتَرَكُ، الْمُتَرَادِفُ، الِاسْتِعَارَةُ، التَّشْبِيهُ.
[٥] **الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْأَحْكَامِ:**	**أَرْبَعَةَ عَشَرَ نَوْعًا:** الْعَامُّ الْبَاقِي عَلَىٰ عُمُومِهِ، الْعَامُّ الْمَخْصُوصُ، الْعَامُّ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخُصُوصُ، مَا خَصَّ فِيهِ الْكِتَابُ السُّنَّةَ، ما خصَّصت فِيهِ السُّنَّةُ الْكِتَابَ، الْمُجْمَلُ، الْمُبَيَّنُ، الْمُؤَوَّلُ، الْمَفْهُومُ، الْمُطْلَقُ، الْمُقَيَّدُ، النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ، نَوْعٌ مِنَ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَهُوَ مَا عُمِلَ بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ مُدَّةً مُعَيَّنَةً وَالْعَامِلُ بِهِ وَاحِدٌ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ.
[٦] **الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْأَلْفَاظِ:**	**خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ:** الْفَصْلُ، الْوَصْلُ، الْإِيجَازُ، الْإِطْنَابُ، الْقَصْرُ.

وَبِذَلِكَ تَكَمَّلَتِ الْأَنْوَاعُ **خَمْسِينَ**، وَمِنَ الْأَنْوَاعِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ: الْأَسْمَاءُ، الْكُنَىٰ، الْأَلْقَابُ، الْمُبْهَمَاتُ؛ فَهَذَا نِهَايَةُ مَا حُصِرَ مِنَ الْأَنْوَاعِ.



تاريخُ علومِ القرآنِ:

[١] عهدُ ما قبلَ التِّدوين:

كان رسولُ الله ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم يعرفون عن القرآن وعلومِه ما عرفه العلماءُ من بعدُ، ولكنَّ مَعرفتَهم لم تُدوَّنْ، ولم تُجمَعْ في كتابٍ؛ لعدم حاجتِهم إلىٰ ذلك.

[٢] عهدُ التَّمهيد لكتابة علوم القرآن:

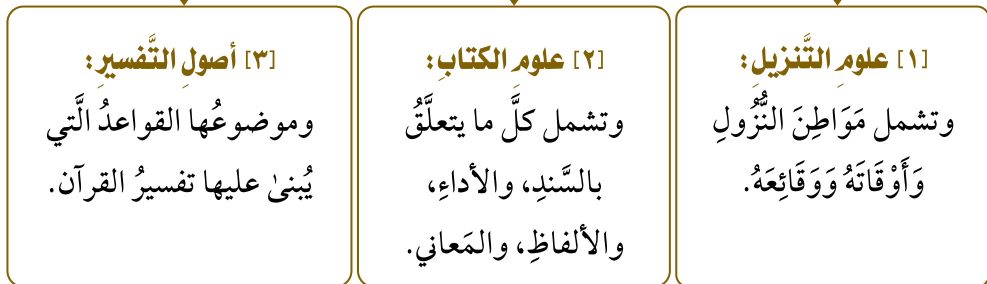
بدأ ذلك بما تمَّ في عهد الخليفة الثَّالث عثمان بن عفَّانٍ رضي الله عنه من جمع القرآن في مُصحَفٍ إمامٍ، ونسخ عدَّةٍ نسخٍ منه لإرسالها إلىٰ الأقطار الإسلاميَّة، والَّذي كان الأساسَ لمَّا يُسمَّىٰ: «علمَ رَسمِ القرآن».

ثمَّ في عهد عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وُضع الأساسُ لما يُسمَّىٰ «علمَ النَّحوِ» بعد أن أمر عليٌّ رضي الله عنه أبا الأسودِ الدُّؤَلِيَّ أن يضع بعض القواعد لحماية لغة القرآن من العُجمةِ، وتفشِّي اللَّحنِ بين النَّاس.

ثمَّ في العهد الأمويِّ ساهم عددٌ من الصَّحابةِ والتَّابعين في وضع الأساس لما يُسمَّىٰ «علمَ التَّفسير»، و«علمَ أسباب النُّزول»، و«علمَ النَّاسخ والمَنسوخ»، و«علمَ غريب القرآنِ».

[٣] عهدُ التِّدوين:

وفي هذا العهد أُلِّفت الكتبُ في أنواع علوم القرآن، واتَّجهت الهِممُ أوَّل الأمر إلىٰ التَّفسير باعتبارِه أمَّ العلوم القُرآنيَّةِ، ثمَّ في علوم القرآنِ الأخرىٰ.



العلومُ الـمُتعلِّقةُ بالقرآن تنقسمُ إلى:

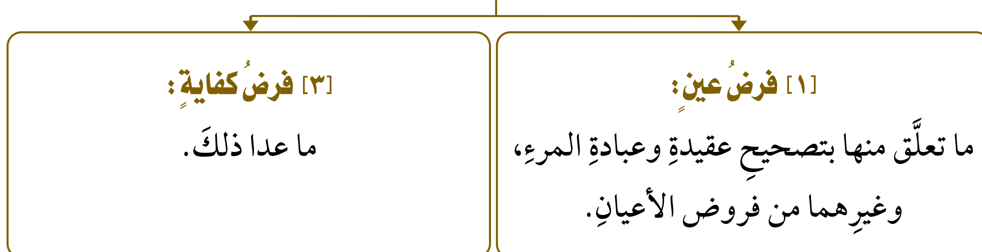
[١] علومِ التَّنزيل: وتشمل مَوَاطِنَ النُّزُولِ وَأَوْقَاتَهُ وَوَقَائِعَهُ.

[٢] علومِ الكتابِ: وتشمل كلَّ ما يتعلَّقُ بالسَّندِ، والأداءِ، والألفاظِ، والمَعاني.

[٣] أصولِ التَّفسيرِ: وموضوعُها القواعدُ الَّتي يُبنىٰ عليها تفسيرُ القرآن.




لعلومِ القرآنِ فوائدُ كثيرةٌ، مِنها:
[١] تلاوةُ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما أراد الله.
[٢] فهمُ كلامِ الله عَزَّوَجَلَّ كما أرادَ اللهُ.
[٣] التَّدبُّر والتَّفكُّر في كلامِ الله عَزَّوَجَلَّ.
[٤] حِفظُ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عن الزِّيادة أو النُّقصان أو التَّغيير.
[٥] استنباطُ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ علىٰ الوجهِ الصَّحيحِ.
[٦] الدِّفاعُ عن القرآنِ الكريمِ.
[٧] فضلُ السَّلفِ باجتهادِهم وعنايتِهم بالقُرآنِ.
[٨] مَدخَلٌ لدراسةِ التَّفسير؛ كما أنَّ المُصطلح مَدخلٌ لدراسةِ علم الحَديثِ.


حُكمُ تعلُّمِ علومِ القرآنِ:
[١] فرضُ عينٍ: ما تعلَّق منها بتصحيحِ عقيدةِ وعبادةِ المرءِ، وغيرِهما من فروض الأعيانِ.
[٣] فرضُ كفايةٍ: ما عدا ذلكَ.


المُشتَهِرونَ بالتَّفسيرِ مِن الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:
[١] عبد الله بن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
[٢] عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
[٣] عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
[٤] أُبيُّ بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



المُشتَهِرونَ بالتَّفسيرِ من التَّابعينَ:

[١] مدرسةُ التَّفسيرِ بمكَّةَ (ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا):

[أ] سعيدُ بن جُبيرٍ.

[ب] مُجاهد بن جبرٍ.

[ج] عِكرمة بن عبد الله مَولىٰ ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

[د] طاوس بنُ كيسانَ.

[هـ] عطاء بن أبي رباحٍ.

[٢] مدرسةُ التَّفسيرِ بالمدينة (أُبيُّ بن كعبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ):

[أ] أبو العالية رُفيعُ بن مِهرانَ الرِّياحيُّ.

[ب] محمَّد بن كعبٍ القرظيُّ.

[ج] زيدُ بن أسلَمَ.

[٣] مدرسةُ التَّفسيرِ بالعراق (ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ):

[أ] علقمة بن قيسٍ.

[ب] مَسروقُ بن الأجدَعِ.

[ج] الأسود بن يزيد.

[د] مُرَّةٌ الهمدانيُّ.

[هـ] عامرٌ الشَّعبيُّ.

[و] الحسن البصريُّ.

[ز] قتادةُ بن دِعامةَ.

أقسامُ كُتُبِ التَّفسيرِ من حيثُ الـمَنهجُ:

[١] التَّفسيرُ بالمَأثورِ.

[٢] التَّفسيرُ بالرَّأي الجائزِ.

[٣] التَّفسيرُ بالرَّأي غير الجائزِ.

[١] أشهرُ كُتبِ التَّفسيرِ بالمَأثور:

١	«جامعُ البيان في تفسير القرآن».	لابن جرير الطَّبريِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٢	«بحرُ العلوم».	لأبي اللَّيث السَّمرقنديِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٣	«الكشفُ والبيان عن تفسير القرآن».	لأبي إسحاق الثَّعلبيِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٤	«مَعالمُ التَّنزيل».	لأبي محمَّدٍ الحسين البغويِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٥	«المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز».	لابن عطيَّة الأندلُسيِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٦	«تفسيرُ القرآن العظيم».	لأبي الفداء الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ.
٧	«الجواهرُ الحِسان في تفسير القرآن».	لعبدالرَّحمن الثَّعالبيِّ رَحِمَهُ اللهُ.



٨	«الدُّرُّ المَنثور في التَّفسير المأثور»	لجلال الدِّين السُّيوطيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

[٢] أشهَرُ كُتب التَّفسيرِ بالرَّأيِ الجائز:

١	«مَفاتحُ الغيب».	للفخر الرَّازيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٢	«أنوارُ التَّنزيل وأسرار التَّأويل».	لعبد الله بن عمر البَيضاويِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٣	«مَداركُ التَّنزيل وحقائق التَّأويل».	لأبي البركاتِ النَّسفيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٤	«لُبابُ التَّأويل في مَعاني التَّنزيل».	لعلاء الدِّين الخازن رَحِمَهُ اللَّهُ.
٥	«البحرُ المُحيط».	لأبي حيَّان الأندلسيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٦	«غرائبُ القرآن ورغائب الفرقان».	لنظام الدِّين النَّيسابوريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٧	«تفسيرُ الجلالين».	لجَلال الدِّين المَحليِّ وجَلال الدِّين السُّيوطيِّ -رحمهما الله-.
٨	«السِّراجُ المُنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربِّنا الحكيم الخبير».	للخَطيب الشِّربينيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٩	«إرشادُ العقل السَّليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم».	لأبي السُّعود أفندي رَحِمَهُ اللَّهُ.
١٠	«روحُ المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المَثاني».	لشهاب الدِّين الألوسيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

[٣] أشهَرُ كُتب التَّفسيرِ بالرَّأيِ غيرِ الجائز:

١	«تنزيهُ القرآن عن المَطاعن».	للقاضي عبدالجبَّار المُعتزليِّ.
٢	«الأمالي».	للشَّريف المُرتَضىٰ الشِّيعيِّ.
٣	«الكشَّاف عن حقائق غَوامض التَّنزيل، وعيونُ الأقاويل في وجوه التَّأويل».	لمحمود بن عمر الزَّمخشريِّ المُعتزليِّ.

تَنْبِيهٌ: ليَنتبهِ القارئُ إلىٰ أنَّه لا ينبغي مُطالعةُ كتب التَّفسير بالرَّأي إلَّا لطالب العلم المُتمكِّن، الَّذي يعرف مَذاهب أهل الزَّيغِ والضَّلالِ فيحذرُها، وأمَّا العامِّيُّ وطالبُ العلم المُبتدئُ فينبغي له هَجرُها كما يهجُرُ أصحابَها؛ لئلَّا تعلق الشُّبَه بذهنِه فيقعُ فيها.



من أهَمِّيَّةِ عِلمِ التَّفسيرِ:

[١] أنَّ شرَفَ العِلمِ بشَرَفِ مَوضوعِه، ومَوضوعُ علم التَّفسير هو القرآنُ، وهو كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] أنَّ التَّفسيرَ يوصِلُ إلىٰ تدبُّرِ القُرآن، والتَّدبُّر مَأمورٌ به، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمَّد].

[٣] أنَّ التَّفسيرَ يوصِلُ إلىٰ عِبادة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الشَّكل الصَّحيح، وذلِكَ بفَهمِ آياتِ الأحكامِ.

[٤] أنَّ التَّفسيرَ يُساعد علىٰ فهم القرآنِ، ومِنه مَعرفةُ الله عَزَّوَجَلَّ وأسمائِه وصفاتِه، وفي ذلِكَ زِيادة الإيمانِ.

كيفيَّةُ القِراءَةِ والدِّراسَةِ للتَّفسيرِ:

- البَدءُ بدراسَةِ كتُب التَّفسيرِ بالمَأثورِ.
- البَدءُ بالمُختَصراتِ قبلَ المُطوَّلاتِ؛ لئلَّا يشتَّت ذِهنُه، فإذا بدأ بالمُختصراتِ فإنَّه يُحصِّلُ الأصولَ فيضبطُها، فيكونُ ذلك أدعىٰ لأن يفهم المُطوَّلاتِ.
- الدِّراسةُ علىٰ مدرسةٍ واحدةٍ حتَّىٰ لا تختلط عليه المَعلوماتُ.
- البَدءُ بتفسيرِ السُّورِ المُشوِّقةِ له؛ كسورة القصص.
- التَّنويعُ في التَّلقِّي؛ فيشتغِلُ تارةً بالقراءةِ، وتارةً بالاستماع للتَّفسير الصَّوتيِّ، وتارةً بالجمع بينهما.
- تدوينُ الفَوائدِ؛ فالتَّدوين لها كالقيد للصَّيدِ يمنعُ انفلاتَه.
- التَّدبُّر في آيات القرآن؛ لأنَّ ذلك يُنمِّي ملكَة الاستنباطِ لديه، فيفتح الله بذلك عليه الفُتوحَ.
- مُحاولة استنباطِ الفوائدِ دون نشرِها، وذلك ليتدرَّبَ علىٰ الاستنباط، ثمَّ يرجع بعدها للتَّفسير ليتأكَّد من سلامة استنباطِه.



فِهْرِسْتُ الْكِتَاب:

أقسامُ الكتابِ

	[١]	[٢]	[٣]	[٤]	[٥]	[٦]
المُقَدِّمَةُ:	[١] البسملة.	[٢] خطبة الحاجة.	[٣] أهمِّيَّةُ التَّفسير.	[٤] سبب التَّأليفِ.	[٥] مُحتوى الكتاب إجمالًا.	
القسمُ الأوَّلُ: القرآنُ، وفيه:	[١] نزولُ القرآنِ.	[٢] أوَّلُ ما نزل منه.	[٣] النُّزولُ الابتدائيُّ والسَّببيُّ.	[٤] المَكِّيُّ والمدنيُّ.	[٥] كتابةُ القرآن وجمعُه.	
القسمُ الثَّاني: التَّفسيرُ، وفيه:	[١] الواجبُ علىٰ المُسلم في التَّفسير.	[٢] المَرجعُ في تفسير القرآن.	[٣] الاختلافُ الواردُ في التَّفسير المَأثور.	[٤] ترجمةُ القرآن.	[٥] المُشتهرون بالتَّفسير من الصَّحابة.	[٦] المُشتهرون بالتَّفسير من التَّابعين.
القسمُ الثَّالثُ: مسائلُ مُتفرِّقةٌ، وفيه:	[١] المُحكَمُ والمُتَشابهُ من القرآن.	[٢] موهمُ التَّعارض في القرآن.	[٣] القَسَمُ في القرآن.	[٤] قصصُ القرآن.	[٥] الإسرائيليَّاتُ والمَوقف منها.	[٦] الضَّميرُ في القرآن.



مُقَدِّمَةُ المُؤَلِّفِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

بدأ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ كتابَه بالبسملةِ؛ لأمورٍ:

- [١] اقتداءً بكتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.
- [٢] واستنادًا إلى سُنَّة الرَّسولِ ﷺ.
- [٣] وعملًا بما كان عليه السَّلفُ.
- [٤] وتيمُّنًا وتبرُّكًا بالبَداءةِ باسمِ اللهِ.

(الحَمْدُ لله، نَحْمَدُهُ):

- [١] **الحمدُ:** (وصفُ المَحمود بالكمالِ مع المحبَّة والتَّعظيم)، والحمدُ يكون:
  - [أ] لكمالِ المَحمودِ.
  - [ب] لإحسانِه وإنعامِه.
- [٢] **اللَّام:** تفيد:
  - [أ] **الاستحقاق:** فالله عَزَّ وَجَلَّ أحقُّ من يُحمَدُ.
  - [ب] **الاختصاص:** (أل) تفيد الاستغراق لجميع المَحامد، والله عَزَّ وَجَلَّ هو المُختصُّ بها كلِّها.
- [٣] **نَحْمَدُهُ:** جملةٌ توكيديَّةٌ



(ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونَتُوبُ إِلَيْه):

[١] **(ونَسْتَعِينُهُ):** نطلبُ منه العَونَ، وهو المُساعدة.

[٢] **(ونَسْتَغْفِرُهُ):** نطلب منه المَغفرة، وهي ستر الذُّنوب والتَّجاوز عنها.

[٣] **(ونَتُوبُ إِلَيْهِ):** لم تأتِ في الحديث، لكن ذُكرت تقليدًا للعلماء السَّابقين.

(ونَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا):

أي: نعتصم بالله منها، والنَّفس لها شرورٌ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾[يوسف:٥٣]، فالمَعصوم من عصمه الله عَزَّوَجَلَّ من شرور نفسه.

والنُّفوس الَّتي جاءت في القرآن وُصفت بثلاثة أوصافٍ:

[١] **المُطمئنَّة:** الَّتي تأمرُ بالخير وتنهىٰ عن الشَّرِّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧﴾[الفجر].

[٢] **الأمَّارةُ بالسُّوء:** الَّتي تأمرُ بالشَّرِّ وتنهىٰ عن الخير، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

[٣] **اللَّوَّامة:** قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة]، وهو وصفٌ للمُطمئنَّة والأمَّارة بالسُّوء معًا.

(ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا):

فالعمل السَّيِّء له آثارٌ سيِّئةٌ، قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾[المائدة:١٣]، فعاقبهم الله بهذه العُقوباتِ لأنَّهم نقضوا الميثاق، وما حصل الشَّرُّ إلَّا بسيِّئات الأعمال، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤١﴾[الرُّوم].



(مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ) تشمل:

[١] مَن يَهدِيهِ اللهُ تقديرًا: أي: يقدِّر له الهداية، فلابدَّ أن يهتدي ولو وُجدت عوامل تقتضي أن يضلَّ.

[٢] مَن يَهدِيهِ اللهُ تحقيقًا: فمن هداه الله تحقيقًا فاهتدىٰ؛ فلا يستطيع أحدٌ أن يضلَّه.

فوجب علىٰ الإنسان ألَّا يطلب الهداية إلَّا من الله عَزَّوَجَلَّ.

(وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ) تشمل:

[١] مَن يُضلُّهُ اللهُ تقديرًا: أي: يريد إضلالَه، فلابدَّ أن يضلَّ.

[٢] مَن يُضلُّهُ اللهُ تحقيقًا: فمن أضلَّه الله تحقيقًا فلا يستطيع أحدٌ أن يهديه، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من حرصه ﷺ علىٰ هداية عمِّه أبي طالبٍ الَّذي صدَّقَه بلسانِه، ونصرَه بفعلِه، لكن لم يُؤمن قلبُه، فمات كافرًا -والعياذُ بالله-.

(وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ):

[١] (أَشْهَدُ): أي: أَقِرُّ إقرار مُشاهدةٍ، والمُشاهد للشَّيء يراه حسًّا.

[٢] (لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ): أي: (لا معبود حقٌّ إلَّا الله)، فخبر (لا) النَّافية (حقٌّ) مَحذوفٌ، واسم الجلالة (اللهُ) بعد (إلَّا) بدلٌ منه.

[٣] (وَحْدَهُ): توكيدٌ لإثبات (إلَّا الله).

[٤] (لا شَرِيكَ لَهُ): توكيدٌ للنَّفي (لا إله).

هذه الجملة هي كلمة الإخلاص الَّتي لو وُزنت بها السَّموات والأرض لرجحت بهنَّ؛ كما في الحديث الَّذي أخرجه أحمد.



(وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُه):

[١] **(مُحَمَّدًا):** هو ابن عبد الله بن عبد المُطَّلب، الهاشميُّ القُرشيُّ، لا يوجد من بني إسماعيل نبيٌّ سواهُ.

[٢] **(عَبْدُهُ):** أي: العابد المُتذلِّل لله عَزَّوَجَلَّ، وليس له حقٌّ من الرُّبوبيَّة، وفيه الرَّدُّ علىٰ من غلا فيه ﷺ.

[٣] **(وَرَسُولُه):** أي: المُرسَل من الله عَزَّوَجَلَّ، فليس بكاذبٍ، وفيه الرَّدُّ علىٰ من قدح فيه ﷺ، أو قال: إنَّ رسالته ليست عامَّةً، ولم يقل المُؤلِّف: (إلىٰ النَّاس كافَّةً)؛ حذفًا لما هو مَعلومٌ.

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ):

[١] **(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ):** أحسنُ ما يُقال فيها أنَّها: (ثناء الله عليه) أي: مدحه ووصفه بصفات الكمال (في الملأ الأعلىٰ).

[٢] **(وَعَلَى آلِه):** يُطلق الآل علىٰ:

- [أ] **جميع أتباعِه ﷺ علىٰ دينه:** إذا ذُكرت مُفردةً.
- [ب] **قرابته ﷺ المُؤمنون به:** إذا ذُكرت مع الصَّحب والأتباع.

[٣] **(وَأَصْحَابِه):** الَّذين اجتمعوا به مؤمنين به -ولو لحظةً-، وماتوا علىٰ ذلك.

[٤] **(وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ):** من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٖ﴾[التَّوبة:١٠٠]، قُيِّدت التَّبعيَّة بالإحسان بحيث يترسَّم خُطاهم قولًا، وفعلًا، وتركًا.

(وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا):

ثنَّىٰ بالسَّلام؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب]، أمَّا في التَّشهُّد فيُبدأ بالسَّلام لأنَّه ﷺ علَّمهم السَّلام قبل الصَّلاة.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِنَ المُهِمِّ فِي كُلِّ فَنٍّ أَنْ يَتعَلَّمَ الْمَرْءُ مِنْ أُصُولِهِ مَا يَكُونُ عَوْنًا لَهُ عَلَىٰ فَهْمِهِ، وَتَخْرِيجِهِ عَلَىٰ تِلْكَ الْأُصُولِ، لِيَكُونَ عِلْمُهُ مَبْنِيًّا عَلَىٰ أُسُسٍ قَوِيَّةٍ، وَدَعَائِمَ رَاسِخَةٍ، وَقَدْ قِيلَ: مَنْ حُرِمَ الْأُصُولَ حُرِمَ الْوُصُولَ.

وَمِنْ أَجَلِّ فُنُونِ الْعِلْمِ؛ بَلْ هُوَ أَجَلُّهَا وَأَشْرَفُهَا، عِلْمُ التَّفْسِيرِ، الَّذِي هُوَ تَبْيِينُ مَعَانِي كَلَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ وَضَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ لَهُ أُصُولًا كَمَا وَضَعُوا لِعِلْمِ الْحَدِيثِ أُصُولًا، وَلِعِلْمِ الْفِقْهِ أُصُولًا.

وَقَدْ كُنْتُ كَتَبْتُ مِنْ هٰذَا الْعِلْمِ مَا تَيَسَّرَ لِطُلَّابِ الْمَعَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ فِي جَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَطَلَبَ مِنِّي بَعْضُ النَّاسِ أَنْ أُفْرِدَهَا فِي رِسَالَةٍ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَيْسَرَ وَأَجْمَعَ، فَأَجَبْتُهُ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَنْفَعَ بِهَا).

لماذا كان علمُ التَّفسير أجلَّ العلوم وأشرفَها؟

لأنَّ العلم يشرُف بمَوضوعه، ومَوضوع علم التَّفسير كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أشرف مَوضوع، فالاهتمام به أهمُّ من الاعتناء بغيره.

على ماذا اعتمدَ المؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في تأليفه لهذه الرِّسالةِ؟

اعتمد علىٰ «مُقدِّمة التَّفسير» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ، ولمَّا كان كلام شيخ الإسلام مُرسَلًا احتيج إلىٰ أن يُجمَع ويُبسَط ويُسهَّل للطَّالب.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَيَتَلَخَّصُ ذَلِكَ فِي مَا يَأْتِي:

❁ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ:

١) مَتَىٰ نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ؟ وَمَنْ نَزَلَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟

٢) أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ.

٣) نُزُولُ الْقُرْآنِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ: سَبَبِيٌّ وَابْتِدَائِيٌّ.

٤) الْقُرْآنُ مَكِّيٌّ وَمَدَنِيٌّ، وَبَيَانُ الْحِكْمَةِ مِنْ نُزُولِهِ مُفَرَّقًا وَتَرْتِيبُ الْقُرْآنِ.



٥) كِتَابَةُ الْقُرْآنِ وَحِفْظُهُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ.
٦) جَمْعُ الْقُرْآنِ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

❁ التَّفْسِيرُ:

١) مَعْنَىٰ التَّفْسِيرِ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا، وَبَيَانُ حُكْمِهِ وَالْغَرَضِ مِنْهُ.
٢) الْوَاجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ.
٣) الْمَرْجِعُ فِي التَّفْسِيرِ إِلَىٰ مَا يَأْتِي:

- كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ بِحَيْثُ يُفَسَّرُ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ.
- سُنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ لِأَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمُرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِ اللهِ.
- كَلَامُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَاسِيَمَا ذَوِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْعِنَايَةِ بِالتَّفْسِيرِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ وَفِي عَصْرِهِمْ.
- كَلَامُ كِبَارِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ اعْتَنَوا بِأَخْذِ التَّفْسِيرِ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
- مَا تَقْتَضِيهِ الْكَلِمَاتُ مِنَ الْمَعَانِي الشَّرْعِيَّةِ أَوِ اللُّغَوِيَّةِ حَسْبَ السِّيَاقِ، فَإِنِ اخْتَلَفَ الشَّرْعِيُّ وَاللُّغَوِيُّ، أُخِذَ بِالْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيِّ، إِلَّا بِدَلِيلٍ يُرَجِّحُ اللُّغَوِيَّ.

٤) أَنْوَاعُ الاخْتِلَافِ الْوَارِدِ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ.
٥) تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ، تَعْرِيفُهَا، أَنْوَاعُهَا، حُكْمُ كُلِّ نَوْعٍ.

❁ أَقْسَامُ الْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ الْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ، مَوْقِفُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ وَالزَّائِغِينَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، التَّشَابُهُ: حَقِيقِيٌّ وَنِسْبِيٌّ، الْحِكْمَةُ فِي تَنَوُّعِ الْقُرْآنِ إِلَىٰ مُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ.

❁ مُوهِمُ التَّعَارُضِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ، وَأَمْثِلَةٌ مِنْ ذَلِكَ.

❁ الْقَسَمُ: تَعْرِيفُهُ، أَدَاتُهُ، فَائِدَتُهُ.

❁ الْقَصَصُ: تَعْرِيفُهَا، الْغَرَضُ مِنْهَا، الْحِكْمَةُ مِنْ تَكْرَارِهَا وَاخْتِلَافِهَا فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ وَالْأُسْلُوبِ.

❁ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي أُقْحِمَتْ فِي التَّفْسِيرِ، وَمَوْقِفُ الْعُلَمَاءِ مِنْهَا.

❁ الضَّمِيرُ: تَعْرِيفُهُ، مَرْجِعُه، الْإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ وَفَائِدَتُهُ، الِالْتِفَاتُ وَفَائِدَتُهُ، ضَمِيرُ الْفَصْلِ وَفَائِدَتُهُ).



القُرْآنُ الكَرِيمُ

أوَّلًا: تَعْرِيفُ القُرْآنِ وصِفاتُه

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْقُرْآنُ فِي اللُّغَةِ: مَصْدَرُ قَرَأَ بِمَعْنَىٰ تَلَا، أَوْ بِمَعْنَىٰ جمَعَ، تَقُولُ: قَرَأَ قَرْءًا وَقُرْآنًا، كَمَا تَقُولُ: غَفَرَ غَفْرًا وَغُفْرَانًا، فَعَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْأَوَّلِ: (تَلَا) يَكُونُ مَصْدَرًا بِمَعْنَىٰ اسْمَ الْمَفْعُولِ، أَيْ: بِمَعْنَىٰ مَتْلُوٌّ، وَعَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الثَّانِي: جَمْعٌ يَكُونُ مَصْدَرًا بِمَعْنَىٰ اسْمَ الْفَاعِلِ، أَيْ: بِمَعْنَىٰ جَامِعٍ؛ لِجَمْعِهِ الْأَخْبَارَ وَالْأَحْكَامَ.

وَالْقُرْآنُ فِي الشَّرْعِ: (كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ، الْمُنَزَّلُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمَبْدُوءُ بِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ، الْمَخْتُومُ بِسُورَةِ النَّاسِ)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۝٢٣﴾ [الإنسان]، وَقَالَ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف]).





القرآنُ الكريمُ:

[١] كلامُ الله: لفظًا ومعنًى، نؤمن بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تكلَّم بهذا القرآن الَّذي نقرؤه كلامًا مَسموعًا مَنقولًا إلينا، فالله عَزَّوَجَلَّ هو المُبلِّغُ عنه.

[٢] ويُنسَبُ إلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: لأنَّه هو الرَّسول الملكيُّ المُبلِّغ عن الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾ [التَّكوير].

[٣] ويُنسَبُ إلى النَّبيِّ ﷺ: لأنَّه هو الرَّسول الإنسيُّ المُبلِّغ عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١﴾ [الحاقَّة].

لماذا قال المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (خاتَمِ أَنْبِيائِه)، ولم يقل: (خاتَمِ رُسُلِه)؟

[١] لأنَّ نفي النَّبيِّ يقتضي نفي الرَّسول من باب أولىٰ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ.

[٢] لأنَّه تعالىٰ وصفه بقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقد أجمع المسلمون أنَّه لا نبيَّ بعد محمَّدٍ ﷺ.

من صِفاتِ القرآنُ الكريمُ أنَّه:

[١] مَحفوظٌ في الصُّدور.

[٢] مَكتوبٌ في السُّطور.

[٣] مَنقولٌ بالتَّواتر القطعيِّ اليقينيِّ، فلا نقص فيه ولا زيادة، فمن أنكر منه حرفًا واحدًا مُجمعًا فيه بين القرَّاء فقد كفر، أجمع علىٰ هذا المسلمون، ولم يخالف إلَّا الرَّافضة الَّذي ادَّعوا فيه النَّقصَ وزادوا عليه ما ليس منه.

تنبيهٌ: لا يضرُّ اختلاف القراءات المُتواترة في بعض الأحرف التَّركيبيَّة؛ نحو (مَلِكِ) و(مَالِكِ)، أو المعنويَّة؛ نحو: (فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) و(وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا).



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَدْ حمَىٰ اللهُ تَعالَىٰ هَـذَا الْقُـرْآنَ الْعَظِـيمَ مِـنَ: التَّغْيِيـرِ، وَالزِّيَـادَةِ، وَالنَّقْصِ، وَالتَّبْدِيلِ؛ حَيْثُ تَكَفَّلَ عَزَّ وَجَلَّ بِحِفْظِهِ، فَقَـالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[الحجر]، وَلِذَلِكَ مَضَتِ الْقُرُونُ الْكَثِيرَةُ وَلَمْ يُحَاوِلْ أَحَدٌ مِنْ أَعْدَائِهِ أَنْ يُغَيِّـرَ فِيـهِ، أَوْ يَزِيدَ، أَوْ يَنْقُصَ، أَوْ يُبَدِّلَ = إِلَّا هَتَكَ اللهُ تَعَالَىٰ سِتْرَهُ، وَفَضَحَ أَمْرَهُ).

تغييرُ القرآن الكريم منه:

- [١] **الـمَعنويُّ:** وهو واقعٌ كما هو مَعروفٌ في كتب التَّاريخ وكلام العلماء، وحِفظُ الله عَزَّ وَجَلَّ له بأن يُيسِّر من عباده مَن يُبيِّنُ بُطلانَه وعَواره.
- [٢] **اللَّفظيُّ:** وهو المقصود في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[الحِجر]، وهو أنواعٌ:
  - [١] تغيير الحركات والنُّقط.
  - [٢] زيادة كلمةٍ أو حرفٍ.
  - [٣] نقص كلمةٍ أو حرفٍ.
  - [٤] تبديل كلمةٍ بكلمةٍ.

فمن ادَّعىٰ شيئًا من ذلك لزم من قوله:

- [١] **وصفُ الله** عَزَّ وَجَلَّ **بالعجز:** ومن وصفَ الله بالعجزِ فهو كافرٌ حلالُ الدَّم.
- [١] **تكذيبُ الله** عَزَّ وَجَلَّ**:** لأنَّه مُكذِّبٌ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[الحِجر]، ومُكذِّبُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كافرٌ.
- [٢] **تكذيبُ النَّبيِّ** ﷺ**:** فالمسلمون أجمعوا أنَّه ﷺ بلَّغ القرآنَ كاملًا.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِأَوْصَافٍ كَثِيرَةٍ تَـدُلُّ عَلَـىٰ عَظَمَتِـهِ، وَبَرَكَتِـهِ، وَتَأْثِيرِهِ، وَشُمُولِهِ، وَأَنَّهُ حَاكِمٌ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ.

قَـالَ اللهُ تَعَـالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾[الحجـر]، ﴿قٓ



وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ [ق]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ [ص]، وقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ [الواقعة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ [الحشر]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ [التَّوبة]، وقال: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ [الفرقان].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨]).

السَّبعُ المثاني هي الفاتحةُ، آياتُها سبعٌ، وفيها:

[١] الخبر.

[٢] الدُّعاء.

[٣] التَّاريخ.

[٤] تقسيم النَّاس بالهداية.

بعضُ أسماء سورة الفاتحة:

فاتحةُ الكتاب، والسَّبعُ المَثاني، والقرآنُ العظيمُ، والرُّقية، وأمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والصَّلاةُ، والحمدُ لله ربِّ العالمين، وهذه هي الَّتي جاءت بها الأدلَّة، وسُمِّيت بغيرها.



وصف اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ القرآنَ بالعظمةِ؛ فقال:

[١] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر].

[٢] ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ [ق]، والمَجدُ هو: (العظمة والسُّلطان).

يُفهم من عظمةِ القرآنِ:

[١] تعظيمُ القرآن نفسِه.

[٢] أنَّ من تمسَّك به نال العظمة والمجدَ، وصارَ له السُّلطة علىٰ غيره، وتاريخ الأمَّة الإسلاميَّة يشهد بهذا.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

[١] **وصفَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ القُرآنَ بأنَّه مُباركٌ:**

[أ] **في أجره وثوابه:** فمن قرأ القرآن فله بكلِّ حرفٍ عشر حسناتٍ. أخرجه التِّرمذيُّ.

[ب] **في تأثيره:** ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ [الحشر].

[ج] **في أثره:** ومنه النَّصر علىٰ العدوِّ، وصلاح القلب، وإقبال العبد علىٰ ربِّه، وتليين القلب.

[٢] **وبيَّن الحكمةَ من إنزالِه:**

[أ] ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾: فالَّذي يقرأ القرآن بحضور قلب وتدبُّرٍ يتأثَّر به تأثُّرًا عظيمًا، وفيه أنَّ معانيَ آيات الصِّفات مَعلومةٌ.

[ب] ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: فالتَّدبُّر مُطلقٌ، والتَّذكُّر خاصٌّ بأولي الألباب، أي: العقول، فهم الَّذين يتذكَّرون ويتَّعظون بالقرآن.



مَعنى كون القرآنِ الكريمِ كتابًا أنَّه مَكتوبٌ في:

- [١] **اللَّوح المحفوظ:** في الملأ الأعلىٰ.
- [٢] **الصُّحف:** الَّتي بأيدي السَّفرة الكرام البررة.
- [٣] **المَصاحف:** الَّتي في أيدينا.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾:

- [١] (فَٱتَّبِعُوهُ): الاتِّباع فرع معرفة المعنىٰ؛ فترجع إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.
- [٢] (وَٱتَّقُواْ): حُذف المَفعول، وتقديره: اتَّقوا مُخالفتَه، وهي ضدُّ الاتِّباع، فيشمل كلَّ شرائع القرآن.
- [٣] (لَعَلَّكُمۡ): (لعلَّ) تأتي في اللُّغة للتَّرجِّي والتَّعليل، وهي هنا للتَّعليل؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يعسر عليه شيءٌ.
- [٤] (تُرۡحَمُونَ): أُضمِر الرَّاحم، والفاعل يُحذف للعلم به، والفاعل هنا هو الله عَزَّوَجَلَّ، أو لإفادة العموم، فيكون المَعنىٰ: مَن رَحِمَه اللهُ يسَّر له مَن يرحمُه مِن الخلق، فيكون مَرحومًا من الله عَزَّوَجَلَّ ومن الخلقِ.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ مُؤكَّدةٌ بثلاث مُؤكِّدات:

- [١] **القسم:** في قوله تعالىٰ قبلها: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾[الواقعة]، و(لا) هنا للتَّنبيه، وليست نافيةً.
- [٢] **إنَّ.**
- [٣] **اللَّام.**

وصفَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ القُرآنَ بأنَّه كريمٌ:

أي: كثير الخير، يفتح المَدارك، ويوسِّع العلوم، فيه من المعاني والعلوم العظيمة ما لا يوجد في غيره، فهو كريمٌ في ألفاظه، ومعانيه، وآثاره، وغيرها.



﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾:

[١] أي: للخَصلة الَّتي هي أقوم، و(أقوم) صيغة تفضيل، فكلُّ خُلُقٍ فاضلٍ فالقرآن يهدي إلىٰ أعلاه، وكلُّ مُعاملةٍ حسنة فالقرآن يهدي إلىٰ أحسنها، وكلُّ عبادةٍ مُستقيمةٍ فالقرآن يهدي إلىٰ أقومها...

[٢] فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ الدِّين الإسلاميَّ يبدأ بالأهمِّ فالمهمِّ، والأصلح فالصَّالح، ويدفع الأسوأ بالسَّيِّء.

وصف الله عَزَّوَجَلَّ القرآن بشدَّة التَّأثير فقال:

[١] (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ): والجبل أصمُّ صُلبٌ شديدٌ.

[٢] (لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا): أي: ذليلًا.

[٣] (مُّتَصَدِّعًا): أي: مُتفتِّتًا ليِّنًا.

[٤] (مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ): الخشية خوفٌ مَقرونٌ بعلمٍ.

[٤] (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ): أي: لأجل أن يتفكَّروا.

هنا قاعدتان مهمَّتان:

[١] **قاعدةٌ أصوليَّةٌ:** (كلُّ مثلٍ في القرآن فهو إثباتٌ للقياس)؛ لأنَّ المقصود انتقال الذِّهن من هذا لهذا.

[٢] **قاعدةٌ عقديَّةٌ:** في الآية دلالةٌ علىٰ أنَّ الجبال لها فهمٌ وإدراكٌ، قال ﷺ: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**». مُتَّفقٌ عليه.

قاعدةٌ أخرى مُهمَّةٌ:

(**كلُّ مَثلٍ في القرآن يُمكنُ الوصولُ إلىٰ مَعناهُ؛ إلَّا مثلًا سيق للتَّنفير**)، مثل قوله تعالىٰ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾[الصَّافَّات]، ورؤوس الشَّياطين غيرُ مَعلومة الهيئة.



وصف الله عَزَّوَجَلَّ القرآن بأنَّه يزيد المؤمنين إيمانًا، ويزيد الكافرين رجسًا:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم﴾ أي: من المُنافقين، ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ استفهامٌ للتَّحدِّي؛ إمَّا لكونهم لم ينتفعوا بهذه الآيات، أو لأنَّهم يُكابرون، فانقسم النَّاس مع القرآن قسمين:

[١] (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟):

- [أ] (فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا): وزيادة إيمانهم بأنَّ السُّورة إذا نزلت بخبر صدَّقوه، وإذا نزلت بأمرٍ أو نهيٍ امتثلوه.
- [ب] (وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ): أي: يبشِّر بعضهم بعضًا بما نزل، وبحكمه، فكلَّما نزلت آيةٌ دلَّت أنَّ الله أراد بالأمَّة خيرًا.

[٢] (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ):

- [أ] (فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ): والرِّجس هنا معنويٌّ؛ لمجيئه للتَّوكيد، زادهم الله رجسًا لأنَّهم كذَّبوا الخبر وخالفوا الطَّلب.
- [ب] (وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ): استمرُّوا علىٰ الرِّجس إلىٰ الموت.

فيه تحذيرٌ عظيمٌ لمن ردَّ الشَّرع أوَّل مرَّةٍ أنَّه خطرٌ عليه أن يستمرَّ معه هذا الرَّدُّ حتَّىٰ يموت علىٰ الكفر -عياذًا بالله-.

المَرض:

(علَّةٌ تقتضي خروج البدن عن الاعتدال الطَّبيعيِّ)، ومرض القلب في كلِّ موضعٍ بحسبه:

- [١] **مرض شهوةٍ:** ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢].
- [٢] **مرض شبهةٍ:** ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [التَّوبة]، أي: مرض الشَّكِّ والجحود، عُرف هذا بمُقابله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.



فائدةٌ نحويَّةٌ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم﴾:

(كُلَّما أتت "ما" بعد "إذا" فهي زائدةٌ)، قال النَّاظم:

يَــا طَالِبًــا خُــذْ فَائِــدَهْ　　بَعْــدَ (إِذَا) (مَــا) زَائِــدَهْ

مِن تأثير القرآن أنَّه إنذارٌ لمن بلغه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾:

[١] (لِأُنذِرَكُم بِهِۦ): أي: المُخاطبون.

[٢] (وَمَنۢ بَلَغَۚ): أي: كلُّ من بلغه القرآن.

فكلُّ من بلغه القرآن وعرف معناه فلابدَّ أن يتأثَّر به ولو كان كافرًا، ولهذا كان أهل مكَّة يجتمعون علىٰ النَّبيِّ ﷺ إذا قرأ القرآن ليسمعوه مِن فِيهِ.

واستدلَّ بعض العلماء بهذه الآية علىٰ أنَّ كلَّ من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجَّة ولو لم يفهمه، وهو قولٌ ضعيفٌ، وإنَّما تقوم الحجَّة إذا قيل له: (هذا كلام الله الواجبُ اتِّباعُه)، ولا يُقال: لابدَّ من التَّفصيل؛ لأنَّه قد يكون صعبًا.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾، أي:

[١] **جاهدهم بآياتِ القُرآن:** أي: اتلُ عليهم القرآن، وضيِّق عليهم به، فإنَّهم يضيقون به ذرعًا.

[٢] **جاهدهم بأحكامِ القرآن وحِكَمِه:** واتَّبع ما جاء في القرآنِ من قِتالهم وجِهادهم حتَّىٰ تكونَ كلمةُ الله هي العُليا.

﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ أي: لا تَتَأَنَّ وتمُدَّ إليهم يدَ الضَّعفِ بل القوَّة؛ لأنَّهم يريدون أن يمدُّوا لكم يد القوَّة.



وصف اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ القرآن بأنَّه تبيانٌ لكلِّ شيءٍ:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ [النَّحل]، فالقرآن الكريم مَصدرُ الشَّريعة الإسلاميَّة، وهو:

- [١] **هدًى:** لجميع النَّاس.
- [٢] **رحمةٌ:** للمُسلمين.
- [٣] **بُشرى:** للمُسلمين إذا تمسَّكوا به.

ممَّا وصف اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ به القرآن:

[١] ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾: الباء تفيد:
- [أ] **المُلابسة:** فهو نازلٌ نزول حقٍّ.
- [ب] **التَّعدية:** أي: أتى بالحقِّ، فأخبارُه صدقٌ، وأحكامُه عدلٌ.

[٢] ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: من وجهين:
- [أ] أنَّ الكتب السَّابقة ذكرت منه شيئًا؛ فنزل مِصداقًا لها.
- [ب] أنَّه يقول: إنَّها حقٌّ وصدقٌ؛ فيجب الإيمان بها.

[٣] ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: الهيمنة هي السَّيطرة والسُّلطة، أي: القرآن ناسخٌ لما سبقه من الكتب.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، الفاء للسَّببيَّة، أي: لأنَّه مُهيمنٌ احكم بينهم بما أنزل الله.

القرآنُ أتى ناسخًا ومُهيمنًا على ما سبق من الكُتب، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤٨]، ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْدَثُ، تَقْرَؤُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا؟ أَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ لَا وَاللهِ، مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ». رواه البخاريُّ (٧٣٦٣). وقوله: «مَحْضًا لَمْ يُشَبْ» أي: لم يُخالِطْهُ غيرُه.



ثانيًا: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَصْدَرُ التَّشْرِيعِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَصْدَرُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان]، وَقَالَ: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ [إبراهيم].

وَسُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ مَصْدَرُ تَشْرِيعٍ أَيْضًا كَمَا قَرَّرَهُ الْقُرْآنُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾ [النِّساء]، وَقَالَ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب]، وَقَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر]، وَقَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران]).

القوانينُ الوضعيَّة لا تخلو من حالين:

[١] **أن تكون موافقةً للشَّرع:** فنقول: إنَّ الَّذي شرعها هو الشَّرع، ولا كرامة ولا منَّة للقوانين الوضعيَّة.

[٢] **أن تكون مُخالفةً للشَّرع:** فيجب نبذُها وطرحُها، وأن نعلم أنَّها باطلةٌ، ولا يمكن أن يُصلحَ الخلقَ قانونٌ وضعه البشر.

الرَّدُّ على من زعمَ أنَّ قانونَه يصلحُ للخلقِ من وجوه:

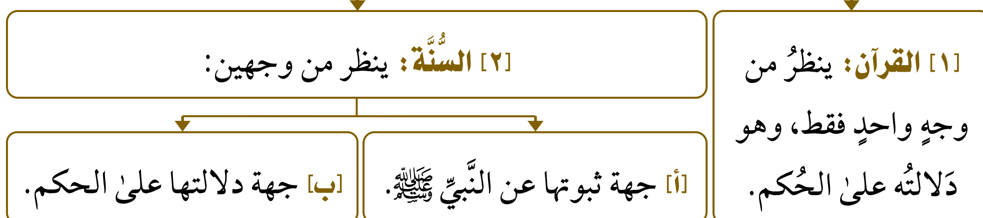
[١] أنَّه قاصرٌ في نفسه، وعقله، ومعرفة ما يُصلحُ الخلقَ.

[٢] أنَّه إن عرف ذلك فإنَّما يعرفه فيما حوله من الأماكن، لا فيما بعُد عنه.

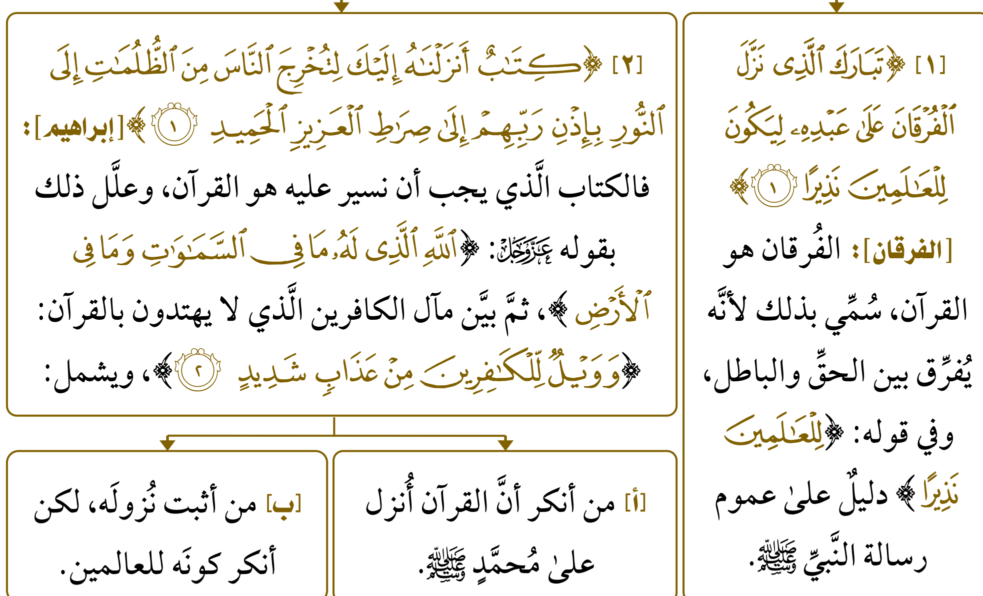
[٣] أنَّه إن عرف المَصالح فإنَّما يعرفها في الزَّمن الَّذي يعيش فيه، لا فيما بعده.



النَّاظر في:



من أدلَّة كون القرآن مصدرًا للتَّشريع:



تنبيهٌ:

القرآنُ الكريمُ له أسماءُ وأوصافٌ.

وأشهرُ أسمائِه: القرآنُ، والفُرقانُ، والذِّكرُ، والكتابُ.

وأشهرُ أوصافه أنَّه: هدًىٰ، ونورٌ، وشفاءٌ، ورحمةٌ، ومَوعظةٌ، وبُشـرًىٰ، ومُبـارَكٌ، وعزيـزٌ، وكريمٌ، وبشيرٌ، ومجيدٌ، ونذيرٌ.



من أدلَّة كون السُّنَّة مصدرًا للتَّشريع:

[١] ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[النساء: ٨٠]: والطَّاعة هنا فيما لم يرد به القرآنُ، فطاعتُه ﷺ طاعةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، ومن لم يطعه ﷺ فقد برئ منه النَّبيُّ ﷺ، ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾.

[٢] ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب]: فمن عصى النَّبيَّ ﷺ فيما لم يرد به القرآنُ فقد ضلَّ.

[٣] ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحشر]: وردت في الفيء وقسمته، لكن تشمل كلَّ ما أتى به النَّبيُّ ﷺ من شريعة الله عَزَّوَجَلَّ.

[٤] ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران]: وتُسمَّى آية المِحنة، أي: امتحان واختبار من ادَّعى حبَّ الله عَزَّوَجَلَّ، فميزانُ الصِّدق هو اتِّباعُ النَّبيِّ ﷺ. وفيها أنَّ الشَّأن أن يحبَّك الله، لا أن تدَّعي حُبَّه، وأنَّ من اتَّبع النَّبيَّ ﷺ حصلت له فائدتان: محبَّةُ الله، ومغفرة الذُّنوب.

ومن أدلَّةِ حُجِّيَّةِ السُّنَّةِ كذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾[النِّساء]، وقولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[الأنفال:٢٤].

دلالةُ الإجماعِ على حُجِّيَّةِ السُّنَّة:

قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَا أعلمُ مِن الصَّحَابَة وَلَا التَّابِعين أحدًا أُخبِر عَن رَسُول اللهِ ﷺ إِلَّا قَبِلَ خَبرَه، وانْتهىٰ إِلَيْهِ، وَأثبت ذَلِك سنَّةً ... وصنَعَ ذَلِك الَّذين بعدَ التَّابِعينَ، وَالَّذين لَقِينَاهُمْ كلُّهم يثبِتُ الْأَخْبَارَ، ويجعلهُا سنَّةً يُحمَدُ مَن تبعَها ويُعابُ مَن خالفَها، فَمن فَارق هَذَا الْمَذْهَب كَانَ عندنَا مُفارقًا سَبِيلَ أَصْحَابِ رَسُول الله ﷺ وَأهلِ الْعلم بعدهمْ إِلَى الْيَوْم، وَكَانَ من أهل الْجَهَالَةِ).



ثالثًا: نُزُولُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (نَزَلَ الْقُرْآنُ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي رَمَضَانَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر]، وَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدُّخان]، وَقَالَ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَكَانَ عُمُرُ النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً عَلَى الْمَشْهُورِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَغَيْرِهِمْ، وَهَٰذِهِ السِّنُّ هِيَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا بُلُوغُ الرُّشْدِ، وَكَمَالُ الْعَقْلِ، وَتَمَامُ الْإِدْرَاكِ.

وَالَّذِي نَزَلَ بِالْقُرْآنِ مِنَ اللهِ تَعَالَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ جِبْرِيلُ، أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ الْكِرَامِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ [الشُّعراء]).

ابتِداءُ نزولِ الوحي:

[١] **الرُّؤيا الصَّادقةُ**: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ**». مُتَّفقٌ عليه. وابتداءُ الرُّؤيا كان في شهر ربيعٍ الأوَّل.

[٢] **نزول القرآن**: وكان ابتداءُ نزولِه لمَّا بلغ أربعين سنةً، في:

[أ] **ليلة القَدر**: قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر]، وقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدُّخان].

[ب] **وهي في رمضانَ**: قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].



صفةُ نُزولِ القُرآنِ أوَّلَ ما نزلَ:

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ: التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ أُولَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[العلق]، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ، فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: أَيْ خَدِيجَةُ؛ مَا لِي؟! وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ...». مُتَّفقٌ عليه.

سنُّ بلوغ الرُّشد أربعون سنةً:

وبهذا فسَّر بعض العُلماء قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾[القصص:١٤].

لطيفةٌ:

سبق أنَّ ابتداءَ الرُّؤيا كان في شهر ربيعٍ الأوَّل، وأنَّ ابتداء نزول القرآن كان في رمضان، وبينهما ستَّة أشهرٍ، ولبث ﷺ بعد نزول الوحي ثلاثةً وعشرين سنةً ونصف السَّنَة، قال بعض العلماء: هذا هو السِّرُّ في قول النَّبيِّ ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ». مُتَّفقُ عليه.

ولا تنافي بين هذا وبين قولِنا: إنَّه ﷺ نُبِّئ بـ(اقرأ)؛ لأنَّ الرُّؤيا تكون من غير النَّبيِّ.



﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ ... بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشُّعراء]:

[٦] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾:	[٥] ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾:	[٤] ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾:	[٣] ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾:	[٢] ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:	[١] ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ﴾:
نزل بلغةٍ عربيَّةٍ، وهو بيِّنٌ في نفسه، مُبيِّنٌ لغيره.	تعليل نزول القرآن.	نزَّله على محلِّ العقل الَّذي هو القلب.	هو جبريل عليه السلام، ووصفُه بالأمانة مُناسبٌ؛ لأنَّ القرآن هو أعظم أمانةٍ.	إشارةٌ إلى أنَّ القرآن مُنزَّلٌ لكلِّ العالمين.	جملةٌ مُؤكَّدةٌ بمُؤكِّدين: (إنَّ) و(اللَّام).

قال المُصنِّف رحمه الله: (وَقَدْ كَانَ لِجِبْرِيلَ عليه السلام مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ الْعَظِيمَةِ مِنَ: الْكَرَمِ، وَالْقُوَّةِ، وَالْقُرْبِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالْمَكَانَةِ، وَالِاحْتِرَامِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَمَانَةِ، وَالْحُسْنِ، وَالطَّهَارَةِ = مَا جَعَلَهُ أَهْلًا لِأَنْ يَكُونَ رَسُولَ اللهِ تَعَالَىٰ بِوَحْيِهِ إِلَىٰ رُسُلِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾ [التَّكوير]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧﴾ [النَّجم]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾ [النَّحل].

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ لَنَا أَوْصَافَ جِبْرِيلَ الَّذِي نَزَلَ بِالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِهِ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ عِظَمِ الْقُرْآنِ، وَعِنَايَتِهِ تَعَالَىٰ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُرْسَلُ مَنْ كَانَ عَظِيمًا إِلَّا بِالْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ).

تنبيهٌ: قال شيخُ الإسلامِ في «مَجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١٢٨): (ومَذهبُ سلفِ الأمَّةِ، وأئمَّتِها، وخلفِها؛ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم سمع القرآنَ من جِبريلَ، وجبريلُ سمِعَه من الله عز وجل)، ولهذا فإنَّه يجِبُ تعديلُ الاجازاتِ في القرآنِ الَّتي فيها: عن جبريل عن اللَّوح المَحفوظِ!



وردت أهمُّ صفات جبريل عليه السلام في ثلاثة مَواضع من القرآن:

[١] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾ فيها: الكرم، ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ فيها: القوَّة، ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ فيها: قُربُه من الله عزَّ وجلَّ، ﴿مَكِينٖ ٢٠﴾ أي: ذو مكانةٍ، ﴿مُّطَاعٖ﴾ فيها: أنَّه ذو احترامٍ، ﴿ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾[التَّكوير]، فيها: الأمانة.

[٢] ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥﴾ فيها شدَّة قوَّته، ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ أي: علىٰ هيئةٍ حسنةٍ، ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧﴾[النَّجم].

[٣] ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾[النَّحل]، فيها دليلٌ علىٰ اتِّصافِه بالطَّهارة.

كونُ الله عزَّ وجلَّ يصف جبريل عليه السلام بهذه الأوصاف العظيمة دليلٌ علىٰ عِظم ما أُرسل به؛ لأنَّه لا يُرسَل بالأمور العظيمة إلَّا من هو عظيمٌ.

تَرجَمَةُ جِبْرِيــلَ عليه السلام:

- **اسمُه:** جِبريلُ أو جَبرائيلُ، والجبر هو العبد، أُضيف إلىٰ إيل وهو بالنَّبطيَّة: اسمٌ لله.
- **لقبُه:** الرُّوح الأمينُ، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾[الشُّعراء].
- **وظيفتُه:** مُوكَّلٌ بالوحي، ينزل به من عند الله عزَّ وجلَّ علىٰ من يشاءُ من عباده المُرسَلين.
- **صِفاتُه الخَلقيَّة:** قال تعالىٰ: ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ أي: هيئةٍ حسنةٍ، وعند الشَّيخين: «**لَـهُ سِـتُّمِائَةِ جَنَاحٍ**»، و«**سَدَّ أُفُقَ السَّمَاءِ**» أي: ملأها، وعند ابن أبي عاصمٍ: «**جَنَاحَاهُ لُؤْلُؤٌ، وَبَـاطِنُ قَدَمَيْهِ أَخْضَرُ**»، وعند ابن حبَّان: «**يَنْثُرُ مِنْ رِيشِهِ تَهَاوِيلَ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ**»، وكان يتصوَّر في صورة دِحية الكلبيِّ رضي الله عنه كما في الحديث.
- **مَرتبتُه:** هو أفضلُ الملائكة ومُقدَّمُهم، ولمَّا اتَّخذه اليهودُ عدُوًّا قـالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[البقـرة]، وقـد سـأل جبريـلُ عليه السلام النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم: «**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَـدْرٍ فِـيكُمْ؟**»، قـال: «**مِـنْ أَفْضَـلِ الْمُسْـلِمِينَ**»، أَوْ كَلِمَـةً نَحْوَهَا، قَالَ: «**وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ**»، ومنهم جبريلُ عليه السلام.



رابِعًا: أوَّلُ ما نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِطْلَاقِ قَطْعًـا: الْآيَـاتُ الْخَمْـسُ الْأُولَىٰ مِنْ سُورَةِ الْعَلَقِ، وَهِـيَ قَوْلُـهُ تَعَـالَىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق]).

فائدةُ معرفةِ أوَّلِ ما نزل:

معرفة أوَّل ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه من مهمَّات معرفة المُتقدِّم والمُتأخِّر، وهو مُهمٌّ لمعرفة النَّاسخ والمَنسوخ.

من مَعاني هذه الآياتِ الخَمسِ:

[١] (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١): أمر جبريلُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقرأ، فأجاب بأنَّه لا يُحسن القراءة؛ لأنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب.

[٢] (خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢): ذكر عَزَّ وَجَلَّ ابتداء خلق الإنسان، والعلقة دودةٌ حمراء، وهي أوَّل الدَّم، وعدل عن النُّطفة إلىٰ العلقة لأنَّ الانتقال من النُّطفة إلىٰ العلقة دليلٌ علىٰ ابتداء الخلق.

[٣] (ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣): الواو للاستئناف، والأكرم اسم تفضيلٍ من الكرم.

[٤] (ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤): أي: علَّم بالقلم كيف نكتب به، وهذا أولىٰ من تقدير محذوفٍ؛ لأنَّ الأصل عدم الحذف، فإذا دار الكلام بين الحذف وعدمه، حُمل علىٰ العدم.

[٥] (عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥): أي: علَّم كلَّ إنسانٍ ما لم يعلمه.

لماذا افتُتحَ القُرآنُ بالفاتحةِ، ولم يُفتتحْ بهذه الآياتِ الخمسِ؟

لأنَّ الفاتحة هي أمُّ القرآن، فهي كالعنوان له، وما بعدها تفصيلٌ له، ولهذا لا تكاد تجد معنًىٰ من القرآن إلَّا وقد تضمَّنته الفاتحة إيماءً.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ مُدَّةً، ثُمَّ نَزَلَتِ الْآيَاتُ الْخَمْسُ الْأُولَىٰ مِنْ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾[المُدَّثر]).

الحِكمة من فُتور الوَحيِ:

ليشتدَّ شوق النَّبيِّ ﷺ إليه؛ كما وقع فعلًا، فإنَّه لمَّا فتر الوحي صار النَّبيُّ ﷺ يخرج ليتطلَّع إلىٰ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد اختلف العلماء في مدَّة الفترة.

وفيه حرص النَّبيِّ ﷺ علىٰ الدَّعوة مع ما يُلاقيه من شدَّةٍ عند نزول الوحي.

من مَعاني هذه الآياتِ الخَمسِ:

[١] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾): أصلُها (المُتَدَثِّرُ)، أي: لابس الدِّثار، ثمَّ قُلبت التَّاء دالًا لعلَّةٍ صرفيَّةٍ.

[٢] (قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾): أمره الله عَزَّ وَجَلَّ أن يقوم ويُنذر النَّاس، وألَّا يركن إلىٰ الكسل والخمول، وبها صار رسولًا.

[٣] (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾): (وَرَبَّكَ) مَفعولٌ مُقدَّمٌ، والفاء لتزيين اللَّفظ، وقيل: للعطف.

[٤] (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾): هي الثِّياب المَعنويَّة كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]، وقيل: طهِّر الثِّياب الحسِّيَّة من النَّجاسة.

[٥] (وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾): الرُّجز: الأوثان، أمره عَزَّ وَجَلَّ بهجرها.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» -صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي بَدْءِ الْوَحْيِ قَالَتْ: حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، يَعْنِي: لَسْتُ أَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ: ثُمَّ قَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾[العلق].

وَفِيهِمَا عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾[المُدَّثر]»).

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ» أي: الشَّرعُ والقرآنُ، «وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ» في جبل حِراءٍ علىٰ يمين الدَّاخل إلىٰ مكَّة من جهة الشَّرائع، ويُسمِّيه أهل الحجاز جبل النُّور، والتَّسمية الأولىٰ أحسن، «فَجَاءَهُ الْمَلَكُ» أي: جبريل، و(أل) للعهد الذِّهنيِّ.

القولُ بأنَّ السُّنَّة هي المَصدرُ الثَّاني للتَّشريع يحتمل أن يُرادَ به:

[١] أنَّنا لا نقبلها إلَّا في المرتبة الثَّانية: فهذا غلطٌ؛ لأنَّها بمنزلة القرآن.

[٢] أنَّها المَصدر الثَّاني من حيث العدد لا من حيث التَّرتيبُ: فلا بأس.

هل حكمُ ما أنزل اللَّهُ مُتعلِّقٌ بتوحيد الرُّبوبيَّة أم بتوحيد الألوهيَّة؟

[١] تعلُّقه بتوحيد الرُّبوبيَّة أقوىٰ؛ لأنَّ الَّذي يملك الحكم والتَّشريع هو الله، وفي حديث عديِّ بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَلَيْسَ إِنَّهُمْ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**»، قلتُ: نعم، قال ﷺ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**». أخرجه التِّرمذيُّ.

[٢] وله تعلُّقٌ بتوحيد الألوهيَّة؛ لأنَّ من الشَّرائع أن يتعبَّد إلىٰ الله، وشرطا العبادة: الإخلاصُ والمُتابعةُ.



هل ما كان مَعلومًا مِن الدِّين بالضَّرورة يحتاجُ إلى إقامةِ الحُجَّة؟

نعم، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: من أنكر وجوب الصَّلوات الخمس وهو حديثُ عهدٍ بإسلامٍ، أو في باديةٍ بعيدةٍ؛ فإنَّه لا يُحكم بكُفره حتَّىٰ يُبلَّغ.

ثمَّ إنَّ القول بأنَّ هذا مَعلومٌ مِن الدِّين بالضَّرورة أمرٌ نسبيٌّ، قد يرىٰ بعض العلماء أنَّ هذا من المَعلوم مِن الدِّين بالضَّرورة، ويرىٰ آخرون خِلاف ذلك.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَثَمَّةَ آيَاتٌ يُقَالُ فِيهَا: أَوَّلُ مَا نَزَلَ؛ وَالْمُرَادُ أَوَّلُ مَا نَزَلَ بِاعْتِبَارِ شَيْءٍ مُعَيَّنٍ، فتكُونُ أَوَّلِيَّةً مُقَيَّدَةً، مِثْلُ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ سَأَلَهُ: أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلَ؟ قَالَ جَابِرٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، فَقَالَ جَابِرٌ: لا أُخْبِرُكَ إِلَّا بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «جَاوَرْتُ فِي حِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: «فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾».

فَهٰذِهِ الْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا جَابِرٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بِاعْتِبَارِ أَوَّلِ مَا نَزَلَ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، أَوْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ فِي شَأْنِ الرِّسَالَةِ؛ لِأَنَّ مَا نَزَلَ مِنْ سُورَةِ اقْرَأْ ثَبَتَتْ بِهِ نُبُوَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا نَزَلَ مِنْ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ ثَبَتَتْ بِهِ الرِّسَالَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾، وَلِهٰذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نُبِّئَ بِاقْرَأْ، وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ).

أوَّليَّة النُّزول قسمان:

[١] أوَّليَّةٌ مُطلقةٌ:

وهي الآيات الخمس من سورة العلق.

[٢] أوَّليَّةٌ نسبيَّةٌ (إضافيَّةٌ):

فيُقال مثلًا في حديث جابرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (أوَّل ما نزل بعد فترة الوحي)، أو: (أوَّل ما نزل باعتبار الرِّسالة).

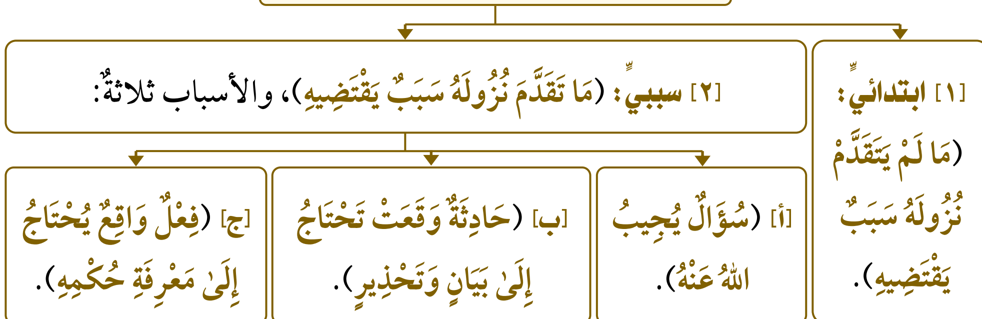


خامسًا: نُزُولُ الْقُرْآنِ ابْتِدَائِيٌّ وَسَبَبِيٌّ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (يَنْقَسِمُ نُزُولُ الْقُرْآنِ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ:

الْقِسْمُ الأَوَّلُ: ابْتِدَائِيٌّ، وَهُوَ مَا لَمْ يَتَقَدَّمْ نُزُولَهُ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ، وَهُوَ غَالِبُ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [التَّوبة] الْآيَاتُ، فَإِنَّهَا نَزَلَتِ ابْتِدَاءً فِي بَيَانِ حَالِ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، وَأَمَّا مَا اشْتَهَرَ مِنْ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ ذَكَرَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَرَوَّجَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْوُعَّاظِ = فَضَعِيفٌ لَا صِحَّةَ لَهُ).

ينقسمُ القرآنُ باعتبار سببِ نُزولِه إلى:



مثَّل المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ للابتدائيِّ بآيةِ التَّوبةِ:

وهي قولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المُنافقين، ﴿مَّنْ﴾ مُبتدأٌ مُؤخَّرٌ، ﴿عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ جُملةٌ مُؤكَّدةٌ بثلاث مُؤكِّداتٍ: (اللَّام)، و(القسم المُقدَّر)، و(النُّون)، وهذا نذرُ طاعةٍ مُعلَّقٌ بشرطٍ.

واختار رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية من بين غالب القرآن ليبيِّن القصَّة الَّتي تُذكر في سبب نزولها.

والقصَّة أخرجها الطَّبرانيُّ بسندٍ فيه عليُّ بن يزيد الألهانيُّ، وهو متروكٌ، فالقصَّة ضعيفةٌ لا تصحُّ.



نذر الطَّاعة نوعان:

[١] **مُطلَقٌ:** مثل أن يقول: لله عليَّ نذرٌ أن أصلِّي ركعتين.

[٢] **مُعلَّقٌ:** مثل أن يقول: إن شفىٰ الله مريضي فللَّه عليَّ نذرٌ أن أتصدَّق بكذا.

وهو آكد في وجوب الوفاء؛ لأنَّه علىٰ اندفاع نقمةٍ أو حصول نعمةٍ، فهو نذرٌ يتضمَّن العهد والشُّكر لله عَزَّوَجَلَّ، وقد أعطاك عَزَّوَجَلَّ ما عاهدته عليه فوجب عليك أن توفِّي بعهدك.

تتمَّةُ آيةِ التَّوبة:

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾، في هذه الآية التَّحذير من نذر الطَّاعة المُعلَّق وإخلافه، ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ يعني: إلىٰ الموت -والعياذ بالله-، ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧﴾[التَّوبة].

وممَّا يؤيِّد بطلان القصَّة ما جاء فيها من إعراض النَّبيِّ ﷺ وأبي بكرٍ وعمر وعثمان عنه، وعدم قبول توبته، وهذا غير ممكنٍ؛ لأنَّ الرَّجل مهما أذنب من الذُّنوب إذا تاب ورجع إلىٰ الله فإنَّ الله يقبل منه، فهذه القصَّة مُخالفةٌ لما عُلم من الدِّين بالضَّرورة وهو قبول توبة الله تعالىٰ من التَّائبين.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الْقِسْمُ الثَّانِي: سَبَبِيٌّ، وَهُوَ مَا تَقَدَّمَ نُزُولَهُ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ، وَالسَّبَبُ:**

أ. **إِمَّا سُؤَالٌ يُجِيبُ اللهُ عَنْهُ، مِثْلُ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]**).



مِن معاني هذه الآيةِ:

[١] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: الظَّاهر أنَّ السَّائلين هم الصَّحابة، ويحتمل غيرهم.

[٢] ﴿عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾: جمع هلالٍ، وهو القمر يُرىٰ في أوَّل ليلةٍ، وثاني ليلةٍ، وثالث ليلةٍ، والحكم هنا يتعلَّق برؤيته أوَّل ليلةٍ.

[٣] ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾: أي: كلِّ النَّاس من العرب والعجم، منذ خلق الله الأهلَّة إلىٰ أن يشاء الله.

[٤] ﴿وَٱلۡحَجِّ﴾: نصَّ علىٰ الحجِّ؛ لأنَّ ميقاته أشهرٌ، والأشهر ميقات رمضان كذلك، لكن ذكر الحجَّ لأنَّه يحتاج إلىٰ سفرٍ وعناءٍ، ولأنَّه عدَّة أشهرٍ.

سببُ اختيارِ هذا المثال:

هو دفع ما قاله البلاغيُّون في أسلوب الحكيم، وهو: (**أن يُجاب السَّائل بخلاف ما يتوقَّع إشارةً إلىٰ ما كان ينبغي أن يسأل عنه**)، قالوا: إنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سألوا عن الأهلَّة وسبب بُدُوِّ الهلال صغيرًا ثمَّ يكبر، فصرف الله عَزَّ وَجَلَّ الجواب عمَّا سُئله إلىٰ بيان فائدة الأهلَّة.

والجواب عن قولهم -عفا الله عنهم-: أنَّ قولهم هذا ليس له أصلٌ، فالصَّحابة إنَّما سألوا عن الحكمة من الأهلَّة، فأُجيبوا ببيانها.

مِن فوائدِ هذه الآيةِ:

[١] إثباتُ علم الله عَزَّ وَجَلَّ، وسَعة سمعِه.

[٢] أنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يتركوا شيئًا يحتاج إليه النَّاس -إذا لم يُبيَّن لهم ابتداءً- إلَّا سألوا عنه، وبذلك كمُل الدِّينُ.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

ب. (أَوْ حَادِثَةٌ وَقَعَتْ تَحْتَاجُ إِلَىٰ بَيَانٍ وَتَحْذِيرٍ، مِثْلُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[التوبة: ٦٥-٦٦] الآيَتَيْنِ، نَزَلَتَا فِي رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ؛ فَجَاءَ الرَّجُلُ يَعْتَذِرُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَيُجِيبُهُ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾[التَّوبة]).

في هذه القصَّة بيان أنَّ المُنافقين لا يألون جهدًا في القدح في الإسلام والمسلمين، لكنَّهم يختفون لجُبنهم، وعدم صراحتهم، وخيانتهم، وخداعهم، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، يعني: نخوض في الحديث، ونلعب في الأفكار، ولسنا نقصد ذلك علىٰ وجه الجدِّ!

الأوصافُ الَّتي وصف المُنافق بها النَّبيَّ ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، وهم منها براءٌ:

[١] «أَرْغَبَ بُطُونًا»: أي: ليس لهم همٌّ إلَّا بطونُهم.	[٢] «وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا»: والكذب هو: الإخبار بخلاف الواقع.	[٣] «وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ»: والجُبن هو: الشُّحُّ بالنَّفس، والبُخل هو: الشُّحُّ بالمال.

والمُنافقون هم أحقُّ النَّاس بهذه الأوصاف!

في هذه الآية دليلٌ علىٰ أنَّ المُستهزئ بالله وآياته ورسوله كافرٌ، حتَّىٰ وإن لم يقله علىٰ وجه الجدِّ؛ بل إنَّ كُفر المُستهزئ أشدُّ من كفر القائل علىٰ الجدِّ؛ لأنَّ المُستهزئ جمع بين الكفر والاستهزاء.



الـمُراد بقوله تعالى: ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾:

[١] **الجنسُ:** فتشمل الآية الواحدة، فمن استهزأ بآيةٍ واحدةٍ فقد كفر.

[٢] **الجمع:** فيكون من استهزأ بآيةٍ واحدةٍ داخلًا في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾[البقرة:٨٥]، فيكون كافرًا؛ لأنَّ من آمن ببعض القرآن وكفر ببعضه كان كافرًا بالجميع.

الـمُستهزئُ إمَّا أن يستهزئَ بـ:

الشَّرع:

فهذا يكفر مُطلقًا، بلا تفصيلٍ.

مَن تلبَّس بالشَّرع (كمَن يُقصِّرُ ثوبَه مثلًا)، فهذا فيه تفصيلٌ:

[١] **يكفرُ:** إذا استهزأ به لأنَّه فعل ذلك؛ فهذا استهزاءٌ بما فعله من الشَّريعة.

[٢] **لا يكفرُ:** إذا استهزأ به لشخصه، لكنَّه علىٰ خطرٍ أن يلقي الشَّيطان في قلبه كراهية هذا الشَّخص لكونه تلبَّس بهذه الشَّريعة.

مسألتان مُهمَّتان في الاستهزاء:

[١] **من استهزأ بالله، ورسوله، وآياته، هل تُقبل توبتُه؟**

تُقبلُ توبتُه، والدَّليلُ: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾[التَّوبة]، فالطَّائفة المَعفوُّ عنها هي التَّائبةُ.

[٢] **من سبَّ الرَّسولَ ﷺ بعد وفاتِه، هل تُقبلُ توبتُه؟**

تُقبلُ توبتُه؛ لكنَّه يُقتل أخذًا بالثَّأر للرَّسول ﷺ، فيُغسَّل، ويُصلَّىٰ عليه.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ج. (أَوْ فِعْلٌ وَاقِعٌ يُحْتَاجُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ حُكْمِهِ، مِثْلُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١...﴾[المجادلة]).

سببُ نزولِ هذه الآيةِ:

أنَّ رجلًا ظاهر من امرأته، فقال لها: (أنتِ عليَّ كظهر أمِّي)، وكانوا في الجاهليَّة يرون الظِّهار طلاقًا بائنًا، فلم تصبر المرأة، فجاءت تشتكي إلىٰ الرَّسول ﷺ، فأنزل الله هذه الآية في بيان حكمِها.

مِن فوائدِ هذه الآيةِ:

بيان إحاطة سمع الله عَزَّوَجَلَّ بكلِّ شيءٍ، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي الْحُجْرَةِ**» أي: في طرف الحُجرة «**وَإِنَّ بَعْضَ حَدِيثِهَا لَيَخْفَىٰ عَلَيَّ، وَاللهُ -جَلَّ وَعَلَا- سَمِعَهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ**». أخرجه أحمد وبعض أصحاب «السُّنن».

بل إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يسمع السِّرَّ، والنَّجوىٰ، ويعلم ما توسوس به النَّفس وتتحدَّث به.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فَوَائِدُ مَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ:

مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ النُّزُولِ مُهِمَّةٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَىٰ فَوَائِدَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا:

١. بَيَانُ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُسْأَلُ عَنِ الشَّيْءِ، فَيَتَوَقَّفُ عَنِ الْجَوَابِ أَحْيَانًا حَتَّىٰ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، أَوْ يَخْفَىٰ الْأَمْرُ الْوَاقِعُ، فَيَنْزِلُ الْوَحْيُ مُبَيِّنًا لَهُ).



مِن فوائدِ معرفةِ أسبابِ النُّزول:

[١] (بيَانُ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ).

[٢] (بيَانُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِرَسُولِهِ ﷺ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ).

[٣] (بيَانُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ فِي تَفْرِيجِ كُرُبَاتِهِمْ، وَإِزَالَةِ غُمُومِهِمْ).

[٤] (فَهْمُ الْآيَةِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الصَّحِيحِ).

الفائدة الأولى (بيَانُ أنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِن اللهِ تَعَالَى):

ووجه ذلك أنَّ القرآن لو كان من عند النَّبيِّ ﷺ لكان يجيب علىٰ كلِّ ما يرد عليه من دون توقُّفٍ وانتظارٍ، فلمَّا كان يتوقَّف وينتظر حتَّىٰ تنزل الآية دلَّ علىٰ أنَّ القرآن نزل من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (مِثَالُ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[الإسراء]، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ؛ مَا الرُّوحُ؟ فَسَكَتَ، وَفِي لَفْظٍ: فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾).

من الَّذين سألوا النَّبيَّ ﷺ عن الرُّوح؟

[١] **اليهود:** جاء هذا في حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ المُتَّفق عليه.

[٢] **قُريشٌ:** جاء هذا في حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عند أحمد وبعض أصحاب «السُّنن» بإسنادٍ صحيحٍ.

والقاعدة أنَّه: (يُمكن أن يكون للآية أكثر من سبب نزولٍ)، وعليه فلا تعارض بين هذين الحديثين.



فائدةٌ في جوابِ أهلِ البِدعِ:

في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[الإسراء] تبكيتٌ للسَّائلين؛ كأنَّه يقول لهم: ما بقي عليكم إلَّا أن تعرفوا الرُّوح!

وبهذه الآية يمكن أن نجيب أهل البدع الَّذين يسألون عن كيفيَّة الصِّفات، أو عن كيفيَّة ما يقع من أمور الغيب.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَمِثَالُ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[المنافقون:٨]، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُ ذٰلِكَ، يُرِيدُ أَنَّهُ الْأَعَزُّ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الْأَذَلُّ، فَأَخْبَرَ زَيْدٌ عَمَّهُ بِذٰلِكَ، فَأَخْبَرَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ زَيْدًا فَأَخْبَرَهُ بِمَا سَمِعَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ زَيْدٍ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ، فَاسْتَبَانَ الْأَمْرُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ).

ما قاله المُنافقون:

[١] ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: وكان المُنافقون أغنياء أعزَّاء بأنفسهم، وهم أذلَّةٌ، ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ للتَّعليل، أي: حتَّىٰ يتركوه ﷺ، فأجابهم الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾[المُنافقون].

[٢] ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾: والقائل هو عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلولٍ، ونُسب القولُ إلىٰ المُنافقين لأنَّه زعيمُهم.



مِن فوائد هذه القصَّة:

[١] عمُّ زيد بن أرقم صحابيٌّ، وكلُّهم عدولٌ، لكنَّ النَّبيَّ ﷺ أراد أن يتثبَّت في الأمر، حتَّىٰ يأتي الأمر علىٰ بصيرةٍ، فالحديث أصلٌ في: **(وجوب التَّثبُّت فيما يُنقل)**.

[٢] لمَّا دعا النَّبيُّ ﷺ المُنافقين وسألهم حلفوا ما قالوا، وهكذا شأن المُنافقين يحلفون علىٰ الكذب وهم يعلمون؛ لأنَّ شعارهم الكذب، والمُخادعة، والنِّفاق.

[٣] قال تعالىٰ ردًّا علىٰ المُنافقين: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المُنافقون:٨]، ولم يقل: (رسول الله هو الأعزُّ)، أو: (الله هو الأعزُّ)، بل قدَّم الخبر ليفيد الحصر، فلا يكون للمُنافقين عزَّةٌ.

أنزل اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

[١] **في المُنافقين:**

[أ] **سورة المُنافقون.**

[أ] **عدَّة آياتٍ من سورة براءة:** فكانت من أشدِّ السُّور عليهم؛ لأنَّها فضحتهم.

[٢] **في رجلٍ واحدٍ من الكفَّار:**

وهو أبو لهبٍ عمُّ النَّبيِّ ﷺ سورة المسد.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢. **(بَيَانُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِرَسُولِهِ ﷺ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ، مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ **[الفرقان]، وَكَذَلِكَ آيَاتُ الْإِفْكِ، فَإِنَّهَا دِفَاعٌ عَنْ فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَطْهِيرٌ لَهُ عَمَّا دَنَّسَهُ بِهِ الْأَفَّاكُونَ).**



مسائل تتعلَّق بآية الفرقان:

[١] **سبب نزولها:** أنَّهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كما أُنزلت التَّوراة والإنجيل، فردَّ عليهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، فلو نُزِّل جملةً واحدةً لم يحصل التَّثبيت، وهذا أمرٌ مُشاهدٌ، فمن وعظك موعظةً بليغةً ثمَّ لم يعظك بعدها لم يكن كمن وعظك موعظةً خفيفةً ثمَّ أعادها عليك مرَّةً ثانيةً وثالثةً...

[٢] **الوقف:** يحسُن الوقف علىٰ: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾؛ لأنَّ جملة ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ، فهي تعليلٌ لجملةٍ مَحذوفةٍ، والتَّقدير: (أَنْزَلْنَاهُ كَذَلِكَ).

[٣] **التَّرتيل:** قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ مثل قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾[المُزَّمِّل]، أي: اقرأه علىٰ مهل، وليس معناه جوِّده، فالتَّجويد لا يجب، فإنَّه يجوز للإنسان أن يقرأ القرآن غير مُجوَّدٍ مادام أنَّه ينطق بحروفه وحركاته، وأمَّا تحسين الصَّوت فمشروعٌ؛ لحديث أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**». مُتَّفقٌ عليه.

قصَّة حادثة الإفك:

قصَّة الإفك مشهورةٌ في كتب التَّاريخ والسِّير، وفي كتب الصِّحاح والمسانيد، وفيها أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا تخلَّفت عن الجيش في بعض الغزوات، ووجدها صفوان بن مُعطِّلٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ نائمةً، ثمَّ أناخ بعيره، ولم يتكلَّم لها بأيِّ كلمةٍ احترامًا لفراش النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لكنَّه وضع قدمه علىٰ ذراع البعير، ثمَّ ركبت أمُّ المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، ثمَّ ذهب يقودُها، ولم يجعلها بين يديه، بل كانت من خلفه، فلمَّا وصل إلىٰ القوم فرح المُنافقون بهذا، ورأوا ذلك فرصةً في الطَّعن برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بتدنيس فراشه، وحاشاه من ذلك، ثمَّ حصل في ذلك ما حصل... فنزلت آيات الإفك العشرة المُحكَمات تطهيرًا له صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولأمِّ المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عمَّا دنَّسهما به المُشركون، يقرأهنَّ المسلمون تقرُّبًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.



الحكمة من إنزال آيات الإفك:

بيان عناية الله عَزَّوَجَلَّ برسوله ﷺ، ونعم المُرسِل ونعم الرَّسول، ومن عنايته عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ عنايتُه بفراشه أن يُدنَّس، فحصل بتبرئة أمِّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا طمأنينته ﷺ، وخذلان الخبثاء الَّذين انتقصوه.

وفيها بيان عناية الله عَزَّوَجَلَّ بعباده في تفريج كُرُباتهم، وإزالة غمومِهم، ولله الحمد والشُّكر.

جزاء من تكلّم بالإفك:

نزل في عبد الله بن أبيٍّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾[النُّور]، وهذا في الآخرة، وأمّا في الدُّنيا فلم يحُدَّه النَّبيُّ ﷺ مع أنَّه أقام الحدَّ علىٰ حسَّان بن ثابتٍ، ومِسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

لماذا لم يُقم النَّبيُّ ﷺ الحدَّ على عبد اللَّه بن أُبيٍّ؟

[١] اكتفاءً بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ولم يقل عَزَّوَجَلَّ: اجلدوه.

[٢] الحدُّ تطهيرٌ، وعبد الله بن أُبيٍّ خبيثٌ ليس أهلًا للتَّطهير.

[٣] أنَّه ﷺ يحبُّ التَّأليف، فلربَّما يحصل من قومه ما لا تُحمَدُ عُقباه لو أُقيم عليه الحدُّ.

[٤] أنَّ الخبيث عبد الله بن أُبيٍّ ماكرٌ مُخادعٌ، لم يُصرِّح بهذا الأمر، لكنَّه يجلس في المجالس يقول: ما سمعتم شيئًا؟ يشير بالحديث.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

٣. (بيَانُ عِنايَةِ اللهِ تَعالَىٰ بِعِبادِهِ فِي تَفْرِيجِ كُرُبَاتِهِمْ، وَإِزَالَةِ غُمُومِهِمْ، مِثَالُ ذَلِكَ: آيَةُ التَّيَمُّمِ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّهُ ضَاعَ عِقْدٌ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَهِيَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ لِطَلَبِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ عَلَىٰ غَيْرِ مَاءٍ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، فَذَكَرُوا الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، وَالْحَدِيثُ فِي «الْبُخَارِيِّ» مُطَوَّلًا).

سبب حبس النَّبيِّ ﷺ للجيش:

[١] لأنَّ العقد الَّذي ضاع مالٌ، والمال عندهم قليلٌ.

[٢] لأنَّ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تتحلَّىٰ به للنَّبيِّ ﷺ أشرفِ الخلق، فهو عقدٌ ذو قيمةٍ.

[٣] أنَّ الرَّسول ﷺ مُربٍّ لأُمَّته بمَقالِه وفِعالِه، حتَّىٰ يعلموا ما للزَّوجات من حقوقٍ، وأنَّه تجب مُراعاتُهنَّ، وحتَّىٰ يعرفوا قدر المال، فلا يُضيِّعوه بلا فائدةٍ.

والعِقد هو ما تلبسه المرأة في عنقِها.

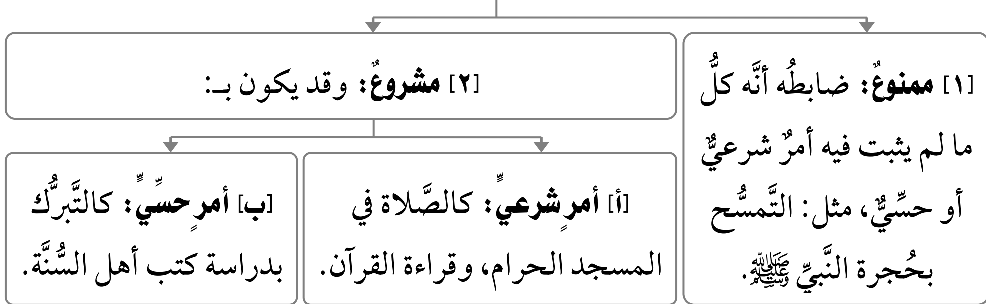
من أمثلة القاعدة العامَّة ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشَّرح]:

[١] **آية التَّيمم:** لمَّا عجزوا عن الماء وعسُر عليهم أمرُهم فرَّج الله عنهم، وأنزل آية التَّيمُّم، قال أُسيد بن حُضيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (**مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ**)، ومن بركاتِهم أيضًا: خلافة أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقتالُه أهل الرِّدَّة، وتوليته عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ...

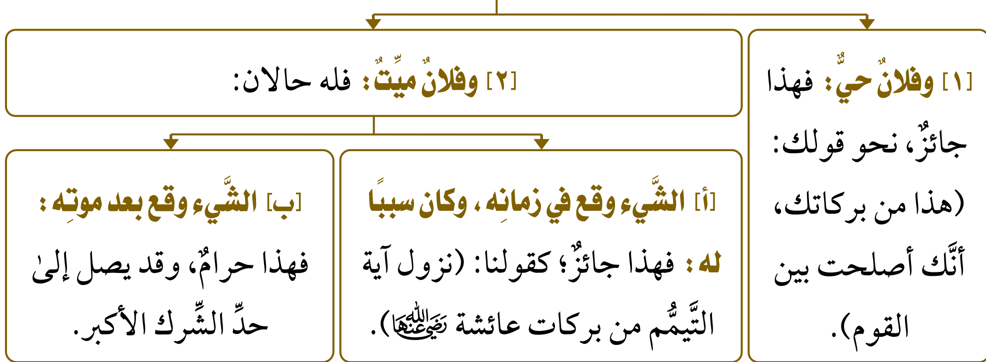
[٢] قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ فلن يضيع الولدُ، بل لابدَّ أن يُيسِّر الله من يرضعُه، ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾ [الطَّلاق].



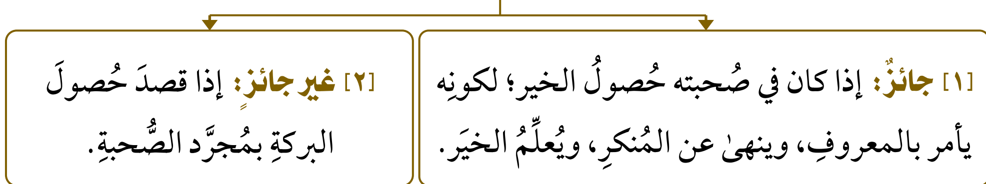
التَّبرُّك هو: (طلبُ البركة)، ومنه:



حكمُ قولِ: (هذا من بركة فلانٍ):



حكمُ مُصاحبةُ الرَّجلِ لالتماسِ البركةِ:



عن أبي واقدٍ اللَّيثيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللهِ مَكَّةَ خَرَجَ بِنَا مَعَهُ قِبَلَ هَوَازِنَ، حَتَّىٰ مَرَرْنَا عَلَىٰ سِدْرَةِ الْكُفَّارِ، سِدْرَةٍ يَعْكُفُونَ حَوْلَهَا وَيَدْعُونَهَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السَّنَنُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[**الأعراف**:١٣٨]»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ**». أخرجه أحمدُ والتِّرمذيُّ.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤. (فَهْمُ الْآيَةِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الصَّحِيحِ، مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أَيْ: يَسْعَىٰ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أَنَّ غَايَةَ أَمْرِ السَّعْيِ بَيْنَهُمَا أَنْ يَكُونَ مِنْ قِسْمِ الْمُبَاحِ، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ قَالَ: كُنَّا نَرَىٰ أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، وَبِهَذَا عُرِفَ أَنَّ نَفْيَ الْجُنَاحِ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ بَيَانَ أَصْلِ حُكْمِ السَّعْيِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ نَفْيُ تَحَرُّجِهِمْ؛ لِإِمْسَاكِهِمْ عَنْهُ حَيْثُ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، أَمَّا أَصْلُ حُكْمِ السَّعْيِ فَقَدْ تَبَيَّنَ بِقَوْلِهِ: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾).

ما يُفهمُ من هذه الآية:

[١] ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ﴾: فيه كونُ السَّعي شعيرةً من شعائر الله، وتعظيمُ شعائر الله من تقوىٰ القلوب؛ فهو أمرٌ مَطلوبٌ.

[٢] ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾: فيه نفيُ التَّحرُّج الَّذي كان يصيبهم عند السَّعي لظنِّهم أنَّ السَّعي من أمر الجاهليَّة.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(عُمُومُ اللَّفْظِ وَخُصُوصُ السَّبَبِ:

إِذَا نَزَلَتِ الْآيَةُ لِسَبَبٍ خَاصٍّ وَلَفْظُهَا عَامٌّ كَانَ حُكْمُهَا شَامِلًا لِسَبَبِهَا، وَلِكُلِّ مَا يَتَنَاوَلُهُ لَفْظُهَا؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ تَشْرِيعًا عَامًّا لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ، فَكَانَتِ الْعِبْرَةُ بِعُمُومِ لَفْظِهِ لَا بِخُصُوصِ سَبَبِهِ).



إذا ورد نصٌّ عامٌّ وكان السَّبب خاصًّا، هل يختصُّ الحكمُ بالسَّبب أم يعمُّه وغيرَه؟

[١] **الخصوص عينيٌّ:**

لا يُخصَّص العُموم بالسَّبب؛ بل يُقالُ: (**العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب**)، وسيأتي مثال هذا في كلام المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ.

[٢] **الخصوص وصفيٌّ:**

يُخصَّص به العموم؛ لأنَّ حقيقة الوصف أنَّه عامٌّ.

مثالُه حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَرَأَىٰ زِحَامًا وَرَجُلًا قَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟»، فَقَالُوا: صَائِمٌ، فَقَالَ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ». مُتَّفقٌ عليه. فيتنزَّل عموم النَّصِّ علىٰ من كانت حالتُه كهذا الرَّجل الَّذي ذُكر، ووجه هذا الحمل أنَّه ﷺ ذكر النَّصَّ علىٰ حالٍ مَخصوصةٍ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**مِثَالُ ذَلِكَ: آيَاتُ اللِّعَانِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⁽٩⁾﴾ [النُّور]، فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، فَقَرَأَ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⁽٩⁾﴾، الْحَدِيثَ.**

فَهَٰذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ بِسَبَبِ قَذْفِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ لِامْرَأَتِهِ، لَكِنَّ حُكْمَهَا شَامِلٌ لَهُ وَلِغَيْرِهِ، بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عُوَيْمِرَ الْعَجْلَانِيَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ رَجُلٌ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ؟ أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ»، فَأَمَرَهُمَا ﷺ بِالْمُلَاعَنَةِ بِمَا سَمَّىٰ اللهُ فِي كِتَابِهِ، فَلَاعَنَهَا، الْحَدِيثَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ حُكْمَ هَٰذِهِ الْآيَاتِ شَامِلًا لِهِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ وَغَيْرِهِ).



اللِّعان:

[١] **سببُه:** أن يقذف الرَّجل زوجتَه بالزِّنا.

[٢] **سببُ التَّسميةِ:** أنَّ الرَّجل يقول فيه: (وأنَّ لعنة الله عليَّ...)، ولم يُسمَّ غضبًا؛ لأنَّ اللِّعان يُبتدأ به أوَّلًا.

الصَّحابيُّ غير معصومٍ، قد تقع منه الكبيرةُ، لكنَّها مُكفَّرةٌ عنه؛ لأنَّه:

[١] قد تاب منها.

[٢] أتى بحسناتٍ تمحوها.

[٣] غُفرت له بفضل سابقتِه.

[٤] غُفرت له بشفاعة محمَّدٍ ﷺ، والصَّحابة أحقُّ النَّاس بشفاعته ﷺ.

[٥] ابتُلي ببلاءٍ في الدُّنيا كُفِّر به عنه.

وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ لأهل بدرٍ: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». مُتَّفقٌ عليه.

من فوائد قصَّة هلال بن أميَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

[١] (**الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**): (البيِّنةَ) بالنَّصب أي: أقم البيِّنةَ، أو بالضَّمِّ أي: عليك البيِّنةُ.

[٢] (**إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ**): جملةٌ مُؤكَّدةٌ بـ: القسم، واللَّام، والنُّون، وفيها الثِّقة بالله، وحسنُ الظَّنِّ به.

[٣] (وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ...): فيها التَّفريق بين رمي الرَّجل لزوجته ورميه لغيرها:

[أ] **في الزَّوجة:** إن لم يُقِم البيِّنة ولم تُقرَّ المرأة فإنَّهما يُلاعنان، فإن لاعنا لم يُحدَّا، ووجب التَّفريق بينهما، وحُرِّمت عليه تحريمًا مُؤبَّدًا.

[أ] **في غير الزَّوجة:** إن لم يُقِم البيِّنة ولم تُقرَّ المرأة فإنَّه يُحدُّ حدَّ القذف.



حكمُ مَن وجد رجلاً يزني بامرأتِه فقتله:

[١] **إذا أقام البيِّنة:** فإنَّه لا يُقتل؛ لأنَّه لمَّا نزل قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ [النُّور:٤] قال سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ وَاللهِ إِنِّي لَأَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**». مُتَّفقٌ عليه. فأقرَّه النَّبيُّ ﷺ.

[٢] **إذا لم يقم البيِّنة:** وهذا هو الغالب، إذ يبعد أن يزني بها أمام النَّاس، وإنَّما في خفاءٍ، ويبعد أن يذهب الزَّوجُ بعد أن رأىٰ ذلك يتطلَّب الشُّهود، فقيل: يُقتل به، وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (يجب النَّظر إلىٰ حال الرَّجل إن كان من أهل الخير والصَّلاح، وصاحبُه المقتول من أهل الشَّرِّ والفساد = فيُقبل قولُه، وإلَّا فلا يُقبل)، وهذا هو الرَّاجح؛ لما فيه من إعمال القرائن، ولهذا أمثلةٌ في الشَّرع.

مَنزلةُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الواسطيَّة»: (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر]، وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**». وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ «الْكِتَابُ» وَ«السُّنَّةُ» وَ«الإِجْمَاعُ» مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ -وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ- وَقَاتَلَ عَلَىٰ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَىٰ الأَنْصَارِ.

وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ -وَكَانُوا ثَلاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ-: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». وَبِأَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ كَالْعَشَرَةِ، وَكَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِم مِنَ الصَّحَابَةِ).



وفصَّلَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ في أصول أهل السُّنة والجماعة في «مجموع الفتاوى» بقولِه:

❁ سلامةُ قلوبِهم وألسنتِهم لأصحابِ رسول اللهِ ﷺ؛ كما وصَفَهم الله به في قولِه تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)﴾ [الحشر]، وطاعةً للنَّبيِّ ﷺ في قولِه: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**».

❁ وأنَّهم يَقْبلون ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ والإجْماعُ مِن فضائلِهم ومَراتبِهم.

❁ وأنَّهم يُمْسِكون عمَّا شجر بيْن الصَّحابة، ويقولون: إنَّ هذه الآثارَ المرويَّةَ في مساويهم منها ما هو كذبٌ، ومنها ما قد زِيدَ فيه ونُقِصَ، وغُيِّرَ عن وجهِه الصَّريح، والصَّحيحُ منه هم فيه مَعْذورون؛ إمَّا مُجْتهدون مُصِيبون، وإمَّا مُجتهدون مُخْطِئون.

❁ وأنَّهم مع ذلك لا يعتقدون أنَّ كلَّ واحدٍ من الصَّحابة معصومٌ عن كبائر الإثم وصغائره، بل تَجُوز عليهم الذُّنوب في الْجُملة.

❁ وأنَّ لهم من السَّوابق والفضائلِ ما يوجب مَغفرةَ ما يَصْدر منهم إنْ صدَر، حتَّىٰ إنَّه يُغفَرُ لَهم من السَّيِّئات ما لا يُغفَر لِمَن بعدهم؛ لأنَّ لَهم من الحسنات الَّتي تَمْحو السَّيِّئات ما ليس لِمَن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنَّهم: «**خَيْرُ الْقُرُونِ**»، وأنَّ الْمُدَّ من أحدهم إذا تصدَّق به كان أفضل من جبل أُحُدٍ ذهبًا مِمَّن بعدهم.

ثمَّ إذا كان قد صدر عن أحدهم ذنْبٌ فيكون قد تاب منه، أو أتىٰ بِحَسناتٍ تَمْحوه، أو غُفِرَ له بفضل سابقتِه، أو بشفاعة مُحمَّدٍ ﷺ الَّذي هم أحَقُّ النَّاس بشفاعتِه، أو ابْتُلِي ببلاءٍ في الدُّنيا كُفِّرَ به عنه.

فإذا كان هذا في الذُّنوب المُحقَّقة، فكيف بالأمورِ الَّتي كانوا فيها مُجْتهدين: إن أصابوا فلهم أجْران، وإن أخطؤوا فلهم أجْرٌ واحد، والْخَطأ مغفورٌ لَهم؟!

❁ وأنَّ القَدْرَ الَّذي يُنْكَرُ مِن فعْلِ بعضِهم قليلٌ نزْرٌ، مغمورٌ في جنب فضائل القوم ومَحاسنهم؛ من الإيمان بالله ورسولِه، والجهاد في سبيلِه، والْهِجرة، والنُّصرة، والعلم النَّافع، والعمَل الصَّالِح.

❁ وأنَّ مَن نظر في سيرة القوم بعِلْمٍ وبصيرةٍ، وما منَّ الله به عليهم من الفضائل؛ عَلِم يقينًا أنَّهم خيْرُ الْخَلق بعد الأنبياءِ، لا كان ولا يكونُ مثْلُهم، وأنَّهم هم صفوة الصَّفوة من قرون هذه الأُمَّة التَّي هي خيرُ الأمم، وأكرَمُها علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.



سادسًا: المكِّيُّ والمدَنِيُّ

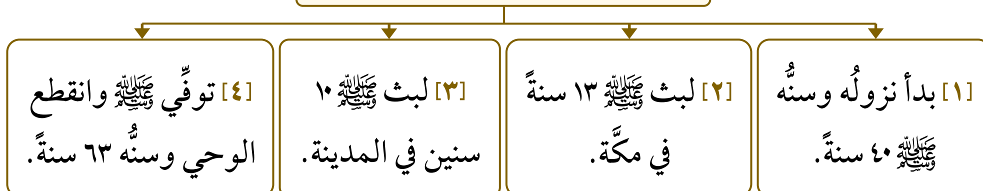
قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ مُفَرَّقًا فِي خِلَالِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، قَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَكْثَرَهَا بِمَكَّةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء].

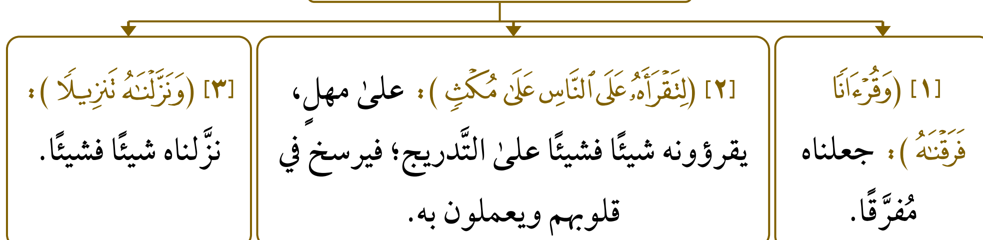
وَلِذَلِكَ قَسَّمَ الْعُلَمَاءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- الْقُرْآنَ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ: مَكِّيٍّ وَمَدَنِيٍّ:

فَالْمَكِّيُّ: مَا نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ هِجْرَتِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

وَالْمَدَنِيُّ: مَا نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ هِجْرَتِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

وَعَلَىٰ هَذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، مِنَ الْقِسْمِ الْمَدَنِيِّ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِعَرَفَةَ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، نَزَلَتْ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ).







لماذا قسَّموا القرآن إلى مكّيٍّ ومدنيٍّ فقط مع أنَّ منه ما نزل بغيرهما؟

إنَّما اقتصروا علىٰ القسمين رفعًا للمشقَّة، فكثيرٌ من الآيات نزلت في أسفاره ﷺ، ويصعب استقصاؤها كلِّها، فقسَّموه باعتبار الزَّمان لا باعتبار المكان، فالمكِّيُّ ما نزل قبل الهجرة ولو بغير مكَّة، والمدنيُّ ما نزل بعد الهجرة ولو بمكَّة.

ومثَّل رَحِمَهُ ٱللَّهُ للمدنيِّ الَّذي نزل بمكَّة بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، وذكر قول عمر في «صحيح البخاريِّ»: (نَزَلَتْ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ)، وذلك في حجَّة الوداع.

من معاني آية المائدة:

[١] (ٱلْيَوْمَ): (أل) للعهد الحضوريِّ، أي: اليوم الَّذي تكلَّم فيه ﷺ.

[٢] (أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ): جعلتُه كاملًا.

[٣] (وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي): بإكمال الدِّين.

[٤] (وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا): فلا يرضىٰ من عباده غيرَه من الأديان.

سببُ قول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لليهوديِّ: (عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ):

[١] **بيانُ شرف المكان الَّذي نزلت فيه:** وهو عرفةُ، وعرفةُ هي المَشعرُ الحلالُ.

[٢] **بيانُ شرف الزَّمان الَّذي نزلت فيه:** من وجهين:

[أ] **يومُ عرفةَ:** يومُ عيد الحُجَّاج، وهو عيدٌ سنويٌّ.

[ب] **يومُ الجمعةِ:** وهو عيدُ المسلمين الأسبوعيُّ.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَيَتَمَيَّزُ الْقِسْمُ الْمَكِّيُّ عَنِ الْمَدَنِيِّ مِنْ حَيْثُ الْأُسْلُوبُ وَالْمَوْضُوعُ:

أ. أَمَّا مِنْ حَيْثُ الْأُسْلُوبُ فَهُوَ:

١. الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قُوَّةُ الْأُسْلُوبِ، وَشِدَّةُ الْخِطَابِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ مُعْرِضُونَ مُسْتَكْبِرُونَ، وَلَا يَلِيقُ بِهِمْ إِلَّا ذَلِكَ، اقْرَأْ سُورَتَي الْمُدَّثِّرِ وَالْقَمَرِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِي أُسْلُوبِهِ اللِّينُ وَسُهُولَةُ الْخِطَابِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ مُقْبِلُونَ مُنْقَادُونَ، اقْرَأْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ.

٢. الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قِصَرُ الْآيَاتِ، وَقُوَّةُ الْمُحَاجَّةِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ مُعَانِدُونَ مُشَاقُّونَ، فَخُوطِبُوا بِمَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُمْ، اقْرَأْ سُورَةَ الطُّورِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ طُولُ الْآيَاتِ، وَذِكْرُ الْأَحْكَامِ مُرْسَلَةً بِدُونِ مُحَاجَّةٍ؛ لِأَنَّ حَالَهُمْ تَقْتَضِي ذَلِكَ، اقْرَأْ آيَةَ الدَّيْنِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ).

الفرق بين المكِّيِّ والمدنيِّ من وجهين:

[١] الأسلوب:

- [أ] الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قُوَّةُ الْأُسْلُوبِ، وَشِدَّةُ الْخِطَابِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِي أُسْلُوبِهِ اللِّينُ وَسُهُولَةُ الْخِطَابِ.
- [ب] الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قِصَرُ الْآيَاتِ، وَقُوَّةُ الْمُحَاجَّةِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ طُولُ الْآيَاتِ، وَذِكْرُ الْأَحْكَامِ مُرْسَلَةً بِدُونِ مُحَاجَّةٍ.

[٢] الموضوع:

- [أ] الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ وَالْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ تَفْصِيلُ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ.
- [ب] الغالبُ علىٰ المدنيِّ الْإِفَاضَةُ فِي ذِكْرِ الْجِهَادِ وَالْمُنَافِقِينَ، بخلاف المكِّيِّ.



مثَّل المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ لشدَّة الأسلوب المكِّيِّ بـ:

[١] **سورة المُدَّثِّر:** قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ ما العقوبةُ؟ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾[المُدَّثِّر]، هذا كلامٌ عظيمٌ جدًّا، قويٌّ في التَّهديد والإنذار.

[٢] **سورة القمر:** قال تعالىٰ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾، فصارت الأرض كلُّها عيونًا تنبع، وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾، والجواب عن سؤالهم: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾[القمر].

ومن الأمثلة كذلك:

[٣] **سورة الواقعة:** قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾[الواقعة].

[٤] **سورة الطُّور:** قال جبير بن مُطعمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾[الطُّور] كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ! أخرجه ابن ماجه.



ومثَّل رَحِمَهُ اللَّهُ للين الأسلوب المدنيِّ بآية الدَّين:

قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ ...﴾[البقرة]، والآية طويلةٌ وسهلةٌ، وليس فيها إلَّا أحكامٌ وتوجيهٌ؛ لأنَّ القوم مُنقادون مُستسلمون، لا يُناظرون ولا يُجادلون.

قاعدةٌ:

الأصل أنَّ السُّور المكِّيَّة كلُّها مكِّيَّةٌ، وأنَّ السُّور المدنيَّة كلُّها مدنيَّةٌ، ولا يُصدَّق كون آيةٍ من السُّورة مُستناةً إلَّا إذا ثبت ذلك بسندٍ صحيحٍ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ب. (وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ الْمَوْضُوعُ، فَهُوَ:

١.الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ وَالْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ، خُصُوصًا مَا يَتَعَلَّقُ بِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَالْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ تَفْصِيلُ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ؛ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ قَدْ تَقَرَّرَ فِي نُفُوسِهِمُ التَّوْحِيدُ وَالْعَقِيدَةُ السَّلِيمَةُ، فَهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ تَفْصِيلِ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ.

٢. الْإِفَاضَةُ فِي ذِكْرِ الْجِهَادِ وَأَحْكَامِهِ، وَالْمُنَافِقِينَ وَأَحْوَالِهِمْ فِي الْقِسْمِ الْمَدَنِيِّ؛ لِاقْتِضَاءِ الْحَالِ ذَلِكَ، حَيْثُ شُرِعَ الْجِهَادُ، وَظَهَرَ النِّفَاقُ، بِخِلَافِ الْقِسْمِ الْمَكِّيِّ).



ممَّا كثُر إنكاره من الكفَّار قبل الهجرة:

[١] **توحيدُ الألوهيَّة**: ومن ذلك ما حكاه الله عَزَّوَجَلَّ عنهم بقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[ص].

[٢] **البعث**: ومن ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢﴾[المؤمنون].

ومن هذا ما رواه سعيد بن منصورٍ وغيره عن غزوان الغفاريِّ قال: جَآءَ أُبيُّ بن خلفٍ بِعظمٍ نخرةٍ فَجعل يفُتُّه بَين يَدي النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: من يحيي الْعِظَام وَهِي رَمِيمٌ؟ فَأنْزلَ اللهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾[يس].

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في الآيات الأواخر من سورة يس ستَّة أدلَّةٍ علىٰ البعث:

[١] (يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ): لأنَّ القادر علىٰ ابتدائها قادرٌ علىٰ إعادتها، بل إعادتُها أهون عليه.

[٢] (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا): فجعل من رطوبة الأخضر وبرودته حرارةً ويبوسةً.

[٣] (وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ).

[٤] (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ).

[٥] (فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ): والَّذي بيده ملكوت كلِّ شيءٍ مُنزَّهٌ عن العجز.

[٦] (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ): فلو لم نرجع إلىٰ الله ليحاسبنا علىٰ أعمالنا لكان ذلك مُنافيًا للحكمة.



ومن أدلَّة قدرة اللَّه عَزَّوَجَلَّ على البعث الحسُّ:

[١] قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ بأشجارها وزرعها ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: عَلَتْ، قيل: إنَّ عُلُوَّها هو قشرة الأرض يدفعها النَّبات، وقيل: إنَّ عُلُوَّها عُلُوُّ النَّبات، ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحجّ].

[٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [فُصِّلت].

من خصائص السُّور المدنيَّة الإفاضة في ذكر:

[١] **الجهادِ والتَّرغيبِ فيه وبيانِ أحكامِه:** ولم يكن المسلمون في حاجةٍ إلىٰ ذلك قبل الهجرة؛ لأنَّهم لم يُؤمروا بالجهاد، ولم يكونوا يستطيعونه.

[٢] **المُنافقين:** ولا تكاد تجد في السُّور المكِّيَّة ذكرًا للمُنافقين؛ لأنَّهم إنَّما ظهروا بعد غزوة بدرٍ لمَّا قويت شوكة المؤمنين، لكن ورد في سورة العنكبوت -وهي مكِّيَّةٌ- قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۝١١﴾ [العنكبوت].



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فَوَائِدُ معْرِفةِ الْمدَنيِّ والْمَكيِّ:

مَعْرِفَةُ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ عُلُومِ الْقُرْآنِ الْمُهِمَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ فِيهَا فَوَائِدَ مِنْهَا:

١. ظُهُورُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي أَعْلَىٰ مَرَاتِبِهَا، حَيْثُ يُخَاطَبُ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُمْ مِنْ: قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، أَوْ لِينٍ وَسُهُولَةٍ.

٢. ظُهُورُ حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ فِي أَسْمَىٰ غَايَاتِهِ، حَيْثُ يَتَدَرَّجُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِحَسَبِ الْأَهَمِّ، عَلَىٰ مَا تَقْتَضِيهِ حَالُ الْمُخَاطَبِينَ، وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِلْقَبُولِ وَالتَّنْفِيذِ.

٣. تَرْبِيَةُ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَوْجِيهُهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَتَّبِعُوا مَا سَلَكَهُ الْقُرْآنُ فِي الْأُسْلُوبِ وَالْمَوْضُوعِ، مِنْ حَيْثُ الْمُخَاطَبِينَ، بِحَيْثُ يَبْدَأُ بِالْأَهَمِّ فَالْمُهِمِّ، وَتُسْتَعْمَلُ الشِّدَّةُ فِي مَوْضِعِهَا، وَالسُّهُولَةُ فِي مَوْضِعِهَا.

٤. تَمْيِيزُ النَّاسِخِ مِنَ الْمَنْسُوخِ، فِيمَا لَوْ وَرَدَتْ آيَتَانِ مَكِّيَّةٌ وَمَدَنِيَّةٌ، يَتَحَقَّقُ فِيهِمَا شُرُوطُ النَّسْخِ، فَإِنَّ الْمَدَنِيَّةَ نَاسِخَةٌ لِلْمَكِّيَّةِ؛ لِتَأَخُّرِ الْمَدَنِيَّةِ عَنْهَا).

فوائد معرفة المكِّيِّ والمدنيِّ:



الفائدةُ الأولى:	ويتفرَّعُ عنها:
أن نعرفَ أنَّ القرآنَ أبلغُ ما يكونُ في الكلام؛ لأنَّه يخاطبُ كلَّ قومٍ بما تقتضيه حالُهم.	أن نسلُكَ مَسلكَ القرآنِ، فنُخاطبَ كلَّ قومٍ بما تقتضيه حالُهم؛ فلا يستوي الجاهلُ جهلًا بسيطًا والعالمُ المُعاندُ.



الفائدةُ الثَّانية:

أن نعرفَ حكمة التَّشريع، حيث أتىٰ شيئًا فشيئًا لئلَّا يصعُب علىٰ النَّاس، فلم يُفرض الصَّوم والزَّكاة ونحوها في مكَّة، وإنَّما فُرضت وبُيِّنت في الآيات المدنيَّة.

ويتفرَّعُ عنها:

أن نسلُكَ مَسلكَ القرآنِ، فإذا رأينا شخصًا عنده مُنكراتٌ كثيرةٌ نبدأ في نصيحتِه بالأهمِّ فالمُهمِّ، وكذا في الأوامر نعطيه شيئًا فشيئًا حتَّىٰ يلين، ونبدأ بالمُتَّفق عليه الَّذي لا يكون فيه مُعارضةٌ؛ ليقبل منَّا.

الفائدة الثَّالثة:

تربية الدُّعاة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فالإنسان الَّذي آتاه الله الحكمة يعرف كيف يتصرَّف، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة:٢٦٩].

فينبغي للدَّاعي إلىٰ الله أن يبدأ بالأهمِّ فالمهمِّ، وأن يستعمل:

[١] السُّهولة في موضعها:

مثاله: جاء أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ**»، فَتَرَكُوهُ حَتَّىٰ بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**». أخرجه مسلمٌ بتمامه.

وقال الأعرابيُّ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا! أخرجه البخاريُّ.

[٢] الشِّدَّة في موضعها:

مثاله: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَىٰ الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، فقَالَ ﷺ: «**فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرُ يُهْدَىٰ لَهُ أَمْ لَا؟**». مُتَّفقٌ عليه.

وكذلك: رَأَىٰ ﷺ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ!**». أخرجه مسلمٌ.



من المفاسد الَّتي قد تترتَّب على قيام الرَّجل من بوله قبل تمامه:

[١] لو قام فإمَّا أن يكون كاشفًا عورته، وإمَّا أن يغطِّيها فيصيب ثوبَه البول.

[٢] إذا قطع بوله كان ضررٌ علىٰ قنوات البول.

[٣] لو قام فلربَّما تساقطت نقطٌ من البول فتتَّسع رقعة النَّجاسة.

الفائدة الرَّابعة:

فإذا وجدنا آيتين مُتعارضتين، ولم يمكن الجمع بينهما؛ فإنَّنا نعمل بالنَّسخ، والآيات المدنيَّة ناسخةٌ للآيات المكِّيَّة؛ لأنَّها مُتأخِّرةٌ عنها.

والنَّسخ ثابتٌ في كلِّ الشَّرائع.

ومن أهمِّ شروط إثباته: معرفة المُتأخِّر من النَّصَّين، ولهذا فإنَّ عدد المواضع الَّتي يثبت فيها النَّسخ حقيقةً لا يبلغ أكثر من عشرةٍ كما ذكره ابن القيِّم في «إعلام الموقِّعين».

ولا يجوز ادِّعاء النَّسخ بمجرَّد العجز عن الجمع؛ لأنَّه من الكذب علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الْحِكْمَةُ مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مفرقًا:

مِنْ تَقْسِيمِ الْقُرْآنِ إِلَىٰ مَكِّيٍّ وَمَدَنِيٍّ يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ مُفَرَّقًا، وَلِنُزُولِهِ عَلَىٰ هَـٰذَا الْوَجْهِ حِكَمٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا:

١. **تَثْبِيتُ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ﴾ **يَعْنِي: كَذَلِكَ نَزَّلْنَاهُ مُفَرَّقًا** ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ **لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ **[الفرقان].**

٢. **أَنْ يَسْهُلَ عَلَىٰ النَّاسِ حِفْظُهُ وَفَهْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، حَيْثُ يُقْرَأُ عَلَيْهِمْ شَيْئًا فَشَيْئًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾ **[الإسراء].**

٣. **تَنْشِيطُ الْهِمَمِ لِقَبُولِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَتَنْفِيذِهِ، حَيْثُ يَتَشَوَّقُ النَّاسُ بِلَهَفٍ وَشَوْقٍ إِلَىٰ نُزُولِ الْآيَةِ، لَا سِيمَا عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا؛ كَمَا فِي آيَاتِ الْإِفْكِ وَاللِّعَانِ.**

حِكَمُ نزول القرآن مُفرَّقًا:

- [١] (تَثْبِيتُ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ).
- [٢] (أَنْ يَسْهُلَ عَلَىٰ النَّاسِ حِفْظُهُ وَفَهْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ).
- [٣] (تَنْشِيطُ الْهِمَمِ لِقَبُولِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَتَنْفِيذِهِ).
- [٤] (التَّدَرُّجُ فِي التَّشْرِيعِ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْكَمَالِ).

الحِكمة الأولى:

تثبيتُ قلب النَّبيِّ ﷺ، ولو نزل جملةً واحدةً لحصلت الموعظة في أوَّل نزوله، لكن قد ينسىٰ الإنسان، وقد يغفل، فإذا نزل مرَّةً ثانيةً ازداد ثباتًا.

واستدلَّ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بآية الفرقان.



من معاني آية الفرقان:

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ كما نزل في الكتب السَّابقة، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أنزلناه كذلك مُفرَّقًا، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ أي: لأجل أن يكون مُرتَّلًا، والتَّرتيل: أن يقرأه شيئًا فشيئًا، ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ ليصدُّوا النَّاس عن سبيل الله ﴿إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾[الفرقان] أي: أحسن بيانًا ووضوحًا؛ لأنَّ الشُّبهة ترد علىٰ النَّبيِّ ﷺ في أوقاتٍ مُختلفةٍ، فإذا وردت الشُّبهة نزل القرآن في حلِّها.

الحِكمة الثَّانية:

أنَّه إذا نزل مُفرَّقًا سهُل علىٰ النَّاس:

[١]	[٢]	[٣]
حفظُه.	فهمُه.	العملُ به.

ويتفرَّعُ عنها:

أنَّ من أراد أن يحفظ القرآن عن ظهر قلبٍ؛ فالأفضل ألَّا يقرأ جملةً واحدةً، بل يجعله مُفرَّقًا، يقرأ خمسة أسطرٍ حتَّىٰ يحفظها، ثمَّ خمسةً... فإذا أتمَّ جملةً صالحةً للإعادة أعادها كلَّها.

الحِكمة الثَّالثة:

أنَّه إذا تأخَّر نزول القرآن صار النَّاس يتشوَّقون، وينتظرونه بفارغ الصَّبر، فإذا نزل القرآن في شدَّة الاشتياق كان أدعىٰ لقبوله، والعمل به، والرَّاحة فيه، ومثَّل المُصنِّف لذلك بآية اللِّعان، والإفك، ومن الأمثلة كذلك: آية الظِّهار وغيرها.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤. (التَّدَرُّجُ فِي التَّشْرِيعِ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْكَمَالِ، كَمَا فِي آيَاتِ الْخَمْرِ الَّذِي نَشَأَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَأَلِفُوهُ، وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِمْ أَنْ يُجَابَهُوا بِالْمَنْعِ مِنْهُ مَنْعًا بَاتًّا، فَنَزَلَ فِي شَأْنِهِ:

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، فَكَانَ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ تَهْيِئَةٌ لِلنُّفُوسِ لِقَبُولِ تَحْرِيمِهِ، حَيْثُ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُمَارِسَ شَيْئًا إِثْمُهُ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِ.

ثُمَّ نَزَلَ ثَانِيًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النِّساء:٤٣]، فَكَانَ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ تَمْرِينٌ عَلَىٰ تَرْكِهِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، وَهِيَ أَوْقَاتُ الصَّلَوَاتِ.

ثُمَّ نَزَلَ ثَالِثًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة]، فَكَانَ فِي هٰذِهِ الْآيَاتِ الْمَنْعُ مِنَ الْخَمْرِ مَنْعًا بَاتًّا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، بَعْدَ أَنْ هُيِّئَتِ النُّفُوسُ ثُمَّ مُرِّنَتْ عَلَىٰ الْمَنْعِ مِنْهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ).

الحِكمة الرَّابعة:

التَّدرُّج في التَّشريع، وأظهر الأمثلة علىٰ ذلك الخمر كما ذكره المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ، ومن ذلك الصَّلوات فُرضت ركعتين ثمَّ زيدت في الحضر، وكذلك الصِّيام كان الإنسان فيه مُخيَّرًا بين الصِّيام والإطعام، والصِّيامُ أفضل، ثمَّ بعد ذلك تعيَّن الصِّيام فكان سهلًا؛ لأنَّ النُّفوس تهيَّأت لإيجابه.



هل لنا أن نتدرَّج مع الـمَدعُوِّ:

[١] الـمُقصِّر في ترك الـمُنكَر:

نعم، لا لكي ينسلخ من الدِّين، ولا إقرارًا له علىٰ المعصية، وإنَّما تسهيلًا عليه.

مثالُه: من لم يستطع ترك التَّدخين مرَّةً واحدةً، وقال: اسمحوا لي أن أشربه في اليوم مرَّتين، نقول: لا بأس؛ لأنَّه ربَّما بالتَّدرُّج ينتفع.

[٢] الـمُقصِّر في فعل الواجب:

لا نتساهل فيه، بل نقول له: قم بالواجب.

مثالُه: لو قال رجلٌ: اسمحوا لي أن أصلِّي الظُّهر والعصر والمغرب فقط، وأمَّا الفجر والعشاء فيصعب عليَّ، فإنَّ النَّفس لا تطمئنُّ لذلك، بل نلزمه أن يصلِّي الجميع، مع أنَّه ورد عند أصحاب «السُّنن» بسندٍ صحيحٍ أنَّ ثقيفًا اشترطوا علىٰ النَّبيِّ ﷺ أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، فقبل منهم ﷺ، وقال: «**سَيَتَصَدَّقُونَ وَيُجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا**».

ما هو الخمرُ؟

قال النَّبيُّ ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**». أخرجه مسلمٌ.

والإسكارُ هو: (تغطيةُ العقل علىٰ وجه الطَّرب واللَّذَّة)، سُمِّي خمرًا لأنَّه يغطِّي العقل كما يغطِّي الخِمارُ وجه المرأة ورأسَها.

حكم الخمر في أوَّل الإسلام:

كان الخمرُ حلالًا في أوَّل الإسلام؛ لأنَّ الإسلام أقرَّهم عليه كما في قصَّة حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المُتَّفق عليها.

وقيل إنَّ الخمر كان حلالًا بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[النَّحل:٦٧].

ثمَّ مرَّ تحريمُ الخمر بثلاث مَراحل كما ذكر المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ.



المرحلةُ الأولى من مراحل تحريم الخمر:

قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي: عن حكمهما، فلم يقل: حرامٌ، وإنَّما عرَّض فقال: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بالكيفيَّة ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بالكمِّيَّة، فالمنافع جمع جموعٍ يدلُّ علىٰ الكثرة، والإثم واحدٌ لكنَّه في الكيفيَّة أشدُّ، ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ﴾ كيفيَّةً، ولم يقل: أكثر؛ لأنَّ الكثرة ترجع إلىٰ الكمِّيَّة، ﴿مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة:٢١٩] أفرد النَّفع ليدلَّ علىٰ أنَّ المنافع الَّتي يظنُّها الظَّانُّ كثيرةً هي في الحقيقة نفعٌ واحدٌ، والميسرُ هو: (كلُّ مُعاملةٍ يكون الإنسان فيها إمَّا غانمًا وإمَّا غارمًا)، سُمِّيت كذلك ليُسر الرِّبح فيها.

وهذه الآية تهيئةٌ للتَّحريم؛ لأنَّ العاقل لا يُقدم علىٰ شيءٍ إثمُه أكبر من نفعه.

المرحلةُ الثَّانية من مراحل تحريم الخمر:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[النِّساء:٤٣]، وفي هذا تحريمُ شرب الخمر في أوقات الصَّلوات الخمس، تمرينًا للمؤمنين علىٰ ترك الخمر في بعض الأوقات.

وفي قولِه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ عدَّة فوائد منها:

[١] أنَّ السَّكران لا يعلم ما يقول، فلو أنَّ سكرانًا أعتق جميع عبيده فإنَّهم لا يعتقون؛ لأنَّه لا يعلم ما يقول، وكذلك لو طلَّق نساءه فإنَّهنَّ لا يطلقن، ويُقاسُ عليه الغضبان الَّذي أطبق عليه الغضب.

[٢] وجوبُ الخشوع في الصَّلاة، وهو: (إحضار القلب)؛ لأنَّه لا يمكن أن يعلم ما يقول إلَّا إذا كان قلبُه حاضرًا، والرَّاجح أنَّ الصَّلاة لا تبطل مع عدم الخشوع؛ لقوله ﷺ: **«إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَىٰ النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّىٰ إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّىٰ إِذَا قَضَىٰ التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حَتَّىٰ يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّىٰ يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّىٰ»**. مُتَّفقٌ عليه. ولم يُبطل صلاتَه.



المرحلةُ الثَّالثة من مراحل تحريم الخمر:

قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نداءٌ للتَّنبيه، وخصَّ المؤمنين لأنَّ إيمانهم يقتضي الامتثال والطَّاعة، ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ﴾ جمع نَصَبٍ وهي: الأوثان ﴿وَٱلْأَزْلَـٰمُ﴾ وهي ما يُستَقسَمُ به، ﴿رِجْسٌ﴾ أي: نجسةٌ نجاسةً معنويَّةً ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾، قدَّم العلَّة قبل بيان الحكم؛ ليجعل النَّفس تُقبِلُ علىٰ الحكم عن اقتناعٍ وعقلٍ، ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ هذا هو الحكم، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ للتَّعليل، ﴿تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ هذه هي ثمرة امتثال الحكم، والفلاحُ هو: (حصولُ المَطلوب، والنَّجاةُ من المَرهوب).

الأنصابُ والأزلامُ والخمر والميسر:

[١] **من حيثُ أصلُ الحكم:**

تشتركُ في كونها تُنافي كمال التَّوحيدِ.

[٢] **من حيثُ الحكمُ التَّفصيليُّ:**

الأنصابُ أشدُّها تحريمًا؛ لأنَّها شركٌ أكبر، ثمَّ الأزلام دونها في التَّحريم، ثمَّ الخمر والميسر دونهما.

النَّجاسة (الرِّجس) نوعان:

[١] **حسيَّةٌ:**

ومن ذلك أنَّه ﷺ أمر مُناديًا يُنادي: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ؛ فَإِنَّهَا رِجْسٌ**». مُتَّفقٌ عليه.

[٢] **معنويَّةٌ:**

ومن ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾[الحج].

وكذلك في آية المائدة نجاسةٌ حسِّيَّةٌ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أطلق علىٰ الأربعة أنَّها رجسٌ، وليس كلُّها يصحُّ أن يكون نجاسةً معنويَّةً، كما أنَّه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾، فهي نجاسةٌ عمليَّةٌ.



هل الخمر نجسةٌ نجاسةً حسِّيَّةً؟

الخمر طاهرةٌ طهارةً حسِّيَّةً، ونجسةٌ نجاسةً معنويَّةً، وليست نجسةً نجاسةً حسِّيَّةً، ولا يلزم من كونها حرامًا كونُها نجسةً، ولا يلزم من كونه ﷺ وصفها بأنَّها أمُّ الخبائث أن تكون نجسةً، بل المقصود الخبائث المعنويَّة.

وممَّا يدلُّ علىٰ عدم نجاسة الخمر أنَّ الأصل الطَّهارة، ولمَّا لم يقم دليلٌ علىٰ كونها نجسةً نجاسةً حسِّيَّةً بقينا علىٰ الأصل، كما أنَّ لخمر لمَّا حُرِّمت أرقاها الصَّحابة من أوانيهم، ولم يُؤمَروا بغسل الأواني.

ما هي عقوبةُ شاربِ الخمرِ؟

عقوبة شارب الخمر الرَّدع والتَّعزير بما لا يقلُّ عن أربعين جلدةً، وليست حدًّا، وقد كان علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ يُضرب نحوًا من أربعين جلدةً، ثمَّ تقرَّرت الأربعون في عهد أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثمَّ لمَّا كثر شرب الخمر من حديثي العهد بالإسلام في عهد عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أشار عليه عبد الرَّحمن بن عوفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يجعلها ثمانين جلدةً، ووافقه الصَّحابة علىٰ ذلك.

تتمَّة آيات المائدة:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾، فكلُّ عملٍ يوجب العداوة والبَغضاء فهو من وحي الشَّيطان، ﴿فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي: بسببهما، ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يصدُّنا عن ذكر الله باللِّسان، وعن ذكره بالجَنان بالقلب، وهذا هو البلاءُ! ومن شرب الخمر غفل عن ذكر الله، ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ والصَّلاةُ من ذكر الله، بل هي أفضله، نصَّ علىٰ الخاصِّ بعد العامِّ لشرفه، وصدُّ الشَّيطان عن الصَّلاة يكون بإشغال الإنسان عنها، أو بالوسوسة فيها، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ استفهامٌ بمعنىٰ الأمر، أي: فانتهوا، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ ولا فرق بينهما، لكن كلَّما كان الأمر أهمَّ احتيج إلىٰ التَّنصيص علىٰ



وجوب طاعة النَّبيِّ ﷺ، ﴿وَٱحۡذَرُواْ﴾ مُخالفتَهما، ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ ولم تحذروا مُخالفتَهما، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا﴾ للحصر، ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: البيِّن في نفسه، والمُبيِّن لمن يسمعه، فالرَّسول لا ينفعهم، وليس مسؤولًا عنهم، فهو عليه البلاغ فقط، فإذا بلَّغ فقد برئت ذمَّته، وكذا ورثتُه العلماء ليس عليهم إلَّا البلاغ.

مسألةٌ مهمَّةٌ:

ما كان فيه نسبةٌ قليلةٌ من الخمر (المُسكِر) لا تُؤثِّر فيه، مثل جزءٍ من مائة جزءٍ، حيث إنَّ من شربه لم يسكر به فهل يحرُم؟

الجواب: لا يحرم، ولا يصحُّ أن يُستدلَّ لتحريمه بما أخرجه أصحاب «السُّنن»: «**مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ**»؛ لأنَّ مُراده ﷺ الَّذي لا يحتمل سواه أنَّ: الشَّيء الَّذي إذا شربت منه كثيرًا سكرت فالقليل منه حرامٌ، وهذا الَّذي خالطته نسبةٌ قليلةٌ من الخمر لا يُسكِر الكثيرُ منه، فهو ليس بحرامٍ.

ومن ذلك: بعض الأدوية الَّتي فيها القليل من المُسكِر، وكذا بعض الأطياب، بشرط أن يكون المُسكِر فيها قليلًا جدًّا لا أثر له، ويجوز التَّطيُّب بها بلا إشكالٍ.

وأمَّا إذا كان المُسكِر فيها كثيرًا فالأحوط أن نجتنب التَّطيُّبَ، وكذلك بيعَها، وشراءَها، وغيرَ ذلك، فإذا دعت الحاجة لاستعمال المُسكِر في غير الشُّرب كتعقيم الجروح ونحوِها فلا بأس.

من مسائل السَّكران:

[١] **الطَّلاق:** لا يقع طلاقُه؛ لأنَّه لا يعلم ما يقولُ، وعند أحمد في «المُسند»: «**لَا طَلَاقَ وَلَا عِتَاقَ فِي إِغْلَاقٍ**»، والسَّكران مُغلقٌ عليه.

[٢] **القتل العمد:** لمَّا كان القتل العمد يتعلَّق بحقوق الآدميِّين قلنا: يُقتل قصاصًا، وقيل: لا يُقتل إلَّا إذا شرب الخمر ليقتُل؛ لأنَّ الحيل لا تُبطل الأحكام الشَّرعيَّة.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(تَرْتِيبُ الْقُرْآنِ:

تَرْتِيبُ الْقُرْآنِ: تِلَاوَتُهُ تَالِيًا بَعْضُهُ بَعْضًا، حَسَبَ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، وَمَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: تَرْتِيبُ الْكَلِمَاتِ بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ كَلِمَةٍ فِي مَوْضِعِهَا مِنَ الْآيَةِ، وَهَٰذَا ثَابِتٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، وَلَا نَعْلَمُ مُخَالِفًا فِي وُجُوبِهِ، وَتَحْرِيمِ مُخَالَفَتِهِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْرَأَ: (للهِ الْحَمْدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) بَدَلًا مِنْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة].

النَّوْعُ الثَّانِي: تَرْتِيبُ الْآيَاتِ بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ آيَةٍ فِي مَوْضِعِهَا مِنَ السُّورَةِ، وَهَٰذَا ثَابِتٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَىٰ الْقَوْلِ الرَّاجِحِ، وَتَحْرُمُ مُخَالَفَتُهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْرَأَ: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) بَدَلًا مِنْ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة].

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وَقَدْ نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الْأُخْرَىٰ، يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وَهٰذِهِ قَبْلَهَا فِي التِّلَاوَةِ، قَالَ: فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يَا ابْنَ أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ.

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ السُّوَرُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ، دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ، فَيَقُولُ: «ضَعُوا هٰذِهِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا».

النَّوْعُ الثَّالِثُ: تَرْتِيبُ السُّوَرِ بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ سُورَةٍ فِي مَوْضِعِهَا مِنَ الْمُصْحَفِ، وَهٰذَا ثَابِتٌ بِالِاجْتِهَادِ، فَلَا يَكُونُ وَاجِبًا، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّىٰ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ الْبَقَرَةَ، ثُمَّ النِّسَاءَ، ثُمَّ آلِ عِمْرَانَ، وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيقًا عَنِ الْأَحْنَفِ: أَنَّهُ قَرَأَ فِي الْأُولَىٰ بِالْكَهْفِ، وَفِي الثَّانِيَةِ بِيُوسُفَ، أَوْ يُونُسَ،



وَذَكَرَ أَنَّهُ صَلَّىٰ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الصُّبْحَ بِهِمَا.
قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: تَجُوزُ قِرَاءَةُ هٰذِهِ قَبْلَ هٰذِهِ، وَكَذَا فِي الْكِتَابَةِ، وَلِهٰذَا تَنَوَّعَتْ مَصَاحِفُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِي كِتَابَتِهَا، لٰكِنْ لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى الْمُصْحَفِ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صَارَ هٰذَا مِمَّا سَنَّهُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، وَقَدْ دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنَّ لَهُمْ سُنَّةً يَجِبُ اتِّبَاعُهَا).

التَّرتيبُ أربعةُ أنواعٍ:

[١] ترتيبُ الحروف في الكلمة، وهذا واجبٌ بإجماعٍ.

[٢] (تَرْتِيبُ الْكَلِمَاتِ) بعضِها مع بعضٍ، وهو كذلك واجبٌ بإجماعٍ.

[٣] (تَرْتِيبُ الْآيَاتِ) بعضِها مع بعضٍ، وهو واجبٌ على القول الرَّاجح.

[٤] (تَرْتِيبُ السُّوَرِ) بعضِها مع بعضٍ، وهو غير واجبٍ؛ لأنَّ التَّرتيب ثبت بالاجتهاد.

لم يذكر المُصنِّف في المتن النَّوع الأوَّل؛ لأنَّه لا أحد يتجرَّأ عليه، ولا شكَّ في تحريمه، فإنَّه غير جائزٍ بالنَّصِّ والإجماع؛ لأنَّه من تحريف الكلم عن مواضعه.

النَّوع الثَّاني: ترتيبُ الكلمات

ترتيبُ الكلمات واجبٌ باتِّفاقٍ، فلا يجوز أن يقرأ (للهِ الْحَمْدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) بدل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[الفاتحة].

هل تبطل الصَّلاة بتقديم كلمةٍ عن محلِّها:

[١] **في العمد:** تبطُل.

[٢] **في السَّهو:** لا تبطُل.



النَّوع الثَّالث: ترتيبُ الآيات

اختلف العلماء هل ترتيب الآيات توقيفيٌّ أو اجتهاديٌّ، والصَّحيح أنَّه قد دلَّ النَّصُّ علىٰ أنَّ ترتيب الآيات توقيفيٌّ، من ذلك ما أخرجه أحمد في «المُسند»: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعَ هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ**...»، وحكىٰ غير واحدٍ الإجماع عليه. وعلىٰ هذا فالرَّاجح أنَّ ترتيب الآيات واجبٌ تحرُم مُخالفتُه، فلا يجوز أن يقرأ: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) بدل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة]، والمُخالفة في هذا أخفُّ من المُخالفة في ترتيب الكلمات.

النَّوع الرَّابع: ترتيبُ السُّور منه:

[١] **الاجتهاديُّ:** وهو الأكثر، ففي «صحيح مسلمٍ» من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه صلَّىٰ مع النَّبيِّ ﷺ ليلةً فقرأ في ركعةٍ البقرة ثمَّ النِّساء ثمَّ آل عمران.

[٢] **في السَّهو:** ومن ذلك قراءته ﷺ سبِّح والغاشية في الجمعة كما في «صحيح مسلمٍ» من حديث النُّعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا فإنَّ ترتيب السُّور غير واجبٍ.

لماذا قدَّم الصَّحابة آل عمران على النِّساء في ترتيب المصحف؟

[١] لأنَّ النَّبيَّ ﷺ جمع بين البقرة وآل عمران في الفضل، قال ﷺ: «**اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». أخرجه مسلمٌ.

[٢] لعلَّ التَّرتيب اختلف بعد العرضة الأخيرة الَّتي عرضها النَّبيُّ ﷺ علىٰ جبريل، بعد أن سمعه حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيزول الإشكال حينئذٍ.



حكم مُخالفة ترتيب السُّور:

[١] **أمام عوامِّ النَّاس:** لا ينبغي؛ لما فيه من التَّشويش وإثارة الفتنة.

[٢] **في مجال التَّعليم:** لا بأس به، وجرت العادة بتعليم الصِّبيان بدءًا من سورة النَّاس.

ما علاقة القراءات المُتواترة بمصحف عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جمع النَّاس علىٰ مُصحفٍ واحدٍ، بعثه إلىٰ كلِّ أُفقٍ من الآفاق الإسلاميَّة، وكلُّ القراءات المُتواترة لا تخرج عن هذا المُصحف.



سابعًا: كِتَابَةُ الْقُرْآنِ وَجَمْعُهُ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (لِكِتَابَةِ الْقُرْآنِ وَجَمْعِهِ ثَلَاثُ مَرَاحِلَ:

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَىٰ: فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ الِاعْتِمَادُ فِي هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ عَلَىٰ الْحِفْظِ أَكْثَرَ مِنَ الِاعْتِمَادِ عَلَىٰ الْكِتَابَةِ؛ لِقُوَّةِ الذَّاكِرَةِ، وَسُرْعَةِ الْحِفْظِ، وَقِلَّةِ الْكَاتِبِينَ، وَوَسَائِلِ الْكِتَابَةِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُجْمَعْ فِي مُصْحَفٍ، بَلْ كَانَ مَنْ سَمِعَ آيَةً حَفِظَهَا، أَوْ كَتَبَهَا فِيمَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ عُسُبِ النَّخْلِ، وَرِقَاعِ الْجُلُودِ، وَلِخَافِ الْحِجَارَةِ، وَكِسَرِ الْأَكْتَافِ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ عَدَدًا كَبِيرًا.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ سَبْعِينَ رَجُلًا يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ، فَعَرَضَ لَهُمْ حَيَّانِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ -رِعْلٌ وَذَكْوَانُ- عِنْدَ بِئْرِ مَعُونَةٍ، فَقَتَلُوهُمْ، وَفِي الصَّحَابَةِ غَيْرُهُمْ كَثِيرٌ؛ كَالْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ).

مراحلُ كتابة القرآن ثلاثةٌ:

[١] في عهد النَّبيِّ ﷺ:	[٢] في عهد أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:	[٣] في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
كان الاعتماد علىٰ الحفظ أكثر من الكتابة، وكتب الصَّحابة أجزاءً مُتفرِّقةً من القرآن.	بمشورة عمر أمر أبو بكرٍ زيد بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يجمع القرآن في مُصحفٍ واحدٍ لئلَّا يضيع، ولم يحمل النَّاس عليه.	خشي أن يفتتن النَّاس باختلاف القراءات، فأمر زيد بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يجمع مُصحفًا واحدًا وحمل النَّاس عليه، وحرَّق ما سواه.



من أسباب الاعتماد على الحفظ في العهد النَّبويِّ:

[١] **قوَّة الذَّاكرة:** كان الواحد من الصَّحابة لا يكاد ينسىٰ شيئًا حفظه، وكلَّما أراد شيئًا استحضره بسرعةٍ.

[٢] **سرعة الحفظ:** فتجد الواحد منهم يسمع الحديث الَّذي يبلغ الصَّفحة والصَّفحتين فيحفظه من مرَّةٍ واحدةٍ.

[٣] **قلَّة الكتبة:** قال ﷺ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ». مُتَّفقٌ عليه. ولمَّا جاء الإسلام صاروا علماء العالم كلِّه!

[٤] **قلَّة وسائل الكتابة:** فلم يكن يوجد عندهم ورقٌ، ولا حبرٌ، ولا أقلامٌ...

ممَّا كانوا يكتبون عليه:

[١] **عُسُبُ النَّخل:** والعسيب هو الجريد إذا نُحِّي عنه خوصُه، أي: منبت الورق.

[٢] **رِقاعُ الْجُلود:** يكتبون علىٰ رُقعة الجلد المَدبوغة.

[٣] **لِخافُ الْحِجارة:** وهي حجارةٌ مَلساء تشبه العظم.

[٤] **كِسَرُ الأكتاف:** وهي أكتاف البعير، والشَّاة، والبقر وغيرها من الحيوان.

إشكالٌ والرَّدُّ عليه:

قال أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَجْمَعِ الْقُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ: أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ». مُتَّفقٌ عليه. فهل معنىٰ هذا أنَّ القرآن منقولٌ بطريق الآحاد؟

[١] خبر الآحاد مقبولٌ؛ لقوله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ». أخرجه أحمد.

[٢] القرآن خبرٌ دينيٌّ، وجاءت السُّنَّة مُطَّردةً بقبول خبر الواحد فيها؛ كما في رؤية هلال رمضان.

[٣] حصل الإجماع بعد ذلك من الصَّحابة علىٰ هذا القرآن الَّذي بين أيدينا وقبولِه.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَسَبَبُهُ أَنَّهُ قُتِلَ فِي وَقْعَةِ الْيَمَامَةِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ، مِنْهُمْ سَالِمٌ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ، أَحَدُ مَنْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَخْذِ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ.

فَأَمَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِجَمْعِهِ؛ لِئَلَّا يَضِيعَ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَشَارَ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِجَمْعِ الْقُرْآنِ بَعْدَ وَقْعَةِ الْيَمَامَةِ، فَتَوَقَّفَ تَوَرُّعًا، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُرَاجِعُهُ حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِذَلِكَ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَأَتَاهُ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، لَا نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، قَالَ: فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُطَوَّلًا.

وَقَدْ وَافَقَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَعَدُّوهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ، حَتَّىٰ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَعْظَمُ النَّاسِ فِي الْمَصَاحِفِ أَجْرًا أَبُو بَكْرٍ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ كِتَابَ اللهِ).

لماذا توقَّف أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أوَّل الأمر؟

تورُّعًا منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّ هذا لم يكن علىٰ عهد النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخاف أن يكون إذا جمعه تصرَّف في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ بما لم يفعله النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لماذا جُعلت المصاحف عند حفصة بعد موت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؟

لأنَّها أمُّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانت ذات ديانةٍ، وأمانةٍ، وعقلٍ، وحسن تصرُّفٍ.

ولهذا لمَّا وقف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أرضه الَّتي في خيبر جعل النَّاظر عليه حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. أخرجه أبو داود. وقدَّمها علىٰ ابنه عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



فائدةٌ في الرَّدِّ على الرَّافضة:

أثنىٰ عليٌّ علىٰ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقوله: (أَعْظَمُ النَّاسِ فِي الْمَصَاحِفِ أَجْرًا أَبُو بَكْرٍ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ كِتَابَ اللهِ)، وفي هذا وخزةٌ وطعنةٌ في صدور الرَّافضة الَّذين يُبغضون أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وربَّما كان بعضُهم يلعنُه -والعياذُ بالله-، فها هو عليُّ بن أبي طالبٍ -الَّذي يرون أنَّه إمام الأئمَّة- يقول فيه هذا القول!

مسائلُ أخرى خالف فيها الرَّافضة عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

[١] **الـمُتعة**: فقد روىٰ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحريمها كما في «الصَّحيحين».

[٢] **المسح على الخفَّين**: فقد رواه عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ كما في «سنن أبي داود».

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ: فِي عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ، وَسَبَبُهُ اخْتِلَافُ النَّاسِ فِي الْقِرَاءَةِ، بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الصُّحُفِ الَّتِي فِي أَيْدِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَخِيفَتِ الْفِتْنَةُ، فَأَمَرَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ تُجْمَعَ هٰذِهِ الصُّحُفُ فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ؛ لِئَلَّا يَخْتَلِفَ النَّاسُ فَيَتَنَازَعُوا فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ وَيَتَفَرَّقُوا.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدِمَ عَلَىٰ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ فَتْحِ أَرْمِينِيَّةَ وَأَذْرَبِيجَانَ، وَقَدْ أَفْزَعَهُ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَدْرِكْ هٰذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَىٰ حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَفَعَلَتْ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمٰنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمُصْحَفِ، وَكَانَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ أَنْصَارِيًّا، وَالثَّلَاثَةُ قُرَشِيِّينَ.



وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الثَّلَاثَةِ الْقُرَشِيِّينَ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّىٰ إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَىٰ حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَىٰ كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ، وَقَدْ فَعَلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هٰذَا بَعْدَ أَنِ اسْتَشَارَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لِمَا رَوَىٰ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَاللهِ مَا فَعَلَ الَّذِي فَعَلَ فِي الْمَصَاحِفِ إِلَّا عَنْ مَلَأٍ مِنَّا، قَالَ: أَرَىٰ أَنْ نَجْمَعَ النَّاسَ عَلَىٰ مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، فَلَا تَكُونَ فُرْقَةٌ وَلَا اخْتِلَافٌ، قُلْنَا: فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ.

وَقَالَ مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ: أَدْرَكْتُ النَّاسَ مُتَوَافِرِينَ حِينَ حَرَّقَ عُثْمَانُ الْمَصَاحِفَ، فَأَعْجَبَهُمْ ذَلِكَ، أَوْ قَالَ: لَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَهُوَ مِنْ حَسَنَاتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّتِي وَافَقَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا، وَكَانَتْ مُكَمِّلَةً لِجَمْعِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ جَمْعِهِ وَجَمْعِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ جَمْعِهِ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَقْيِيدُ الْقُرْآنِ كُلِّهِ مَجْمُوعًا فِي مُصْحَفٍ؛ حَتَّىٰ لَا يَضِيعَ مِنْهُ شَيْءٌ، دُونَ أَنْ يَحْمِلَ النَّاسَ عَلَىٰ الِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُ الِاخْتِلَافِ فِي قِرَاءَاتِهِمْ مَا يَدْعُو إِلَىٰ حَمْلِهِمْ عَلَىٰ الِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ مُصْحَفٍ وَاحِدٍ.

وَأَمَّا الْغَرَضُ مِنْ جَمْعِهِ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ تَقْيِيدُ الْقُرْآنِ كُلِّهِ مَجْمُوعًا فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، يُحمَلُ النَّاسُ عَلَىٰ الِاجْتِمَاعِ عَلَيْهِ؛ لِظُهُورِ الْأَثَرِ الْمُخِيفِ، اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ.

وَقَدْ ظَهَرَتْ نَتَائِجُ هٰذَا الْجَمْعِ، حَيْثُ حَصَلَتْ بِهِ الْمَصْلَحَةُ الْعُظْمَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ: اجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ، وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ، وَحُلُولِ الْأُلْفَةِ، وَانْدَفَعَتْ بِهِ مَفْسَدَةٌ كُبْرَىٰ مِنْ: تَفَرُّقِ الْأُمَّةِ، وَاخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ، وَفُشُوِّ الْبَغْضَاءِ وَالْعَدَاوَةِ.

وَقَدْ بَقِيَ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ الْآنَ، مُتَّفَقًا عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، مُتَوَاتِرًا بَيْنَهُمْ، يَتَلَقَّاهُ الصَّغِيرُ عَنِ الْكَبِيرِ، لَمْ تَعْبَثْ بِهِ أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ، وَلَمْ تَطْمِسْهُ أَهْوَاءُ الزَّائِغِينَ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ، رَبِّ الْعَالَمِينَ).



سببُ جَمعِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّاسَ على مُصحفٍ واحدٍ:

قال النَّبيُّ ﷺ في الحديث المُتَّفق عليه: «**إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَؤُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ**»، فكان كلٌّ من الصَّحابة يقرأ بما سمع من النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ في عهد عثمان خاف المسلمون من هذا الاختلاف أن يؤدِّي إلىٰ اختلاف القلوب والآراء، وأن يؤدِّي إلىٰ القتال، فرأوا أن يُجمع علىٰ حرفٍ واحدٍ، فجمعوه علىٰ حرف قريشٍ؛ لأنَّه نزل بلغتهم، وأمَّا القراءاتُ المُتواترةُ فلاختلاف القرَّاء حسب الرِّواية، وحسب الكتابة.

قاعدةٌ عامَّةٌ: (**تغييرُ ما كان علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ من وسائل حفظ القرآن لا بأس به**).

لماذا يوجدُ في القرآنِ آياتٌ كثيرةٌ ليست بلغة قريشٍ؟

[١] لأنَّ الحكم أغلبيٌّ.

[٢] لأنَّ هذه الكلمات أصلها ليست عربيَّةً، ولكنَّ قريشًا تكلَّموا بها.

أمثلةٌ أخرى عن الوسائل الَّتي استجدَّت بعد النَّبيِّ ﷺ:

[١] **الخطُّ في المسجد**: جُعلت الخُطوط في المساجد لتسوية الصُّفوف، وجُعلت في المسجد الحرام ليُستدلَّ بها علىٰ القبلة، وأنكرها بعض النَّاس، وإنكارُهم بعيدٌ عن الفقه، فهي وسائلُ لا غاياتٌ؛ لأنَّنا لا نتعبَّد الله عَزَّوَجَلَّ بها، ولكنَّنا اتَّخذناها وسيلةً، كما جمع الصَّحابة القرآن علىٰ حرفٍ واحدٍ وقد كان علىٰ عهده ﷺ علىٰ سبعةٍ.

[٢] **مُكبِّر الصَّوت**: رفع الصَّوت مقصودٌ؛ كما في غزوة حنينٍ لمَّا فرَّ النَّاس أمر النَّبيُّ ﷺ العبَّاس -وكان جهوريَّ الصَّوت- أن ينادي: «**أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟**». أخرجه مسلمٌ. والحاصل أنَّ المُكبِّر وسيلةٌ لتحصيل المقصود المَشروع.

قاعدةٌ: (**الوسيلةُ المُباحة إذا أدَّت إلىٰ الغرض المَقصود شرعًا؛ فالأصل أنَّها مَطلوبةٌ**).



شُبهةٌ والرَّدُّ عليها:

استدلَّ بعضُ النَّاس علىٰ تحسين البدعة بفعل أبي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حين جمع القرآن؛ لأنَّه فعل شيئًا لم يفعله النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ويُجابُ: بأنَّ هناك فرقًا بين ما كان مَشروعًا وما لم يكن مَشروعًا، فما كان وسيلةً لمَشروعٍ فهو مَشروعٌ، أمَّا أن يشرع الإنسان شيئًا ابتداءً فهذا بدعةٌ لا يجوز.

ويُشترطُ في الوسيلة أن تكون مُباحةً.

فإذا قال الدَّاعي: عندي أناسٌ لا يتَّجهون إليَّ إلَّا إذا ضربتُ الموسيقىٰ؛ قيل له: هذه وسيلةٌ مُحرَّمةٌ، فلا يجوز استعمالُها.

هل لأهل المَغرب أن يقرؤوا بقراءتهم عند أهل المَشرق، والعكس؟

مَعلومٌ أنَّ أهل المَشرق لهم قراءةٌ غلبت عليهم، وأهل المَغرب لهم قراءةٌ غلبت عليهم، وكلُّ ذلك علىٰ حرف قريشٍ، وقد يحصُل فتنةٌ للنَّاس عند قراءة أحدهما بقراءته عند الآخر، ولهذا فإنَّنا نمنع ذلك، ونقول: أنت يا صاحب المَغرب؛ لا تقرأ بقراءتك إلَّا في مكانك، وكذلك صاحبُ المَشرق.



الاخْتِبَارُ الأوَّلُ:

[١] اختر الإجابة الصَّحيحة:

- مِنْ أَجَلِّ فُنُونِ الْعِلْمِ؛ بَلْ هُوَ أَجَلُّهَا وَأَشْرَفُهَا، عِلْمُ: ○ الحديثِ. ○ التَّفسير. ○ الفقهِ.
- السَّبع الـمَثاني هي: ○ أوَّلُ سبع سُورٍ مِن القُرآنِ. ○ الفاتِحة.
- أسباب النزول تتوقف على: ○ النَّقل والسَّماع. ○ الاجتهادِ. ○ معرفة المكِّيِّ والمدنيِّ.
- غايةُ أصول التَّفسيرِ هي:
  ○ استنباطُ الأحكام الفقهيَّة. ○ معرفةُ علوم القرآن. ○ جعلُ قواعد لفهم القرآن.
- جاء بيانُ تفسير الصَّلاة في: ○ القرآنِ. ○ أقوالِ الصَّحابة. ○ السُّنَّة.
- التَّفسيرُ هو: ○ بيانُ القصص القُرآنيِّ. ○ معرفةُ أحكام القرآن. ○ معرفةُ مَعاني القرآن.
- التَّأويل والتَّفسير معناهما: ○ متَّفقٌ. ○ متضادٌّ. ○ متقاربٌ.
- القائلُ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ فسَّر القرآن كلَّه: ○ ابنُ الجوزيِّ. ○ ابن تيميَّة. ○ الرَّازيُّ.
- أصولُ التَّفسير هي:
  ○ علومُ القرآن. ○ الأُسسُ الَّتي يقوم عليها التَّفسير. ○ بيانُ معاني القرآن.
- قواعدُ التَّفسير:
  ○ أخصُّ من قواعد التَّرجيح. ○ أعمُّ من قواعد التَّرجيح. ○ ليس بينهما فرقٌ.
- الأخصُّ من قواعد التَّفسير يُسمَّى:
  ○ أصولَ التَّفسير. ○ قواعدَ التَّرجيح. ○ أصولَ الفقه.
- الرَّاجحُ أنَّ عدد آيات الأحكام: ○ ٢٠٠. ○ ٥٠٠. ○ ١٥٠. ○ ليست مَحصورةً في عددٍ مُعيَّن.
- القواعدُ والأُسس التَّي يقوم عليها التَّفسيرُ تُسمَّى:
  ○ أصولَ التَّفسير. ○ علومَ القرآنِ. ○ مناهجَ التَّفسير. ○ جميعَ ما ذُكر.
- التَّفسيرُ يأتي في الغالب بمعنى:
  ○ التَّأويل. ○ صرفِ اللَّفظ عن ظاهره. ○ المجازِ. ○ جميع ما ذُكر.
- مدرسةُ المدينة قامت على: ○ أبيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ○ عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



❍ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ❍ أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- مَن هو الصَّحابيُّ الَّذي قال فيه النَّبيُّ: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»؟

❍ ابن عبَّاس. ❍ أُبيُّ بن كعب. ❍ عثمان بن عفَّان. ❍ ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

- مَعنىٰ «**يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ**»: ❍ يُصلِّي به. ❍ يقرأُه. ❍ يتلوه. ❍ يفعل ما أُمِر به.

- مِن مَزايا هذا النَّوعِ مِن التَّفسير أنَّه يغلب عليه الاختصارُ في القول مع الوفاء بالمَعنىٰ؟

❍ تفسيرُ أتباعِ التَّابعين. ❍ التَّفسيرُ الفقهيُّ. ❍ تفسيرُ المُتأخِّرين. ❍ التَّفسيرُ النَّبويُّ.

- تدوينُ التَّفسيرِ وحذف أسانيد الأحاديث والآثار كان في المرحلة:

❍ الأولىٰ. ❍ الثَّانيةِ. ❍ الثَّالثةِ.

- ذِكرُ بعض أفراد العامِّ علىٰ سبيل المثال من أسباب اختلاف؟

❍ التَّنوُّع. ❍ التَّضادِّ. ❍ كلاهما.

- (صرفُ اللَّفظ عن الاحتمال الرَّاجح إلىٰ الاحتمال المَرجوح لدليلٍ يقترنُ) يُسمَّىٰ:

❍ التَّفسيرَ. ❍ التَّأويلَ. ❍ المجازَ. ❍ الجميع.

- أقوالُهم في التَّفسير حجَّةٌ إذا اتَّفقوا، من هم؟

❍ الصَّحابةُ. ❍ التَّابعون. ❍ كلاهما. ❍ لا شيء ممَّا ذُكِر.

- روايةُ القليل من الإسرائيليَّات تميَّز به منهجُ؟

❍ التَّابعينَ. ❍ الصَّحابةِ. ❍ المدرسةِ العقليَّةِ. ❍ لا شيء ممَّا ذُكِر.

- اعتنىٰ السُّيوطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره» بـالتَّفسير: ❍ اللُّغويِّ. ❍ الفقهيِّ. ❍ بالمأثور.
- أسبابُ النُّزول المرويَّة عن الصَّحابيِّ لها حكم المَرفوع دائمًا: ❍ صح. ❍ خطأٌ.

[٢] اجب عن كلٍّ ممَّا يلي:

- مَتَىٰ نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ؟ ....
- وَمَنْ نَزَلَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ ....
- ما هو أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ؟ ....
- اذكُر سببي نزولِ القرآنِ:

[١] ....

[٢] ....



- ينقسِمُ القرآنُ باعتبارِ زمانِ نزولِه إلىٰ قسمين:

[١] ....

[٢] ....

- بيِّن الحكمةَ مِن نزولِ القرآنِ مُفرَّقًا: ....

....

- كيفُ كانت كتابةُ القرآن وجمعُه علىٰ عهدِ النَّبيِّ ﷺ: ....

....

- جُمِع القرآنُ مرَّتين في خلافةِ: .... و..............................

- اذكُر معنىٰ التَّفسيرِ:

لغةً: ....

اصطلاحًا: ....

- الْوَاجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ هو: ....

....

....

- الْمَرْجِعُ فِي التَّفْسِيرِ إِلَىٰ:

[١] ....

[٢] ....

[٣] ....

[٤] ....

[٥] ....

- اذكُرْ أَنْوَاعَ الاخْتِلَافِ الْوَارِدِ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ.:

[١] ....

[٢] ....

[٣] ....



- المَقصودُ بترجمة القرآنِ:

لغةً: ....

اصطلاحًا: ....

- ترجمةُ القرآن علىٰ نوعين:

[١] ....

وحكمه: ....

[٢] ....

وحكمه: ....

[٣] صِل فوائِدَ النُّزولِ مِن الحقلِ (أ) بأمثلَتِها مِن الحقلِ (ب):

(أ) فوائدُ أسباب النُّزول:	(ب) الأمثلةُ:
فهم الآية علىٰ الوجه الصحيح:	آية التَّيمُّم.
بيان عناية الله برسوله والدفاع عنه:	﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان:٣٢].
بيان عناية الله بعباده في تفريج كُربهم:	﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة:١٥٨].



التَّفسِيرُ

أوَّلًا: تَعْرِيفُ التَّفْسِيرِ وَحُكْمُهُ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (التَّفْسِيرُ لُغَةً مِنَ الفَسْرِ، وَهُوَ: الْكَشْفُ عَنِ الْمُغَطَّىٰ.

وَفِي الِاصْطِلَاحِ: بَيَانُ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَتَعَلُّمُ التَّفْسِيرِ وَاجِبٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمَّد].

وَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَىٰ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بَيَّنَ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ إِنْزَالِ هٰذَا الْقُرْآنِ الْمُبَارَكِ أَنْ يَتَدَبَّرَ النَّاسُ آيَاتِهِ، وَيَتَّعِظُوا بِمَا فِيهَا، وَالتَّدَبُّرُ هُوَ التَّأَمُّلُ فِي الْأَلْفَاظِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ مَعَانِيهَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ فَاتَتِ الْحِكْمَةُ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ، وَصَارَ مُجَرَّدَ أَلْفَاظٍ لَا تَأْثِيرَ لَهَا، وَلِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الِاتِّعَاظُ بِمَا فِي الْقُرْآنِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَبَّخَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، وَأَشَارَ إِلَىٰ أَنَّ ذَٰلِكَ مِنَ الْإِقْفَالِ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، وَعَدَمِ وُصُولِ الْخَيْرِ إِلَيْهَا).

مَعنى التَّفسير:

[١] **لغةً:** (مِنَ الفَسْرِ، وَهُوَ: الْكَشْفُ عَنِ الْمُغَطَّىٰ)، ومن ذلك فَسْرُ. القِشر عن الثَّمرة حتَّىٰ يتبيَّن ما بداخل القشر.

[٢] **اصطلاحًا:** (بَيَانُ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ)، وأمَّا ما سوىٰ القرآن فيُسمَّىٰ في الواقع شرحًا، والفرق بينهما عُرفيٌّ.



حكم تفسير القرآن:

تفسير القرآن واجبٌ يأثم الإنسانُ بتركه؛ لأنَّ المقصود من إنزاله هو فهم مَعناه، والعملُ به، وإذا كنَّا لا نفهم المَعنىٰ صار القرآن كأنَّه عربيٌّ بين أعاجم.

هل فهمُ مَعنى القرآن صعبٌ؟

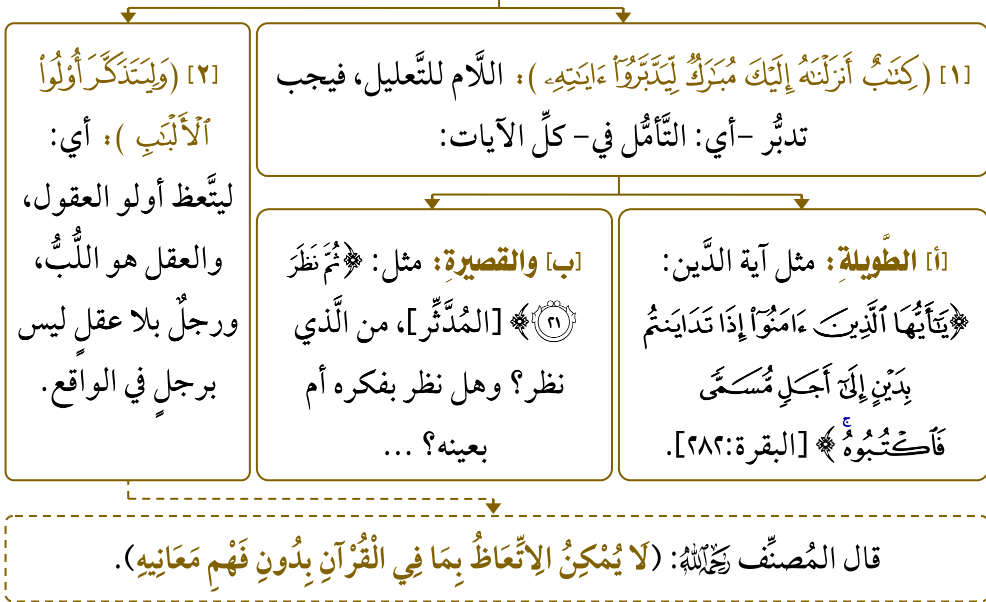
فهمُه ليس صعبًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾[القمر]، أي: هل من مُتذكِّرٍ؟ والاستفهام للتَّشويق؛ لأنَّه لمَّا أخبر وأكَّد أنَّ الله تعالىٰ يسَّره للذِّكر شوَّق إلىٰ ادِّكاره وفهمه، فإذا أقبلت بصدقٍ لتفهم معنىٰ كلام ربِّك عَزَّوَجَلَّ فإنَّه لابدَّ أن يُيسَّر لك، إمَّا بفتحٍ يفتحُه الله عليك، وإمَّا بجلب عالمٍ يُبيِّن لك معناه، وإمَّا بكتب تفسيرٍ تُوضِّح لك المَعنىٰ.

تعلُّم التَّفسير منه:

[١] **واجبٌ عينيٌّ:** وهو ما لا يسوغ جهلُه، يجب علىٰ كلِّ إنسانٍ أن يعرف ما أُمر به في القرآن الكريم؛ مثل قولِه تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة:٤٣] فيجب أن يعرف كيفيَّة إقامة الصَّلاة، وكيف يزكِّي إذا كان عنده مالٌ.

[٢] **واجبٌ كفائيٌّ:** وهو ما زاد علىٰ ذلك، فيجب علىٰ المسلمين عمومًا أن يقوموا به، فإن قام به أحدٌ يُكتفىٰ به لكونِه مَأمونًا مَوثوقًا مَرجعًا للمسلمين في التَّفسير حصل الواجبُ، ولا يُمكن للمسلمين أن يدعوا كتاب ربِّهم دون أن يفهموا مَعانيَه.





الحكمة من إنزال القرآن:

[١] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾: اللَّام للتَّعليل، فيجب تدبُّر -أي: التَّأمُّل في- كلِّ الآيات:

[أ] **الطَّويلة:** مثل آية الدَّين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

[ب] **والقصيرة:** مثل: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ [المُدَّثِّر]، من الَّذي نظر؟ وهل نظر بفكره أم بعينه؟ ...

[٢] ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: ليتَّعظ أولو العقول، والعقل هو اللُّبُّ، ورجلٌ بلا عقلٍ ليس برجلٍ في الواقع.

قال المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**لَا يُمْكِنُ الِاتِّعَاظُ بِمَا فِي الْقُرْآنِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ**).

مَعنى الـمَوعظة والاتِّعاظ:

ليس هو لين القلب وخشوعُه وما أشبه ذلك فقط، وإنَّما الاتِّعاظ هو (**التزامُ الأحكام**)؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ﴾ [النِّساء:٥٨].

دليلٌ آخر:

قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ استفهامٌ يُرادُ به التَّوبيخ، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمَّد]، (أم) هنا بمَعنىٰ (بل)؛ فهي مُنقطعةٌ، والمَعنىٰ: بل قلوبُهم مُقفلةٌ عن تدبُّر القرآن، والأقفال جمع قُفلٍ، وهو ما تُغلق به الأشياء.

فلمَّا وبَّخ الله عَزَّوَجَلَّ الَّذين لا يتدبَّرون القرآنَ، ووصَّفهم بأنَّ قلوبَهم مُغلقةٌ؛ دلَّ علىٰ أنَّ تدبُّر القرآن واجبٌ كما سبق.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَكَانَ سَلَفُ الْأُمَّةِ عَلَىٰ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ الْوَاجِبَةِ، يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ أَلْفَاظَهُ وَمَعَانِيَهُ؛ لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَتَمَكَّنُونَ مِنَ الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ عَلَىٰ مُرَادِ اللهِ بِهِ، فَإِنَّ الْعَمَلَ بِمَا لَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ.

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِؤُونَنَا الْقُرْآنَ كَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا).

أثر أبي عبد الرَّحمن السُّلميِّ أخرجه أحمد في «المُسند» وابن أبي شيبة في «المُصنَّف»، وهو من رواية عطاء بن السَّائب، وقد اختلط في آخر عمره، ففي صحَّة الخبر خلافٌ.

وهذا الَّذي كان عليه الصَّحابة هو الَّذي ينبغي أن نكون عليه؛ نتعلَّم المعنىٰ ثمَّ نعمل به.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: وَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ كَالطِّبِّ وَالْحِسَابِ وَلَا يَسْتَشْرِحُونَهُ، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ، وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ، وَدُنْيَاهُمْ؟

وَيَجِبُ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ عَنْ طَرِيقِ الْكِتَابَةِ أَوِ الْمُشَافَهَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وَتَبْيِينُ الْكِتَابِ لِلنَّاسِ شَامِلٌ لِتَبْيِينِ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، فَيَكُونُ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ مِمَّا أَخَذَ اللهُ الْعَهْدَ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ بِبَيَانِهِ.

وَالْغَرَضُ مِنْ تَعَلُّمِ التَّفْسِيرِ هُوَ الْوُصُولُ إِلَىٰ الْغَايَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَالثَّمَرَاتِ الْجَلِيلَةِ، وَهِيَ التَّصْدِيقُ بِأَخْبَارِهِ، وَالِانْتِفَاعُ بِهَا، وَتَطْبِيقُ أَحْكَامِهِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي أَرَادَهُ اللهُ؛ لِيُعْبَدَ اللهُ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ.).



كان الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم يمتثلون ما أُمروا به في القرآن، رجالُهم ونساؤُهم، فإذا نزلت آياتٌ في البيع تعلَّموها وعملوا بها، وامتثلوا أمره الله عَزَّ وَجَلَّ وأمر رسوله ﷺ امتثالًا تامًّا؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾[الجمعة:٩].

هل يجبُ على العلماءِ أن يُبيِّنوا للنَّاسِ مَعنى القرآن ولو لم يسألوهم؟

نعم، يجب عليهم البيان سواءٌ سألوهم بلسان المَقال، أو بلسان الحال.

فإذا سمع أنَّ النَّاس يُفسِّرون بعض الآيات علىٰ غير ما أراده الله؛ فالواجب عليه أن يُبيِّن المَعنىٰ الَّذي أراده الله عَزَّ وَجَلَّ، والعوامُّ قد يُفسِّرون القرآن علىٰ غير مُراد الله عَزَّ وَجَلَّ، بل قد يصنعون آياتٍ من عندِهم!

وينبغي للعالم وطالب العلم أن يجعل للعامَّة مجلسًا لتفسير القرآن، فإنَّه بذلك ينفع وينتفع.

الغرض من تعلُّم التَّفسير:

[١] تصديقُ الأخبار والانتفاعُ بها:

فإذا قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾﴾ [النِّساء]؛ فهذا خبرٌ، فتصدِّق بأنَّ الله سميعٌ بصيرٌ، وتنتفع بخشية الله فلا تقول ما يسمع الله عَزَّ وَجَلَّ منك ممَّا لا يرضاه، ولا تفعل ما يبصره عَزَّ وَجَلَّ منك ممَّا لا يرضاه.

قال تعالىٰ عن قصص الأنبياء السَّابقين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[يوسف:١١١].

[٢] تطبيق الأحكام على مُراد اللَّه:

فتعبد الله علىٰ بصيرةٍ، وتعرف كيف تعبد الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ ما أراده منك.



ثانيًا: الْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ أَنْ يُشْعِرَ نَفْسَهُ حِينَ يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ مُتَرْجِمٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، شَاهِدٌ عَلَيْهِ بِمَا أَرَادَ مِنْ كَلَامِهِ، فَيَكُونُ مُعَظِّمًا لِهَذِهِ الشَّهَادَةِ، خَائِفًا مِنْ أَنْ يَقُولَ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، فَيَقَعَ فِيمَا حَرَّمَ اللهُ، فَيَخْزَىٰ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزُّمر]).

المُفسِّر لكلام الله عَزَّوَجَلَّ بمثابة:

[١] **المُترجم عنه:** فليحذر أن يقول: (أراد الله كذا) كاذبًا علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وهو لم يُرده.

[٢] **الشَّاهد عليه:** أنَّه أراد بكلامه كذا وكذا.

من أمثلة التَّفسير الخاطئ:

[١] ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [**النَّمل: ٨٨**]: فسَّرها بعض المُتأخِّرين بأنَّ المُراد بها في الدُّنيا، وأنَّ هذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ الأرض تدور، فنسألهم:
هل التَّرجمة مُطابقةٌ للمُترجَم؟
وهل تشهدون علىٰ الله بأنَّه أراد هذا المَعنىٰ شهادةً تُسألون عنها؟

[٢] ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ﴾ [**الرَّحمن: ٣٤**]: فسَّرها بعض المُتأخِّرين بالأقمار الصِّناعيَّة، ووصول النَّاس إلىٰ الفضاء الخارجيِّ، وأنَّهم بذلك نفذوا من أقطار السَّموات والأرض، وهذا لا شكَّ أنَّه تحريفٌ.



دليل تحريم القول على الله عَزَّوَجَلَّ بغير علمٍ في التَّفسير وغيره:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ فيها حصرٌ، بمعنىٰ: لم يحرِّم إلَّا ما ذكر هنا، ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ جمع فاحشةٍ، وهي: (**كلُّ ما يُستَفحش شرعًا أو عقلًا**)، ولا يُقال: عادةً؛ لأنَّ عادة النَّاس قد تجيز المُنكر شرعًا، والغالب أنَّ الشَّرع والعقل مُتلازمان، فكلُّ ما يستفشحه الشَّرع يستفحشه العقل، لكن قد يستفحش العقل شيئًا لا يستفحشه الشَّرع.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ تحتمل معنيين:

الأوَّل: ما ظهر للنَّاس وما خفي عليهم، **والثَّاني**: ما ظهر فُحشُه، وما خفي فُحشُه.

﴿وَالْإِثْمَ﴾ كلُّ ما يأثم به الإنسان، ﴿وَالْبَغْيَ﴾ أي: العدوان علىٰ النَّاس، ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، فكلُّ بغيٍ هو بغير حقٍّ، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ في ذاته عَزَّوَجَلَّ، وفي رُبوبيَّته، وفي ألوهيَّته، وفي أسمائه وصفاته، ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الأعراف] سواءٌ في تفسير كلامه، أو إثبات أحكامه، أو نفيها، أو غير ذلك.

وهذه الآية جاءت علىٰ وجه التَّرقِّي، فأشدُّ المُحرَّمات المَذكورة أن يقول الإنسان علىٰ الله ما لا يعلم؛ وهو أشدُّ من الشِّرك في أنَّ إفساده يتعدَّاه إلىٰ غيره، بخلاف الشِّرك.

جزاء الكاذب على الله عَزَّوَجَلَّ في التَّفسير:

قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[الزُّمر]، فالَّذي يُفسِّر القرآن بغير ما أراد الله كاذبًا علىٰ الله يكون وجهه -بلا شكٍّ- ممَّن قال الله يهم: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾.

فالتَّفسير خطيرٌ، لكن مع ذلك هو مع النِّيَّة الصَّادقة يسيرٌ، ييسِّره الله ويسهِّله ويوفِّق الإنسان للصَّواب فيه.



ثالثًا: المَرْجِعُ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (يُرْجَعُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ إِلَىٰ مَا يَأْتِي:

أ. كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ: فَيُفَسَّرُ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ بِهِ.

وَلِذَلِكَ أَمْثِلَةٌ مِنْهَا:

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس]، فَقَدْ فَسَّرَ أَوْلِيَاءَ اللهِ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس]

ثَانِيًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾ [الطَّارق]، فَقَدْ فَسَّرَ الطَّارِقَ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطَّارق].

ثَالِثًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النَّازعات]، فَقَدْ فَسَّرَ ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَتَيْنِ بَعْدَهَا: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النَّازعات]).

مَراجع تفسير القرآن خمسةٌ:

[٥] ما تقتضيه الكلمات من المَعاني الشَّرعيَّة واللُّغويَّة:	[٤] كلام التَّابعين:	[٣] كلام الصَّحابة:	[٢] السُّنَّة:	[١] القرآن:
والأصل تقديم المَعنىٰ الشَّرعي علىٰ اللُّغويِّ إلَّا لدليل يدلُّ علىٰ إرادة اللُّغويِّ.	فهم الَّذين أخذوا التَّفسير عن الصَّحابة ونقلوه لنا.	فالقرآن نزل في عصرهم، وبلغتهم، وهم أصدق النَّاس بعد الرُّسل.	فالنَّبيُّ ﷺ مُبلِّغٌ عن ربِّه، وهو أعلم النَّاس بمُراد الله عَزَّوَجَلَّ.	أولىٰ ما يُفسَّر به القرآن هو القرآن؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أعلم بمُراده من غيره.



المثال الأوَّل لتفسير القرآن بالقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيما يُستقبَلُ، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ فيما مضىٰ؛ لأنَّه قد فات ما مضىٰ بالإيمان والتَّقوىٰ، والحزن يكون علىٰ فوات المَحبوب، وفسَّر عَزَّوَجَلَّ الأولياء فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾[يونس]، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا».

حكم من ادَّعى الولاية:

من قال: (أنا وليٌّ لله)؛ قلنا: القرآن يكذِّبك، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾[يونس]، وقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[النَّجم:٣٣]، وأنت زكَّيت نفسك، فلم تتَّق الله، فلست بوليٍّ.

ومن زاد علىٰ ذلك فقال مثلًا: (أنا وليٌّ لله، فيحلُّ لي أن أتزوَّج خمسين امرأةً) وغير ذلك، قلنا: أنت من أعداء الله.

ونقل شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ عن عبد القادر الجيلانيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: (كُنْت مَرَّةً فِي الْعِبَادَةِ فَرَأَيْت عَرْشًا عَظِيمًا وَعَلَيْهِ نُورٌ فَقَالَ لِي: يَا عَبْدَ الْقَادِرِ أَنَا رَبُّك وَقَدْ حَلَلْت لَك مَا حَرَّمْت عَلَىٰ غَيْرِك، قَالَ: فَقَلَتْ لَهُ: أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ؟! اخْسَأْ يَا عَدُوَّ اللهِ، قَالَ: فَتَمَزَّقَ ذَلِكَ النُّورُ وَصَارَ ظُلْمَةً، وَقَالَ: يَا عَبْدَ الْقَادِرِ؛ نَجَوْت مِنِّي بِفِقْهِك فِي دِينِك، وَعِلْمِك وَبِمُنَازَلَاتِك فِي أَحْوَالِك).

المثال الثَّاني لتفسير القرآن بالقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١﴾، كونُ الواو في (وَٱلطَّارِقِ) للقسم أولىٰ من كونها عاطفةً؛ ليكون ما بعدها مُستقلًّا، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢﴾، وفسَّر الله عَزَّوَجَلَّ الطَّارق بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣﴾[الطَّارق] أي: الثَّاقب للظَّلام بنوره، والثَّاقب للشَّياطين الَّذين يسترِقون السَّمع؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠﴾[الصَّافَّات].



المثال الثَّالث لتفسير القرآن بالقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[النَّازعات]، هذه الآية مُشكلةٌ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[فُصِّلت].

وفسَّر الله عَزَّوَجَلَّ الدَّحو بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النَّازعات].

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ب. (كَلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيُفَسَّرُ الْقُرْآنُ بِالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمُرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ كَلَامِهِ.

وَلِذَلِكَ أَمْثِلَةٌ مِنْهَا:

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦]، فَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الزِّيَادَةَ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ، فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ صَرِيحًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَرَوَاهُ جَرِيرٌ مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثٍ قَالَ فِيهِ: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

ثَانِيًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الْقُوَّةَ بِالرَّمْيِ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ).



تنبيهٌ مُهمٌّ:

عند تفسير القرآن بالسُّنَّة أو بكلام الصَّحابة لابدَّ من مُلاحظة أنَّه قد يكون من باب ذكر بعض أنواع ما يدخل في الآية، لا أنَّ المُرادَ تفسيرُ كلِّ المَعنىٰ.

المثال الأوَّل لتفسير القرآن بالسُّنَّة:

قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مُبتدأٌ مُؤخَّرٌ، أي: الدَّارُ الحُسنىٰ، وهي الجنَّة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، قال النَّبيُّ ﷺ -كما في «صحيح مسلمٍ» من حديث صهيبٍ رضي الله عنه-: «**فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ**»، وتلا الآية، وتلاوتُه ﷺ للآية تدلُّ علىٰ أنَّ رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ هي الزِّيادة المَذكورة.

المثال الثَّاني لتفسير القرآن بالسُّنَّة:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ أيُّها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ أي: الكفَّار ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فما المَقصود بالقوَّة هنا؟ أخرج مسلمٌ من حديث عقبة بن عامرٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ تلا الآية علىٰ المنبر ثمَّ قال: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»، والرَّمي أكمل القوَّة، ولهذا أجاز الشَّرعُ المُسابقة بالرَّمي بعِوضٍ.

السِّلاح نوعان:

[١] **السِّلاح الأبيض:** كالسَّكاكين والسُّيوف وما أشبهها.

[٢] **الرَّمي:** وهو أقوىٰ؛ لأنَّه يكون من بعيدٍ، فهو أبلغ من المُلاقاة باليد.

والرَّمي يختلف من زمنٍ لآخر، كان في عهد النَّبيِّ ﷺ بالنِّبال وما أشبهها، ثمَّ صار بالبندقيَّة، ثمَّ صار في يومِنا بالصَّواريخ عابرة القارَّات



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ج. (كَلَامِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، لاَسِيَمَا ذَوُو الْعِلِمْ مِنْهُمْ وَالْعِنَايَةِ بِالتَّفْسِيرِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ، وَفِي عَصْرِهِمْ، وَلِأَنَّهُمْ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ أَصْدَقُ النَّاسِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ، وَأَسْلَمُهُمْ مِنَ الْأَهْوَاءِ، وَأَطْهَرُهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ التَّوْفِيقِ لِلصَّوَابِ.

وَلِذَلِكَ أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النِّساء: ٤٣]، فَقَدْ صَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ فَسَّرَ الْمُلَامَسَةَ بِالْجِمَاعِ).

هل الصَّحابة سواءٌ في تفسير القرآن؟

المَرجعُ في تفسير القرآن إلىٰ ذوي العلم من الصَّحابة، المُعتَنين بالتَّفسير، والصَّحابة درجاتٌ في العلم والفقه.

سبب تقديم الصَّحابة على غيرِهم في التَّفسير:

[١] **أنَّ القرآن نزل بلغتهم وفي عصرِهم:** فكان ﷺ يخطبُهم بسورة ق، ولو خطبت بها الآن لم تكف؛ لأنَّ النَّاس لا يستفيدون منها إلَّا ما قد يحصُل من ترقيق قلوبهم.

[٢] **أنَّهم أصدقُ النَّاس بعد الرُّسل:** في طلب الحقِّ، لا شكَّ في ذلك.

[٣] **وأسلمُهم من الأهواء:** وإنَّما افترقت الأمَّة وكثرت الأهواء بعدَهم، أمَّا في عهدهم فقليلٌ إن لم نقل مَعدومٌ.

[٤] **وأطهرُهم من مُخالفة أمر الله:** فمُخالفةُ أمر الله عَزَّ وَجَلَّ ومَعصيتُه تحولان بين المرء وبين التَّوفيق للصَّواب.



القرآن نزل:

[١] **بلُغةِ الصَّحابةِ:** فهم أولىٰ بمعرفة مَعناه من غيرهم.

مثالُه: في «صحيح البخاريِّ»: (كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: إِنَّ لَنَا أَبْنَاءَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ، فَسَأَلَ عُمَرُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾[النَّصر]، فَقَالَ: أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ، قَالَ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ).

[٢] **في عصرِ الصَّحابةِ:** فيعرفون القرائن الَّتي يُراد بها المَعنىٰ.

مثالُه: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾[البقرة:١٥٨]، فهم منها الصَّحابة وجوب السَّعي لا إباحتَه وعدمَ تحريمه، وذلك لأنَّهم كانوا يتحرَّجون من الطَّواف بينهما لظنِّهم أنَّه من أمر الجاهليَّة، فنزلت الآية ترفع عنهم الحرج.

تنبيهٌ مُهمٌّ:

الصَّحابة أعلم الخلق بعد النَّبيِّ ﷺ بتفسير كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، لا سيما فيما يتعلَّق بالأحكام، وما يتعلَّق بالفقه في الدِّين، وبالعقيدة، أمَّا ما يتعلَّق بالعلوم الفلكيَّة أو الأرضيَّة فقد يكون مَن بعدهم عنده علمٌ كثيرٌ؛ لأنَّهم أوتوا من وسائل الوصول إلىٰ هذه المَعلومة ما لم يُؤتَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

مثال تفسير الصَّحابة للقرآن:

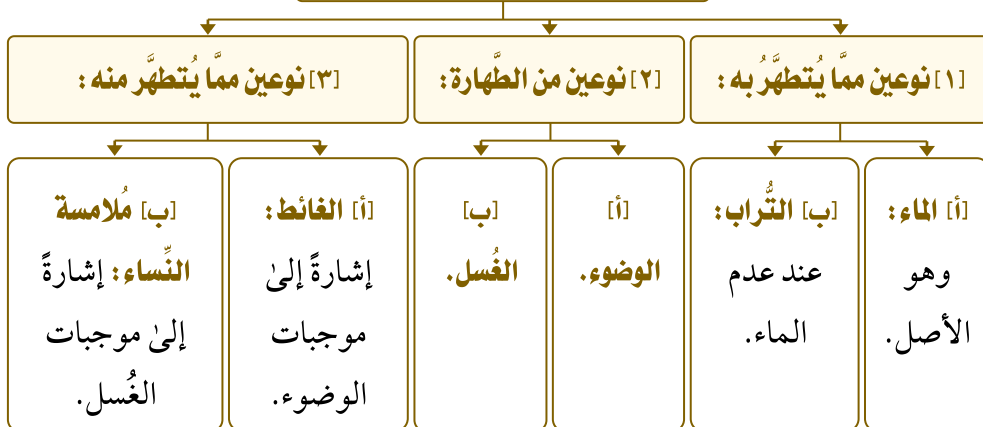
قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ لا تستطيعون الطَّهارة بالماء، ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وليس عندكم ماءٌ، ﴿أَوۡ﴾ بمعنىٰ الواو ﴿جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ إشارةٌ إلىٰ مُوجِب الوضوء، ﴿أَوۡ﴾ للتَّقسيم ﴿لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[النِّساء:٤٣] إشارةٌ إلىٰ مُوجِب الغسل،



وليس مَعناها اللَّمس باليد؛ لأنَّ اللَّمس باليد مُوجِبٌ للوضوء، وليس من البلاغة الإشارة إلىٰ مُوجِبين من مُوجِبات الوضوء وإغفال مُوجِبات الغُسل.

وبهذا يتبيَّن كمال فقه ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ معنىٰ ﴿لَـٰمَسۡتُمُ﴾: جامعتم.

وجاء في قراءةٍ سبعيَّةٍ: (أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ)، وهما بمعنًىٰ، لكن لمَّا كان الجماع قد يحصل به التَّلذُّذ من جانبٍ واحدٍ أو من الجانبين جاءت المُفاعلةُ: ﴿لَـٰمَسۡتُمُ﴾، وكلامُ الله عَزَّ وَجَلَّ يُفسِّر بعضُه بعضًا، فالآية بمعنىٰ الجاع علىٰ التَّقديرين، فلا نعدل إلىٰ غيرِه.



من بلاغة هذه الآية أنَّها تضمَّنت:					
[١] نوعين ممَّا يُتطهَّر به:		[٢] نوعين من الطَّهارة:		[٣] نوعين ممَّا يُتطهَّر منه:	
[أ] **الماء:** وهو الأصل.	[ب] **التُّراب:** عند عدم الماء.	[أ] **الوضوء.**	[ب] **الغُسل.**	[أ] **الغائط:** إشارةً إلىٰ موجبات الوضوء.	[ب] **ملامسة النِّساء:** إشارةً إلىٰ موجبات الغُسل.



اختلف الفقهاء في نقض الوضوء بمسِّ المرأة علىٰ ثلاثة أقوالٍ:		
[١] **الأوَّل:** أنَّه ينقض الوضوء مُطلقًا، فإذا قدم الرَّجل من سفرٍ وهو مُتوضِّئٌ فصافح ابنته وجب عليه الوضوءُ!	[٢] **الثَّاني:** أنَّه لا ينقض الوضوء مُطلقًا، ولو كان بشهوةٍ، وهو الصَّحيح، وفي «مُصنَّف عبد الرَّزَّاق» عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (مَا أُبَالِي قَبَّلْتُهَا أَوْ شَمَمْتُ رَيْحَانًا)، وكذلك لا ينتقض الصَّوم به.	[٣] **الثَّالث:** أنَّه إذا كان بلذَّةٍ ينقض الوضوء، وإذا كان بغير لذَّةٍ لا ينقض الوضوء.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

د. (كَلَامِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ اعْتَنَوْا بِأَخْذِ التَّفْسِيرِ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ التَّابِعِينَ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ الصَّحَابَةِ، وَأَسْلَمُ مِنَ الْأَهْوَاءِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ، وَلَمْ تَكُنِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا فِي عَصْرِهِمْ، فَكَانُوا أَقْرَبَ إِلَىٰ الصَّوَابِ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: إِذَا أَجْمَعُوا -يَعْنِي التَّابِعِينَ- عَلَىٰ الشَّيْءِ فَلَا يُرْتَابُ فِي كَوْنِهِ حُجَّةً، فَإِنِ اخْتَلَفُوا فَلَا يَكُونُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ حُجَّةً عَلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا عَلَىٰ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَيُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ، أَوِ السُّنَّةِ، أَوْ عُمُومِ لُغَةِ الْعَرَبِ، أَوْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ أَيْضًا: مَنْ عَدَلَ عَنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفْسِيرِهِمْ إِلَىٰ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ؛ بَلْ مُبْتَدِعًا، وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مَغْفُورًا لَهُ خَطَؤُهُ، ثُمَّ قَالَ: فَمَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ وَفَسَّرَ الْقُرْآنَ بِخِلَافِ تَفْسِيرِهِمْ، فَقَدْ أَخْطَأَ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا).

من أسباب تقديم تفسير التَّابعين على تفسير مَن بعدهم:

[١] أنَّهم أفضل ممَّن بعدهم، قال النَّبيُّ ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». مُتَّفقٌ عليه. والمُراد بالتَّخيير الجنسُ، فجنسُ الصَّحابة هو الأَخْيَرُ، ثمَّ جنسُ التَّابعين، وقد يوجدُ في التَّابعين من هو خيرٌ من بعض الصَّحابة في العلم والدِّين، لا في الصُّحبة.

[٢] أنَّهم (**أَسْلَمُ مِنَ الْأَهْوَاءِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ**) لا مَن قبلهم، ولهذا تجد كلامَ بعض التَّابعين يكاد يكون مثل كلام الصَّحابة، حتَّىٰ إنَّك أحيانًا لا تكاد تُميِّز بين أثر التَّابعيِّ وأثر الصَّحابيِّ.

[٣] (**لَمْ تَكُنِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا فِي عَصْرِهِمْ**)، وإنَّما تغيَّرت كثيرًا لمَّا فتح المسلمون البلاد، وامتزجوا بأهلها، فأخذوا منهم كلماتٍ، وتأثَّروا بلغاتهم.



ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ التَّابعين قد:

[١] **يُجمعون على تفسيرٍ مُعيَّن:** فإجماعُهم حجَّةٌ علىٰ مَن بعدهم، ليس لأحدٍ أن يخالفهم فيه.

[٢] **يختلفون في التَّفسير:** فلا يكون قولُ بعضهم حجَّةً علىٰ بعضٍ، وإنَّما يُنظر إلىٰ ما يرجِّحه الدَّليل.

التَّرجيح بين تفاسير التَّابعين يكون بـ:

[١] لغة القرآن: وهي الحقيقة الشَّرعيَّة.

[٢] لغة السُّنَّة.

[٣] أقوال الصَّحابة.

[٤] عموم لغة العرب.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥. **(مَا تَقْتَضِيهِ الْكَلِمَاتُ مِنَ الْمَعَانِي الشَّرْعِيَّةِ أَوِ اللُّغَوِيَّةِ حَسَبَ السِّيَاقِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ **[النِّساء: ١٠٥]، وَقَوْلِهِ:** ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ **[الزُّخرف]، وَقَوْلِهِ:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ **[إبراهيم: ٤].**

فَإِنِ اخْتَلَفَ الْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيُّ وَاللُّغَوِيُّ أُخِذَ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعِيُّ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ لِبَيَانِ الشَّرْعِ، لَا لِبَيَانِ اللُّغَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ دَلِيلٌ يَتَرَجَّحُ بِهِ الْمَعْنَىٰ اللُّغَوِيُّ فَيُؤْخَذُ بِهِ.

مِثَالُ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْمَعْنَيَانِ وَقُدِّمَ الشَّرْعِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ **[التَّوبة: ٨٤]، فَالصَّلَاةُ فِي اللُّغَةِ الدُّعَاءُ، وَفِي الشَّرْعِ هُنَا الْوُقُوفُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ لِلدُّعَاءِ لَهُ بِصِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ، فَيُقَدَّمُ الْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيُّ؛ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ لِلْمُتَكَلِّمِ، الْمَعْهُودُ لِلْمُخَاطَبِ، وَأَمَّا مَنْعُ الدُّعَاءِ لَهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِطْلَاقِ فَمِنْ دَلِيلٍ آخَرَ.**



وَمِثَالُ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْمَعْنَيَانِ وَقُدِّمَ فِيهِ اللُّغَوِيُّ بِالدَّلِيلِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [التَّوبة: ١٠٣]، فَالْمُرَادُ بِالصَّلَاةِ هُنَا الدُّعَاءُ، وَبِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِصَدَقَةِ قَوْمٍ صَلَّىٰ عَلَيْهِمْ، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ».

وَأَمْثِلَةُ مَا اتَّفَقَ فِيهِ الْمَعْنَيَانِ الشَّرْعِيُّ وَاللُّغَوِيُّ كَثِيرَةٌ؛ كَالسَّمَاءِ، وَالْأَرْضِ، وَالصِّدْقِ، وَالْكَذِبِ، وَالْحِجْرِ، وَالْإِنْسَانِ).

من أدلَّة اعتبار المَعنى اللُّغويِّ في التَّفسير:

[١] ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النِّساء: ١٠٥]: قال بعض أهل العلم: إذا نزلت بك نازلةٌ فقدِّم بين يدي حلِّها الاستغفارَ؛ لأنَّ المَعاصيَ تَحولُ بين الإنسان والحقِّ والتَّوفيق للصَّواب.

[٢] ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾ [الزُّخرف]: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: صيَّرناه، لأنَّ الفعل (جعل) تعدَّىٰ إلىٰ مفعولين، وليس كما قالت الجهميَّة: خلقناه، وكذلك ليس معناه أنَّ القرآن كان بغير العربيَّة ثمَّ نُقل وصُيِّر إليها.

[٣] ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤]: ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ أي: بلغتهم، ويُستفادُ منها جواز مُخاطبة مَن لا يفهم العربيَّة بلغته الَّتي يفهمها.

القاعدة:

المَعنىٰ اللُّغويُّ مُعتبرٌ في التَّفسير، لكنَّ الأصل أنَّ المَعنىٰ الشَّرعيَّ مُقدَّمٌ عليه إذا وُجد، إلَّا إذا دلَّ دليلٌ علىٰ تقديم المَعنىٰ اللُّغويِّ فيُعمَلُ به.



مثال ذلك: حكم:

[١] الصَّلاة على الـمُنافق والكافر:

حرامٌ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[التَّوبة:٨٤]، فنقدِّم المَعنىٰ الشَّرعيَّ للصَّلاة -أي: صلاة الجنازة المَعروفة- علىٰ المَعنىٰ اللُّغويِّ وهو الدُّعاء.

[٢] الدُّعاء للمُنافق والكافر بعد موته:

حرامٌ كذلك؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾[التَّوبة:١١٣]، ولقوله ﷺ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي**». أخرجه مسلمٌ.

يُستثنىٰ من ذلك شفاعتُه ﷺ في عمِّه أبي طالبٍ، فقد أذن له الله عَزَّوَجَلَّ فيها، قال ﷺ: «**فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ**». مُتَّفقٌ عليه. وسبب إذن الله عَزَّوَجَلَّ له في أن يشفع في عمِّه دون أبيه وأمِّه أنَّ عمَّه نصره ودافع عنه، وذبَّ عن الإسلام.

مثال تقديم الـمَعنى اللُّغويِّ على الشَّرعيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾[التَّوبة:١٠٣]، نحملُها علىٰ المَعنىٰ اللُّغويِّ للصَّلاة، أي: ادعُ لهم، وذلك لحديث ابن أبي أوفىٰ في «الصَّحيحين»: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَةٍ قَالَ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ**»، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ**».

مثال اتِّفاق الـمَعنى اللُّغويِّ مع الشَّرعيِّ:

لفظ (السَّماء) مَعناه في اللُّغة: العلوُّ، أو السَّقف المَرفوعُ، وكذا في الشَّرع، قال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[المُلك:١٦] أي: في العُلُوِّ، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾[الذَّاريات:٤٧] أي: السَّماء المَبنيَّةُ الَّتي هي السَّقف المَرفوع.



رَابِعًا: الِاخْتِلَافُ الْوَارِدُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الِاخْتِلَافُ الْوَارِدُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: اخْتِلَافٌ فِي اللَّفْظِ دُونَ الْمَعْنَىٰ، فَهَذَا لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي مَعْنَىٰ الْآيَةِ، مِثَالُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿قَضَىٰ﴾ أَمَرَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَصَّىٰ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: أَوْجَبَ، وَهَذِهِ التَّفْسِيرَاتُ مَعْنَاهَا وَاحِدٌ أَوْ مُتَقَارِبٌ، فَلَا تَأْثِيرَ لِهَذَا الِاخْتِلَافِ فِي مَعْنَىٰ الْآيَةِ).



مثالُ القسمِ الأوَّل:

قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ذكر المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ لفظ (قضىٰ) فُسِّر علىٰ ثلاثة معانٍ: (أَمَرَ)، و(وَصَّىٰ)، و(أَوْجَبَ)، وكلُّها معانيها مُتقاربةٌ، فلا تضادَّ بينها، ولهذا لا يُمكن أن يُقال بأنَّ في تفسير الآية ثلاثة أقوالٍ، فلا تأثير للاختلاف المَذكور.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْقِسْمُ الثَّانِي: اخْتِلَافٌ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَىٰ، وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيَيْنِ؛ لِعَدَمِ التَّضَادِّ بَيْنَهُمَا؛ فَتُحْمَلُ الْآيَةُ عَلَيْهِمَا، وَتُفَسَّرُ بِهِمَا، وَيَكُونُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا الِاخْتِلَافِ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ ذُكِرَ عَلَىٰ وَجْهِ التَّمْثِيلِ لِمَا تَعْنِيهِ الْآيَةُ، أَوِ التَّنْوِيعِ.

مِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف]، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَقِيلَ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَلْقَاءِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ: أَنْ تُحْمَلَ الْآيَةُ عَلَيْهَا كُلِّهَا؛ لِأَنَّهَا تَحْمِلُهَا مِنْ غَيْرِ تَضَادٍّ، وَيَكُونُ كُلُّ قَوْلٍ ذُكِرَ عَلَىٰ وَجْهِ التَّمْثِيلِ.

وَمِثَالٌ آخَرُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ٣٤﴾ [النَّبأ]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿دِهَاقٗا﴾ مَمْلُوءَةً، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُتَتَابِعَةً، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: صَافِيَةً، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُهَا، فَتُحْمَلُ عَلَيْهَا جَمِيعًا، وَيَكُونُ كُلُّ قَوْلٍ لِنَوْعٍ مِنَ الْمَعْنَىٰ).

المثال الأوَّل للقسم الثَّاني:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: تخلَّىٰ عنها، كما ينسلخ جلد الشَّاة، ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: اتَّبعه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾[الأعراف] فالله عَزَّ وَجَلَّ يرفع بالعلم أقوامًا في الدُّنيا والآخرة، أو في الآخرة دون الدُّنيا، ويضع به آخرين، فاختُلف في الرَّجل المَذكور في الآية، فقيل: من بني إسرائيل، وقيل: من اليمن، وقيل: من البلقاء، وهذا اختلافٌ في اللَّفظ والمَعنىٰ، إلَّا أنَّه يمكن حمل الآية علىٰ الأقوال جميعها لعدم التَّضادِّ بين المَعاني المُفسَّر بها، فتُحمل عليها كلِّها، ويكون المَذكورون من باب التَّمثيل.

لكنَّ لفظ ﴿ٱلَّذِي﴾ في الآية مُفردٌ، فكيف يحتمل أكثر من شخصٍ؟ الجواب: اسم الموصول وإن كان مُفردًا فإنَّه يدلُّ علىٰ العموم، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣﴾[الزُّمر].



المثال الثَّاني للقسم الثَّاني:

قال تعالىٰ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ٣٤﴾[النَّبأ]، قيل: (مَمْلُوءَةً)، وقيل: (مُتَتَابِعَةً)، وقيل: (صَافِيَةً)، وهي مَعانٍ مُختلفةٌ، لكنَّها غير مُتضادَّةٍ، فتكون الكأس مُتَصَّفةٍ بالصِّفات الثَّلاثة معًا.

مثالٌ ثالثٌ للقسم الثَّاني:

قال تعالىٰ: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧﴾[التَّكوير]، ولفظ ﴿عَسْعَسَ﴾ يعني: (أقبل)، و(أدبر)، ولا تنافي بين المَعنيين، فتُحمل الآية عليهما معًا.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (الْقِسْمُ الثَّالِثُ: اخْتِلَافُ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَىٰ، وَالْآيَةُ لَا تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيَيْنِ مَعًا؛ لِلتَّضَادِّ بَيْنَهُمَا، فَتُحْمَلُ الْآيَةُ عَلَىٰ الْأَرْجَحِ مِنْهُمَا بِدَلَالَةِ السِّيَاقِ أَوْ غَيْرِهِ.

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾[البقرة]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَيْرَ بَاغٍ فِي الْمَيْتَةِ، وَلَا عَادٍ فِي أَكْلِهِ، وَقِيلَ: غَيْرَ خَارِجٍ عَلَىٰ الْإِمَامِ وَلَا عَاصٍ بِسَفَرِهِ، وَالْأَرْجَحُ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّهُ لَا دَلِيلَ فِي الْآيَةِ عَلَىٰ الثَّانِي، وَلِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِحِلِّ مَا ذُكِرَ دَفْعُ الضَّرُورَةِ، وَهِيَ وَاقِعَةٌ فِي حَالِ الْخُرُوجِ عَلَىٰ الْإِمَامِ، وَفِي حَالِ السَّفَرِ الْمُحَرَّمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمِثَالٌ آخَرُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[البقرة: ٢٣٧]، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ: هُوَ الزَّوْجُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الْوَلِيُّ، وَالرَّاجِحُ الْأَوَّلُ؛ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَىٰ عَلَيْهِ، وَلِأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ فِيهِ حَدِيثٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ).



المثال الأوَّل للقسم الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أي: ما مات حتف نفسه، ويُستثنىٰ منها السَّمكُ والجرادُ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالدَّمَ﴾ أي: المَسفوح، ويُستثنىٰ من الدَّم الكبدُ والطُّحالُ، وما يبقىٰ في اللَّحم والعروق بعد الذَّكاة الشَّرعيَّة، ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ وهو مَعروفٌ، ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: سُمِّي عليه غيرُ اسم الله، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: ألجأته الضَّرورة إلىٰ أكل هذه المُحرَّمات، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾[البقرة]:

[١] قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (**غَيْرَ بَاغٍ فِي الْمَيْتَةِ**) أي: طالبٍ لها، (**وَلَا عَادٍ فِي أَكْلِهِ**) أي: أكل بقدر الضَّرورة فقط.

[٢] وقيل: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ (**غَيْرَ خَارِجٍ عَلَىٰ الْإِمَامِ**)، و﴿وَلَا عَادٍ﴾ (**وَلَا عَاصٍ بِسَفَرِهِ**).

هذا التَّفسيرُ أرجح؛ لأنَّه يؤيِّده قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣﴾[المائدة]، ولأنَّه لا دليل في الآية علىٰ التَّفسير الثَّاني.

هل يُقدِّم المُضطرُّ الميتة أم ما ذُبح لغير الله؟

لو أنَّ مُضطرًّا وجد ميتةً وذبيحةً ذُبحت لغير الله فإنَّه يأخذ بأقلِّهما ضررًا، والغالب أنَّ الَّتي ذُبحت لغير الله أقلُّ ضررًا من الميتة؛ لأنَّ الميتة قد تسرَّب إليها بعض الميكروبات.

المُسافر يكون:

[١] **عاصيًا في سفره:** إذا ارتكب مُحرَّمًا في سفره. ويجوز له القصر في سفره.

[٢] **عاصيًا بسفره:** إذا أنشأ السَّفر لأجل ارتكاب المُحرَّم. ولا يجوز له القصر في سفره.



المثال الثَّاني للقسم الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، الفاء واقعةٌ في جواب الشَّرط، و(نصف) مُبتدأٌ خبره مَحذوفٌ تقديره (فلهُنَّ) أو (فلكم)، ويجوز أن نجعل (نصف) خبر المُبتدأ المَحذوف، ويكون التَّقدير: (فالواجب نصف ما فرضتم)، ويحتمل أن يكون تقديره:

[١] **واجبٌ لكم:** فيكون النِّصفُ والباقي للأزواج.

[٢] **واجبٌ لهنَّ:** فيكون النِّصف للزَّوجات، وهذا أقرب إلىٰ المَعنىٰ.

استثنى الله عَزَّوَجَلَّ من وجوب النِّصف:

[١] ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾: أي تعفو الزَّوجات عن النِّصف الَّذي لهنَّ، وهذا واضحٌ ولا إشكال فيه.

[٢] ﴿أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾: من هو الَّذي بيده عقدة النِّكاح؟

[أ] قال عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (**هُوَ الزَّوْجُ**)، وهو أرجح لأمورٍ:

- لأنَّه جاء فيه حديثٌ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ولدلالة التَّقسيم عليه، فـ: ﴿أَن يَعْفُونَ﴾ للزَّوجات، و﴿أَوْ يَعْفُوَا﴾ للأزواج، فيكون العفو مُعتبرًا من الجانبين، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن يَعْفُونَ﴾ يغني عن ذكر الوليِّ؛ لأنَّ كلاهما من جانب الزَّوجة.
- لو قلنا: إنَّ الأب يملك أن يعفو عن النِّصف فإنَّ فيه نظرًا؛ لأنَّه يسقط حقَّها، فكيف إذا كان الوليُّ غير الأب؟!

[ب] قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (**هُوَ الْوَلِيُّ**).



مثالٌ ثالثٌ للقسم الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[البقرة:٢٢٨]، اختلف السَّلف في معنىٰ القروء علىٰ قولين:

[١] **الحِيَضُ:** وهذا هو الصَّواب؛ لدلالة السُّنَّة في المُستحاضة عليه.

[٢] **الأطهارُ.**



خامسًا: تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (التَّرْجَمَةُ لُغَةً: تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ تَرْجِعُ إِلَى الْبَيَانِ وَالإِيضَاحِ، وَفِي الاِصْطِلَاحِ: التَّعْبِيرُ عَنِ الْكَلَامِ بِلُغَةٍ أُخْرَى.

وَتَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ: التَّعْبِيرُ عَنْ مَعْنَاهُ بِلُغَةٍ أُخْرَى.

وَالتَّرْجَمَةُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَرْجَمَةٌ حَرْفِيَّةٌ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُوضَعَ تَرْجَمَةُ كُلِّ كَلِمَةٍ بِإِزَائِهَا.

الثَّانِي: تَرْجَمَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، أَوْ تَفْسِيرِيَّةٌ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُعَبَّرَ عَنْ مَعْنَى الْكَلَامِ بِلُغَةٍ أُخْرَى مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةِ الْمُفْرَدَاتِ وَالتَّرْتِيبِ.

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزُّخرف].

فَالتَّرْجَمَةُ الْحَرْفِيَّةُ: أَنْ يُتَرْجِمَ كَلِمَاتِ هَذِهِ الآيَةِ كَلِمَةً كَلِمَةً، فَيُتَرْجِمَ (إِنَّا)، ثُمَّ (جَعَلْنَٰهُ)، ثُمَّ (قُرْءَٰنًا)، ثُمَّ (عَرَبِيًّا)، وَهَكَذَا...

وَالتَّرْجَمَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ: أَنْ يُتَرْجِمَ مَعْنَى الآيَةِ كُلِّهَا، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ مَعْنَى كُلِّ كَلِمَةٍ وَتَرْتِيبِهَا، وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ مَعْنَى التَّفْسِيرِ الإِجْمَالِيِّ).

تعريف التَّرجمة:

[١] لغةً:

(تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ تَرْجِعُ إِلَى الْبَيَانِ وَالْإِيضَاحِ)، ولهذا إذا كلَّمك إنسانٌ لكلامٍ لا تعرف مَعناه تقول له: ترجم لي هذا، أي: بيِّنه، حتَّى وإن كان بلغتك، فالتَّرجمة والتَّفسير مَعناهما واحدٌ.

[٢] اصطلاحًا:

(التَّعْبِيرُ عَنِ الْكَلَامِ بِلُغَةٍ أُخْرَى)، وهذا أصحُّ من قول بعضهم: (نقل اللام من لغةٍ إلى أخرى)؛ لأنَّ الكلام الأوَّل لم يُنقل، ولك عُبِّر عنه، وعليه فترجمة القرآن: (التَّعْبِيرُ عَنْ مَعْنَاهُ بِلُغَةٍ أُخْرَى).



ترجمة القرآن نوعان:

[١] ترجمةٌ حرفيَّةٌ:

(أَنْ يُوضَعَ تَرْجَمَةُ كُلِّ كَلِمَةٍ بِإِزَائِهَا)، فنترجم كلَّ كلمةٍ علىٰ حدةٍ بنفس ترتيبها في اللُّغة العربيَّة.

[٢] ترجمةٌ معنويَّةٌ تفسيريَّةٌ:

(بِأَنْ يُعَبَّرَ عَنْ مَعْنَى الْكَلَامِ) بدون التَّقيُّد بمَعاني المُفردات، ولا بترتيبها، والتَّرجمة قد تكون أطول أو أقصر من الأصل.

مثَّل المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن، و﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بمعنىٰ: صيَّرناه، ﴿قُرْءَٰنًا﴾ مَقروءًا أو قارئًا، بمعنىٰ: جامعٍ، ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾[الزُّخرف] أي: لأجل أن تعقلوه وتفهموه، يُخبر تعالىٰ أنَّه جعله بلغة العرب من أجل أن يعقله العرب.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(حُكْمُ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ:

التَّرْجَمَةُ الْحَرْفِيَّةُ بِالنِّسْبَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُسْتَحِيلَةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّرْجَمَةِ شُرُوطٌ لَا يُمْكِنُ تَحَقُّقُهَا مَعَهَا وَهِيَ:

أ. وُجُودُ مُفْرَدَاتٍ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا بِإِزَاءِ حُرُوفِ اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا.

ب. وُجُودُ أَدَوَاتٍ لِلْمَعَانِي فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا مُسَاوِيَةً أَوْ مُشَابِهَةً لِلْأَدَوَاتِ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا.

ج. تَمَاثُلُ اللُّغَتَيْنِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا وَإِلَيْهَا فِي تَرْتِيبِ الْكَلِمَاتِ حِينَ تَرْكِيبِهَا فِي الْجُمَلِ، وَالصِّفَاتِ، وَالْإِضَافَاتِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ التَّرْجَمَةَ الْحَرْفِيَّةَ يُمْكِنُ تَحَقُّقُهَا فِي بَعْضِ آيَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، وَلَكِنَّهَا -وَإِنْ أَمْكَنَ تَحَقُّقُهَا فِي نَحْوِ ذَلِكَ- مُحَرَّمَةٌ؛ لِأَنَّهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تُؤَدِّيَ الْمَعْنَىٰ بِكَمَالِهِ، وَلَا أَنْ تُؤَثِّرَ فِي النُّفُوسِ تَأْثِيرَ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ، وَلَا ضَرُورَةَ تَدْعُو إِلَيْهَا؛ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنْهَا



بِالتَّرْجَمَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ.
وَعَلَىٰ هَذَا فَالتَّرْجَمَةُ الْحَرْفِيَّةُ إِنْ أَمْكَنَتْ حِسًّا فِي بَعْضِ الْكَلِمَاتِ فَهِيَ مَمْنُوعَةٌ شَرْعًا، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُتَرْجِمَ كَلِمَةً خَاصَّةً بِلُغَةِ مَنْ يُخَاطِبُهُ لِيَفْهَمَهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُتَرْجِمَ التَّرْكِيبَ كُلَّهُ = فَلَا بَأْسَ).

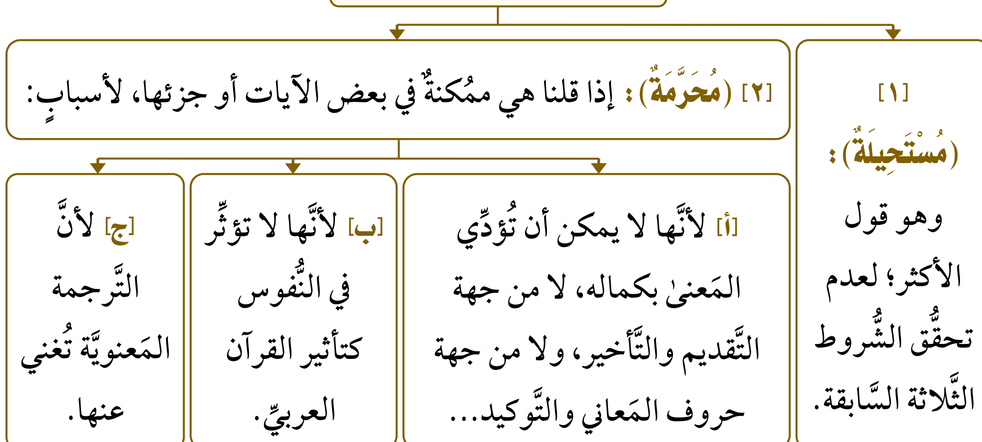


يُشترط في جواز التَّرجمة الحرفيَّة ثلاثة شروطٍ:

[١] (وُجُودُ مُفْرَدَاتٍ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا بِإِزَاءِ حُرُوفِ اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا)، وهذا قد يتعذَّر؛ لأنَّه يوجد في بعض اللُّغات حروفٌ ساقطةٌ.

[٢] (وُجُودُ أَدَوَاتٍ لِلْمَعَانِي فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا مُسَاوِيَةً أَوْ مُشَابِهَةً لِلْأَدَوَاتِ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا)، وهذه أيضًا قد تتعذَّر، وأدوات المَعاني هي: أداة الاستفهام، وأداة والنَّفي، وأداة التَّوكيد، وما أشبهها.

[٣] (تَمَاثُلُ اللُّغَتَيْنِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا وَإِلَيْهَا فِي تَرْتِيبِ الْكَلِمَاتِ حِينَ تَرْكِيبِهَا فِي الْجُمَلِ، وَالصِّفَاتِ، وَالْإِضَافَاتِ)، فتجد مثلًا في العربيَّة أنَّ الخبر مُتأخِّرٌ عن المُبتدأ، وتجده في اللُّغات الأخرىٰ مُقدَّمًا عليه، وكذلك تجد الحركات تختلف...



حكم التَّرجمة الحرفيَّة:

[١] (مُسْتَحِيلَةٌ): وهو قول الأكثر؛ لعدم تحقُّق الشُّروط الثَّلاثة السَّابقة.

[٢] (مُحَرَّمَةٌ): إذا قلنا هي مُمكنةٌ في بعض الآيات أو جزئها، لأسبابٍ:

[أ] لأنَّها لا يمكن أن تُؤدِّي المَعنىٰ بكماله، لا من جهة التَّقديم والتَّأخير، ولا من جهة حروف المَعاني والتَّوكيد...

[ب] لأنَّها لا تؤثِّر في النُّفوس كتأثير القرآن العربيِّ.

[ج] لأنَّ التَّرجمة المَعنويَّة تُغني عنها.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَمَّا التَّرْجَمَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ لِلْقُرْآنِ فَهِيَ جَائِزَةٌ فِي الْأَصْلِ؛ لِأَنَّهُ لَا مَحْظُورَ فِيهَا، وَقَدْ تَجِبُ حِينَ تَكُونُ وَسِيلَةً إِلَىٰ إِبْلَاغِ الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ لِغَيْرِ النَّاطِقِينَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ لِأَنَّ إِبْلَاغَ ذَلِكَ وَاجِبٌ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

لَكِنْ يُشْتَرَطُ لِجَوَازِ ذَلِكَ شُرُوطٌ:

الْأَوَّلُ: أَلَّا تُجْعَلَ بَدِيلًا عَنِ الْقُرْآنِ بِحَيْثُ يُسْتَغْنَىٰ بِهَا عَنْهُ، وَعَلَىٰ هَذَا فَلَابُدَّ أَنْ يُكْتَبَ الْقُرْآنُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَإِلَىٰ جَانِبِهِ هَذِهِ التَّرْجَمَةُ؛ لِتَكُونَ كَالتَّفْسِيرِ لَهُ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُتَرْجِمُ عَالِمًا بِمَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَتَيْنِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا وَإِلَيْهَا، وَمَا تَقْتَضِيهِ حَسَبَ السِّيَاقِ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَعَانِي الْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ.

وَلَا تُقْبَلُ التَّرْجَمَةُ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا مِنْ مَأْمُونٍ عَلَيْهَا، بِحَيْثُ يَكُونُ مُسْلِمًا مُسْتَقِيمًا فِي دِينِهِ).

حكم التَّرجمة المعنويَّة:

- [١] **جائزةٌ:** في الأصل؛ لأنَّه لا مَحذور فيها.
- [٢] **واجبةٌ:** إذا توقَّف عليها إبلاغُ الشَّرع؛ لأنَّ ما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فو واجبٌ، مثل ترجمة خطبة الجمعة، نقول: واجبةٌ؛ لأنَّ غير النَّاطقين بالعربيَّة لا يدرون ماذا يقول الخطيب.

شروط جواز التَّرجمة المعنويَّة أربعةٌ:

ثلاثة شروطٍ تعود إلى حكم التَّرجمة:

- [١] (أَلَّا تُجْعَلَ بَدِيلًا عَنِ الْقُرْآنِ بِحَيْثُ يُسْتَغْنَىٰ بِهَا عَنْهُ).
- [٢] (أَنْ يَكُونَ الْمُتَرْجِمُ عَالِمًا بِمَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ).
- [٣] (أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَعَانِي الْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ).

شرطٌ لا يعود إليها:

- [٤] أن يكون المُترجم مأمونًا: (مُسْلِمًا مُسْتَقِيمًا).



توضيح الشَّرط الأوَّل:

لا ينبغي أن يُكتب القرآن كلُّه بالتَّرجمة المَعنويَّة فقط، بحيث لا يُقرأ القرآن، فإنَّ هذا لا يجوز؛ لأنَّه لابدَّ أن يُقرأ القرآن، فأفضل سبيلٍ في ذلك أن نجعل القرآن باللُّغة العربيَّة في صفحةٍ، والتَّرجمة في صفحةٍ، أو في نصف صفحةٍ والتَّرجمة في نصف صفحةٍ.

توضيح الشَّرط الثَّاني:

لابدَّ أن يكون المُترجم عالمًا بمدلولات الألفاظ في اللُّغتين، وما تقتضيه الألفاظ حسب السِّياق، حتَّىٰ يتمكَّن من التَّعبير عن إحدىٰ اللُّغتين بالأخرىٰ، وأمَّا إذا لم يكن قويًّا فلا يحلُّ له أن يُترجم، ولا يُؤمر.

بيان الشَّرط الثَّالث:

لابدَّ أن يكون المُترجم عالمًا بمعاني الألفاظ الشَّرعيَّة في القرآن، فيعرف مَعنىٰ الصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحجِّ، والغيبة... فإن لم يكن عالمًا بها فلا يجوز؛ لأنَّه ربَّما يُفسِّرها بمُقتضىٰ اللُّغة العربيَّة دون الحقيقة الشَّرعيَّة.

بيان الشَّرط الرَّابع:

لابدَّ أن يكون المُترجم مَوثوقًا، ذا عقيدةٍ سليمةٍ، نأمن منه ألَّا يُحرِّف القرآن علىٰ عقيدته.

هل القرآنُ الـمُترجَمُ يأخذ حكم القرآن الأصل؟

القرآنُ المُترجَمُ لا يأخذ حكم القرآن غير المُترجَم، فيجوز مسُّه بغير وضوءٍ، ويجوز بيعُه وشراؤُه... إلخ، لكن إذا وُجد الأصلُ فيُنظر إلىٰ أيِّهما أكثر، فيكون الحكمُ للأكثر.



سَادِسًا: الْمُشْتَهِرُونَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (اشْتَهَرَ بِالتَّفْسِيرِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ مِنْهُمُ: الْخُلَفَاءَ الْأَرْبَعَةَ؛ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إِلَّا أَنَّ الرِّوَايَةَ عَنِ الثَّلَاثَةِ الْأَوَّلِينَ لَمْ تَكُنْ كَثِيرَةً لِانْشِغَالِهِمْ بِالْخِلَافَةِ، وَقِلَّةِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ النَّقْلِ فِي ذَلِكَ لِكَثْرَةِ الْعَالِمِينَ بِالتَّفْسِيرِ.

وَمِنَ الْمُشْتَهِرِينَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ أَيْضًا: عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، فَلْنُتَرْجِمْ لِحَيَاةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَعَ هَذَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

[١] عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: هُوَ ابْنُ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ، وَزَوْجُ ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهَا، وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَرَابَتِهِ، اشْتَهَرَ بِهَذَا الِاسْمِ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو الْحَسَنِ، وَأَبُو تُرَابٍ.

وُلِدَ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِعَشْرِ سِنِينَ، وَتَرَبَّى فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَشَهِدَ مَعَهُ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا، وَكَانَ صَاحِبَ اللِّوَاءِ فِي مُعْظَمِهَا، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، خَلَّفَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَهْلِهِ، وَقَالَ لَهُ: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي؟».

نُقِلَ لَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ وَالْفَضَائِلِ مَا لَمْ يُنْقَلْ لِغَيْرِهِ، وَهَلَكَ بِهِ طَائِفَتَانِ:

- النَّوَاصِبُ: الَّذِينَ نَصَبُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ، وَحَاوَلُوا إِخْفَاءَ مَنَاقِبِهِ.
- وَالرَّوَافِضُ: الَّذِينَ بَالَغُوا فِيمَا زَعَمُوهُ مِنْ حُبِّهِ، وَأَحْدَثُوا لَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ الَّتِي وَضَعُوهَا مَا هُوَ فِي غِنًى عَنْهُ؛ بَلْ هُوَ عِنْدَ التَّأَمُّلِ مِنَ الْمَثَالِبِ.

اشْتَهَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالشَّجَاعَةِ وَالذَّكَاءِ مَعَ الْعِلْمِ وَالزَّكَاءِ، حَتَّىٰ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَعَوَّذُ مِنْ مُعْضِلَةٍ لَيْسَ لَهَا أَبُو الْحَسَنِ، وَمِنْ أَمْثِلَةِ النَّحْوِيِّينَ: قَضِيَّةٌ وَلَا أَبَا حَسَنٍ لَهَا، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: سَلُونِي، سَلُونِي، وَسَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَوَاللهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أُنْزِلَتْ بِلَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِذَا جَاءَنَا الثَّبْتُ عَنْ عَلِيٍّ لَمْ نَعْدِلْ بِهِ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَخَذْتُ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.



كَانَ أَحَدَ أَهْلِ الشُّورَىٰ الَّذِينَ رَشَّحَهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِتَعْيِينِ الْخَلِيفَةِ، فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَأَبَى إِلَّا بِشُرُوطٍ لَمْ يَقْبَلْ بَعْضَهَا، ثُمَّ بَايَعَ عُثْمَانَ، فَبَايَعَهُ عَلِيٌّ وَالنَّاسُ، ثُمَّ بُويِعَ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ عُثْمَانَ حَتَّىٰ قُتِلَ شَهِيدًا فِي الْكُوفَةِ لَيْلَةَ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، سَنَةَ أَرْبَعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ).

عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو (أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَرَابَتِهِ)، وأمَّا أوَّل مَن آمن مِن الصَّحابة الرِّجال مُطلقًا فـ:

[١] **ورقة بن نوفلٍ:** هو أوَّل من آمن بنبوَّة النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، آمن قبل الرِّسالة، ومات قبلها، فإذا عرَّفنا الصَّحابيِّ بأنَّه من آمن بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولو قبل الرِّسالة، فإنَّه يكون صحابيًّا، وأسلم قبل أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولمَّا قصَّ عليه النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما حصل في الغار قال: «يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ». مُتَّفقٌ عليه.

[٢] **أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:** هو أوَّل من آمن برسالة النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أقرَّ له بذلك عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

كُنية عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

[١] **أبو الحسن:** لأنَّ أكبر أولاده هو الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

[٢] **أبو ترابٍ:** كنَّاه بها النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رآه وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: «قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ». مُتَّفقٌ عليه.

مَعنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى»:

موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهارون عَلَيْهِ السَّلَامُ: اخلُفني في قومي، واصبر، والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَرَجَ إِلَىٰ تَبُوكَ اسْتَخْلَفَ عَلِيًّا، فَقَالَ: أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟ قَالَ: «أَلَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ»، فهو من النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنزلة هارون من موسىٰ في هذه الخلافة المَخصوصة المَقصورة، وليس في الخلافة المُطلقة كما زعمت الرَّافضة.



بيان كذبِ الرَّوافض في زعمِهم حبَّ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَالرَّوَافِضُ الَّذِينَ بَالَغُوا فِيمَا زَعَمُوهُ مِنْ حُبِّهِ)؛ لأنَّ هذا الَّذي يُظهرونه، لكنَّ حقيقة الأمر أنَّهم يُخالفونه في أشياء؛ كإعلانه علىٰ المنبر أنَّ أبا بكرٍ وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا هما خير الأمَّة، وروايته المسح علىٰ الخفَّين عن النَّبيِّ ﷺ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَحْدَثُوا لَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ الَّتِي وَضَعُوهَا مَا هُوَ فِي غِنًىٰ عَنْهُ؛ بَلْ هُوَ عِنْدَ التَّأَمُّلِ مِنَ الْمَثَالِبِ)، ومن ذلك زعمُهم أنَّه كان يصلِّي بين المَغرب والعشاء ألف ركعةٍ! وهذا إن صحَّ فإنَّه من أكبر المثالب؛ إذ كيف يكون ركوعه وسجوده؟! وقال النبيُّ ﷺ للأعرابيِّ الَّذي لم يطمئنَّ في صلاته: «إِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». مُتَّفقٌ عليه.

قولُه رَحِمَهُ اللهُ: (يَتَعَوَّذُ مِنْ مُعْضِلَةٍ لَيْسَ لَهَا أَبُو الْحَسَنِ):

المُعضِلةُ هي المشكلة الَّتي تعضُلُ الإنسانَ وتقطع تفكيره، وقد كان عليٌّ مَعروفًا بالذَّكاء والعقل، فإذا كان أبو الحسن رَحِمَهُ اللهُ للمُعضلة فُرجت.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: ([٢] عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ غَافِلٍ الْهُذَلِيُّ، وَأُمُّهُ أُمُّ عَبْدٍ، كَانَ يُنْسَبُ إِلَيْهَا أَحْيَانًا، وَكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَهَاجَرَ الْهِجْرَتَيْنِ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْمَشَاهِدِ.

تَلَقَّىٰ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ: «إِنَّكَ لَغُلَامٌ مُعَلَّمٌ»، وَقَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَقَالَ: وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّىٰ بِكِتَابِ اللهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ.

وَكَانَ مِمَّنْ خَدَمَ النَّبِيَّ ﷺ، فَكَانَ صَاحِبَ نَعْلَيْهِ وَطَهُورِهِ وَوِسَادِهِ، حَتَّىٰ قَالَ أَبُو مُوسَىٰ



الْأَشْعَرِيُّ: قَدِمْتُ أَنَا وَأَخِي مِنَ الْيَمَنِ، فَمَكَثْنَا حِينًا مَا نَرَىٰ إِلَّا أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِمَا نَرَىٰ مِنْ دُخُولِهِ وَدُخُولِ أُمِّهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ أَجْلِ مُلَازَمَتِهِ النَّبِيَّ ﷺ تَأَثَّرَ بِهِ وَبِهَدْيِهِ، حَتَىٰ قَالَ فِيهِ حُذَيْفَةُ: مَا أَعْرِفُ أَحَدًا أَقْرَبَ هَدْيًا وَسَمْتًا وَدَلًّا بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ.

بَعَثَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَىٰ الْكُوفَةِ لِيُعَلِّمَهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، وَبَعَثَ عَمَّارًا أَمِيرًا، وَقَالَ: إِنَّهُمَا مِنَ النُّجَبَاءِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاقْتَدُوا بِهِمَا، ثُمَّ أَمَّرَهُ عُثْمَانُ عَلَىٰ الْكُوفَةِ، ثُمَّ عَزَلَهُ وَأَمَرَهُ بِالرُّجُوعِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَتُوُفِّيَ فِيهَا سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ، وَدُفِنَ بِالْبَقِيعِ وَهُوَ ابْنُ بِضْعٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً).

دفع شبهةٍ:

قال ابن مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ)، وقال: (وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ)، ولا شكَّ أنَّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يريد أن يزكِّي نفسه؛ لأنَّه أطهر من ذلك، لكنَّه أراد أن يحثَّ النَّاس علىٰ تلقِّي التَّفسير عنه؛ لأنَّ النَّاس إذا علموا أنَّه بهذه المَنزلة من العلم أكبُّوا عليه، وأخذوا منه، وهذا لا حرج فيه عليه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والله تعالىٰ أعلم بالنِّيَّات.

خدمتُه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للنَّبيِّ ﷺ:

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (كَانَ صَاحِبَ نَعْلَيْهِ) أي: يحمل النَّعلين إن استغنىٰ عنهما النَّبيُّ ﷺ، (وَطَهُورِهِ) أي: الماء الَّذي يتطهَّر به النَّبيُّ ﷺ، (وَوِسَادِهِ) أي: الوسادة الَّتي يتَّكئ عليها.



قُرب سَمتِه ودلِّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من النَّبيِّ ﷺ:

قال حذيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: (**مَا أَعْرِفُ أَحَدًا أَقْرَبَ هَدْيًا وَسَمْتًا وَدَلًّا بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**). أخرجه البخاريُّ.

ولهذا كان كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُشبه كلام النَّبيِّ ﷺ، حتَّىٰ لكأنَّه يخرج من مِشكاة النُّبوَّة، ومن ذلك قولُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَىٰ اللهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَىٰ بِهِنَّ...). أخرجه مسلمٌ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**[٣] عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وُلِدَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، لَازَمَ النَّبِيَّ ﷺ لِأَنَّهُ ابْنُ عَمِّهِ، وَخَالَتُهُ مَيْمُونَةُ تَحْتَ النَّبِيِّ ﷺ.**

وَضَمَّهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ صَدْرِهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «الْكِتَابِ»، وَقَالَ لَهُ حِينَ وَضَعَ لَهُ وَضُوءَهُ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»، فَكَانَ بِهَذَا الدُّعَاءِ الْمُبَارَكِ حَبْرَ الْأُمَّةِ فِي نَشْرِ التَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ، حَيْثُ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْحِرْصِ عَلَىٰ الْعِلْمِ، وَالْجِدِّ فِي طَلَبِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ تَلَقِّيهِ وَبَذْلِهِ، فَنَالَ بِذَلِكَ مَكَانًا عَالِيًا، حَتَّىٰ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَدْعُوهُ إِلَىٰ مَجَالِسِهِ، وَيَأْخُذُ بِقَوْلِهِ، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: أَلَا تَدْعُو أَبْنَاءَنَا كَمَا تَدْعُو ابْنَ عَبَّاسٍ؟! فَقَالَ لَهُمْ: ذَاكُمْ فَتَىٰ الْكُهُولِ، لَهُ لِسَانٌ سَؤُولٌ، وَقَلْبٌ عَقُولٌ، ثُمَّ دَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ لِيُرِيَهُمْ مِنْهُ مَا رَآهُ، فَقَالَ عُمَرُ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ حَتَّىٰ خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا فُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ، فَقَالَ عُمَرُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَكَذَلِكَ تَقُولُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قَالَ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النَّصر]، قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَنِعْمَ تُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ، لَوْ أَدْرَكَ أَسْنَانَنَا مَا عَاشَرَهُ مِنَّا أَحَدٌ، أَيْ: مَا كَانَ نَظِيرًا لَهُ، هَذَا مَعَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ عَاشَ بَعْدَهُ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَا ظَنُّكَ



بِمَا اكْتَسَبَ بَعْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ؟!

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ لِسَائِلٍ سَأَلَهُ عَنْ آيَةٍ: انْطَلِقْ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ فَاسْأَلْهُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ مَنْ بَقِيَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَالَ عَطَاءٌ: مَا رَأَيْتُ قَطُّ أَكْرَمَ مِنْ مَجْلِسِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِقْهًا، وَأَعْظَمَ خَشْيَةً، إِنَّ أَصْحَابَ الْفِقْهِ عِنْدَهُ، وَأَصْحَابَ الْقُرْآنِ عِنْدَهُ، وَأَصْحَابَ الشِّعْرِ عِنْدَهُ، يُصَدِّرُهُمْ كُلَّهُمْ مِنْ وَادٍ وَاسِعٍ.

وَقَالَ أَبُو وَائِلٍ: خَطَبَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَهُوَ عَلَىٰ الْمَوْسِمِ -أَيْ: وَالٍ عَلَىٰ مَوْسِمِ الْحَجِّ مِنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَافْتَتَحَ سُورَةَ النُّورِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيُفَسِّرُ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: مَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ كَلَامَ رَجُلٍ مِثْلِهِ، وَلَوْ سَمِعَتْهُ فَارِسُ وَالرُّومُ وَالتُّرْكُ لَأَسْلَمَتْ!

وَلَّاهُ عُثْمَانُ عَلَىٰ مَوْسِمِ الْحَجِّ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ، وَوَلَّاهُ عَلِيٌّ عَلَىٰ الْبَصْرَةِ، فَلَمَّا قُتِلَ مَضَىٰ إِلَىٰ الْحِجَازِ، فَأَقَامَ فِي مَكَّةَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا إِلَىٰ الطَّائِفِ فَمَاتَ فِيهَا سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ عَنْ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ سَنَةً).



سابعًا: الْمُشْتَهِرُونَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ التَّابِعِينَ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (اشْتَهَرَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ التَّابِعِينَ كَثِيرُونَ، فَمِنْهُمْ:

أ. أَهْلُ مَكَّةَ: وَهُمْ أَتْبَاعُ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ كَمُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ.

ب. أَهْلُ الْمَدِينَةِ: وَهُمْ أَتْبَاعُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ؛ كَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ.

ج. أَهْلُ الْكُوفَةِ: وَهُمْ أَتْبَاعُ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ كَقَتَادَةَ، وَعَلْقَمَةَ، وَالشَّعْبِيِّ.

فَلْنُتَرْجِمْ لِحَيَاةِ اثْنَيْنِ مِنْ هَؤُلَاءِ: مُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ.

١. مُجَاهِدٌ: هُوَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرٍ الْمَكِّيُّ، مَوْلَى السَّائِبِ بْنِ أَبِي السَّائِبِ الْمَخْزُومِيِّ، وُلِدَ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَأَخَذَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ، وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا، وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ، وَاعْتَمَدَ تَفْسِيرَهُ الشَّافِعِيُّ، وَالْبُخَارِيُّ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَنْقُلُ عَنْهُ فِي «صَحِيحِهِ»، وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي آخِرِ تَرْجَمَتِهِ: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى إِمَامَةِ مُجَاهِدٍ وَالِاحْتِجَاجِ بِهِ، تُوُفِّيَ فِي مَكَّةَ وَهُوَ سَاجِدٌ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَمِائَةٍ عَنْ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً.

٢. قَتَادَةُ: هُوَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ السَّدُوسِيُّ الْبَصْرِيُّ، وُلِدَ أَكْمَهَ -أَيْ: أَعْمَى- سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّينَ، وَجَدَّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَكَانَ لَهُ حَافِظَةٌ قَوِيَّةٌ، حَتَّى قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: مَا قُلْتُ لِمُحَدِّثٍ قَطُّ أَعِدْ لِي، وَمَا سَمِعَتْ أُذُنَايَ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا وَعَاهُ قَلْبِي، وَذَكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فَأَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ، فَجَعَلَ يَنْشُرُ مِنْ عِلْمِهِ وَفِقْهِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِالِاخْتِلَافِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَوَصَفَهُ بِالْحِفْظِ وَالْفِقْهِ، وَقَالَ: قَلَّمَا تَجِدُ مَنْ يَتَقَدَّمُهُ، أَمَّا الْمِثْلُ فَلَعَلَّ، وَقَالَ: هُوَ أَحْفَظُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا إِلَّا حَفِظَهُ، وَتُوُفِّيَ فِي وَاسِطٍ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ عَنْ سِتَّةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً.



قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَلَّمَا تَجِدُ مَنْ يَتَقَدَّمُهُ)، يعني: لم يكن شخصٌ أعظم منه، (أَمَّا الْمِثْلُ فَلَعَلَّ) ولم يجزم بأن يكون له مثيلٌ.

وقد رُمي قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتَّدليس، لكنَّهم يقولون: إنَّ روايته عن أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بلفظ (عن) مُتَّصلةٌ، ولهذا يروي عنه البخاريُّ ومسلمٌ بهذه الصِّيغة عن أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

المُشتَهِرونَ بالتَّفسيرِ مِن التَّابعينَ:

[١] مدرسةُ التَّفسيرِ بمكَّةَ

(ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا):

[أ] سعيدُ بن جُبيرٍ.

[ب] مُجاهد بن جبرٍ.

[ج] عِكرمة بن عبد الله مَولى ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

[د] طاوس بنُ كيسانَ.

[هـ] عطاء بن أبي رباحٍ.

[٢] مدرسةُ التَّفسيرِ بالمدينةِ

(أُبيِّ بن كعبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ):

[أ] أبو العالية رُفيعُ بن مِهرانَ الرِّياحيُّ.

[ب] محمَّد بن كعبٍ القرظيُّ.

[ج] زيدُ بن أسلَمَ.

[٣] مدرسةُ التَّفسيرِ بالعراقِ

(ابن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ):

[أ] علقمة بن قيسٍ.

[ب] مَسروقُ بن الأجدَعِ.

[ج] الأسود بن يزيد.

[د] مُرَّةُ الهمدانيُّ.

[هـ] عامرٌ الشَّعبيُّ.

[و] الحسن البصريُّ.

[ز] قتادةُ بن دِعامةَ.



الاخْتِبَارُ الثَّاني:

[١] اختر الإجابة الصَّحيحة:

- تعلُّم التَّفسير: ❍ واجبٌ. ❍ مستحبٌّ. ❍ جائزٌ.
- أكثرُ مَن رُوي عنه التَّفسير مِن هؤلاء: ❍ أبو بكر. ❍ عمر. ❍ ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.
- أقوالُ التَّابعين في التَّفسير: ❍ حجَّةٌ. ❍ ليست حجَّةً. ❍ حجَّةٌ علىٰ مَن بعدهم.
- السَّلفُ هم: ❍ الصَّحابةُ. ❍ التَّابعون. ❍ أهلُ القرون الثَّلاثة المُفضَّلةِ.
- مِن أشهر مَن عُنِيَ بتفسير القرآن بالقرآن: ❍ الثَّعلبيُّ. ❍ ابنُ كثير. ❍ الألوسيُّ.
- تفسيرُ آيات الأحكام والاستنباطُ منها يُسمَّىٰ:

  ❍ التَّفسيرَ بالمأثور. ❍ التَّفسير الفقهيَّ. ❍ التَّفسيرَ العلميَّ.
- صاحبُ «الدُّرِّ المَنثور في التَّفسير بالمَأثور» هو:

  ❍ ابنُ الجوزيِّ. ❍ النَّوويُّ. ❍ ابنُ العربيِّ. ❍ السُّيوطيُّ.
- اشتهر ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمعرفة: ❍ النَّاسخ والمَنسوخ. ❍ أسباب النُّزولِ. ❍ لغاتِ العرب.
- صاحبُ «البحر المُحيطِ» هو: ❍ أبو حيَّانَ الأندلسيُّ. ❍ البيضاويُّ. ❍ النَّسفيُّ.
- قامت المرحلة الأولىٰ من مراحل التَّفسير علىٰ:

  ❍ الرِّوايةِ والحفظ. ❍ اختِصارِ الأسانيدِ. ❍ الكتابةِ.
- سمَّىٰ الشَّوكانيُّ تفسيرَه: ❍ «روحَ المَعاني». ❍ «الكشَّافَ». ❍ «فتحَ القدير».
- الأقوالُ المتعارضةُ في التَّفسير تُسمَّىٰ اختلافَ: ❍ تنوُّعٍ. ❍ تضادٍّ. ❍ الجميع.
- عند تعارض أقوال المُفسِّرين نلجأ إلىٰ: ❍ الجمع بين الأقوالِ. ❍ التَّرجيح. ❍ التَّوقُّفِ.
- اعتنىٰ ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ في تفسيره بـ:

  ❍ المَأثورِ. ❍ المَأثورِ والنَّقد والتَّرجيح بين الأقوال. ❍ الأحكام الفقهيَّة.
- توسيعُ دلالة بعضِ الآيات بما ثبت في الحقائق العلميَّة يُسمَّىٰ بالتَّفسيرِ:

  ❍ العقليِّ. ❍ البيانيِّ. ❍ العلميِّ.
- أقلُّ المَذاهب تأليفًا في التَّفسير الفقهيِّ: ❍ المالكيَّةُ. ❍ الحَنابلةُ. ❍ الشَّافعيَّةُ.



- الَّذي جمع «أحكام القرآن» للشَّافعيِّ هو: ❍ العراقيُّ. ❍ البيهقيُّ. ❍ ابنُ حجر.
- ظهرت بوادرُ التَّفسير العقليِّ في: ❍ عصر السَّلف. ❍ عصر المُعتزلةِ. ❍ العصر الحديثِ.
- كُتب معاني القرآن الكريم مِن مَصادرِ التَّفسير: ❍ العلميِّ. ❍ البيانيِّ. ❍ اللُّغويِّ.
- اختصر البغويُّ تفسيره مِن تفسير: ❍ ابن جرير. ❍ ابن كثير. ❍ الثَّعلبيِّ.
- غلبت النَّاحية البلاغيَّة علىٰ تفسير: ❍ الزَّمخشريِّ. ❍ الواحديِّ. ❍ ابن جُزيٍّ.
- نصر الزَّمخشريُّ في تفسيره مذهب: ❍ الأشاعرةِ. ❍ المُعتزلةِ. ❍ أهل السُّنَّة.
- ممَّن اعتنىٰ بالتَّرجيح بين الأقوال: ❍ ابنُ الجوزيِّ. ❍ ابنُ عطيَّة. ❍ الماورديُّ.
- اشتملت «مقدِّمةٌ في أصول التَّفسير» لابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ علىٰ:

❍ تفسيرِ بعض سور القرآن. ❍ نقدِ بعض كتب التَّفسير. ❍ شرحِ بعض الاحاديث.

- جمع البيهقيُّ «أحكام القرآن» لـ: ❍ الشَّافعيِّ. ❍ ابن عطيَّة. ❍ أبي حنيفة.
- تقديمُ العقل عند المُنازعة بينه وبين ظاهر الآيات يُسمَّىٰ التَّفسيرَ:

❍ بالظَّاهرِ. ❍ العلميَّ. ❍ العقليَّ. ❍ الإشاريَّ.

- من الأُسسِ الَّتي بُني عليها منهج المدرسة العقليَّة في التَّفسير الوِحدةُ المَوضوعيَّةُ في:

❍ السُّورةِ القرآنيَّة. ❍ القرآنِ الكريم. ❍ الجميع.

- مِن مَصادرِ التَّفسير اللُّغويِّ كتب: ❍ غريب القرآن. ❍ أحكام القرآنِ. ❍ التَّفسير العلميِّ.
- ممَّن شنَّع علىٰ أهل السُّنَّةِ في تفسيره:

❍ ابنُ جُزيٍّ. ❍ ابنُ جرير. ❍ الزَّمخشريُّ. ❍ السُّيوطيُّ.

- ذكرَ القُرطبيُّ في تفسيره «الجامعِ لأحكام القرآن»: ❍ تفيسرَ آيات الأحكام فقط.

❍ تفسيرَ القرآنِ كلِّه مع مَزيدِ عِنايةٍ بآيات الأحكام. ❍ الفقهَ علىٰ مذهب الحنفيَّةِ.

- احتوىٰ كتابُ «القواعدِ الحِسان» للسِّعديِّ علىٰ (❍ ٤٠ ❍ ٦٠ ❍ ٥٠ ❍ ٧١) قاعدةً.
- اشتمل كتابُ «التَّفسيرُ والمُفسِّرون» علىٰ:

❍ تفسيرِ القرآن كلِّه. ❍ تفسيرِ بعض سور القرآن. ❍ التَّفسيرِ العلميِّ. ❍ نشأةِ التَّفسير، وتطوُّرِه ومَناهجِ المُفسِّرين، وألوانِ التَّفسير.

- لم يثبُت وُقوعُ التَّأليفِ والجَمع في علم التَّفسير إلَّا بعد:

❍ زمنِ الصَّحابةِ. ❍ زمنِ التَّابعين. ❍ القرنِ الخامس. ❍ القرنِ السَّادس.

- ألَّف ابنُ عطيَّة تفسيرًا سُمِّيَ بـ:



❍ «البحرِ المُحيطِ». ❍ «السِّراجِ المُنيرِ». ❍ «المِصباحِ المُنيرِ». ❍ «المحرَّرِ الوَجيزِ».

❁ مِن أسباب اختلافِ التَّنوُّع:

❍ الاختلافُ في اللَّفظ مع الاتِّفاق في المعنىٰ. ❍ ذِكرُ بعض أفراد العامِّ علىٰ سبيل المثال.

❍ أن يكونَ اللَّفظُ مُحتملًا لأكثر من مَعنًى. ❍ جميعُ ما ذُكِر.

❁ من أسباب اختلافِ التَّضادِّ: ❍ الاختلافُ في المعنىٰ اللُّغـويِّ. ❍ الاختـلافُ بسـبب المَذهب العقديِّ. ❍ الاختلافُ بسبب المذهب الفقهيِّ. ❍ جميعُ ما ذُكِر.

❁ الاختلافُ في تفسير السَّبع المَثاني لأجل:

❍ الاختلافِ في الرِّوايةِ عن الرَّسول ﷺ. ❍ الاختلافِ في عَود الضَّمير.

❍ الاختلافِ في المُطلقِ والمُقيَّد. ❍ الاختلافِ في العامِّ والخاصِّ.

❁ مُصطلحُ تفسير القرآن بالقرآن:

❍ يلزم منه القطعُ بصحَّة ذلك التَّفسير. ❍ لا يلزم منه القطعُ. ❍ يلزمُ منه التَّوقُّفُ.

❁ اعتنىٰ ابنُ كثيرٍ في تفسيره بـ:

❍ الإعراب. ❍ تفسير القرآن بالقرآن. ❍ البلاغةِ. ❍ الأوَّلِ والثَّالثِ.

❁ مُصطلحُ السُّنَّة النَّبويَّة: ❍ أعمُّ من التَّفسير النَّبـويِّ. ❍ أخـصُّ مـن التَّفسـير النَّبـويِّ.

❍ ليس بينهما فرقٌ. ❍ لا شيء ممَّا ذُكِرَ.

❁ التَّفسيرُ المَنقولُ عن الصَّحابة له حُكمُ:

❍ المَرفوعِ. ❍ المَوقوفِ. ❍ المَقطوعِ. ❍ يختلفُ؛ لأنَّ له أنواعًا مُختلفةً.

❁ اذا اختلف الصَّحابةُ في التَّفسير فأقوالُهم:

❍ ليست بحجَّةٍ. ❍ حُجَّةٌ. ❍ يُرجَّح بينَها. ❍ لا شيء ممَّا ذُكِرَ.

❁ علقمة بن قيسٍ النَّخعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ من تلاميذِ مدرسة التَّفسير في:

❍ الكوفةِ. ❍ المدينةِ. ❍ مكَّةَ.

❁ مُجاهد بن جَبْر رَحِمَهُ اللَّهُ من تلاميذ مدرسة التَّفسير في: ❍ الكوفةِ. ❍ المدينةِ. ❍ مكَّةَ.

❁ أغلب الاختلاف بين الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم في التَّفسير من باب اختلافِ: ❍ التَّنوُّع. ❍ التَّضادِّ.

❁ سلك الشَّيخُ عبد الرَّحمن ابنُ سعديٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره أسلوب التَّفسير:

❍ التَّحليليِّ. ❍ الإجماليِّ. ❍ المَوضوعيِّ.

❁ معنىٰ كلمةِ «التَّفسير» في اللُّغة: ❍ الرُّجوعُ. ❍ الإبانةُ والكشفُ. ❍ أساسُ الشَّيء.



- كتابُ «أحكامِ القرآن» لأبي بكر ابن العربيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن المُؤلَّفات علىٰ المذهب:

  ○ الشَّافعيِّ. ○ الحنفيِّ. ○ الحنبليِّ. ○ المالكيِّ.

- يتميَّزُ تفسير «زاد المَسير» لابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بـ: ○ ذِكر الرِّوايات بأسانيدها.

  ○ جَمْع أقوالِ المُفسِّرين وترتيبها. ○ التَّوسُّع في الإعراب والمَسائل النَّحويَّة.

- مُؤلِّفُ تفسير «الدُّرِّ المَنثور» هو: ○ الطَّبريُّ. ○ البيضاويُّ. ○ السُّيوطيُّ. ○ البغويُّ.

- اسمُ المُفسِّرِ ابنِ عطيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو: ○ إسماعيلُ بن عمر. ○ عبدُ الحقِّ بن غالبٍ.

  ○ الحُسين بن مسعودٍ. ○ محمَّدُ بنُ جرير.

- توفِّي الإمامُ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة:

  ○ ٩١١هـ. ○ ٧٧٤هـ. ○ ٥١٦هـ. ○ ٣١٠هـ.

- تفسيرُ البغويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُختصرٌ من تفسير:

  ○ الطَّبريِّ. ○ ابن كثير. ○ ابن عطيَّةَ. ○ الثَّعلبيِّ.

- مِن التَّفاسيرِ الَّتي سلكت التِّجاهَ الجتِماعيَّ في التَّفسيرِ:

  ○ تفسيرُ الزَّمخشريِّ. ○ تفسيرُ الرَّازيِّ. ○ تفسيرُ المَنارِ.



القُرْآنُ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ

أوَّلاً: وَصفُ القُرْآنِ بِالإِحْكَامِ وَالتَّشَابُهِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (يَتَنَوَّعُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِاعْتِبَارِ الْإِحْكَامِ وَالتَّشَابُهِ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: الْإِحْكَامُ الْعَامُّ الَّذِي وُصِفَ بِهِ الْقُرْآنُ كُلُّهُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود]، وَقَوْلِهِ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزُّخرف].

وَمَعْنَىٰ هَذَا الْإِحْكَامِ: الْإِتْقَانُ وَالْجَوْدَةُ فِي أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، فَهُوَ فِي غَايَةِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، أَخْبَارُهُ كُلُّهَا صِدْقٌ نَافِعَةٌ، لَيْسَ فِيهَا كَذِبٌ، وَلَا تَنَاقُضٌ، وَلَا لَغْوٌ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَأَحْكَامُهُ كُلُّهَا عَدْلٌ، وَحِكَمُهُ لَيْسَ فِيهَا جَوْرٌ، وَلَا تَعَارُضٌ، وَلَا حُكْمٌ سَفِيهٌ.

النَّوْعُ الثَّانِي: التَّشَابُهُ الْعَامُّ الَّذِي وُصِفَ بِهِ الْقُرْآنُ كُلُّهُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر:٢٣].

وَمَعْنَىٰ هَذَا التَّشَابُهِ: أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْكَمَالِ، وَالْجَوْدَةِ، وَالْغَايَاتِ الْحَمِيدَةِ، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ٨٢﴾ [النِّساء].

النَّوْعُ الثَّالِثُ: الْإِحْكَامُ الْخَاصُّ بِبَعْضِهِ، وَالتَّشَابُهُ الْخَاصُّ بِبَعْضِهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران].

وَمَعْنَىٰ هَذَا الْإِحْكَامِ: أَنْ يَكُونَ مَعْنَىٰ الْآيَةِ وَاضِحًا جَلِيًّا، لَا خَفَاءَ فِيهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[الحجرات:١٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة] وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾[البقرة: ٢٧٥] وَقَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[المائدة:٣]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَمَعْنَىٰ هَذَا التَّشَابُهِ: أَنْ يَكُونَ مَعْنَىٰ الْآيَةِ مُشْتَبِهًا خَفِيًّا، بِحَيْثُ يَتَوَهَّمُ مِنْهُ الْوَاهِمُ مَا لَا يَلِيقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ، أَوْ كِتَابِهِ، أَوْ رَسُولِهِ، وَيَفْهَمُ مِنْهُ الْعَالِمُ الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ خِلَافَ ذَلِكَ).

وُصف القرآن بأنَّه:

[١] مُحكَمٌ كلُّه: أي: مُتقَنٌ جيِّدٌ في ألفاظه ومَعانيه.

[٢] مُتشابهٌ كلُّه: يُشبه بعضُه بعضًا في: الكمال، والجودة، والإحكام، والأحكام، والأخبار، وغيرها.

[٣] منه الـمُحكَم ومنه الـمُتشابه: فالمُحكم منه هو الواضح الجليُّ الَّذي لا خفاء فيه، والمُتشابه منه هو الخفيُّ الَّذي يفهم حقيقتَه الرَّاسخ في العلم، ويتوهَّم المُتوهِّم منه غير مُراد الله عَزَّوَجَلَّ.

من أدلَّة الإحكام العامِّ للقرآن:

[١] قال تعالىٰ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾[يونس]، وهذا واضحٌ أنَّه عامٌّ لكلِّ القرآن.

[٢] قال تعالىٰ: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: أُتقنت، وقيل: أُجملت؛ بدليل قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، ولا تنافي بينهما، ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾[هود] هو الله عَزَّوَجَلَّ: ذو الحكمة، الخبير ببواطن الأمور وظواهرها.

[٣] قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الزُّخرف]، فالقرآن كلُّه حكيمٌ بمعنىٰ مُحكَمٍ، وبمعنىٰ حاكمٍ؛ لأنَّه أداة الحُكم.



القرآنُ كلُّه مُحكمٌ مُتقَنٌ جيِّدٌ، فهل يتفاضل؟

[١] **من حيثُ الـمُتكلِّمُ به:** لا يتفاضل؛ لأنَّ المُتكلِّم به واحدٌ.

[٢] **من حيثُ الأسلوبُ والـمَعنى:** يتفاضل؛ ولذلك أدلَّةٌ منها قوله ﷺ لأُبيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؛ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**»، قال: آية الكرسيِّ، فضرب علىٰ صدره وقال: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**». أخرجه مسلمٌ.

دليلُ التَّشابُه العامِّ للقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾، ولم يقل: بعضُه مُتشابهٌ، ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ بدلٌ من ﴿أَحۡسَنَ﴾، ﴿مَّثَانِيَ﴾ تُثنَّىٰ فيه المَعاني والأحكامُ والأوصافُ، ولهذا تجد الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه العزيز إذا ذكر ثواب المؤمنين ذكر ثواب المُجرمين؛ كما ذكر كتاب الفجَّار وكتاب الأبرار في سورة المُطفِّفين، وأيضًا مثاني بالنِّسبة لصفات الخلق؛ كقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾[التَّغابن:٢].

﴿مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ﴾ خوفًا وتعظيمًا ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[الزُّمر:٢٣].

دليلُ الإحكام والتَّشابُه الوجهيَّين للقرآن:

قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ﴾ للتَّبعيض، قسَّم الله القرآن إلىٰ قسمين: ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هذا القسم الأوَّل، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ وهذا القسم الثَّاني، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾، يعني: يتَّبعون المُتشابه ويحصرونه، ويوردونه علىٰ النَّاس ليُلبِّسوا عليهم دينَهم، ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾[آل عمران].

واختلف السَّلف هل الوقف عند ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ أم يوصل؟



اختلف السَّلفُ في الوقف في ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾:

[١] **الوقفُ على ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾:**

وهو قول أكثر السَّلف، فيكون ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ مُبتدأً وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبرَه.

والتَّأويلُ عندهم بمعنىٰ علم حقائق هذه المُشتبِهات، ومآلِها في المُستقبل، وهذا لا يعلمُه إلَّا اللهُ.

[٢] **الوصلُ:**

وهو قول بعض السَّلف، فتكون جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حالًا من الرَّاسخين في العلم في موضع نصبٍ.

والتَّأويل عندهم بمعنىٰ التَّفسير، فإنَّ الرَّاسخين في العلم يعلمونه؛ كما قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ».

وبناءً علىٰ هذا فإنَّنا في القراءة: إذا جعلنا التَّأويل بمعنىٰ التَّفسير فالوصل أولىٰ، وإذا جعلناه بمعنىٰ ما يؤول إليه الشَّيء فالفصل أولىٰ.

الحكمة من وجود التَّشابه الخاصِّ في القرآن:

الحكمة من ذلك هي الامتحان والابتلاء؛ ليعلم الله عَزَّ وَجَلَّ مَن في قلبه زيغٌ، ومن ليس في قلبه زيغٌ؛ لأنَّ من في قلبه زيغٌ يتَّبع المُتشابه ليضرب كلام الله بعضَه ببعضٍ، وأمَّا الَّذي أعطاه الله الرُّسوخ في العلم فإنَّه يعرف حقيقة المُتشابه.

هل للحروف الهجائيَّة مَعنًى في ذاتِها؟

ليس لها مَعنًىٰ في ذاتها؛ لأنَّ القرآن بلسانٍ عربيٍّ، والعرب لا يرون للحروف مَعنًىٰ في ذاتها، لكنَّ لها مَغزًىٰ، وهو أنَّ هذا القرآن الَّذي أعجز العرب لم يأت بجديدٍ عليهم؛ بل أتىٰ ممَّا يُركِّبون منه كلامهم وهي الحروف، ومع هذا عجزوا أن يأتوا بمثله.



قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِثالُهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللهِ تَعالَىٰ: أَنْ يَتَوَهَّمَ وَاهِمٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤] أَنَّ للهِ يَدَيْنِ مُمَاثِلَتَيْنِ لِأَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ.

وَمِثَالُهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ: أَنْ يَتَوَهَّمَ وَاهِمٌ تَنَاقُضَ الْقُرْآنِ وَتَكْذِيبَ بَعْضِهِ بَعْضًا حِينَ يَقُولُ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾[النِّساء: ٧٩] وَيَقُولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾[النِّساء].

وَمِثَالُهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِرَسُولِ اللهِ: أَنْ يَتَوَهَّمَ وَاهِمٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾[يونس]، ظَاهِرُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ شَاكًّا فِيمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ).

ضربَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أمثلةً للمُتشابه الخاصِّ:

[١] فيما يتعلَّق بالله:
قال تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، قد يتوهَّم منها الواهم فيقول: إنَّ الله خاطبنا بما نعلم، ونحن لا نعلم يدًا إلَّا مثل أيدي المَخلوقين، وهذا يقتضي أن تكون يده عَزَّوَجَلَّ كأيدي المَخلوقين!

[٢] فيما يتعلق بالقرآن:
قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النِّساء:٧٩]، وقال عن الحسنة والسَّيِّئة: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[النِّساء:٧٨]، قد يتوهَّم منها الواهم التَّناقض، وليس فيها تناقضٌ كما سيأتي.

[٣] فيما يتعلَّق بالنَّبيِّ ﷺ:
قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤]، قد يتوهَّم الواهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان شاكًّا، والنَّبيُّ ﷺ لم يشكَّ، وقد شهد له الله عَزَّوَجَلَّ بالإيمان: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾[البقرة:٢٨٥].

وقد ألَّف الشَّيخ محمَّدٌ الأمين الشِّنقيطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ كتابًا سمَّاه: «**دفع إيهام الاضطراب في آيات الكتاب**».



ثانيًا: مَوْقِفُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ وَالزَّائِغِينَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (إِنَّ مَوْقِفَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَمَوْقِفَ الزَّائِغِينَ مِنْهُ بَيَّنَهُ اللهُ تَعَالَى، فَقَالَ فِي الزَّائِغِينَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، وَقَالَ فِي الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فَالزَّائِغُونَ يَتَّخِذُونَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ وَسِيلَةً لِلطَّعْنِ فِي كِتَابِ اللهِ، وَفِتْنَةِ النَّاسِ عَنْهُ، وَتَأْوِيلِهِ لِغَيْرِ مَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بِهِ، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ، وَأَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، فَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى فَهُوَ حَقٌّ، وَلَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَاقُضٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّساء].

وَمَا جَاءَ مُشْتَبِهًا رَدُّوهُ إِلَى الْمُحْكَمِ؛ لِيَكُونَ الْجَمِيعُ مُحْكَمًا.

وَيَقُولُونَ فِي الْمِثَالِ الْأَوَّلِ: إِنَّ للهِ تَعَالَى يَدَيْنِ حَقِيقِيَّتَيْنِ، عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لَا تُمَاثِلَانِ أَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ، كَمَا أَنَّ لَهُ ذَاتًا لَا تُمَاثِلُ ذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورى]).

الخلافُ في ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾:

[١] قولُ المُمثِّلة: لله عَزَّوَجَلَّ يدان مُماثلتان لأيدي المَخلوقين، وعلَّتهم في ذلك أنَّ الله خاطبنا بما نعلم، ونحن لا نعلم إلَّا ما نشاهد.

[٢] قولُ المؤوِّلة: اليد بمَعنىٰ: النِّعمة، أو القدرة؛ لأنَّ ظاهر الآية التَّمثيل، ولهذا يجب صرفُها عن ظاهرها إلىٰ أمرٍ مَعنويٍّ.

[٣] قولُ أهل السُّنَّة: نثبت لله عَزَّوَجَلَّ يدين حقيقيَّتين؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أثبتهما، لكنَّهما لا تماثلان أيدي المَخلوقين.



دليل أهل السُّنَّة في إثبات يدين حقيقيَّتين:

[١] **نقليٌّ:** وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشُّورىٰ].

[٢] **عقليٌّ:** إذا كان لله عَزَّوَجَلَّ ذاتٌ لا تشبه ذوات المَخلوقين؛ فليكن له صفاتٌ لا تشبه صفات المَخلوقين؛ لأنَّ الصِّفات تابعةٌ للذَّات، واليد المُضافة مثلًا إلىٰ الجمل ليست كالمُضافة إلىٰ الأرنب، فصفات كلِّ شيءٍ تناسبُه.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَيَقُولُونَ فِي الْمِثَالِ الثَّانِي: إِنَّ الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ كِلْتَاهُمَا بِتَقْدِيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنَّ الْحَسَنَةَ سَبَبُهَا التَّفَضُّلُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، أَمَّا السَّيِّئَةُ فَسَبَبُهَا فِعْلُ الْعَبْدِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشُّورىٰ]، فَإِضَافَةُ السَّيِّئَةِ إِلَىٰ الْعَبْدِ مِنْ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَىٰ سَبَبِهِ، لَا مِنْ إِضَافَتِهِ إِلَىٰ مُقَدِّرِهِ، أَمَّا إِضَافَةُ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فَمِنْ بَابِ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَىٰ مُقَدِّرِهِ، وَبِهَذَا يَزُولُ مَا يُوهِمُ الِاخْتِلَافَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ، لِانْفِكَاكِ الْجِهَةِ**).

السَّيِّئة تُضاف إلى:

[١] **الإنسان:** من باب إضافة الشَّيء إلىٰ سببه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النِّساء:٧٩].

[٢] **الله** عَزَّوَجَلَّ: من باب إضافة الشَّيء إلىٰ مُقدِّره، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النِّساء:٧٨].

وبينهما فرقٌ، وإذا انفكَّت الجهة زال التَّعارض، لكنَّ أهل الباطل يجعلون من هذا وسيلةً إلىٰ الطَّعن في القرآن، فهؤلاء لا يُفتح عليهم، ولا يُوفَّقون للجمع بين ما يُتوهَّم منه التَّعارض، وأمَّا الَّذي يحاول الجمع فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يوفِّقه إليه.

وتوهُّم التَّناقض يقع كثيرًا من الطُّلَّاب، ولو أعمل الواحد منهم ذهنه وتأمَّل في الدَّليلين زال التَّعارض المُتوهَّم وعرف أنَّه لا تناقض بينهما.



أمثلةٌ أخرى لما يُتوهَّم منه التَّناقض:

[١] قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾﴾[النِّساء]، فبيَّن أنَّ الكافرين لا يكتمون الله شيئًا يوم القيامة، وقال: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأنعام]، وفيها أنَّهم يكتمون الله، وقد يتوهَّم الواهم منهما التَّناقض، لكنَّ الرَّاسخين يعلمون أنَّ يوم القيامة خمسون ألف سنةٍ، وهذه المُدَّة تتغيَّر فيها الأحوال، فقد يكتمون مرَّةً ولا يكتمون أخرىٰ.

[٢] قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم﴾[آل عمران:١٠٦]، وقال: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾﴾[طه]، فقد يتوهَّم الواهم منهما التَّناقض، والرَّاسخون في العلم يقولون كما في المثال الأوَّل: إنَّ يوم القيامة يومٌ طويلٌ جدًّا، وقد تتغيَّر فيه الأحوال، فتكون وجوههم تارةً سودًا وتارةً زرقًا، أو يقولون: إنَّ الأزرق شديد الزُّرقة يميل إلىٰ السَّواد، فيصحُّ أن يوصف بالسَّواد علىٰ هذا الاعتبار.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَيَقُولُونَ فِي الْمِثَالِ الثَّالِثِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ شَكٌّ فِيمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، بَلْ هُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهِ، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي نَفْسِ السُّورَةِ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[يونس:١٠٤]، الْمَعْنَىٰ: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ فَأَنَا عَلَىٰ يَقِينٍ مِنْهُ، وَلِهَذَا لَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ؛ بَلْ أَكْفُرُ بِهِمْ، وَأَعْبُدُ اللهَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أَنْ يَكُونَ الشَّكُّ جَائِزًا عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ وَاقِعًا مِنْهُ، أَلَا تَرَىٰ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[الزُّخرف]، هَلْ يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ الْوَلَدُ جَائِزًا عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ أَوْ حَاصِلًا؟! كَلَّا، فَهَذَا لَمْ يَكُنْ حَاصِلًا وَلَا جَائِزًا عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾[مريم].

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أَنْ يَكُونَ الِامْتِرَاءُ وَاقِعًا مِنَ



الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّ النَّهْيَ عَنِ الشَّيْءِ قَدْ يُوَجَّهُ إِلَىٰ مَنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ، أَلَا تَرَىٰ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص]؟ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَمْ يَصُدُّوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ آيَاتِ اللهِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ شِرْكٌ، وَالْغَرَضُ مِنْ تَوْجِيهِ النَّهْيِ إِلَىٰ مَنْ لَا يَقَعُ مِنْهُ التَّنْدِيدُ بِمَنْ وَقَعَ مِنْهُ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ مَنَاهِجِهِمْ، وَبِهَذَا يَزُولُ الِاشْتِبَاهُ، وَظَنُّ مَا لَا يَلِيقُ بِالرَّسُولِ ﷺ).

الدَّليل على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يشكَّ فيما أُنزل إليه:

[١] قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا أيُّها الرَّسول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾، والمَعنىٰ: إن كنتم في شكٍّ فأنا علىٰ يقينٍ، ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ﴾ [يونس:١٠٤].

[٢] أنَّ هناك فرقًا بين (إن) و(إذا) الشَّرطيَّتين، فـ(إذا) تفيد الوقوع، و(إن) لا تفيده، بل قد تأتي في أمحل المُحال، ومن ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزُّخرف]، ولا يلزم منها أنَّ الله يتَّخذ ولدًا؛ لأنَّه مُحالٌ في حقِّه عَزَّوَجَلَّ، وإنَّما معناها: إن فُرض أنَّ له ولدًا فأنا أوَّل العابدين لهذا الولد.

وقيل: ﴿إِن﴾ في الآية نافيةٌ، فيكون مَعناها: قل ما كان للرَّحمن ولدٌ، وعلىٰ هذا يلزم تأويل ﴿ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ علىٰ مَعنىٰ المؤمنين ليستقيم السِّياق، فتكون العبادة مُطلَقةً علىٰ الإيمان بجامع الذُّلِّ في كلٍّ منهما.

لكنَّ هذا التَّفسير يُنافي الظَّاهر من الآية مُنافاةً تامَّةً، والأوَّل أولىٰ.

وهذه الآية من أعوص الإيرادات في آيات القرآن الكريم.



هل يلزم من ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ وقوعُ الامتراء منه ﷺ أو جوازُه؟

لا يلزم وقوعُه منه ﷺ، وذلك لأنَّ النَّهي عن الشَّيء قد يُوجَّه إلىٰ من لم يقع منه: كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٨٧﴾[القصص]، ومَعلومٌ أنَّهم لم يصُدُّوا النَّبيَّ ﷺ عن آيات الله، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقع منه شيءٌ.

وكذلك فإنَّ النَّهي عن الشَّيء لا يلزم منه جواز وقوعه، فالنَّبيُّ ﷺ مُثبَّتٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يجوز أن يقع منه صدودٌ عن آيات الله، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ۝٧٥﴾[الإسراء].

ثمَّ إنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٨٧﴾ لا يلزم منه وقوع الشِّرك منه ﷺ، ولا جوازُ وقوعه.

الحِكمةُ من توجيه النَّهي إلى من لا يمكن أن يقع منه الـمَنهيِّ عنه:

الحكمة من ذلك التَّنديد بمن وقع منهم، والتَّحذير من مَناهجهم، علىٰ حدِّ قول القائل: (إيَّاكِ أعني، واسمعي يا جارة).



ثالثًا: أَنْوَاعُ التَّشَابُهِ فِي الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (التَّشَابُهُ الْوَاقِعُ فِي الْقُرْآنِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: حَقِيقِيٌّ، وَهُوَ: مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَهُ الْبَشَرُ؛ كَحَقَائِقِ صِفَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّنَا وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ مَعَانِيَ هَذِهِ الصِّفَاتِ، لَكِنَّنَا لَا نُدْرِكُ حَقَائِقَهَا وَكَيْفِيَّتَهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]، وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه] كَيْفَ اسْتَوَىٰ؟ قَالَ: الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَهَذَا النَّوْعُ لَا يُسْأَلُ عَنِ اسْتِكْشَافِهِ؛ لِتَعَذُّرِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: نِسْبِيٌّ، وَهُوَ: مَا يَكُونُ مُشْتَبِهًا عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، فَيَكُونُ مَعْلُومًا لِلرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَهَذَا النَّوْعُ يُسْأَلُ عَنِ اسْتِكْشَافِهِ وَبَيَانِهِ؛ لِإِمْكَانِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، إِذْ لَا يُوجَدُ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ لَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران]، وَقَالَ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل]، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة] وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النِّساء].

وَأَمْثِلَةُ هَذَا النَّوْعِ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشُّورى:١١]، حَيْثُ اشْتَبَهَ عَلَىٰ أَهْلِ التَّعْطِيلِ، فَفَهِمُوا مِنْهُ انْتِفَاءَ الصِّفَاتِ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَادَّعَوْا أَنَّ ثُبُوتَهَا يَسْتَلْزِمُ الْمُمَاثَلَةَ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ ثُبُوتِ الصِّفَاتِ لَهُ، وَأَنَّ إِثْبَاتَ أَصْلِ الْمَعْنَىٰ لَا يَسْتَلْزِمُ الْمُمَاثَلَةَ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النِّساء]، حَيْثُ اشْتَبَهَ عَلَىٰ



الْوَعِيدِيَّةِ، فَفَهِمُوا مِنْهُ أَنَّ قَاتِلَ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَطَرَدُوا ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ ذَنْبٍ دُونَ الشِّرْكِ فَهُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [الحجّ]، حَيْثُ اشْتَبَهَ عَلَىٰ الْجَبْرِيَّةِ، فَفَهِمُوا مِنْهُ أَنَّ الْعَبْدَ مَجْبُورٌ عَلَىٰ عَمَلِهِ، وَادَّعَوْا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ إِرَادَةٌ وَلَا قُدْرَةٌ عَلَيْهِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ لِلْعَبْدِ إِرَادَةً وَقُدْرَةً، وَأَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ نَوْعَانِ: اخْتِيَارِيٌّ، وَغَيْرُ اخْتِيَارِيٍّ.

وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ -أَصْحَابُ الْعُقُولِ- يَعْرِفُونَ كَيْفَ يُخْرِجُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةَ إِلَىٰ مَعْنًىٰ يَتَلَاءَمُ مَعَ الْآيَاتِ الْأُخْرَىٰ، فَيَبْقَىٰ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمًا لَا اشْتِبَاهَ فِيهِ).

التَّشابُه الواقعُ في القرآن نوعان:

[١] حقيقيٌّ:

[أ] تعريفُه: (مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَهُ الْبَشَرُ)، مثل حقائق صفات الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّه لا يُعلَم كُنهُها وحقيقتُها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ [طه]...

[ب] حُكمُه: (لَا يُسْأَلُ عَنِ اسْتِكْشَافِهِ؛ لِتَعَذُّرِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ)، وإنَّما نكِلُ علمَه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والظَّاهر أنَّ النَّهي عن السُّؤال للتَّحريم.

[٢] نسبيٌّ:

[أ] تعريفُه: (مَا يَكُونُ مُشْتَبِهًا عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ)، ولا يُمكن أن يجهله كُلُّ النَّاس، قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٨].

[ب] حُكمُه: (يُسْأَلُ عَنِ اسْتِكْشَافِهِ وَبَيَانِهِ؛ لِإِمْكَانِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ)، قال تعالىٰ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النَّحل].



مَعنى قول الإمام مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في الاستواء:

لمَّا سُئل مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عن كيفيَّة الاستواء؛ قال: (**الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ**) أي: مَعلوم المَعنىٰ في اللُّغة العربيَّة، (**وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ**) أي: لا يُدرَك بالعقل، وإذا لم يُدرَك بالعقل فلا مَردَّ إلَّا إلىٰ السَّمع، والسَّمعُ لم يرد به، (**وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ**) لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أخبر به عن نفسه، (**وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ**) لأنَّه سُؤالٌ عمَّا لا يُدرَكُ بالعقل، ولم يرد فيه دليلٌ من السَّمع.

الدَّليلُ نوعان:

[١] **السَّمعُ:** وهو الكتابُ والسُّنَّةُ؛ لأنَّهما مَسموعان.

[٢] **العقلُ:** والنَّظرُ، ويُسمَّىٰ المُتكلِّمون بالنُّظَّار؛ لأنَّهم ادَّعوا أنَّهم أهل العقول.

آياتُ الصِّفات من:

[١] **المُحكَم:** باعتبار المَعنىٰ، فمَعناها واضحٌ ظاهرٌ، وليس مَعناها خفيًّا.

[٢] **المُتشابه:** باعتبار الكيفيَّة؛ لأنَّنا لا يمكن أن نصل إلىٰ حقائقها.

لا يوجد في القرآن شيءٌ لا يتبيَّن مَعناه لأحدٍ من النَّاس، والدَّليل:

[١] ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: كلِّ النَّاس، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لا يهتدي ويتَّعظ به إلَّا المُتَّقون.

[٢] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو مُبينٌ، وكلُّ شيءٍ يحتاج النَّاس إلىٰ بيانه فإنَّه مَوجودٌ في القرآن، إمَّا مَنصوصًا عليه، أو مَدلولًا عليه بالإشارة.

[٣] ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي: قرأه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عليك، ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ لفظًا ومَعنًىٰ.

[٤] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ والبرهان والنُّور لابدَّ أن يكون بيِّنًا.



لـماذا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قراءة جبريل بقوله: ﴿قَرَأْنَهُ﴾؟

لمَّا كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولًا من ربِّ العالمين، صارت قراءتُه كقراءة الله عَزَّوَجَلَّ، فأطلق الله عَزَّوَجَلَّ الفعل علىٰ نفسه والمُرادُ به الرَّسول؛ لأنَّ الرَّسول مُبلِّغٌ.

ومن هذا الباب قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، ولا يُمكن أن يُبايعوا الله عَزَّوَجَلَّ فوق العرش وهم تحت الشَّجرة، فهم إنَّما بايعوا النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومُبايعة الرَّسول مُبايعةٌ لله، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠] والَّذي فوق أيديهم هو يد الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلىٰ هذا فلا إشكال في الآية.

المثال الأوَّل للتَّشابُه النِّسبيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشُّورىٰ:١١]، ضلَّ في هذه الآية طائفتان:

[١] طائفةٌ غلوا في نفيها، وفهموا أنَّها تدلُّ علىٰ نفي كلِّ الصِّفات، وقالوا: إنَّك إذا أثبتَّ أيَّ صفةٍ فقد مثَّلتَ.

[٢] طائفةٌ قالوا: ليس كمثله شيءٌ في الصِّفات الخبريَّة فقط؛ كالوجه واليدين وما أشبه ذلك.

[٣] وقال أهل السُّنَّة: ليس كمثله شيءٌ في كلِّ الصِّفات، ونفيُ المثل يدلُّ علىٰ ثبوت أصل المَعنىٰ؛ وإلَّا لكان نفيُ المثل لغوًا.

المثال الثَّاني للتَّشابُه النِّسبيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[النِّساء]، فهم منها الوعيديَّة -وهم المُعتزلة والخوارج- أنَّ قاتل المؤمن عمدًا مُخلَّدٌ في النَّار؛ لأنَّهم قالوا بنصوص الوعيد وأعرضوا عن نصوص الرَّجاء، وكلاهما قال: إنَّ فاعل الكبيرة مُخلَّدٌ في النَّار، لكنَّ بينهما فرقًا.



الفرق بين الخوارج والـمُعتزلة في فاعل الكبيرة:

[١] **الخوارج:** قالوا: إنَّ فاعل الكبيرة كافرٌ في الدُّنيا؛ لأنَّ حكم الخُلود لا يكون إلَّا للكافرين، وبناءً علىٰ هذا الأصل استحلُّوا دماء المسلمين.

[٢] **الـمُعتزلة:** قالوا: إنَّ فاعل الكبيرة في الدُّنيا في منزلةٍ بين المنزلتين، لا مؤمنٌ ولا كافرٌ، فلم يستحلُّوا دمه، لكن وافقوا الخوارج في كونه مُخلَّدًا في النَّار.

دفع التَّوهُّم في آية النِّساء:

من المناسبات الجيِّدة أنَّ آية ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾[النِّساء:٩٣] وقعت بين آيتين تدلَّان علىٰ أنَّ ما سوىٰ الشِّرك تحت المشيئة، وهما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾[النِّساء]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾[النِّساء].

لكنَّ الأصل في الخلود الدَّوام، وذكر التَّأبيد من باب التَّوكيد فقط، فكيف توجيه قوله تعالىٰ: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾؟

[١] تفسير ابن عبَّاسٍ: القتل العمد سببٌ للخلود في النَّار، لكن قد يوجد مانعٌ -وهو الإيمان- فينتفي الخلود، فالشَّيء لا يتمُّ إلَّا بوجود شروطه وانتفاء مَوانعه، وهذا هو أقرب الأقوال إلىٰ الصَّواب.

[٢] وقيل: المُراد بالخلود هنا المُكث الطَّويل دون تأبيدٍ، وهو تفسيرٌ سائغٌ في اللُّغة العربيَّة، لكن يرد عليه أنَّه ثبت في السُّنَّة خلود قاتل نفسه في النَّار، وكذا من قتل نفسه بشيءٍ فإنَّه يُخلَّد في العذاب به.

[٣] وقيل: يُحكَم بخلوده في النَّار إذا كان مُستحلًّا دم المَقتول، وهذا قولٌ مَردودٌ.

[٤] وقيل: الآية مُطلقةٌ، فيكفر قاتل المؤمن عمدًا علىٰ كلِّ حالٍ، وهو قولٌ غير سديدٍ.



المثال الثَّالث للتَّشابُه النِّسبيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أي: قد علمتَ، والاستفهام هنا للتَّقرير، والخطاب للنَّبيِّ ﷺ، أو لكلِّ من يتأتَّىٰ خطابُه، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿مَا﴾ اسمٌ مَوصولٌ يدلُّ علىٰ العموم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: ما في السَّماء والأرض مَكتوبٌ في اللَّوح المَحفوظ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: كتابة ما في السَّماء والأرض، ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾[الحجّ].

اشتبهت هذه الآية علىٰ الجبريَّة، ففهموا منها أنَّ العبد مَجبورٌ علىٰ عمله، وادَّعوا أنَّه ليس له إرادةٌ ولا قدرةٌ ولا اختيارٌ، وأنَّ حركاته كتحرُّك الرِّيش في الهواء.

ولا شكَّ أنَّ هذا قولٌ باطلٌ، ودليل بُطلانه:

[١] السَّمع:

أثبت الله عَزَّوَجَلَّ المشيئة للعبد في عدَّة آياتٍ، منها: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التَّكوير]، وأثبت له القدرة كما في قوله: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۝٢٥﴾ [القلم].

[٢] العقل:

من المَعلوم أنَّه لو كان الله مُجبرًا عبادَه علىٰ ما يفعلون، ثمَّ يعذِّبهم في المُخالفة؛ لكان هذا أمرًا لا يليق بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه ظلمٌ.

[٣] الحسُّ:

فكلُّ إنسانٍ يعرف أنَّه يدخل ويخرج ويذهب ويجيء باختياره، ولا يرىٰ أنَّ أحدًا يُكرهه علىٰ هذا.

تنبيهٌ:

فعل العبد نوعان: اختياريٌّ، وغير اختياريٍّ، فالأوَّل يُؤاخذ عليه، والثَّاني لا يُؤاخذ عليه.

وينبغي للإنسان أن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ دائمًا أن يهديه للحقِّ في العقائد والعمليَّات.

وانظر إلىٰ فعل الرَّسول ﷺ، كان يفتتح قيام اللَّيل -وهو أوَّل صلاةٍ يصلِّيها بعد النَّوم- بقوله: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**». أخرجه مسلمٌ.



رابعًا: الحِكْمَةُ فِي تَنَوُّعِ القُرْآنِ إِلَى مُحْكَمٍ ومُتَشَابِهٍ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمًا لَفَاتَتِ الْحِكْمَةُ مِنَ الِاخْتِبَارِ بِهِ تَصْدِيقًا وَعَمَلًا؛ لِظُهُورِ مَعْنَاهُ، وَعَدَمِ الْمَجَالِ لِتَحْرِيفِهِ، وَالتَّمَسُّكِ بِالْمُتَشَابِهِ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَلَوْ كَانَ كُلُّهُ مُتَشَابِهًا لَفَاتَ كَوْنُهُ بَيَانًا وَهُدًى لِلنَّاسِ، وَلَمَا أَمْكَنَ الْعَمَلُ بِهِ، وَبِنَاءُ الْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بِحِكْمَتِهِ جَعَلَ مِنْهُ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ، يُرْجَعُ إِلَيْهِنَّ عِنْدَ التَّشَابُهِ، وَأُخَرَ مُتَشَابِهَاتٍ امْتِحَانًا لِلْعِبَادِ؛ لِيَتَبَيَّنَ صَادِقُ الْإِيمَانِ مِمَّنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ.

فَإِنَّ صَادِقَ الْإِيمَانِ يَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمَا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ بَاطِلٌ أَوْ تَنَاقُضٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصِّلت]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّساء].

وَأَمَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ فَيَتَّخِذُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ سَبِيلًا إِلَىٰ تَحْرِيفِ الْمُحْكَمِ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَىٰ فِي التَّشْكِيكِ فِي الْأَخْبَارِ، وَالِاسْتِكْبَارِ عَنِ الْأَحْكَامِ، وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ يَحْتَجُّونَ عَلَىٰ انْحِرَافِهِمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ).

لو كان القرآن:

[١] كلُّه مُحكمًا:

والإحكام هنا هو وضوح المَعنىٰ وبيانه لكلِّ النَّاس، فلو كان القرآن كلُّه بيِّنًا لفاتت الحكمة من الاختبار والامتحان بين المؤمن الرَّاسخ في العلم، ومن في قلبه زيغٌ.

[٢] كلُّه مُتشابهًا:

والتَّشابه هنا هو خفاء المَعنىٰ علىٰ بعض النَّاس، فإذا كان القرآن كلُّه خفيًّا فات البيان للنَّاس والإيضاح، ولم يمكن العمل بمَضمونه، ولا بناء العقيدة السَّليمة عليه.



مُوهِمُ التَّعارُضِ فِي الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (التَّعارُضُ فِي الْقُرْآنِ أَنْ تَتَقابَلَ آيَتانِ، بِحَيْثُ يَمْنَعُ مَدْلُولُ إِحْداهُما مَدْلُولَ الْأُخْرَىٰ، مِثْلَ أَنْ تَكُونَ إِحْداهُما مُثْبِتَةً لِشَيْءٍ وَالْأُخْرَىٰ نافِيَةً فِيهِ.

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقعَ التَّعارُضُ بيْنَ آيَتيْنِ مَدْلُولُهُما خبَرِيٌّ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ كَوْنُ إِحْداهُما كَذِبًا، وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ فِي أَخْبارِ اللهِ تَعالَىٰ، قالَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾[النِّساء]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾[النِّساء]، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ التَّعارُضُ بيْنَ آيَتيْنِ مَدْلُولُهُما حُكْمِيٌّ؛ لِأَنَّ الْأَخِيرَةَ مِنْهُما ناسِخَةٌ لِلْأُولَىٰ، قالَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[البقرة: ١٠٦]، وَإِذَا ثَبتَ النَّسْخُ كانَ حُكْمُ الْأُولَىٰ غيْرَ قائِمٍ وَلَا مُعارِضٍ لِلْأَخِيرَةِ، وَإِذَا رَأَيْتَ ما يُوهِمُ التَّعارُضَ مِنْ ذَلِكَ، فَحاوِلِ الْجَمْعَ بَيْنَهُما، فَإِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ وَجَبَ عَلَيْكَ التَّوَقُّفُ، وَتَكِلُ الْأَمْرَ إِلَىٰ عالِمِهِ.

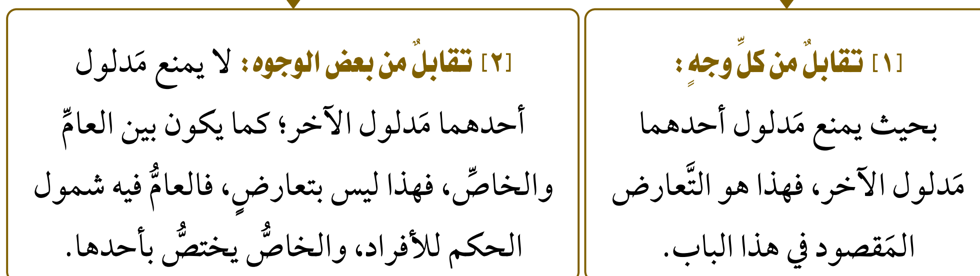
وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللهُ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً لِما يُوهِمُ التَّعارُضَ، بَيَّنُوا الْجَمْعَ فِي ذَلِكَ، وَمِنْ أَجْمَعِ ما رَأَيْتُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ كِتابُ «دَفْعِ إِيهامِ الاِضْطِرابِ عَنْ آيِ الْكِتابِ» لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْأَمِينِ الشِّنْقِيطِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالَىٰ.

فَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَىٰ فِي الْقُرْآنِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[البقرة]، وَقَوْلُهُ فِيهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[البقرة: ١٨٥]، فَجَعَلَ هِدايَةَ الْقُرْآنِ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ خاصَّةً بِالْمُتَّقِينَ، وَفِي الثَّانِيَةِ عامَّةً لِلنَّاسِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُما أَنَّ الْهِدايَةَ فِي الْأُولَىٰ هِدايَةُ التَّوْفِيقِ وَالِانْتِفاعِ، وَالْهِدايَةَ فِي الثَّانِيَةِ هِدايَةُ التَّبْيِينِ وَالْإِرْشادِ.

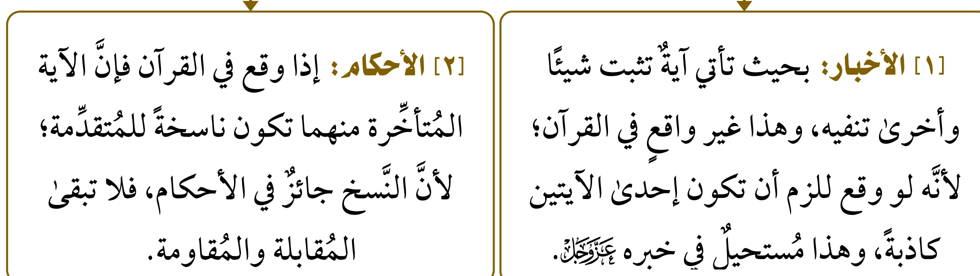
وَنَظِيرُ هاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ قَوْلُهُ تَعالَىٰ فِي الرَّسُولِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص: ٥٦] وَقَوْلُهُ فِيهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[الشُّورىٰ]، فَالْأُولَىٰ هِدايَةُ التَّوْفِيقِ، وَالثَّانِيَةُ هِدايَةُ التَّبْيِينِ).



تقابل المَعنيين على نوعين:



التَّعارض في:



فائدة كتاب «دَفْعِ إِيهَامِ الاضْطِرَابِ عَنْ آيِ الْكِتَابِ»:

أهمِّيَّة هذا الكتاب في أنَّ الإنسان يتعوَّد به كيف يجمع بين الآيات، يوقن بأنَّ القرآن ليس فيه تعارضٌ، لذلك ينبغي للإنسان أن يطالع مثل هذه الكتب الَّتي فيها الجمع بين الآيات الَّتي ظاهرها التَّعارض.



الهداية نوعان:

[١] **هداية توفيق وعمل:** وهي خاصَّةٌ بالمُتَّقين، ومنها قوله تعالىٰ عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[البقرة]، وقوله عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

ولفظ ﴿أَحْبَبْتَ﴾ يحتمل مَعنيين:

[أ] (**أَحْبَبْتَهُ**): والآية نزلت في أبي طالبٍ، وهذا يقتضي أنَّه ﷺ يحبُّ عمَّه أبا طالبٍ، ولا يُلام علىٰ حبِّه له؛ لأنَّه يحبُّه لقرابته وإحسانه إليه، وليس لدينه، وهذا المَعنىٰ أقرب؛ لأنَّه ليس فيه تقديرٌ، والأصل عدم التَّقدير.

[ب] (**أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ**): وهذا فيه تقدير مَحذوفٍ.

[٢] **هداية بيانٍ وإرشادٍ:** وهي عامَّةٌ لكلِّ النَّاس، ومنها قوله تعالىٰ عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾[الشُّورىٰ].

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:** ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ **[آل عمران: ١٨]، وَقَوْلُهُ:** ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ **[آل عمران: ٦٢]، وَقَوْلُهُ:** ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣﴾ **[الشُّعراء]، وَقَوْلُهُ:** ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾ **[هود]، فَفِي الْآيَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ نَفْيُ الْأُلُوهِيَّةِ عَمَّا سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ إِثْبَاتُ الْأُلُوهِيَّةِ لِغَيْرِهِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ ذَلِكَ أَنَّ الْأُلُوهِيَّةَ الْخَاصَّةَ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ هِيَ الْأُلُوهِيَّةُ الْحَقَّةُ، وَأَنَّ الْمُثْبَتَةَ لِغَيْرِهِ هِيَ الْأُلُوهِيَّةُ الْبَاطِلَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝٦٢﴾**[الحجّ].**

وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ **[الأعراف:٢٨]، وَقَوْلُهُ:** ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾



[الإسراء]، فَفِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ نَفَىٰ أَنْ يَأْمُرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْفَحْشَاءِ، وَظَاهِرُ الثَّانِيَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ بِمَا هُوَ فِسْقٌ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْأَمْرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ هُوَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ، وَاللهُ تَعَالَىٰ لَا يَأْمُرُ شَرْعًا بِالْفَحْشَاءِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النَّحل]، وَالْأَمْرُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ هُوَ الْأَمْرُ الْكَوْنِيُّ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ كَوْنًا بِمَا شَاءَ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس].

المثال الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ فعلَّلوا بأمرين: أنَّهم وجدوا عليها آباءهم، وأنَّ الله أمرهم بها، فردَّ الله عليهم العلَّة الأولىٰ بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾[الأعراف:٢٨]، ولم يرُدَّ الثَّانية؛ لأنَّها حقٌّ، والحقُّ يُقبل ولو من الكافر، بل ولو من الشَّيطان نفسه! وفي الآية أنَّ الله لا يأمر بالفحشاء.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾[الإسراء]، وفيها أنَّ الله يأمر بالفسق، فكيف يُجمع بينهما؟

الجمع بينهما بأنَّ أمر الله عَزَّوَجَلَّ نوعان:

[١] **أمرٌ شرعيٌّ:** ومنه الآية الأولىٰ، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يأمر شرعًا بالفحشاء، بل هو ينهىٰ عن الفحشاء والمُنكر.

[٢] **أمرٌ كونيٌّ:** فإنَّ كلَّ ما وقع في السَّماء والأرض فهو بأمره الكونيِّ، ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾، أي: أمرًا كونيًّا، وحملها بعضهم علىٰ الشَّرعيِّ، بمعنىٰ: (إذا أردنا أن نهلك قريةً أرسلنا الرُّسل إليهم ففسقوا فدمَّرناهم)، وهذا غلطٌ لمُنافاته حكمة الله عَزَّوَجَلَّ.



القَسَمُ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (الْقَسَمُ بِفَتْحِ الْقَافِ وَالسِّينِ: الْيَمِينُ، وَهُوَ: تَأْكِيدُ الشَّيْءِ بِذِكْرِ مُعَظَّمٍ بِالْوَاوِ أَوْ إِحْدَىٰ أَخَوَاتِهَا، وَأَدَوَاتُهُ ثَلَاثَةٌ:

- الْوَاوُ: مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾[الذَّاريات:٢٣]، وَيُحْذَفُ مَعَهَا الْعَامِلُ وُجُوبًا، وَلَا يَلِيهَا إِلَّا اسْمٌ ظَاهِرٌ.
- وَالْبَاءُ: مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾[القيامة]، وَيَجُوزُ مَعَهَا ذِكْرُ الْعَامِلِ كَمَا فِي هَذَا الْمِثَالِ، وَيَجُوزُ حَذْفُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢﴾[ص]، وَيَجُوزُ أَنْ يَلِيَهَا اسْمٌ ظَاهِرٌ كَمَا مَثَّلْنَا، وَأَنْ يَلِيَهَا ضَمِيرٌ كَمَا فِي قَوْلِكَ: اللهُ رَبِّي، وَبِهِ أَحْلِفُ لَيَنْصُرَنَّ الْمُؤْمِنِينَ.
- وَالتَّاءُ: مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦﴾[النَّحل]، وَيُحْذَفُ مَعَهَا الْعَامِلُ وُجُوبًا، وَلَا يَلِيهَا إِلَّا اسْمُ اللهِ، أَوْ رَبِّ، مِثْلَ: تَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَأَحُجَّنَّ إِنْ شَاءَ اللهُ).

ضبط لفظ (القسم):

- [١] **الْقِسْمُ:** بمعنىٰ: الجنس، أو الصِّنف، وما أشبه ذلك.
- [٢] **الْقَسْمُ:** بمعنىٰ: تقسيم الشَّيء.
- [٣] **الْقِسَمُ:** بمعنىٰ: ما يُقدَّر لابن آدم.
- [٤] **الْقَسَمُ:** بمعنىٰ اليمين، والحَلِف.



القَسَم هو تأكيد الشَّيء بـ:

[١] (ذِكر مُعظَّمٍ)، سواءٌ كان الـمُعظَّم:

[أ] يستحقُّ التَّعظيم: وهو الله عَزَّوَجَلَّ وحده.

[ب] لا يستحقُّ التَّعظيم: فالَّذين يحلفون باللَّات والعُزَّىٰ ومَناة قَسَمهم صحيحٌ لغةً؛ لأنَّهم يعظِّمونهم.

وحُكم الحلف بغير اللَّه عَزَّوَجَلَّ شرعًا أنَّه:

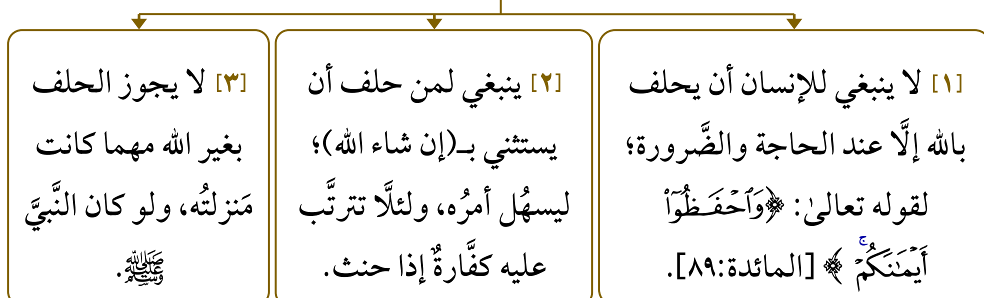
[أ] شركٌ أكبر: إذا اعتقد أنَّه يستحقُّ من التَّعظيم كما يستحقُّ الله.

[ب] شركٌ أصغر: إذا لم يعتقد ذلك.

[٢] (على وجهٍ مَخصوصٍ):

بحروف القَسَم الثَّلاثة: (الواو)، و(الباء)، و(التَّاء). ويُقسم أحيانًا بـ(الهاء)، نحو: (ها اللهِ لأفعلنَّ). ولهذا ذكر المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَخَوَاتِهَا).

وعلىٰ هذا فلو قال: (حرامٌ عليَّ أن أفعل كذا) فإنَّه لا يكون قسمًا بغير الله، وليس شركًا، لكنَّ حكمه حكمُ اليمين؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾[التَّحريم].



من أحكام القَسَم:

[١] لا ينبغي للإنسان أن يحلف بالله إلَّا عند الحاجة والضَّرورة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩].

[٢] ينبغي لمن حلف أن يستثني بـ(إن شاء الله)؛ ليسهُل أمرُه، ولئلَّا تترتَّب عليه كفَّارةٌ إذا حنث.

[٣] لا يجوز الحلف بغير الله مهما كانت مَنزلتُه، ولو كان النَّبيَّ ﷺ.



يجوز القَسَم بـ:

- [١] **الله:** وهذا هو الأكثر.
- [٢] **ما يختصُّ به من الأسماء:** مثل: الرَّحمن، وربِّ العالمين، ونحوها.
- [٣] **الصِّفات المَعنويَّة:** مثل: العلم، والقدرة، والسَّمع، والبصر، والعزَّة، ونحوها.
- [٤] **الصِّفات الخبريَّة:** الَّتي يُعبَّر بها عن ذاته عَزَّوَجَلَّ، مثل: الوجه، قال تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[الرَّحمن]، فعبَّر بالوجه عن الذَّات.

وأمَّا الصِّفات الخبريَّة الَّتي لا يُعبَّر بها عن الذَّات فلا يجوز القسم بها، مثل: اليد، والعين، والرِّجل، ونحوها، فلا يجوز مثلًا أن يقول: (وَيَدِ الله).

القَسَم إذا كان على شيءٍ:

- [١] **ماضٍ: فلا كفَّارة في الحِنث:**
  - [أ] **ولا يأثم:** إذا كان صادقًا.
  - [ب] **ويأثم:** إذا كان كاذبًا، فإذا تضمَّن اليمين أكلَ مالِ الغير بغير حقٍّ = كانت اليمينَ الغموسَ الَّتي تغمس صاحبَها في النَّار.
- [٢] **مُستقبَل؛ فينقسم إلى:**
  - [أ] **يمينِ لَغوٍ:** وهي الَّتي تجري علىٰ الإنسان بغير قصدٍ، نحو: (لا والله)، و(بلىٰ والله)، وهذه لا كفَّارة فيها.
  - [ب] **يمينٍ مَعقودةٍ:** وهي الَّتي يقصدها الإنسان، فإذا قصد:
    - **الخبرَ:** فلا كفَّارة.
    - **إيقاعَ الفعل:** ففيها الكفَّارة إذا حنث.
  - [ج] **يمينٍ على ما يظُنُّ وقوعَه:** فلا كفَّارة عليه إذا لم يقع علىٰ الصَّحيح.



القسمُ بالواو هو الأكثرُ، والفرقُ بينَها وبينَ الباءِ والتَّاءِ:

[١] أنَّه يجبُ حذفُ العاملِ مع الواو والتَّاء:
فلا يصحُّ أن تقول: (أقسم واللهِ لتفعلنَّ كذا)، أو (أقسم تالله)؛ بخلاف الباء فإنَّه يجوز فيها إثباتُه: (أقسم بالله لتفعلنَّ كذا)، ويجوز حذفُه: (بالله لتفعلنَّ كذا).

[٢] أنَّه يجبُ أن يَلِيَ الواو اسمٌ ظاهرٌ:
فلا يجوز أن يليَ الواو ضميرٌ؛ بخلاف الباء فإنَّه يجوز فيها مثلًا: (اللهُ أقسمُ به لتفعلنَّ كذا).
وأمَّا التَّاء فلا يصحُّ أن يليَها سوىٰ (الله) و(ربِّ).

والخلاصة: أنَّ الواو هي أكثر حروف القسم الثَّلاثة استعمالًا، والباء هي أوسُعها من حيث طريقةُ الاستعمال (ما يصحُّ أن يتقدَّمها وأن يليَها)، والتَّاء هي أضيقُها.

خلافُ الـمُفسِّرين في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

[١] ﴿لَآ﴾ نافيةٌ لفعلٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: (لا صحَّة لما تزعُمون من إنكار البعث، أُقسم بيوم القيامة).

[٢] ﴿لَآ﴾ نافيةٌ لفعلٍ مَوجودٍ، والتَّقديرُ: (لا أقسم بكذا علىٰ كذا؛ لأنَّه لا يحتاج إلىٰ قَسَمٍ).

[٣] ﴿لَآ﴾ للتَّنبيه، والجملة جملةٌ ثُبوتيَّةٌ، لا جملةٌ مَنفيَّةٌ، وهذا هو أصحُّ الأقوال، وأقلُّها تكلُّفًا.

سُمِّيَ يومَ القيامة لأنَّه اليومُ الَّذي:

[١] يقوم النَّاس فيه من قبورهم لربِّ العالمين قيام رجلٍ واحدٍ.

[٢] يقوم في الأشهادُ، فتشهد الرُّسل علىٰ أُمِمهم، وتشهد هذه الأمَّة علىٰ أمم الرُّسل، ويشهد محمَّدٌ ﷺ علىٰ هذه الأمَّة.

[٣] يُقامُ فيه العدلُ.



قاعدةٌ هامَّةٌ في التَّفسير:

كلُّ قَسَمٍ في القرآن لابدَّ أن يكون بينَه وبين المُقسَم عليه مُناسبةٌ، لكنَّ المُناسبة: قد تكون ظاهرةً، وقد تكون خفيَّةً.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَالْأَصْلُ ذِكْرُ الْمُقْسَمِ بِهِ، وَهُوَ كَثِيرٌ كَمَا فِي الْأَمْثِلَةِ السَّابِقَةِ.

وَقَدْ يُحْذَفُ وَحْدَهُ، مِثْلَ قَوْلِكَ: أَحْلِفُ عَلَيْكَ لَتَجْتَهِدَنَّ.

وَقَدْ يُحْذَفُ مَعَ الْعَامِلِ، وَهُوَ كَثِيرٌ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾[التَّكاثر].

وَالْأَصْلُ ذِكْرُ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَهُوَ كَثِيرٌ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ [التَّغابن:٧].

وَقَدْ يُحْذَفُ جَوَازًا مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾[ق]، وَتَقْدِيرُهُ: لَيَهْلِكُنَّ.

وَقَدْ يُحْذَفُ وُجُوبًا إِذَا تَقَدَّمَهُ أَوِ اكْتَنَفَهُ مَا يُغْنِي عَنْهُ، قَالَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي «الْمُغْنِي»، وَمَثَّلَ لَهُ بِنَحْوِ: زَيْدٌ قَائِمٌ وَاللهِ، وَزَيْدٌ وَاللهِ قَائِمٌ).

الأصلُ في القَسَم ذِكرُ المُقسَم به، لكن قد:

[١] يُحذف وحدَه:

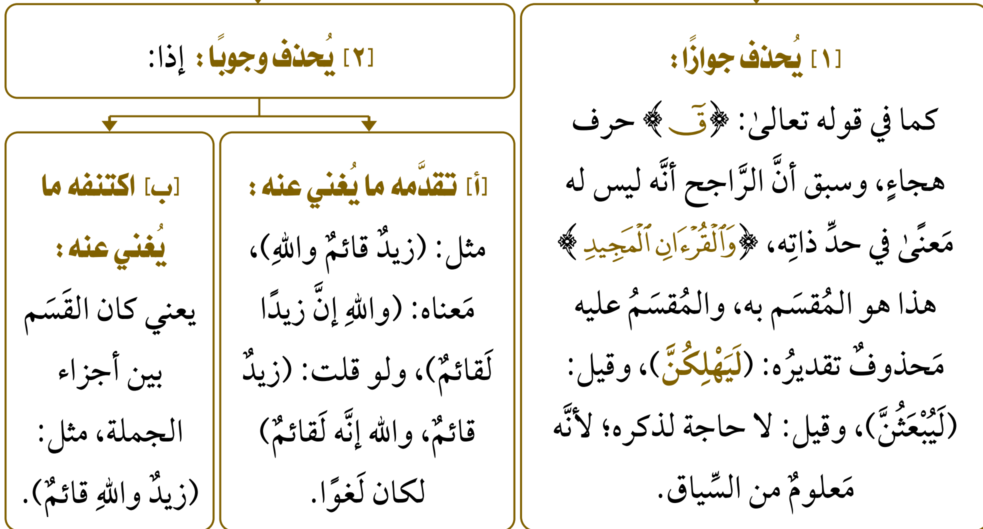
كما في قولِك: (أَحْلِفُ عَلَيْكَ لَتَجْتَهِدَنَّ)، فالمَحلوفُ له مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: (أحلِفُ بالله عليك لتَجتهدنَّ).

[٢] يُحذف هو والعامل معًا:

وهو كثيرٌ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾[التَّكاثر]، والتَّقديرُ: (ثمَّ أُقسم بالله لتُسألُنَّ).

ومن أمثلة ذكرهما معًا في القرآن قولُه تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾[الذَّاريات]، وقولُه: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦﴾[النَّحل]...





ومن أمثلة ذِكر المُقسَم عليه -وهو كثيرٌ- قولُه تعالىٰ: ﴿قُلۡ﴾ يا أيُّها الرَّسول للَّذين زعموا أنَّهم لن يُبعَثوا ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾[التَّغابن:٧]، فحلَف لهم بالله وهم قومٌ مُنكِرون، وهذا أسلوبٌ من أساليب اللُّغة العربيَّة: أنَّ الكلامَ يُؤكَّد بالقَسَم، وإذا لم ينتفع هؤلاء بالقَسَم انتفع غيرُهم، فيكون حجَّةً عليهم من وجهٍ، ونبراسًا لغيرهم من وجهٍ آخر.





قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلِلْقَسَمِ فَائِدَتَانِ:

- إِحْدَاهُمَا: بَيَانُ عَظَمَةِ الْمُقْسَمِ بِهِ.
- وَالثَّانِيَةُ: بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَإِرَادَةُ تَوْكِيدِهِ، وَلِـذَا لَا يَحْسُـنُ الْقَسَـمُ إِلَّا فِـي الْأَحْوَالِ التَّالِيَةِ:
  - الْأُولَىٰ: أَنْ يَكُونَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ذَا أَهَمِّيَّةٍ.
  - الثَّانِيَةُ: أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ مُتَرَدِّدًا فِي شَأْنِهِ.
  - الثَّالِثَةُ: أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ مُنْكِرًا لَهُ).

للقَسَم فائدتان:

[١] (بيانُ عَظَمَةِ الْمُقْسَمِ بِهِ):

ولهذا لا يجوز للمَخلوق أن يحلِف بغير الله عَزَّوَجَلَّ، لكن يجوز لله عَزَّوَجَلَّ أن يحلِف بنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو بما شاء من مَخلوقاتِه.

[٢] (بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ):

ولهذا فإنَّ حَلِفَ الله عَزَّوَجَلَّ بمَخلوقٍ من مَخلوقاتِه يدلُّ علىٰ عظمته، وأنَّه جديرٌ بأن يكون مُقسَمًا به.

لا يحسُنُ القَسَمُ إلاَّ في ثلاث أحوالٍ:

[١] (أَنْ يَكُونَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ذَا أَهَمِّيَّةٍ):

حتَّىٰ وإن كان المُخاطَبُ غير مُنكرٍ له؛ لبيان أهمِّيَّة المُقسَم عليه، وأمَّا ما ليس له أهمِّيَّةٌ فلا يُقسَمُ عليه سواءٌ صدَّق المُخاطَبُ أو لا.

[٢] (أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ مُتَرَدِّدًا فِي شَأْنِه):

وهنا يحسُنُ القَسَمُ ولا يجبُ؛ لأنَّ المُخاطَب قد يكفيه الخبرُ المُجرَّدُ، فتحلِفُ ليطمئِنَّ ويزولَ عنه الشَّكُّ.

[٣] (أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ مُنْكِرًا لَهُ):

وهنا يجب تأكيدُ الكلام ليكون المُخاطَبُ مُطمئنًّا، سواءٌ بالقَسَم، أو بغيره ممَّا يُناسبُه.



ممَّا يكونُ في مَعنى القَسَم، وليس قسمًا حقيقةً:

[١] **(لَعَمْرُكَ) أو (لَعَمْرِي):**
يجوز ذلك؛ لأنَّه قد جاء عن النَّبيِّ ﷺ عند أحمد، وعن عائشة في «الصَّحيحين»، وهو في مَعنىٰ القَسَم، لكن في حقيقتِه ليس قَسَمًا يُرادُ به الحَلِفُ الَّذي يكون شركًا أو كُفرًا.

[٢] **(يمينُ اللَّه):**
وكذلك قولُ: (عهدُ اللهِ).

[٣] **(يعلمُ اللَّه ما فعلتُ كذا):**
قال بعضُ العلماء: إنَّ هذا من أحطر ما يكون في باب القَسَم، والقائل علىٰ خطرٍ عظيمٍ إذا كذب؛ لأنَّ قولَه هذا يقتضي أنَّ الله جاهلٌ عياذًا بالله!
قال تعالىٰ: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾[يس]، وهذا كذلك في مَعنىٰ القَسَم، ولهذا أُجيب بما يُجابُ به القَسَمُ: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾.



الْقَصَصُ

أوَّلاً: معْنَى الْقَصَص وأَقْسَامُها

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (الْقَصَصُ وَالْقَصُّ لُغَةً: تَتَبُّعُ الْأَثَرِ، وَفِي الِاصْطِلَاحِ: الْإِخْبَارُ عَنْ قَضِيَّةٍ ذَاتِ مَرَاحِلَ، يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وَقَصَصُ الْقُرْآنِ:

- أَصْدَقُ الْقَصَصِ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾[النِّساء]، وَذَلِكَ لِتَمَامِ مُطَابَقَتِهَا لِلْوَاقِعِ.
- وَأَحْسَنُ الْقَصَصِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[يوسف:٣]، وَذَلِكَ لِاشْتِمَالِهَا عَلَىٰ أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الْكَمَالِ فِي الْبَلَاغَةِ وَجَلَالِ الْمَعْنَىٰ.
- وَأَنْفَعُ الْقَصَصِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[يوسف:١١١]، وَذَلِكَ لِقُوَّةِ تَأْثِيرِهَا فِي إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَخْلَاقِ.

وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١. قِسْمٌ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَمَا جَرَىٰ لَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ وَالْكَافِرِينَ.
٢. وَقِسْمٌ عَنْ أَفْرَادٍ وَطَوَائِفَ جَرَىٰ لَهُمْ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ، فَنَقَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ؛ كَقِصَّةِ مَرْيَمَ، وَلُقْمَانَ، وَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، وَذِي الْقَرْنَيْنِ، وَقَارُونَ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَأَصْحَابِ الْفِيلِ، وَأَصْحَابِ الْأُخْدُودِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.
٣. وَقِسْمٌ عَنْ حَوَادِثَ وَأَقْوَامٍ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ؛ كَقِصَّةِ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَأُحُدٍ، وَالْأَحْزَابِ، وَبَنِي قُرَيْظَةَ، وَبَنِي النَّضِيرِ، وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَأَبِي لَهَبٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ).



تعريفُ القَصَصِ:

[١] **لغةً:** (تَتَبُّعُ الأَثَرِ)، ومنه قولُه تعالىٰ عن موسىٰ والفتىٰ: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾[الكهف] أي: يقُصَّان الأثَرَ ويتبَعانِه.

[٢] **اصطلاحًا:** (الإِخْبَارُ عَنْ قَضِيَّةٍ ذَاتِ مَرَاحِلَ، يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا)، فلو قلتَ: (زيدٌ قائمٌ) لم تكن قِصَّةً؛ لأنَّها ليست ذات مَراحلَ يتبعُ بعضُها بعضًا.

قَصَصُ القرآنِ:

[١] **أصدقُ القَصَصِ:** وهذا لا شكَّ فيه؛ لأنَّ المُخبِر به هو الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾[النِّساء]، والاستفهامُ بمَعنىٰ النَّفي والتَّحدِّي، وذلك لتمام مُطابقتها للواقع، ليس فيها مِريةٌ بوجهٍ، وهذا هو الصِّدقُ، بل إنَّ ما أخبر اللهُ به آكَدُ عندنا ممَّا شاهدناه بأعيُننا؛ لأنَّه لا يعتَريه لَبسٌ.

[٢] **أحسنُ القَصَصِ:** لفظًا ومَعنًىٰ؛ لقولِه تعالىٰ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف:٣]، وهذا لكمال بلاغة القرآن.

[٣] **أنفعُ القَصَصِ:** لقوَّة تأثيرها في إصلاح القلوب، والأقوال، والأعمال، والأخلاق، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

وكذلك قَصَصُ السُّنَّة الصَّحيحة الثَّابتة مثلُ القرآن من حيثُ الصِّدقُ، وهي أحسنُ قَصَصِ الخلق وأنفعُها، وقد قصَّ النَّبيُّ ﷺ علىٰ أمَّته أشياء كثيرةً عن بني إسرائيل وغيرهم، وكلُّه حقٌّ وصدقٌ، وفيه عِبرةٌ ومَنفعةٌ.



ما ينبغي مع قَصَصِ القرآن والسُّنَّة:

يحسُن للواحد منَّا أن يأخذ قصَّةً من القَصَص يتتبَّعُها في: تفسيرها، ومَعناها الإجماليِّ، وفوائدها، وما تتضمَّنه من الأحكام والحِكَم، ولو عوَّد الإنسان نفسه علىٰ هذا لحصل له خيرٌ كثيرٌ.

مثالٌ: انظر إلىٰ خطاب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه ومُحاورته معه، قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾[مريم:٤٣]، فأتىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأسلوبٍ حسنٍ وتحاشىٰ أن يقول: أنت جاهلٌ وأنا أعلم منك؛ لأنَّها شديدةٌ علىٰ الأب، وربَّما تُنفِّرُه.

قَصَصُ القرآن على ثلاثة أقسامٍ:

[١] عن الأنبياء والمُرسلين السَّابقين:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾[إبراهيم:٩].

[٢] عن أفرادٍ وطوائفَ قبل النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(**كَقِصَّةِ مَرْيَمَ، وَلُقْمَانَ، وَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، وَذِي الْقَرْنَيْنِ، وَقَارُونَ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ**...).

[٣] عن حوادثَ وأقوامٍ في عهد النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(**كَقِصَّةِ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَأُحُدٍ، وَالْأَحْزَابِ، وَبَنِي قُرَيْظَةَ، وَبَنِي النَّضِيرِ، وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَأَبِي لَهَبٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ**).

من عِبر قصَّة مريم بنت عمران:

قال تعالىٰ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ والمرأة النُّفساء تجدها في العادة ضعيفةً، والهَزُّ بجِذع النَّخلة أصعب من الهَزِّ برأسها، ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾[مريم] أي: يسقط من فوقك رُطَبٌ طريٌّ ثريٌّ جَنِيٌّ، لا ينفقس إذا وقع علىٰ الأرض، بل كالَّذي جناه الإنسانُ بنفسه، وهذه وهذه آيةٌ وعِبرةٌ يعتبر بها الإنسان علىٰ قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ.



من عِبر قصَّة لقمان:

والَّذي يظهر أنَّ لقمان رجلٌ صالحٌ، أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ الحكمة، وليس نبيًّا.

قال تعالىٰ في قصَّته: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان]، وهذه كلُّها حِكمٌ.

من عِبر قصَّة الَّذي مرَّ على القرية:

قال تعالىٰ: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ﴾ أي: كيف ﴿يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾؟ فأراه الله ذلك، ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾؛ لأنَّ الله أماته في أوَّل اليوم وأحياه في آخر اليوم، والوقت يذهب إذا لم تكن الرُّوح في الجسم، كما يحصل مع النَّائم والمُغمىٰ عليه، ﴿قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ أي: لم يتغيَّر، لا باللَّون، ولا بالرَّائحة، ولا باليُبوسة، وهذا من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: إنَّ الطَّعام كان عنبًا، وقيل غيرُه، ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾، فالطَّعام لم يتغيَّر ولكنَّ الحمار صار عظامًا، فلمَّا نظر إلىٰ العظام إذا هي تلوحُ، ويركب بعضُها بعضًا، وتنشز بالعصب، ثمَّ تُكسىٰ باللَّحم، ثمَّ قام الحمار، سبحان الله! ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة]، وهذه القصَّة تحيي القلب، ويعرف بها قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

من عِبر قصَّة ذي القرنين:

ذو القرنين آتاه الله عَزَّوَجَلَّ مُلكًا عظيمًا بلغ مَشارق الأرض ومَغاربها، ومن أعظم عِبر هذه القصَّة أنَّه أتىٰ علىٰ قومٍ لا يكادون يَفقَهون قولًا بأنفسهم، ولا يُفقِهون أيضًا، فقالوا:



﴿إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ أي: نعطيك دراهم، ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾؛ لأنَّه مَلِكٌ عظيمٌ، فظنُّوا أنَّه يأخذ الرِّشوة، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ ممَّا تُعطونني، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾ والرَّدم أعظمُ من السَّدِّ، ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ فزبَروا له الحديد، وأحمىٰ عليه النَّار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾، فأفرغ عليه نحاسًا ذائبًا، فتلاصق الحديد بعضُه ببعضٍ بالنُّحاس، ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾؛ لأنَّه أملس، ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف]، وهذه من القصص الغريبة!

من عِبر قصَّة قارون:

كان قارونُ رجلًا غنيًّا من قوم موسىٰ عليه السلام، ولكنَّه كفر به، واستعلىٰ بما أعطاه الله من المال، وبغىٰ علىٰ قومه، وآتاه الله من الكنوز ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾، أي: لا يستطيعون حمل المَفاتيح، فكيف بالخزائن وما فيها؟! فقال الله عَزَّ وَجَلَّ حين طغىٰ هذا الرَّجل: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١﴾[القصص].

من عِبر قصَّة أصحاب الكهف:

وهم سبعةٌ مُخلصون لله مُوحِّدون، ومعهم كلبُهم، رجوا من قومهم المُشركين مُهاجرين إلىٰ الله، وما أحدٌ قصد الله فخاب أبدًا، فآواهم الله عَزَّ وَجَلَّ، فهيَّأ لهم كهفًا واسعًا وجهُه إلىٰ الشَّمال الشَّرقيِّ، لا تأتيه الشَّمس إذا أشرقت ولا إذا غربت، قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: شيءٌ يسيرٌ عند الغروب، فبقوا نائمين فترةً طويلةً، لا يملُّون، ولا يجوعون، ولا يعطشون، إلَّا أنَّ الله قال: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾؛ لئلَّا تفسد أجسادُهم، ولم يقل: (يتقلَّبون)؛ لأنَّ فعل النَّائم لا يُنسَبُ إليه، فقد رُفع عنه القلم، ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾،



فبقوا ثلاثمائة سنةٍ وتسع سنواتٍ، حتَّىٰ أخلف الله عن الملك الأوَّل المُشرك ملكًا آخر صالحًا، فلمَّا بعثهم الله عَزَّوَجَلَّ تنازعوا، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍۚ﴾؛ لأنَّهم ناموا أوَّل النَّهار، واستيقظوا آخر النَّهار، وطلبوا أن يُبعث واحدٌ منهم بدراهمهم إلىٰ المدينة ليشتري طعامًا، فلمَّا ذهب إلىٰ المدينة رأوا السِّكَّة قديمةً، فتعجَّبوا منه، وهذه القصَّة فيها عِبرٌ عظيمةٌ.

من عِبر قصَّة أصحاب الفيل:

وهو قومٌ جاءوا ليهدموا الكعبة، وذلك أنَّ ملك اليمن وضع عنده كعبةً تضاهي الكعبة الَّتي بمكَّة من أجل أن يحجَّ النَّاس إليها، فجاء أحد العرب إلىٰ هذه الكعبة وتغوَّط فيها إهانةً لها، فغضب الملك وبعث إلىٰ مكَّة جُندًا عظيمًا يتقدَّمهم فيلٌ عظيمٌ، يريد أن يهدم الكعبة، فلمَّا وصل مكانًا يُسمَّىٰ المُغمَّس أبىٰ الفيلُ أن يتقدَّم، إذا وجَّهوه إلىٰ مكَّة وقف، وإذا وجَّهوه إلىٰ اليمن هرول بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، زعم بعض العلماء أنَّ الفيل حُبس في وادي مُحسِّرٍ وليس بصحيحٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَرۡسَلَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣﴾ أي: جماعاتٍ مُتفرِّقةً، ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤﴾ تضرب الواحد من رأسه، وتخرج من دُبُره، ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥﴾[الفيل]، والعصف هو الزَّرع الَّذي أكلته الإبل أو البقر، ووطِئته بأقدامها.

من عِبر قصَّة أصحاب الأخدود:

الأخدود جمع خدٍّ، وهو الحفر في الأرض كحفر السَّواقي، فأحاب الأخدود قومٌ اعتدوا علىٰ قوم مؤمنين بالله عَزَّوَجَلَّ عدوانًا بشعًا، وحاولوا جعلهم يرتدُّون عن إيمانهم فأبوا، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦﴾، فخدُّوا الأخاديد، وأضرموا فيها النَّار، وجعلوا يُلقون المؤمنين في النَّار وهم قعودٌ مُتفكِّهين حولها، ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧



وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾، ما هي إلَّا عداوةٌ دينيَّةٌ من هؤلاء المُعتدين، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾[البروج]، عُلم منها أنَّهم لو تابوا لم يُعذَّبوا؛ لأنَّ التَّوبة تجُبُّ ما قبلها حتَّىٰ وإن كان مُتعلِّقًا بالغير، ولا يُعترض علىٰ هذا بكونه حقَّ آدميٍّ؛ لأنَّ قتل هؤلاء الكفَّار للمؤمنين ليس لكونهم آدميِّين؛ بل لإيمانهم، فإذا آمنوا ارتفع عنهم أثر هذا القتل، وهذا من حِلم الله عَزَّوَجَلَّ.

في سورة البقرة خمسُ قَصَصٍ في إحياء الـمَوتـى:

[١] في قوم موسىٰ لمَّا قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فماتوا، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾، ثمَّ بعثهم الله وهم ينظرون.

[٢] في أصحاب البقرة، تنازعوا في قتيلٍ لهم، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرةً، ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فحيا الرَّجل، وقال: قتلني فلانٌ.

[٣] في الَّذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت؛ لوقوع الوباء بأرضهم، فأراهم الله أنَّه لا مفرَّ من قدر الله، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ﴾.

[٤] في صاحب القرية الَّذي مرَّ عليها وهي خاويةٌ علىٰ عروشها، وقد تقدَّم هذا.

[٥] في قصَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾، فالإنسان مأمورٌ بأن يزيد في إيمانه من طمأنينة القلب والثَّبات، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اذبحهنَّ واخلط بعضهنَّ ببعضٍ ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ أيُّها الطُّيور أقبلي، ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ﴾ فأحياها الله عَزَّوَجَلَّ وأقبلت عليه سعيًا لا طيرانًا.



تنبيهٌ:

قَصَص القرآن كثيرةٌ جدًّا، وكلُّها نافعةٌ، وفيها عِبرةٌ، وقد ألَّف فيها الكثير، لكن خلط بعضهم الحابل بالنَّابل، وصاروا كحاطب ليلٍ، ولذلك يجب الحذر ممَّا أُلِّف في قَصَص الأنبياء، وغيرها من قَصَص القرآن.

الَّذي ذُكر في القرآن من هذه الأمَّة:

[١] باسمه:

[أ] زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذُكر في مَقام المدح، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧].

[ب] أبو لهبٍ: عمُّ رسول الله ﷺ، ذُكر في مَقام الذَّمِّ، قال تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد].

[٢] بوصفٍ تامٍّ ينطبق عليه:

أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التَّوبة:٤٠] أجمع المُفسِّرون أنَّ المُراد بها أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال بعض العلماء: نزل فيه كذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [اللَّيل].



ثَانِيًا: الْحِكْمَةُ مِنْ قَصصِ الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَلِلْقَصَصِ فِي الْقُرْآنِ حِكَمٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ، مِنْهَا:

١. بَيَانُ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِيمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْقَصَصُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾[القمر].

٢. بَيَانُ عَدْلِهِ تَعَالَىٰ بِعُقُوبَةِ الْمُكَذِّبِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ عَنِ الْمُكَذِّبِينَ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ﴾[هود:١٠١].

٣. بَيَانُ فَضْلِهِ تَعَالَىٰ بِمَثُوبَةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾[القمر].

٤. تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾[فاطر].

٥. تَرْغِيبُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِيمَانِ بِالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، وَالِازْدِيَادِ مِنْهُ، إِذْ عَلِمُوا نَجَاةَ الْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ، وَانْتِصَارَ مَنْ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨـجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنبياء]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الرُّوم].

٦. تَحْذِيرُ الْكَافِرِينَ مِنَ الِاسْتِمْرَارِ فِي كُفْرِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾[محمَّد].

٧. إِثْبَاتُ رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ أَخْبَارَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[هود]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن



قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]).

الحكمة الأولى: بيانُ حِكمةِ اللهِ تعالى

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم﴾ يعني: قريشًا، ﴿مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ أي: أخبار الأمم السَّابقة، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾ أي: ازدجارٌ عن المَعاصي والتَّكذيب، وفي هذا الَّذي جاءهم ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ مُؤثِّرةٌ، ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾﴾[القمر]، يجوز أن تكون (ما):

[١] **نافيةً**: أي: (لم تغن عنهم النُّذر شيئًا)، ويؤيِّده قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[هود:١٠١].

[٢] **استفهاميَّةً**: أي: (أيُّ شيءٍ تغني عنهم النُّذر؟)، وهذا أظهر.

الحكمة الثَّانية: بيانُ عَدلِ اللهِ تعالى

لمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وصف الأنبياء، وإهلاك قومهم، قال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾[هود].

الحكمة الثَّالثة: بيانُ فضلِ اللهِ تعالى

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾[القمر]، وقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾[هود]، والظَّاهر أنَّ ذلك لمَّا امتدَّ امتدَّت العقوبة من السَّحر إلىٰ الصَّباح، فصار موعد إهلاكهم جميعًا الصَّباح.



إشكالٌ والجواب عنه:

قال تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذَّاريات]؛ فهل الإيمان والإسلام شيءٌ واحدٌ؟

في الآية دليلٌ علىٰ أنَّهما ليسا شيئًا واحدًا، قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، والَّذي خرج هو لوطٌ وأهله إلَّا امرأته، كانت معهم في الدَّار، وكان ظاهرها أنَّها مسلمةٌ، ولم تخرج لأنَّها كانت كافرةً، ولهذا قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

الحكمة الرَّابعة: تسليةُ النَّبيِّ ﷺ

النَّبيُّ ﷺ يحبُّ من جميع النَّاس أن يؤمنوا، ويضيق صدره بما يقول الكافرون، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر:٩٧]، ولهذا فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يسلِّيه بذكر أخبار الأمم السَّابقة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالآيات البيِّنات، ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ جمع زَبورٍ وهو الكتاب، ويُطلَق علىٰ الكتاب المُعيَّن؛ كما أُطلق علىٰ كتاب داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ عطف المُرادف علىٰ مُرادفه؛ لبيان إنارة الكتب للنَّاس طريق الهداية، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر]، ولا شكَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ يتسلَّىٰ بهذا ويتصبَّر.

الحكمة الخامسة: ترغيبُ المؤمنينَ في الإيمانِ

يرغِّب الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين في الثَّبات علىٰ الإيمان، والازدياد منه.

ولمَّا قال يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، قال تعالىٰ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء]، فمن قال هذه الكلمات وهو في غمٍّ وهو مؤمنٌ أنَّ الله يُنجيه بها = نجَّاه الله.

وقد أوجب الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ نفسه نصر المؤمنين فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الرُّوم].



نصر الله عَزَّ وَجَلَّ للعباد على نوعين:

[٢] نصرٌ في الآخرة فقط.	[١] نصرٌ في الدُّنيا والآخرة.

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١]، فالله عَزَّ وَجَلَّ ينصر هؤلاء الأنبياء المَقتولين في الآخرة قطعًا، وربَّما في الدُّنيا أيضًا بنصر أقوالهم وما دعوا إليه؛ فالآثار الَّتي تبقىٰ بعد الإنسان من أعظم النَّصر.

وأمَّا المؤمنون الَّذين صدَّقوا المُرسَلين واتَّبعوهم فلابدَّ أن يُنصروا؛ لأنَّ الله تكفَّل بذلك: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، فيه إثبات صفة الانتقام لله، ولا تُقال علىٰ سبيل الإطلاق؛ لأنَّها لم تَرِدْ إلَّا مُقيَّدةً، ولهذا فإنَّه ليس من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ المُنتقِم.

الحكمة السَّادسة: تحذيرُ الكافرين

يُحذِّرهم الله عَزَّ وَجَلَّ بذكر هذه القَصَص من الاستمرار في الكفر، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سير قلوبٍ؛ لأنَّه أعمُّ من سير الأقدام، فالقلوب تصل إلىٰ ما لم تصل إليه الأقدام، ومن ذلك الماضي، ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أفسد عليهم أمرهم، فلم ينجحوا، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠﴾[محمَّد] للكافرين المَوجودين الآن أمثال ما كان للسَّابقين، أي: فاحذروا أيُّها الكفَّار أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم من التَّدمير.

الحكمة السَّابعة: إثبات رسالة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فإنَّ أخبار الأمم السَّابقة لا يعلمها إلَّا الله، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾[هود]، فلمَّا قصَّها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الوجه المُطابق دلَّ علىٰ أنَّه رسولٌ؛ لأنَّه كان أمِّيًّا لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يتلقَّىٰ الأخبار إلَّا من طريق الوحي.



ثَالِثًا: تَكْرَارُ الْقَصَصِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (مِنَ الْقَصَصِ الْقُرْآنِيَّةِ مَا لَا يَأْتِي إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، مِثْلَ قِصَّةِ لُقْمَانَ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَمِنْهَا مَا يَأْتِي مُتَكَرِّرًا حَسَبَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ، وَتَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ، وَلَا يَكُونُ هَذَا الْمُتَكَرِّرُ عَلَىٰ وَجْهٍ وَاحِدٍ؛ بَلْ يَخْتَلِفُ فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ، وَاللِّينِ وَالشِّدَّةِ، وَذِكْرِ بَعْضِ جَوَانِبِ الْقِصَّةِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ آخَرَ.

وَمِنَ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا التَّكْرَارِ:

١. بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ تِلْكَ الْقِصَّةِ؛ لِأَنَّ تَكْرَارَهَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْعِنَايَةِ بِهَا.
٢. تَوْكِيدُ تِلْكَ الْقِصَّةِ لِتَثْبُتَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ.
٣. مُرَاعَاةُ الزَّمَنِ وَحَالِ الْمُخَاطَبِينَ بِهَا، وَلِهَذَا تَجِدُ الْإِيجَازَ وَالشِّدَّةَ غَالِبًا فِيمَا أَتَىٰ مِنَ الْقَصَصِ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، وَالْعَكْسَ فِيمَا أَتَىٰ فِي السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ.
٤. بَيَانُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي ظُهُورِ هَذِهِ الْقَصَصِ عَلَىٰ هَذَا الْوَجْهِ وَذَاكَ الْوَجْهِ عَلَىٰ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ.
٥. ظُهُورُ صِدْقِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ، حَيْثُ تَأْتِي هَذِهِ الْقَصَصُ مُتَنَوِّعَةً بِدُونِ تَنَاقُضٍ).

اختلافُ القِصَّةِ المُتكرِّرة:

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَا يَكُونُ هَذَا الْمُتَكَرِّرُ عَلَىٰ وَجْهٍ وَاحِدٍ) وإن وُجد فهو قليلٌ جدًّا؛ (بَلْ يَخْتَلِفُ فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ، وَاللِّينِ وَالشِّدَّةِ، وَذِكْرِ بَعْضِ جَوَانِبِ الْقِصَّةِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ آخَرَ).

فمثلًا من أقصر القَصَص وأشدِّها ما جاء في سورة القمر، فإنَّ القَصَص قصيرةٌ جدًّا، لكن فيها قَوارعُ عظيمةٌ، تُختم كلُّ واحدةٍ منها بـ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥﴾[القمر]، فالَّذي يقرأ السُّورة بتدبُّرٍ لابدَّ أن يتأثَّر؛ لأنَّها عظيمةٌ.



من أمثلة تَكرار القَصَص في القرآن:

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾[الأعراف]، فالقائل هو قوم فرعون، وقال: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾[الشُّعراء] فجعل القائل هو فرعون؛ لأنَّ فرعون قال، ثمَّ صدَّقه هؤلاء وتابعوه، وأخذوا يُطنطنون ويُدندنون بقوله.

أكثر القَصَص تَكرارًا في القرآن:

هي قصَّة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ الحاجة تدعو إلىٰ ذلك، لأنَّ اليهود كانوا مَوجودين في المدينة، وقريبين من قريشٍ، وكذلك النَّصارىٰ في نجران وغيرها، ولذلك تكرَّرت قصَّة موسىٰ وعيسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أكثر من غيرهما حسب ما تقتضيه المَصلحة.

من حِكَم تَكرار القَصَص في القرآن:

[١] (بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ تِلْكَ الْقِصَّةِ).

[٢] (تَوْكِيدُ تِلْكَ الْقِصَّةِ) اعتناءً بها، وتثبيتًا، وترسيخًا.

[٣] (مُرَاعَاةُ الزَّمَنِ وَحَالِ الْمُخَاطَبِينَ).

[٤] (بَيَانُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ)؛ لأنَّ مُطابقة الكلام لمُقتضىٰ الحال هو البلاغة في الحقيقة.

[٥] (ظُهُورُ صِدْقِ الْقُرْآنِ) في كونها تأتي من وجوهٍ مُتعدِّدةٍ، وبلا تناقضٍ، وفيها صدق النَّبيِّ ﷺ، فالكاذب يأتي بالكلام الثَّاني مثل الأوَّل لئلَّا يظهر كذبُه.

قد نجد بعض القَصَص المُتكرِّرة يُعارض بعضها في الظَّاهر؛ كما في قول فرعون وملئه عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾[الأعراف]، وفي موضعٍ آخر: ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ٢﴾[يونس:٢]، والجمع بينهما سهلٌ، وهو أنَّهم قالوا هذا في وقتٍ وهذا في وقتٍ.



الإِسْرَائِيلِيَّاتُ

أوَّلاً: الإِسْرَائِيلِيَّاتُ وأَنْوَاعُهَا

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْأَخْبَارُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْيَهُودِ -وَهُوَ الْأَكْثَرُ- أَوْ مِنَ النَّصَارَىٰ.

وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ الْأَخْبَارُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

الْأَوَّلُ: مَا أَقَرَّهُ الْإِسْلَامُ، وَشَهِدَ بِصِدْقِهِ؛ فَهُوَ حَقٌّ.

مِثَالُهُ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمٰوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَاضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمر].

الثَّانِي: مَا أَنْكَرَهُ الْإِسْلَامُ، وَشَهِدَ بِكَذِبِهِ؛ فَهُوَ بَاطِلٌ.

مِثَالُهُ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ﴾ [البقرة:٢٢٣].

الثَّالِثُ: مَا لَمْ يُقِرَّهُ الْإِسْلَامُ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ؛ فَيَجِبُ التَّوَقُّفُ فِيهِ؛ لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦] الْآيَةَ»، وَلَكِنَّ التَّحَدُّثَ بِهَذَا النَّوْعِ



جائِزٌ، إِذَا لَمْ يُخْشَ مَحْذُورٌ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَغَالِبُ مَا يُرْوَىٰ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ بِذِي فَائِدَةٍ فِي الدِّينِ؛ كَتَعْيِينِ لَوْنِ كَلْبِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَنَحْوِهِ).

مَعْنَى الإِسْرَائِيلِيَّاتِ:

هي: (الْأَخْبَارُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ)، سُمِّيت بذلك نسبةً إلىٰ إسرائيل عليه السلام -وهو نبيٌّ-، وبنوا إسرائيل هم اليهود والنَّصارىٰ، وسُمِّيت إسرائيليَّاتٍ من باب النِّسبة إلىٰ المُضاف إليه، وقد ذكر علماء النَّحو أنَّ النِّسبة إلىٰ المُضاف والمُضاف إليه تكون إمَّا لهما معًا، وإمَّا للمُضاف إذا كان أشهر، وإمَّا للمُضاف إليه.

ويجب الحذر من الإسرائيليَّات، خصوصًا إذا كانت تتضمَّن عيبًا أو لمزًا لأحدٍ من الأنبياء؛ مثل قصة سليمان وداود عليهما السلام.

الإسرائيليَّات ثلاثة أنواعٍ:

[١] **ما أقرَّه الإسلام وصدَّقه**: فهو حقٌّ يجب قَبولُه وتصديقُه.

[٢] **ما أنكره الإسلام وكذَّبه**: فهو باطلٌ يجب إنكارُه وتكذيبُه.

[٣] **ما لم يُقرَّه الإسلام، ولم يُنكره**: فالواجب التَّوقُّفُ فيه، وعدمُ تصديقه أو تكذيبه.

لأنَّنا قد نُصدِّق باطلًا، أو نُكذِّب حقًّا، وقد قال ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ»، ويجوز التَّكلُّم بهذا النَّوع بشرط أن لا يُخشىٰ مَحذورٌ؛ لقوله ﷺ: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»، والمَحذور الَّذي يُخشىٰ أن يتَّجه النَّاس إلىٰ هذه القَصَص، ويدَعوا ما جاء في القرآن والسُّنَّة، ففي هذه الحال تكون حكايتُها مُحرَّمةً.



مثال النَّوع الأوَّل:

(جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمٰوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَاضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ) وليس تعجُّبًا منه وإنكارًا له؛ كما زعمه أهل التَّحريف الَّذين يقولون: إنَّ الله ليس له أصابع -والعياذ بالله-، وليسوا بأعلم من ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ القائل: (تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ)! ولو كان قولُ الحَبر مُنكرًا ما اكتفىٰ النَّبيُّ ﷺ بالضَّحك، ولأنكره صراحةً، ثمَّ قرأ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما عُظِّم الله حقَّ تعظيمه، مع أنَّه ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

فائدةٌ:

لفظ (إصبع) فيه عشر لغاتٍ؛ كما في قول الشَّاعر:

وَلَفْظَ أُنْمُلَةٍ ثَلِّثْ وَثَالِثَهُ ... وَالتِّسْعُ فِي أُصْبُعٍ وَاخْتِمْ بِأُصْبُوعِ

مثال النَّوع الثَّاني:

(كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة:٢٢٣])؛ لأنَّ اليهود يرون أنَّ الولد لا يجيء سالمًا إلَّا إذا جامعها من القُبُل، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ تكذيبهم، فدلَّت الآية علىٰ أنَّ وطء المرأة في قُبُلها من خلفها جائزٌ.

وفي هذه الآية إشارةٌ إلىٰ قاعدةٍ مهمَّةٍ وهي أنَّ: (**المَأذون فيه لا يمكن أن يُحدث شرًّا**)؛ لأنَّ الله لا يُحلُّ لهم ما يضرُّهم، وجاء في خبرٍ موضوعٍ مَكذوبٍ في البقر: «**أَلْبَانُهَا شِفَاءٌ، وَسَمْنُهَا دَوَاءٌ، وَلُحُومُهَا دَاءٌ**»، ولا يمكن أن يكون داءً وقد أحلَّه الله لنا!



ثانيًا: حُكْمُ سُؤَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَمَّا سُؤَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ فَإِنَّهُ حَرَامٌ؛ لِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، أَوْ تُكَذِّبُوا بحقٍّ، وَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي».

وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؛ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ﷺ أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللهِ مَحْضًا، لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَغَيَّرُوا، فَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ، قَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ لِيَشْتَرُوا بِذَلِكَ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَوَ لَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ فَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ).

تنبيهٌ:

ذكر بعض العلماء أنَّ ابن عبَّاسٍ ممَّن عُرف بالأخذ عن بني إسرائيل، والأثر المَنقول يبيِّن أنَّ هذا لا صحَّة له؛ إذ كيف ينقل عنهم وهو ينهىٰ عنهم؟!

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ﷺ أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللهِ مَحْضًا، لَمْ يُشَبْ) أي: لم يُبدَّل، ولم يزَد فيه أو يُنقص، (وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ... فَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ)، كيف هم يسألوننا عن الَّذي أُنزل إلينا مع أنَّه آخر ما نزل، ثمَّ نحن نسألهم؟! وهذا من باب الإغراء في ترك سؤالهم، وهو كلامٌ عظيمٌ فيه تحذيرٌ ونهيٌ لعقول من في عصرنا ممَّن يذهبون ليأخذوا النُّظم والقوانين والحُكم بين النَّاس من الكفَّار، ويحكمون فيها بين المسلمين!



ثالثًا: موقِفُ العُلَماءِ مِنَ الإسْرائيليَّاتِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (اخْتَلَفَتْ مَوَاقِفُ الْعُلَمَاءِ -وَلا سِيَمَا الْمُفَسِّرُونَ- مِنْ هَذِهِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ:

أ. فَمِنْهُمْ مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا مَقْرُونَةً بِأَسَانِيدِهَا، وَرَأَىٰ أَنَّهُ بِذِكْرِ أَسَانِيدِهَا خَرَجَ مِنْ عُهْدَتِهَا؛ مِثْلَ ابْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ.

ب. وَمِنْهُمْ مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا، وَجَرَّدَهَا مِنَ الْأَسَانِيدِ غَالِبًا، فَكَانَ حَاطِبَ لَيْلٍ؛ مِثْلَ الْبَغَوِيِّ الَّذِي قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ عَنْ «تَفْسِيرِهِ»: إِنَّهُ مُخْتَصَرٌ مِنَ الثَّعْلَبِيِّ، لَكِنَّهُ صَانَهُ عَنِ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ وَالْآرَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَقَالَ عَنِ الثَّعْلَبِيِّ: إِنَّهُ حَاطِبُ لَيْلٍ يَنْقُلُ مَا وَجَدَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مِنْ: صَحِيحٍ، وَضَعِيفٍ، وَمَوْضُوعٍ.

ج. وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ كَثِيرًا مِنْهَا، وَتعَقَّبَ الْبَعْضَ مِمَّا ذَكَرَهُ بِالتَّضْعِيفِ أَوِ الْإِنْكَارِ؛ مِثْلَ ابْنِ كَثِيرٍ.

د. وَمِنْهُمْ مَنْ بَالَغَ فِي رَدِّهَا، وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهَا شَيْئًا يَجْعَلُهُ تَفْسِيرًا لِلْقُرْآنِ؛ كَمُحَمَّدِ رَشِيدِ رِضَا).

مَواقف العلماء في اعتبار الإسرائيليَّات:

[١] (مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا مَقْرُونَةً بِأَسَانِيدِهَا، وَرَأَىٰ أَنَّهُ بِذِكْرِ أَسَانِيدِهَا خَرَجَ مِنْ عُهْدَتِهَا).	[٢] (مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا، وَجَرَّدَهَا مِنَ الْأَسَانِيدِ غَالِبًا)، وهذا أقلُّ رتبةً من الأوَّل.	[٣] (مَنْ ذَكَرَ كَثِيرًا مِنْهَا، وَتَعَقَّبَ الْبَعْضَ مِمَّا ذَكَرَهُ بِالتَّضْعِيفِ أَوِ الْإِنْكَارِ)؛ كابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ، تعقَّب بعضها، وأنكره أشدَّ الإنكار، وهذا القسم أحسن من الَّذي قبله.	[٤] (مَنْ بَالَغَ فِي رَدِّهَا، وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهَا شَيْئًا)؛ كمحمَّد رشيد رضا وغيره من المُعاصرين.



اعتراضٌ على النَّوع الأوَّل:

قد يُقال: إنَّ ظنَّهم أنَّهم خرجوا من عهدة الأخبار بنقل أسانيدها فيه نظرٌ؛ لأنَّ إذا ذكرها فقد لا يتيسَّر للقارئ أن يُراجع أصولها، ولكن يُعتذر عن ابن جريرٍ وغيره أنَّه -والله أعلم- لم يكن لهم فراغٌ في تمحيصها وتحريرها، وخافوا من ضياع الصَّحيح منها، فقالوا: نثبتُها، ولعلَّ الله يأتي بمن ينقِّحها ويحرِّرها.

تفسير البغويِّ:

فيه من الإسرائيليَّات الكثير، يذكرها بدون الأسانيد، ولا يتعقَّبها، وهذه هفوةٌ منه.
لكنَّه من حيث اللُّغةُ جيِّدٌ، وتفسيره تفسير تجزئةٍ، أي: يُفسِّر جملةً جملةً، وليس كبعض المُفسِّرين يذكر الآيات الكثيرة ثمَّ يذكر المَعنىٰ مُجملًا، وكما ذكر شيخ الإسلام تفسيره خيرٌ من تفسير الثَّعلبيِّ؛ لأنَّه (صَانَهُ عَنِ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ وَالْآرَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ).

تفسير محمَّد رشيد رضا:

فيه مَسائل جيِّدةٌ، ومُؤلِّفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ممَّن يميل إلىٰ الاستقلال الفكريِّ، أي: غالبًا ما يرجع إلىٰ فكره دون أن يرجع إلىٰ غيره، لكن مع ذلك يكون استنباطُه وفهمُه جيِّدًا في تفسير القرآن، ثمَّ يتعرَّض في بعض الأحيان لأحوال المسلمين الواقعة، ويُطبِّق عليها آيات القرآن، لكنَّه لم يُتِمَّه.



الضَّمِيرُ

أوَّلاً: معنى الضَّمِيرِ وأَنْوَاعُهُ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الضَّمِيرُ لُغَةً: مِنَ الضُّمُورِ -وَهُوَ الْهُزَالُ-؛ لِقِلَّةِ حُرُوفِهِ، أَوْ مِنَ الْإِضْمَارِ -وَهُوَ الْإِخْفَاءُ-؛ لِكَثْرَةِ اسْتِتَارِهِ.

وَفِي الِاصْطِلَاحِ: مَا كُنِّيَ بِهِ عَنِ الظَّاهِرِ اخْتِصَارًا، وَقِيلَ: مَا دَلَّ عَلَىٰ حُضُورٍ أَوْ غَيْبَةٍ لَا مِنْ مَادَّتِهِمَا.

- فَالدَّالُّ عَلَىٰ الْحُضُورِ نَوْعَانِ:

١. أَحَدُهُمَا: مَا وُضِعَ لِلْمُتَكَلِّمِ؛ مِثْلَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾[غافر:٤٤].

٢. الثَّانِي: مَا وُضِعَ لِلْمُخَاطَبِ؛ مِثْلَ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[الفاتحة:٧].

وَهَذَانِ لَا يَحْتَاجَانِ إِلَىٰ مَرْجِعٍ اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ الْحُضُورِ عَنْهُ.

- وَالدَّالُّ عَلَىٰ الْغَائِبِ: مَا وُضِعَ لِلْغَائِبِ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ مَرْجِعٍ يَعُودُ عَلَيْهِ.

وَالْأَصْلُ فِي الْمَرْجِعِ أَنْ يَكُونَ سَابِقًا عَلَىٰ الضَّمِيرِ لَفْظًا وَرُتْبَةً، مُطَابِقًا لَهُ لَفْظًا وَمَعْنًىٰ؛ مِثْلَ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ﴾[هود:٤٥].

وَقَدْ يَكُونُ مَفْهُومًا مِنْ مَادَّةِ الْفِعْلِ السَّابِقِ؛ مِثْلَ: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٨].

وَقَدْ يَسْبِقُ لَفْظًا لَا رُتْبَةً؛ مِثْلَ: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾[البقرة:١٢٤].

وَقَدْ يَسْبِقُ رُتْبَةً لَا لَفْظًا؛ مِثْلَ: (حَمَلَ كِتَابَهُ الطَّالِبُ).

وَقَدْ يَكُونُ مَفْهُومًا مِنَ السِّيَاقِ؛ مِثْلَ: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ﴾[النِّساء:١١]، فَالضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ الْمَفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا تَرَكَ﴾.

وَقَدْ لَا يُطَابِقُ الضَّمِيرُ مَعْنًىٰ؛ مِثْلَ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ



﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون]؛ فَالضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ بِاعْتِبَارِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ الْمَجْعُولَ نُطْفَةً لَيْسَ الْإِنْسَانَ الْأَوَّلَ.

وَإِذَا كَانَ الْمَرْجِعُ صَالِحًا لِلْمُفْرَدِ وَالْجَمْعِ، جَازَ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَيْهِ بِأَحَدِهِمَا؛ مِثْلَ: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطَّلَاق:١١].

وَالْأَصْلُ اتِّحَادُ مَرْجِعِ الضَّمَائِرِ إِذَا تَعَدَّدَتْ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النَّجم]، فَضَمَائِرُ الرَّفْعِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَعُودُ إِلَىٰ ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ.

وَالْأَصْلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَىٰ أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، إِلَّا فِي الْمُتَضَايِفَيْنِ فَيَعُودُ عَلَىٰ الْمُضَافِ؛ لِأَنَّهُ الْمُتَحَدَّثُ عَنْهُ.

مِثَالُ الْأَوَّلِ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء:٢].

وَمِثَالُ الثَّانِي: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم:٣٤].

وَقَدْ يَأْتِي عَلَىٰ خِلَافِ الْأَصْلِ فِيمَا سَبَقَ بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ).

الضَّمير لغةً:

[١] (مِنَ الضُّمُورِ -وَهُوَ الْهُزَالُ-؛ لِقِلَّةِ حُرُوفِهِ)، فمنه ما هو علىٰ حرفٍ واحدٍ فقط مثل: (الهاء)، أو علىٰ حرفين مثل: (هو)، أو علىٰ ثلاثةٍ مثل: (نحن).

وانظر مثلًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ ... أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ [الأحزاب:٣٥]، كيف ناب الضَّمير (هم) عن عشرين كلمةً!

[٢] (مِنَ الْإِضْمَارِ -وَهُوَ الْإِخْفَاءُ-؛ لِكَثْرَةِ اسْتِتَارِهِ).



الضَّميرُ اصطلاحًا:

[١] (مَا كُنِّيَ بِهِ عَنِ الظَّاهِرِ اخْتِصَارًا)، فإذا قلت: (عمرٌو ضربه بَكرٌ) فالهاء نابت عن عمرٍو اختصارًا.

[٢] (مَا دَلَّ عَلَىٰ حُضُورٍ أَوْ غَيْبَةٍ لَا مِنْ مَادَّتِهِمَا)، وهذا تفسير ابن مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الألفيَّة، وخرج بـ(لَا مِنْ مَادَّتِهِمَا) لفظ (حضر) و(غاب) وما تصرَّف منهما فهي ليست من الضَّمائر.

ينقسمُ الضَّميرُ إلى نوعين:

[١] **ضميرُ حضورٍ:** وهو نوعان:

[أ] **للمُتكلِّم:** مثل (الياء) في: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر:٤٤].

[ب] **للمُخاطَب:** مثل (التَّاء) في: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧].

(لَا يَحْتَاجَانِ إِلَىٰ مَرْجِعٍ) يرجعان إليه؛ (اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ الْحُضُورِ عَنْهُ).

[٢] **ضميرُ غيبةٍ:**

مثل (هم) في: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة:٧]. وضمير الغائب (لَابُدَّ لَهُ مِنْ مَرْجِعٍ يَعُودُ عَلَيْهِ)، فـ(هم) في الآية يعود علىٰ ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

قاعدةٌ في تقديرِ الضَّميرِ الـمُستَتِرِ:

[١] **ضميرُ الـحُضورِ:**

إذا كان تقدير الضَّمير (أنا) أو (أنت) أو (نحن) مثلًا فهو مُستترٌ وجوبًا.

مثالُه: الفاعل في (أَقُومُ) مُستترٌ وجوبًا، وتقديره (أنا).

[٢] **ضميرُ الغَيبَةِ:**

إذا كان تقدير الضَّمير (هو) مثلًا أو (هي) فهو مُستترٌ جوازًا.

مثالُه: الضَّميرُ في (قَامَ) مُستترٌ جوازًا، وتقديره (هو).



ترتيبُ المَرجعِ مع الضَّميرِ:

[١] الأصل أن يكونَ المَرجعُ سابقًا لفظًا ورتبةً:

كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾[هود:٤٥]؛ فالهاء في ﴿رَّبَّهُۥ﴾ تعود علىٰ ﴿نُوحٌ﴾، و﴿نُوحٌ﴾ سابقٌ لفظًا، كما أنَّه فاعلٌ، والفاعل أسبق رتبةً.

[٢] قد يسبقُ لفظًا لا رتبةً:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾[البقرة:١٢٤]، فالهاء في ﴿رَبُّهُۥ﴾ تعود علىٰ ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ السَّابق لفظًا، لكنَّ ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ مَفعولٌ به فهو مُؤخَّرٌ رُتبةً.

[٣] قد يسبقُ رتبةً لا لفظًا:

مثل: (حَمَلَ كِتَابَهُ الطَّالِبُ)، فالهاء تعود علىٰ (الطَّالِبُ) المُؤخَّر لفظًا، لكنَّه فاعلٌ فهو مُقدَّمٌ رتبةً.

مُطابقةُ الضَّميرِ للمَرجعِ:

[١] الأصل أن يُطابقَه لفظًا ومعنًى:

كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾[هود:٤٥]؛ والهاء ضميرٌ مُفردٌ مُذكَّرٌ يرجع علىٰ ﴿نُوحٌ﴾ المُفرد المُذكَّر، فهو مُطابقٌ له لفظًا ومَعنًىٰ.

[٢] قد يُخالفُه لفظًا:

كقوله تعالىٰ: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[المائدة:٨] فالمَرجع هو العدل، وهو مَفهومٌ من ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، فالضَّميرُ غير مُطابقٍ لفظًا.

وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾[النِّساء:١١]، فالضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ يَعود علىٰ الميِّت المَفهوم من السِّياق.

[٣] قد يُخالفُه معنًى:

كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ﴾[المؤمنون]، فالضَّمير في ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ يعود علىٰ الإنسان لفظًا، ولو قلنا إنَّه مُطابقٌ له مَعنًىٰ لكان آدم ﷺ قد تحوَّل إلىٰ نطفةٍ!



إذا كانَ المَرجعُ صالحًا للمُفرَدِ والجمعِ:

(جَازَ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَيْهِ بِأَحدِهِمَا) أي: إمَّا الجمع أو المُفرد، مثالُ ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الطَّلاق:١١]، فضميرُ المُفرد في ﴿يُدْخِلْهُ﴾ راجعٌ علىٰ (مَنْ) الشَّرطيَّة الَّتي تصلح للمُفرد والجمع معًا، وضميرُ الجمع في ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ عائدٌ علىٰ (مَنْ) كذلك.

تعدُّدُ الضَّمائرِ:

الأصل عند تعدُّد الضَّمائر أنَّ مَرجعها واحدٌ، وهو الأقرب إلىٰ المَعنىٰ؛ لأنَّك إذا أرجعت كلَّ ضميرٍ إلىٰ مَرجعٍ تشتَّتت الضَّمائر، وصار الكلام مُبهمًا خفيًّا.

مثال ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ الهاء تعود علىٰ النَّبيِّ ﷺ، ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ جبريلُ عليه السلام، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ هيئةٍ حسنةٍ ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ كمُل، فكان علىٰ خِلقته الَّتي خُلق عليها، له ستُّ مائة جناحٍ، ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ الشَّيء المُرتفع في الجوِّ، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريلُ ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ﴾ جبريلُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ النَّبيِّ ﷺ ﴿مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ جبريلُ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، أو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلىٰ جبريل عليه السلام، وقال بعض العلماء: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ الله عَزَّ وَجَلَّ، وحملهم علىٰ ذلك قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[النَّجم]، فراعَوا آخر الآية ولم يُراعُوا أوَّلها، وشتَّتوا الضَّمائر، والصَّواب المُتعيِّن هو الأوَّل.

الأصلُ عودُ الضَّميرِ:

[١] **إلى أقرب مَذكورٍ:** مثالُه قولُه تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ﴾ الكتاب؛ لأنَّه أقرب مَذكورٍ، ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الإسراء:٢].

[٢] **إلاَّ في المُتضايفين:** فالأصل عَودُه إلىٰ المُضاف، مثالُه قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[إبراهيم:٣٤] النِّعمة، ودليله تأنيثُ الضَّمير.



أمثلةٌ لما يأتي على خلافِ الأصل:

[١] في قولِه تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾[الحجّ:٧٨]، اختُلف في المُسَمِّي علىٰ قولين:

- [أ] **الله** عَزَّ وَجَلَّ: لأنَّ الحديث هكذا مَجراه، وهذا هو الرَّاجح من السِّياق.
- [ب] **إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: لأنَّه هو أقرب مَذكورٍ.

[٢] قولُه ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**». مُتَّفقٌ عليه.
اختُلف في مَرجع الهاء علىٰ قولين:

- [أ] **الله** عَزَّ وَجَلَّ: لأنَّه هو الخالق.
- [ب] **آدم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: لأنَّه هو أقرب مَذكورٍ.

هذا هو الرَّاجح، ومَعناه:

- (علىٰ صورةِ الله) إضافة تشريفٍ وتكريمٍ، مثل قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٧٣]، ولهذا جاء في الحديث نفسه: «**إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ**»؛ لتكريمِه، وهذا قريبٌ ليس ببعيدٍ.
- (علىٰ صورةِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ)، ولا يُنافي هذا قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشُّورىٰ:١١]؛ لأنَّه لا يلزم من كونه علىٰ صورته أن يكون مُماثلًا له.

هذا التَّفسير يمنعه شيئان:

- أنَّه لا مزيَّة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا كان المَعنىٰ: خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ صورة آدم؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ خلقه اللهُ علىٰ صورة نفسِه، حتَّىٰ الفرسُ خلقه الله علىٰ صورته، وكذا إبليس...
- أنَّه ورد بلفظٍ صريحٍ: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَىٰ صُورَةِ الرَّحْمَنِ**». أخرجه الحاكم والطَّبرانيُّ. فيُحملُ الضَّميرُ المُبهَمُ علىٰ الظَّاهر المُفصَّل.



مثالٌ آخرُ لِما جاءَ على غيرِ الأصلِ:

قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾، الضَّمير في ﴿صَلَّىٰٓ﴾ يعودُ علىٰ النَّبيِّ ﷺ لا إلىٰ الَّذي ينهىٰ، ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾[العلق] كلُّه يرجع إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.



ثانيًا: الإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْأَصْلُ أَنْ يُؤْتَىٰ فِي مَكَانِ الضَّمِيرِ بِالضَّمِيرِ؛ لِأَنَّهُ أَبْيَنُ لِلْمَعْنَىٰ، وَأَخْصَرُ لِلَّفْظِ، وَلِهَذَا نَابَ الضَّمِيرُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾[الأحزاب] عَنْ عِشْرِينَ كَلِمَةً الْمَذْكُورَةَ قَبْلَهُ، وَرُبَّمَا يُؤْتَىٰ مَكَانَ الضَّمِيرِ بِالِاسْمِ الظَّاهِرِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّىٰ: الْإِظْهَارَ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ، وَلَهُ فَوَائِدُ كثيرةٌ تَظْهَرُ بِحَسَبِ السِّيَاقِ، مِنْهَا:

١. الْحُكْمُ عَلَىٰ مَرْجِعِهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ.

٢. بَيَانُ عِلَّةِ الْحُكْمِ.

٣. عُمُومُ الْحُكْمِ لِكُلِّ مُتَّصِفٍ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾[البقرة]، وَلَمْ يَقُلْ: فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لَهُ، فَأَفَادَ هَذَا الْإِظْهَارُ:

١. الْحُكْمَ بِالْكُفْرِ عَلَىٰ مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ، وَجِبْرِيلَ، وَمِيكَالَ.

٢. أَنَّ اللهَ عَدُوٌّ لَهُمْ؛ لِكُفْرِهِمْ.

٣. أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ فَاللهُ عَدُوٌّ لَهُ.

مِثَالٌ آخَرُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٧٠﴾[الأعراف]، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ، فَأَفَادَ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ:

١. الْحُكْمَ بِالْإِصْلَاحِ لِلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ الْكِتَابَ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ.

٢. أَنَّ اللهَ آجَرَهُمْ لِإِصْلَاحِهِمْ.

٣. أَنَّ كُلَّ مُصْلِحٍ لَهُ أَجْرٌ غَيْرُ مُضَاعٍ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَقَدْ يَتَعَيَّنُ الْإِظْهَارُ كَمَا لَوْ تَقَدَّمَ الضَّمِيرَ مَرْجِعَانِ يَصْلُحُ عَوْدُهُ إِلَىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَالْمُرَادُ أَحَدُهُمَا؛ مِثْلَ: اللَّهُمَّ أَصْلِحِ لِلْمُسْلِمِينَ وُلَاةَ أُمُورِهِمْ، وَبِطَانَةَ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ، إِذْ لَوْ قِيلَ: وَبِطَانَتَهُمْ لَأَوْهَمَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِطَانَةَ الْمُسْلِمِينَ).



الأصلُ أن يُؤتى في مَكانِ الضَّميرِ بالضَّمير لوجهين:

[١] **لأنَّه أبينُ للمَعنى:** لأنَّك إذا أظهرت في مَكان الإضمار فقد يظنُّ الظَّانُّ أنَّ هذا الكلام لا يرجعُ إلىٰ ما سبق.

[٢] **لأنَّه أخصر للَّفظ:** لما سبق أنَّ الضَّمير هو (مَا كُنِّيَ بِهِ عَنِ الظَّاهِرِ اخْتِصَارًا)، ومثَّل المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ ... أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾[الأحزاب:٣٥]، حيث ناب الضَّمير (هم) عن عشرين كلمةً، ولو أُعيدت كان الكلام طويلًا ركيكًا.

فوائدُ الإظهار في مَوضع الإضمار:

[١] (الْحُكْمُ عَلَىٰ مَرْجِعِهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ).

[٢] (بَيَانُ عِلَّةِ الْحُكْمِ)، وهو أنَّ علَّته ما دلَّ عليه ذلك الاسمُ الظَّاهر.

[٣] (عُمُومُ الْحُكْمِ لِكُلِّ مُتَّصِفٍ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ)، أي: إرادة العموم.

[٤] **التَّنبيه:** لأنَّ السِّياق إذا كان يقتضي الإضمار ثمَّ جاء الإظهارُ؛ فإنَّ الإنسان يتوقَّف: لماذا جاء الإظهارُ؟ فيكونُ فيه تنبيهٌ للقارئ أو المُخاطَب.

بيانُ الفائدةِ الأولى:

المَقصودُ منها أنَّنا نحكم علىٰ المَرجع بما يقتضيه الاسمُ الظَّاهرُ، فإذا كان الاسمُ الظَّاهرُ يقتضي الكفر حكمنا علىٰ مَرجعه بأنَّه كافرٌ، وإذا كان يقتضي الظُّلم حكمنا علىٰ مَرجعه بأنَّه ظالمٌ، وهكذا.



المثالُ الأوَّلُ:

قولُه تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾[البقرة]، مُقتضىٰ السِّياق أن يُقال: (فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لَهُ)، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ فأفادنا:

[١] الحكم بالكفر علىٰ مَن كان عدُوًّا لله، وملائكتِه، ورسلِه، وجبريلَ، وميكالَ، ولو أضمر لم نستفد كفر مَن كان عدُوًّا لهؤلاء، وإنَّما يكون الله عدُوًّا له، لكن لا ندري هل هو كافرٌ، أم ظالمٌ، أم فاسقٌ؟

[٢] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ تفيد التَّعليل: أنَّ الله عدوٌّ لهم لكُفرهم، ولو أضمر لم تتبيَّن علَّة العداوة.

[٣] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ تُفيد العُموم، وهو أنَّ كلَّ كافرٍ فاللهُ عَزَّوَجَلَّ عدوٌّ له.

[٤] لما كان الكلام علىٰ نسقٍ واحدٍ، ثمَّ جاء ما يُخالفُه؛ فإنَّ السَّامع سيتوقَّف ويتنبَّه.

المثالُ الثَّاني:

قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ تمسُّكًا تامًّا ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾[الأعراف]، مُقتضىٰ السِّياق أن يُقال: (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ)، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾؛ فأفادنا:

[١] الحكم للَّذين يُمسِّكون بالكتاب، ويقيمون الصَّلاة بأنَّهم مُصلحون، ولو قال: (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ) لم يتبيَّن هذا.

[٢] أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ آجرهم لإصلاحهم، وهذه إفادةٌ عاليةٌ.

[٣] أنَّ كلَّ مُصلحٍ فله أجرٌ غيرُ مُضاعٍ عند الله عَزَّوَجَلَّ.

[٤] تنبيه القارئ أو السَّامع كما تقدَّم.



قاعدةٌ: يتعيَّن الإظهارُ إذا خيفَ الالتباسُ

هذه قاعدةٌ مَعروفةٌ في النَّحو: (إذا خيف الالتِباسُ وجب أن يُحوَّل الكلامُ إلىٰ ما ليس فيه التِباسٌ)، قال المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَدْ يَتَعَيَّنُ الْإِظْهَارُ كَمَا لَوْ تَقَدَّمَ الضَّمِيرَ مَرْجِعَانِ يَصْلُحُ عَوْدُهُ إِلَىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَالْمُرَادُ أَحَدُهُمَا؛ مِثْلَ: اللَّهُمَّ أَصْلِح لِلْمُسْلِمِينَ وُلَاةَ أُمُورِهِمْ، وَبِطَانَةَ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ، إِذْ لَوْ قِيلَ: وَبِطَانَتَهُمْ لَأَوْهَمَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِطَانَةَ الْمُسْلِمِينَ)، وهذا واضحٌ.



ثالِثًا: ضَمِيرُ الفَصْل

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (ضَمِيرُ الْفَصْلِ حَرْفٌ بِصِيغَةِ ضَمِيرِ الرَّفْعِ الْمُنْفَصِلِ، يَقَعُ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ إِذَا كَانَا مَعْرِفَتَيْنِ، وَيَكُونُ:

- بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾[طه:١٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥﴾[الصَّافَّات:١٦٥].
- وَبِضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ﴾[المائدة:١١٧].
- وَبِضَمِيرِ الْغَائِبِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾[البقرة].

وَلَهُ ثَلَاثَةُ فَوَائِدَ:

- الْأُولَىٰ: التَّوْكِيدُ، فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ هُوَ أَخُوكَ؛ أَوْكَدُ مِنْ قَوْلِكَ: زَيْدٌ أَخُوكَ.
- الثَّانِيَةُ: الْحَصْرُ، وَهُوَ: اخْتِصَاصُ مَا قَبْلَهُ بِمَا بَعْدَهُ، فَإِنَّ قَوْلَكَ: الْمُجْتَهِدُ هُوَ النَّاجِحُ؛ يُفِيدُ اخْتِصَاصَ الْمُجْتَهِدِ بِالنَّجَاحِ.
- ثَالِثًا: الْفَصْلُ، أَيْ: التَّمْيِيزُ بَيْنَ كَوْنِ مَا بَعْدَهُ خَبَرًا أَوْ تَابِعًا، فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ الْفَاضِلُ؛ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ صِفَةً لِزَيْدٍ، وَالْخَبَرُ مُنْتَظَرٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا، وَإِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ هُوَ الْفَاضِلُ؛ تَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا؛ لِوُجُودِ ضَمِيرِ الْفَصْلِ).

ضَمِيرُ الفصلِ:

(حَرْفٌ بِصِيغَةِ ضَمِيرِ الرَّفْعِ الْمُنْفَصِلِ)، هذا يدلُّ علىٰ أنَّه لا محلَّ له من الإعراب، قال تعالىٰ: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ٤٠﴾[الشُّعراء]، ولو كان له محلٌّ من الإعراب لقال: (هم الغالبون)، (يَقَعُ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ إِذَا كَانَا مَعْرِفَتَيْنِ) سواءٌ كانا مَنسوخين أم غير مَنسوخين.



يأتي ضميرُ الفَصلِ:

[١] بضمير الـمُتكلِّم:

كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه:١٤]، فالضَّمير ﴿أَنَا﴾ وقع بين المُبتدأ وهو (الياء) في ﴿إِنَّنِيٓ﴾ والخبر ﴿ٱللَّهُ﴾، وكلاهما مَعرفةٌ، وهما مَنسوخان.

وكقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥﴾ [الصَّافات:١٦٥]، ولو قال: (وإنَّا الصَّافُّونَ) صحَّ، لكن أُتي بضمير الفصل للفوائد الَّتي ستأتي.

[٢] بضمير الـمُخاطَب:

كقوله تعالىٰ: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة:١١٧]، فالضَّمير ﴿أَنتَ﴾ وقع بين المُبتدأ وهو (التَّاء) في ﴿كُنتَ﴾ والخبر ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾، وكلاهما مَعرفةٌ، وهما مَنسوخان.

[٣] بضمير الغائب:

كقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾[البقرة]، فالضَّمير ﴿هُمُ﴾ وقع بين المُبتدأ (أُولَئِكَ) والخبر ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، وكلاهما مَعرفةٌ، وهما غير مَنسوخين.

فوائدُ الإتيانِ بضميرِ الفَصلِ:

[١] التَّوكيدُ:

(فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ هُوَ أَخُوكَ؛ أَوْكَدُ مِنْ قَوْلِكَ: زَيْدٌ أَخُوكَ).

[٢] الحصرُ:

(وَهُوَ: اخْتِصَاصُ مَا قَبْلَهُ بِمَا بَعْدَهُ، فَإِنَّ قَوْلَكَ: الْمُجْتَهِدُ هُوَ النَّاجِحُ؛ يُفِيدُ اخْتِصَاصَ الْمُجْتَهِدِ بِالنَّجَاحِ)، وغيرُ المُجتهد لا نجاح له، وربَّما يُعبِّر بعضُهم بقوله: يُفيد الحصر، والمَعنىٰ واحدٌ.

[٣] الفَصلُ:

(أَيْ: التَّمْيِيزُ بَيْنَ كَوْنِ مَا بَعْدَهُ خَبَرًا أَوْ تَابِعًا، فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ الْفَاضِلُ؛ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ صِفَةً لِزَيْدٍ، وَالْخَبَرُ مُنْتَظَرٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا، وَإِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ هُوَ الْفَاضِلُ؛ تَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا).



هل ضَميرُ الفَصلِ هو ضميرُ الشَّأنِ؟

ضميرُ الفصل غيرُ ضمير الشَّأن، فضميرُ الشَّأن له مَحلٌّ من الإعراب، ويكون مَحذوفًا، بين ضميرُ الفصل مَوجودٌ، وليس له مَحلٌّ من الإعراب.

ولهذا فإنَّ تقسيم بعضِهم الخير إلىٰ جملةٍ إسميَّةٍ وفعليَّةٍ ضعيفٌ، فمثلًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾[آل عمران]، يقولون: ﴿أَنتَ﴾ ضميرٌ مُنفصلٌ، وهو مُبتدأٌ ثانٍ، و﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ خبرٌ، وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّك إذا أعربتَ هكذا صار الخبرُ جملةً، وأصل الخبر مُفرَدٌ.



رَابِعًا: الالْتِفَاتُ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الِالْتِفَاتُ: تَحْوِيلُ أُسْلُوبِ الْكَلَامِ مِنْ وَجْهٍ إِلَىٰ آخَرَ، وَلَهُ صُوَرٌ مِنْهَا:

١. الِالْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّاكَ﴾.

٢. الِالْتِفَاتُ مِنَ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس:٢٢]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾.

٣. الِالْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ التَّكَلُّمِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[المائدة:١٢]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَعَثْنَا﴾.

٤. الِالْتِفَاتُ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

وَلِلِالْتِفَاتِ فَوَائِدُ مِنْهَا:

١. حَمْلُ الْمُخَاطَبِ عَلَىٰ الِانْتِبَاهِ؛ لِتَغَيُّرِ وَجْهِ الْأُسْلُوبِ عَلَيْهِ.

٢. حَمْلُهُ عَلَىٰ التَّفْكِيرِ فِي الْمَعْنَىٰ؛ لِأَنَّ تَغَيُّرَ وَجْهِ الْأُسْلُوبِ يُؤَدِّي إِلَىٰ التَّفْكِيرِ فِي السَّبَبِ.

٣. دَفْعُ السَّآمَةِ وَالْمَلَلِ عَنْهُ؛ لِأَنَّ بَقَاءَ الْأُسْلُوبِ عَلَىٰ وَجْهٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي إِلَىٰ الْمَلَلِ غَالِبًا.

وَهَذِهِ الْفَوَائِدُ عَامَّةٌ لِلِالْتِفَاتِ فِي جَمِيعِ صُوَرِهِ، أَمَّا الْفَوَائِدُ الْخَاصَّةُ فَتَتَعَيَّنُ فِي كُلِّ صُورَةٍ حَسَبَ مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ).



براعةُ الاختتام:

براعة الاختتام أن يُؤتىٰ في آخر الكلام بما يدلُّ علىٰ الانتهاء، وختمُ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بباب (الالتفات) كأنَّه التف عن هذا الكتاب إلىٰ آخر.

الالتفاتُ هو: (تَحْوِيلُ أُسْلُوبِ الْكَلَامِ مِنْ وَجْهٍ إِلَى آخَرَ)، وله صُوَرٌ:

[١] (مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ).

[٢] (مِنَ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ).

[٣] (مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ).

[٤] (مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ).

فوائدُ عامَّةٌ في الالتفاتِ:

[١] (حَمْلُ الْمُخَاطَبِ عَلَى الِانْتِبَاهِ)؛ لتغيُّر وجه الأسلوب، وهذا يلزم منه انتباهُ المُخاطَب، وانظر مثلًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:٦٩]، إذا قرأتها انتبهتَ: لماذا صارت ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مرفوعةً؟

[٢] (حَمْلُهُ عَلَى التَّفْكِيرِ فِي الْمَعْنَىٰ)؛ لأنَّ تغيُّر وجه الأسلوب يؤدِّي إلىٰ التَّفكير في السَّبب، والتماس العلَّة.

[٣] (دَفْعُ السَّآمَةِ وَالْمَلَلِ عَنْهُ)؛ لأنَّ بقاء الأسلوب علىٰ وجهٍ واحدةٍ يؤدِّي إلىٰ الملل غالبًا، ولذلك ذهب بعض القرَّاء إلىٰ تغيير الأسلوب بالصَّوت، وبعض الخطباء إذا أتىٰ علىٰ آيةٍ يقرؤها تلاوةً مُرتَّلةً، وهذا لا بأس به؛ لأنَّه يؤدِّي للانتباه، لكنَّه قد يشوِّش علىٰ السَّامع فيجعلهُ يُفكِّر: هل هذا الفعلُ جائزٌ؟

مثالُ النَّوعِ الأوَّلِ من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ كلُّها بصيغة الغَيبة، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، التفاتٌ إلىٰ الخِطاب.

والفوائد الثَّلاثة المَذكورة مَوجودةٌ هنا، وهي فوائد عامَّةٌ في كلِّ التفاتٍ، لكنَّ الخاصَّة هنا أنَّك لمَّا أثنيت علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بما أثنيت به من كونه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ كأنَّه بهذا الثَّناء صار حاضرًا أمامك، فقلتَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

ومن الأمثلة كذلك قولُه تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾، وهذا بصيغة الغَيبة، والمَقصودُ هو النَّبيُّ ﷺ، ثمَّ قال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾[عبس] انتقل إلىٰ الخطاب، ولم يقُل أوَّلًا: (عَبَسْتَ وَتَوَلَّيْتَ) لما فيه من الغضاضة في حقِّه ﷺ.

مثالُ النَّوعِ الثَّاني من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ خطابٌ، ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ انتقل إلىٰ الغَيبة، ولم يقل: (وجرين بكم) كراهة أن يتَّصف المُخاطبون -وهم المسلمون- بما ذُكر بعد ذلك، ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢﴾[يونس]، فهذه الأوصاف لا تُوجَّه إلىٰ المُخاطَبين المُسلمين لما فيها من الغضاضة.

مثالُ النَّوعِ الثَّالث من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بصيغة الغَيبة، ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾[المائدة:١٢] انتقل اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلىٰ التَّكلُّم، ولم يقل: (وبَعَثَ)، والتَّكلُّم أبلغ إشارةً إلىٰ عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه هو الَّذي يبعثُ الرُّسل.



مثالُ النَّوعِ الرَّابع من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ بصيغة التَّكلُّم، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾[الكوثر] انتقل اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلىٰ الغَيبة، ولم يقل: (فَصَلِّ لَنَا)، ومن الفوائد الخاصَّة هنا فائدةُ الإظهار، وهي: الإشارة إلىٰ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ منحك هذا للفضائل الخاصَّة بك؛ لأنَّ الكوثر من خصائص الرَّسول ﷺ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وَاللهُ أَعْلَمُ،

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ،

وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ،

تَمَّ، وَللهِ الْحَمْدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ).



الاِخْتِبَارُ الثَّالثُ:

[١] اختر الإجابة الصَّحيحة:

- يلزمُ مِن روايةِ الصَّحابةِ للاسرائيليَّات: ❍ قَبولُها. ❍ تضعيفُها. ❍ التَّوقُّفُ فيها.
- اتَّسمَت روايةُ الصَّحابة لأخبار بنى إسرائيلَ بـ: ❍ الكثرةِ. ❍ القلَّةِ. ❍ التَّوسُّطِ.
- الأخبارُ المَنقولةُ عن أهل الكتاب تُسمَّىٰ:

  ❍ المَوقوفاتِ. ❍ المَقطوعاتِ. ❍ الإسرائيليَّاتِ.
- قد يُستغنىٰ عن جواب القَسَم من غير تقدير: ❍ صح. ❍ خطأٌ.
- يلزمُ اقترانُ (اللَّام) بجوابِ القسم إذا كان: (ماضيًا مُثبَتًا مُتصرِّفًا مُتقدِّمَ المَعمولِ):

  ❍ صح. ❍ خطأٌ.
- القَسَمُ يكون في الغالب: (جُملةً طلبيَّةً): ❍ صح. ❍ خطأٌ.

مُلْحَقٌ فِيهِ بَعْضُ الْمُتُونِ الْمُهِمَّةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ فِي أَبْوَابِ الاعْتِقَادِ وَأُصُولِ التَّفْسِيرِ



متن: «العَقِيدَةِ الوَاسِطِيَّةِ»

لِشَيْخِ الإِسْلامِ:
أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الحَلِيمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القسم الأوَّل: المُقدِّمة

الحمْدُ لله الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا، وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ؛ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا.

اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ -أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ-:

الإِيمانُ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ؛ بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشُّورىٰ].

فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ، وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وآيَاتِهِ، وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: لاَ سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ، وَلاَ نِدَّ لهُ. ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ.

ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُون؛ بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾[الصَّافات]، فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلاَمَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.



وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّىٰ بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ.

فَلَا عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَت بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ.

وَقَدْ دَخَلَ فِي هذِهِ الْجُمْلَةِ: مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ «الإِخْلَاصِ» الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]، وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِ الله؛ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾[البقرة]. أَيْ لاَ يُكْرِثُهُ وَلاَ يُثْقِلُهُ، وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ يُصْبِحَ، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨].

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾[الحديد]، وَقَوْلُه سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم]، ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾ [التَّحريم]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ﴾[سبإ:٢]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾[الأنعام]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾[فاطر:١١]، وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾[الذَّاريات].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[الشُّورىٰ]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾[النِّساء].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾[الكهف:٣٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾[البقرة]،



وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾[الأنعام:١٢٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾[المائدة].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التَّوبة]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[البقرة]، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾[الصَّف]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[آل عمران:٣١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾[المائدة:١١٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾[النمل]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر:٧]، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾[الأحزاب]، وَقَالَ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام:٥٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يونس:١٠٧]، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[يوسف].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾[النساء:٩٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾[محمَّد]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾[الزخرف:٥٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾[التوبة:٤٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[الصَّف]، وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ﴾[البقرة:٢١٠]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام:١٥٨]، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[الفجر]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمٰن]، وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾ [القصص:٧٧].



وَقَوْلُــــهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة:٦٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطُّـور:٤٨]، ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾[القمر]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه].

وَقَوْلُـــــــهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلـــــة:١]، وَقَوْلُـــــهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[آل عمـــران:١٨١]، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طــه]، وَقَوْلُــهُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾[الزُّخــــــرف]، وَقَوْلُـــــــهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾[العلــق]، وَقَوْلُــهُ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشُّـعراء]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:١٠٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾[الرَّعـد]، وَقَوْلُـهُ: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾[آل عمران]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾[الطارق]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾[النسـاء]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[النُّور].

وَقَوْلُــهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ ﴾ [المنـافقون:٨]، وَقَوْلُـهُ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾[ص].

وَقَوْلُهُ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرَّحمٰن].

وَقَوْلُـــــهُ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مـــــريم]، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخـــــلاص]، وَقَوْلُـــــهُ:﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقـــــــــــرة]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقـــرة:١٦٥]، ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن]، وَقَوْلُهُ:﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ



نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾[الفرقان]، وَقَوْلُهُ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المؤمنون]، وَقَوْلُهُ: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[النحل]، وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف].

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾[طه]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[الأعراف:٥٤] فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ، وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾[آل عمران:٥٥]، ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ ﴾[النساء:١٥٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ ﴾ [فاطر:١٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ ﴾ [غافر]، وَقَوْلُهُ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الملك]، وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الحديد]، وَقَوْلُهُ: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾[المجادلة:٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة:٤٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[طه]، وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[الأنفال]، وَقَوْلُهُ: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾[النساء]، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾[النساء:١٢٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾[المائدة:١١٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ ﴾[الأنعام:١١٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾[النّساء]،



وَقَوْلُهُ: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾[مريم]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾[الشّعراء]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾[الأعراف:٢٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص:٦٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾[البقرة:٧٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح:١٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[الكهف:٢٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النّمل:٧٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[الأنعام:٩٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾[النحل].

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[المطفِّفين:٢٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق].

وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَىٰ مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.

القسم الثَّالثُ: الأدلَّةُ من السُّنَّةِ

ثُمَّ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ ﷺ بِهِ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ= وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ:**



مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ» الْحَدِيثُ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلِهِ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ يَضْحَكُ، يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ». حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَىٰ فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ [وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمَهُ] فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطِ قَط». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلِهِ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَىٰ النَّارِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلِهِ: «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ».

وَقَوْلِهِ -فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ-: «رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَىٰ هَـٰذَا الْوَجِعِ؛ فَيَبْرَأَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَقَوْلِهِ: «أَلا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلِهِ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا.

وَقَوْلِهِ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ». حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَقَوْلِهِ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الصَّلاةِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ؛ فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ؛ وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ،



وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَوْلِهِ لَمَّا رَفَعَ أَصْحَابُهُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلِهِ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن لاَّ تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

القسم الرَّابعُ: وسطيَّةُ أهل السُّنَّةِ

... إِلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رسُولُ اللهِ ﷺ عَن رَّبِهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ؛ فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ؛ بَلْ **هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ**؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الأُمَمِ.

فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ ﷻ بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ «الْجَهْمِيَّةِ»، وَبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ «الْمُشَبِّهَة».

وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ تَعَالَىٰ بَيْنَ «الْقَدَرِيَّةِ» وَ«الْجَبْرِيَّةِ».

وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ «الْمُرْجِئَةِ» وَبَيْنَ الْوَعِيدِيَّةِ مِنَ «الْقَدَرِيَّةِ» وَغِيْرِهِمْ.

وَفِي بَابِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَيْنَ «الْحَرُورِيَّةِ» وَ«الْمُعْتَزِلَةِ»، وَبَيْنَ «الْمُرْجِئَةِ» وَ«الْجَهْمِيَّةِ».

وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ «الرَّوافِضِ» وَ بَيْنَ «الْخَوَارِجِ».

القسم الخامسُ: فصولٌ مُتفرِّقةٌ

وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَن رَّسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ؛ مِنْ أَنَّهُ ﷻ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَىٰ عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد]، وَلَيْسَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لاَ تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلاَفُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ وَخِلاَفُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ؛ بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ



مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ العَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَىٰ خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ إِلَيْهِم... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِن مَّعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَكُلُّ هَذَا الْكَلامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ -مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا- حَقٌّ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، لاَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ.

وَقَد دَّخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلْقِهِ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[البقرة]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُم مِن عُنقِ رَاحِلَتِهِ». وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لاَ يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّه، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

وَمِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ الإِيمانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ ﷻ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لاَ كَلامَ غَيْرِهِ. وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلاَمِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ عَنْهُ؛ بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ ﷻ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلاَمَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَىٰ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ مُبْتَدِئًا، لاَ إِلَىٰ مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا.

وَقَد دَّخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِكُتُبِهِ وَبِرُسُلِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ.

يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ ﷻ.

وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ.

فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُون فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ للرَّجُلِ: مَن رَّبُكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّك؟ فَيُثَبِّتُ اللهُ الذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: اللهُ رَبِّي، وَالإِسْلاَمُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ نَبِيِّي. وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: آه، آه؛ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصَعِقَ.



ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْكُبْرىٰ، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَىٰ الأَجْسَادِ.

وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ. فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ.

وَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَاد، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[المؤمنون].

وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِن وَّراءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[الإسراء].

وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لاَ حَسَنَاتٍ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدَّدُ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَىٰ، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا يُجْزَوْنَ بِهَا.

وَفِي عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ «الْحَوضُ» الْمَوْرُودُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَن شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.

وَ«الصِّرَاطُ» مَنْصُوبٌ عَلَىٰ مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمَنْهُم مَن يُخْطَفُ فَيُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسْرَ عَلَيْهِ كَلاَلِيبُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم.

فَمَنْ مَرَّ عَلَىٰ الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ.

فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وَقَفُوا عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.



وَأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ ﷺ.

وَلَه فِي الْقِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ:

أَمَّا «الشَّفَاعَةُ الأُوْلَىٰ»: فَيَشْفَعُ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَىٰ، وَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ السَّلَامُ= الشَّفَاعَةَ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا «الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ»: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.

وَهَاتَانَ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

وَأَمَّا «الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ»: فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لاَّ يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا.

وَيُخْرِجُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغِيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، وَيَبْقَىٰ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

وَأَصْنَافُ مَا تَتَضَمَّنُهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلِ ذَلِكَ= مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالأَثَارَةِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

وَتُؤْمِنُ «الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ» بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَىٰ دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ.

فَالدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلِمَ مَا الْخَلْق عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ.

فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾[الحج:٧٠]، وَقَالَ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾[الحديد]، وَهَذَا



التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ ﷻ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً:

فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ.

فَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، بِكَتْبِ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ.. وَنَحْوَ ذَلِكَ.

فَهَذَا الْقَدَرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلاَ سُكُونٍ إِلاَّ بِمَشِيئَةِ اللهِ ﷻ، لاَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لاَ يُرِيدُ، وَأَنَّهُ ﷻ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ إِلاَّ اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ.

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَىٰ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلاَ يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلاَ يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ.

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِم.

وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ. وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ وَلَهُمْ إِرَادَة، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَخالق قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ؛ كَمَا قَالَ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[التكوير].

وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّىٰ سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

وَمِنْ أُصُولِ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ. وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي آيَةِ الْقِصَاصِ: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ



أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة:١٧٨]، وَقَالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحُجرات].

وَلاَ يَسْلُبُونَ «الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ» اسم الإيمَانَ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلاَ يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّار؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ.

بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإيمَان؛ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]، وَقَدْ لاَ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**». وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلاَ يُعْطَىٰ الاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلاَ يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ.

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلاَمَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر]، وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهُ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ». وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ «الْكِتَابُ» وَ«السُّنَّةُ» وَ«الإِجْمَاعُ» مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ.

فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ -وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ- وَقَاتَلَ عَلَىٰ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ. وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَىٰ الأَنْصَارِ.

وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ -وَكَانُوا ثَلاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ-: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». وَبِأَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعمِائَة. وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، كَالْعَشَرَةِ، وَكَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِم مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ



هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ. وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَتِ الصَّحَابَةُ عَلَىٰ تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ.

مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ -بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَىٰ تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ- أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ: وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا.

لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَىٰ تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ.

وَإِنْ كَانَتْ هَذِه الْمَسْأَلَةُ -مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ- لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ. لَكِنّ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا مَسْأَلَةُ الْخِلاَفَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ. وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلاَفَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ.

وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**».

وَقَدْ قَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّه -وَقَدِ شَكَا إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ- فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحِبُّوكُمْ؛ للهِ وَلِقَرَابَتِي**».

وَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**».

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ؛ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ: خُصُوصًا خَدِيجَةَ أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلاَدِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَىٰ أَمْرِه، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ. وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «**فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ**».

وَيَتَبَرَّءُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ. وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمَنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَعَامَّةُ الصَّحِيحِ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.



وَهُم مَّعَ ذَلِكَ لاَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَهُم مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ -إِنْ صَدَرَ-، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُم مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لاَ يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لأَنَّ لَهُم مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّن بَعْدَهُمْ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ عَنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَىٰ بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلاَءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ: إنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَؤُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مغْفُورٌ.

ثُمَّ الْقَدْرُ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَمَن نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِم مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خِيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ؛ لَا كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتَ الأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِم مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ مِنْ طَرِيقِ «أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ» اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَيثُ قَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**».



وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيُؤْثِرُونَ كَلاَمَ اللهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَىٰ هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ.

وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الاِجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ.

وَالإِجْمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ.

وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِه الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ.

وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلاَفُ، وَانْتَشَرَتِ فِي الأُمَّةِ.

ثُمَّ هُمْ مَعَ هذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ، وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَىٰ الْجَمَاعَاتِ.

وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ؛ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ﷺ.

وَقَوْلِهِ ﷺ : «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الواحد؛ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ**».

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

وَيَدْعُونَ إِلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»، وَيَنْدُبُونَ إِلَىٰ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالإِحْسَانِ إِلَىٰ الْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخُيَلاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَىٰ الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلاَقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا.

وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الإِسْلاَمِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.



لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ. وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**هُمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإِسْلامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمُ أَعْلامُ الْهُدَىٰ، وَمَصَابِيحُ الدُّجَىٰ، أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ، وَمِنْهُمُ الأَئِمَّةُ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّتِي قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ، لاَ يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَذَلَهُمْ؛ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**».

القسمُ السَّادسُ: الخاتمةُ

فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ، وَأَنْ لاَ يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهَبَ لَنَا مِن لَّدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ.

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَىٰ خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.





متن: «الفَتْوَى الحَمَوِيَّةِ الكُبْرَى»

لِشَيْخِ الإِسْلامِ:

أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الحَلِيمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسَّلام علىٰ من لا نبي بعده.

سئل شيخ الإسلام العالم الرَّباني تقيُّ الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: ما قول السَّادة العلماء أئمّة الدِّين في آيات الصِّفات؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١]، إلىٰ غير ذلك من آيات الصِّفات، وأحاديث الصِّفات؛ كقوله ﷺ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ**»، وقوله: «**يَضَعُ الْجَبَّارُ قَدَمَهُ فِي النَّارِ**» إلىٰ غير ذلك، وما قالت العلماء فيه، وابسطوا القول في ذلك مأجورين إن شاء الله تعالىٰ؟ فأجاب رَحِمَهُ اللهُ:

الحمد لله ربِّ العالمين، قولنا فيها ما قاله اللهُ ورسوله ﷺ والسّابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما قاله أئمَّة الهُدىٰ بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون علىٰ هدايتهم ودرايتهم، وهٰذا هو الواجب علىٰ جميع الخلق في هٰذا الباب وغيره؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعث محمَّدًا ﷺ بالهدىٰ ودين الحقّ ليُخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور بإذن ربهم إلىٰ صراط العزيز الحميد، وشهِدَ له بأنّه بعثَه داعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا، وأمره أن يقول: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف:١٠٨].

فمِن المحال في العقل والدِّين أن يكون السِّراج المُنير الذي أخرج اللهُ به النَّاسَ من الظّلمات إلىٰ النّور، وأنزل معه الكِتاب بالحق ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه، وأمر



النَّاسَ أن يردُّوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلىٰ ما بُعث بـه مـن الكتـاب والحكمـة، وهـو يدعو إلىٰ الله وإلىٰ سبيله بإذنه علىٰ بصيرة، وقد أخبر اللهُ بأنه أكملَ له ولأمّته دينهم وأتـمَّ عليهم نعمته، محال -مع هـٰذا وغيره- أن يكون قد ترك بابَ الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهًا، ولم يميِّز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنىٰ والصِّفات العليا، وما يجوز عليه وما يمتنع عليه.

فإنّ معرفة هـٰذا أصل الدِّين، وأساس الهداية، وأفضـل وأوجـب مـا اكتسبته القلـوب وحصّلته النُّفوس، وأدركته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب، وذلـك الرّسـول، وأفضـل خلق الله بعد النبيِّين لم يُحكِموا هـٰذا الباب اعتقادا وقولًا!

ومـن المحـال أيضًـا أن يكـون النبـي ﷺ قـد علّـم أمّتـه كـل شـيء حتـىٰ الخِـراءة، وقال: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**»، وقال فيما صح عنه أيضًا: «**مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ خَيْـرِ مَـا يَعْلَمُـهُ لَهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ شَرِّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ**».

وقال أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لقد تُوفِّي رسول الله ﷺ وما طائر يقلِّب جناحيه في السّماء إلا ذكر لنا منه علمًا.

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا فذكر بدء الخلق حتـىٰ دخـل أهل الجنة منازلهم وأهل النّار منـازلهم، حفـظ ذلـك مـن حفظـه ونسيه مـن نسيه. رواه البخاري.

ومحالٌ مع تعليمهم كلَّ شيءٍ لهم فيه منفعة في الدِّين -وإن دقّت- أن يترك تعليمهم مـا يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربِّهم ومعبودهم ربِّ العالمين، الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب؛ بل هـٰذا خلاصة الدّعوة النبوية وزبدة الرِّسالة الإلهية، فكيف يتوهَّم من في قلبه أدنىٰ مُسكة مـن إيمـان وحكمـة ألَّا يكون بيان هـٰذا الباب قد وقع من الرّسول علىٰ غاية التَّمام، ثم إذا كان قد وقـع ذلـك منـه فمن المُحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصَّروا في هـٰذا الباب؛ زائدين فيه أو ناقصين عنه.

ثم من المحال أيضًا أن تكون القُرون الفاضلة القرن الذي بُعث فيه رسول ﷺ ثم الذين



يلونهم، ثم الذين يلونهم؛ كانوا غيرَ عالمين به وغير قائلين في هـٰذا الباب بالحقّ المُبين؛ لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصِّدق. وكلاهما ممتنع.

أمَّا الأول فلأن من في قلبه أدنىٰ حياةٍ وطلبٍ للعلم أو نَهمةٍ في العبادة، يكون البحث عن هـٰذا الباب والسُّؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده وأعظم مطالبه؛ أعني: بيان ما ينبغي اعتقادُه لا معرفة كيفية الرَّب وصفاته.

وليست النفوس الصَّحيحة إلىٰ شيءٍ أشوق منها إلىٰ معرفة هـٰذا الأمر.

وهـٰذا أمر معلوم بالفطرة الوجدية، فكيف يُتصوّر مع قيام هـٰذا المقتضي الذي هو من أقوىٰ المقتضيات أن يتخلّف عنه مقتضاه في أولئك السّادة في مجموع عصورهم. هـٰذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق، وأشدّهم إعراضًا عن الله وأعظمهم إكبابا علىٰ طلب الدُّنيا والغفلة عن ذكر الله تعالىٰ، فكيف يقع في أولئك؟!

وأما كونُهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائليه فهـٰذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم.

ثم الكلام في هـٰذا الباب عنهم أكثر من أن يمكن سطره في هـٰذه الفتوىٰ أو أضعافها يعرف ذلك من طلبه وتتبَّعه.

ولا يجوز أيضا أن يكون الخالفون أعلم من السّالفين، كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدّر قدر السّلف؛ بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من أنَّ: «**طريقةَ السَّلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم**».

فإنَّ هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم علىٰ طريقة السَّلف إنما أُتوا من حيث ظنوا أنَّ طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث، من غير فقهٍ لذلك، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، وأنّ طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللّغات.

فهـٰذا الظَّن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد كذَبُوا علىٰ طريقة السّلف، وضلّوا في تصويب طريقة الخلف؛ فجمعوا بين الجهل بطريقة



السّلف في الكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف.

وسبب ذلك اعتقادُهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هـٰذه النصوص بالشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين؛ فلما اعتقدوا انتفاء الصِّفات في نفس الأمر وكان مع ذلك لابدّ للنصوص من معنًىٰ بقوا متردّدين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنىٰ -وهي التي يسمُّونها طريقة السّلف- وبين صرف اللفظ إلىٰ معانٍ بنوع تكلُّف -وهي التي يسمُّونها طريقة الخلف-، فصار هـٰذا الباطل مركَّبًا من فساد العقل والكفر بالسّمع، فإن النّفي إنما اعتمدوا فيه علىٰ أمور عقلية ظنوها بيِّنات وهي شبهات، والسمع حرفوا فيه الكلمَ عن مواضعه.

فلمَّا انبنىٰ أمرهم علىٰ هاتين المقدِّمتين الكاذبتين الكُفريتين كانت النتيجة: استجهال السّابقين الأوَّلين واستبلاههم، واعتقاد أنهم كانوا قومًا أميين بمنزلة الصّالحين من العامة، لم يتبحَّروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطَّنوا لدقائق العلم الإلهي، وأنّ الخلف الفضلاء حازوا قصب السّبق في هـٰذا كله.

ثم هـٰذا القول إذا تدبّره الإنسان وجده في غاية الجهالة؛ بل في غاية الضلالة.

كيف يكون هؤلاء المتأخِّرون، لاسيما والإشارة بالخلف إلىٰ ضربٍ من المتكلِّمين الذين كثر في باب الدِّين اضطرابهم، وغلُظ عن معرفة الله حجابهم، وأخبر الواقف علىٰ نهاية إقدامهم بما انتهىٰ إليه أمرهم حيث يقول:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَىٰ ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

وأقرّوا علىٰ أنفسهم بما قالوه متمثِّلين به أو منشئين له فيما صنفوه من كتبهم كقول بعض رؤسائهم:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذًىٰ وَوَبَالُ



وَلَـمْ نَسْـتَفِدْ مِـنْ بَحْثِنَـا طُـولَ عُمْـرِنَا سِـوَىٰ أَنْ جَمَعْنَـا فِيـهِ قِيـلَ وَقَـالُوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠﴾ [طه]، ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. ا.هـ

ويقول الآخر منهم: لقد خُضت البحر الخِضَم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربِّي برحمته فالويل لفلان، وها أنا ذا أموت علىٰ عقيدة أمِّي.ا.هـ

ويقول الآخر منهم: أكثر الناس شكًّا عند الموت أصحاب الكلام.

ثم هؤلاء المتكلِّمون المخالفون للسلف إذا حُقق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبرٌ، ولم يقفوا من ذلك علىٰ عين ولا أثر، كيف يكون هؤلاء المحجوبون المفضولون المنقوصون المسبوقون الحيارىٰ المتهوكون: أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكم في باب ذاته وآياته من السّابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتّبعوهم بإحسان، من ورثة الأنبياء وخلفاء الرّسل، وأعلام الهُدىٰ ومصابيح الدُّجىٰ، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به علىٰ سائر أتباع الأنبياء، فضلًا عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جُمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة.

ثم كيف يكون خير قرون الأمّة أنقص في العلم والحكمة -لاسيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته- من هؤلاء الأصاغر بالنّسبة إليهم؟ أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان، وورثة المجوس والمشركين، وضلّال اليهود والنصارىٰ والصابئين وأشكالهم وأشباههم؛ أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟!

وإنما قدمتُ هٰذه المقدمة؛ لأنّ من استقرت هٰذه المقدمة عنده [علم] طريق الهدىٰ



أين هو في هـٰذا الباب وغيره. وعلم أنّ الضلال والتهوّك إنما استولىٰ علىٰ كثيرٍ من المتأخرين بنبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، وإعراضهم عما بعث الله به محمدًا ﷺ من البينات والهدىٰ، وترْكهم البحث عن طريقة السّابقين والتابعين والتماسهم علم معرفة الله ممن لم يعرف الله بإقراره علىٰ نفسه، وبشهادة الأمّة علىٰ ذلك، وبدلالات كثيرة؛ وليس غرضي واحدا معيَّنا وإنما أصف نوع هؤلاء ونوع هؤلاء.

وإذا كان كذلك، فهـٰذا كتاب الله من أوّله إلىٰ آخره، وسنةُ رسوله ﷺ من أولها إلىٰ آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوءٌ بما هو إما نصٌّ وإما ظاهر في أن الله ﷻ هو العليُّ الأعلىٰ وهو فوق كل شيء، وهو عليٌّ علىٰ كلِّ شيء، وأنه فوق العرش، وأنه فوق السماء، مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ [الملك]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء:١٥٨]، ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٤]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾[السجدة:٥]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٥٠]، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ في ستّة مواضع، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه]، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر]، ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت]، ﴿مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الأنعام:١١٤]. إلىٰ أمثال ذلك مما لا يكاد يحصىٰ إلا بكلفة.

وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصىٰ [إلا بالكلفة].

مثل قصة معراج الرسول ﷺ إلىٰ ربّه، ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه؛ وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار، فيعرج الذين باتوا فيكم إلىٰ ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم.

وفي الصحيح في حديث الخوارج «**أَلَا تَأْمَنُونِي؟ وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً**».

وفي حديث الرُّقية الذي رواه أبو داود وغيره: «**رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السّماء تَقَدَّسَ اسْمُكَ،**



أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كما رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبّ الطَّيِّبِينَ أَنْزِلْ رَحْمَةً مِن رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَىٰ هَذَا الْوَجَعِ».

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اشْتَكَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَوِ اشْتَكَىٰ أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ: رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ» وذكره.

وقوله في حديث الأوعال: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

وهذا الحديث مع أنه قد رواه أهل السنن كأبي داود، وابن ماجه، والترمذي، وغيرهم، فهو مروي من طريقين مشهورين، فالقدح في أحدهما لا يقدح في الآخر، وقد رواه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب «التوحيد» الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن العدل موصولًا إلىٰ النبي ﷺ.

وقوله في الحديث الصحيح للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟» قالت: في السماء. قال: «مَنْ أَنَا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ».

وقوله في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ مَوْضُوعٍ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

وقوله في حديث قبض الروح: «حَتَّىٰ يَعْرُجَ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ تَعَالَىٰ». إسناده علىٰ شرط الصَّحيحين.

وقول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الذي أنشده للنَّبي ﷺ وأقرّه عليه:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَىٰ الْكَافِرِينَ

وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَ

وقول أمية بن أبي الصَّلت الثقفي الذي أنشد للنبي ﷺ هو وغيره من شعره فاستحسنه، وقال: «آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ» حيث قال:

مَجِّدُوا اللهَ فَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلُ ... رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَىٰ كَبِيرَا

بِالْبِنَاءِ الْأَعْلَىٰ الَّذِي سَبَقَ النَّاسَ ... وَسَوَّىٰ فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرَا



شَــرْجَعًا مَــا يَنَالُــهُ بَصَــرُ الْعَــيْنِ   تَـــرَىٰ دُونَـــهُ الْمَلَائِـــكَ صُـــورَا

وقوله في الحديث الذي في السنن: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمْ صِفْرًا**».

وقوله في الحديث: «**يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ**»، إلىٰ أمثال ذلك مما لا يُحصيه إلا الله، مما هو أبلغ المتواترات اللفظية والمعنوية، التي تورث علمًا يقينيًّا من أبلغ العلوم الضّرورية أنَّ الرسول ﷺ المبلِّغ عن الله ألقىٰ إلىٰ أمته المدعوّين أنّ الله سبحانه علىٰ العرش وأنّه فوق السماء، كما فطر الله علىٰ ذلك جميع الأمم عربهم وعجمهم، في الجاهلية والإسلام؛ إلَّا من اجتالته الشياطين عن فطرته.

ثم عن السّلف في ذلك من الأقوال ما لو جُمع لبلغ مئين أو ألوفا.

ثم ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ولا عن أحد من سلف الأمة؛ لا من الصّحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا عن الأئمّة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف، حرف واحد يخالف ذلك لا نصًّا ولا ظاهرًا.

ولم يقل أحد منهم قط: إنّ الله ليس في السماء. ولا أنه ليس علىٰ العرش، ولا أنّه بذاته في كل مكان، ولا أنّ جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا أنّه لا داخلَ العالم ولا خارجه، ولا أنّه لا متصل ولا منفصل، ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه [بالأصابع] ونحوها؛ بل قد ثبت في «الصحيح» عن جابر بن عبد الله أنّ النبي ﷺ لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات في أعظم مجمع حضره الرسول ﷺ جعل يقول: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» فيقولون: نعم، فيرفع إصبعه إلىٰ السماء ثم ينكبها إليهم، ويقول: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**» غير مرة، وأمثال ذلك كثيرة.

فإن كان الحق فيما يقوله هؤلاء السالبون النافون للصفات الثابتة في [الكتاب والسنة]، من هٰذه العبارات ونحوها دون ما يفهم من الكتاب والسنة إما نصًّا وإما ظاهرا، فكيف يجوز علىٰ الله تعالىٰ ثم علىٰ رسوله ﷺ ثم علىٰ خير الأمة أنهم يتكلّمون دائمًا بما هو إما نص وإما ظاهر في خلاف الحق، [ثم الحق] الذي يجب اعتقاده لا يبوحون به قط، ولا يدلون عليه لا نصّا ولا ظاهرا حتىٰ يجيء أنباط الفُرس والروم وفروخ اليهود والنصارىٰ



والفلاسفة يبينون للأمة العقيدة الصّحيحة التي يجب علىٰ كل مكلَّف أو كل فاضل أن يعتقدها.

لئن كان ما يقوله هؤلاء المتكلّمون المتكلّفون هو الاعتقاد الواجب، وهم مع ذلك أُحيلوا في معرفته علىٰ مجرّد عقولهم، وأنّ يدفعوا بما اقتضىٰ قياس عقولهم ما دل عليه الكتاب والسنة نصًّا أو ظاهرا، لقد كان ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدىٰ لهم وأنفع علىٰ هـٰذا التّقدير؛ بل كان وجود الكتاب والسنة ضررًا محضا في أصل الدين.

فإنّ حقيقة الأمر علىٰ ما يقوله هؤلاء: إنّكم يا معشر العباد [لا تطلبون] معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، وما يستحقه من الصِّفات نفيا وإثباتا لا من الكتاب ولا من السنة ولا من طريق سلف الأمة.

ولكن انظروا أنتم: فما وجدتموه مستحقًّا له من الصِّفات فصفوه به -سواء كان موجودا في الكتاب والسنة أو لم يكن- وما لم تجدوه مستحقًّا له في عقولكم فلا تصفوه به؟

ثم هُمْ ها هنا فريقان:

أكثرهم يقولون: ما لم تثبته عقولكم فانفوه.

ومنهم من يقول: بل توقفوا فيه، وما نفاه قياس عقولكم -الذي أنتم فيه مختلفون مضطربون اختلافًا أكثر من جميع اختلافٍ علىٰ وجه الأرض- فانفوه، وإليه عند التنازع فارجعوا، فإنه الحقُّ الذي تعبدتكم به، وما كان مذكورا في الكتاب والسنة مما يخالف قياسكم هـٰذا، أو يثبت ما لم تدركه عقولكم -علىٰ طريقة أكثرهم- فاعلموا أني أمتحنكم بتنزيله، لا لتأخذوا الهدىٰ منه، لكن لتجتهدوا في تخريجه علىٰ شواذ اللغة، ووحشي الألفاظ، وغرائب الكلام، أو أن تسكتوا عنه مفوِّضين علمه إلىٰ الله، مع نفي دلالته علىٰ شيء من الصِّفات، هـٰذا حقيقة الأمر علىٰ رأىٰ هؤلاء المتكلِّمين.

وهـٰذا الكلام قد رأيته صرّح بمعناه طائفة منهم، وهو لازمٌ لجماعتهم لزوما لا محيد عنه، ومضمونه أنّ كتاب الله لا يُهتدىٰ به في معرفة الله، وأنّ الرسول معزول عن التعليم والإخبار بصفات من أرسله، وأن الناس عند التنازع لا يردون ما تنازعوا فيه إلىٰ الله والرسول؛ بل إلىٰ مثل ما كانوا عليه في الجاهلية، وإلىٰ مثل ما يتحاكم إليه من لا يؤمن بالأنبياء كالبراهمة والفلاسفة -وهم المشركون- والمجوس وبعض الصابئين.

وإن كان هـٰذا الرّد لا يزيد الأمر إلا شدة ولا يرتفع الخلاف به إذْ لكل فريق طواغيت



يريدون أن يتحاكموا إليهم، وقد أُمروا أن يكفُروا بهم، وما أشبه [حال] هؤلاء [المتكلمين] بقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ۝٦٢﴾[النساء].

فإنَّ هؤلاء إذا دعوا إلىٰ ما أنزل الله من الكتاب وإلىٰ الرسول -والدعاء إليه بعد وفاته هو الدعاء إلىٰ سنَّته- أعرضوا عن ذلك وهم يقولون: إنا قصدنا الإحسان علمًا وعملًا بهٰذه الطريق التي سلكناها، والتوفيق بين الدلائل العقلية والنّقلية.

ثم عامة هٰذه الشبهات التي يسمُّونها دلائل إنما تَقَلَّدوا أكثرها عن طواغيت من طواغيت المشركين أو الصّابئين، أو بعض ورثتهم الذين أُمروا أن يكفروا بهم؛ مثل فلان وفلان، أو عمّن قال كقولهم لتشابه قلوبهم، [قال الله تعالىٰ]: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء]، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] الآية.

ولازم هٰذه المقالة ألَّا يكون الكتاب هدًىٰ للناس، ولا بيانا ولا شفاء لما في الصدور ولا نورًا، ولا مردًّا عند التنازع، لأنّا نعلم بالاضطرار أن ما يقوله هؤلاء المتكلِّفون أنَّه الحق الذي يجب اعتقاده لم يدلَّ عليه الكتاب والسنة لا نصا ولا ظاهرا، وإنَّما غاية المتحذلق أن يستنتج هٰذا من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم].

وبالاضطرار يعلم كل عاقل أنَّ من دلّ الخلق علىٰ أنّ الله ليس علىٰ العرش، ولا فوق السمٰوات ونحو ذلك بقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ لقد أبعد النُّجعة، وهو إما مُلْغِزٌ وإما مدلّس لم يخاطبهم بلسان عربي مبين.

ولازم هٰذه المقالة أن يكون ترك الناس بلا رسالة خيرا لهم في أصل دينهم؛ لأنّ مردّهم قبل الرسالة وبعدها واحد، وإنما الرسالة زادتهم عمًىٰ وضلالة.



يا سبحان الله! كيف لم يقل الرسول يوما من الدّهر ولا أحد من سلف الأمة هٰذه الآيات والأحاديث لا تعتقدوا ما دلّت عليه؛ ولكن اعتقدوا الذي تقتضيه مقاييسكم، أو اعتقدوا كذا وكذا فإنّه الحقّ، وما خالف ظاهره فلا تعتقدوا ظاهره، وانظروا فيها فما وافق قياس عقولكم [فاقبلوه] وما لا فتوقفوا فيه أو أنفوه.

ثم رسول الله ﷺ قد أخبر أن أمته ستفترق علىٰ ثلاثٍ وسبعين فرقة، فقد علم ما سيكون، ثم قال: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا؛ كِتَابَ اللهِ**».

ورُوي عنه أنه قال في صفة الفرقة الناجية: «**هُمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**».

فهلّا قال: من تمسّك بالقرآن أو بدلالة القرآن أو بمفهوم القرآن أو بظاهر القرآن في باب الاعتقادات فهو ضالٌّ، وإنما الهدىٰ رجوعكم إلىٰ مقاييس عقولكم، وما يحدثه المتكلمون منكم بعد القرون الثلاثة في هٰذه المقالة، وإن كان قد نبغ أصلها في أواخر عصر التابعين.

ثم أصل هٰذه المقالة -مقالة التعطيل للصفات- إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضلّال الصّابئين؛ فإن من حُفِظَ عنه أنه قال هٰذه المقالة في الإسلام -أعني: **أن الله ﷻ ليس علىٰ العرش حقيقة وأن معنىٰ استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ** ونحو ذلك- هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان؛ وأظهرها فنُسبت مقالة الجهمية إليه، وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ، وكان الجعد بن درهم هٰذا -فيما قيل- من أهل حرّان، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة، بقايا أهل دين النمرود، والكنعانيين الذين صنّف بعض المتأخرين في سحرهم، والنّمرود هو ملك الصابئة الكنعانيين المشركين، كما أن كسرىٰ ملك الفرس والمجوس، وفرعون ملك مصر القبط الكفار، والنجاشي ملك الحبشة النصارىٰ، وبطليموس ملك اليونان، وقيصر ملك الروم، فهو اسم جنس لا اسم علم.

فكانت الصابئة إلا قليلا منهم إذ ذاك علىٰ الشرك وعلماؤهم هم الفلاسفة، وإن كان الصابئ قد لا يكون مشركًا؛ بل مؤمنا بالله واليوم الآخر كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ



أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[البقرة]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة].

لكن كثيرا منهم أو أكثرهم كانوا كفارا أو مشركين، كما أن كثيرا من اليهود والنصارىٰ بدّلوا وحرّفوا وصاروا كفارا أو مشركين، فأولئك الصابئون الذين كانوا إذ ذاك؛ كانوا كفارا أو مشركين وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل.

ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب: أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منهما وهم الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة.

وكذلك أبو نصر الفارابي دخل حرّان وأخذ عن فلاسفة الصّابئين تمام فلسفته، وأخذها الجهم أيضا -فيما ذكره الإمام أحمد وغيره- لمَّا ناظر السُّمنية بعض فلاسفة الهند -وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوىٰ الحسِّيات.

فهٰذه أسانيد جهم ترجع إلىٰ اليهود والصابئين والمُشركين، والفلاسفة الضّالون هم إما من الصابئين وإما من المشركين.

ثم لما عُرِّبَت الكتب الرّومية واليونانية في حدود المائة الثانية زاد البلاء مع ما ألقىٰ الشيطان في قلوب الضّلال ابتداءً، من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم.

ولما كان في حدود المائة الثالثة انتشرت هٰذه المقالة التي كان السلف يسمّونها مقالة الجهمية، بسبب بشر بن غيّاث المريسي وطبقته، وكلام الأئمة مثل مالك، وسفيان بن عيينة، وابن المبارك، وأبي يوسف، والشّافعي، وأحمد، وإسحاق، والفُضيل بن عياض، وبشر الحافي، وغيرهم، في هؤلاء كثير في ذمِّهم وتضليلهم.

وهٰذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي النّاس مثل أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فُورك في كتاب «التأويلات»، وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي سماه «تأسيس التقديس»، ويوجد كثير منها في كلام خلق [كثيرٍ] غير هؤلاء مثل: أبي علي الجبائي وعبد الجبار بن أحمد الهمداني، وأبي الحسين البصري، وأبي الوفاء ابن عَقيل، وأبي حامد الغزالي، وغيرهم؛ هي بعينها التأويلات التي ذكرها بشر المريسي في كتابه: وإن



كان قد يوجد في كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضًا، ولهم كلام حسنٌ في أشياء.

فإنما بينت أن عين تأويلاتهم هي عين تأويلات بشر المريسي، ويدلُّ علىٰ ذلك كتاب الرد الذي صنفه عثمان بن سعيد الدارمي أحد الأئمة المشاهير في زمان البُخاري، صنّف كتابا سماه: «رد عثمان بن سعيد علىٰ الكاذب العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله في التّوحيد» حكىٰ فيه هـٰذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسي بكلام يقتضي أن المريسي أقعد بها وأعلم بالمنقول والمعقول من هؤلاء المتأخّرين الذين اتصلت إليهم من جهته [وجهة غيره]، ثم ردّ ذلك عثمان بن سعيد بكلام إذا طالعه العاقل الذَّكي علم حقيقة ما كان عليه السلف، وتبين له ظهور الحُجة لطريقهم، وضعف حجّة من خالفهم.

ثم إذا رأىٰ الأئمة -أئمة الهدىٰ- قد أجمعوا علىٰ ذمِّ المريسية وأكثرهم كفَّروهم أو ضللوهم، وعلم أن هـٰذا القول السّاري في هؤلاء المتأخِّرين هو مذهب المريسية تبيَّن الهدىٰ لمن يريد الله هدايته ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

والفتوىٰ لا تحتمل البسط في هـٰذا الباب، وإنما أُشير إشارة إلىٰ مبادئ الأمور والعاقل يسير وينظر.

وكلام السَّلف في هـٰذا الباب موجود في كتبٍ كثيرة لا يمكن أن نذكر هاهنا إلا قليلًا منه، مثل كتاب «السنن» للالكائي، و«الإبانة» لابن بطة، و«السنة» لأبي ذر الهروي، و«الأصول» لأبي عمرو الطلمنكي، وكلام أبي عمر ابن عبد البر، و«الأسماء والصفات» للبيهقي، وقبل ذلك «السنة» للطبراني، ولأبي الشيخ الأصبهاني، ولأبي عبد الله بن منده، ولأبي أحمد العسّال الأصبهاني، وقبل ذلك «السنة» للخلال، و«التوحيد» لابن خزيمة، وكلام أبي العباس ابن سريج، و«الرد علىٰ الجهمية» لجماعة، مثل البخاري وشيخه عبد الله بن محمد بن عبد الله الجعفي، وقبل ذلك «السنة» لعبد الله بن أحمد، و«السنة» لأبي بكر بن الأثرم، و«السنة» لحنبل، وللمروذي ولأبي داود السجستاني، ولابن أبي شيبة، و«السنة» لأبي بكر بن أبي عاصم، وكتاب «خلق أفعال العباد» لأبي عبد الله البخاري، وكتاب «الرد علىٰ الجهمية» لعثمان بن سعيد الدارمي، وغيرهم.

وكلام أبي العباس عبد العزيز المكِّي صاحب «الحيدة» في الرد علىٰ الجهمية، وكلام نعيم بن حماد الخزاعي، وكلام غيرهم، وكلام الإمام أحمد ابن حنبل وإسحاق بن راهويه



ويحيىٰ بن سعيد، ويحيىٰ بن يحيىٰ النيسابوري، وأمثالهم.

وقبل هؤلاء لعبد الله بن المبارك وأمثاله وأشياء كثيرة.

وعندنا من الدلائل السمعية والعقلية ما لا يتَّسع هـٰذا الموضع لـذكره، وأنـا أعلـم أن المتكلِّمين النُّفاة لهم شبهات موجودة؛ ولكن لا يمكن ذكرها في الفتـوىٰ، فمـن نظـر فيهـا وأراد إبانة ما ذكروه من الشُّبه فإنه يسير.

فإذا كان أصل هـٰذه المقالة -مقالة التعطيل والتأويل- مأخوذًا عن تلامـذة المشـركين، والصابئين، واليهود، فكيف تطيب نفس مـؤمن؛ بـل نفـس عاقـل أن يأخـذ سـبيل هـؤلاء المغضوب عليهم أو الضَّالين، ويدع سبيل الذين أنعم الله علـيهم مـن النبيِّـين والصـدِّيقين والشهداء والصَّالحين.



فصلٌ

ثم القول الشامل في جميع هـٰذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، أو بما وصـفه به رسوله ﷺ، وبما وصفه به السَّابقون الأولون لا يُتجاوز القرآن والحديث.

قال الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو بما وصـفه بـه رسـوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث.

ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسـوله، مـن غيـر تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

ونعلم أن ما وُصف الله به من ذلك فهو حقٌّ ليس فيه لغز ولا أحاجي؛ بل معنـاه يعـرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه لاسيما إذا كان المتكلم أعلم الخلـق بمـا يقـول، وأفصح الخلق في بيان العلم، وأنصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد.

وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما يتيقن أنّ الله سبحانه له ذات حقيقة، ولـه أفعـال حقيقيـة، فكـذلك لـه صفات حقيقية، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصًا أو حدوثا فإن الله منزه عنه حقيقة، فإنه سبحانه مستحقٌّ للكمال الذي لا غايـة فوقـه، ويمتنع عليه الحدوث لامتنـاع العـدم عليـه، واسـتلزام الحـدوث سـابقه العـدم ولافتقـار



المحدَث إلىٰ محدِث، ولوجوب وجوده بنفسه ﷻ.

ومذهب السّلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ووصفه به رسُوله؛ فيعطلوا أسماءه الحُسنىٰ وصفاته العليا ويحرِّفوا الكلم عن مواضعه، ويلحدوا في أسماء الله وآياته.

وكلُّ واحد من فريقي التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل.

أمَّا المعطلون فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التَّمثيل والتعطيل؛ مثلوا أولا وعطلوا آخرا، وهـٰذا تشبيهٌ وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيلٌ لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصِّفات اللائقة بالله ﷻ.

فإنه إذا قال القائل: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساويًا، وكل ذلك من المحال، ونحو ذلك من الكلام، فإنّه لم يفهم من كون الله علىٰ العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان علىٰ أي جسم كان، وهـٰذا اللازم تابع لهـٰذا المفهوم، أما استواء يليق بجلال الله تعالىٰ ويختص به فلا يلزمه شيء من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها، كما يلزم من سائر الأجسام.

وصار هـٰذا مثل قول الممثل إذا كان للعالم صانع، فإما أن يكون جوهرا أو عَرَضا وكلاهما مُحال، إذ لا يعقل موجود إلا هـٰذان، وقوله: إذا كان مستويا علىٰ العرش فهو مماثل لاستواء الإنسان علىٰ السَّرير أو الفلك، إذ لا يُعلم الاستواء إلا هكذا، فإن كليهما مثّل وكليهما عطّل حقيقة ما وصف الله به نفسه، وامتاز الأول بتعطيل كل اسم للاستواء الحقيقي، وامتاز الثاني بإثبات استواء هو من خصائص المخلوقين.

والقول الفاصل هو ما عليه الأمّة الوسط؛ من أنّ الله مستو علىٰ عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير وأنه سميع بصير، ونحو ذلك ولا يجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي كعلم المخلوقين وقدرتهم، فكذلك هو سبحانه فوق العرش، ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق علىٰ المخلوق ولوازمها.

واعلم أنه ليس في العقل الصَّريح، ولا في شيء من النقل الصحيح ما يوجب مخالفة



الطريقة السّلفية أصلا؛ لكن هـٰذا الموضع لا يتسع للجواب عـن الشّـبهات الـواردة علـىٰ الحق، فمن كان في قلبه شبهة وأحب حلها فذلك سهل يسير.

ثم المخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة -من المتأولين لهـٰذا الباب- في أمر مريج، فإنَّ من أنكر الرؤية يزعم أن العقل يُحيلها وأنه مضطر فيها إلىٰ التأويل، ومـن يحيـل أنّ لله علمًا وقدرة، وأن يكون كلامه غير مخلوقٍ ونحو ذلك يقول: إنَّ العقل أحال ذلك فاضـطر إلىٰ التّأويل؛ بل من ينكر حقيقة حشر الأجساد والأكل والشرب الحقيقي في الجنـة، يـزعم أن العقل أحال ذلك، وأنه مضطرٌّ إلىٰ التأويل، ومن زعم أن الله ليس فوق العرش: يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر إلىٰ التأويل.

ويكفيك دليلًا علىٰ فساد قول هؤلاء أنه ليس لواحد منهم قاعـدة مسـتمرة فيمـا يحيلـه العقل؛ بل منهم من يزعم أن العقل جوّز أو أوجب ما يدّعي الآخر أنَّ العقل أحاله.

فيا ليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة، فرضي الله عن الإمام مالـك بـن أنـس، حيث قال: أَوَ كلَّما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا مـا جـاء بـه جبريـل إلـىٰ محمـد ﷺ لجدَل هؤلاء.

وكلٌّ من هؤلاء مخصوم بما خصم به الآخر، **وهو من وجوه:**

أحدها: بيان أن العقل لا يُحيل ذلك.

والثاني: أنّ النصوص الواردة لا تحتمل التأويل.

والثّالث: أنّ عامة هـٰذه الأمور قد عُلم أن الرسول ﷺ جاء بها بالاضطرار، كما علم أنـه جاء بالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان؛ فالتأويـل الـذي يحيلهـا عـن هــٰذا بمنزلـة تأويلات القرامطة والباطنية في الحج والصلاة والصوم، وسائر ما جاءت به النّبوات.

الرابع: أنْ يبين أنَّ العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص، وإن كـان في النصـوص من التفصيل ما يعجز العقل عن دَرَك تفصيله، وإنّمـا عَقِلَـه مجمـلا، إلـىٰ غيـر ذلـك مـن الوجوه، علىٰ أن الأساطين من هؤلاء والفحول معترفون بأنَّ العقل لا سبيل له إلىٰ اليقـين في عامة المطالب الإلهية.

وإذا كان هكذا فالواجب تلقِّي علم ذلك من النبوات علىٰ ما هو عليه.

ومن المعلوم للمؤمنين أنّ الله تعالىٰ بعث محمدًا ﷺ بالهدىٰ وديـن الحـق ﴿لِيُظْهِـرَهُۥ



عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح]، وأنه بيّن للناس ما أخبرهم به من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر.

والإيمان بالله واليوم الآخر يتضمَّن الإيمان بالمبدأ والمَعاد، وهو الإيمان بالخلق والبعث كما جمع بينهما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان:٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:٢٧].

وقد بيَّن الله علىٰ لسان رسوله ﷺ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ما هدىٰ الله به عباده، وكشف به مُراده.

ومعلوم للمؤمنين أن رسول الله ﷺ أعلم من غيره بذلك، وأنصح من غيره للأمة، وأفصح من غيره عبارة وبيانًا؛ بل هو أعلم الخلق بذلك وأنصح الخلق للأمة وأفصحهم، فقد اجتمع في حقِّه كمال العلم والقدرة والإرادة.

ومعلوم أن المتكلم أو الفاعل إذا كمل علمه وقدرته وإرادته: كمُل كلامه وفعله، وإنما يدخل النقص إما من نقص علمه وإما من عجزه عن بيان علمه وإما لعدم إرادته البيان.

والرسول ﷺ هو الغاية في كمال العلم، والغاية في كمال إرادة البلاغ المبين، والغاية في [قدرته] علىٰ البلاغ المبين، ومع وجود القدرة التامة، والإرادة الجازمة: يجب وجود المراد، فعُلم قطعا أن ما بينه من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر حصل به مراده من البيان، وما أراده من البيان فهو مطابق لعلمه، وعلمه بذلك هو أكمل العلوم، فكل من ظن أن غير الرسول أعلم بهٰذا منه، أو أكمل بيانا منه، أو أحرص علىٰ هَدي الخلق منه فهو من الملحدين لا من المؤمنين؛ والصحابة والتابعون لهم بإحسان ومن سلك سبيلهم هم في هٰذا الباب علىٰ سبيل الاستقامة.

وأما المنحرفون عن طريقهم فهم ثلاث طوائف: أهل التخييل، وأهل التأويل، وأهل التجهيل.

فأهل التّخييل: هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلّم ومتصوّف [ومتفقه]، فإنهم يقولون: إن ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييلٌ للحقائق لينتفع به الجمهور، لا أنه بيّن به الحق، ولا هدىٰ به الخلق، ولا أوضح [به] الحقائق.



ثم هم علىٰ قسمين:

منهم من يقول: إن الرسول لم يعلم الحقائق علىٰ ما هي عليه. ويقولون: إن من الفلاسفة الإلهية من علمها، وكذلك من الأشخاص الذين يسمونهم أولياء من علمها، ويزعمون أن من الفلاسفة والأولياء من هو أعلم بالله واليوم الآخر من المرسلين. **وهـٰذه مقالة غلاة الملحدين من الفلاسفة والباطنية؛ باطنية الشيعة وباطنية الصوفية.**

ومنهم من يقول: بل الرسول علمها؛ لكن لم يبينها، وإنما تكلم بما يناقضها، وأراد من الخلق فهم ما يناقضها؛ لأن مصلحة الخلق في هـٰذه الاعتقادات التي لا تطابق الحق.

ويقول هؤلاء: يجب علىٰ الرسول أن يدعو الناس إلىٰ اعتقاد التجسيم مع أنه باطل، وإلىٰ اعتقاد معاد الأبدان مع أنه باطل، ويخبرهم بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون مع أن ذلك باطل. قالوا: لأنه لا يمكن دعوة الخلق إلا بهـٰذه الطريقة التي تتضمن الكذب لمصلحة العباد.

فهـٰذا قول هؤلاء في نصوص الإيمان بالله واليوم الآخر.

وأما الأعمال فمنهم من يقرها ومنهم من يجريها هـٰذا المجرىٰ، ويقول: إنما يؤمر بها بعض الناس دون بعض، ويؤمر بها العامة دون الخاصة، فهـٰذه طريقة الباطنية الملاحدة والإسماعيلية ونحوهم.

وأما أهل التأويل: فيقولون: إن النصوص الواردة في الصفات لم يُقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل؛ ولكن قصد بها معاني ولم يبيّن لهم تلك المعاني ولا دلهم عليها، ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم، ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها، ومقصودُه امتحانهم وتكليفهم وإتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامه عن مدلوله ومقتضاه، ويعرف الحق من غير جهته، وهـٰذا قول المتكلِّمة [والجهمية] والمعتزلة ومن دخل معهم في شيء من ذلك.

والذين قصدنا الرّد عليهم في هـٰذه الفتيا هم هؤلاء، إذ كان نفور الناس عن الأولين مشهورا، بخلاف هؤلاء فإنهم تظاهروا بنصر السنة في مواضع كثيرة، وهم في الحقيقة لا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا؛ لكن أولئك الفلاسفة ألزموهم في نصوص المعاد نظير ما ادّعوه في نصوص الصّفات. فقالوا لهم: نحن نعلم بالاضطرار أن الرسل جاءت



بمعاد الأبدان وقد علمنا فساد الشُّبه المانعة منه.

وأهل السنة يقولون لهم: ونحن نعلم بالاضطرار أن الرسل جاءت بإثبات الصفات، ونصوص الصفات في الكتب الإلهية أكثر وأعظم من نصوص المعاد، ويقولون لهم: معلوم أنّ مشركي العرب وغيرهم كانوا ينكرون المعاد، وقد أنكروه علىٰ الرسول وناظروه عليه، بخلاف الصفات فإنه لم ينكر شيئا منها أحد من العرب.

فعُلم أنَّ إقرار العقول بالصفات أعظم من إقرارها بالمعاد، وأن إنكار المعاد أعظم من إنكار الصفات، فكيف يجوز مع هـٰذا أن يكون ما أخبر به من الصفات ليس كما أخبر به، وما أخبر به من المعاد هو علىٰ ما أخبر به.

وأيضا: فقد علم أنه ﷺ قد ذم أهل الكتاب علىٰ ما حرفوه وبدلوه، ومعلوم أن التوراة مملوءة من ذكر الصفات، فلو كان هـٰذا مما بدّل وحرّف لكان انكار ذلك عليهم أولىٰ، فكيف وكانوا إذا ذكروا بين يديه الصفات يضحك تعجبا منهم وتصديقا لها، ولم يعبهم قط بما تعيب النفاة أهل الإثبات، مثل لفظ التجسيم والتشبيه ونحو ذلك؛ بل عابهم بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقولهم: إنه استراح لما خلق السمٰوات والأرض، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق].

والتوراة مملوءة من الصفات المطابقة للصفات المذكورة في القرآن والحديث، وليس فيها تصريح بالمعاد كما في القرآن. فإذا جاز أن نتأول الصفات التي اتفق عليها الكتابان فتأويل المعاد الذي انفرد به أحدهما أولىٰ، والثاني مما يعلم بالاضطرار من دين الرسول أنه باطل، فالأول أولىٰ بالبطلان.

وأما الصنف الثالث وهم أهل التجهيل: فهم كثير من المنتسبين إلىٰ السّنة وأتباع السلف. يقولون: إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معاني تلك الآيات، ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك.

وكذلك قولهم في أحاديث الصفات: إن معناها لا يعلمه إلا الله، مع أنّ الرسول تكلم بها ابتداء، فعلىٰ قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه، وهؤلاء يظنون أنهم اتبعوا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]، فإنه وقف أكثر السلف علىٰ قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ



﴿تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾، وهو وقفٌ صحيح، لكن لم يفرقوا بين معنىٰ الكلام وتفسيره، وبين التأويل الذي انفرد الله تعالىٰ بعلمه، وظنّوا أن التأويل المذكور في كلام الله تعالىٰ هو التأويل المذكور في كلام المتأخرين وغلطوا في ذلك.

فإن لفظ التأويل يراد به ثلاثة معانٍ:

فالتأويل في اصطلاح كثير من المتأخرين هو: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلىٰ الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك، فلا يكون معنىٰ اللفظ الموافق لدلالة ظاهره تأويلا علىٰ اصطلاح هؤلاء.

وظنوا أن مراد الله تعالىٰ بلفظ التأويل ذلك، وأن للنصوص تأويلا يخالف مدلولها لا يعلمه إلا الله، ولا يعلمه المتأولون، ثم كثير من هؤلاء يقولون: تجري علىٰ ظاهرها فظاهرها مراد. مع قولهم: إن لها تأويلا بهٰذا المعنىٰ لا يعلمه إلا الله. وهٰذا تناقض وقع فيه كثير من هؤلاء المتنسبين إلىٰ السنة من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم.

والمعنىٰ الثاني: أن التأويل هو تفسير الكلام سواء وافق ظاهره أو لم يوافقه، وهٰذا هو التأويل في اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم، وهٰذا التأويل يعلمه الراسخون في العلم، وهو موافق لوقف من وقف من السّلف علىٰ قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران:٧]، كما نقل ذلك عن ابن عباس ومجاهد ومحمد بن جعفر بن الزبير ومحمد بن إسحاق وابن قتيبة وغيرهم.

وكلا القولين حق باعتبار كما قد بسطناه في موضع آخر، ولهٰذا نُقل عن ابن عباس هٰذا وهٰذا وكلاهما حق.

والمعنىٰ الثّالث: أنّ التأويل هو الحقيقة التي يؤول الكلام إليها، وإن وافقت ظاهره فتأويل ما أخبر الله به في الجنة من الأكل والشرب واللباس والنكاح وقيام الساعة وغير ذلك هو الحقائق الموجودة أنفسها، لا ما يتصور من معانيها في الأذهان، ويعبر عنه باللسان، وهٰذا هو التأويل في لغة القرآن كما قال تعالىٰ عن يوسف أنه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف:١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ



تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]، وهـٰذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلَّا الله.

فتأويل الصفات هو الحقيقة التي انفرد الله تعالىٰ بعلمها، وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف كمالك وغيره: الاستواء معلوم والكيف مجهول. فالاستواء معلوم يُعلم معناه ويفسر ويترجم بلغة أخرىٰ وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم، وأما كيفية ذلك الاستواء فهو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالىٰ.

وقد روي عن ابن عباس ما ذكره عبد الرزاق وغيره في تفسيرهم عنه أنه قال: تفسير القرآن علىٰ أربعة أوجه:

تفسير تعرفه العرب من كلامها.

وتفسيرٌ لا يعذر أحد بجهالته.

وتفسير يعلمه العلماء.

وتفسيرٌ لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ فمن ادّعىٰ علمه فهو كاذب.

وهـٰذا كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]، وقال النبي ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**».

وكذلك علم الساعة ونحو ذلك، فهـٰذا من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالىٰ، وإن كنا نفهم معاني ما خوطبنا به ونفهم من الكلام ما قصد إفهامنا إياه كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، فأمر بتدبر القرآن كله لا بتدبر بعضه.

وقال أبو عبد الرحمـٰن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتىٰ يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعا.

وقال مجاهد: عرضت المصحف علىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من فاتحته إلىٰ خاتمته، أقف عند كل آية وأسأله عنها.

وقال الشعبي: ما ابتدع أحد بدعة إلا وفي كتاب الله بيانها.



وقال مسروق: ما سئل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن؛ ولكن علمنا قصر عنه.

وهٰذا باب واسع قد بسط في موضعه.

والمقصود هنا التنبيه علىٰ أصول المقالات الفاسدة التي أوجبت الضلالة في باب العلم والإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وأن من جعل الرسول غير عالم بمعاني القرآن الذي أنزل إليه، ولا جبريل جعله غير عالم بالسّمعيات، ولم يجعل القرآن هدًىٰ ولا بيانًا للناس.

ثم هؤلاء ينكرون العقليات في هٰذا الباب بالكُلّية فلا يجعلون عند الرسول وأمّته في باب معرفة الله عَزَّوَجَلَّ لا علومًا عقلية ولا سمعية، وهم قد شاركوا الملاحدة في هٰذه من وجوه متعددة، وهم مخطئون فيما نسبوا إلىٰ الرسول ﷺ وإلىٰ السلف من الجهل، كما أخطأ في ذلك أهل التحريف والتأويلات الفاسدة وسائر أصناف الملاحدة.

ونحن نذكر من ألفاظ السلف بأعيانها، وألفاظ من نقل مذهبهم إلىٰ غير ذلك من الوجوه بحسب ما يحتمله هٰذا الموضع ما يعلم به مذهبهم.

روىٰ أبو بكر البيهقي في الأسماء والصفات بإسناد صحيح عن الأوزاعي قال: كنا والتابعون متوافرون نقول: إنّ الله -تعالىٰ ذكره- فوق عرشه ونؤمن بما وردت فيه السنة من صفاته.

وقد حكىٰ الأوزاعيّ -وهو أحد الأئمة الأربعة في عصر تابع التابعين الذين هم: مالك إمام أهل الحجاز، والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث إمام أهل مصر، والثوري إمام أهل العراق- حكىٰ شهرة القول في زمن التابعين بالإيمان بأن الله تعالىٰ فوق العرش، وبصفاته السمعية.

وإنما قال الأوزاعي: هٰذا بعد ظهور مذهب جهم المُنكِر لكون الله فوق عرشه، والنافي لصفاته، ليعرف الناس أن مذهب السلف خلاف ذلك.

وروىٰ أبو بكر الخلال في كتاب «السنة» عن الأوزاعي قال: سئل مكحول والزهري عن تفسير الأحاديث فقالا: أمرُّوها كما جاءت.

وروىٰ أيضا عن الوليد بن مسلم قال: سألتُ مالك بن أنس وسفيان الثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات، فقالوا: أمروها كما جاءت. وفي



رواية. فقالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف.

فقولهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أمروها كما جاءت، رد على المعطلة، وقولهم بلا كيف، رد على الممثلة، والزهري ومكحول هما أعلم التابعين في زمانهم، والأربعة الباقون هم أئمة الدنيا في عصر تابعي التابعين، ومن طبقتهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وأمثالهما.

وروى أبو القاسم الأزجي بإسناده عن مطرِّف بن عبد الله قال: سمعتُ مالك بن أنس إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول: قال عمر بن عبد العزيز: سنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وولاة الأمر بعده سُننا، الأخذ بها تصديقٌ لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد من خلق الله تعالى تغييرُها ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتَّبع غير سبيل المؤمنين ولّاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا.

وروى الخلال بإسناد كلهم أئمة ثقات عن سفيان بن عيينة قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرِّسالة وعلى الرسول البلاغ المبين، وعلينا التَّصديق.

وهٰذا الكلام مرويٌّ عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة ابن أبي عبد الرحمٰن من غير وجه.

منها ما رواه أبو الشيخ الأصبهاني وأبو بكر البيهقي عن يحيى بن يحيى، قال: كنا عند مالك بن أنس، فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] كيف استوى؟ فأطرق مالكٌ برأسه حتى علاه الرُّحَضَاء، ثم قال: **الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة**، وما أراك إلا مبتدعًا. فأمر به أن يخرج. اهـ

فقول ربيعة ومالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، موافق لقول الباقين: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف، فإنما نَفَوا علم الكيفية، ولم ينفوا حقيقة الصِّفة.

ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرَّد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ولما قالوا: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف، فإنَّ



الاستواء حينئذ لا يكون معلومًا؛ بل مجهولا بمنزلة حروف المعجم.

وأيضا فإنه لا يحتاج إلىٰ نفي علم الكيفية، إذا لم يُفهم من اللفظ معنىٰ، وإنما يحتاج إلىٰ نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات.

وأيضًا فإن من ينفي الصفات الخبرية، أو الصفات مطلقا لا يحتاج إلىٰ أن يقول: بلا كيفٍ، فمن قال: إنَّ الله ليس علىٰ العرش، لا يحتاج أن يقول: بلا كيفٍ، فلو كان من مذهب السَّلف: نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا: بلا كيف.

وأيضا فقولهم: أمرّوها كما جاءت. يقتضي إبقاء دلالتها علىٰ ما هي عليه، فإنّها جاءت ألفاظ دالة علىٰ معاني؛ فلو كانت دلالتها منتفيةً لكان الواجب أن يقال: أمرُّوا ألفاظها مع اعتقاد أنَّ المفهوم منها غير مراد، أو أمروا ألفاظها مع اعتقاد أنَّ الله لا يوصف بما دلَّت عليه حقيقة، وحينئذ فلا تكون قد أمرت كما جاءت، ولا يقال حينئذٍ: بلا كيف، إذْ نفي الكيف عمّا ليس بثابتٍ لغوٍ من القول.

وروىٰ الأثرم في «السنة»، وأبو عبد الله بن بطة في «الإبانة»، وأبو عمرو الطلمنكي وغيرهم بإسناد صحيح عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون -وهو أحد أئمة المدينة الثلاثة الذين هم: مالك بن أنس، وابن الماجشون، وابن أبي ذئب- وقد سُئل عمّا جحدت به الجهمية:

«أما بعد؛ فقد فهمتُ ما سألتَ فيما [تتابعت] الجهمية ومن [خَلفَها]، في صفة الرّب العظيم الذي فاقت عظمته الوصف والتدبر، وكلت الألسن عن تفسير صفته، [وانحسرت] العقول دون معرفة قدرته، وردت عظمتَه العقولُ فلم تجد مساغا فرجعت خاسئة وهي حسيرة، وإنما أمروا بالنظر والتفكر فيما خلق بالتقدير، وإنما يقال: كيف، لمن لم يكن مرة ثم كان، فأما الذي لا يحول ولا يزول، ولم يزل، وليس له مثل، فإنه لا يُعلم كيف هو إلا هو، وكيف يُعرف قدر من لم يبدأ ومن لا يموت ولا يبلىٰ، وكيف يكون لصفة شيء منه حدٌّ أو منتهىٰ، يعرفه عارف أو يحد قدْرَه واصفٌ علىٰ أنه الحق المبين لا حق أحقّ منه، ولا شيء أبين منه.

الدليل علىٰ عجز العقول عن تحقيق صفته عجزُها عن تحقيق صفة أصغر خلقه، لا تكاد تراه صِغرا يجول ويزول، ولا يُرىٰ له سمع ولا بصر؛ لما يتقلب به ويحتال من عقله،



أعضل بك وأخفىٰ عليك ممّا ظهر من سمعه وبصره فتبارك الله أحسنُ الخالقين، وخالقهم وسيد السادة وربهم ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ].

اعرف -رحمك الله- غِناك عن تكلّف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها؛ إذا لم تعرف قدر ما وصف، فما تكلفك علمَ ما لم يصف، هل تستدل بذلك علىٰ شيء من طاعته أو تزدجر به عن شيء من معصيته؟

فأما الذي جحد ما وصف الربُّ من نفسه تعمقا وتكلفا فقد ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ﴾ [الأنعام:٧١]، فصار يستدلُّ بزعمه علىٰ جحد ما وصف الرب وسمَّىٰ من نفسه بأن قال: لابد إن كان له كذا من أن يكون له كذا، فعمِي عن البيّن بالخفي، فجحد ما سمىٰ الرّب من نفسه، بصمت الربِّ عمّا لم يسمِّ منها، فلم يزل يملي له الشيطان حتىٰ جحد قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة]، فقال: لا يراه أحد يوم القيامة، فجحد والله أفضلَ كرامةِ الله التي أكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر إلىٰ وجهه، ونضرته إياهم ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾ [القمر].

وقد قضىٰ أنهم لا يموتون فهم بالنظر إليه ينضرون، إلىٰ إن قال: وإنما جحد رؤية الله يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضلة؛ لأنه قد عرف أنه إذا تجلّىٰ لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين، وكان له جاحدًا.

وقال المسلمون: يا رسول الله؛ هل نرىٰ ربّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قالوا: لا. قال: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟» قالوا: لا. قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَئِذٍ كَذَلِكَ».

وقال رسول الله ﷺ: «لَا تَمْتَلِئُ النَّارُ حَتَّىٰ يَضَعَ الْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، وَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ».

وقال لثابت بن قيس: «لَقَدْ ضَحِكَ اللهُ مِمَّا فَعَلْتَ بِضَيْفِكَ الْبَارِحَةَ».

وقال فيما بلغنا: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَيَضْحَكُ مِنْ أَزَلِكُمْ وَقُنُوطِكُمْ وَسُرْعَةِ إِجَابَتِكُمْ» فقال له رجل من العرب: إن ربنا ليضحك؟ قال: «نَعَمْ»، قال: لا نُعْدَمُ من رب يضحك خيرًا. في أشباه لهٰذا مما لا نحصيه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ]، ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ



بِأَعْيُنِنَاۖ﴾ [الطور:٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩﴾ [طه]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر].

فوالله ما دلَّهم علىٰ عظم ما وصفه من نفسه وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها منهم عندهم، إن ذلك الذي أُلقي في رُوعهم، وخلق علىٰ معرفة قلوبهم فما وصف الله من نفسه وسمّاه علىٰ لسان رسوله ﷺ سمَّيناه كما سمّاه، ولم نتكلف منه صفة ما سواه -لا هـٰذا ولا هـٰذا- لا نجحد ما وصف ولا نتكلف معرفة ما لم يصف.

اعلم -رحمك الله- أنَّ **العصمة في الدِّين أن تنتهيَ في الدِّين حيث انتهىٰ بك**، ولا تجاوِز ما قد حُدَّ لك، فإن من قوام الدِّين معرفة المعروف وإنكار المنكر، فما بُسطت عليه المعرفة وسكنت إليه الأفئدة وذكر أصله في الكتاب والسنة وتوارثَت علمه الأمة، فلا تخافنَّ في ذكره وصفته من ربِّك ما وصف من نفسه عيبًا، ولا تتكلَّفن بما وصف لك من ذلك قدْرا.

وما أنكرته نفسك، ولم تجد ذكره في كتاب ربِّك ولا في حديثٍ عن نبيِّك -من ذكر صفة ربك- فلا تكلفن علمه بعقلك، ولا تصفه بلسانك واصمت عنه كما صمت الرَّب عنه من نفسه، فإن تكلُّفك معرفة ما لم يصف من نفسه مثل: إنكار ما وصف منها، فكما أعظمْت ما جحده الجاحدون مما وصف من نفسه، فكذلك أعظم تكلف ما وصف الواصفون ممَّا لم يصف منها.

فقد والله عزَّ المسلمون الذين يعرفون المعروف وبهم يُعرف، وينكرون المنكر وبإنكارهم يُنكر، يسمعون ما وصف الله به نفسه من هـٰذا في كتابه، وما بلغهم مثله عن نبيه، فما مرض من ذكر هـٰذا وتسميته قلبٌ مسلم، ولا تكلف صفة قدره ولا تسمية غيره من الرب مؤمن.

وما ذكر عن الرسول ﷺ أنه سماه من صفة ربه فهو بمنزلة ما سمىٰ وما وصف الرب تعالىٰ من نفسه.

والراسخون في العلم -الواقفون حيث انتهىٰ علمهم، الواصفون لربهم بما وصف من نفسه، التاركون لما ترك من ذكرها- لا ينكرون صفة ما سمىٰ منها جحدا، ولا يتكلفون وصفه بما لم يسمِّ تعمقا؛ لأن الحق ترك ما ترك وتسمية ما سمىٰ، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ



ﭐلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ [النساء]. وهب الله لنا ولكم حكما وألحقنا بالصالحين» اهـ.

وهـٰذا كله كلام ابن الماجشون الإمام فتدبره، وانظر كيف أثبت الصفات ونفىٰ علم الكيفية موافقة لغيره من الأئمة، وكيف أنكر علىٰ من نفىٰ الصفات بأنه يلزمهم من إثباتها كذا وكذا كما تقوله الجهمية: أنه يلزم أن يكون جسمًا أو عَرَضًا فيكون محدَثًا.

وفي كتاب «الفقه الأكبر» المشهور عند أصحاب أبي حنيفة، الذي رووه بالإسناد عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي، قال: سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر؟ فقال: لا تكفِّرن أحدا بذنب، ولا تنف أحدا به من الإيمان، وتأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر، وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولا تتبرّأ من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا تُوالي أحدا دون أحد، وأن ترد أمر عثمان وعلي إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال أبو حنيفة: الفقه الأكبر في الدِّين خير من الفقه في العلم، ولأَنْ يفقه الرجلُ كيف يعبد ربّه خير له من أن يجمع العلمَ الكثير.

قال أبو مطيع الحكم بن عبد الله: قلت: أخبرني عن أفضل الفقه، قال: تعلُّم الرجل الإيمان، والشرائع والسّنن، والحدود، واختلاف الأئمة، وذَكَرَ مسائل الإيمان، ثم ذكر مسائل القدر، والرد علىٰ القدرية بكلامٍ حسن ليس هـٰذا موضعَه.

ثم قال: قلتُ: فما تقول فيمن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر فيتبعه علىٰ ذلك أناس فيخرج علىٰ الجماعة، هل ترىٰ ذلك؟ قال: لا. قلتُ: ولم؟ قال: أمر الله ورسوله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو فريضةٌ واجبة؟ قال: هو كذلك؛ لكن ما يفسدون أكثر مما يصلحون من سفْك الدماء واستحلال الحرام.

قال: وذكر الكلام في قتال الخوارج والبغاة إلىٰ أن قال: قال أبو حنيفة عمن قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض: فقد كفر؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه] وعرشه فوق سبع سماوات.

قلتُ: فإن قال: إنه علىٰ العرش استوىٰ، ولكنه يقول: لا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر؛ لأنه أنكر أن يكون في السماء؛ لأنه تعالىٰ في أعلىٰ عليين، وأنه يدعىٰ من أعلىٰ لا من أسفل.



وفي لفظ: سألتُ أبا حنيفة عمّن يقول: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض قال: قد كفر. قال: لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وعرشه فوق سبع سماوات، قال: فإنه يقول: علىٰ العرش استوىٰ؛ ولكن لا يدري العرش في الأرض أو في السماء، قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر.

ففي هـٰذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة عند أصحابه أنه كفَّر الواقف الذي يقول: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض؛ فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول: ليس في السماء أو ليس في السماء ولا في الأرض، واحتج علىٰ كفره بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، قال: وعرشه فوق سبع سماوات.

وبيّن بهـٰذا أنّ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ يبين أن الله فوق السمٰوات، فوق العرش، وأن الاستواء علىٰ العرش دلّ علىٰ أنّ الله بنفسه فوق العرش.

ثم أنه أردف ذلك بتكفير من قال: إنه علىٰ العرش استوىٰ؛ ولكن توقف في كون العرش في السماء أم في الأرض، قال: لأنه أنكر أنه في السماء؛ لأن الله في أعلىٰ عليين، وأنه يدعىٰ من أعلىٰ لا من أسفل.

وهـٰذا تصريحٌ من أبي حنيفة بتكفير من أنكر أن يكون الله في السماء، واحتج علىٰ ذلك بأن الله في أعلىٰ عليين وأنه يدعىٰ من أعلىٰ لا من أسفل، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية، فإن القلوب مفطورة علىٰ الإقرار بأن الله في العلو، وعلىٰ أنه يدعىٰ من أعلىٰ لا من أسفل، وقد جاء اللفظ الآخر صريحًا عنه بذلك فقال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر.

وروىٰ هـٰذا اللفظ بإسناد عنه شيخُ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري الهروي في كتاب «الفاروق»، وروىٰ أيضا ابن أبي حاتم أن هشام بن عبيد الله الرازي -صاحب محمد بن الحسن، قاضي الرّي- حبس رجلا في التجهّم، فتاب فجيء به إلىٰ هشام ليُطلقه فقال: الحمد لله علىٰ التوبة، فامتحنه هشام فقال: أتشهد أن الله علىٰ عرشه بائن من خلقه؟ فقال: أشهد أن الله علىٰ عرشه، ولا أدري ما بائن من خلقه، فقال: ردوه إلىٰ الحبس فإنه لم يتُب.

وروىٰ أيضا عن يحيىٰ بن معاذ الرازي أنه قال: إنّ الله علىٰ العرش بائن من الخلق، وقد أحاط بكل شيء علما، وأحصىٰ كل شيء عددا، لا يشك في هـٰذه المقالة إلا جهمي رديء ضِلِّيل وهالك مرتاب، يمزج الله بخلقه ويخلط منه الذات بالأقذار والأنتان.



وروىٰ أيضا عن ابن المديني لما سئل ما قول أهل الجماعة قال: يؤمنون بالرؤية والكلام. وأن الله فوق السَّمٰوات علىٰ العرش استوىٰ، فسئل عن قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، فقال اقرأ ما قبلها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة:٧].

وروىٰ أيضا عن أبي عيسىٰ الترمذي قال: هو علىٰ العرش كما وصف في كتابه، وعلمه وقدرته وسلطانه في كل مكان.

وروىٰ عن أبي زرعة الرازي أنه لما سئل عن تفسير قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، فقال تفسيره كما يقرأ: هو علىٰ العرش وعلمه في كل مكان، ومن قال غير هٰذا فعليه لعنة الله.

وروىٰ أبو القاسم اللالكائي الحافظ الطبري -صاحب أبي حامد الإسفراييني- في كتابه المشهور في «أصول السنة» بإسناده عن محمد بن الحسن -صاحب أبي حنيفة- قال: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلىٰ المغرب علىٰ الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عَزَّوَجَلَّ من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسَّر اليوم شيئا منها فقد خرج ممّا كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة؛ لأنه قد وصفه بصفة لا شيء.

محمد بن الحسن أخذ عن أبي حنيفة ومالك وطبقتهما من العلماء، وقد حكىٰ هٰذا الإجماع، وأخبر أن الجهمية تصفه بالأمور السلبية غالبا أو دائما، وقوله: (من غير تفسير) أراد به تفسير الجهمية المعطلة الذين ابتدعوا تفسير الصفات بخلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون من الإثبات.

وروىٰ البيهقي وغيره بإسانيد صحيحة عن أبي عبيد القاسم بن سلاّم قال: هٰذه الأحاديث التي يقول فيها «**ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ**»، و«**إِنَّ جَهَنَّمَ لَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّكَ فِيهَا قَدَمَهُ**»، و«**الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ**»، وهٰذه الأحاديث في الرؤية هي عندنا حق حملها الثقات بعضهم عن بعض؛ غير أنّا إذا سئلنا عن تفسيرها لا نفسرها، وما أدركْنا أحدا يفسرها.



أبو عبيد أحد الأئمة الأربعة الذين هم: الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو عبيد، وله من المعرفة بالفقه واللغة والتأويل ما هو أشهر من أن يوصف، وقد كان في الزمان الذي ظهرت فيه الفتن والأهواء، وقد أخبر أنه ما أدرك أحدًا من العلماء يفسرها -أي: تفسير الجهمية.

وروىٰ اللالكائي والبيهقي بإسنادهما عن عبد الله بن المبارك أن رجلا قال له: يا أبا عبد الرحمـٰن أني أكره الصفة -عني صفة الرب-. فقال له: عبد الله بن المبارك وأنا أشد الناس كراهية لذلك، ولكن إذا نطق الكتاب بشيء قلنا به، وإذا جاءت الآثار بشيء جسرنا عليه ونحو هـٰذا.

أراد ابن المبارك أنا نكره أن نبتدئ بوصف الله من [تلقاء] أنفسنا حتىٰ يجيء به الكتاب والآثار.

وروىٰ عبد الله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك أنه قيل له: بماذا نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سماواته علىٰ عرشه بائن من خلقه، ولا نقول كما تقول الجهمية: أنه هاهنا في الأرض. وهكذا قال الإمام أحمد وغيره.

وروىٰ بإسناد صحيح عن سليمان بن حرب الإمام، سمعت حماد بن زيد وذكر هؤلاء الجهمية فقال: إنما يحاولون أن يقولوا: ليس في السماء شيء.

وروىٰ ابن أبي حاتم في كتاب «الرد علىٰ الجهمية» عن سعيد بن عامر الضبعي -إمام أهل البصرة علما ودينا من شيوخ الإمام أحمد- أنه ذكر عنده الجهمية فقال: هم أشر قولا من اليهود والنصارىٰ، وقد أجمع اليهود والنصارىٰ وأهل الأديان مع المسلمين علىٰ أن الله علىٰ العرش، وهم قالوا: ليس علىٰ شيء.

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة إمام الأئمة: من لم يقل: إن الله فوق سماواته علىٰ عرشه بائن من خلقه وجب أن يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ثم ألقي علىٰ مزبلة لئلا يتأذىٰ بنتن ريحه أهل القبلة، ولا أهل الذمة. ذكره عنه الحاكم بإسناد صحيح.

وروىٰ عبد الله ابن الإمام أحمد بإسناده عن عباد بن العوام الواسطي -إمام أهل واسط من طبقة شيوخ الشافعي وأحمد- قال: كلمتُ بشرا المريسي، وأصحاب بشر فرأيت آخر كلامهم ينتهي أن يقولوا: ليس في السماء شيء.

وعن عبد الرحمـٰن بن مهدىٰ الإمام المشهور أنه قال: ليس في أصحاب الأهواء شر من



أصحاب جهم، يدورون علىٰ أن يقولوا: ليس في السماء شيء، أرىٰ والله ألَّا يناكحوا ولا يوارثوا.

وروىٰ عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم في كتاب «الرد علىٰ الجهمية» عن عبد الرحمـٰن بن مهديٰ قال: أصحاب جهم يريدون أن يقولوا: إن الله لم يكلم موسىٰ، ويريدون أن يقولوا: ليس في السماء شيء، وإن الله ليس علىٰ العرش. أرىٰ أن يستتابوا فإن تابوا وإلا قتلوا.

وعن الأصمعي، قال: قدمت امرأة جهم فنزلت بالدباغين، فقال رجل عندها: الله علىٰ عرشه، فقالت: محدود علىٰ محدود، فقال الأصمعي: كفرت بهـٰذه المقالة.

وعن عاصم بن علي بن عاصم -شيخ أحمد والبخاري وطبقتهما- قال: ناظرت جهميًّا فتبين من كلامه أنه لا يؤمن أنّ في السماء ربًّا.

وروىٰ الإمام أحمد ابن حنبل الشيباني قال: أخبرنا سريج بن النعمان، قال: سمعت عبد الله بن نافع الصائغ قال: سمعت مالك بن أنس يقول: الله في السماء، وعلمه في كل مكان لا يخلو من علمه مكان.

وقال الشافعي: خلافة أبي بكر الصديق حقّ قضاه الله في سمائه وجمع عليه قلوب عباده.

وفي الصحيح عن أنس بن مالك قال: كانت زينب تفتخر علىٰ أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات. وهـٰذا مثل قول الشافعي.

وقصة أبي يوسف -صاحب أبي حنيفة- مشهورة في استتابة بشر المريسي حتىٰ هرب منه لما أنكر الصفات وأظهر قول جهم. قد ذكرها بن أبي حاتم وغيره.

وقال أبو عبد الله محمد بن أبي زَمَنِين -الإمام المشهور من أئمة المالكية- في كتابه الذي صنفه في أصول السنة قال فيه: باب الإيمان بالعرش.

قال: ومن قول أهل السنة: أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ثم استوىٰ عليه كيف شاء، كما أخبر عن نفسه في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد:٤] الآية.

فسبحان من بعد وقرب بعلمه، فسمع النجوىٰ، وذكر حديث أبي رزين العقيلي؛ قلتُ:



يا رسول الله: أين كان ربنا قبل أن يخلق السمٰوات والأرض؟ قال: «فِي عَمَاءٍ؛ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَىٰ الْمَاءِ» قال محمد: العماء السحاب الكثيف المُطْبِق - فيما ذكره الخليل- وذكر آثارًا أخر.

ثم قال: باب الإيمان بالكرسي. قال محمد بن عبد الله: ومن قول أهل السنة أن الكرسي بين يدي العرش، وأنه موضع القدمين. ثم ذكر حديث أنس الذي فيه التجلي يوم الجمعة في الآخرة، وفيه فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين علىٰ كرسيه، ثم يحف الكرسي علىٰ منابر من ذهب مكللة بالجواهر، ثم يجيء النبيون فيجلسون عليها.

وذكر ما ذكره يحيىٰ بن سلام صاحب التفسير المشهور: حدثني المعلا بن هلال، عن عمار الدهني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إن الكرسي الذي وسع السمٰوات والأرض وموضع القدمين، ولا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه.

وذكر من حديث أسد بن موسىٰ، ثنا حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود، قال: ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السّماء السّابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه.

ثم قال: في باب الإيمان بالحجب، قال: ومن قول أهل السنة: إن الله بائن من خلقه يحتجب عنهم بالحجب فتعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف]، وذكر آثارا في الحجب.

ثم قال: في باب الإيمان بالنزول، قال: ومن قول أهل السنة: إن الله ينزل إلىٰ سماء الدنيا، ويؤمنون بذلك من غير أن يحدّوا فيه حدًّا، وذكر الحديث من طريق مالك وغيره. إلىٰ أن قال: وأخبرني وهب، عن ابن وضاح، عن الزهري، عن ابن عباد قال: ومن أدركتُ من المشايخ -مالك وسفيان وفضيل بن عياض وعيسىٰ وابن المبارك ووكيع- كانوا يقولون: إنّ النزول حق.

قال ابن وضاح: وسألت يوسف بن عدي عن النزول، قال: نعم. أومن به ولا أحد فيه حدا. وسألت عنه ابن معين، فقال: نعم أُقِرُّ به ولا أحد فيه حدا.

قال محمد: وهـٰذا الحديث يبين أن الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ العرش في السّماء دون الأرض، وهو



أيضا بيّن في كتاب الله وفيما غير حديث عن رسول الله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة]، وقال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [الملك]، وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾[فاطر:١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٨ و٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾ [النساء:١٥٨].

وذكر من طريق مالك قول النبي ﷺ للجارية: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قالت: في السماء. قال: «**مَنْ أَنَا؟**» قالت: أنت رسول الله. قال: «**فَأَعْتِقْهَا**».

قال: والأحاديث مثل هـٰذا كثيرة جدا، فسبحان من علمه بما في السماء كعلمه بما في الأرض، لا إلـٰه إلا هو العلي العظيم.

وقال قبل ذلك: باب في الإيمان بصفات الله تعالىٰ وأسمائه، قال: واعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله، يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علما، والعجز عما لم يدع إليه إيمانًا، وأنهم إنّما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلىٰ حيث انتهىٰ في كتابه، وعلىٰ لسان نبيه.

وقد قال -وهو أصدق القائلين-: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾ [القصص:٨٨]، وقال: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾ [آل عمران:٢٨ و٣٠]، وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩]، وقال ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ﴾ [الطور:٤٨]، وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩﴾ [طه]، وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧]، وقال: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤﴾ [النساء]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور:٣٥] الآية، وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] الآية، وقال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ [الحديد:٣]، ومثل هـٰذا في القرآن كثير.



فهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نور السّمٰوات والأرض، كما أخبر عن نفسه، وله وجهٌ ونفس وغير ذلك مما وصف به نفسه، ويسمع ويرىٰ ويتكلّم، هو الأوّل لا شيء قبله، والآخر الباقي إلىٰ غير نهاية ولا شيء بعده، والظّاهر العالي فوق كلّ شيء والباطن بَطُنَ علمُه بخلقه فقال: وهو بكل شيء عليم، حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم.

وذكر أحاديث الصفات ثم قال: فهٰذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها نبيّه، وليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ]، لم تره العيون فتحدَّه كيف هو، ولكن رأته القلوب في حقائق الإيمان. ا.هـ.

وكلام الأئمة في هٰذا الباب أطول وأكثر من أن تسع هٰذه الفتيا عُشره، وكذلك كلام الناقلين لمذهبهم.

مثل ما ذكره أبو سليمان الخطَّابي في رسالته المشهورة في «الغنية عن الكلام وأهله»، قال: فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء منها في الكتاب والسنة. فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها علىٰ ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلىٰ ضربٍ من التشبيه والتكييف، وإنما القصد في سلوك الطريقة المُستقيمة بين الأمرين، ودين الله تعالىٰ بين الغالي فيه والجافي والمقصّر عنه.

والأصل في هٰذا: أن الكلام في الصِّفات فرع علىٰ الكلام في الذات، ويُحتذا في ذلك حذوه وأمثاله. فإذا كان معلومًا أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف.

فإذا قلنا: يد وسمع وبصر وما أشبهها، فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه، ولسنا نقول: أن معنىٰ اليد القوة أو النعمة، ولا معنىٰ السمع والبصر العلم، ولا نقول: إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي وبالأسماع وبالأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إن القول إنما وجب بإثبات الصفات؛ لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها؛ لأن الله ليس كمثله شيء، وعلىٰ هٰذا جرىٰ قول السلف في أحاديث الصِّفات. هٰذا كله كلام الخطابي.

وهكذا قاله أبو بكر الخطيب الحافظ في رسالة له أخبر فيها أن مذهب السَّلف علىٰ



ذلك.

وهـٰذا الكلام الذي ذكره الخطّابي قد نقل نحوًا منه من العلماء من لا يُحصىٰ عددهم مثل أبي بكر الإسماعيلي، والإمام يحيىٰ بن عمار السّجزي، وشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي، صاحب «منازل السائرين وذم الكلام» وهو أشهر من أن يوصف، وشيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني، وأبي عمر ابن عبد البر النمري إمام المغرب، وغيرهم.

وقال أبو نعيم الأصبهاني صاحب «الحلية» في عقيدة له قال في أولها: طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة؛ قال: فمما اعتقدوه أنّ الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله يقولون بها ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه، وإنَّ الله بائن من خلقه، والخلق بائنون منه، لا يحلُّ فيهم ولا يمتزج بهم، وهو مستوٍ علىٰ عرشه في سمائه دون أرضه وخلقه.

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه «محجة الواثقين ومَدرجة الوامقين» تأليفه: وأجمعوا أنّ الله فوق سماواته عالٍ علىٰ عرشه مستوٍ عليه، لا مستولٍ عليه كما تقول الجهمية: إنه بكل مكان خلافا لما نزل في كتابه ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، له العرش المستوي عليه والكرسي الذي وسع السّمٰوات والأرض، وهو قوله: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وكرسيه جسم، والأرضون السبع والسّمٰوات السبع عند الكرسي كحلقة في أرض فلاة، وليس كرسيه علمه كما قالت الجهمية؛ بل يوضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه، كما قاله النبيُّ ﷺ، وأنه تعالىٰ وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفًّا صفا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢﴾ [الفجر]، وزاد النبي ﷺ وأنه تعالىٰ وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده فيغفر لمن يشاء من مذنبي الموحِّدين، ويعذب من يشاء. كما قال تعالىٰ: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران:١٢٩، المائدة:١٨، الفتح:١٤].

وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني -شيخ الصوفية في حدود المائة الرابعة في بلاده- قال: أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر بلا كيف وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين



والمتأخرين.

قال فيها: وأن الله استوىٰ علىٰ عرشه بلا كيف، ولا تشبيه، ولا تأويل، والاستواء معقول والكيف فيه مجهول، وأنه عَزَّوَجَلَّ مستوٍ علىٰ عرشه بائن من خلقه، والخلق منه بائنون، بلا حلول ولا ممازجة، ولا اختلاط ولا ملاصقة؛ لأنه المنفرد البائن من الخلق، الواحد الغني عن الخلق، وأنّ الله عَزَّوَجَلَّ سميع، بصير، عليم، خبير، يتكلم، ويرضىٰ ويسخط، ويضحك، ويعجب، ويتجلَّىٰ لعباده يوم القيامة ضاحكًا، وينزل كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا كيف شاء، فيقول: «هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟» حتىٰ يطلع الفجر، ونزول الرب إلىٰ السماء بلا كيف ولا تشبيه، ولا تأويل، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال، وسائر الصفوة من العارفين علىٰ هـٰذا. ا.هـ

وقال الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال في كتاب «السنة»: ثنا أبو بكر الأثرم، ثنا إبراهيم بن الحارث -يعني: العبّادي-، حدثنا الليث بن يحيىٰ، قال: سمعت إبراهيم بن الأشعث، قال أبو بكر -وهو صاحب الفضيل- قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: ليس لنا أن نتوهم في الله كيف هو؛ لأن الله تعالىٰ وصف نفسه فأبلغ فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]، فلا صفةَ أبلغُ مما وصف به نفسه.

وكلّ هـٰذا: النزول، والضحك، وهـٰذه المباهاة، وهـٰذا الاطلاع، كما يشاء أن ينزل، وكما يشاء أن يباهي، وكما يشاء أن يضحك، وكما يشاء أن يطَّلع. فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف؟ فإذا قال الجهمي: أنا أكفر بربٍّ يزول عن مكانه. فقل: بل أومن برب يفعل ما يشاء.

ونَقل هـٰذا عن الفضيل جماعة؛ منهم البخاري في «خلق أفعال العباد»، ونقله شيخ الإسلام بإسناده في كتابه «الفاروق» فقال: ثنا يحيىٰ بن عمار، ثنا أبي، ثنا يوسف بن يعقوب، ثنا حرمي بن علي البخاري وهانئ بن النضر، عن الفضيل.

وقال عمرو بن عثمان المكي في كتابه الذي سماه «التعرف بأحوال العباد والمتعبدين» قال: باب ما يجيء به الشيطان للتائبين، وذكر أنه يوقعهم في القنوط، ثم في الغرور وطول الأمل، ثم في التوحيد، فقال: من أعظم ما يوسوس في التوحيد بالتشكيك أو في صفات



الرب بالتمثيل والتشبيه، أو بالجحد لها والتعطيل. فقال بعد ذكر حديث الوسوسة:

واعلم -رحمك الله- أن كلما توهمه قلبك، أو سنح في مجاري فكرك، أو خطر في معارضات قلبك من حسن أو بهاء، أو ضياء أو إشراق، أو جمال، أو سنح مسائل، أو شخص متمثل: فالله تعالىٰ بغير ذلك؛ بل هو تعالىٰ أعظم وأجل وأكبر، ألا تسمع لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص] أي: لا شبيه ولا نظير ولا مساوي ولا مِثل، أو لم تعلم أنه لما تجلَّىٰ للجبل تدكدك لعظم هيبته، وشامخ سلطانه، فكما لا يتجلّىٰ لشيء إلا اندك، كذلك لا يتوهمه أحد إلا هلك، فَرُدَّ بما بيّن الله في كتابه من نفيه عن نفسه التشبيه والمثل والنظير والكفْء.

فإن اعتصمت بها وامتنعت منه أتاك من قبل التعطيل لصفات الرّب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وتقدس في كتابه وسنة رسوله محمّد ﷺ فقال لك: إذا كان موصوفا بكذا أو وصفته أوجب له التشبيه فأكذبه؛ لأنه اللّعين إنما يريد أن يستزلك ويُغويك ويدخلك في صفات الملحدين الزائغين الجاحدين لصفة الرب تعالىٰ.

واعلم -رحمك الله تعالىٰ- أنَّ الله تعالىٰ واحد لا كالآحاد، فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، إلىٰ أن قال: خلُصت له الأسماء السَّنية فكانت واقعة في قديم الأزل بصدق الحقائق، لم يستحدث تعالىٰ صفة كان منها خليّا، واسما كان منه بريّا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فكان هاديا سيهدي، وخالقا سيخلق، ورازقا سيرزق، وغافرا سيغفر، وفاعلا سيفعل، ولم يحدث له الاستواء إلا وقد كان في صفة أنه سيكون ذلك الفعل، فهو يسمّىٰ به في جملة فعله، كذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾[الفجر:٢٢] بمعنىٰ أنه سيجيء، فلم يستحدث الاسم بالمجيء، وتخلُّف الفعل لوقت المجيء، فهو جاء سيجيء، ويكون المجيء منه موجودا بصفة لا تلحقه الكيفية ولا التشبيه؛ لأن ذلك فعل الربوبية، فيستحسر العقل وتنقطع النفس عند إرادة الدخول في تحصيل كيفية المعبود، فلا تذهب في أحد الجانبين لا معطلا ولا مشبّها، وارض لله بما رضي به لنفسه، وقِف عند خبره لنفسه مسلما مستسلمًا، مصدقا؛ بلا مباحثة التنفير ولا مناسبة التنقير.

إلىٰ أن قال: فهو عَزَّوَجَلَّ القائل: أنا الله، لا الشجرة، الجائي قبل أن يكون جائيا، لا أمره المتجلي لأوليائه في المعاد؛ فتبيضّ به وجوههم، وتفلُج به علىٰ الجاحدين حجتهم،



المستوي علىٰ عرشه بعظمة جلاله فوق كل مكان تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، الذي كلم موسىٰ تكليما، وأراه من آياته، فسمع موسىٰ كلام الله لأنه قرَّبه نجيًّا، تقدَّس أن يكون كلامه مخلوقا أو محدَثا أو مربوبا، والوارث بخلقه لخلقه السميع لأصواتهم، الناظر بعينه إلىٰ أجسامهم، يداه مبسوطتان، وهما غير نعمته، خلق آدم ونفخ فيه من روحه -وهو أمره-، تعالىٰ وتقدس أن يحل بجسم، أو يمازج بجسم، أو يلاصق به تعالىٰ عن ذلك علوا كبيرا، الشائي له المشيئة، العالم له العلم، الباسط يديه بالرحمة، النازل كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا ليتقرب إليه خلقه بالعبادة، وليرغبوا إليه بالوسيلة، القريب في قربه من حبل الوريد، البعيد في علوه من كل مكان بعيد، ولا يشبّه بالناس.

إلىٰ أن قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، القائل ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك] تعالىٰ وتقدس أن يكون في الأرض كما هو في السماء جل عن ذلك علوا كبيرا. ا.هـ.

وقال الإمام أبو عبد الله الحارث بن إسماعيل بن أسد المحاسبي في كتابه المسمىٰ «فهم القرآن» قال -في كلامه علىٰ الناسخ والمنسوخ وأنّ النسخ لا يجوز في الأخبار- قال: لا يحل لأحد أن يعتقد أنّ مدح الله وصفاته ولا أسمائه يجوز أن ينسخ منها شيء.

إلىٰ أن قال: وكذلك لا يجوز إذا أخبر أن صفاته حسنة عُليا أن يخبر بعد ذلك أنها دنية سفلىٰ، فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب، وأنه لا يبصر ما قد كان، ولا يسمع الأصوات، ولا قدرة له، ولا يتكلم، ولا الكلام كان منه، وأنه تحت الأرض لا علىٰ العرش جَلَّ وَعَلَا عن ذلك.

فإذا عرفت ذلك واستيقنته علمت ما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز، فإن تلوت آية في ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض أخباره كقوله عن فرعون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ﴾ [يونس:٩٠] الآيات، وقال: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١].

وقال: قد تأول قوم أن الله عنىٰ أن ينجيه ببدنه من النار لأنه آمن عند الغرق، وقال: إنما ذكر اللهُ أن قوم فرعون يدخلون النار دونه، وقال ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨]، وقال:



﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥﴾ [غافر]، ولم يقل بفرعون، قال: وهكذا الكذب على الله؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾ [النازعات]، كذلك قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [العنكبوت:٣] فاقرأ التلاوة على استئناف العلم من الله عَزَّ وَجَلَّ عن أن يستأنف علما بشيء؛ لأنه من ليس له علم بما يريد أن يصنعه لم يقدر أن يصنعه -نجده ضرورة.

قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك]، قال: وإنما قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ إنما يريد حتى نراه، فيكون معلوما موجودا؛ لأنه لا جائز أن يكون يعلم بالشيء معدوما من قبل أن يكون، ويعلمه موجودا كان قد كان، فيعلم في وقت واحد معدوما موجودا، وإن لم يكن وهذا محال.

وذكر كلاما في هذا في الإرادة.

إلى أن قال: وكذلك قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥﴾ [الشعراء] ليس معناه أنه يحدث له سمعا، ولا تكلفٌ لسمع ما كان من قولهم، وقد ذهب قوم من أهل السنة أنَّ لله استماعا في ذاته، فذهبوا إلى أنَّ ما يعقل من أنه يحدث منهم عُلم سمع لما كان من قول؛ لأن المخلوق إذا سمع حدث له عُقد فهم عما أدركته أذنه من الصوت، وكذلك قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:١٠٥]، لا يستحدث بصرا محدثا في ذاته، وإنما يحدث الشيء فيراه مكونا كما لم يزل يعلمه قبل كونه.

إلى أن قال: وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨ و٦١]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾[السجدة:٥]، وقال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[المعارج:٤]، وقال لعيسى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران:٥٥] الآية، وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وذكر الآلهة أن لو كانوا آلهة لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا حيث هو فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الإسراء]، أي: طلبه،



وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلىٰ].

قال أبو عبد الله: فلن ينسخ ذلك لهـٰذا أبدا.

كذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧] الآية، فليس هـٰذا بناسخ لهـٰذا، ولا هـٰذا ضد لذلك.

واعلم أن هـٰذه الآيات ليس معناها أن الله أراد الكون بذاته فيكون في أسفل الأشياء، أو ينتقل فيها لانتقالها، ويتبعض فيها علىٰ أقدارها، ويزول عنها عند فنائها، جل وعز عن ذلك، وقد نزع بذلك بعض أهل الضلال، فزعموا أن الله تعالىٰ في كل مكان بنفسه كائنا، كما هو علىٰ العرش، لا فرقان بين ذلك عندهم، ثم أحالوا في النفي بعد تثبيت ما يجوز عليه في قولهم ما نفوه؛ لأن كل من يثبت شيئا في المعنىٰ ثم نفاه بالقول لم يغن عنه نفيه بلسانه، واحتجوا بهـٰذه الآيات؛ أنّ الله تعالىٰ في كل شيء بنفسه كائنا ثم نفوا معنىٰ ما أثبتوه، فقالوا: لا كالشيء في الشيء.

قال أبو عبد الله: أمّا قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد:٣١]، ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٩٤]، و﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥﴾ [الشعراء:١٥]، فإنما معناه حتىٰ يكون الموجود فيعلمه موجودا، ويسمعه مسموعا، ويبصره مُبْصَرا لا علىٰ استحداث علم ولا سمع ولا بصر.

وأما قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ﴾ [الإسراء:١٦]، إذا جاء وقت كون المراد فيه.

وأن قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨ و٦١] الآية، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك:١٦] ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الإسراء]، فهـٰذا وغيره مثل قوله ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر:١٠]، هـٰذا منقطع يوجب أنه فوق العرش، فوق الأشياء كلها منزه عن الدخول في خلقه، لا يخفىٰ عليه منهم خافية؛ لأنه أبان في هـٰذه الآيات أنه أراد أنه بنفسه فوق عباده؛ لأنه قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك:١٦]، يعني فوق العرش والعرش علىٰ السماء؛ لأن من قد كان فوق كل شيء علىٰ السماء في السماء، وقد قال مثل ذلك في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾



[التوبة:٢]، يعني على الأرض، لا يريد الدخول في جوفها. وكذلك قوله: ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة:٢٦] يعني على الأرض لا يريد الدخول في جوفها، وكذلك قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١] يعني فوقها عليها.

وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ﴾، ثم فصل فقال: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦]، ولم يصل فلم يكن لذلك معنى -إذ فصل قوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ثم استأنف التخويف بالخسف-، إلا أنه على عرشه فوق السماء.

وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة:٥]، وقال ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٤]، فبين عروج الأمر وعروج الملائكة، ثم وصف وقت صعودها بالارتفاع صاعدة إليه فقال: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾ [المعارج]، فقال صعودها إليه، وفصله من قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ كقول القائل: اصعد إلى فلان في ليلة أو يوم، وذلك أنه في العلو وأن صعودك إليه في يوم، فإذا صعدوا إلى العرش فقد صعدوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كانوا لم يروه ولم يساووه في الارتفاع في علوه فإنهم صعدوا من الأرض وعرجوا بالأمر إلى العلو، قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾[النساء:١٥٨]، ولم يقل عنده.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر]، فيما قال: قال لي أن إلهه فوق السَّمٰوات.

فبين الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنّ فرعون ظن بموسى أنه كاذب فيما قال: وعمد لطلبه حيث قاله مع الظن بموسى أنه كاذب، ولو أن موسى قال إنه في كل مكان بذاته لطلبه في بيته أو في بدنه أو حُشِّه، فتعالى الله عن ذلك، ولم يجهد نفسه ببنيان الصرح.

قال أبو عبد الله: وأما الآية التي يزعمون أنها قد وصلها ولم يقطعها كما قطع الكلام الذي أراد به أنه على عرشه فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [المجادلة:٧]، فأخبر بالعلم ثم أخبر أنه مع كل مناجٍ، ثم ختم الآية بالعلم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة]، فبدأ بالعلم وختم بالعلم، فبين أنه أراد أنه يعلمهم حيث كانوا لا يخفون عليه، ولا يخفى عليه مناجاتهم، ولو اجتمع القوم في أسفل وناظر



إليهم في العلو فقال: إني لم أزل أراكم وأعلم مناجاتكم لكان صادقًا -ولله المثل الأعلىٰ أن يشبه الخلق- فإن أبوا إلا ظاهر التِّلاوة، وقالوا هـٰذا منكم دعوىٰ. خرجـوا عـن قـولهم في ظاهر التلاوة؛ لأن من هو مع الاثنين فأكثر هو معهم لا فيهم، ومن كان مع شيء خـلا منـه جسمه وهـٰذا خروج من قولهم.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق]؛ لأن مـا قـرب مـن الشيء ليس هو في الشيء ففي ظاهر التلاوة علىٰ دعواهم أنه ليس في حبل الوريد.

وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، لم يقل: في السماء ثم قطع -كما قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملـك:١٦] ثـم قطـع فقـال: ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك:١٦]- فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ يعنـي إلـه أهـل السماء إله أهل الأرض وذلك موجود في اللغة، تقول فلان أمير في خراسان، وأمير في بَلْـخ، وأمير في سمرقند، وإنما هو في موضع واحد، ويخفىٰ عليه مـا وراءه، فكيـف العـالي فـوق الأشياء لا يخفىٰ عليه شيء من الأشياء يدبّره، فهو إله فيهما إذ كان مدبِّرا لهما، وهـو علـىٰ عرشه وفوق كل شيء تعالىٰ عن الأشباه والأمثال.

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه: «اعتقاد التوحيـد بإثبـات الأسماء والصفات» قال في آخر خطبته: فاتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيـد الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه، قولا واحدا وشرعًا ظاهرا، وهم الـذين نقلـوا عـن رسول الله ﷺ ذلك حتىٰ قال: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**» وذكـر الحـديث، وحـديث «**لَعَـنَ اللهُ مَـنْ أَحْدَثَ حَدَثًا**» قال: فكانت كلمة الصحابة علىٰ الاتفاق من غير اختلاف، وهم الذين أُمرنـا بالأخذ عنهم إذ لم يختلفوا بحمد الله تعالىٰ في أحكام التوحيد وأصول الدِّين من الأسـماء والصفات، كما اختلفوا في الفروع، ولو كان منهم في ذلك اختلافٌ لنُقل إلينا كما نقل سائر الاختلاف، فاستقرَّ صحة ذلك عند خاصتهم وعامتهم حتىٰ أدوا ذلـك إلـىٰ التـابعين لهـم بإحسان، فاستقرّ صحة ذلك عند العلماء المعروفين حتىٰ نقلوا ذلـك قرنًـا بعـد قـرن؛ لأن الاختلاف كان عندهم في الأصل كفر ولله المنة.

ثم إني قائل وبالله أقول: إنه لما اختلفوا في أحكام التوحيد وذكر الأسماء والصفات علىٰ خلاف منهج المتقدمين من الصحابة والتابعين، فخاض في ذلك من لم يعرفوا بعلم الآثار،



ولم يعقلوا قولهم بذكر الأخبار، وصار معوّلهم علىٰ أحكام هواجس النفوس المستخرجة من سوء الطوية علىٰ مخالفة السنة، والتعلق منهم بآيات لم يسعدهم فيها ما وافق النفوس، فتأولوا علىٰ ما وافق هواهم وصححوا بذلك مذاهبهم، احتجت إلىٰ الكشف عن صفة المتقدمين، ومأخذ المؤمنين، ومنهاج الأولين؛ خوفا من الوقوع في جملة أقاويلهم التي حذر رسول الله ﷺ أمته ومنع المستجيبين له حتىٰ حذرهم.

ثم ذكر أبو عبد الله خروج النبي ﷺ وهم يتنازعون في القدر وغضبه، وحديث: «**لَأُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ**» وحديث: «**سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**» وأن الناجية ما كان عليه هو وأصحابه.

ثم قال: فلزم الأمةَ قاطبة معرفةُ ما كان عليه الصحابة، ولم يكن الوصول إليه إلا من جهة التابعين لهم بإحسان المعروفين بنقل الأخبار ممن لا يقبل المذاهب المحدثة، فيتّصل ذلك قرنا بعد قرن ممّن عرفوا بالعدالة والأمانة، المحافظين علىٰ الأمة ما لهم وما عليهم من إثبات السنة.

إلىٰ أن قال: فأول ما نبتدئ به ما أوردنا هـٰذه المسألة من أجلها، ذكر أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته مما ذكر الله في كتابه، وما بين ﷺ من صفاته في سنته، وما وصف به عَزَّوَجَلَّ نفسه مما سنذكر قول القائلين بذلك ممّا لا يجوز لنا في ذلك أن نرده إلىٰ أحكام عقولنا بطلب الكيفية بذلك، ومما قد أُمرنا بالاستسلام له.

إلىٰ أن قال: ثم إن الله تعرّف إلينا بعد إثبات الوحدانية، والإقرار بالألوهية: إن ذكر تعالىٰ في كتابه بعد التحقيق، بما بدأ من أسمائه وصفاته، وأكده عليه السلام بقوله، فقبلوا منه كقبولهم لأوائل التوحيد من ظاهر قوله: لا إله إلا الله.

إلىٰ أن قال بإثبات نفسه بالتفصيل من المجمل، فقال لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝٤١﴾ [طه]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨ و٣٠].

ولصحة ذلك، واستقرار ما جاء به المسيح عليه السلام فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وأكد عليه السلام صحة



إثبات ذلك في سنته فقال يقول الله عَزَّوَجَلَّ «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي».

وقال: «كَتَبَ كِتَابًا بِيَدِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»، وقال: «سُبْحَانَ اللهِ رِضَىٰ نَفْسِهِ» وقال في محاجة آدم لموسىٰ: «أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ وَاصْطَنَعَكَ لِنَفْسِهِ».

فقد صرح بظاهر قوله: أنه أثبت لنفسه نفسا، وأثبت له الرسول ذلك؛ فعلىٰ من صدق الله ورسوله اعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه، ويكون ذلك مبنيا علىٰ ظاهر قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١].

ثم قال: فعلىٰ المؤمنين خاصتهم وعامتهم قبول كل ما ورد عنه عليه السلام بنقل العدل عن العدل حتىٰ تصل به ﷺ، وأن مما قضىٰ الله علينا في كتابه ووصف به نفسه ووردت السنة بصحة ذلك أن قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثم قال عقيب ذلك: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:٣٥]، وبذلك دعاه ﷺ «أَنْتَ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ»، ثم ذكر حديث أبي موسىٰ «حِجَابُهُ النُّورُ -أَوِ النَّارُ- لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» وقال: «سُبُحَاتُ وَجْهِهِ» جلاله ونوره، نقله عن الخليل وأبي عبيد، وقال: قال عبد الله بن مسعود: نور السّمٰوات نور وجهه.

ثم قال: ومما ورد به النص أنه حي، وذكر قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] والحديث «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ؛ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ».

قال: ومما تعرف الله إلىٰ عباده أنْ وصف نفسه أن له وجها موصوفا بالجلال والإكرام فأثبت لنفسه وجهًا، وذكر الآيات.

ثم ذكر حديث أبي موسىٰ المتقدم فقال في هـٰذا الحديث مِن أوصاف الله عَزَّوَجَلَّ: (لا ينام) موافق لظاهر الكتاب ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وأن له وجها موصوفا بالأنوار، وأن له بصرا كما علمنا في كتابه أنه سميع بصير.

ثم ذكر الأحاديث في إثبات الوجه، وفي إثبات السمع والبصر، والآيات الدالة علىٰ ذلك.

ثم قال: ثم إنّ الله تعالىٰ تعرّف إلىٰ عباده المؤمنين، وأنه قال: له يدان قد بسطهما بالرحمة. وذكر الأحاديث في ذلك، ثم ذكر شعر أمية بن أبي الصلت، ثم ذكر حديث: «يُلْقَىٰ فِي النَّارِ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ فِيهَا رِجْلَهُ» وهي: رواية البخاري، وفي



رواية أخرىٰ: «يَضَعَ عَلَيْهَا قَدَمَهُ».

ثم ما رواه مسلم البَطين عن ابن عباس: أنَّ الكرسي موضع القدمين. وأن العرش لا يقدر قدره إلا الله، وذكر قول مسلم البطين نفسَه، وقول السدي، وقول وهب بن منبه، وأبي مالك، وبعضهم يقول: موضع قدميه. وبعضهم يقول: واضع رجليه عليه.

ثم قال: فهٰذه الروايات قد رويت عن هؤلاء من صدر هٰذه الأمة موافقة لقول النبي ﷺ متداولة في الأقوال ومحفوظة في الصدر، ولا ينكر خلف عن السلف، ولا ينكر عليهم أحد من نظرائهم، نقلتها الخاصة والعامة مدونة في كتبهم، إلىٰ أن حدث في آخر الأمة من قلل الله عددهم ممّن حذرنا رسول الله ﷺ عن مجالستهم ومكالمتهم، وأمرنا ألَّا نعود مرضاهم، ولا نشيع جنائزهم، فقصد هؤلاء إلىٰ هٰذه الروايات فضربوها بالتشبيه وعمدوا إلىٰ الأخبار فعملوا في دفعها إلىٰ أحكام المقاييس، وكَفَّروا المتقدِّمين، وأنكروا علىٰ الصحابة والتابعين وردوا علىٰ الأئمة الراشدين فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

ثم ذكر المأثور عن ابن عباس، وجوابَه لنجدة الحروري؛ ثم حديث الصورة وذكر أنه صنف فيه كتابا مفردا، واختلاف الناس في تأويله.

ثم قال: وسنذكر أصول السنة وما ورد من الاختلاف فيما نعتقده فيما خالفنا فيه أهل الزيغ، وما وافقنا فيه أصحاب الحديث من المثبتة -إن شاء الله.

ثم ذكر الخلاف في الإمامة واحتج عليها، وذكر اتّفاق المهاجرين والأنصار علىٰ تقديم الصديق وأنه أفضل الأمة.

ثم قال: وكان الاختلاف في خلق الأفعال، هل هي مقدَّرة أم لا؟ قال: وقولنا فيها أنَّ أفعال العباد مقدرة معلومة وذكر إثبات القدر.

ثم ذكر الخلاف في أهل الكبائر ومسألة الأسماء والأحكام، وقال: قولنا فيها أنهم مؤمنون علىٰ الإطلاق، وأمرهم إلىٰ الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم.

وقال: أصل الإيمان موهبة يتولد منها أفعال العباد فيكون أصل التصديق والإقرار والأعمال، وذكر الخلاف في زيادة الإيمان ونقصانه، وقال: قولنا إنه يزيد وينقص. قال: ثم كان الاختلاف في القرآن مخلوقا وغير مخلوق، فقولنا وقول أئمتنا أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأنه صفة الله منه بدأ قولا، وإليه يعود حكما.



ثم ذكر الخلاف في الرؤية وقال: قولنا وقول أئمتنا فيما نعتقد أنَّ الله يُرىٰ في القيامة، وذكر الحجة.

ثم قال: اعلم رحمك الله أني ذكرت أحكام الاختلاف علىٰ ما ورد من ترتيب المحدثين في كل الأزمنة. وقد بدأت أن أذكر أحكام الجمل من العقود، فنقول ونعتقد أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له عرش، وهو علىٰ عرشه فوق سبع سماواته بكل أسمائه وصفاته، كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، و﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة:٥]، ولا نقول: أنه في الأرض كما هو في السماء علىٰ عرشه؛ لأنه عالم بما يجرىٰ علىٰ عباده ثم يعرج إليه.

إلىٰ أن قال: ونعتقد أن الله تعالىٰ خلق الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان للبقاء لا للفناء.

إلىٰ أن قال: ونعتقد أن النبي ﷺ عُرج بنفسه إلىٰ سدرة المنتهىٰ.

إلىٰ أن قال: ونعتقد أن الله قبض قبضتين فقال: «هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ».

ونعتقد أن للرسول ﷺ حوضا، ونعتقد أنه أول شافع وأول مشفَّع، وذكر الصراط، والميزان، والموت، وأن المقتول قُتل بأجله، واستوفىٰ رزقه.

إلىٰ أن قال: ومما نعتقد أنَّ الله ينزل كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا في ثلث الليل الآخر، فيبسط يده فيقول: «أَلَا هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟» الحديث، وليلة النصف من شعبان، وعشية عرفة، وذكر الحديث في ذلك. قال: ونعتقد أن الله تعالىٰ كلم موسىٰ تكليما، واتخذ إبراهيم خليلا، وأن الخلة غير الفقر، لا كما قال أهل البدع.

ونعتقد أنّ الله تعالىٰ خص محمدا ﷺ بالرؤية، واتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا.

ونعتقد أن الله تعالىٰ اختص بمفاتح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤] الآية.

ونعتقد المسح علىٰ الخفين ثلاثا للمسافر ويوما وليلة للمقيم.

ونعتقد الصبر علىٰ السلطان من قريش ما كان من جور أو عدل، ما أقام الصلاة من الجمع والأعياد، والجهاد معهم ماض إلىٰ يوم القيامة، والصلاة في الجماعة حيث ينادىٰ لها واجب إذا لم يكن عذر أو مانع، والتراويح سنة، ونشهد أن من ترك الصلاة عمدا فهو كافر، والشهادة والبراءة بدعة، والصلاة علىٰ من مات من أهل القبلة سنة، ولا ننزل أحدا



جنة ولا نارا حتىٰ يكون الله ينزلهم، والمراء والجدال في الدين بدعة.

ونعتقد أن ما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ أمرهم إلىٰ الله، ونترحّم علىٰ عائشة ونترضىٰ عنها.

والقول في اللفظ والملفوظ؛ وكذلك في الاسم والمسمىٰ بدعة، والقول في أن الإيمان مخلوق أو غير مخلوق بدعة، واعلم أني ذكرت اعتقاد أهل السنة علىٰ ظاهر ما ورد عن الصحابة والتابعين مجملًا من غير استقصاء، إذْ تقدم القول من مشائخنا المعروفين من أهل الإمامة والديانة إلا إني أحببت أن أذكر عقود أصحابنا المتصوفة فيما أحدثته طائفة نسبوا إليهم ما قد تخرصوا من القول بما نزه الله تعالىٰ المذهب وأهله من ذلك.

إلىٰ أن قال: وقرأت لمحمد بن جرير الطبري في كتاب سماه «التبصير»، كتب بذلك إلىٰ أهل طبرستان في اختلاف عندهم؛ وسألوه أن يصنف لهم ما يعتقده ويذهب إليه فذكر في كتابه اختلاف القائلين برؤية الله تعالىٰ؛ فذكر عن طائفة إثبات الرؤية في الدنيا والآخرة.

ونسب هٰذه المقالة إلىٰ الصوفية قاطبة، لم يخص طائفة، فبين أن ذلك علىٰ جهالة منه بأقوال المخلصين منهم، وكان من نسب إليه ذلك القول -بعد أن ادعىٰ علىٰ الطائفة- ابن أخت عبد الواحد بن زيد، والله أعلم محله عند المخلصين، فكيف بابن أخته، وليس إذا أحدث الزائغ في نحلته قولا نسب إلىٰ الجملة؛ كذلك في الفقهاء والمحدثين ليس من أحدث قولا في الفقه، وليس فيه حديث يناسب ذلك ينسب ذلك إلىٰ جملة الفقهاء والمحدثين.

واعلم أنّ ألفاظ الصوفية وعلومهم تختلف، فيطلقون ألفاظهم علىٰ موضوعات لهم، ومرموزات وإشارات تجري فيما بينهم، فمن لم يداخلهم علىٰ التحقيق، ونازل ما هم عليه رجع عنهم خاسئا وهو حسير.

ثم ذكر إطلاقهم لفظ الرؤية بالتقييد. فقال: كثيرا ما يقولون: رأيت الله يقول. وذكر عن جعفر بن محمد قوله لما سئل هل رأيت الله حين عبدته؟ قال: رأيت الله ثم عبدته. فقال السائل: كيف رأيته؟ فقال: لم تره الأبصار بتحديد الأعيان، ولكن رؤية القلوب بتحقيق الإيقان.

ثم قال: وإنه تعالىٰ يرىٰ في الآخرة كما أخبر في كتابه وذكره رسوله ﷺ.



هـٰذا قولنا وقول أئمتنا دون الجهال من أهل الغباوة فينا.

وأن مما نعتقده أن الله حرم علىٰ المؤمنين دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وذكر ذلـك في حجة الوداع. فمن زعم أنه يبلغ مع الله إلىٰ درجة يبيح الحق له ما حظر علىٰ المؤمنين -إلا المضطر علىٰ حال يلزمه أحياء للنفس- لو بلغ العبد ما بلغ من العلم والعبادات فذلك كفر بالله، والقائل ذلك قائل بالإباحة وهم المنسلخون من الديانة.

وأن مما نعتقده ترك إطلاق تسـمية العشـق علـىٰ الله تعـالىٰ؛ وبـيَّن أن ذلـك لا يجـوز لاشتقاقه، ولعدم ورود الشرع به، وقال: أدنىٰ ما فيه أنه بدعة وضلالة، وفيما نـص الله مـن ذكر المحبة كفاية.

وأن مما نعتقده أنَّ الله لا يحل في المرئيات، وأنَّه المتفرد بكمال أسمائه وصـفاته، بـائن من خلقه، مستو علىٰ عرشه، وأن القرآن كلامه غير مخلوق، حيث ما تلي ودرس وحفظ.

ونعتقد أن الله تعالىٰ اتخذ إبراهيم خليلا، واتخذ نبينا محمدا ﷺ خليلا وحبيبا، والخلة لهما منه علىٰ خلاف ما قاله المعتزلة: إن الخلة الفقر والحاجة.

إلىٰ أن قال: والخلة والمحبة صفتان لله هو موصـوف بهمـا ولا تـدخل أوصـافه تحـت التكييف والتشبيه، وصفات الخلق من المحبة والخلة جـائز عليهـا الكيـف، فأمـا صـفاته تعالىٰ فمعلومة في العلم، وموجودة في التعريـف، قـد انتفـىٰ عنهمـا التشـبيه، فالإيمـان بـه واجب، واسم الكيفية عن ذلك ساقط.

ومما نعتقده أنّ الله أبـاح المكاسـب والتجـارات والصـناعات وإنمـا حـرم الله الغـش والظلم، وأنّ من قال بتحريم تلك المكاسب فهو ضال مضل مبتدع؛ إذْ ليس الفساد والظلم والغش من التجارات والصـناعات في شـيء، إنمـا حـرم الله ورسـوله الفسـاد لا الكسـب والتجارات، فإن ذلك علىٰ أصل الكتاب والسنة جائز إلىٰ يوم القيامة.

وأنّ مما نعتقد أن الله لا يأمر بأكل الحلال ثم يعدمهم الوصول إليه من جميع الجهات؛ لأن ما طالبهم به موجود إلىٰ يوم القيامة، والمعتقد أنَّ الأرض تخلو من الحلال، والنـاس يتقلبون في الحرام فهو مبتدع ضال، إلا أنه يقل في موضع ويكثر في موضع؛ لا أنه مفقود من الأرض.

ومما نعتقده إنا إذا رأينا مَنْ ظاهره جميل لا نتهمه في مكسـبه ومالـه وطعامـه، جـائز أن



يؤكل طعامه، والمعاملة في تجارته، فليس علينا الكشف عما قاله، فإن سأل سائل علىٰ سبيل الاحتياط جاز إلا من داخل الظَّلَمة.

ومن ينزع عن الظلم وأخذ الأموال بالباطل ومعه غير ذلك: فالسؤال والتوقي؛ كما سأل الصديق غلامه، فإن كان معه من المال سوىٰ ذلك مما هو خارج عن تلك الأموال فاختلطا، فلا يطلق عليه اسم الحلال ولا الحرام، إلا أنه مشتبه؛ فمن سأل استبرأ لدينه كما فعل الصديق، وأجاز ابن مسعود وسلمان الأكل منه وعليه التبعة. والناس طبقات والدين الحنيفية السمحة.

وأن مما نعتقد أن العبد ما دام أحكام الدار جاريةً عليه فلا يسقط عنه الخوف والرجاء، وكل من ادعىٰ الأمن فهو جاهل بالله، وبما أخبر به عن نفسه ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف]، وقد أفردت كشف عوار كل من قال بذلك.

ونعتقد أن العبودية لا تسقط عن العبد ما عقَل وعلِم ما له وما عليه، فيبقىٰ علىٰ أحكام القوة والاستطاعة؛ إذ لم يسقط الله ذلك عن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومن زعم أنه قد خرج عن رق العبودية إلىٰ فضاء الحرية بإسقاط العبودية والخروج إلىٰ أحكام الأَحدية المُسْدِية بعلائق الآخرية، فهو كافر لا محالة، إلا من اعتراه علة، أو رأفة؛ فصار معتوها. أو مجنونا، أو مبرسما، وقد اختلط عقله، أو لحقه غشية يرتفع عنه بها أحكام العقل، وذهب عنه التمييز والمعرفة؛ فذلك خارج عن الملة مفارق للشريعة.

ومن زعم الإشراف علىٰ الخلق حتىٰ يعلم مقاماتهم ومقدارهم عند الله بغير الوحي المنزل من قول رسول الله ﷺ فهو خارج عن الملة، ومن ادعىٰ أنه يعرف مآل الخلق ومنقلبهم وعلىٰ ماذا يموتون عليه ويختم لهم، بغير الوحي من قول الله وقول رسوله ﷺ فقد باء بغضب من الله.

والفراسة حق علىٰ أصول ما ذكرناه، وليس ذلك مما رسمناه في شيء.

ومن زعم أن صفاته تعالىٰ بصفاته ويشير في ذلك إلىٰ غير آية العظمة والتوفيق والهداية وأشار إلىٰ صفاته عَزَّوَجَلَّ القديمة: فهو حلولي قائل باللاهوتية والالتحام، وذلك كفر لا محالة.

ونعتقد أن الأرواح كلها مخلوقة. ومن قال: إنها غير مخلوقة فقد ضاهىٰ قول النصارىٰ



-النسطورية- في المسيح، وذلك كفر بالله العظيم.

ومن قال: إن شيئا من صفات الله حال في العبد، أو قال بالتبعيض على الله فقد كفر؛ والقرآن كلام الله ليس بمخلوق ولا حال في مخلوق، وأنه كيفما تُلي وقرئ وحفظ: فهو صفة الله عَزَّوَجَلَّ وليس الدرس من المدروس، ولا التلاوة من المتلو، لأنه عَزَّوَجَلَّ بجميع صفاته وأسمائه غير مخلوق، ومن قال بغير ذلك فهو كافر.

ونعتقد: أن القراءة الملحنة بدعة وضلالة.

وأن القصائد بدعة، ومجراها على قسمين: فالحسن من ذلك من ذكر آلاء الله ونعمائه، وإظهار نعت الصالحين وصفة المتقين، فذلك جائز، وتركه والاشتغال بذكر الله والقرآن والعلم أولى به، وما جرى على وصف المرئيات، ونعت المخلوقات، فاستماع ذلك على الله كفر، واستماع الغناء والرباعيات على الله كفر، والرقص بالإيقاع ونعت الرقاصين على أحكام الدين فسق، وعلى أحكام التواجد والغناء لهو ولعب.

وحرام على كل من يسمع القصائد والربعيات الملحنة الجاري بين أهل الأطباع على أحكام الذكر، إلا لمن تقدم له العلم بأحكام التوحيد، ومعرفة أسمائه وصفاته، وما يضاف إلى الله تعالى من ذلك مما لا يليق به عَزَّوَجَلَّ مما هو منزه عنه فيكون استماعه كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر:١٨] الآية.

وكل من جهِل ذلك وقصد استماعه على الله على غير تفصيله فهو كفر لا محالة، فكل من جمع القول وأصغى بالإضافة إلى الله فغير جائز إلا لمن عرف بما وصفت من ذكر الله ونعمائه، وما هو موصوف به عَزَّوَجَلَّ مما ليس للمخلوقين فيه نعت ولا وصف؛ بل ترْك ذلك أولى وأحوط، والأصل في ذلك أنها بدعة، والفتنة فيها غير مأمونة، على استماع الغناء والرباعيات بدعة، وذلك مما أنكره المطلبي ومالك والثوري ويزيد بن هارون وأحمد بن حنبل وإسحاق، والاقتداء بهم أولى من الإقتداء بمن لا يُعرفون في الدين، ولا لهم قَدَم عند المخلصين.

وبلغني أنه قيل لبشر بن الحارث: إنّ أصحابك قد أحدثوا شيئا يقال له القصائد، قال: مثل أيش؟ قال: مثل قوله:



اصْـــبِرِي يَـــا نَفْـــسُ حَتَّـــىٰ   تَسْـــــكُنِي دَارَ الْجَلِيـــــلِ

فقال: حسن، وأين يكون هؤلاء الذين يستمعون ذلك؟ قال: قلت: ببغداد. فقال: كذبوا والله الذي لا إله غيره، لا يسكن ببغداد من يستمع ذلك.

قال أبو عبد الله: ومما نقول -وهو قول أئمتنا-: إن الفقير إذا احتاج وصبر ولم يتكفف إلىٰ وقت يفتح الله له كان أعلىٰ، فمن عجز عن الصبر كان السؤال أولىٰ به علىٰ قوله ﷺ: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ**» الحديث.

ونقول: إن ترك المكاسب غير جائز إلا بشرائط موسومة من التعفف والاستغناء عما في أيدي الناس، ومن جعل السؤال حرفة وهو صحيح، فهو مذموم في الحقيقة خارج.

ونقول: إنّ المستمع إلىٰ الغناء والملاهي فإن ذلك كما قال عليه السلام: «**الْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ**»، وإن لم يكفر فهو فسق لا محالة.

والذي نختار: قول أئمتنا: إن ترك المراء في الدين، والكلام في الإيمان مخلوق أو غير مخلوق، ومن زعم أن الرسول ﷺ واسط يؤدي وأن المرسل إليهم أفضل: فهو كافر بالله، ومن قال بإسقاط الوسائط علىٰ الجملة فقد كفر.ا.هـ

ومن متأخريهم الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلاني، قال في كتاب الغنية: أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات علىٰ وجه الاختصار فهو أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد.

إلىٰ أن قال: وهو بجهة العلو مستو علىٰ العرش، محتو علىٰ الملك، محيط علمه بالأشياء، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة]، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان؛ بل يقال: إنه في السماء علىٰ العرش كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه].

وذكر آيات وأحاديث إلىٰ أن قال: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأن استواء الذات علىٰ العرش. قال: وكونه علىٰ العرش مذكور في كل كتاب أنزل علىٰ كل نبي أرسل بلا كيف. وذكر كلاما طويلا لا يحتمله هٰذا الموضع، وذكر في سائر الصفات نحو



هـٰذا.

ولو ذكرتُ ما قاله العلماء في هـٰذا لطال الكتاب جدا.

قال أبو عمر ابن عبد البر: رَوينا عن مالك بن أنس وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والأوزاعي ومعمر بن راشد في أحاديث الصفات أنهم كلهم قالوا: أمروها كما جاءت. قال أبو عمر: ما جاء عن النبي ﷺ من نقل الثقات، أو جاء عن أصحابه رضي الله عنهم فهو علم يُدان به؛ وما أُحدث بعدهم ولم يكن له أصلٌ فيما جاء عنهم فهو بدعة وضلالة.

وقال في «شرح الموطأ» لما تكلم علىٰ حديث النزول قال: هـٰذا حديث ثابت من جهة النقل، صحيح من جهة الإسناد، ولا يختلف أهل الحديث في صحته، وهو منقول من طرق سوىٰ هـٰذه، من أخبار العدول عن النبي ﷺ، وفيه دليل علىٰ أن الله في السماء علىٰ العرش استوىٰ من فوق سبع سماوات، كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم علىٰ المعتزلة في قولهم: إن الله تعالىٰ في كل مكان بذاته المقدسة.

قال: والدليل علىٰ صحة ما قال أهل الحق قول الله -وذكر بعض الآيات.

إلىٰ أن قال: وهـٰذا أشهر وأعرف عند العامة والخاصة من أن يحتاج إلىٰ أكثر من حكايته؛ لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم.

وقال أبو عمر ابن عبد البر أيضا: أجمع علماء الصحابة والتابعون الذين حمل عنهم التأويل، قالوا في تأويل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[المجادلة:٧]، هو علىٰ العرش وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك من يحتج بقوله.

وقال أبو عمر أيضا أهل السنة مجمعون علىٰ الإقرار بالصِّفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها علىٰ الحقيقة لا علىٰ المجاز؛ إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك ولا يحدّون فيه صفة محصورة.

وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج: فكلهم ينكرونها ولا يحملون شيئا منها علىٰ الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون: بما نطق به كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهم أئمة الجماعة.

هـٰذا كلام ابن عبد البر إمام أهل المغرب.

وفي عصره الحافظ أبو بكر البيهقي مع توليه للمتكلمين من أصحاب أبي الحسن



الأشعري، وذبه عنهم، قال في كتابه الأسماء والصفات: باب ما جاء في إثبات اليدين صفتين لا من حيث الجارحة لورود خبر الصادق به، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]، وقال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].

وذكر الأحاديث الصحاح في هٰذا الباب، مثل قوله في غير حديث؛ من حديث الشفاعة «يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ»، ومثل قوله في الحديث المتفق عليه «أَنْتَ مُوسَىٰ اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ الْأَلْوَاحَ بِيَدِهِ» وفي لفظ «وَكَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ»، ومثل ما في «صحيح مسلم» أنه سبحانه «غَرَسَ كَرَامَةَ أَوْلِيَائِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ بِيَدِهِ»، ومثل قوله ﷺ: «تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّؤُهَا بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نُزُلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ».

وذكر أحاديث مثل قوله: «بِيَدِي الْأَمْرُ»، «وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ»، «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ»، و«إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»، وقوله: «الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»، وقوله «يَطْوِي اللهُ السَّمٰوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»، وقوله: «يَمِينُ الله مَلْآَ لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَىٰ الْقِسْطُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ». وكل هٰذه الأحاديث في الصحاح.

وذكر أيضا قوله «إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ قَالَ لَهُ -وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ-: اخْتَرْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، قَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي، وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ». وحديث «إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ مَسَحَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ بِيَدِهِ» إلىٰ أحاديث أخر ذكرها من هٰذا النوع.

ثم قال البيهقي: أما المتقدمون من هٰذه الأمة فإنهم لم يفسروا ما كتبنا من الآيات والأخبار في هٰذا الباب؛ وكذلك قال في الاستواء علىٰ العرش وسائر الصفات الخبرية مع أنه يحكي قول بعض المتأخرين.

وقال القاضي أبو يعلىٰ في كتاب «إبطال التأويل»: لا يجوز رد هٰذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها، والواجب حملها علىٰ ظاهرها، وأنها صفات الله، لا تشبه صفات سائر



الموصوفين بها من الخلق، ولا يعتقد التشبيه فيها؛ لكن علىٰ ما روىٰ عن الإمام أحمد وسائر الأئمة.

وذكر بعض كلام الزهري، ومكحول، ومالك، والثوري، والأوزاعي، والليث، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ووكيع، وعبد الرحمن بن مهدي، والأسود بن سالم، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، ومحمد بن جرير الطبري، وغيرهم في هـٰذا الباب. وفي حكاية ألفاظهم طول.

إلىٰ أن قال: ويدل علىٰ إبطال التأويل: أنّ الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها علىٰ ظاهرها، ولم يتعرّضوا لتأويلها، ولا صرفوها عن ظاهرها، فلو كان التأويل سائغا لكانوا أسبق إليه لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة.

وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتكلم، صاحب الطريقة المنسوبة إليه في الكلام في كتابه الذي صنفه في اختلاف المصلين، ومقالات الإسلاميين، وذكر فرق الروافض والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغيرهم.

ثم قال مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث جملة: قول أصحاب الحديث وأهل السنة: الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء عن الله تعالىٰ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا يردون شيئا من ذلك، وأن الله واحد أحد فرد صمد لا إله غيره، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله علىٰ عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[ص:٧٥]، وكما قال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وأن له عينين بلا كيف كما قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وأن له وجها كما قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن].

وأن أسماء الله تعالىٰ لا يقال: إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج، وأقروا أن لله علمًا كما قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ [النساء:١٦٦]، وكما قال: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ [فاطر:١١]، وأثبتوا له السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة؛ وأثبتوا لله القوة كما قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾

[فصلت:١٥]، وذكر مذهبهم في القدر.

إلىٰ أن قال: ويقولون: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، والكلام في اللفظ والوقف من قال باللفظ وبالوقف فهو مبتدع عندهم، لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال غير مخلوق.

ويقرّون أنّ الله يُرىٰ بالأبصار يوم القيامة، كما يُرىٰ القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون، ولا يراه الكافرون؛ لأنهم عن الله محجوبون، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين].

وذكر قولهم في الإسلام والإيمان والحوض والشفاعة وأشياء.

إلىٰ أن قال: ويقرون بأن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولا يقولون: مخلوق، ولا يشهدون علىٰ أحد من أهل الكبائر بالنار.

إلىٰ أن قال: وينكرون الجدل والمراء في الدِّين والخصومة والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل، ويتنازعون فيه من دينهم، ويسلّمون للروايات الصحيحة، كما جاءت به الآثار الصحيحة التي جاءت بها الثقات عدل عن عدل حتىٰ ينتهي ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ؛ لا يقولون: كيف ولا لم؟ لأن ذلك بدعة عندهم.

إلىٰ أن قال: ويقرّون أن الله يجيء يوم القيامة كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر]، وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق].

إلىٰ أن قال: ويرون مجانبة كل داع إلىٰ بدعة، والتشاغل بقراءة القرآن، وكتابة الآثار، والنظر في الآثار والنظر في الفقه مع الاستكانة والتواضع، وحسن الخلق مع بذل المعروف، وكف الأذىٰ وترك الغيبة والنميمة والشكاية، وتفقد المآكل والمشارب. قال: فهٰذه جملة ما يأمرون به، ويستسلمون إليه، ويرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله وهو المستعان.

وقال الأشعري أيضا في اختلاف أهل القبلة في العرش: قال أهل السنة وأصحاب الحديث: إن الله ليس بجسم ولا يشبه الأشياء، وأنه استوىٰ علىٰ العرش كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه]، ولا نتقدم بين يدي الله ورسوله في القول؛ بل



نقول استوىٰ بلا كيف، وأن له واجها كما قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]، وأن له يدين كما قال: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]، وأن له عينين كما قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وأنه يجيء يوم القيامة هو وملائكته كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر] وأنه ينزل إلىٰ سماء الدنيا كما جاء في الحديث، ولم يقولوا شيئا إلا ما وجدوه في الكتاب أو جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ.

وقالت المعتزلة: إن الله استوىٰ علىٰ العرش بمعنىٰ استولىٰ وذكر مقالات أخرىٰ.

وقال أيضا أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه «الإبانة في أصول الديانة» -وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه- وعليه يعتمدون في الذب عنه عند من يطعن عليه، فقال: فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة. فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرِّفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون.

قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها؛ التمسك بكلام ربنا وسنة نبينا، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد ابن حنبل -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته- قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل؛ الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين؛ فرحمة الله عليه من إمام مقدم وجليل معظم وكبير مفهَّم.

وجملة قولنا: أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما جاءوا به من عند الله، وبما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا نردّ من ذلك شيئا؛ وأن الله واحد لا إله إلا هو فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدىٰ ودين الحق؛ ليظهره علىٰ الدين كله، وأن الجنة حق والنار حق، وأن الساعة آتية، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله مستو علىٰ عرشه كما قال ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه]، وأن له وجها كما قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]، وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]، وكما قال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة:٦٤]، وأن له عينين بلا كيف كما قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤].



وأنَّ من زعم أن أسماء الله غيرُه كان ضالًّا -وذكر نحوا مما ذكر في الفِرَق.

إلىٰ أن قال: ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كل إسلام إيمانا، وندين بأن الله يقلب القلوب بين إصبعين من أصابع الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه عَزَّوَجَلَّ يضع السَّمٰوات علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبع، كما جاءت الرواية الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

إلىٰ أن قال: وإن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ونسلم الروايات الصحيحة عن رسول الله ﷺ، التي رواها الثقات عدلا عن عدل حتىٰ ينتهي إلىٰ رسول الله ﷺ.

إلىٰ أن قال: ونصدّق بجميع الروايات التي أثبتها أهل النقل من النزول إلىٰ سماء الدنيا، وأن الرب عَزَّوَجَلَّ يقول: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟» وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافا لما قال أهل الزيغ والتضليل.

ونعوِّل فيما اختلفنا فيه علىٰ كتاب ربنا وسنة نبينا وإجماع المسلمين وما كان في معناه، ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا به، ولا نقول علىٰ الله ما لا نعلم، ونقول: إن الله يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر].

وأنّ الله يقرب من عباده كيف شاء كما قال: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق]، وكما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩﴾ [النجم].

إلىٰ أن قال: وسنحتج لما ذكرناه من قولنا وما بقي مما لم نذكره بابا بابا. ثم تكلم علىٰ أن الله يُرىٰ واستدل علىٰ ذلك، ثم تكلم علىٰ أنّ القرآن غير مخلوق واستدل علىٰ ذلك، ثم تكلم علىٰ من وقف في القرآن وقال: لا أقول: إنه مخلوق ولا غير مخلوق، وردّ عليه.

ثم قال: باب ذكر الاستواء علىٰ العرش.

فقال: إن قال قائل ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول: إن الله مستو علىٰ عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه]، وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾[فاطر:١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾[النساء:١٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة:٥]، وقال تعالىٰ حكايةً عن فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر]، كذّب موسىٰ في قوله: إن الله فوق السَّمٰوات، وقال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦]، فالسموات



فوقها العرش فلما كان العرش فوق السَّمٰوات قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأنه مستوٍ علىٰ العرش الذي هو فوق السَّمٰوات، وكل ما علا فهو سماء، فالعرش أعلىٰ السموات، وليس إذا قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني جميع السَّمٰوات، وإنّما أراد العرش الذي هو أعلىٰ السموات، ألا ترىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر السَّمٰوات فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦]، ولم يرد أن القمر يملؤهن وأن فيهن جميعا.

ورأينا المسلمين جميعًا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله علىٰ عرشه الذي هو فوق السَّمٰوات، فلولا أن الله علىٰ العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطونها إذا دعوا إلىٰ الأرض.

ثم قال: فصل: وقد قال القائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن معنىٰ قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] أنه استولىٰ وملك وقهر، وأن الله عَزَّوَجَلَّ في كل مكان وجحدوا أن يكون الله علىٰ عرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلىٰ القدرة، فلو كان كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ لأن الله قادر علىٰ كل شيء، والأرض فالله قادر عليها وعلىٰ الحشوش وعلىٰ كل ما في العالم، فلو كان الله مستويا علىٰ العرش بمعنىٰ الاستيلاء -وهو عَزَّوَجَلَّ مستولٍ علىٰ الأشياء كلها- لكان مستويا علىٰ العرش وعلىٰ الأرض وعلىٰ السماء وعلىٰ الحشوش والأقذار؛ لأنه قادر علىٰ الأشياء مستولٍ عليها، وإذا كان قادرا علىٰ الأشياء كلِّها ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: إنَّ الله مستوٍ علىٰ الحشوش والأخلية. لم يجز أن يكون الاستواء علىٰ العرش الاستيلاء الذي هو عامٌّ في الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنىٰ الاستواء يختص العرش دون الأشياء كلها.

وذكر دلالاتٍ من القرآن والحديث والإجماع والعقل.

ثم قال: بابُ الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين.

وذكر الآيات في ذلك، وردّ علىٰ المتأوِّلين لها بكلام طويل لا يتّسع هٰذا الموضع لحكايته، مثل قوله: فإن سُئلنا أتقولون لله يدان؟ قيل نقول ذلك، وقد دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ بِيَدِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ**»، وقد جاء في الخبر



المأثور عن النبي ﷺ «أَنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَخَلَقَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ شَجَرَةَ طُوبَىٰ بِيَدِهِ».

وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل: عملت كذا بيدي ويريد بها النعمة، وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها، وما يجري مفهوما في كلامها، ومعقولا في خطابها، وكان لا يجوز في خطاب أهل البيان أن يقول القائل: فعلت كذا بيدي ويعني بها النعمة، بطل أن يكون معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿بِيَدَيَّ﴾ النعمة.

وذكر كلاما طويلا في تقرير هـٰذا ونحوه.

وقال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقْلَاني المتكلم -وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلىٰ الأشعري؛ ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده- قال في كتاب «الإبانة» تصنيفه: فإن قال قائل: فما الدليل علىٰ أن لله وجها ويدا؟ قيل له: قوله ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]، وقوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، فأثبت لنفسه وجهًا ويدا.

فإن قال: فلم أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إن كنتم لا تعقلون وجها ويدا إلا جارحة؟ قلنا: لا يجب هـٰذا كما لا يجب إذا لم نعقل حيا عالما قادرا إلا جسما أن نقضي نحن وأنتم بذلك علىٰ الله ﷻ، وكما لا يجب في كل شيء كان قائما بذاته أن يكون جوهرا؛ لأنّا وإياكم لم نجد قائما بنفسه في شاهدنا إلا كذلك، وكذلك الجواب لهم: إن قالوا: يجب أن يكون علمه وحياته وكلامه وسمعه وبصره وسائر صفات ذاته عرَضا واعتلوا بالوجود، وقال: فإن قال: فهل تقولون: إنه في كل مكان؟ قيل له معاذ الله؛ بل مستو علىٰ عرشه كما أخبر في كتابه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه]، وقال الله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك].

قال: ولو كان في كلِّ مكان لكان في بطن الإنسان وفمه والحشوش والمواضع التي يُرغب عن ذكرها، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم يكن، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان، ولصحَّ أن يُرغب إليه إلىٰ نحو الأرض، وإلىٰ خلفنا وإلىٰ يميننا وإلىٰ شمالنا، وهـٰذا قد أجمع المسلمون علىٰ خلافه وتخطئة قائله.



وقال أيضا في هـٰذا الكتاب صفات ذاته التي لم يزل ولا يزال موصوفًا بها وهـي الحيـاة والعلم والقـدرة والسـمع والبصـر والكـلام والإرادة والبقـاء والوجـه والعينـان واليـدان والغضب والرضا.

وقال في كتاب التمهيد كلاما أكثر من هـٰذا لكن ليست النسخة حاضرة عندي، وكلامـه وكلام غيره من المتكلمين في مثل هـٰذا الباب كثير لمن يطلبه، وإن كنّا مسـتغنين بالكتـاب والسنة وآثار السلف عن كل كلام.

ومِلاك الأمر أن يهب الله للعبد حكمة وإيمانا بحيث يكون له عقل وديـن، حتـىٰ يفهـم ويدين، ثم نور الكتاب والسنة يغنيه عن كل شيء؛ ولكن كثيرا من الناس قـد صـار منتسـبا إلىٰ بعض طوائف المتكلمين، ومحسنا للظن بهم دون غيرهم، ومتوهِّما أنهم حققوا في هـٰذا الباب ما لم يحققه غيرهم، فلو أتي بكل آية ما تبعها حتىٰ يؤتىٰ بشيء من كلامهم.

ثم هم مع هـٰذا مخالفون لأسلافهم غير متّبعين لهم، فلـو أنهـم أخـذوا بالهـدىٰ الـذي يجدونه في كلام أسلافهم لرُجي لهم مع الصِّدق في طلب الحق أن يزدادوا هدىٰ، ومن كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معيّنة، ثم لا يتمسّك بما جاءت به من الحق: ففيه شَبه من اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة]. فإنَّ اليهود قالوا: لا نؤمن إلَّا بما أنـزل علينـا قـال الله تعـالىٰ لهم: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [أي: إن كُنتم مـؤمنين بمـا أنزل عليكم]، يقول ﷺ: لا لِما جاءتكم به أنبيـاؤكم تتّبعـون، ولا لمـا جـاءتكم بـه سـائر الأنبياء تتبعون، ولكن إنما تتبعون أهواءكم، فهـٰذا حال من لم يقبل الحـق، لا مـن طائفتـه ولا من غيرها، مع كونه يتعصب لطائفته بلا برهان من الله ولا بيان.

وكذلك قال أبو المعالي الجويني في كتابه «الرسالة النظامية»: اختلفت مسالك العلمـاء في هـٰذه الظواهر، فرأىٰ بعضهم تأويلها والتزم ذلك في آي الكتاب ومـا يصـح مـن السُّـنن، وذهب أئمّة السلف إلىٰ الانكفاف عن التأويل وإجراء الظَّـواهر علـىٰ مواردهـا وتفـويض معانيها إلىٰ الرّب.

فقال: والذي نرتضيه رأيا وندين اللهَ به عقيـدةً: اتِّبـاعُ سـلف الأمـة، والـدليل السـمعي



القاطع في ذلك إجماع الأمة وهو حجة متبعة، وهو مستندُ معظمِ الشريعة.

وقد درج صحب رسول الله ﷺ علىٰ ترك التعرُّض لمعانيها، ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام، والمستقلّون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهدا في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هـٰذه الظواهر مسوغًا أو محتوما: لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين علىٰ الإضراب عن التأويل: كان ذلك هو الوجه المتبع، فحقٌّ علىٰ ذي الدين أن يعتقد [تنزُّه الباري] عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات ويكِلُ معناها إلىٰ الربِّ تعالىٰ فليجر آية الاستواء والمجيء وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾[الرحمن]، وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وما صح من أخبار الرسول ﷺ كخبر النُّزول وغيره علىٰ ما ذكرناه.

قلتُ: وليعلم السائل أن الغرض من هـٰذا الجواب ذكر ألفاظ بعض الأئمة الذين نقلوا مذهب السلف في هـٰذا الباب، وليس كل من ذكرنا شيئًا من قوله من المتكلمين وغيرهم يقول بجميع ما نقوله في هـٰذا الباب وغيره؛ ولكن الحق يُقبل من كل من تكلم به، وكان معاذ بن جبل يقول في كلامه المشهور عنه، الذي رواه أبو داود في سننه: اقبلوا الحق من كل من جاء به وإن كان كافرا -أو قال: فاجرا- واحذروا زيغة الحكيم، قالوا: كيف نعلم أن الكافر يقول كلمة الحق؟ قال: إنَّ علىٰ الحقِّ نورًا. أو قال كلاما هـٰذا معناه.

فأمَّا تقرير ذلك بالدليل، وإماطة ما يعرض من الشبه وتحقيق الأمر علىٰ وجه يخلص إلىٰ القلب ما يبرد به من اليقين ويقف علىٰ مواقف آراء العباد في هـٰذه المهامه، فما تتّسع له هـٰذه الفتوىٰ، وقد كتبتُ شيئًا من ذلك قبل هـٰذا وخاطبت ببعض ذلك بعض من يجالسنا، وربما أكتب إن شاء الله في ذلك ما يحصلُ به المقصود.

وجِماع الأمر في ذلك أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدىٰ والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه، وقصَدَ اتِّباع الحق وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وآياته.

ولا يحسب الحاسب أنَّ شيئا من ذلك يناقض بعضه بعضًا ألبتة؛ مثل أن يقول القائل ما



في الكتاب والسنة من أنَّ الله فوق العرش يخالفه في الظّاهر من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وقوله ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ» ونحو ذلك فإن هـٰذا غلط وذلك أنّ الله معنا حقيقةً، وهو فوق العرش حقيقة كما جمع الله بينهما في قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد].

فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا، كما قال النبي ﷺ في حديث الأوعال «وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ».

وذلك أن كلمة (مَعَ) في اللغة إذا أُطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمينٍ أو شمال، فإذا قُيِّدت بمعنىٰ من المعاني دلت علىٰ المقارنة في ذلك المعنىٰ، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا، ويقال: هـٰذا المتاع معي لمجامعته لك، وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة.

ثم هـٰذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، دلَّ ظاهر الخطاب علىٰ أنّ حكم هـٰذه المعية ومقتضاها أنه مطَّلِعٌ عليكم، شهيد عليكم، ومهيمن عالم بكم، وهـٰذا معنىٰ قول السلف: إنه معهم بعلمه. وهـٰذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

كذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ﴾ [المجادلة:٧]، ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا» كان هـٰذا أيضا حقًّا علىٰ ظاهره، ودلّت الحال علىٰ أن حكم هـٰذه المعية هنا معية الإطلاع والنّصر والتأييد.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل]، وكذلك قوله لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه]، هنا المعية علىٰ ظاهرها، وحكمها في هـٰذه المواطن النّصر والتأييد.

وقد يدخل علىٰ صبي من يخيفه فيبكي فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول: لا



تخف أنا معك، أو أنا هنا، أو أنا حاضر ونحو ذلك. ينبهه علىٰ المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه؛ ففرق بين معنىٰ المعية وبين مقتضاها، وربما صار مقتضاها من معناها، فيختلف باختلاف المواضع.

فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع يقتضي في كل موضع أمورا لا يقتضيها في الموضع الآخر، فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدلّ علىٰ قدر مشتركٍ بين جميع مواردها -وإن امتاز كلُّ موضع بخاصية- فعلىٰ التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرّب عَزَّوَجَلَّ مختلطة بالخلق حتىٰ يقال: قد صُرفت عن ظاهرها.

ونظيرها من بعض الوجوه الربوبية والعبودية، فإنهما وإن اشتركتا في أصل الربوبية والعبودية فلما قال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف]، كانت ربوبية موسىٰ وهارون لها اختصاص زائد علىٰ الربوبية العامة للخلق، فإن من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطىٰ غيره: فقد ربَّه وربَّاه ربوبيّةً وتربيةً أكمل من غيره.

وكذلك قوله: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦﴾ [الإنسان] و﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء:١].

فإنَّ العبد تارة يعني به المعبّد فيعم الخلق كما في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم]، وتارة يعنىٰ به العابد فيُخَصُّ، ثم يختلفون فمن كان أعبد علما وحالًا، كانت عبوديته أكمل، فكانت الإضافة في حقِّه أكمل، مع أنها حقيقة في جميع المواضع.

ومثل هـٰذه الألفاظ يسمِّيها بعض الناس مشككة لتشكك المستمع فيها، هل هي من قبيل الأسماء المتواطئة، أو من قبيل المشتركة في اللفظ فقط، والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة؛ إذْ واضِعُ اللغة إنما وضع اللفظ بإزاء القدْر المشترك، وإن كانت نوعًا مختصًّا من المتواطئة فلا بأس بتخصيصها بلفظ.

ومن علم أن المعية تضاف إلىٰ كل نوع من أنواع المخلوقات -كإضافة الربوبية مثلا- وأنَّ الاستواء علىٰ الشيء ليس إلا للعرش، وأنَّ الله يوصف بالعلو والفوقية الحقيقية، ولا يوصف بالسُّفول ولا بالتحتية قط، لا حقيقة ولا مجازا: علم أن القرآن علىٰ ما هو عليه من غير تحريف.



ثم من توهّم أن كون الله في السماء بمعنىٰ أن السماء تحيط به وتحويه، فهو كاذبٌ إن نقله عن غيره، وضال إن اعتقده في ربِّه، وما سمعنا أحدا يفهم هـٰذا من اللفظ، ولا رأينا أحدا نقله عن واحد، ولو سئل سائر المسلمين هل تفهمون من قول الله ورسوله: إن الله في السماء أن السماء تحويه؟ لبادر كل أحد منهم إلىٰ أن يقول: هـٰذا شيءٌ لعله لم يخطر ببالنا.

وإذا كان الأمر هكذا فمن التكلُّف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئا محالا لا يفهمه الناس منه، ثم يريد أن يتأوله؛ بل عند الناس إن الله في السماء وهو علىٰ العرش واحد، إذْ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنىٰ أنّ الله في العلو لا في السفل، وقد علم المسلمون أنَّ كرسيه ﷻ وسع السَّمٰوات والأرض، وأن الكرسي في العرش كحلْقة ملقاة بأرضٍ فلاة، وأن العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبةَ له إلىٰ قدرة الله وعظمته، فكيف يتوهّم بعد هـٰذا أن خلقا يحصره ويحويه، وقد قال سبحانه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[طه:٧١]، وقال: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٣٧] بمعنىٰ (علىٰ) ونحو ذلك، وهو كلام عربي حقيقة لا مجازا، وهـٰذا يعلمه من عرف حقائق معاني الحروف، وأنها متواطئة في الغالب لا مشتركة.

وكذلك قوله ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلىٰ الصلاة فإن الله قِبل وجهه، فلا يبصق قِبل وجهه**» الحديث حقٌّ علىٰ ظاهره، وهو سبحانه فوق العرش، وهو قبل وجه المصلِّي؛ بل هـٰذا الوصف يثبت للمخلوقات؛ فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء أو يناجي الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه وكانت أيضا قبل وجهه.

وقد ضرب النبي ﷺ المثل بذلك -ولله المثل الأعلىٰ- ولكن المقصود بالتمثيل بيان جواز هـٰذا وإمكانه لا تشبيه الخالق بالمخلوق، فقال النبي ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَرَىٰ رَبَّهُ مَخْلِيًّا بِهِ**» فقال له أبو رَزِين العُقَيْلي: كيف يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع؟ فقال النبي ﷺ: «**سَأُنَبِّئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آلَاءِ اللهِ، هَـٰذَا الْقَمَرُ كُلُّكُمْ يَرَاهُ مَخْلِيًّا بِهِ، وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ، فَاللهُ أَكْبَرُ**» أو كما قال النبيُّ ﷺ.

وقال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**»، فشبّه الرؤية بالرؤية، وإن لم يكن المرئي مشابها للمرئي، فالمؤمنون إذا رأوا ربهم يوم القيامة وناجوه كل يراه فوقه قِبل وجهه كما يرىٰ الشمس والقمر، ولا منافاة أصلا.



ومن كان له نصيبٌ من المعرفة بالله والرسوخ في العلم بالله يكون إقراره للكتاب والسنة علىٰ ما هما عليه أوكد.

واعلم أنَّ من المتأخرين من يقول: مذهب السلف إقرارها علىٰ ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غيرُ مراد، وهـٰذا اللّفظ مجمل؛ فإن قوله ظاهرها غير مراد، يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدَثين؛ مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلي، أنه مستقر في الحائط الذي يصلِّي إليه، وأن الله معنا ظاهره أنه إلىٰ جانبنا، ونحو ذلك، فلا شك أنّ هـٰذا غير مراد.

ومن قال: إنّ مذهب السلف إن هـٰذا غير مراد فقد أصاب في المعنىٰ؛ لكن أخطأ بإطلاق القول بأن هـٰذا هو ظاهر الآيات والأحاديث، فإنَّ هـٰذا هو المحال ليس هو الظاهر علىٰ ما قد بيناه في غير هـٰذا الموضع، اللّٰهُمَّ إلا أن يكون هـٰذا المعنىٰ الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مصيبًا بهـٰذا الاعتبار، معذورا في هـٰذا الإطلاق.

فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس، وهو من الأمور النِّسبية، وكان أحسن من هـٰذا أن يبيِّن لمن اعتقد أن هـٰذا هو الظاهر، أن هـٰذا ليس هو الظاهر، حتىٰ يكون قد أعطىٰ كلامَ الله وكلام رسوله حقَّه لفظًا ومعنًىٰ.

وإن كان الناقل عن السلف أراد -بقوله الظاهر غير مراد عندهم- أن المعاني التي ظهرت من هـٰذه الآيات والأحاديث مما يليق بجلال الله وعظمته ولا يختص بصفة المخلوقين؛ بل هي واجبة لله أو جائزة عليه جوازًا ذهنيًّا، أو جوازًا خارجيًّا: غير مراد، فهـٰذا قد أخطأ فيما نقله عن السلف، أو تعمد الكذب، فما يمكن أحد قط أن ينقل عن واحد من السلف ما يدل -لا نصًّا ولا ظاهرًا- أنهم كانوا يعتقدون أن الله ليس فوق العرش، ولا أن الله ليس له سمع ولا بصر ولا يد حقيقة.

وقد رأيت هـٰذا المعنىٰ ينتحله بعض من يحكيه عن السلف، ويقولون: إن طريقة أهل التأويل هي في الحقيقة طريقة السَّلف، بمعنىٰ أن الفريقين اتفقوا علىٰ أن هـٰذه الآيات والأحاديث لم تَدُلَّ علىٰ صفات الله ﷻ؛ ولكن السلف أمسكوا عن تأويلها، والمتأخرون رأوا المصلحة في تأويلها، لمسيس الحاجة إلىٰ ذلك، ويقولون: الفرق بين الطَّريقين أنَّ هؤلاء قد يعيِّنون المراد بالتأويل، وأولئك لا يعينون لجواز أن يراد غيره.



وهـٰذا القول علىٰ الإطلاق كذبٌ صريحٌ علىٰ السلف: أما في كثير من الصفات فقطعًا، مثل أن الله تعالىٰ فوق العرش، فإنَّ من تأمل كلام السلف المنقول عنهم -الذي لـم يُحْـكَ هنا عشره- عُلِم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرِّحين بأنّ الله فوق العرش حقيقة، وأنهم ما اعتقدوا خلاف هـٰذا قط، وكثيرٌ منهم قد صرح في كثير من الصِّفات بمثل ذلك.

واللهُ يعلم أني بعد البحث التام ومطالعة ما أمكن من كلام السلف، ما رأيت كـلام أحـد منهم يدلُّ -لا نصًّا ولا ظاهرا ولا بالقرائن- علىٰ نفي الصفات الخبرية في نفس الأمر؛ بـل الذي رأيته أن كثيرا من كلامهم يـدل -إمـا نصًّـا وإمـا ظـاهرا- علـىٰ تقريـر جـنس هـٰـذه الصفات، ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة؛ بل الذي رأيته أنهم يثبتون جنسها في الجملة، وما رأيت أحدا منهم نفاها، وإنما ينفون التشبيه، وينكـرون علـىٰ المشـبهة الـذين يشبهون الله بخلقه، مع إنكارهم علىٰ مـن ينفـي الصـفات أيضـا؛ كقـول نُعـيم بـن حمّـاد الخُزاعي شيخ البخاري: من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقـد كفر، وليس ما وصف اللهُ به نفسه ولا رسوله تشبيها.

وكانوا إذا رأوا الرَّجل قد أغرق في نفي التشبيه مـن غيـر إثبـات الصِّـفات قـالوا: هــٰذا جهميٌّ معطل. وهـٰذا كثيرٌ جدًّا في كلامهم، فإن الجهمية والمعتزلة إلىٰ اليـوم يسـمُّون مـن أثبت شيئا من الصفات مشبها -كذبا منهم وافتراء- حتىٰ إن منهم من غـلا ورمـىٰ الأنبيـاء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك، حتىٰ قال ثُمامة بن الأشرس من رؤساء الجهمية: ثلاثـة من الأنبياء مشبهة موسىٰ حيث قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف:١٥٥]، وعيسىٰ حيـث قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦]، ومحمد ﷺ حيث قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا».

وحتىٰ إن جل المعتزلة تُدخل عامة الأئمة مثل مالك وأصـحابه، والثـوري وأصـحابه، والأوزاعي وأصحابه، والشّافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، وأبـي عبيد، وغيرهم في قسم المشبِّهة.

وقد صنّف أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي جزءًا سـمّاه «تنزيـه أئمـة الشريعة عن الألقاب الشّنيعة»، ذكر فيه كلام السلف وغيرهم مـن معـاني هــٰذه الألقـاب، وذكر أنّ أهل البدع كل صنْف منهم يلقب أهل السنة بلقب افتراه، يزعم أنـه صـحيح علـىٰ



رأيه الفاسد؛ كما أنَّ المشركين كانوا يلقِّبون النبي بألقاب افتروها.

فالروافض تسميهم نواصب، والقدرية يسمُّونهم مُجَبِّـرَة، والمُرجئة تسـميهم شُـكاكا، والجهمية تسميهم مشبِّهة، وأهل الكلام يسمونهم حَشْوِية ونوابت وغثاء وغُثْرًا، إلىٰ أمثال ذلك، كما كانت قريش تسمِّي النبي ﷺ تارة مجنونا، وتـارة شـاعرا، وتـارة كاهنـا، وتـارة مفتريا.

قالوا: فهٰذه علامة الإرث الصَّحيح والمتابعة التامة، فإنَّ السنة هي ما كان عليه رسـول الله ﷺ وأصحابه اعتقادًا واقتصادًا وقولًا وعملا؛ فكما أن المنحرفين عنه يسمُّونهم بأسماءٍ مذمومة مكذوبة -وإن اعتقدوا صدقها بناء علىٰ عقيدتهم الفاسدة-، فكـذلك التَّـابعون لـه علىٰ بصيرة الذين هم أولىٰ الناس به في المحيا والممات باطنًا وظاهرا.

وأما الذين وافقوه ببواطنهم وعجزوا عن إقامـة الظـواهر، والـذين وافقـوه بظـواهرهم وعجزوا عن تحقيـق البـواطن، والـذين وافقـوه ظـاهرًا وباطنـا بحسـب الإمكـان: فلابـد للمنحرفين عن سنّته أن يعتقدوا فيهم نقصًا يذمونهم به، ويسمُّونهم بأسـماء مكذوبـة -وإن اعتقدوا صدقها- كقول الرّافضي: من لم يُبغض أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعمر فقد أبغض عليًّا؛ لأنه لا وَلاية لعلي إلا بالبراءة منهما. ثم يجعل من أحبّ أبا بكر وعمـر ناصـبيًّا، بنـاء علـىٰ هـٰـذه الملازمة الباطلة التي اعتقدها صحيحة أو عاند فيها وهو الغالب.

وكقول القدري: من اعتقد أنّ الله أراد الكائنات وخلق أفعال العباد: فقد سلب من العباد الاختيار والقدرة، وجعلهم مجبورين كالجمادات التي لا إرادة لها ولا قدرة.

وكقول الجهمي: من قال: إنَّ الله فوق العرش فقد زعم أنه محصور، وأنه جسم مركّـب محدود وأنّه مشابه لخلقه.

وكقول الجهمية والمعتزلة: من قال: إنّ لله علما وقدرة فقد زعم أنه جسم مركّب، وإنـه مشبه؛ لأن هـٰذه الصفات أعراض، والعرَض لا يقوم إلا بجوهرٍ متحيّز، وكل متحيز جسـم مركب أو جوهر فرد، ومن قال ذلك فهو مشبه؛ لأن الأجسام متماثلة.

ومن حكىٰ عن الناس المقالات وسماهم بهـٰذه الأسماء المكذوبة بناء علىٰ عقيدته التي هم مخالفون له فيها فهو وربّه والله من ورائه بالمرصاد، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

وجماع الأمر أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام، كل قسم عليه



طائفة من أهل القبلة:

قسمان يقولان: تجري علىٰ ظواهرها.

وقسمان يقولان: هي علىٰ خلاف ظاهرها.

وقسمان: يسكتون.

أمّا الأولان فقسمان:

أحدهما: من يجريها علىٰ ظاهرها، ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين، فهؤلاء المشبِّهة، ومذهبهم باطل أنكره السلف وإليهم يتوجه الرد بالحق.

الثاني: من يجريها علىٰ ظاهرها اللائق بجلال الله، كما يُجري ظاهر اسم العليم، والقدير، والرب، والإله، والموجود، والذات، ونحو ذلك، علىٰ ظاهرها اللائق بجلال الله، فإنّ ظواهر هـٰذه الصِّفات في حق المخلوق: إما جوهر محدَث، وإما عرَض قائم به.

فالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة والرضا والغضب ونحو ذلك في حق العبد أعراض.

والوجه واليد والعين في حقِّه أجسام.

فإذا كان الله موصوفًا عند عامّة أهل الإثبات بأن له علمًا وقدرة وكلاما ومشيئة -وإن لم يكن ذلك عرضًا يجوز عليه ما يجوز علىٰ صفات المخلوقين- جاز أن يكون وجه الله ويداه صفات ليس أجسامًا يجوزُ عليها ما يجوز علىٰ صفات المخلوقين.

وهـٰذا هو المذهب الذي حكاه الخطَّابي وغيرُه عن السلف، وعليه يدلّ كلام جمهورهم، وكلام الباقين لا يخالفه، وهو أمرٌ واضح فإن الصّفات كالذات، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات، فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات.

فمن قال: لا أعقل علمًا ويدًا إلا من جنس العلم واليد المعهودين.

قيل له: فكيف تعقل ذاتًا من غير جنس ذوات المخلوقين، ومن المعلوم أنَّ صفات كل موصوفٍ تناسب ذاته وتلائم حقيقته؛ فمن لم يفهم من صفات الرَّب -الذي ليس كمثله شيء- إلا ما يناسب المخلوق فقد ضلَّ في عقله ودينه.

وما أحسن ما قال بعضهم: إذا قال لك الجهمي: كيف استوىٰ؟ أو كيف ينزل إلىٰ سماء



الدنيا؟ أو كيف يداه؟ ونحو ذلك، فقل له: كيف هو في ذاته؟ فإذا قال لك: لا يُعلم ما هو إلا هو، وكُنْهُ الباري تعالىٰ غير معلوم للبشر، فقل لـه: فـالعلم بكيفيـة الصِّـفة مسـتلزم للعلـم بكيفية الموصوف، فكيف يمكن أن تعلم كيفية صفة لموصوف، لم تعلم كيفيته، وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة علىٰ الوجه الذي ينبغي لك؛ بـل هـٰذه المخلوقـات في الجنة قد ثبت عن ابن عباس أنه قال: ليس في الدُّنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

وقد أخبر الله تعالىٰ أنه لا تعلم نفس ما أخفِي لهم من قرة أعين، وأخبر النبي ﷺ «**أَنَّ فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**».

فإذا كان نعيم الجنة وهو خلقٌ من مخلوقات الله كذلك فما ظنُّك بالخالق ﷻ.

وهـٰذه الرُّوح التي في بني آدم قد علم العاقل اضطراب الناس فيها، وإمسـاك النصـوص عن بيان كيفيتها، أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام في كيفية الله تعالىٰ؟ مع أنّا نقطع بأن الروح في البدن، وأنها تخرج منه وتعرج إلىٰ السماء، وإنها تسل منه وقت النزع كما نطقـت بـذلك النصوص الصحيحة، لا نغالي في تجريدها غلو المتفلسفة، ومن وافقهم حيـث نفـوا عنهـا الصعود والنزول، والاتصال بالبدن والانفصال عنه، وتخبطوا فيها حيـث رأوهـا مـن غيـر جنس البدن وصفاته، فعدم مماثلتهـا للبـدن لا ينفـي أن تكـون هـٰذه الصـفات ثابتـة لهـا بحسبها، إلا أن يفسروا كلامهم بما يوافق النصوص، فيكونون قد أخطؤوا في اللفظ، وأنَّـىٰ لهم بذلك؟

ولا نقول: إنها مجرّد جزء من أجزاء البدن كالدَّم والبخار مثلا أو صفة من صفات البدن والحياة، وإنها مختلفة الأجساد ومساوية لسائر الأجسـاد في الحـد والحقيقـة، كمـا يقـول طوائف من أهل الكلام؛ بل نتيقن أن الروح عينٌ موجودة غير البدن، وإنها ليست مماثلة له؛ وهي موصوفة بما نطقت به النصوص حقيقة لا مجازا، فإذا كان مـذهبنا في حقيقـة الـروح وصفاتها بين المعطلة والممثلة، فكيف الظن بصفات ربِّ العالمين.

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها، أعني الذين يقولون: ليس لها في الباطن مدلول هو صفة الله تعالىٰ قط، وأنَّ الله لا صفة له ثبوتية؛ بل صفاته إما سلبية وإما إضافية، وإما مركبـة منهما، أو يثبتون بعض الصفات؛ وهي: الصفات السبعة أو الثمانيـة أو الخمسـة عشـر، أو يثبتون الأحوال دون الصفات، ويقرون من الصفات الخبرية بمـا في القـرآن دون الحـديث



علىٰ ما قد عرف من مذاهب المتكلّمين.

فهؤلاء قسمان:

قسم يتأولونها ويعينون المراد مثل قولهم: استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ؛ أو بمعنىٰ علو المكانة والقدر، أو بمعنىٰ ظهور نوره للعرش، أو بمعنىٰ انتهاء الخلْق إليه، إلىٰ غير ذلك من معاني [المتكلِّفين].

وقسم يقولون: الله أعلم بما أراد بها؛ لكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجية عما علمناه.

وأما القسمان الواقفان:

فقسم: يقولون: يجوز أن يكون ظاهرها المراد اللائق بجلال الله، ويجوز ألَّا يكون المراد صفة الله ونحو ذلك، وهـٰذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم.

وقوم: يمسكون عن هـٰذا كله ولا يزيدون علىٰ تلاوة القرآن وقراءة الحديث، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هـٰذه التقديرات.

فهـٰذه الأقسام السِّتة لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها.

والصّواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثابتة كالآيات والأحاديث الدالّة علىٰ أن الله ﷻ فوق عرشه، وتعلم طريقة الصواب في هـٰذا وأمثاله بدلالة الكتاب والسنة والإجماع علىٰ ذلك، دلالة لا تحتمل النّقيض، وفي بعضها قد يغلب علىٰ الظَّن ذلك مع احتمال النّقيض، وتردد المؤمن في ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدعُ بما رواه مسلم في «صحيحه» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان رسولُ الله ﷺ إِذَا قَامَ يصلي مِنَ اللّيْلِ، قال: «**اللّهُمّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقّ بِإِذْنِكَ إِنّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».

وفي رواية لأبي داود: إنه كان يكبر في صلاته ثم يقول ذلك.



فإذا افتقر العبد إلىٰ الله ودعاه، وأدمن النظر في كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين: انفتح له طريق الهدىٰ.

ثم إن كان قد خبَر نهايات إقدام المتفلسفة والمتكلمين في هـٰذا الباب، وعرف أن غالب ما يزعمونه برهانا هو شبهة، ورأىٰ أن غالب ما يعتمدونه يؤول إلىٰ دعوىٰ لا حقيقة لها، أو شبهة مركّبة من قياس فاسد، أو قضية كلّية لا [تصلح] إلا جزئية، أو دعوىٰ إجماع لا حقيقة له، أو التمسك في المذهب والدّليل بالألفاظ المشتركة.

ثم إنّ ذلك إذا ركب بألفاظ كثيرة طويلة غريبة عمن لم يعرف اصطلاحهم، أوْهَمَتِ الغِرَّ ما يُوهمه السَّراب للعطشان، ازداد إيمانا وعلمًا بما جاء به الكتاب والسنة، فإنّ الضد يُظهر حسنه الضد، وكل من كان بالباطل أعلم كان للحق أشد تعظيمًا، وبقدره أعرف إذا هُدي إليه.

فأما المتوسطون من المتكلمين فيخاف عليهم ما لا يخاف علىٰ من لم يدخل فيه، وعلىٰ من قد أنهاه نهايته، فإن من لم يدخل فيه فهو في عافية، ومن أنهاه فقد عرف الغاية، فما بقي يخاف من شيء آخر، فإذا ظهر له الحق وهو عطشان إليه قبله، وأما المتوسط فيتوهم بما يتلقاه من المقالات المأخوذة تقليدا لمعظِّمة هؤلاء.

وقد قال بعض الناس: أكثر ما يفسد الدنيا: نصف متكلم، ونصف متفقه، ونصف متطبب، ونصف نحوي، هـٰذا يفسد الأديان، وهـٰذا يفسد البلدان، وهـٰذا يفسد الأبدان، وهـٰذا يفسد اللسان.

ومن علم أن المتكلمين من المتفلسفة وغيرهم في الغالب في قول مختلف، يؤفك عنه من أفك، يعلم الذكي منهم والعاقل أنه ليس هو فيما يقوله علىٰ بصيرة، وأنّ حجته ليست ببينة وإنما هي كما قيل فيها:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا ... حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٍ مَكْسُورُ

ويعلم العليم البصير بهم أنهم من وجه مستحقون ما قاله الشافعي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ حيث قال: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هـٰذا جزاء من أعرض عن الكتاب والسنة وأقبل علىٰ الكلام.



ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القَدَر -والحيرة مستولية عليهم والشيطان مستحوذٌ عليهم- رحمتهم وترفقت بهم، أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاء، وأعطوا فهوما وما أعطوا علوما، وأعطوا سمعا وأبصارا وأفئدة ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن



شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ [الأحقاف].

ومن كان عليمًا بهٰذه الأمور: تبيَّن له بذلك حِذْقُ السلف وعلمهم وخبرتهم حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه وذمّوا أهله وعابوهم؛ وعلم أن من ابتغىٰ الهدىٰ في غير الكتاب والسنة لم يزدد من الله إلا بعدًا.

فنسأل الله العظيم أن يهدينا صراطه المستقيم؛ صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين.

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه علىٰ محمّد خاتم النبيين وآله وصحبه أجمعين.





«فَتْحُ رَبِّ الْبَرِيَّةِ بِتَلْخِيصِ الْحَمَوِيَّةِ»

لِلشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ:

مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعُثَيْمِين رَحِمَهُ اللَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المُقدِّمة

الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مُضِلّ له؛ ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن الله تعالىٰ بعث محمدًا ﷺ بالهدىٰ ودين الحق؛ رحمة للعالمين، وقدوة للعاملين، وحجّة علىٰ العباد أجمعين؛ فأدىٰ الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح الأمة، وبيّن للناس جميع ما يحتاجون إليه في أصول دينهم وفروعه، فلم يدع خيرًا إلا بيّنه وحثّ عليه، ولم يترك شرًّا إلا حذّر الأمة عنه، حتىٰ ترك أمته علىٰ المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها، فسار عليها أصحابه نيّرة مضيئة، وتلقاها عنهم كذلك القرون المفضلة، حتىٰ تجهّم الجو بظلمات البدع المتنوعة التي كاد بها مبتدعوها الإسلام وأهله، وصاروا يتخبطون فيها خبط عشواء، ويبنون معتقداتهم علىٰ نسج العنكبوت وأوهىٰ، والربّ تعالىٰ يحمي دينه بأوليائه الذين وهبهم من الإيمان، والعلم، والحكمة ما به يصدُّون هؤلاء الأعداء، ويردون كيدهم في نحورهم، فما قام أحد ببدعة إلا قيض الله وله الحمد من أهل السنة من يدحض بدعته، ويبطلها.

وكان في مقدمة القائمين علىٰ هؤلاء المبتدعة: شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، ثم الدمشقي، المولود في حران يوم الاثنين

الموافق ١٠ ربيع الأول سنة ٦٦١ هجرية، والمتوفىٰ محبوسًا ظلمًا في قلعة دمشق في ذي القعدة سنة ٧٢٨ هجرية.

وله المؤلفات الكثيرة في بيان السنة، وتوطيد أركانها، وهدم البدع.

ومما ألّفه في هذا الباب رسالة «الفتوىٰ الحموية» التي كتبها جوابًا لسؤال ورد عليه في سنة ٦٩٨ هجرية مِنْ «حماة» بلد في الشام، يسأل فيه عما يقوله الفقهاء وأئمة الدين في آيات الصفات وأحاديثها؟ فأجاب بجواب يقع في حوالي ٨٣ صفحة، وحصل له بذلك محنة وبلاء، فجزاه الله تعالىٰ عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء.

ولما كان فهم هذا الجواب والإحاطة به مما يشق علىٰ كثير من قرائه أحببت أن ألخص المهم منه مع زيادات تدعو الحاجة إليها وسميته: «فتح رب البرية بتلخيص الحموية».

وقد طبعته لأول مرة في سنة ١٣٨٠ هجرية، وها أنا أعيد طبعه للمرة الثانية، وربما غيّرت ما رأيت من المصلحة تغييره من زيادة أو حذف.

والله أسأل أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه ونافعًا لعباده إنه جواد كريم.



الباب الأول: فيما يجب على العبد في دينه

الواجب علىٰ العبد في دينه هو اتباع ما قاله الله، وقاله رسوله محمد ﷺ، والخلفاء الراشدون المهديون من بعده من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان.

وذلك أن الله بعث محمدًا ﷺ، بالبينات والهدىٰ، وأوجب علىٰ جميع الناس أن يؤمنوا به، ويتّبعوه ظاهرًا وباطنًا، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف].

وقال النبي ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

والخلفاء الراشدون هم: الذين خلفوا النبي ﷺ في العلم النافع، والعمل الصالح، وأحق الناس بهذا الوصف هم الصحابة رضي الله عنهم فإن الله اختارهم لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، ولم



يكن الله تعالىٰ ليختار وهو العليم الحكيم لصحبة نبيه إلا من هم أكمل الناس إيمانًا، وأرجحهم عقولًا، وأقومهم عملًا، وأمضاهم عزمًا، وأهداهم طريقًا، فكانوا أحق الناس أن يُتَّبَعُوا بعد نبيهم ﷺ، ومن بعدهم أئمة الدين، الذين عُرفوا بالهدىٰ والصلاح.



الباب الثاني: فيما تضمنته رسالة النبي ﷺ من بيان الحق في أصول الدين وفروعه

رسالة النبي ﷺ تتضمن شيئين هما: العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة].

فالهدىٰ هو: العلم النافع. ودين الحق هو: العمل الصالح الذي اشتمل علىٰ الإخلاص لله، والمتابعة لرسوله ﷺ.

والعلم النافع يتضمن كل علم يكون للأمة فيه خير وصلاح في معاشها، ومعادها، وأول ما يدخل في ذلك العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله؛ فإن العلم بذلك أنفع العلوم. وهو زبدة الرسالة الإلهية، وخلاصة الدعوة النبوية، وبه قوام الدين قولًا، وعملًا، واعتقادًا.

ومن أجل هذا كان من المستحيل أن يهمله النبي ﷺ، ولا يبيّنه بيانًا ظاهرًا ينفي الشكّ، ويدفع الشبهة، وبيان استحالته من وجوه:

الأول: أن رسالة النبي ﷺ، كانت مشتملة علىٰ النور والهدىٰ؛ فإن الله بعثه بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلىٰ الله بإذنه، وسراجًا منيرًا، حتىٰ ترك أمته علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وأعظم النور وأبلغه ما يحصل للقلب بمعرفة الله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فلا بد أن يكون النبي ﷺ، قد بيّنه غاية البيان.

الثاني: أن النبي ﷺ علّم أمته جميع ما تحتاج إليه من أمور الدين والدنيا، حتىٰ آداب الأكل، والشرب، والجلوس، والمنام وغير ذلك. قال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علمًا». ولا ريب أن العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، داخل تحت هذه الجملة العامة، بل هو أول ما يدخل فيه لشدة الحاجة إليه.

الثالث: أن الإيمان بالله تعالىٰ، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، هو أساس الدين، وخلاصة



دعوة المرسلين، وهو أوجب وأفضل ما اكتسبته القلوب وأدركته العقول، فكيف يهمله النبي ﷺ، من غير تعليم ولا بيان مع أنه كان يُعَلِّمُ ما هو دونه في الأهمية والفضيلة؟

الرابع: أن النبي ﷺ كان أعلم الناس بربه، وهو أنصحهم للخلق، وأبلغهم في البيان والفصاحة؛ فلا يمكن مع هذا المقتضىٰ التام للبيان أن يترك باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ملتبسًا مشتبِهًا.

الخامس: أن الصحابة رضي الله عنهم لا بدّ أن يكونوا قائلين بالحق في هذا الباب؛ لأن ضدّ ذلك إما السكوت، وإما القول بالباطل، وكلاهما ممتنع عليهم:

أمّا امتناع السكوت فوجهه: أن السكوت إمّا أن يكون عن جهل منهم بما يجبُ لله تعالىٰ من الأسماء والصفات، وما يجوز عليه منها و[ما]يمتنع، وإمّا أن يكون عن علم منهم بذلك؛ ولكن كَتَمُوهُ، وكل منهما ممتنع:

أما امتناع الجهل: فلأنه لا يمكن لأي قلب فيه حياة، ووعي وطلب للعلم، ونهمة في العبادة إلا أن يكون أكبر همّه هو البحث في الإيمان بالله تعالىٰ، ومعرفته بأسمائه وصفاته، وتحقيق ذلك علمًا واعتقادًا. ولا ريب أن القرون المفضلة وأفضلهم الصحابة هم أبلغ الناس في حياة القلوب، ومحبة الخير، وتحقيق العلوم النافعة، كما قال النبي ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». وهذه الخيرية تعم فضلهم في كل ما يُقرّب إلىٰ الله من قول، وعمل، واعتقاد.

ثم لو فرضنا أنهم كانوا جاهلين بالحق في هذا الباب لكان جهل من بعدهم من باب أولىٰ؛ لأن معرفة ما يُثْبَتُ لله تعالىٰ من الأسماء والصفات، أو يُنْفَىٰ عنه إنما تُتَلَقَّىٰ من طريق الرسالة، وهم الواسطة بين الرسول ﷺ وبين الأمة، وعلىٰ هذا الفرض يلزم ألا يكون عند أحد علم في هذا الباب، وهذا ظاهر الامتناع.

وأما امتناع كتمان الحق: فلأنّ كل عاقل منصف عرف حال الصحابة رضي الله عنهم وحرصهم علىٰ نشر العلم النافع، وتبليغه الأمة، فإنه لن يمكنه أن ينسب إليهم كتمان الحق - ولا سيما - في أوجب الأمور، وهو معرفة الله وأسمائه وصفاته.

ثم إنه قد جاء عنهم من قول الحق في هذا الباب شيء كثير يعرفه من طلبه وتتبّعه.

وأما امتناع القول بالباطل عليهم فمن وجهين:



أحدهما: أن القول بالباطل لا يمكن أن يقوم عليه دليل صحيح، ومن المعلوم أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أبعد الناس عن القول فيما لم يقم عليه دليل صحيح، خصوصًا في أمر الإيمان بالله تعالىٰ، وأمور الغيب، فهم أولىٰ الناس بامتثال قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

ثانيهما: أن القول بالباطل إما أن يكون مصدره الجهل بالحق، وإما أن يكون مصدره إرادة ضلال الخلق، وكلاهما ممتنع في حق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

أما امتناع الجهل فقد تقدّم بيانه.

وأما امتناع إرادة ضلال الخلق: فلأن إرادة ضلال الخلق قصد سيئ، لا يمكن أن يصدر من الصحابة الذين عرفوا بتمام النصح للأمة، ومحبة الخير لها.

ثم لو جاز عليهم سوء القصد فيما قالوه في هذا الباب، لجاز عليهم سوء القصد فيما يقولون في سائر أبواب العلم والدين، فتعدم الثقة بأقوالهم وأخبارهم في هذا الباب وغيره، وهذا من أبطل الأقوال، لأنه يستلزم القدح في الشريعة كلها.

وإذا تبين أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا بد أن يكونوا قائلين بالحق في هذا الباب، فإنهم إما أن يكونوا قائلين ذلك بعقولهم، أو من طريق الوحي. والأول ممتنع؛ لأن العقل لا يدرك تفاصيل ما يجب لله تعالىٰ من صفات الكمال، فتعين الثاني، وهو أن يكونوا تلقوا هذه العلوم من طريق رسالة النبي ﷺ، فيلزم علىٰ هذا أن يكون النبي ﷺ، قد بين الحق في أسماء الله وصفاته، وهذا هو المطلوب.



الباب الثَّالث: في طريقة أهل السنة في أسماء الله وصفاته

أهل السنة والجماعة: هم الذين اجتمعوا علىٰ الأخذ بسنة النبي ﷺ، والعمل بها ظاهرًا وباطنًا في القول والعمل والاعتقاد.

وطريقتهم في أسماء الله وصفاته كما يأتي:

أولًا: **في الإثبات**: فهي إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو علىٰ لسان رسول الله ﷺ، من



غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل.

ثانيًا: **في النفي**: فطريقتهم نفي ما نفاه الله عن نفسه في كتابه، أو علىٰ لسان رسوله ﷺ، مع اعتقادهم ثبوت كمال ضده لله تعالىٰ.

ثالثًا: **فيما لم يرد نفيه**، ولا إثباته مما تنازع الناس فيه كالجسم، والحيز والجهة ونحو ذلك، فطريقتهم فيه التوقف في لفظه فلا يثبتونه، ولا ينفونه لعدم ورود ذلك، وأما معناه فيستفصلون عنه، فإن أُريد به باطل يُنزه الله عنه ردوه، وإن أريد به حق لا يمتنع علىٰ الله قبلوه.

وهذه الطريقة هي الطريقة الواجبة، وهي القول الوسط بين أهل التعطيل، وأهل التمثيل.

وقد دل علىٰ وجوبها العقل، والسمع:

فأما العقل: فوجه دلالته أن تفصيل القول فيما يجب، ويجوز، ويمتنع علىٰ الله تعالىٰ لا يدرك إلا بالسمع، فوجب اتباع السمع في ذلك بإثبات ما أثبته، ونفي ما نفاه، والسكوت عما سكت عنه.

وأما السمع: فمن أدلته قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ]. وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالآية الأولىٰ: دلت علىٰ وجوب الإثبات من غير تحريف ولا تعطيل؛ لأنهما من الإلحاد.

والآية الثانية: دلت علىٰ وجوب نفي التمثيل.

والآية الثالثة: دلت علىٰ وجوب نفي التكييف، وعلىٰ وجوب التوقف فيما لم يرد إثباته أو نفيه.

وكل ما ثبت لله من الصفات فإنها صفات كمال، يحمد عليها، ويثنىٰ بها عليه، وليس فيها نقص بوجه من الوجوه.

فجميع صفات الكمال ثابتة لله تعالىٰ علىٰ أكمل وجه.

وكل ما نفاه الله عن نفسه فهو صفات نقص، تنافي كماله الواجب، فجميع صفات النقص ممتنعة علىٰ الله تعالىٰ لوجوب كماله. وما نفاه الله عن نفسه فالمراد به انتفاء تلك الصفة



المنفية وإثبات كمال ضدها، وذلك أن النفي لا يدل علىٰ الكمال حتىٰ يكون متضمنًا لصفة ثبوتية يحمد عليها، فإن مجرد النفي قد يكون سببه العجز فيكون نقصًا، كما في قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدِرُون بذِمَّةٍ ... ولا يَظْلمون الناسَ حبَّةَ خَرْدَلِ

وقد يكون سببه عدم القابلية فلا يقتضي مدحًا، كما لو قلت: الجدار لا يظلم.

إذا تبين هذا فنقول: مما نفىٰ الله عن نفسه الظلم، فالمراد به انتفاء الظلم عن الله مع ثبوت كمال ضده وهو العدل، ونفىٰ عن نفسه اللغوب وهو التعب والإعياء، فالمراد نفي اللغوب مع ثبوت كمال ضده وهو القوة، وهكذا بقية ما نفاه الله عن نفسه، والله أعلم.

التحريف:

التحريف لغة: التغيير.

وفي الاصطلاح: تغيير النص لفظًا، أو معنىٰ. والتغيير اللفظي قد يتغير معه المعنىٰ، وقد لا يتغير، فهذه ثلاثة أقسام:

الأول: تحريف لفظي يتغير معه المعنىٰ؛ كتحريف بعضهم قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ١٦٤﴾ [النساء] إلىٰ نَصْب الجلالة؛ ليكون التكليم من موسىٰ.

الثاني: وتحريف لفظي لا يتغير معه المعنىٰ؛ كفتح الدال من قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة]، وهذا في الغالب لا يقع إلا من جاهل إذ ليس فيه غرض مقصود لفاعله غالبًا.

الثالث: وتحريف معنوي وهو: صرف اللفظ عن ظاهره بلا دليل؛ كتحريف معنىٰ اليدين المضافتين إلىٰ الله تعالىٰ إلىٰ القوة والنعمة، ونحو ذلك.

التعطيل:

التعطيل لغة: التفريغ والإخلاء.

وفي الاصطلاح هنا: إنكار ما يجب لله تعالىٰ من الأسماء والصفات، أو إنكار بعضه فهو نوعان:

١ - تعطيل كلي؛ كتعطيل الجهمية الذين ينكرون الصفات، وغلاتهم ينكرون الأسماء



أيضًا.

٢ - وتعطيل جزئي؛ كتعطيل الأشعرية الذين ينكرون بعض الصفات دون بعض. وأول من عُرف بالتعطيل من هذه الأمة هو الجعد بن درهم.

التكييف:

التكييف: حكاية كيفية الصفة؛ كقول القائل: كيفية يد الله، أو نزوله إلىٰ السماء الدنيا كذا وكذا.

التمثيل، والتشبيه:

التمثيل: إثبات مثيل للشيء.

والتشبيه: إثبات مشابه له. فالتمثيل يقتضي المماثلة، وهي المساواة من كل وجه، والتشبيه يقتضي المشابهة، وهي المساواة في أكثر الصفات، وقد يطلق أحدهما علىٰ الآخر، والفرق بينهما وبين التكييف من وجهين:

أحدهما: أن التكييف أن يحكي كيفية الشيء سواء كانت مطلقة أم مقيدة بشبيه، وأما التّمثيل والتّشبيه فيدلان علىٰ كيفية مقيّدة بالمماثل والمشابه.

ومن هذا الوجه يكون التكييف أعم؛ لأن كل ممثِّل مكيّف، ولا عكس.

ثانيهما: أن التكييف يختص بالصفات، أما التمثيل فيكون في القَدْر والصفة والذات، ومن هذا الوجه يكون أعم؛ لتعلقه بالذات والصفات والقدر.

ثم إن التشبيه الذي ضل به من ضل من الناس، علىٰ نوعين:

أحدهما: تشبيه المخلوق بالخالق.

والثاني: تشبيه الخالق بالمخلوق.

فأما تشبيه المخلوق بالخالق، فمعناه: إثبات شيء للمخلوق مما يختص به الخالق من الأفعال، والحقوق، والصفات.

الأول: كفعل من أشرك في الربوبية ممن زعم أن مع الله خالقًا.

الثاني: كفعل المشركين بأصنامهم، حيث زعموا أن لها حقًّا في الألوهية، فعبدوها مع الله.

الثالث: كفعل الغلاة في مدح النبي ﷺ، أو غيره مثل قول المتنبي يمدح عبد الله بن يحيىٰ البحتري:



فكن كما شئت يا من لا شبيه له   وكيف شئت فما خلق يدانيكا

وأما تشبيه الخالق بالمخلوق فمعناه: أن يثبت لله تعالىٰ في ذاته، أو صفاته من الخصائص مثل ما يثبت للمخلوق من ذلك، كقول القائل: إن يدي الله مثل أيدي المخلوقين، واستواءه علىٰ عرشه كاستوائهم، ونحو ذلك.

وقد قيل: إن أول من عرف بهذا النوع هشام بن الحكم الرافضي، والله أعلم.

الإلحاد:

الإلحاد في اللغة: الميل.

وفي الاصطلاح: الميل عما يجب اعتقاده، أو عمله. وهو قسمان:

أحدهما: في أسماء الله.

والثاني: في آياته.

فأما الإلحاد في أسمائه فهو: العدول عن الحق الواجب فيها، وهو أربعة أنواع:

١ - أن ينكر شيئًا منها، أو مما دلت عليه مِنَ الصفات، كما فعل المعطلة.

٢ - أن يجعلها دالة علىٰ تشبيه الله بخلقه، كما فعل المشبِّهة.

٣ - أن يسمي الله بما لم يسمِّ به نفسه؛ لأن أسماء الله توقيفية كتسمية النصارىٰ له (أبًا). وتسمية الفلاسفة إياه (علة فاعلة). ونحو ذلك.

٤ - أنه يشتق من أسمائه أسماء للأصنام، كاشتقاق (اللات) من الإله. و (العزَّىٰ) من العزيز.

وأما الإلحاد في آياته: فيكون في الآيات الشرعية، وهي ما جاءت به الرسل من الأحكام، والأخبار، ويكون في الآيات الكونية، وهي ما خلقه الله، ويخلقه في السماوات والأرض.

فأما الإلحاد في الآيات الشرعية: فهو تحريفها، أو تكذيب أخبارها، أو عصيان أحكامها.

وأما الإلحاد في الآيات الكونية: فهو نسبتها إلىٰ غير الله، أو اعتقاد شريك أو معين له فيها.

والإلحاد بقسميه حرام؛ لقوله تعالىٰ مهددًا للملحدين: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن

يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ [فصلت].

ومن الإلحاد ما يكون كفرًا حسب ما تقتضيه نصوص الكتاب والسنة.



الباب الرَّابع: في بيان صحة مذهب السلف وبطلان القول بتفضيل مذهب الخلف في العلم والحكمة على مذهب السلف

سبق القول في بيان طريقة السلف، وذكر الدليل علىٰ وجوب الأخذ بها، أما هنا فإننا نُريد أن نُبرهن علىٰ أن مذهب السلف هو المذهب الصحيح؛ وذلك من وجهين:

الأول: أن مذهب السلف دل عليه الكتاب والسنة؛ فإن من تتبع طريقتهم بعلم وعدل؛ وجدها مطابقة لما في الكتاب والسنة جملة وتفصيلًا ولا بدّ، فإن الله تعالىٰ أنزل الكتاب ليدبّر الناس آياته، ويعملوا بها إن كانت أحكامًا، ويصدِّقوا بها إن كانت أخبارًا. ولا ريب أن أقرب الناس إلىٰ فهمها وتصديقها والعمل بها هم السلف؛ لأنها جاءت بِلُغَتهم وفي عصرهم، فلا جرم أن يكونوا أعلم الناس بها فقهًا، وأقومهم عملًا.

الثاني: أن يقال: إن الحق في هذا الباب إما أن يكون فيما قاله السلف، أو فيما قاله الخلف. والثاني باطل، لأنه يلزم عليه أن يكون الله ورسوله، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، قد تكلّموا بالباطل تصريحًا، أو ظاهرًا، ولم يتكلموا مرة واحدة بالحق الذي يجب اعتقاده لا تصريحًا ولا ظاهرًا. فيكون وجود الكتاب والسنة ضررًا محضًا في أصل الدين، وترك الناس بلا كتاب ولا سنة خيرًا لهم وأقوم! وهذا ظاهر البطلان.

هذا وقد قال بعض الأغبياء: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم. ومنشأ هذا القول أمران:

أحدهما: اعتقاد قائله - بسبب ما عنده من الشبهات الفاسدة - أن الله تعالىٰ ليس له في نفس الأمر صفة حقيقية دلّت عليها هذه النصوص.

الثاني: اعتقاده أن طريقة السلف هي الإيمان بمجرد ألفاظ نصوص الصفات من غير إثبات معنىٰ لها، فيبقىٰ الأمر دائرًا بين أن نؤمن بألفاظ جوفاء لا معنىٰ لها - وهذه طريقة السلف علىٰ زعمه - وبين أن نثبت للنصوص معاني تخالف ظاهرها الدال علىٰ إثبات الصفات لله، وهذه هي طريقة الخلف؛ ولا ريب أن إثبات معاني النصوص أبلغ في العلم



والحكمة من إثبات ألفاظ جوفاء ليس لها معنىٰ، ومن ثم فَضَّلَ هذا الغبي طريقة الخلف في العلم والحكمة علىٰ طريقة السلف.

وقول هذا الغبي يتضمن حقًّا وباطلًا: فأما الحقّ فقوله: «إن مذهب السلف أسلم» وأما الباطل فقوله: «إن مذهب الخلف أعلم وأحكم» وبيان بطلانه من وجوه:

الوجه الأول: أنه يُناقض قوله: «إن طريقة السلف أسلم»؛ فإن كون طريقة السلف أسلم من لوازم كونها أعلم وأحكم، إذ لا سلامة إلا بالعلم والحكمة، العلم بأسباب السلامة، والحكمة في سلوك تلك الأسباب، وبهذا يتبين أن طريقة السلف أسلم، وأعلم، وأحكم، وهو لازم لهذا الغبي لزومًا لا محيد عنه.

الوجه الثاني: أن اعتقاده أن الله ليس له صفة حقيقية - دلت عليها هذه النصوص - اعتقاد باطل؛ لأنه مبني علىٰ شبهات فاسدة؛ ولأن الله تعالىٰ قد ثبت له صفات الكمال عقلًا، وفطرة، وشرعًا.

فأما دلالة العقل علىٰ ثبوت صفات الكمال لله فوجهه أن يقال:

إن كل موجود في الخارج فلا بد أن يكون له صفة: إما صفة كمال، وإما صفة نقص، والثاني باطل بالنسبة إلىٰ الرب الكامل المستحق للعبادة. وبذلك استدل الله تعالىٰ علىٰ بطلان ألوهية الأصنام باتصافها بصفات النقص والعجز بكونها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، ولا تضر، ولا تخلق، ولا تنصر فإذا بطل الثاني تعين الأول، وهو ثبوت صفات الكمال لله.

ثم إنه قد ثبت بالحسِّ والمشاهدة أن للمخلوق صفات كمال، والله سبحانه هو الذي أعطاه إياها فمعطي الكمال أولىٰ به.

وأما دلالة الفطرة علىٰ ثبوت صفات الكمال لله؛ فلأن النفوس السليمةِ مجبولةٌ ومفطورةٌ علىٰ محبة الله، وتعظيمِهِ، وعبادتِه، وهل تحب وتعظم وتعبد إلا من عرَفَتْ أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وألوهيته؟

وأما دلالة الشرع علىٰ ثبوت صفات الكمال لله؛ فأكثر من أن تحصر مثل قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ



عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٤﴾[الحشر]. وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الروم:٢٧]. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة:٢٥٥]. ومثل قوله ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**».

إلىٰ غير ذلك من الآيات والأحاديث.

الوجه الثالث: أن اعتقاده أن طريقة السلف مجرد الإيمان بألفاظ النصوص بغير إثبات معناها، اعتقاد باطل كذب علىٰ السلف؛ فإن السلف أعلم الأمة بنصوص الصفات لفظًا ومعنىٰ، وأبلغهم في إثبات معانيها اللائقة بالله تعالىٰ علىٰ حسب مراد الله ورسوله.

الوجه الرابع: أن السلف هم ورثة الأنبياء والمرسلين، فقد تلقوا علومهم من ينبوع الرسالة الإلهية وحقائق الإيمان.

أما أولئك الخلف، فقد تلَقوا ما عندهم من المجوس، والمشركين، وضلال اليهود واليونان. فكيف يكون ورثة المجوس، والمشركين، واليهود، واليونان، وأفراخِهِم، أعلم، وأحكم في أسماء الله وصفاته من ورثة الأنبياء والمرسلين؟

الوجه الخامس: أن هؤلاء الخلف الذين فضل هذا الغبي طريقتهم في العلم والحكمة علىٰ طريقة السلف، كانوا حيارىٰ مضطربين بسبب إعراضهم عما بعث الله به محمدًا ﷺ من البينات والهدىٰ، والتماسهم علم معرفة الله تعالىٰ ممن لا يعرفه بإقراره علىٰ نفسه وشهادة الأمة عليه، حتىٰ قال الرازي وهو من رؤسائهم مُبيِّنًا ما ينتهي إليه أمرهم:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعى العالمين ضلال

وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبالُ



ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]. ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر:١٠]. واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورىٰ]. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]. ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي». اهـ. كلامه.

فكيف تكون طريقة هؤلاء الحيارىٰ الذين أقروا علىٰ أنفسهم بالضلال والحيرة أعلم وأحكم من طريقة السلف، الذين هم أعلام الهدىٰ ومصابيح الدّجَىٰ، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به علىٰ سائر أتباع الأنبياء، والذين أدركوا من حقائق الإيمان والعلوم ما لو جُمِع إليه ما حَصَلَ لغيرهم لاستحيا من يطلب المقارنة، فكيف بالحكم بتفضيل غيرهم عليهم؟

وبهذا يتبين أن طريقة السلف أسلم، وأعلم، وأحكم.



الباب الخامس: في حكاية بعض المتأخرين لمذهب السلف

قال بعض المتأخرين: «مذهب السلف في الصفات إمرار النصوص علىٰ ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد». اهـ.

وهذا القول علىٰ إطلاقه فيه نظر، فإن لفظ (ظاهر) مجمل يحتاج إلىٰ تفصيل:

فإن أريد بالظاهر ما يظهر من النصوص من الصفات التي تليق بالله من غير تشبيه، فهذا مرادٌ قطعًا، ومن قال: إنه غير مراد فهو ضال إن اعتقده في نفسه، وكاذب أو مخطئ إن نسبه إلىٰ السلف.

وإن أريد بالظاهر ما قد يظهر لبعض الناس من أن ظاهرها تشبيه الله بخلقه، فهذا غير مراد قطعًا، وليس هو ظاهر النصوص، لأن مشابهة الله لخلقه أمر مستحيل، ولا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسنة أمرًا مستحيلًا، ومن ظن أن هذا هو ظاهرها فإنه يبين له أن ظنه خطأ وأن ظاهرها، بل صريحها إثبات صفات تليق بالله وتختص به.



وبهذا التفصيل نكون قد أعطينا النصوص حقها لفظًا ومعنىٰ. والله أعلم.



الباب السَّادس: في لبس الحق بالباطل من بعض المتأخرين

قال بعض المتأخرين: «إنه لا فرق بين مذهب السلف ومذهب المؤولين في نصوص الصفات؛ فإن الكل اتفقوا علىٰ أن الآيات والأحاديث لا تدل علىٰ صفات الله، لكن المتأولون رأوا المصلحة في تأويلها لمسيس الحاجة إليه وعيّنوا المراد، وأما السلف فأمسكوا عن التعيين لجواز أن يكون المراد غيره». اهـ.

وهذا كذب صريح علىٰ السلف فما منهم أحد نفىٰ دلالة النصوص علىٰ صفات الله التي تليق به، بل كلامهم يدل علىٰ تقرير جنس الصفات في الجملة، والإنكار علىٰ من نفاها، أو شبه الله بخلقه؛ كقول نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهًا». اهـ. وكلامهم في هذا كثير.

ومما يدل علىٰ إثبات السلف للصفات، وأنهم ليسوا علىٰ وفاق مع أولئك المتأولين: أن أولئك المتأولة كانوا خصومًا للسلف، وكانوا يرمونهم بالتشبيه والتجسيم؛ لإثباتهم الصفات، ولو كان السلف، يوافقونهم في عدم دلالة النصوص علىٰ صفات الله لم يجعلوهم خصومًا لهم، ويرموهم بالتشبيه والتجسيم، وهذا ظاهر، ولله الحمد.



الباب السَّابع: في أقوال السلف المأثورة في الصفات

اشتهر عن السلف كلمات عامة وأخرىٰ خاصة في آيات الصفات وأحاديثها. فمن الكلمات العامة، قولهم: «أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف». روي هذا عن مكحول، والزهري، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي.

وفي هذه العبارة رد علىٰ المعطّلة والمشبهة؛ ففي قولهم: «أمِرُّوها كما جاءت» رد علىٰ المعطلة. وفي قولهم: «بلا كيف». رد علىٰ المشبهة.

وفيها أيضًا دليل علىٰ أن السلف كانوا يُثبتون لنصوص الصفات المعاني الصحيحة التي تليق بالله، تدل علىٰ ذلك من وجهين:



الأول: قولهم: «أمِرُّوها كما جاءت». فإن معناها إبقاء دلالتها علىٰ ما جاءت به من المعاني، ولا ريب أنها جاءت لإثبات المعاني اللائقة بالله تعالىٰ ولو كانوا لا يعتقدون لها معنىٰ لقالوا: «أمروا لفظها، ولا تتعرضوا لمعناها». ونحو ذلك.

الثاني: قولهم: «بلا كيف»؛ فإنه ظاهر في إثبات حقيقة المعنىٰ، لأنهم لو كانوا لا يعتقدون ثبوته ما احتاجوا إلىٰ نفي كيفيته، فإن غير الثابت لا وجود له في نفسه، فنفي كيفيته من لَغْوِ القول.

فإن قيل: ما الجواب عما قاله الإمام أحمد في حديث النزول وشبْهِهِ: «نؤمن بها ونصدق، لا كيف، ولا معنىٰ».

قلنا: الجواب علىٰ ذلك: أن المعنىٰ الذي نفاه الإمام أحمد في كلامه هو المعنىٰ الذي ابتكره المعطلة من الجهمية وغيرهم، وحرّفوا به نصوص الكتاب والسنة عن ظاهرها إلىٰ معاني تُخالفه.

ويدلّ علىٰ ما ذكرنا أنه نفىٰ المعنىٰ، ونفىٰ الكيفية؛ ليتضمن كلامه الردّ علىٰ كلتا الطائفتين المبتدعتين: طائفة المعطلة وطائفة المشبهة.

ويدلّ عليه أيضًا ما قاله المؤلف في قول محمد بن الحسن: «اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلىٰ المغرب علىٰ الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ، في صفة الربّ ﷻ من غير تفسير، ولا وصف، ولا تشبيه». اهـ.

قال المؤلف: أراد به تفسير الجهمية المعطلة، الذين ابتدعوا تفسير الصفات، بخلاف ما كان عليه الصحابة، والتابعون من الإثبات. اهـ.

فهذا دليل علىٰ أن تفسير آيات الصفات وأحاديثها علىٰ نوعين:

- **تفسير مقبول**: وهو ما كان عليه الصحابة والتابعون من إثبات المعنىٰ اللائق بالله ﷻ الموافق لظاهر الكتاب والسنة.

- **وتفسير غير مقبول**: وهو ما كان بخلاف ذلك.

وهكذا المعنىٰ منه مقبول، ومنه مردود علىٰ ما تقدّم.

فإن قيل: هل لصفات الله كيفية؟



فالجواب: نعم لها كيفية، لكنها مجهولة لنا؛ لأن الشيء إنما تعلم كيفيته بمشاهدته، أو مشاهدة نظيره، أو خبر الصادق عنه، وكل هذه الطرق غير موجودة في صفات الله، وبهذا عُرف أن قول السلف: «بلا كيف». معناه بلا تكييف، لم يريدوا نفي الكيفية مطلقًا، لأن هذا تعطيل محض. والله أعلم.



الباب الثَّامن: في علو الله تعالى وأدلة العلو

علوّ الله تعالىٰ من صفاته الذاتية، وينقسم إلىٰ قسمين:

علوّ ذات، وعلوّ صفات.

فأما علو الصفات، فمعناه: أنه ما من صفة كمال إلا ولله تعالىٰ أعلاها، وأكملها، سواء كانت من صفات المجد والقهر، أم من صفات الجمال والقدر.

وأما علو الذات، فمعناه: أن الله بذاته فوق جميع خلقه، وقد دلّ علىٰ ذلك الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

فأما الكتاب والسنة فإنهما مملوءان بما هو صريح، أو ظاهر في إثبات علو الله تعالىٰ بذاته فوق خلقه.

وقد تنوعت دلالتهما علىٰ ذلك:

فتارة بذكر العلو، والفوقية، والاستواء علىٰ العرش، وكونه في السماء، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة]، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلىٰ: ١]. ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [تبارك: ١٦]، وقوله ﷺ: «**وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ**»، وقوله: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟!**».

وتارة بصعود الأشياء، وعروجها، ورفعها إليه، مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. وقوله ﷺ: «**وَلَا يَصْعَدُ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا الطَّيِّبُ**»، وقوله ﷺ: «**ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ**»، وقوله ﷺ: «**يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ**» رواه أحمد.



وتارة بنزول الأشياء منه، ونحو ذلك، مثل قوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ**» .

إلىٰ غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تواترت عن النبي ﷺ، في علو الله تعالىٰ علىٰ خلقه، تواترًا يوجب علمًا ضروريًّا بأن النبي ﷺ قالها عن ربه، وتلقتها أمته عنه.

وأما الإجماع: فقد أجمع الصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وأئمة أهل السنة علىٰ أن الله تعالىٰ فوق سماواته علىٰ عرشه، وكلامهم مملوء بذلك نصًّا وظاهرًا. قال الأوزاعي: «كنّا والتابعون متوافرون. نقول: إن الله تعالىٰ ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما جاءت به السنة من الصفات». قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهم النافي لصفات الله وعلوه؛ ليعرف الناس أن مذهب السلف كان يُخالف مذهب جَهْم.

ولم يقل أحد من السلف قطّ: إن الله ليس في السماء، ولا إنه بذاته في كل مكان، ولا إن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا إنه لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل، ولا منفصل، ولا إنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه، بل قد أشار إليه أعلم الخلق به في حجة الوداع يوم عرفة في ذلك المجمع العظيم، حينما رفع إصبعه إلىٰ السماء، يقول: «اللهم اشهد»، يُشهد ربه علىٰ إقرار أمته بإبلاغه الرسالة، صلوات الله وسلامه عليه.

وأما العقل: فإن كل عقل صريح يدل علىٰ وجوب علو الله بذاته فوق خلقه، من وجهين:

الأول: أن العلو صفة كمال، والله تعالىٰ قد وجب له الكمال المطلق من جميع الوجوه، فلزم ثبوت العلو له تبارك وتعالىٰ.

الثاني: أن العلو ضده السفل، والسفل صفة نقص، والله تعالىٰ مُنزّه عن جميع صفات النقص، فلزم تنزيهه عن السفل، وثبوت ضده له، وهو العلو.

وأما الفطرة: فإن الله تعالىٰ فطر الخلق كلهم: العرب، والعجم حتىٰ البهائم علىٰ الإيمان به وبِعُلُوّه، فما من عبد يتوجه إلىٰ ربه بدعاء أو عبادة إلا وجد من نفسه ضرورة بطلب العلو، وارتفاع قلبه إلىٰ السماء لا يلتفت إلىٰ غيره يمينًا، ولا شمالًا، ولا ينصرف عن مقتضىٰ هذه الفطرة إلا من اجتالته الشياطين والأهواء.

وكان أبو المعالي الجويني يقول في مجلسه: «كان الله ولا شيء وهو الآن علىٰ ما كان



عليه»؛ (يُعرِّض بإنكار استواء الله علىٰ عرشه)، فقال أبو جعفر الهمداني: «دعنا من ذكر العرش - أيْ: لأنه ثبت بالسمع - وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، ما قال عارف قطّ: يا الله! إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، لا يلتفت يَمنة، ولا يَسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة من قلوبنا؟».

فصرخ أبو المعالي ولطم رأسه، وقال: «حيرني الهمداني، حيرني الهمداني».

فهذه الأدلة الخمسة كلها تطابقت علىٰ إثبات علو الله بذاته فوق خلقه.

فأما قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]. فليس معناهما أن الله في الأرض كما أنه في السماء، ومن توهّم هذا، أو نقله عن أحد من السلف فهو مخطئ في وهمه، وكاذب في نقله.

وإنما معنىٰ الآية الأولىٰ: أن الله مألوه في السماوات وفي الأرض، كل من فيهما فإنه يتألّه إليه ويعبده. وقيل معناها: أن الله في السماوات ثم ابتدأ فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]؛ أي: إن الله يعلم سركم وجهركم في الأرض، فليس علوه فوق السماوات بمانع من علمه سركم وجهركم في الأرض.

وأما الآية الثانية فمعناها: أن الله إله في السماء وإله في الأرض، فألوهيته ثابتة فيهما، وإن كان هو في السماء؛ ونظير ذلك قول القائل: فلان أمير في مكة، وأمير في المدينة؛ أي: أن إمارته ثابتة في البلدين، وإن كان هو في أحدهما.

وهذا تعبير صحيح، لغة وعرفًا، والله أعلم.



الباب التَّاسع: في الجهة

نريد بهذه الترجمة أن نُبيِّن: هل الجهة ثابتة لله تعالىٰ، أو منتفية عنه؟

والتحقيق في هذا: أنه لا يصح إطلاق الجهة علىٰ الله تعالىٰ لا نفيًا، ولا إثباتًا، بل لا بد من التفصيل:

فإن أُريد بها جهة سُفْلٍ، فإنها منتفية عن الله، وممتنعة عليه؛ لأن الله تعالىٰ قد وجب له العلو المطلق بذاته وصفاته.



وإن أُريد بها جهة علو تُحيط به، فهي منتفية عن الله، وممتنعة عليه - أيضًا - فإن الله أعظم وأجلّ من أن يُحيط به شيء من مخلوقاته، كيف وقد وسع كرسيّه السماوات والأرض؟

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر].

وإن أُريد بها جهة علو تليق بعظمته وجلاله من غير إحاطة به، فهي حق ثابتة لله تعالىٰ واجبة له. قال الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني في كتابه «الغنية»: «وهو سبحانه بجهة العلو، مستوٍ علىٰ العرشِ، محتو علىٰ الملك». اهـ.

ومعنىٰ قوله: «محتوٍ علىٰ الملك»؛ أنه محيط بالملك تبارك وتعالىٰ.

فإن قيل: إذا نفيتم أن يكون شيء من مخلوقات الله محيطًا به، فما الجواب عما أثبته الله لنفسه في كتابه، وعلىٰ لسان نبيه ﷺ، وأجمع عليه المسلمون من أن الله سبحانه في السماء؟

فالجواب: إن كون الله في السماء لا يقتضي أن السماء تُحيط به، ومن قال ذلك فهو ضالّ، إن قاله من عنده، وكاذب أو مخطئ، إن نسبه إلىٰ غيره؛ فإن كل من عرف عظمة الله تعالىٰ وإحاطته بكل شيء، وأن الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، وأنه يطوي السماء كطيّ السجل للكتب، فإنه لن يخطر بباله أن شيئًا من مخلوقاته يمكن أن يُحيط به سبحانه وتعالىٰ.

وعلىٰ هذا فيخرج كونه في السماء علىٰ أحد معنيين:

الأول: أن يراد بالسماء العلو، فيكون المعنىٰ: أن الله في العلو؛ أي: في جهة العلو، والسماء بمعنىٰ العلو ثابت في القرآن. قال الله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنفال: ١١]؛ أي: من العلو لا من السماء نفسها؛ لأن المطر ينزل من السحاب.

الثاني: أن تجعل «في» بمعنىٰ «علىٰ» فيكون المعنىٰ: أن الله علىٰ السماء، وقد جاءت «في» بمعنىٰ: «علىٰ» في مواضع كثيرة من القرآن وغيره. قال الله تعالىٰ: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]؛ - أي: علىٰ الأرض -.



الباب العاشر: في استواء الله على عرشه

الاستواء في اللغة: يُطلق علىٰ معانٍ تدور علىٰ الكمال والانتهاء.



وقد ورد في القرآن علىٰ ثلاثة وجوه:

١ - **مطلق**؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]؛ أي كمل.

٢ - **ومقيد بـ«إلىٰ»**؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]؛ أي: قصد بإرادة تامة.

٣ - **ومقيد بـ«علىٰ»**؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣]. ومعناه حينئذٍ العلو والاستقرار.

فاستواء الله علىٰ عرشه معناه: علوه واستقراره عليه، علوًّا واستقرارًا يليق بجلاله وعظمته، وهو من صفاته الفعلية التي دل عليها الكتاب والسنة، والإجماع.

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه].

ومن أدلة السنة: ما رواه الخلال في كتاب «السنة» بإسناد صحيح علىٰ شرط البخاري عن قتادة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**لَمَّا فَرَغَ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ**».

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني: «إنه مذكور في كل كتاب أنزله الله علىٰ كل نبيّ». اهـ.

وقد أجمع أهل السنة علىٰ أن الله تعالىٰ فوق عرشه، ولم يقل أحد منهم إنه ليس علىٰ العرش، ولا يمكن لأحدٍ أن ينقل عنهم ذلك لا نصًّا ولا ظاهرًا.

وقال رجل للإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [طه:٥]. كيف استوىٰ؟ فأطرق مالك برأسه حتىٰ علاه الرحضاء (العرق). ثم قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا» ثم أُمر به أن يخرج.

وقد روي نحو هذا عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيخ مالك.

فقوله: «الاستواء غير مجهول»؛ أي: غير مجهول المعنىٰ في اللغة، فإن معناه: العلو والاستقرار.

وقوله: «والكيف غير معقول». معناه: أنَّا لا ندرك كيفية استواء الله علىٰ عرشه بعقولنا، وإنما طريق ذلك السمع، ولم يرد السمع بذكر الكيفية، فإذا انتفىٰ عنها الدليلان العقلي، والسمعي كانت مجهولة يجب الكفّ عنها.



وقوله: «الإيمان به واجب». معناه: أن الإيمان باستواء الله علىٰ عرشه علىٰ الوجه اللائق واجب، لأن الله أخبر به عن نفسه، فوجب تصديقه، والإيمان به.

وقوله: «والسؤال عنه بدعة». معناه: أن السؤال عن كيفية الاستواء بدعة؛ لأنه لم يكن معروفًا في عهد النبي ﷺ، وأصحابه.

وهذا الذي ذكره الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في الاستواء ميزان عام لجميع الصفات التي أثبتها الله لنفسه في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، فإن معناها معلوم لنا، وأما كيفيتها فمجهولة لنا؛ لأن الله أخبرنا عنها، ولم يخبر عن كيفيتها؛ ولأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فإذا كنّا نثبت ذات الله تعالىٰ من غير تكييف لها، فكذلك يكون إثبات صفاته من غير تكييف.

قال بعض أهل العلم: إذا قال لك الجهمي: إن الله ينزل إلىٰ السماء الدنيا، فكيف ينزل؟ فقل له: إن الله أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل.

وقال آخر: إذا قال لك الجهمي في صفة من صفات الله: كيف هي؟ فقل له: كيف هو بذاته؟ فإنه لا يمكن أن يكيف ذاته فقل له: إذا كان لا يمكن تكييف ذاته، فكذلك لا يمكن تكييف صفاته؛ لأن الصفات تابعة للموصوف.

فإن قال قائل: إذا كان استواء الله علىٰ عرشه بمعنىٰ: العلو عليه، لزم من ذلك أن يكون أكبر من العرش، أو أصغر، أو مساويًا، وهذا يقتضي أن يكون جسمًا، والجسم ممتنع علىٰ الله.

فجوابه أن يُقال: لا ريب أن الله أكبر من العرش، وأكبر من كل شيء، ولا يلزم علىٰ هذا القول شيء من اللوازم الباطلة، التي يُنزّه الله عنها.

وأما قوله: «إن الجسم ممتنع علىٰ الله»، فجوابه: أن الكلام في الجسم وإطلاقه علىٰ الله نفيًا أو إثباتًا من البدع التي لم ترد في الكتاب، والسنة، وأقوال السلف، وهو من الألفاظ المجملة التي تحتاج إلىٰ تفصيل:

فإن أريد بالجسم الشيء المحدث المركب، المفتقر كل جزء منه إلىٰ الآخر، فهذا ممتنع علىٰ الربّ الحيّ القيّوم.

وإن أُريد بالجسم ما يقوم بنفسه، ويتصف بما يليق به، فهذا غير ممتنع علىٰ الله تعالىٰ؛ فإن



الله قائم بنفسه، متصف بالصفات الكاملة التي تليق به سبحانه وتعالىٰ.

لكن لما كان لفظ الجسم يحتمل ما هو حق وباطل بالنسبة إلىٰ الله صار إطلاق لفظه نفيًا، أو إثباتًا ممتنعًا علىٰ الله.

وهذه اللوازم التي يذكرها أهل البدع ليتوصلوا بها إلىٰ نفي ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال، علىٰ نوعين:

الأول: لوازم صحيحة لا تنافي ما وجب لله من الكمال، فهذه حق يجب القول بها، وبيان أنها غير ممتنعة علىٰ الله.

الثاني: لوازم فاسدة تنافي ما وجب لله من الكمال، فهذه باطلة يجب نفيها، وأن يبين أنها غير لازمة لنصوص الكتاب، والسنة؛ لأن الكتاب والسنة حق ومعانيهما حق، والحق لا يمكن أن يلزم منه باطل أبدًا.

فإن قال قائل: إذا فسرتم استواء الله علىٰ عرشه بعلوه عليه، أوهم ذلك أن يكون الله محتاجًا إلىٰ العرش لِيُقلّه.

فالجواب: أن كل من عرف عظمة الله تعالىٰ، وكمال قدرته، وقوته، وغناه، فإنه لن يخطر بباله أن يكون الله محتاجًا إلىٰ العرش ليقلّه، كيف والعرش وغيره من المخلوقات مفتقر إلىٰ الله، ومضطر إليه لا قوام له إلا به، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾ [الروم: ٢٥].

فإن قيل: هل يصح تفسير استواء الله علىٰ عرشه باستيلائه عليه، كما فسره به المعطلة فرارًا من هذه اللوازم؟

فالجواب: أنه لا يصح وذلك لوجوه، منها:

١ - أن هذه اللوازم إن كانت حقًّا فإنها لا تَمنع من تفسير الاستواء بمعناه الحقيقي، وإن كانت باطلًا فإنه لا يمكن أن تكون من لوازم نصوص الكتاب والسنة، ومن ظن أنها لازمة لها فهو ضال.

٢ - أن تفسيره بالاستيلاء يلزم عليه لوازم باطلة - لا يمكن دفعها - كمخالفة إجماع السلف، وجواز أن يُقال: إن الله مستوٍ علىٰ الأرض، ونحوها مما ينزه الله عنه، وكون الله - تعالىٰ - غير مستولٍ علىٰ العرش حين خلق السماوات والأرض.



٣ - أن تفسيره بالاستيلاء غير معروف في اللغة، فهو كذب عليها، والقرآن نزل بلغة العرب، فلا يمكن أن نفسره بما لا يعرفونه في لغتهم.

٤ - أن الذين فسروه بالاستيلاء كانوا مُقرّين بأن هذا معنىٰ مَجازي، والمعنىٰ المجازي لا يُقبل إلا **بعد تمام أربعة أمور**:

الأول: الدليل الصحيح المقتضي لصرف الكلام عن حقيقته إلىٰ مجازه.

الثاني: احتمال اللفظ للمعنىٰ المجازي الذي ادعاه من حيث اللغة.

الثالث: احتمال اللفظ للمعنىٰ المجازي الذي ادعاه في ذلك السياق المعيّن، فإنه لا يلزم من احتمال اللفظ لمعنىٰ من المعاني من حيث الجملة أن يكون محتملًا له في كل سياق؛ لأن قرائن الألفاظ والأحوال قد تمنع بعض المعاني التي يحتملها اللفظ في الجملة.

الرابع: أن يبين الدليل علىٰ أن المراد من المعاني المجازية هو ما ادعاه؛ لأنه يجوز أن يكون المراد غيره فلا بد من دليل علىٰ التعيين. والله أعلم.

فصلٌ

والعرش في اللغة: سرير الملك، قال الله تعالىٰ عن يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وقال عن ملكة سبأ: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل].

وأما عرش الرحمن الذي استوىٰ عليه فهو: عرش عظيم محيط بالمخلوقات، وهو أعلاها، وأكبرها، كما في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ، قال: «**مَا السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ عِنْدَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَىٰ الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَلَقَةِ**». قال المؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «الرسالة العرشية»: «والحديث له طرق. وقد رواه أبو حاتم، وابن حبان في صحيحه، وأحمد في «المسند» وغيرهم». اهـ.

والكرسي في اللغة: السرير وما يقعد عليه.

وأما الكرسي الذي أضافه الله إلىٰ نفسه فهو: موضع قدميه تعالىٰ، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يَقْدُرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». رواه الحاكم في «المستدرك». وقال: إنه علىٰ شرط الشيخين، وقد روي مرفوعًا، والصواب أنه موقوف.



وهذا المعنىٰ الذي ذكره ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الكرسي هو المشهور بين أهل السنة، وهو المحفوظ عنه، وما روي عنه أنه العلم فغير محفوظ، وكذلك ما روي عن الحسن: أنه العرش ضعيف لا يصح عنه؛ قاله ابن كثير رحمه الله تعالىٰ.



الباب الحادي عشر: في المعيَّة

أثبت الله لنفسه في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، أنه مع خلقه.

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه].

ومن أدلة السنة: قوله ﷺ: «**أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ**». وقوله ﷺ، لصاحبه أبي بكر وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقد أجمع علىٰ ذلك سلف الأمة، وأئمتها.

والمعية في اللغة: مطلق المقارنة والمصاحبة. لكن مقتضاها ولازمها يختلف باختلاف الإضافة وقرائن السياق والأحوال:

فتارة تقتضي: **اختلاطًا**؛ كما يقال: جعلت الماء مع اللبن.

وتارة تقتضي: **تهديدًا وإنذارًا**؛ كما يقول المؤدب للجاني: اذهب فأنا معك.

وتارة تقتضي: **نصرًا وتأييدًا**؛ كمن يقول لمن يستغيث به: أنا معك، أنا معك. إلىٰ غير ذلك من اللوازم والمقتضيات المختلفة باختلاف الإضافة والقرائن والأحوال.

ومثل هذا اللفظ الذي يتفق في أصل معناه ويختلف مقتضاه وحكمه باختلاف الإضافات والقرائن يسميه بعض الناس: مشككًا؛ لتشكيك المستمع هل هو من قبيل المشترك الذي اتحد لفظه، واختلف معناه، نظرًا لاختلاف مقتضاه وحكمه؟ أو هو من قبيل المتواطئ الذي اتحد لفظه ومعناه، نظرًا لأصل المعنىٰ؟

والتحقيق أنه نوع من المتواطئ؛ لأن واضع اللغة وضع هذا اللفظ بإزاء القدر المشترك، واختلاف حكمه ومقتضاه إنما هو بحسب الإضافات والقرائن لا بأصل الوضع، لكن لما كانت نوعًا خاصًّا من المتواطئة فلا بأس بتخصيصها بلفظ.



إذا تبين ذلك فقد اتضح أن لفظ المعية المضاف إلىٰ الله مستعمل في حقيقته لا في مجازه، غير أن معية الله لخلقه معية تليق به، فليست كمعية المخلوق للمخلوق؛ بل هي أعلىٰ، وأكمل، ولا يلحقها من اللوازم والخصائص ما يلحق معية المخلوق للمخلوق.

هذا وقد فسّر بعض السّلف معية الله لخلقه: بعلمه بهم، وهذا تفسير للمعية ببعض لوازمها، وغرضهم به: الردّ علىٰ حلولية الجهمية، الذين قالوا: إن الله بذاته في كل مكان، واستدلوا بنصوص المعية، فبيَّن هؤلاء السلف أنه لا يراد من المعية كون الله معنا بذاته؛ فإن هذا محال عقلًا، وشرعًا؛ لأنه ينافي ما وجب من علوه، ويقتضي أن تُحيط به مخلوقاته وهو محال.

أقسام معية الله لخلقه:

تنقسم معية الله لخلقه إلىٰ قسمين: **عامة، وخاصة:**

فالعامة هي: التي تقتضي الإحاطة بجميع الخلق من مؤمن، وكافر وبَر وفاجر، في العلم، والقدرة، والتدبير والسلطان وغير ذلك من معاني الربوبية.

وهذه المعية توجب لمن آمن بها كمال المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك قال النبي ﷺ: «**الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ**».

ومن أمثلة هذا القسم قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ [الحديد: ٤] ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ۖ﴾ [المجادلة: ٧].

وأما الخاصة فهي: التي تقتضي النصر والتأييد لمن أضيفت له. وهي مختصة بمن يستحق ذلك من الرسل وأتباعهم.

وهذه المعية توجب لمن آمن بها كمال الثبات والقوة.

ومن أمثلتها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾ [الأنفال]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل]. ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه]. وقوله عن نبيه ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

فإن قيل: هل المعية من صفات الله الذاتية أو من صفاته الفعلية؟



فالجواب: أن المعية العامة من الصفات الذاتية؛ لأن مقتضياتها ثابتة لله تعالىٰ أزلًا وأبدًا، وأما المعية الخاصة فهي من الصفات الفعلية؛ لأن مقتضياتها تابعة لأسبابها، توجد بوجودها، وتنتفي بانتفائها.



الباب الثَّاني عشر: في الجمع بين نصوص علو الله بذاته ومعيته

قبل أن نذكر الجمع بينهما نُحبّ أن نقدّم قاعدة نافعة أشار إليها المؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «العقل والنقل» وخلاصتها:

أنه إذا قيل بالتعارض بين دليلين، فإما أن يكونا قطعيين، أو ظنيين، أو أحدهما قطعيًّا، والآخر ظنيًّا. **فهذه ثلاثة أقسام:**

الأول: القطعيّان: وهما ما يقطع العقل بثبوت مدلولهما، فالتعارض بينهما محال؛ لأن القول بجواز تعارضهما يستلزم إما وجوب ارتفاع أحدهما وهو محال؛ لأن القطعي واجب الثبوت، وإما ثبوت كل منهما مع التعارض وهو محال أيضًا؛ لأنه جَمْعٌ بين النقيضين.

فإن ظن التعارض بينهما فإما: ألا يكونا قطعيين، وإما ألا يكون بينهما تعارض، بحيث يُحمل أحدهما علىٰ وجه، والثاني علىٰ وجه آخر، ولا يرد علىٰ ذلك ما يثبت نسخه من نصوص الكتاب والسنة القطعية؛ لأن الدليل المنسوخ غير قائم، فلا معارض للناسخ.

الثاني: أن يكونا ظنيين: إما من حيث الدلالة، وإما من حيث الثبوت، فيطلب الترجيح بينهما ثم يقدم الراجح.

الثالث: أن يكون أحدهما قطعيًّا، والآخر ظنيًّا، فيقدم القطعي باتفاق العقلاء؛ لأن اليقين لا يُدفع بالظنّ.

إذا تبين هذا، فنقول: لا ريب أن النصوص قد جاءت بإثبات علو الله بذاته فوق خلقه وأنه معهم، وكل منهما قطعيُّ الثبوت والدلالة. وقد جمع الله بينهما في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد].

ففي هذه الآية أثبت الله تعالىٰ استواءه علىٰ العرش الذي هو أعلىٰ المخلوقات، وأثبت أنه



معنا، وليس بينهما تعارض؛ فإن الجمع بينهما ممكن.

وبيان إمكانه من وجوه:

الأول: أن النصوص جمعت بينهما فيمتنع أن يكون اجتماعهما محالًا؛ لأن النصوص لا تدل علىٰ محال، ومن ظن دلالتها عليه فقد أخطأ فليعد النظر مرة بعد أخرىٰ، مستعينًا بالله، سائلًا منه الهداية والتوفيق، باذلًا جهده في الوصول إلىٰ معرفة الحق. فإن تبين له الحق فليحمد الله علىٰ ذلك، وإلا فليكل الأمر إلىٰ عالمه وليقل: آمنا به كل من عند ربنا، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

الثاني: أنه لا منافاة بين معنىٰ العلو والمعية؛ فإن المعية لا تستلزم الاختلاط والحلول في المكان - كما تقدم -، فقد يكون الشيء عاليًا بذاته، وتضاف إليه المعية كما يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، مع أن القمر في السماء، ولا يعد ذلك تناقضًا لا في اللفظ ولا في المعنىٰ، فإن المخاطب يعرف معنىٰ المعية هنا، وأنه لا يمكن أن يكون مقتضاها أن القمر في الأرض. فإذا جاز اجتماع العلو والمعية في حق المخلوق ففي حق الخالق أولىٰ.

الثالث: أنه لو فرض أن بين معنىٰ العلو والمعية تناقضًا وتعارضًا في حق المخلوق فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق؛ لأن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فلا تقاس معيته بمعية خلقه، ولا تقتضي معيته لهم أن يكون مختلطًا بهم أو حالًّا في أمكنتهم لوجوب علوه بذاته؛ ولأنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته؛ بل هو بكل شيء محيط.

وبنحو هذه الوجوه يمكن الجمع بين ما ثبت من علو الله بذاته وكونه قِبَل وجه المصلي، فيقال: **الجمع بينهما من وجوه:**

الأول: أن النصوص جمعت بينهما، والنصوص لا تأتي بالمحال.

الثاني: أنه لا منافاة بين معنىٰ العلو والمقابلة، فقد يكون الشيء عاليًا وهو مقابل، لأن المقابلة لا تستلزم المحاذاة، ألا ترىٰ أن الرجل ينظر إلىٰ الشمس حال بزوغها فيقول: إنها قِبَل وجهي، مع أنها في السماء، ولا يعد ذلك تناقضًا في اللفظ ولا في المعنىٰ، فإذا جاز هذا في حق المخلوق ففي حق الخالق أولىٰ.

الثالث: أنه لو فرض أن بين معنىٰ العلو والمقابلة تناقضًا وتعارضًا في حق المخلوق فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق؛ لأن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فلا يقتضي



كونه قِبَل وجه المصلي أن يكون في المكان أو الحائط الذي يصلي إليه لوجوب علوه بذاته؛ ولأنه لا يحيط به شيء من المخلوقات، بل هو بكل شيء محيط سبحانه وتعالىٰ.



الباب الثَّالث عشر: في نزول الله إلى السماء الدنيا

في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**».

وقد روىٰ هذا الحديث عن النبي ﷺ، نحو ثمانٍ وعشرين نفسًا من الصحابة رضي الله عنهم، واتفق أهل السنة علىٰ تلقي ذلك بالقبول.

ونزوله تعالىٰ إلىٰ السماء الدنيا من صفاته الفعلية التي تتعلق بمشيئته وحكمته، وهو نزول حقيقي يليق بجلاله وعظمته.

ولا يصحّ تحريف معناه إلىٰ نزول أمره، أو رحمته، أو ملك من ملائكته، فإن هذا باطل لوجوه:

الأول: أنه خلاف ظاهر الحديث؛ لأن النبي ﷺ، أضاف النزول إلىٰ الله، والأصل أن الشيء إنّما يُضاف إلىٰ من وقع منه أو قام به، فإذا صرف إلىٰ غيره كان ذلك تحريفًا يُخالف الأصل.

الثاني: أن تفسيره بذلك يقتضي أن يكون في الكلام شيء محذوف، والأصل عدم الحذف.

الثالث: أن نزول أمره أو رحمته لا يختص بهذا الجزء من الليل، بل أمره ورحمته ينزلان كل وقت.

فإن قيل: المراد نزول أمر خاصّ، ورحمة خاصة، وهذا لا يلزم أن يكون كل وقت.

فالجواب: أنه لو فرض صحة هذا التقدير والتأويل، فإن الحديث يدل علىٰ أن منتهىٰ نزول هذا الشيء هو السماء الدنيا، وأي فائدة لنا في نزول رحمة إلىٰ السماء الدنيا حتىٰ يخبرنا النبي ﷺ عنها؟



الرابع: أن الحديث دلّ علىٰ أن الذي ينزل يقول: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**». ولا يمكن أن يقول ذلك أحد سوىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

فصلٌ: في الجمع بين نصوص علو الله تعالى بذاته

ونزوله إلىٰ السماء الدنيا علو الله تعالىٰ من صفاته الذاتية التي لا يمكن أن ينفكّ عنها، وهو لا يُنافي ما جاءت به النصوص من نزوله إلىٰ السماء الدنيا، والجمع بينهما من وجهين:

الأول: أن النصوص جمعت بينهما، والنصوص لا تأتي بالمحال، كما تقدم.

الثاني: أن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فليس نزوله كنزول المخلوقين حتىٰ يقال: إنه ينافي علوه ويناقضه. والله أعلم..



الباب الرَّابع عشر: في إثبات الوجه لله تعالى

مذهب أهل السنة والجماعة: أن لله وجهًا حقيقيًّا يليق به موصوفًا بالجلال والإكرام.

قد دلّ علىٰ ثبوته لله الكتاب والسنة.

فمن أدلّة الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن].

ومن أدلّة السنة قول النبي ﷺ في الدعاء المأثور: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ**».

فوجه الله تعالىٰ من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة علىٰ الوجه اللائق به.

ولا يصح تحريف معناه إلىٰ الثواب لوجوه منها:

أولًا: أنه خلاف ظاهر النّص، وما كان مخالفًا لظاهر النص فإنه يحتاج إلىٰ دليل، ولا دليل علىٰ ذلك.

ثانيًا: أن هذا الوجه ورد في النصوص مضافًا إلىٰ الله تعالىٰ والمضاف إلىٰ الله إما: أن يكون شيئًا قائمًا بنفسه، وإما أن يكون غير قائم بنفسه، فإن كان قائمًا بنفسه فهو مخلوق، وليس من صفاته كبيت الله، وناقة الله، وإنما أُضيف إليه إما: للتشريف، وإما من باب إضافة المملوك والمخلوق إلىٰ مالكه وخالقه. وإن كان غير قائم بنفسه فهو من صفات الله، وليس



بمخلوق كعلم الله، وقدرته، وعزته، وكلامه، ويده، وعينه ونحو ذلك، والوجه بلا ريب من هذا النوع؛ فإضافته إلىٰ الله من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف.

ثالثًا: أن الثواب مخلوق بائن عن الله تعالىٰ، والوجه صفة من صفات الله غير مخلوق ولا بائن، فكيف يفسر هذا بهذا؟

رابعًا: أن ذلك الوجه وُصِف في النصوص بالجلال والإكرام، وبأن له نورًا يستعاذ به، وسُبُحَات تحرق ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه.

وكل هذه الأوصاف تمنع أن يكون المراد به الثواب. والله أعلم.



الباب الخامس عشر: في يدي الله عَزَّوَجَلَّ

مذهب أهل السنة والجماعة: أن لله تعالىٰ يدين اثنتين، مبسوطتين بالعطاء والنعم، وهما من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة علىٰ الوجه اللائق به.

وقد دلّ علىٰ ثبوتهما الكتاب، والسنة.

فمن أدلّة الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

ومن أدلة السنة قوله ﷺ: «**يَدُ اللهِ مَلْأَىٰ لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**».

وقد أجمع أهل السنة علىٰ أنهما يدان حقيقيتان لا تُشبهان أيدي المخلوقين، ولا يصحّ تحريف معناهما إلىٰ القوة، أو النعمة أو نحو ذلك لوجوه منها:

أولًا: أنه صرف للكلام عن حقيقته إلىٰ مجازه بلا دليل.

ثانيًا: أنه معنىٰ تأباه اللغة في مثل السياق الذي جاءت به مضافة إلىٰ الله تعالىٰ؛ فإن الله قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. ولا يصح أن يكون المعنىٰ: لما خلقت بنعمتي، أو قوتي.

ثالثًا: أنه ورد إضافة اليد إلىٰ الله بصيغة التثنية، ولم يرد في الكتاب والسنة ولا في موضع واحد إضافة النعمة والقوة إلىٰ الله بصيغة التثنية فكيف يفسر هذا بهذا؟

رابعًا: أنه لو كان المراد بهما القوة لصح أن يُقال: إن الله خلق إبليس بيده ونحو ذلك. وهذا ممتنع. ولو كان جائزًا لاحتج به إبليس علىٰ ربه حين قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].



خامسًا: أن اليد التي أضافها الله إلىٰ نفسه وردت علىٰ وجوه تمنع أن يكون المراد بها النعمة، أو القوة فجاءت بلفظ اليد، والكفّ. وجاء إثبات الأصابع لله تعالىٰ، والقبض، والهزّ، كقوله ﷺ: «**يَقْبِضُ اللهُ سَمَاوَاتِهِ بِيَدِهِ، وَالْأَرْضِ بِالْيَدِ الْأُخْرَىٰ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ وَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ**».

وهذه الوجوه تمنع أن يكون المراد بهما النعمة، أو القوة.



الباب السَّادس عشر: في عيني الله تعالى

مذهب أهل السنة والجماعة: أن لله عينين اثنتين، ينظر بهما حقيقة علىٰ الوجه اللائق به، وهما من الصفات الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة.

فمن أدلّة الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤﴾ [القمر].

ومن أدلّة السنة قول النبي ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**».

وقوله: «**يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ**».

وقوله: «**حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**».

فهما عينان حقيقيتان لا تشبهان أعين المخلوقين. ولا يصح تحريف معناهما إلىٰ العلم، والرؤية لوجوه منها:

أولًا: أنه صرف للكلام عن حقيقته إلىٰ مجازه بلا دليل.

ثانيًا: أن في النصوص ما يمنع ذلك، مثل قوله ﷺ: «**يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ**». وقوله: «**لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**». وقوله: «**إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**».



الباب السَّابع عشر: في الوجوه التي وردت عليها صفتا اليدين والعينين

وردت صفتا اليدين، والعينين في النصوص مضافة إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ ثلاثة أوجه: **الإفراد، والتثنية، والجمع**.

فمن أمثلة الإفراد: قوله تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه].

ومن أمثلة الجمع: قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمًا فَهُمۡ



لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس]، وقوله تعالىٰ: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

ومن أمثلة التثنية: قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقول النبي ﷺ: «**إِذَا قَامَ الْعَبْدُ فِي الصَّلَاةِ قَامَ بَيْنَ عَيْنَيِ الرَّحْمَنِ**». هكذا هو في «مختصر الصواعق» عن عطاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولم يَعْزه.

ولم ترد صفة العينين في القرآن بصورة التثنية.

هذه هي الوجوه الثلاثة التي وردت عليها صفتا اليدين والعينين.

والجمع بين هذه الوجوه أن يقال:

إن الإفراد لا ينافي التثنية، ولا الجمع؛ لأن المفرد المضاف يعمّ فيتناول كل ما ثبت لله من يد، أو عين واحدة كانت أو أكثر.

وأما الجمع بين ما جاء بلفظ التثنية وبلفظ الجمع فإن قلنا: أقل الجمع اثنان فلا منافاة أصلًا بين صيغتي التثنية والجمع؛ لاتحاد مدلوليهما.

وإن قلنا: أقل الجمع ثلاثة وهو المشهور فالجمع بينهما أن يقال: إنه لا يراد من صيغة الجمع مدلولها الذي هو ثلاثة فأكثر، وإنما أريد بها - والله أعلم - التعظيم والمناسبة، أعني مناسبة المضاف للمضاف إليه؛ فإن المضاف إليه، وهو «نا» يراد به هنا: التعظيم قطعًا؛ فناسب أن يُؤتىٰ بالمضاف بصيغة الجمع ليناسب المضاف إليه؛ فإن الجمع أدلّ علىٰ التعظيم من الإفراد والتثنية، وإذا كان كل من المضاف والمضاف إليه دالًّا علىٰ التعظيم حصل من بينهما تعظيم أبلغ.



الباب الثَّامن عشر: في كلام الله سبحانه وتعالى

اتفق أهل السنة والجماعة علىٰ أن الله يتكلّم، وأن كلامه صفة حقيقية ثابتة له علىٰ الوجه اللائق به.

وهو سبحانه يتكلم بحرف وصوت، كيف شاء، متىٰ شاء، فكلامه صفة ذات باعتبار جنسه، وصفة فعل باعتبار آحاده.

وقد دل علىٰ هذا القول الكتاب، والسنة.

فمن أدلة الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣].



وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].
وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم].

ففي الآية الأولىٰ: إثبات أن الكلام يتعلق بمشيئته، وأن آحاده حادثة.

وفي الآية الثانية: دليل علىٰ أنه بحرف فإن مقول القول فيها حروف.

وفي الآية الثالثة: دليل علىٰ أنه بصوت إذ لا يعقل النداء والمناجاة إلا بصوت.

ومن أدلة السنة قول النبي ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا آدَمُ؛ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَىٰ النَّارِ**».

وكلامه سبحانه هو اللفظ والمعنىٰ جميعًا، ليس هو اللفظ وحده أو المعنىٰ وحده. هذا هو قول أهل السنة والجماعة في كلام الله تعالىٰ، أما أقوال غيرهم فإليك ملخصها من «مختصر الصواعق المرسلة»:

١ - قول الكَرَّامية: وهو كقول أهل السنة، إلا أنهم قالوا: «إنه حادث بعد أن لم يكن»، فرارًا من إثبات حوادث لا أول لها.

٢ - قول الكُلَّابية: «إنه معنىٰ قائم بذاته لازم لها كلزوم الحياة والعلم، فلا يتعلق بمشيئته، والحروف والأصوات حكاية عنه خلقها الله لتدل علىٰ ذلك المعنىٰ القائم بذاته، وهو أربعة معان: أمر، ونهي، وخبر، واستخبار».

٣ - قول الأشعرية: وهو كقول الكلابية إلا أنهم يخالفونهم في شيئين:

أحدهما: في معاني الكلام، فالكلابية يقولون: «إنه أربعة معان» والأشعرية يقولون: إنه معنىٰ واحد، فالخبر، والاستخبار، والأمر، والنهي كل واحد منها هو عين الآخر، وليست أنواعًا للكلام، بل صفات له، بل التوراة والإنجيل، والقرآن كل واحد منها عين الآخر، لا تختلف إلا بالعبارة.

الثاني: أن الكلابية قالوا: «إن الحروف والأصوات حكاية عن كلام الله». وأما الأشعرية فقالوا: «إنها عبارة عن كلام الله».

٤ - قول السَّالِمية: «أنه صفة قائمة بذاته لازمة لها كلزوم الحياة، والعلم، فلا يتعلّق بمشيئته، وهو حروف وأصوات متقارنة لا يسبق بعضها بعضًا، فالباء والسين والميم في البسملة - مثلًا - كل حرف منها مقارن للآخر في آن واحد، ومع ذلك لم تزل ولا تزال



موجودة».

٥ - قول الجهمية والمعتزلة: «إنه مخلوق من المخلوقات وليس من صفات الله».

ثم من الجهمية من صرح بنفي الكلام عن الله، ومنهم من أقرّ به، وقال: إنه مخلوق.

٦ - قول فلاسفة المتأخرين أتباع أرسطو: «أنه فيض من العقل الفعال علىٰ النفوس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها وقبولها، فيوجب لها تصورات، وتصديقات، بحسب ما قبلته منه، وهذه التصورات والتصديقات المتخيلة تقوىٰ حتىٰ تصور الشيء المعقول صورًا نورانية تخاطبها بكلام تسمعه الآذان».

٧ - قول الاتِحادية: «القائلين بوحدة الوجود: إن كل كلام في الوجود كلام الله» كما قال قائلهم:

وكل كلام فى الوجـــود كلامـــه   ســـواء علينـــا نـــثره ونظامـــه

وكل هذه الأقوال مخالفة لما دل عليه الكتاب، والسنة، والعقل، ومن رزقه الله علمًا وحكمة فهم ذلك.

فصلٌ: في أن القرآن كلام الله

مذهب أهل السنة والجماعة: أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلّم به حقيقة، وألقاه إلىٰ جبريل فنزل به علىٰ قلب محمد ﷺ.

وقد دل علىٰ هذا القولِ الكتاب والسنة.

فمن أدلة الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. يعني القرآن، وقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]، وقوله تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء].

ومن أدلة السنة قوله ﷺ - وهو يعرض نفسه علىٰ الناس في الموقف -: «**أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَىٰ قَوْمِهِ لِأُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ**».

وقوله ﷺ للبراء بن عازب: «**إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا**



مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَىٰ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ».

وقال عمرو بن دينار: «أدركت الناس منذ سبعين سنة، يقولون: الله الخالق وما سواه مخلوق، إلا القرآن فإنه كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود». اهـ.

ومعنىٰ قولهم: «منه بدأ»؛ أن الله تكلم به ابتداء، وفيه رد علىٰ الجهمية القائلين: بأنه خلقه في غيره.

وأما قولهم: «وإليه يعود»؛ فيحتمل معنيين:

أحدهما: أنه تعود صفة الكلام بالقرآن إليه، بمعنىٰ: أن أحدًا لا يوصف بأنه تكلّم به غير الله؛ لأنه هو المتكلّم به، والكلام صفة للمتكلّم.

الثاني: أنه يرفع إلىٰ الله تعالىٰ كما جاء في بعض الآثار أنه يَسري به من المصاحف والصدور، وذلك إنما يقع - والله أعلم - حين يعرض الناس عن العمل بالقرآن إعراضًا كليًّا فيرفع عنهم تكريمًا له. والله المستعان.

فصلٌ: في اللفظ والملفوظ

الكلام في هذا الفصل يتعلّق بالقرآن؛ فإنه قد سبق أن القرآن كلام الله غير مخلوق، لكن اللفظ بالقرآن هل يصح أن نقول: إنه مخلوق، أو غير مخلوق، أو يجب السكوت؟

فالجواب: أن يقال: أن إطلاق القول في هذا نفيًا أو إثباتًا غير صحيح.

وأما عند التفصيل فيقال: إن أُريد باللفظ التلفظ الذي هو فعل العبد فهو مخلوق؛ لأن العبد وفعله مخلوقان، وإن أُريد باللفظ الملفوظ به فهو كلام الله غير مخلوق؛ لأن كلام الله من صفاته، وصفاته غير مخلوقة.

ويشير إلىٰ هذا التفصيل قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق يريد به القرآن؛ فهو جهمي».

فقوله: «يريد به القرآن»؛ يدل علىٰ أنه إن أراد به غير القرآن وهو التلفظ الذي هو فعل الإنسان فليس بجهمي. والله أعلم.



الباب التَّاسع عشر: في ظهور مقالة التعطيل واستمدادها

شاعت مقالة التعطيل بعد القرون المفضلة - الصحابة والتابعين وتابعيهم - وإن كان



أصلها قد نبغ في أواخر عصر التابعين.

وأول من تكلم بالتعطيل الجعد بن درهم. فقال: «إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسىٰ تكليمًا». فقتله خالد بن عبد الله القسري الذي كان واليًا علىٰ العراق لهشام بن عبد الملك، خرج به إلىٰ مصلىٰ العيد بوَثاقه ثم خطب الناس، وقال: «أيها الناس! ضحوا، تقبّل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكلّم موسىٰ تكليمًا»، ثم نزل وذبحه، وذلك في عيد الأضحىٰ سنة ١١٩هـ.

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله في «النونية»:

وَلِأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الْـ ... قَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلَّا وَلَا مُوسَى الْكَلِيمُ الدَّانِي

شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

ثم أخذها عن الجعد رجل يقال له: الجهم بن صفوان، وهو الذي ينسب إليه مذهب الجهمية المعطلة؛ لأنه نشره فقتله سَلم بن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيار، وذلك في خراسان سنة ١٢٨هـ.

وفي حدود المئة الثانية عُربت الكتب اليونانية والرومانية؛ فازداد الأمر بلاء وشدة.

ثم في حدود المئة الثالثة انتشرت مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته الذين أجمع الأئمة علىٰ ذمهم، وأكثرهم كفّروهم أو ضلّلوهم. وصَنّف عثمان بن سعيد الدارمي كتابًا رد به علىٰ المريسي سماه: «نَقْض عثمان بن سعيد علىٰ الكافر العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله من التوحيد» مَن طالع هذا الكتاب بعلم وعدل، تبين له ضعف حجة هؤلاء المعطلة، بل بطلانها، وأن هذه التأويلات التي توجد في كلام كثير من المتأخرين كالرازي، والغزالي، وابن عقيل، وغيرهم هي بعينها تأويلات بشر.

وأما استمداد مقالة التعطيل فكان من اليهود والمشركين وضلال الصابئين والفلاسفة؛ فإن الجعد بن درهم أخذ مقالته - علىٰ ما قيل - من أبان بن سمعان عن طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ.

ثم إن الجعد كان - علىٰ ما قيل - من أرض حَرَّان وفيها خلق كثير من المشركين



والصابئة والفلاسفة، ولا ريب أن للبيئة تأثيرًا قويًّا في عقيدة الإنسان وأخلاقه.

وكان مذهب النفاة من هؤلاء أن الله ليس له صفات ثبوتية؛ لأن ثبوت الصفات يقتضي - علىٰ زعمهم - أن الله مشابه لخلقه، وإنما يثبتون له صفات سلبية، أو إضافية، أو مركبة منهما.

فالسلبية: ما كان مدلولها عدم أمر لا يليق بالله عَزَّوَجَلَّ مثل قولهم: «إن الله واحد» بمعنىٰ أنه مسلوب عنه القسمة بالْكَمّ، أو القول، ومسلوب عنه الشريك.

والإضافية: هي التي لا يوصف الله بها علىٰ أنها صفة ثابتة له، ولكن يوصف بها باعتبار إضافتها إلىٰ الغير، كقولهم عن الله تعالىٰ: «إنه مبدأ وعلة» فهو مبدأ وعلة، باعتبار أن الأشياء صدرت منه، لا باعتبار صفة ثابتة له هي البداء والعلية.

والمركبة منها هي: التي تكون سلبية باعتبار، وإضافية باعتبار، كقولهم عن الله تعالىٰ: «أنه أول» فهي سلبية باعتبار أنه مسلوب عنه الحدوث إضافية باعتبار أن الأشياء بعده.

فإذا كان هذا هو ما تستمد منه طريقة النفاة فكيف تطيب نفس مؤمن أو عاقل أن يأخذ به ويترك سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين؟



الباب العشرون: في طريقة النفاة فيما يجب إثباته أو نفيه من صفات الله

اتفق النفاة علىٰ أن يُثبتوا لله من الصفات ما اقتضت عقولهم إثباته، وأن ينفوا عنه ما اقتضت عقولهم نفيه، سواء وافق الكتاب والسنة، أم خالفهما، فطريق إثبات الصفات لله أو نفيها عنه عندهم هو العقل.

ثم اختلفوا فيما لا يقتضي العقل إثباته، أو نفيه، فأكثرهم نفوه وخرجوا ما جاء منه علىٰ المجاز، وبعضهم توقف فيه وفوض علمه إلىٰ الله مع نفي دلالته علىٰ شيء من الصفات.

وهم يزعمون أنهم وَفقوا بهذه الطريقة بين الأدلة العقلية والنقلية، ولكنهم كذبوا في ذلك؛ لأن الأدلة العقلية والنقلية متفقة علىٰ إثبات صفات الكمال لله، وكل ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله، فإنه لا يخالف العقل، وإن كان العقل يعجز عن إدراك التفصيل في ذلك.

وقد شابه هؤلاء النفاة في طريقتهم طريقة من قال الله فيهم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء].

ووجه مشابهتهم لهم من وجوه:

الأول: أن كل واحد من الفريقين يزعم أنّه مؤمن بما أنزل علىٰ النبي ﷺ، مع أنهم لا يقبلون كل ما جاء به.

الثاني: أن هؤلاء النفاة إذا دعوا إلىٰ ما جاء به الكتاب والسنة من إثبات صفات الكمال لله أعرضوا وامتنعوا، كما أن أولئك المنافقين إذا قيل لهم: تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول؛ صدّوا وأعرضوا.

الثالث: أن هؤلاء النفاة لهم طواغيت يقلدونهم ويقدمونهم علىٰ ما جاءت به الرسل، ويريدون أن يكون التحاكم عند النزاع إليهم لا إلىٰ الكتاب والسنة، كما أن أولئك المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوت، وقد أُمروا أن يكفروا به.

الرابع: أن هؤلاء النفاة زعموا أنهم أرادوا بطريقتهم هذه عملًا حسنًا، وتوفيقًا بين العقل والسمع، كما أن أولئك المنافقين يحلفون أنهم ما أرادوا إلا إحسانًا وتوفيقًا.

وكل مبطل يتستر في باطله، ويتظاهر بالحق فإنه يأتي بالدعاوىٰ الباطلة التي يروج بها باطله، ولكن من وهبه الله علمًا، وفهمًا، وحكمة، وحسن قصد فإنه لا يلتبس عليه الباطل، ولا تروج عليه الدعاوىٰ الكاذبة. والله المستعان.

فصلٌ: فيما يلزم على طريقة النفاة من اللوازم الباطلة

يلزم علىٰ طريقة النفاة لوازم باطلة منها:

أولًا: أنّ الكتاب والسنة صرحا بالكفر والدعوة إليه؛ لأنهما مملوءان من إثبات صفات الله التي زعم هؤلاء النفاة أن إثباتها تشبيه وكفر.

ثانيًا: أن الكتاب والسنة لم يُبينا الحقّ؛ لأن الحقّ عند هؤلاء هو نفي الصفات، وليس في



الكتاب ولا في السنة ما يدلّ علىٰ نفي صفات الكمال عن الله لا نصًّا، ولا ظاهرًا.

وغاية المتحذلق من هؤلاء أن يستنتج ذلك من مثل قوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

ومن المعلوم لكل عاقل أن المقصود من أمثال هذه النصوص إثبات كمال الله تعالىٰ، وأنه لا شبيه له في صفاته، ولا يمكن أن يُراد بها بيان انتفاء الصفات عنه، إذ لا ريب أن من دلّ الناس علىٰ انتفاء الصفات عن الله بمثل هذا الكلام، فهو إما مُلْغز في كلامه، أو مدلس، أو عاجز عن البيان، وكل هذه الأمور ممتنعة في كلام الله تعالىٰ، وكلام رسوله ﷺ، فإن كلامهما قد تضمّن كمال البيان والإرادة، فليس المقصود به إرادة ضلال الخلق والتعمية عليهم، وليس فيه نقص في البيان والفصاحة.

ثالثًا: إن السابقين الأولين من المهاجرين، والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان كانوا قائلين بالباطل وكاتمين للحق، أو جاهلين به؛ فإنه قد تواتر النقل عنهم بإثبات صفات الكمال لله، الذي زعم هؤلاء أنه باطل، ولم يتكلموا مرة واحدة بنفي الصفات الذي زعم هؤلاء أنه الحق، وهذا اللازم ممتنع علىٰ خير القرون وأفضل الأمة.

رابعًا: أنه إذا انتفت صفة الكمال عن الله لزم أن يكون متصفًا بصفات النقص، فإن كل موجود في الخارج فلا بد له من صفة، فإذا انتفت عنه صفات الكمال لزم أن يكون متصفًا بصفات النقص، وبهذا ينعكس الأمر علىٰ هؤلاء النفاة، ويقعون في شرّ مما فروا منه.

فصلٌ: فيما يعتمد عليه النفاة من الشبهات

يعتمد نفاة الصفات علىٰ شبهات باطلة يعرف بطلانها كل من رزقه الله علمًا صحيحًا، وفهمًا سليمًا.

وغالب ما يعتمدون عليه ما يأتي:

١ - دعوىٰ كاذبة مثل أن يدعي الإجماع علىٰ قوله، أو أنه هو التحقيق، أو أنه قول المحققين، أو أن قول خصمه خلاف الإجماع، ونحو ذلك.

٢ - شبهة مركبة من قياس فاسد، مثل قولهم: إثبات الصفات لله يستلزم التشبيه، لأن الصفات، أعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم، والأجسام متماثلة.



٣ - تمسك بألفاظ مشتركة بين معان يصحّ نسبتها إلىٰ الله تعالىٰ ومعان لا يصح نسبتها إليه. مثل: الجسم، والحيز، والجهة، فهذه الألفاظ المجملة يتوصلون بإطلاق نفيها عن الله إلىٰ نفي صفاته عنه ثم هم يصوغون هذه الشّبهات بعبارات مزخرفة طويلة غريبة يحسبها الجاهل بها حقًّا بما كسيته من زخارف القول، فإذا حقق الأمر تبين له أنها شبهات باطلة، كما قيل:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ

والرد علىٰ هؤلاء من وجوه:

الأول: نقض شبهاتهم وحججهم، وأنه يلزمهم فيما أثبتوه نظير ما فروا منه فيما نفوه.

الثاني: بيان تناقض أقوالهم واضطرابها، حيث كان كل طائفة منهم تدعي أن العقل يوجب ما تدعي الأخرىٰ أنه يمنعه ونحو ذلك، بل الواحد منهم ربما يقول قولاً يدعي أن العقل يوجبه، ثم ينقضه في محل آخر، وتناقض الأقوال من أقوىٰ الأدلة علىٰ فسادها.

الثالث: بيان ما يلزم علىٰ نفيهم من اللوازم الباطلة فإن فساد اللازم يدل علىٰ فساد الملزوم.

الرابع: أن النصوص الواردة في الصفات لا تحتمل التأويل، ولئن احتمله بعضها فليس فيه ما يمنع إرادة الظاهر فتعين المصير إليه.

الخامس: أن عامة هذه الأمور من الصفات يعلم بالضرورة من دين الإسلام أن الرسول ﷺ جاء بها، فتأويلها بمنزلة تأويل القرامطة والباطنية للصلاة، والصوم، والحج، ونحو ذلك.

السادس: أن العقل الصريح - أي: السالم من الشبهات، والشهوات - لا يُحيل ما جاءت به النصوص من صفات الله، بل إنه يدل علىٰ ثبوت صفات الكمال لله في الجملة، وإن كان في النصوص من التفاصيل في هذا الباب ما تعجز العقول عن إدراكه والإحاطة به.

وقد اعترف الفحول من هؤلاء أن العقل لا يمكنه الوصول إلىٰ اليقين في عامة المطالب الإلهية، وعلىٰ هذا فالواجب تلقّي ذلك من النبوات علىٰ ما هو عليه من غير تحريف. والله أعلم.





الباب الحادي والعشرون: في أن كل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل قد جمع بين التعطيل والتمثيل

المعطل: هو من نفىٰ شيئًا من أسماء الله، أو صفاته، كالجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم.

والممثل: هو من أثبت الصفات لله ممثلًا له بخلقه، كمتقدمي الرافضة ونحوهم.

وحقيقة الأمر أن كل معطّل ممثّل، وكل ممثل معطل.

أما المعطل فتعطيله ظاهر؛ وأما تمثيله فوجهه: أنه إنما عطّل؛ لأنه اعتقد أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه، فأخذ ينفي الصفات فرارًا من ذلك، فمثّل أولًا، وعطّل ثانيًا.

وأما الممثل فتمثيله ظاهر، وأما تعطيله فمن وجوه ثلاثة:

أحدها: أنه عطّل نفس النص الذي أثبت به الصفة حيث صرفه عن مقتضىٰ ما يدل عليه؛ فإن النص دال علىٰ إثبات صفة تليق بالله، لا علىٰ مشابهة الله لخلقه.

الثاني: أنه إذا مثّل الله بخلقه فقد عطّل كل نصّ يدل علىٰ نفي مشابهته لخلقه، مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص].

الثالث: أنه إذا مثّل الله بخلقه فقد عطله عن كماله الواجب، حيث شبّه الرب الكامل من جميع الوجوه بالمخلوق الناقص.



الباب الثّاني والعشرون: في تحذير السلف عن علم الكلام

علم الكلام هو: ما أحدثه المتكلّمون في أصول الدين من إثبات العقائد بالطرق التي ابتكروها، وأعرضوا بها عما جاء الكتاب والسنة به، وقد تنوعت عبارات السلف في التحذير عن الكلام وأهله، لما يفضي إليه من الشّبهات والشّكوك، حتىٰ قال الإمام أحمد: «لا يفلح صاحب كلام أبدًا». وقال الشافعي: «حُكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، والنعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل علىٰ علم الكلام» اهـ.



وهم مستحقون لما قاله الإمام الشافعي من وجه؛ ليتوبوا إلىٰ الله، ويرتدع غيرهم عن اتباع مذهبهم، وإذا نظرنا إليهم من وجه آخر، وقد استولت عليهم الحيرة، واستحوذ عليهم الشيطان، فإننا نرحمهم ونرقّ لهم، ونحمد الله الذي عافانا مما ابتلاهم به.

فلنا فيهم نظران: نظر من جهة الشرع: نؤدبهم ونمنعهم به من نشر مذهبهم.

ونظر من جهة القدر: نرحمهم، ونسأل الله لهم العافية، ونحمد الله الذي عافانا من حالهم.

وأكثر من يخاف عليهم الضلال هم الذين دخلوا في علم الكلام ولم يصلوا إلىٰ غايته.

ووجه ذلك أن من لم يدخل فيه فهو في عافية، ومن وصل إلىٰ غايته فقد تبين له فساده، ورجع إلىٰ الكتاب والسنة، كما جرىٰ لبعض كبارهم فيبقىٰ الخطر علىٰ من خرج عن الصّراط المستقيم، ولم يتبين له حقيقة الأمر.

وقد نقل المؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الفتوىٰ كثيرًا من كلام من تكلم في هذا الباب من المتكلمين: قال: «وإن كنا مستغنين بالكتاب والسنة وآثار السلف عن كل كلام، ولكن كثيرًا من الناس قد صار منتسبًا إلىٰ بعض طوائف المتكلمين ومحسنًا للظن بهم دون غيرهم، ومتوهّمًا أنهم حقّقوا في هذا الباب ما لم يحقّقه غيرهم، فلو أتىٰ بكل آية ما تبعها حتىٰ يؤتىٰ بشيء من كلامهم». ثم قال: «وليس كل من ذكرنا قوله من المتكلمين وغيرهم، نقول بجميع ما يقوله في هذا وغيره، ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به». اهـ.

فبيّن رحمه الله أن الغرض من نقله بيان الحق من أي إنسان، وإقامة الحجة علىٰ هؤلاء من كلام أئمتهم. والله أعلم.



الباب الثَّالث والعشرون: في أقسام المنحرفين عن الاستقامة في باب الإيمان بالله واليوم الآخر

طريقة النبي ﷺ، وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان علىٰ الصراط المستقيم علمًا، وعملًا، يعرف ذلك من تتبعها بعلم وعدل، فقد حقّقوا الإيمان بالله واليوم الآخر، وأقرّوا بأن ذلك حق علىٰ حقيقته، وهم في عملهم مخلصون لله، متّبعون لشرعه، فلا شرك، ولا ابتداع، ولا تحريف، ولا تكذيب.

وأما المنحرفون عن طريقتهم فهم ثلاث طوائف:



أهل التخييل، وأهل التأويل، وأهل التجهيل.

١ - **فأما أهل التخييل**: فهم الفلاسفة، والباطنية، ومن سلك سبيلهم من المتكلمين وغيرهم. وحقيقة مذهبهم: أن ما جاءت به الأنبياء مما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر أمثال وتخييلات لا حقيقة لها في الواقع، وإنما المقصود بها انتفاع العامة وجمهور الناس؛ لأن الناس إذا قيل لهم: إن لكم ربًّا عظيمًا، قادرًا رحيمًا، قاهرًا، وإن أمامكم يومًا عظيمًا تبعثون فيه، وتُجازون بأعمالكم، ونحو ذلك استقاموا علىٰ الطريقة المطلوبة منهم، وإن كان هذا لا حقيقة له علىٰ زعم هؤلاء.

ثم إن هؤلاء علىٰ قسمين: غلاة، وغير غلاة.

فأما الغلاة فيزعمون: أن الأنبياء لا يعلمون حقائق هذه الأمور، وأن من المتفلسفة الإلهية - ومن يزعمونهم أولياء - من يعلم هذه الحقائق، فزعموا أن من الفلاسفة من هو أعلم بالله واليوم الآخر من النبيين الذين هم أعلم الناس بذلك.

وأما غير الغلاة فيزعمون أن الأنبياء يعلمون حقائق هذه الأمور، ولكنهم ذكروا للناس أمورًا تخييلية لا تُطابق الحق؛ لتقوم مصلحة الناس، فزعموا أن مصلحة العباد لا تقوم إلا بهذه الطريقة التي تتضمن كذب الأنبياء في أعظم الأمور وأهمها.

فالطائفة الأولىٰ حكمت علىٰ الرسل بالجهل. والطائفة الثانية حكمت عليهم بالخيانة والكذب.

هذا هو قول أهل التخييل فيما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر.

أما في الأعمال فمنهم من يجعلها حقائق يؤمر بها كل أحد، ومنهم من يجعلها تخييلات ورموزًا يؤمر بها العامة دون الخاصة، فيؤولون الصلاة بمعرفة أسرارهم، والصيام بكتمانها، والحج بالسفر إلىٰ شيوخهم ونحو ذلك. وهؤلاء هم الملاحدة من الإسماعيلية والباطنية ونحوهم.

وفساد قول هؤلاء معلوم بضرورة الحس، والعقل، والشرع فإننا نشاهد من الآيات الدالة علىٰ وجود الله وكمال صفاته ما لا يمكن حصره:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ



فإن هذه الحوادث المنتظمة لا يمكن أن تحدث إلا بمدبر حكيم قادر علىٰ كل شيء.

والإيمان باليوم الآخر دلت عليه جميع الشرائع، واقتضته حكمة الله البالغة، ولا ينكره إلا مكابر، أو مجنون.

وأهل التخييل لا يحتاجون في الرد عليهم إلىٰ شيء كثير؛ لأن نفور الناس عنهم معلوم ظاهر.

٢ - **وأما أهل التأويل فهم**: المتكلمون من الجهمية والمعتزلة وأتباعهم وحقيقة مذهبهم أن ما جاء به النبي ﷺ، من نصوص الصفات مَجَازٌ لم يقصد به ظاهره، وإنما المقصود به معان تُخالفه، يعلمها النبي ﷺ، لكنه تركها للناس يستنتجونها بعقولهم، ثم يحاولون صرف ظواهر النصوص إليها، وغرضه بذلك امتحان عقولهم، وكثرة الثواب بما يعانونه من محاولة صرف الكلام عن ظاهره، وتنزيله علىٰ شواذ اللغة وغرائب الكلام.

وهؤلاء هم أكثر الناس اضطرابًا وتناقضًا؛ لأنهم ليس لهم قدم ثابت فيما يمكن تأويله وما لا يمكن، ولا في تعيين المعنىٰ المراد.

ثم إن غالب ما يزعمونه من المعاني يعلم من حال المتكلم وسياق كلامه أنه لم يرده في ذلك الخطاب المعين الذي أولوه.

وهؤلاء كانوا يتظاهرون بنصر السنة، ويتسترون بالتنزيه، ولكن الله تعالىٰ هتك أستارهم برد شبهاتهم ودحض حججهم، فلقد تصدىٰ شيخ الإسلام وغيره للرد عليهم أكثر من غيرهم؛ لأن الاغترار بهم أكثر من الاغترار بغيرهم؛ لما يتظاهرون به من نصر السنة.

فصلٌ

مذهب أهل التأويل في نصوص المعاد: الإيمان بها علىٰ حقيقتها من غير تأويل، ولما كان مذهبهم في نصوص الصفات صرفها عن حقائقها إلىٰ معانٍ مجازية تُخالف ظاهرها، استطال عليهم أهل التخييل فألزموهم القول بتأويل نصوص المعاد كما فعلوا في نصوص الصفات. فقال أهل التأويل لهم: نحن نعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ، جاء بإثبات المعاد، وقد علمنا فساد الشبهة المانعة منه، فلزم القول بثبوته. اهـ.



وهذا جواب صحيح، وحجة قاطعة، تتضمن الدفاع عنهم في عدم تأويلهم نصوص المعاد وإلزام أهل التخييل أن يقولوا بإثبات المعاد، وإجراء نصوصه علىٰ حقائقها؛ لأنه إذا قام الدليل، وانتفىٰ المانع وجب ثبوت المدلول.

وقد احتج أهل السنة علىٰ أهل التأويل بهذه الحجة نفسها؛ ليقولوا بثبوت الصفات وإجراء نصوصها علىٰ حقيقتها، فقالوا لأهل التأويل: «نحن نعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ، جاء بإثبات الصفات لله، وقد علمنا فساد الشبهة المانعة منه، فلزم القول بثبوتها». وهذا إلزام صحيح وحجة قائمة لا محيد لأهل التأويل عنها؛ فإن من منع صرف الكلام عن حقيقته في نصوص المعاد يلزمه أن يمنعه في نصوص الصفات التي هي أعظم وأكثر إثباتًا في الكتب الإلهية من إثبات المعاد، وإن لم يفعل فقد تبين تناقضه وفساد عقله..

فصلٌ

٣ - **وأما أهل التجهيل فهم**: كثير من المنتسبين إلىٰ السنة وأتباع السلف.

وحقيقة مذهبهم: أن ما جاء به النبي ﷺ، من نصوص الصفات ألفاظ مجهولة لا يعرف معناه حتىٰ النبي ﷺ، يتكلّم بأحاديث الصفات، ولا يعرف معناها.

ثم هم مع ذلك يقولون: ليس للعقل مدخل في باب الصفات. فيلزم علىٰ قولهم ألا يكون عند النبي ﷺ، وأصحابه وأئمة السلف في هذا الباب علوم عقلية ولا سمعية، وهذا من أبطل الأقوال.

وطريقتهم في نصوص الصفات: إمرار لفظها مع تفويض معناها، ومنهم من يتناقض فيقول: تجري علىٰ ظاهرها مع أن لها تأويلًا يخالفه لا يعلمه إلا الله، وهذا ظاهر التناقض، فإنه إذا كان المقصود بها التأويل الذي يخالف الظاهر وهو لا يعلمه إلا الله، فكيف يمكن إجراؤها علىٰ ظاهرها؟

وقد قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن طريقة هؤلاء في كتاب «العقل والنقل» ص١٢١ ج١: «فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد» اهـ.

والشبهة التي احتج بها أهل التجهيل هي وقف أكثر السلف علىٰ ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ من قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ



وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧].

وقد بنوا شبهتهم علىٰ مقدمتين:

الأولىٰ: أن آيات الصفات من المتشابه.

الثانية: أن التأويل المذكور في الآية: هو صرف اللفظ عن ظاهره إلىٰ المعنىٰ الذي يخالف الظاهر، فتكون النتيجة أن لآيات الصفات معنىٰ يُخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن نسألهم ماذا يُريدون بالتشابه الذي أطلقوه علىٰ آيات الصفات. أيُريدون اشتباه المعنىٰ وخفاءه، أم يُريدون اشتباه الحقيقة وخفاءها؟

فإن أرادوا المعنىٰ الأول - وهو مرادهم - فليست آيات الصفات منه لأنها ظاهرة المعنىٰ، وإن أرادوا المعنىٰ الثاني فآيات الصفات منه، لأنه لا يعلم حقيقتها وكيفيتها إلا الله تعالىٰ. وبهذا عرف أنه لا يصحّ إطلاق التشابه علىٰ آيات الصفات، بل لا بد من التفصيل السابق.

الثاني: أن قولهم: «إن التأويل المذكور في الآية هو صرف اللفظ عن ظاهره إلىٰ المعنىٰ الذي يُخالف الظاهر»؛ غير صحيح، فإن هذا المعنىٰ للتأويل اصطلاح حادث لم يعرفه العرب والصحابة الذين نزل القرآن بلغتهم، وإنما المعروف عندهم أن التأويل يراد به معنيان:

١ - إما التفسير ويكون التأويل علىٰ هذا معلومًا لأولي العلم، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» وعليه يحمل وقف كثير من السلف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]. من الآية السابقة.

٢ - وأما حقيقة الشيء ومآله، وعلىٰ هذا يكون تأويل ما أخبر الله به عن نفسه، وعن اليوم الآخر غير معلوم لنا؛ لأن ذلك هو الحقيقة والكيفية التي هو عليها، وهو مجهول لنا، كما قاله مالك وغيره في الاستواء وغيره، وعليه يحمل وقف جمهور السلف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٧] من الآية السابقة.

الوجه الثالث: أن الله أنزل القرآن للتدبّر، وحثنا علىٰ تدبره كله، ولم يستثن آيات الصفات، والحثّ علىٰ تدبره يقتضي أنه يمكن الوصول إلىٰ معناه وإلا لم يكن للحث علىٰ



تدبره معنىٰ؛ لأن الحث علىٰ شيء لا يمكن الوصول إليه لغو من القول، ينزه كلام الله وكلام رسوله ﷺ عنه، وهذا - أعني الحث علىٰ تدبره كله من غير استثناء - يدل علىٰ أن لآيات الصفات معنىٰ يمكن الوصول إليه بالتدبر، وأقرب الناس إلىٰ فهم ذلك المعنىٰ هو النبي ﷺ، وأصحابه؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، ولأنّهم أسرع الناس إلىٰ امتثال الحثّ علىٰ التدبّر خصوصًا فيما هو أهم مقاصد الدين.

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ، عشر آيات لا يتجاوزونها حتىٰ يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، قال: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعًا، فكيف يجوز مع هذا أن يكونوا جاهلين بمعاني نصوص الصفات التي هي أهم شيء في الدين؟

الرابع: أن قولهم يستلزم أن يكون الله قد أنزل في كتابه المبين ألفاظًا جوفاء لا يبين بها الحق، وإنما هي بمنزلة الحروف الهجائية والأبجدية، وهذا ينافي حكمة الله التي أنزل الله الكتاب، وأرسل الرسول من أجلها.

تنبيه: عُلم مما سبق أن معاني التأويل ثلاثة:

الأول: التفسير وهو إيضاح المعنىٰ وبيانه، وهذا اصطلاح جمهور المفسرين، ومنه قوله ﷺ لابن عباس: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**» وهذا معلوم عند العلماء في آيات الصفات وغيرها.

الثاني: الحقيقة التي يؤول الشيء إليها، وهذا هو المعروف من معنىٰ التأويل في الكتاب والسنة، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء]. فتأويل آيات الصفات بهذا المعنىٰ هو الكُنه والحقيقة التي هي عليها، وهذا لا يعلمه إلا الله.

الثالث: صرف اللفظ عن ظاهره إلىٰ المعنىٰ الذي يُخالف الظاهر، وهو اصطلاح المتأخرين من المتكلمين وغيرهم. وهذان نوعان؛ صحيح وفاسد:

فالصحيح: ما دلّ الدليل عليه، مثل تأويل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل]. إلىٰ أن المعنىٰ إذا أردت أن تقرأ.



والفاسد: ما لا دليل عليه؛ كتأويل استواء الله علىٰ عرشه باستيلائه، ويده بقوته ونعمته، ونحو ذلك.

فصلٌ

روي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: «تفسير القرآن علىٰ أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، فمن ادعىٰ علمه فهو كاذب». اهـ.

١ - **فالتفسير الذي تعرفه العرب من كلامها هو**: تفسير مفردات اللغة، كمعرفة معنىٰ القرء، والنمارق، والكهف ونحوها.

٢ - **والتفسير الذي لا يُعذر أحد بجهالته وهو**: تفسير الآيات المكلّف بها اعتقادًا، أو عملًا، كمعرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة اليوم الآخر، والطهارة، والصلاة، والزكاة، وغيرها.

٣ - **والتفسير الذي يعلمه العلماء هو**: ما يخفىٰ علىٰ غيرهم مما يمكن الوصول إلىٰ معرفته، كمعرفة أسباب النزول، والناسخ، والمنسوخ، والعام، والخاص، والمحكم، والمتشابه، ونحو ذلك.

٤ - **وأما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله فهو**: حقائق ما أخبر الله به عن نفسه، وعن اليوم الآخر، فإن هذه الأشياء نفهم معناها، لكن لا ندرك حقيقة ما هي عليه في الواقع.

مثال ذلك: أننا نفهم معنىٰ استواء الله علىٰ عرشه، ولكننا لا ندرك كيفيته التي هي حقيقة ما هو عليه في الواقع، وكذلك نفهم معنىٰ الفاكهة والعسل، والماء، واللبن، وغيرها مما أخبر الله أنه في الجنة، ولكن لا ندرك حقيقته في الواقع، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة]. قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء».

وبهذا تبين أن في القرآن ما لا يعلم تأويله إلا الله؛ كحقائق أسمائه، وصفاته، وما أخبر الله به عن اليوم الآخر، وأما معاني هذه الأشياء فإنها معلومة لنا، وإلا لَمَا كان للخطاب بها فائدة. والله أعلم.





الباب الرَّابع والعشرون: في انقسام أهل القبلة في آيات الصفات وأحاديثها

المراد بأهل القبلة: من يصلي إلىٰ القبلة، وهم كل من ينتسب إلىٰ الإسلام.

وقد انقسم أهل القبلة في آيات الصفات وأحاديثها إلىٰ ست طوائف:

طائفتان قالوا: تُجرىٰ علىٰ ظاهرها.

وطائفتان قالوا: تُجرىٰ علىٰ خلاف ظاهرها.

وطائفتان واقفتان.

فالطائفتان الذين قالوا: تجرىٰ علىٰ ظاهرها، هم:

١ - طائفة المشبهة الذين جعلوها من جنس صفات المخلوقين. ومذهبهم باطل؛ أنكره عليهم السلف.

٢ - طائفة السلف الذين أجروها علىٰ ظاهرها اللائق بالله عَزَّوَجَلَّ، ومذهبهم هو الصواب المقطوع به لدلالة الكتاب والسنة والعقل عليه دلالة ظاهرة. إما قطعية، وإما ظنية، كما تقدم دليل وجوبها وصحتها في البابين: الثالث والرابع.

والفرق بين هاتين الطائفتين، أن الأولىٰ تقول بالتشبيه، والثانية تنكره.

فإن قال المشبه في علم الله ونزوله ويده - مثلًا -: أنا لا أعقل من العلم والنزول، واليد إلا مثل ما يكون للمخلوق من ذلك. فجوابه من وجوه:

الأول: أن العقل، والسمع قد دلّ كل منهما علىٰ مباينة الخالق للمخلوق في جميع صفاته، فصفات الخالق تليق به، وصفات المخلوق تليق به، فمن أدلة السمع علىٰ مباينة الخالق للمخلوق قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل]. ومن أدلة العقل أن يقال: كيف يكون الخالق الكامل من جميع الوجوه، الذي الكمال من لوازم ذاته، وهو معطي الكمال مشابهًا للمخلوق الناقص، الذي النقص من لوازم ذاته، وهو مفتقر إلىٰ من يكمِّله؟

الثاني: أن يُقال له: ألست تعقل لله ذاتًا لا تشبه ذات المخلوقين؟ فسيقول: بلىٰ! فيقال له: فلتعقل إذن أن لله صفاتٍ لا تشبه صفات المخلوقين؛ فإن القول في الصفات كالقول في الذات، ومن فرق بينهما فقد تناقض.

الثالث: أن يُقال: نحن نشاهد من صفات المخلوقات صفات اتفقت في أسمائها، وتباينت



في كيفيتها؛ فليست يد الإنسان كيد الحيوان الآخر، فإذا جاز اختلاف الكيفية في صفات المخلوقات مع اتحادها في الاسم؛ فاختلاف ذلك بين صفات الخالق والمخلوق من باب أولىٰ، بل التباين بين صفات الخالق والمخلوق واجب كما تقدم.

وأما الطائفتان الذين قالوا: تُجرىٰ علىٰ خلاف ظاهرها، وأنكروا أن يكون لله صفات ثبوتية، أو أنكروا بعض الصفات، أو أثبتوا الأحوال دون الصفات فهم:

١ - أهل التأويل من الجهمية وغيرهم الذين أوّلُوا نصوص الصفات إلىٰ معانٍ عينوها، كتأويلهم اليد بالنعمة، والاستواء بالاستيلاء، ونحو ذلك.

٢ - أهل التجهيل المفوضة الذين قالوا: الله أعلم بما أراد بنصوص الصفات، لكننا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجية له تعالىٰ، وهذا القول متناقض. فإن قولهم: نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجية له يناقض التفويض؛ لأن حقيقة التفويض ألا يحكم المفوض بنفي ولا إثبات، وهذا ظاهر.

والفرق بين هاتين الطائفتين: أن الأولىٰ أثبتوا لنصوص الصفات معنىٰ، لكنه خلاف ظاهرها، وأما الثانية فيفوضون ذلك إلىٰ الله من غير إثبات معنىٰ، مع قولهم: «أنه لا يراد من تلك النصوص إثبات صفة لله عَزَّوَجَلَّ».

وأما الطائفتان الذين توقفوا فهم:

١ - طائفة جوزوا أن يكون المراد بنصوص الصفات إثبات صفة تليق بالله، وألا يكون المراد ذلك، وهؤلاء كثير من الفقهاء وغيرهم.

٢ - طائفة أعرضوا بقلوبهم وألسنتهم عن هذا كله، ولم يزيدوا علىٰ قراءة القرآن والحديث.

والفرق بين هذه الطائفة والتي قبلها: أن الأولىٰ تحكم بتجويز الأمرين: الإثبات وعدمه. وأما الثانية، فلا تحكم بشيء أبدًا. والله أعلم.



الباب الخامس والعشرون: في ألقاب السوء التي وضعها المبتدعة على أهل السنة

من حكمة الله تعالىٰ أن جعل لكل نبي عدوًّا من المجرمين، يصدون عن الحق بما استطاعوا من قول وفعل، بأنواع المكائد، والشبهات، والدعاوىٰ الباطلة؛ ليتبين بذلك



الحق، ويتضح ويعلو على الباطل، وقد لقي النبي ﷺ، وأصحابه من هذا شيئًا كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. فقد وضع أولئك الظالمون المشركون للنبي ﷺ، وأصحابه ألقاب التشنيع والسخرية. مثل: ساحر، مجنون، كاهن، كذّاب، ونحو ذلك.

ولما كان أهل العلم والإيمان هم ورثة النبي ﷺ، لقوا من أهل الكلام والبدع، مثل ما لقيه النبي ﷺ، وأصحابه من أولئك المشركين، فكانت كل طائفة من هذه الطوائف تلقّب أهل السنة بما برأهم الله منه من ألقاب التشنيع والسخرية، إما لجهلهم بالحق، حيث ظنوا صحة ما هم عليه وبطلان ما عليه أهل السنة، وإما لسوء القصد حيث أرادوا بذلك التنفير عن أهل السنة، والتعصب لآرائهم مع علمهم بفسادها.

فالجهمية ومن تبعهم من المعطلة سَمُّوا أهل السنة «مشبهة»، زعمًا منهم أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه.

والروافض سَمُّوا أهل السنة «نواصب»؛ لأنهم يُوالون أبا بكر وعمر، كما كانوا يوالون آل النبي ﷺ، والروافض تزعم أن من والىٰ أبا بكر وعمر فقد نصب العداوة لآل البيت، ولذلك كانوا يقولون: «لا ولاء إلا ببراء». أي لا ولاية لآل البيت إلا بالبراءة من أبي بكر وعمر.

والقدرية النفاة قالوا: أهل السنة «مجْبِرة»، لأن إثبات القدر جبر عند هؤلاء النفاة.

والمرجئة المانعون من الاستثناء في الإيمان يسمون أهل السنة «شكاكًا»؛ لأن الإيمان عندهم هو إقرار القلب، والاستثناء شك فيه عند هؤلاء المرجئة.

وأهل الكلام والمنطق يُسمون أهل السنة «حَشوية». من الحشو، وهو: ما لا خير فيه، ويسمونهم «نوابت». وهي بذور الزرع التي تنبت معه ولا خير فيها. ويسمونهم «غُثاء». وهو ما تحمله الأودية من الأوساخ، لأن هؤلاء المناطقة زعموا أن من لم يحط علمًا بالمنطق فليس على يقين من أمره، بل هو من الرعاع الذين لا خير فيهم.

والحقّ أن هذا العلم الذي فخروا به لا يغني من الحق شيئًا، كما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «الرد على المنطقيين»: «إني كنت دائمًا أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد». اهـ.




الباب السَّادس والعشرون: في الإسلام والإيمان

الإسلام لغة: الانقياد.

وشرعًا: استسلام العبد لله ظاهرًا وباطنًا، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه. فيشمل الدين كله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

وأما الإيمان فهو لغة: التصديق. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧].

وفي الشرع: إقرار القلب المستلزم للقول والعمل، فهو اعتقاد وقول وعمل، اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، والجوارح.

والدليل علىٰ دخول هذه الأشياء كلها في الإيمان، قوله ﷺ: «**الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

وقوله: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**».

فالإيمان بالله وملائكته... إلخ؛ اعتقاد القلب.

وقول لا إله إلا الله؛ قول اللسان.

وإماطة الأذىٰ عن الطريق عمل الجوارح.

والحياء؛ عمل القلب.

وبذلك عرف أن الإيمان يشمل الدين كله، وحينئذٍ لا فرق بينه وبين الإسلام، وهذا حينما ينفرد أحدهما عن الآخر، أما إذا اقترن أحدهما بالآخر فإن الإسلام يفسر بالاستسلام الظاهر الذي هو قول اللسان، وعمل الجوارح، ويصدر من المؤمن كامل الإيمان، وضعيف الإيمان. قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤]. ومن المنافق لكن يُسمّىٰ مسلمًا ظاهرًا، ولكنه كافر باطنًا.

ويفسر الإيمان بالاستسلام الباطن الذي هو إقرار القلب وعمله، ولا يصدر إلا من



المؤمن حقًّا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال].

وبهذا المعنىٰ يكون الإيمان أعلىٰ. فكل مؤمن مسلم؛ ولا عكس.

فصلٌ: في زيادة الإيمان ونقصانه

من أصول أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص. وقد دل علىٰ ذلك الكتاب والسنة.

فمن أدلة الكتاب، قوله تعالىٰ: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ [الفتح: ٤].

ومن أدلة السنة، قوله ﷺ، في النساء: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**».

ففي الآية إثبات زيادة الإيمان، وفي الحديث إثبات نقص الدين.

وكل نص يدل علىٰ زيادة الإيمان، فإنه يتضمن الدلالة علىٰ نقصه؛ وبالعكس لأن الزيادة والنقص متلازمان، لا يعقل أحدهما دون الآخر.

وقد ثبت لفظ الزيادة والنقص منه عن الصحابة، ولم يعرف منهم مخالف فيه، وجمهور السلف علىٰ ذلك قال ابن عبد البر:

وعلىٰ أن الإيمان يزيد وينقص جماعة أهل الآثار والفقهاء أهل الفتيا في الأمصار. وذكر عن مالك روايتين في إطلاق النقص إحداهما: التوقف. والثانية: موافقة الجماعة.

وخالف في هذا الأصل طائفتان:

الأولىٰ: المرجئة الخالصة الذين يقولون: إن الإيمان إقرار القلب، وزعموا أن إقرار القلب لا يتفاوت؛ فالفاسق والعدل عندهم سواء في الإيمان.

الثانية: الوعيدية من المعتزلة والخوارج، الذين أخرجوا أهل الكبائر من الإيمان، وقالوا: إن الإيمان إما أن يوجد كله، وإما أن يعدم كله، ومنعوا من تفاضله.

وكل من هاتين الطائفتين محجوج بالسمع والعقل.

أما السمع فقد تقدّم في النصوص ما دل علىٰ إثبات زيادة الإيمان ونقصه.



وأما العقل فنقول للمرجئة: قولكم: إن الإيمان هو إقرار القلب، وإقرار القلب لا يتفاوت،

ممنوع في المقدمتين جميعًا.

أما المقدمة الأولىٰ: فتخصيصكم الإيمان بإقرار القلب مخالف لما دلّ عليه الكتاب والسنة من دخول القول والعمل في الإيمان.

وأما المقدمة الثانية: فقولكم: إن إقرار القلب لا يتفاوت مخالف للحس، فإن من المعلوم لكل أحد أن إقرار القلب إنما يتبع العلم؛ ولا ريب أن العلم يتفاوت بتفاوت طرقه، فإن خبر الواحد لا يفيد ما يفيده خبر الاثنين وهكذا، وما أدركه الإنسان بالخبر لا يساوي في العلم ما أدركه بالمشاهدة، فاليقين درجات متفاوتة، وتفاوت الناس في اليقين أمر معلوم، بل الإنسان الواحد يجد من نفسه أنه يكون في أوقات وحالات أقوىٰ منه يقينًا في أوقات وحالات أخرىٰ.

ونقول: كيف يصح لعاقل أن يحكم بتساوي رجلين في الإيمان:

أحدهما: مثابر علىٰ طاعة الله تعالىٰ فرضها ونفلها، متباعد عن محارم الله، وإذا بدرت منه المعصية بادر إلىٰ الإقلاع عنها والتوبة منها.

والثاني: مُضيّع لما أوجب الله عليه، ومنهمك فيما حرّم الله عليه، غير أنه لم يأت ما يكفره، كيف يتساوىٰ هذا وهذا؟

وأما الوعيدية، فنقول لهم: قولكم: إن فاعل الكبيرة خارج من الإيمان مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة، فإذا تبين ذلك فكيف نحكم بتساوي رجلين في الإيمان؟

أحدهما: مقتصد فاعل للواجبات، تارك للمحرّمات.

والثاني: ظالم لنفسه يفعل ما حرم الله عليه، ويترك ما أوجب الله عليه من غير أن يفعل ما يكفر به؟

ونقول ثانيًا: هب أننا أخرجنا فاعل الكبيرة من الإيمان، فكيف يمكن أن نحكم علىٰ رجلين بتساويهما في الإيمان وأحدهما مقتصد، والآخر سابق بالخيرات بإذن الله؟

فصلٌ

ولزيادة الإيمان أسباب منها:



١ - معرفة أسماء الله وصفاته، فإن العبد كلما ازداد معرفة بها وبمقتضياتها، وآثارها، ازداد إيمانًا بربه وحبًّا له وتعظيمًا.

٢ - النظر في آيات الله الكونية والشرعية، فإن العبد كلما نظر فيها وتأمل ما اشتملت عليه من القدرة الباهرة، والحكمة البالغة، ازداد إيمانًا ويقينًا بلا ريب.

٣ - فعل الطاعة تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ، فإن الإيمان يزداد به بحسب حسن العمل وجنسه وكثرته، فكلما كان العمل أحسن كانت زيادة الإيمان به أعظم، وحسن العمل يكون بحسب الإخلاص والمتابعة.

وأما جنس العمل فإن الواجب أفضل من المسنون، وبعض الطاعات أوكد وأفضل من البعض الآخر، وكلما كانت الطاعة أفضل كانت زيادة الإيمان بها أعظم، وأما كثرة العمل فإن الإيمان يزداد بها؛ لأن العمل من الإيمان فلا جرم أن يزيد بزيادته.

٤ - ترك المعصية خوفًا من الله عَزَّوَجَلَّ، وكلما قوي الداعي إلىٰ فعل المعصية كانت زيادة الإيمان بتركها أعظم؛ لأن تركها مع قوة الداعي إليها دليل علىٰ قوة إيمان العبد، وتقديمه ما يحبه الله ورسوله علىٰ ما تهواه نفسه.

وأما نقص الإيمان فله أسباب منها:

١ - الجهل بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته.

٢ - الغفلة والإعراض عن النظر في آيات الله وأحكامه الكونية والشرعية، فإن ذلك يُوجب مرض القلب أو موته باستيلاء الشهوات والشبهات عليه.

٣ - فعل المعصية، فينقص الإيمان بحسب جنسها، وقدرها، والتهاون بها، وقوة الداعي إليها أو ضعفه.

فأما جنسها وقدرها فإن نقص الإيمان بالكبائر أعظم من نقصه بالصغائر، ونقص الإيمان بقتل النفس المحرمة أعظم من نقصه بأخذ مال محترم، ونقصه بمعصيتين أكثر من نقصه بمعصية واحدة، وهكذا.

وأما التهاون بها فإن المعصية إذا صدرت من قلب متهاون بمن عصاه ضعيف الخوف منه كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت من قلب معظم لله تعالىٰ شديد الخوف منه، لكن فرطت منه المعصية.



وأما قوة الداعي إليها فإن المعصية إذا صدرت ممن ضعفت منه دواعيها كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت ممن قويت منه دواعيها، ولذلك كان استكبار الفقير، وزنىٰ الشيخ أعظم إثمًا من استكبار الغني، وزنىٰ الشاب، كما في الحديث: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**». وذكر منهم الأُشَيْمَطُ الزاني، والعائل المستكبر، لقلة داعي تلك المعصية فيهما.

٤ - ترك الطاعة فإن الإيمان ينقص به، والنقص به علىٰ حسب تأكد الطاعة، فكلما كانت الطاعة أوكد كان نقص الإيمان بتركها أعظم، وربما فقد الإيمان كله كترك الصلاة.

ثم إن نقص الإيمان بترك الطاعة علىٰ نوعين: نوع يعاقب عليه، وهو: ترك الواجب بلا عذر. ونوع لا يعاقب عليه وهو: ترك الواجب لعذر شرعي، أو حسي، وترك المستحب، فالأول كترك المرأة الصلاة أيام الحيض، والثاني كترك صلاة الضحىٰ. والله أعلم.

فصلٌ: في الاستثناء في الإيمان

الاستثناء في الإيمان: أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله.

وقد اختلف الناس فيه علىٰ ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم الاستثناء، وهو قول المرجئة، والجهمية ونحوهم. ومأخذ هذا القول: إن الإيمان شيء واحد، يعلمه الإنسان من نفسه، وهو التصديق الذي في القلب، فإذا استثنىٰ فيه كان دليلًا علىٰ شكه، ولذلك كانوا يسمون الذين يستثنون في الإيمان «شكاكًا».

القول الثاني: وجوب الاستثناء، وهذا القول له مأخذان:

١ - أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه، فالإنسان إنما يكون مؤمنًا وكافرًا بحسب الوفاة، وهذا شيء مستقبل غير معلوم. فلا يجوز الجزم به، وهذا مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم، لكن هذا المأخذ لم يُعلم أن أحدًا من السلف علل به، وإنما كانوا يُعللون بالمأخذ الثاني. وهو:

٢ - أن الإيمان المطلق يتضمن فعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات، وهذا لا يجزم به الإنسان من نفسه، ولو جزم لكان قد زكىٰ نفسه، وشهد لها بأنه من المتقين الأبرار، وكان ينبغي علىٰ هذا أن يشهد لنفسه بأنه من أهل الجنة، وهذه لوازم ممتنعة.

القول الثالث: التفصيل فإن كان الاستثناء صادرًا عن شك في وجود أصل الإيمان فهذا



مُحرّم، بل كفر؛ لأن الإيمان جزم، والشك يُنافيه، وإن كان صادرًا عن خوف تزكية النفس والشهادة لها بتحقيق الإيمان قولًا، وعملًا، واعتقادًا، فهذا واجب خوفًا من هذا المحذور، وإن كان المقصود من الاستثناء التبرك بذكر المشيئة، أو بيان التعليل، وأن ما قام بقلبه من الإيمان بمشيئة الله، فهذا جائز.

والتعليق بالمشيئة علىٰ هذا الوجه - أعني بيان التعليل - لا ينافي تحقق المعلق، فإنه قد ورد التعليق علىٰ هذا الوجه في الأمور المحققة. كقوله تعالىٰ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وبهذا عرف أنه لا يصح إطلاق الحكم علىٰ الاستثناء، بل لا بد من التفصيل السابق. والله أعلم، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

حرر في ٨ من ذي القعدة سنة ١٣٨٠هـ والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.





متن: «الْعَقِيدَةِ التَّدْمُرِيَّةِ»

لِشَيْخِ الإِسْلامِ:
أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الحَلِيمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبِهِ نَسْتَعِين، رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ

الْحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ أَنْ أَكْتُبَ لَهُمْ مَضْمُونَ مَا سَمِعُوهُ مِنِّي فِي بَعْضِ الْمَجَالِسِ؛ مِنَ الْكَلَامِ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ، وَفِي الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ؛ لِمَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ تَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ، وَكَثْرَةِ الِاضْطِرَابِ فِيهِمَا، فَإِنَّهُمَا مَعَ حَاجَةِ كُلِّ أَحَدٍ إِلَيْهِمَا، وَمَعَ أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِبَادَةِ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَخْطِرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْأَقْوَالِ مَا يَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَىٰ بَيَانِ الْهُدَىٰ مِنَ الضَّلَالِ، لَا سِيَّمَا مَعَ كَثْرَةِ مَنْ خَاضَ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ تَارَةً، وَبِالْبَاطِلِ تَارَاتٍ، وَمَا يَعْتَرِي الْقُلُوبَ فِي ذَلِكَ مِنَ الشُّبَهِ الَّتِي تُوقِعُهَا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ.

فَالْكَلَامُ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ؛ هُوَ: مِنْ بَابِ الْخَبَرِ الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ.

وَالْكَلَامُ فِي الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ؛ هُوَ: مِنْ بَابِ الطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ الدَّائِرِ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَبَيْنَ الْكَرَاهَةِ وَالْبُغْضِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا.

وَالْإِنْسَانُ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَبَيْنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ، وَالْحَضِّ وَالْمَنْعِ.

حَتَّىٰ إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا النَّوْعِ وَبَيْنَ النَّوْعِ الْآخَرِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، مَعْرُوفٌ



عِنْدَ أَصْنَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعِلْمِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْفُقَهَاءُ فِي كِتَابِ الْأَيْمَانِ، وَكَمَا ذَكَرَهُ الْمُقَسِّمُونَ لِلْكَلَامِ؛ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالنَّحْوِ وَالْبَيَانِ؛ فَذَكَرُوا أَنَّ الْكَلَامَ نَوْعَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ، وَالْخَبَرُ: دَائِرٌ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالْإِنْشَاءُ: أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ أَوْ إِبَاحَةٌ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ: فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يُثْبِتَ لِلَّهِ مَا يَجِبُ إِثْبَاتُهُ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَيَنْفِي عَنْهُ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ مِمَّا يُضَادُّ هَذِهِ الْحَالَ، وَلَا بُدَّ لَهُ فِي أَحْكَامِهِ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ خَلْقَهُ وَأَمْرَهُ، فَيُؤْمِنَ بِخَلْقِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَعُمُومَ مَشِيئَتِهِ، وَيُثْبِتَ أَمْرَهُ الْمُتَضَمِّنَ بَيَانَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَيُؤْمِنَ بِشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ إِيمَانًا خَالِيًا مِنَ الزَّلَلِ

وَهَذَا يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعَمَلِ، وَالْأَوَّلُ يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَىٰ ذَلِكَ سُورَةُ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَدَلَّ عَلَىٰ الْآخَرِ سُورَةُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَهُمَا سُورَتَا الْإِخْلَاصِ، وَبِهِمَا كَانَ يَقْرَأُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ وَرَكْعَتَيِ الطَّوَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ

فَأَمَّا الْأَوَّلُ وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الصِّفَاتِ؛ فَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا؛ فَيُثْبَتُ لِلَّهِ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ وَيَنْفِي عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ.

وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ طَرِيقَةَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ مِنَ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَكَذَلِكَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ مَعَ إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ إِلْحَادٍ، لَا فِي أَسْمَائِهِ وَلَا فِي آيَاتِهِ.

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ذَمَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فُصِّلَت].

فَطَرِيقَتُهُمْ تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، مَعَ نَفْيِ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، إِثْبَاتًا بِلَا تَشْبِيهٍ، وَتَنْزِيهًا بِلَا تَعْطِيلٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ]. فَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رَدٌّ لِلتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ



ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾. رَدٌّ لِلْإِلْحَادِ وَالتَّعْطِيلِ.

وَاللهُ سُبْحَانَهُ: بَعَثَ رُسُلَهُ بِإِثْبَاتٍ مُفَصَّلٍ وَنَفْيٍ مُجْمَلٍ، فَأَثْبَتُوا لَهُ الصِّفَاتِ عَلَىٰ وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَنَفَوْا عَنْهُ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم]. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؛ أَيْ: نَظِيرًا يَسْتَحِقُّ مِثْلَ اسْمِهِ. وَيُقَالُ: مُسَامِيًا يُسَامِيهِ، وَهَذَا مَعْنَىٰ مَا يُرْوَىٰ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ مِثْلًا أَوْ شَبِيهًا؟

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة:١٦٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾[الأنعام]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾[الفرقان]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات]؛ فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا يَصِفُهُ الْمُفْتَرُونَ الْمُشْرِكُونَ، وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ الْإِفْكِ وَالشِّرْكِ، وَحَمِدَ نَفْسَهُ؛ إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ بِمَا لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَبَدِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَأَمَّا الْإِثْبَاتُ الْمُفَصَّلُ؛ فَإِنَّهُ ذَكَرَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مَا أَنْزَلَهُ فِي مُحْكَمِ آيَاتِهِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] الْآيَةَ بِكَمَالِهَا، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ



﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ [الإخلاص] السُّورَةَ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾[التحريم]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم]، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورىٰ]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج]، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد].

وَقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٥]. وَقَوْلِهِ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ [البينة:٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[النساء]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر]، وَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[البقرة:٢١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر].

إِلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَسْمَاءِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ وَصِفَاتِهِ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ إِثْبَاتِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَىٰ وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَإِثْبَاتِ وَحْدَانِيَّتِهِ بِنَفْيِ التَّمْثِيلِ؛ مَا



هَدَىٰ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ، فَهَـذِهِ طَرِيقَـةُ الرُّسُـلِ -صَـلَوَاتُ اللهِ وَسَـلَامُهُ عَلَـيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَأَمَّا مَنْ زَاغَ وَحَادَ عَنْ سَبِيلِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، وَمَنْ دَخَلَ فِي هَؤُلَاءِ مِنْ الصَّابِئَةِ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ: فَإِنَّهُمْ عَلَىٰ ضِدِّ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُمْ يَصِفُونَهُ بِالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ عَلَىٰ وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَلَا يُثْبِتُونَ إِلَّا وُجُودًا مُطْلَقًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَ التَّحْصِيلِ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَىٰ وُجُودٍ فِي الْأَذْهَانِ يَمْتَنِعُ تَحَقُّقُهُ فِي الْأَعْيَانِ، فَقَوْلُهُمْ يَسْتَلْزِمُ غَايَةَ التَّعْطِيلِ وَغَايَةَ التَّمْثِيلِ؛ فَإِنَّهُمْ يُمَثِّلُونَهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ؛ وَيُعَطِّلُونَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ تَعْطِيلًا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الذَّاتِ.

فَغُلَاتُهُمْ يَسْلُبُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ؛ فَيَقُولُونَ: لَا مَوْجُودَ وَلَا مَعْدُومَ، وَلَا حَيَّ وَلَا مَيِّتَ، وَلَا عَالِمَ وَلَا جَاهِلَ. لِأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِذَا وَصَفُوهُ بِالْإِثْبَاتِ شَبَّهُوهُ بِالْمَوْجُودَاتِ، وَإِذَا وَصَفُوهُ بِالنَّفْيِ شَبَّهُوهُ بِالْمَعْدُومَاتِ، فَسَلَبُوا النَّقِيضَيْنِ.

وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي بَدَاهَةِ الْعُقُولِ؛ وَحَرَّفُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ، وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، فَوَقَعُوا فِي شَرٍّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ؛ فَإِنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ؛ إِذْ سَلْبُ النَّقِيضَيْنِ كَجَمْعِ النَّقِيضَيْنِ؛ كِلَاهُمَا مِنَ الْمُمْتَنِعَاتِ.

وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ: أَنَّ الْوُجُودَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ، وَاجِبٍ بِذَاتِهِ، غَنِيٍّ عَمَّا سِوَاهُ؛ قَدِيمٍ أَزَلِيٍّ؛ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْحُدُوثُ وَلَا الْعَدَمُ، فَوَصَفُوهُ بِمَا يَمْتَنِعُ وُجُودُهُ فَضْلًا عَنِ الْوُجُوبِ أَوْ الْوُجُودِ أَوْ الْقِدَمِ.

وَقَارَبَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَأَتْبَاعِهِمْ: فَوَصَفُوهُ بِالسُّلُوبِ وَالْإِضَافَاتِ، دُونَ صِفَاتِ الْإِثْبَاتِ، وَجَعَلُوهُ هُوَ الْوُجُودَ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ.

وَقَدْ عُلِمَ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الذِّهْنِ، لَا فِيمَا خَرَجَ عَنْهُ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، وَجَعَلُوا الصِّفَةَ هِيَ الْمَوْصُوفَ، فَجَعَلُوا الْعِلْمَ عَيْنَ الْعَالِمِ، مُكَابَرَةً لِلْقَضَايَا الْبَدِيهَاتِ، وَجَعَلُوا هَذِهِ الصِّفَةَ هِيَ الْأُخْرَىٰ، فَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْمَشِيئَةِ، جَحْدًا لِلْعُلُومِ الضَّرُورِيَّاتِ.

وَقَارَبَهُمْ طَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ مَنْ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ؛ فَأَثْبَتُوا لِلَّهِ الْأَسْمَاءَ دُونَ مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنَ الصِّفَاتِ - فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ الْعَلِيمَ وَالْقَدِيرَ؛ وَالسَّمِيعَ؛ وَالْبَصِيرَ؛ كَالْأَعْلَامِ



الْمَحْضَةِ الْمُتَرَادِفَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ عَلِيمٌ بِلَا عِلْمٍ قَدِيرٌ بِلَا قُدْرَةٍ سَمِيعٌ بَصِيرٌ بِلَا سَمْعٍ وَلَا بَصَرٍ، فَأَثْبَتُوا الِاسْمَ دُونَ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الصِّفَاتِ.

وَالْكَلَامُ عَلَىٰ فَسَادِ مَقَالَةِ هَؤُلَاءِ وَبَيَانِ تَنَاقُضِهَا بِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ الْمُطَابِقِ لِصَحِيحِ الْمَنْقُولِ، مَذْكُورٌ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ.

وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ يَفِرُّونَ مِنْ شَيْءٍ فَيَقَعُونَ فِي نَظِيرِهِ وَفِي شَرٍّ مِنْهُ، مَعَ مَا يَلْزَمُهُمْ مِنَ التَّحْرِيفَاتِ وَالتَّعْطِيلَاتِ، وَلَوْ أَمْعَنُوا النَّظَرَ لَسَوَّوْا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَاتِ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُخْتَلِفَاتِ، كَمَا تَقْتَضِيهِ الْمَعْقُولَاتُ؛ وَلَكَانُوا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

وَلَكِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَجْهُولَاتِ الْمُشَبَّهَةِ بِالْمَعْقُولَاتِ، يُسَفْسِطُونَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ، وَيُقَرْمِطُونَ فِي السَّمْعِيَّاتِ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَوْجُودٍ قَدِيمٍ غَنِيٍّ عَمَّا سِوَاهُ، إِذْ نَحْنُ نُشَاهِدُ حُدُوثَ الْمُحْدَثَاتِ: كَالْحَيَوَانِ وَالْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ، وَالْحَادِثُ مُمْكِنٌ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ، وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ الْمُحْدَثَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ، وَالْمُمْكِنُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ٣٥﴾ [الطور]، فَإِذَا لَمْ يَكُونُوا خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ، وَلَا هُمْ الْخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ تَعَيَّنَ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا خَلَقَهُمْ.

وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ [أَنَّ] فِي الْوُجُودِ مَا هُوَ قَدِيمٌ وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ، وَمَا هُوَ مُحْدَثٌ مُمْكِنٌ يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ= فَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مَوْجُودٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ اتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّىٰ الْوُجُودِ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ هَذَا مِثْلَ وُجُودِ هَذَا؛ بَلْ وُجُودُ هَذَا يَخُصُّهُ وَوُجُودُ هَذَا يَخُصُّهُ.

وَاتِّفَاقُهُمَا فِي اسْمٍ عَامٍّ لَا يَقْتَضِي تَمَاثُلَهُمَا فِي مُسَمَّىٰ ذَلِكَ الِاسْمِ عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ وَالتَّقْيِيدِ، وَلَا فِي غَيْرِهِ.

فَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ: إِذَا قِيلَ: إِنَّ الْعَرْشَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ وَأَنَّ الْبَعُوضَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ: إِنَّ هَذَا مِثْلَ هَذَا؛ لِاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّىٰ الشَّيْءِ وَالْوُجُودِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ غَيْرُهُمَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ؛ بَلْ الذِّهْنُ يَأْخُذُ مَعْنًىٰ مُشْتَرَكًا كُلِّيًّا؛ هُوَ: مُسَمَّىٰ الِاسْمِ الْمُطْلَقِ، وَإِذَا قِيلَ: هَذَا مَوْجُودٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ= فَوُجُودُ كُلٍّ مِنْهُمَا يَخُصُّهُ، لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ؛ مَعَ أَنَّ الِاسْمَ حَقِيقَةٌ



فِي كُلٍّ مِنْهُمَا.

وَلِهَذَا سَمَّىٰ اللهُ نَفْسَهُ بِأَسْمَاءٍ وَسَمَّىٰ صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ؛ وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ مُخْتَصَّةً بِهِ إِذَا أُضِيفَتْ إِلَيْهِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، وَسَمَّىٰ بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ مُخْتَصَّةٍ بِهِمْ مُضَافَةٍ إِلَيْهِمْ تُوَافِقُ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ، إِذَا قُطِعَتْ عَنِ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ.

وَلَمْ يَلْزَمْ مِنِ اتِّفَاقِ الِاسْمَيْنِ وَتَمَاثُلِ مُسَمَّاهُمَا وَاتِّحَادِهِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَالتَّجْرِيدِ عَنْ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ= اتِّفَاقُهُمَا، وَلَا تَمَاثُلَ الْمُسَمَّىٰ عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَّحِدَ مُسَمَّاهُمَا عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ.

فَقَدْ سَمَّىٰ اللهُ نَفْسَهُ حَيًّا؛ فَقَالَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران] وَسَمَّىٰ بَعْضَ عِبَادِهِ حَيًّا؛ فَقَالَ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [يونس:٣١]، وَلَيْسَ هَذَا الْحَيُّ مِثْلَ هَذَا الْحَيِّ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ٱلْحَيَّ﴾ اسْمٌ للهِ مُخْتَصٌّ بِهِ، وَقَوْلَهُ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [يونس:٣١] اسْمٌ لِلْحَيِّ الْمَخْلُوقِ مُخْتَصٌّ بِهِ، وَإِنَّمَا يَتَّفِقَانِ إِذَا أُطْلِقَا وَجُرِّدَا عَنِ التَّخْصِيصِ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ لِلْمُطْلَقِ مُسَمًّىٰ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ؛ وَلَكِنَّ الْعَقْلَ يَفْهَمُ مِنْ الْمُطْلَقِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْمُسَمَّيَيْنِ، وَعِنْدَ الِاخْتِصَاصِ يُقَيِّدُ ذَلِكَ بِمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ الْخَالِقُ عَنْ الْمَخْلُوقِ، وَالْمَخْلُوقُ عَنِ الْخَالِقِ.

وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا فِي جَمِيعِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، يُفْهَمُ مِنْهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْمُ بِالْمُوَاطَأَةِ وَالِاتِّفَاقِ، وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ بِالْإِضَافَةِ وَالِاخْتِصَاصِ: الْمَانِعَةُ مِنْ مُشَارَكَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْخَالِقِ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَكَذَلِكَ سَمَّىٰ اللهُ نَفْسَهُ: عَلِيمًا حَلِيمًا، وَسَمَّىٰ بَعْضَ عِبَادِهِ: عَلِيمًا؛ فَقَالَ: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات] يَعْنِي: إِسْحَاقَ وَسَمَّىٰ آخَرَ حَلِيمًا؛ فَقَالَ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ [الصافات] يَعْنِي: إِسْمَاعِيلَ، وَلَيْسَ الْعَلِيمُ كَالْعَلِيمِ وَلَا الْحَلِيمُ كَالْحَلِيمِ.

وَسَمَّىٰ نَفْسَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ [النساء] وَسَمَّىٰ بَعْضَ عِبَادِهِ: سَمِيعًا بَصِيرًا؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان]. وَلَيْسَ السَّمِيعُ كَالسَّمِيعِ، وَلَا الْبَصِيرُ كَالْبَصِيرِ.



وَسَمَّىٰ نَفْسَهُ بِالرَّءُوفِ الرَّحِيمِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]، وَسَمَّىٰ بَعْضَ عِبَادِهِ بِالرَّءُوفِ الرَّحِيمِ فَقَالَ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]، وَلَيْسَ الرَّءُوفُ كَالرَّءُوفِ وَلَا الرَّحِيمُ كَالرَّحِيمِ.

وَسَمَّىٰ نَفْسَهُ بِالْمَلِكِ؛ فَقَالَ: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:٢٣]، وَسَمَّىٰ بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْمَلِكِ؛ فَقَالَ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٤] وَلَيْسَ الْمَلِكُ كَالْمَلِكِ.

وَسَمَّىٰ نَفْسَهُ بِالْمُؤْمِنِ [الْمُهَيْمِنِ]، وَسَمَّىٰ بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْمُؤْمِنِ؛ فَقَالَ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة]، وَلَيْسَ الْمُؤْمِنُ كَالْمُؤْمِنِ.

وَسَمَّىٰ نَفْسَهُ بِالْعَزِيزِ؛ فَقَالَ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر:٢٣]، وَسَمَّىٰ بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْعَزِيزِ؛ فَقَالَ: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف:٥١]، وَلَيْسَ الْعَزِيزُ كَالْعَزِيزِ.

وَسَمَّىٰ نَفْسَهُ الْجَبَّارَ الْمُتَكَبِّرَ، وَسَمَّىٰ بَعْضَ خَلْقِهِ بِالْجَبَّارِ الْمُتَكَبِّرِ؛ قَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر:٣٥]، وَلَيْسَ الْجَبَّارُ كَالْجَبَّارِ، وَلَا الْمُتَكَبِّرُ كَالْمُتَكَبِّرِ. وَنَظَائِرُ هَذَا مُتَعَدِّدَةٌ.

وَكَذَلِكَ سَمَّىٰ صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ، وَسَمَّىٰ صِفَاتِ عِبَادِهِ بِنَظِيرِ ذَلِكَ؛ فَقَالَ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وَقَالَ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ﴾ [النساء:١٦٦]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات]، وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ﴾ [فُصِّلَت:١٥].

وَسَمَّىٰ صِفَةَ الْمَخْلُوقِ عِلْمًا وَقُوَّةً؛ فَقَالَ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، وَقَالَ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف]، وَقَالَ: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣]، وَقَالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ﴾[الروم:٥٤]، وَقَالَ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[هود:٥٢]، وَقَالَ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾[الذاريات:٤٧] أَيْ: بِقُوَّةٍ، وَقَالَ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ﴾ [ص:١٧] أَيْ: ذَا الْقُوَّةِ، وَلَيْسَ الْعِلْمُ كَالْعِلْمِ، وَلَا الْقُوَّةُ كَالْقُوَّةِ.



وَكَذَلِكَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمَشِيئَةِ، وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْمَشِيئَةِ؛ فَقَالَ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[التكوير]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾[المزَّمل]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾[الإنسان]، وَكَذَلِكَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْإِرَادَةِ وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْإِرَادَةِ؛ فَقَالَ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾[الأنفال].

وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمَحَبَّةِ وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْمَحَبَّةِ؛ فَقَالَ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، وَقَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالرِّضَا، وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالرِّضَا؛ فَقَالَ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ [المائدة:١١٩].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَشِيئَةَ اللهِ لَيْسَتْ مِثْلَ مَشِيئَةِ الْعَبْدِ، وَلَا إِرَادَتَهُ مِثْلَ إِرَادَتِهِ، وَلَا مَحَبَّتَهُ مِثْلَ مَحَبَّتِهِ، وَلَا رِضَاهُ مِثْلَ رِضَاهُ.

وَكَذَلِكَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَمْقُتُ الْكُفَّارَ، وَوَصَفَهُمْ بِالْمَقْتِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر]، وَلَيْسَ الْمَقْتُ مِثْلَ الْمَقْتِ.

وَهَكَذَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمَكْرِ وَالْكَيْدِ، كَمَا وَصَفَ عَبْدَهُ بِذَلِكَ؛ فَقَالَ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنفال:٣٠]، وَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق]، وَلَيْسَ الْمَكْرُ كَالْمَكْرِ وَلَا الْكَيْدُ كَالْكَيْدِ.

وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعَمَلِ؛ فَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس]، وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْعَمَلِ فَقَالَ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف]، وَلَيْسَ الْعَمَلُ كَالْعَمَلِ.

وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمُنَادَاةِ وَالْمُنَاجَاةِ؛ فَقَالَ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم]، وَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ [القصص:٦٢]، وَقَالَ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف:٢٢]، وَوَصَفَ عِبَادَهُ بِالْمُنَادَاةِ وَالْمُنَاجَاةِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ



﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤﴾[الحجرات]، وَقَالَ: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾[المجادلة:١٢]، وَقَالَ: ﴿تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المجادلة:٩]، وَلَيْسَ الْمُنَادَاةُ كَالْمُنَاجَاةِ، وَلَا الْمُنَاجَاةُ وَالْمُنَادَاةِ.

وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالتَّكْلِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾[النساء]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالتَّكْلِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف] وَلَيْسَ التَّكْلِيمُ كَالتَّكْلِيمِ.

وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالتَّنْبِئَةِ وَوَصَفَ بَعْضَ الْخَلْقِ بِالتَّنْبِئَةِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ [التحريم] وَلَيْسَ الْإِنْبَاءُ كَالْإِنْبَاءِ.

وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالتَّعْلِيمِ وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالتَّعْلِيمِ؛ فَقَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾ [الرحمن]، وَقَالَ: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ [المائدة:٤]، وَقَالَ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وَلَيْسَ التَّعْلِيمُ كَالتَّعْلِيمِ.

وَهَكَذَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْغَضَبِ؛ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ﴾ [الفتح:٦]، وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [الأعراف:١٥٠] وَلَيْسَ الْغَضَبُ كَالْغَضَبِ.

وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ فِي سَبْعِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ أَنَّهُ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ، وَوَصَفَ بَعْضَ خَلْقِهِ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَىٰ غَيْرِهِ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزُّخرُف:١٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ [المؤمنون:٢٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هود:٤٤] وَلَيْسَ الِاسْتِوَاءُ كَالِاسْتِوَاءِ.

وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِبَسْطِ الْيَدَيْنِ؛ فَقَالَ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ



بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وَوَصَفَ بَعْضَ خَلْقِهِ بِبَسْطِ الْيَدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء:٢٩]، وَلَيْسَ الْيَدُ كَالْيَدِ، وَلَا الْبَسْطُ كَالْبَسْطِ؛ وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالْبَسْطِ الْإِعْطَاءَ وَالْجُودَ: فَلَيْسَ إِعْطَاءُ اللهِ كَإِعْطَاءِ خَلْقِهِ، وَلَا جُودُهُ كَجُودِهِمْ، وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ.

فَلَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ، وَنَفْيِ مُمَاثَلَتِهِ بِخَلْقِهِ، فَمَنْ قَالَ: لَيْسَ لِلَّهِ عِلْمٌ وَلَا قُوَّةٌ وَلَا رَحْمَةٌ وَلَا كَلَامٌ، وَلَا يُحِبُّ وَلَا يَرْضَىٰ، وَلَا نَادَىٰ وَلَا نَاجَىٰ وَلَا اسْتَوَىٰ: كَانَ مُعَطِّلًا جَاحِدًا مُمَثِّلًا لِلَّهِ بِالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ.

وَمَنْ قَالَ: لَهُ عِلْمٌ كَعِلْمِي أَوْ قُوَّةٌ كَقُوَّتِي أَوْ حُبٌّ كَحُبِّي أَوْ رِضًا كَرِضَايَ أَوْ يَدَانِ كَيَدَيَّ أَوْ اسْتِوَاءٌ كَاسْتِوَائِي= كَانَ مُشَبِّهًا مُمَثِّلًا لِلَّهِ بِالْحَيَوَانَاتِ؛ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتٍ بِلَا تَمْثِيلٍ وَتَنْزِيهٍ بِلَا تَعْطِيلٍ.

وَيَتَبَيَّنُ هَذَا بِـ:

أَصْلَيْنِ شَرِيفَيْنِ،

وَمَثَلَيْنِ مَضْرُوبَيْنِ -وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ-،

وَبِخَاتِمَةٍ جَامِعَةٍ.



فصلٌ

فَأَمَّا الْأَصْلَانِ:

فَأَحَدُهُمَا أَنْ يُقَالَ: **الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ**، فَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِمَّنْ يَقُولُ: بِأَنَّ اللهَ حَيٌّ بِحَيَاةٍ، عَلِيمٌ بِعِلْمٍ، قَدِيرٌ بِقُدْرَةٍ، سَمِيعٌ بِسَمْعٍ، بَصِيرٌ بِبَصَرٍ، مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ، مُرِيدٌ بِإِرَادَةٍ، وَيَجْعَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ حَقِيقَةً، وَيُنَازِعُ فِي مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ، وَغَضَبِهِ وَكَرَاهَتِهِ؛ فَيَجْعَلُ ذَلِكَ مَجَازًا، وَيُفَسِّرُهُ إِمَّا بِالْإِرَادَةِ، وَإِمَّا بِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ النِّعَمِ وَالْعُقُوبَاتِ.

فَيُقَالُ لَهُ: لَا فَرْقَ بَيْنَ مَا نَفَيْتَهُ وَبَيْنَ مَا أَثْبَتَهُ؛ بَلْ الْقَوْلُ فِي أَحَدِهِمَا كَالْقَوْلِ فِي الْآخَرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ إِرَادَتَهُ مِثْلُ إِرَادَةِ الْمَخْلُوقِينَ؛ فَكَذَلِكَ مَحَبَّتُهُ وَرِضَاهُ وَغَضَبُهُ، وَهَذَا هُوَ التَّمْثِيلُ.

وَإِنْ قُلْتَ: [إِنَّ] لَهُ إِرَادَةً تَلِيقُ بِهِ؛ كَمَا أَنَّ لِلْمَخْلُوقِ إِرَادَةً تَلِيقُ بِهِ.



قِيلَ لَكَ: وَكَذَلِكَ لَهُ مَحَبَّةٌ تَلِيقُ بِهِ، وَلِلْمَخْلُوقِ مَحَبَّةٌ تَلِيقُ بِهِ، وَلَهُ رِضًا وَغَضَبٌ يَلِيقُ بِهِ، وَلِلْمَخْلُوقِ رِضًا وَغَضَبٌ يَلِيقُ بِهِ.

وَإِنْ قَالَ: الْغَضَبُ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ لِطَلَبِ الِانْتِقَامِ.

فَيُقَالُ لَهُ: وَالْإِرَادَةُ مَيْلُ النَّفْسِ إِلَىٰ جَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَذِهِ إِرَادَةُ الْمَخْلُوقِ. قِيلَ لَكَ: وَهَذَا غَضَبُ الْمَخْلُوقِ.

وَكَذَلِكَ يَلْزَمُ الْقَوْلُ فِي كَلَامِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، إِنْ نَفَىٰ عَنْهُ الْغَضَبَ وَالْمَحَبَّةَ وَالرِّضَا وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ؛ فَهَذَا مُنْتَفٍ عَنِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَجَمِيعِ الصِّفَاتِ.

وَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِهَذَا إِلَّا مَا يَخْتَصُّ بِالْمَخْلُوقِينَ؛ فَيَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ قِيلَ لَهُ: وَهَكَذَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ وَالْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ.

فَهَذَا الْمُفَرِّقُ بَيْنَ بَعْضِ الصِّفَاتِ وَبَعْضٍ، يُقَالُ لَهُ: فِيمَا نَفَاهُ كَمَا يَقُولُهُ هُوَ لِمُنَازِعِهِ فِيمَا أَثْبَتَهُ.

فَإِذَا قَالَ الْمُعْتَزِلِيُّ: لَيْسَ لَهُ إِرَادَةٌ وَلَا كَلَامٌ قَائِمٌ بِهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالْمَخْلُوقَاتِ، فَإِنَّهُ يُبَيِّنُ لِلْمُعْتَزِلِيِّ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ يَتَّصِفُ بِهَا الْقَدِيمُ، وَلَا تَكُونُ كَصِفَاتِ الْمُحْدَثَاتِ، فَهَكَذَا يَقُولُ لَهُ الْمُثْبِتُونَ لِسَائِرِ الصِّفَاتِ مِنْ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَإِنْ قَالَ: تِلْكَ الصِّفَاتُ أَثْبَتَهَا بِالْعَقْلِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ الْحَادِثَ دَلَّ عَلَىٰ الْقُدْرَةِ، وَالتَّخْصِيصَ دَلَّ عَلَىٰ الْإِرَادَةِ، وَالْإِحْكَامَ دَلَّ عَلَىٰ الْعِلْمِ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْحَيَاةِ، وَالْحَيُّ لَا يَخْلُو عَنِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ أَوْ ضِدِّ ذَلِكَ.

قَالَ لَهُ سَائِرُ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ: لَكَ جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُقَالَ: عَدَمُ الدَّلِيلِ الْمُعَيَّنِ لَا يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الْمَدْلُولِ الْمُعَيَّنِ، فَهَبْ أَنَّ مَا سَلَكْتَهُ مِنَ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ لَا يُثْبِتُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفِيهِ، وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَنْفِيَهُ بِغَيْرِ دَلِيلٍ؛ لِأَنَّ النَّافِيَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، كَمَا عَلَىٰ الْمُثْبِتِ، وَالسَّمْعُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُعَارِضْ ذَلِكَ مُعَارِضٌ عَقْلِيٌّ وَلَا سَمْعِيٌّ، فَيَجِبُ إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ الدَّلِيلُ السَّالِمُ عَنِ الْمُعَارِضِ الْمُقَاوِمِ.

الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: يُمْكِنُ إِثْبَاتُ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِنَظِيرِ مَا أَثْبَتَ بِهِ تِلْكَ مِنَ الْعَقْلِيَّاتِ فَيُقَالُ نَفْعُ الْعِبَادِ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ يَدُلُّ عَلَىٰ الرَّحْمَةِ؛ كَدَلَالَةِ التَّخْصِيصِ عَلَىٰ الْمَشِيئَةِ، وَإِكْرَامُ



الطَّائِعِينَ يَدُلُّ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِمْ وَعِقَابُ الْكَافِرِينَ يَدُلُّ عَلَىٰ بُغْضِهِمْ؛ كَمَا قَدْ ثَبَتَ بِالشَّهَادَةِ وَالْخَبَرِ: مِنْ إِكْرَامِ أَوْلِيَائِهِ وَعِقَابِ أَعْدَائِهِ.

وَالْغَايَاتُ الْمَحْمُودَةُ فِي مَفْعُولَاتِهِ وَمَأْمُورَاتِهِ — وَهِيَ: مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ مَفْعُولَاتُهُ وَمَأْمُورَاتُهُ مِنْ الْعَوَاقِبِ الْحَمِيدَةِ - تَدُلُّ عَلَىٰ حِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ؛ كَمَا يَدُلُّ التَّخْصِيصُ عَلَىٰ الْمَشِيئَةِ وَأَوْلَىٰ؛ لِقُوَّةِ الْعِلَّةِ الْغَائِيَّةِ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ مَا فِي مَخْلُوقَاتِهِ مِنَ النِّعَمِ وَالْحِكَمِ: أَعْظَمُ مِمَّا فِي الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ مَا فِيهَا مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَحْضِ الْمَشِيئَةِ.

وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِمَّنْ يُنْكِرُ الصِّفَاتِ، وَيُقِرُّ بِالْأَسْمَاءِ؛ كَالْمُعْتَزِلِيِّ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، وَيُنْكِرُ أَنْ يَتَّصِفَ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ.

قِيلَ لَهُ: لَا فَرْقَ بَيْنَ إِثْبَاتِ الْأَسْمَاءِ وَبَيْنَ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّك إِنْ قُلْتَ: إِثْبَاتُ الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ يَقْتَضِي تَشْبِيهًا أَوْ تَجْسِيمًا؛ لِأَنَّا لَا نَجِدُ فِي الشَّاهِدِ مُتَّصِفًا بِالصِّفَاتِ، إلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ.

قِيلَ لَكَ: وَلَا تَجِدُ فِي الشَّاهِدِ مَا هُوَ مُسَمًّىٰ بِأَنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ إلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ، فَإِنْ نَفَيْتَ مَا نَفَيْتَ لِكَوْنِكَ لَمْ تَجِدْهُ فِي الشَّاهِدِ إلَّا لِجِسْمٍ فَانْفِ الْأَسْمَاءَ؛ بَلْ وَكُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّكَ لَا تَجِدُهُ فِي الشَّاهِدِ إلَّا لِجِسْمٍ.

فَكُلُّ مَا يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ نَفَىٰ الصِّفَاتِ، يَحْتَجُّ بِهِ نَافِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ؛ فَمَا كَانَ جَوَابًا لِذَلِكَ كَانَ جَوَابًا لِمُثْبِتِي الصِّفَاتِ.

وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِنَ الْغُلَاةِ؛ نُفَاةُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَقَالَ: لَا أَقُولُ: هُوَ مَوْجُودٌ وَلَا حَيٌّ وَلَا عَلِيمٌ وَلَا قَدِيرٌ؛ بَلْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لِمَخْلُوقَاتِهِ، أَوْ هِيَ مَجَازٌ؛ لِأَنَّ إثْبَاتَ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ بِالْمَوْجُودِ الْحَيِّ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ.

قِيلَ لَهُ: كَذَلِكَ إذَا قُلْتَ: لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا حَيٍّ وَلَا عَلِيمٍ وَلَا قَدِيرٍ= كَانَ ذَلِكَ تَشْبِيهًا بِالْمَعْدُومَاتِ، وَذَلِكَ أَقْبَحُ مِنْ التَّشْبِيهِ بِالْمَوْجُودَاتِ.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا أَنْفِي النَّفْيَ وَالْإِثْبَاتَ.

قِيلَ لَهُ: فَيَلْزَمُك التَّشْبِيهُ بِمَا اجْتَمَعَ فِيهِ النَّقِيضَانِ مِنْ الْمُمْتَنِعَاتِ؛ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مَوْجُودًا مَعْدُومًا، أَوْ لَا مَوْجُودًا وَلَا مَعْدُومًا، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يُوصَفُ ذَلِكَ بِاجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ، أَوْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، أَوْ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، أَوْ يُوصَفَ بِنَفْيِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ،



وَنَفْيِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَنَفْيِ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّمَا يَمْتَنِعُ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ عَمَّا يَكُونُ قَابِلًا لَهُمَا، وَهَذَانِ يَتَقَابَلَانِ تَقَابُلَ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ؛ لَا تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ؛ فَإِنَّ الْجِدَارَ لَا يُقَالُ لَهُ: أَعْمَىٰ وَلَا بَصِيرٌ، وَلَا حَيٌّ وَلَا مَيِّتٌ؛ إِذْ لَيْسَ بِقَابِلٍ لَهُمَا.

قِيلَ لَكَ: أَوَّلًا هَذَا لَا يَصِحُّ فِي الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ، فَإِنَّهُمَا مُتَقَابِلَانِ تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ؛ فَيَلْزَمُ مِنْ رَفْعِ أَحَدِهِمَا ثُبُوتُ الْآخَرِ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَهُ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ: فَهَذَا اصْطِلَاحٌ اصْطَلَحَتْ عَلَيْهِ الْمُتَفَلْسِفَةُ الْمَشَّاؤُونَ، وَالِاصْطِلَاحَاتُ اللَّفْظِيَّةُ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَىٰ نَفْيِ الْحَقَائِقِ الْعَقْلِيَّةِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل]، فَسَمَّىٰ الْجَمَادَ مَيِّتًا، وَهَذَا مَشْهُورٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ.

وَقِيلَ لَكَ: ثَانِيًا: فَمَا لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْعَمَىٰ وَالْبَصَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمُتَقَابِلَاتِ أَنْقَصُ مِمَّا يَقْبَلُ ذَلِكَ - فَالْأَعْمَىٰ الَّذِي يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْبَصَرِ أَكْمَلُ مِنَ الْجَمَادِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، فَأَنْتَ فَرَرْتَ مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالْحَيَوَانَاتِ الْقَابِلَةِ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَوَصَفْتَهُ بِصِفَاتِ الْجَامِدَاتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ ذَلِكَ.

وَأَيْضًا فَمَا لَا يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ: أَعْظَمُ امْتِنَاعًا مِنَ الْقَابِلِ لِلْوُجُودِ وَالْعَدَمِ؛ بَلْ وَمِنِ اجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَنَفْيِهِمَا جَمِيعًا، فَمَا نَفَيْتَ عَنْهُ قَبُولَ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ كَانَ أَعْظَمَ امْتِنَاعًا مِمَّا نَفَيْت عَنْهُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ، وَإِذَا كَانَ هَذَا مُمْتَنِعًا فِي صَرَائِحِ الْعُقُولِ فَذَاكَ أَعْظَمُ امْتِنَاعًا؛ فَجَعَلْتَ الْوُجُودَ الْوَاجِبَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعَدَمَ هُوَ أَعْظَمُ الْمُمْتَنِعَاتِ. وَهَذَا غَايَةُ التَّنَاقُضِ وَالْفَسَادِ.

وَهَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيَّةُ:

مِنْهُمْ مَنْ يُصَرِّحُ بِرَفْعِ النَّقِيضَيْنِ: الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ؛ وَرَفْعُهُمَا كَجَمْعِهِمَا.

وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ: لَا أُثْبِتُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، وَامْتِنَاعُهُ عَنْ إِثْبَاتِ أَحَدِهِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا يَمْنَعُ تَحَقُّقَ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ كَجَهْلِ الْجَاهِلِ، وَسُكُوتِ السَّاكِتِ الَّذِي



لَا يُعَبِّرُ عَنِ الْحَقَائِقِ.

وَإِذَا كَانَ مَا لَا يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَلَا الْعَدَمَ أَعْظَمَ امْتِنَاعًا مِمَّا يُقَدَّرُ قَبُولُهُ لَهُمَا - مَعَ نَفْيِهِمَا عَنْهُ - فَمَا يُقَدَّرُ لَا يَقْبَلُ الْحَيَاةَ وَلَا الْمَوْتَ، وَلَا الْعِلْمَ وَلَا الْجَهْلَ، وَلَا الْقُدْرَةَ وَلَا الْعَجْزَ، وَلَا الْكَلَامَ وَلَا الْخَرَسَ، وَلَا الْعَمَىٰ وَلَا الْبَصَرَ وَلَا السَّمْعَ وَلَا الصَّمَمَ= أَقْرَبُ إِلَىٰ الْمَعْدُومِ الْمُمْتَنِعِ مِمَّا يُقَدَّرُ قَابِلًا لَهُمَا - مَعَ نَفْيِهِمَا عَنْهُ.

وَحِينَئِذٍ فَنَفْيُهُمَا مَعَ كَوْنِهِ قَابِلًا لَهُمَا أَقْرَبُ إِلَىٰ الْوُجُودِ وَالْمُمْكِنِ، وَمَا جَازَ لِوَاجِبِ الْوُجُودِ - قَابِلًا - وَجَبَ لَهُ؛ لِعَدَمِ تَوَقُّفِ صِفَاتِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ؛ فَإِذَا جَازَ الْقَبُولُ وَجَبَ؛ وَإِذَا جَازَ وُجُودُ الْقَبُولِ وَجَبَ.

وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَبُيِّنَ وُجُوبُ اتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي لَا نَقْصَ فِيهَا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ.

وَقِيلَ لَهُ أَيْضًا: اتِّفَاقُ الْمُسَمَّيَيْنِ فِي بَعْضِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: لَيْسَ هُوَ التَّشْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ الَّذِي نَفَتْهُ الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّاتُ وَالْعَقْلِيَّاتُ، وَإِنَّمَا نَفَتْ مَا يَسْتَلْزِمُ اشْتِرَاكَهُمَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ الْخَالِقُ، مِمَّا يَخْتَصُّ بِوُجُوبِهِ أَوْ جَوَازِهِ أَوِ امْتِنَاعِهِ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَشْرَكَهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ، وَلَا يَشْرَكَهُ مَخْلُوقٌ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ ﷻ.

وَأَمَّا مَا نَفَيْتَهُ: فَهُوَ ثَابِتٌ بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ، وَتَسْمِيَتُكَ ذَلِكَ تَشْبِيهًا وَتَجْسِيمًا تَمْوِيهٌ عَلَىٰ الْجُهَّالِ؛ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ كُلَّ مَعْنًىٰ سَمَّاهُ مُسَمٍّ بِهَذَا الِاسْمِ يَجِبُ نَفْيُهُ؛ وَلَوْ سَاغَ هَذَا لَكَانَ كُلُّ مُبْطِلٍ يُسَمِّي الْحَقَّ بِأَسْمَاءَ يَنْفِرُ عَنْهَا بَعْضُ النَّاسِ؛ لِيُكَذِّبَ النَّاسُ بِالْحَقِّ الْمَعْلُومِ بِالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ.

وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ: أَفْسَدَتِ الْمَلَاحِدَةُ عَلَىٰ طَوَائِفَ مِنَ النَّاسِ عَقْلَهُمْ وَدِينَهُمْ حَتَّىٰ أَخْرَجُوهُمْ إِلَىٰ أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالْجَهَالَةِ، وَأَبْلَغِ الْغَيِّ وَالضَّلَالَةِ.

وَإِنْ قَالَ نُفَاةُ الصِّفَاتِ: إِثْبَاتُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ مُسْتَلْزِمٌ تَعَدُّدَ الصِّفَاتِ، وَهَذَا تَرْكِيبٌ مُمْتَنِعٌ.

قِيلَ: وَإِذَا قُلْتُمْ: هُوَ مَوْجُودٌ وَاجِبٌ، وَعَقْلٌ وَعَاقِلٌ وَمَعْقُولٌ، وَعَاشِقٌ وَمَعْشُوقٌ، وَلَذِيذٌ وَمُلْتَذٌّ وَلَذَّةٌ. أَفَلَيْسَ الْمَفْهُومُ مِنْ هَذَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ هَذَا؟ فَهَذِهِ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ مُتَغَايِرَةٌ فِي الْعَقْلِ، وَهَذَا تَرْكِيبٌ عِنْدَكُمْ، وَأَنْتُمْ تُثْبِتُونَهُ وَتُسَمُّونَهُ تَوْحِيدًا.



فَإِنْ قَالُوا: هَذَا تَوْحِيدٌ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَيْسَ هَذَا تَرْكِيبًا مُمْتَنِعًا.

قِيلَ لَهُمْ: وَاتِّصَافُ الذَّاتِ بِالصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ لَهَا تَوْحِيدٌ فِي الْحَقِيقَةِ وَلَيْسَ هُوَ تَرْكِيبًا مُمْتَنِعًا.

وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ بِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْنَىٰ كَوْنِ الشَّيْءِ عَالِمًا هُوَ مَعْنَىٰ كَوْنِهِ قَادِرًا، وَلَا نَفْسُ ذَاتِهِ هُوَ نَفْسُ كَوْنِهِ عَالِمًا قَادِرًا؛ فَمَنْ جَوَّزَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَةُ هِيَ الْأُخْرَىٰ، وأَنْ تَكُونَ الصِّفَةُ هِيَ الْمَوْصُوفُ؛ فَهُوَ: مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ سَفْسَطَةً.

ثُمَّ إِنَّهُ مُتَنَاقِضٌ؛ فَإِنَّهُ إِنْ جَوَّزَ ذَلِكَ جَازَ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ هَذَا هُوَ وُجُودُ هَذَا، فَيَكُونُ الْوُجُودُ وَاحِدًا بِالْعَيْنِ لَا بِالنَّوْعِ.

وَحِينَئِذٍ فَإِذَا كَانَ وُجُودُ الْمُمْكِنِ هُوَ وُجُودَ الْوَاجِبِ؛ كَانَ وُجُودُ كُلِّ مَخْلُوقٍ يُعْدَمُ بِعَدَمِ وُجُودِهِ، وَيُوجَدُ بَعْدَ عَدَمِهِ؛ هُوَ: نَفْسُ وُجُودِ الْحَقِّ الْقَدِيمِ الدَّائِمِ الْبَاقِي الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعَدَمَ.

وَإِذَا قُدِّرَ هَذَا؛ كَانَ الْوُجُودُ الْوَاجِبُ مَوْصُوفًا بِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَتَجْسِيمٍ، وَكُلِّ نَقْصٍ وَكُلِّ عَيْبٍ؛ كَمَا يُصَرِّحُ بِذَلِكَ أَهْلُ وَحْدَةِ الْوُجُودِ الَّذِينَ طَرَدُوا هَذَا الْأَصْلَ الْفَاسِدَ، وَحِينَئِذٍ فَتَكُونُ أَقْوَالُ نُفَاةُ الصِّفَاتِ بَاطِلَةً عَلَىٰ كُلِّ تَقْدِيرٍ.

وَهَذَا بَابٌ مُطَّرِدٌ؛ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ النُّفَاةِ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ مِنَ الصِّفَاتِ: لَا يَنْفِي شَيْئًا فِرَارًا مِمَّا هُوَ مَحْذُورٌ، إِلَّا وَقَدْ أَثْبَتَ مَا يَلْزَمُهُ فِيهِ نَظِيرُ مَا فَرَّ مِنْهُ، فَلَا بُدَّ فِي آخِرِ الْأَمْرِ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ مَوْجُودًا وَاجِبًا قَدِيمًا مُتَّصِفًا بِصِفَاتٍ تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَلَا يَكُونُ فِيهَا مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ.

فَيُقَالُ لَهُ: وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ، وَكُلُّ مَا نُثْبِتُهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: فَلَا بُدَّ أَنْ يَدُلَّ عَلَىٰ قَدْرٍ مُشْتَرِكٍ تَتَوَاطَأُ فِيهِ الْمُسَمَّيَاتُ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا فُهِمَ الْخِطَابُ؛ وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّ مَا اخْتَصَّ اللهُ بِهِ وَامْتَازَ عَنْ خَلْقِهِ: أَعْظَمُ مِمَّا يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَوْ يَدُورُ فِي الْخَيَالِ.

وَهَذَا يَتَبَيَّنُ بِالْأَصْلِ الثَّانِي؛ وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: **الْقَوْلُ فِي الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي الذَّاتِ**، فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؛ لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ. فَإِذَا كَانَ لَهُ ذَاتٌ حَقِيقَةً لَا تُمَاثِلُ الذَّوَاتَ. فَالذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِصِفَاتٍ حَقِيقَةً لَا تُمَاثِلُ صِّفَاتِ سَائِرِ الذَّوَاتِ.

فَإِذَا قَالَ السَّائِلُ: كَيْفَ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ؟ قِيلَ لَهُ كَمَا قَالَ رَبِيعَةُ وَمَالِكٌ وَغَيْرُهُمَا: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ بِدْعَةٌ.

لِأَنَّهُ سُؤَالٌ عَمَّا لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ، وَلَا يُمْكِنُهُمُ الْإِجَابَةُ عَنْهُ.



وَكَذَلِكَ إذَا قَالَ: كَيْفَ يَنْزِلُ رَبُّنَا إلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا؟

قِيلَ لَهُ: كَيْفَ هُوَ؟

فَإِذَا قَالَ: لَا أَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ.

قِيلَ لَهُ: وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ نُزُولِهِ إذْ الْعِلْمُ بِكَيْفِيَّةِ الصِّفَةِ يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ الْمَوْصُوفِ؛ وَهُوَ فَرْعٌ لَهُ وَتَابِعٌ لَهُ.

فَكَيْفَ تُطَالِبُنِي بِالْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَتَكْلِيمِهِ وَنُزُولِهِ وَاسْتِوَائِهِ، وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَاتِهِ.

وَإِذَا كُنْت تُقِرُّ بِأَنَّ لَهُ ذَاتًا حَقِيقَةً ثَابِتَةً فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، مُسْتَوْجِبَةً لِصِفَاتِ الْكَمَالِ، لَا يُمَاثِلُهَا شَيْءٌ؛ فَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَكَلَامُهُ وَنُزُولُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ ثَابِتٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي لَا يُشَابِهُهُ فِيهَا سَمْعُ الْمَخْلُوقِينَ وَبَصَرُهُمْ، وَكَلَامُهُمْ وَنُزُولُهُمْ وَاسْتِوَاؤُهُمْ.

وَهَذَا الْكَلَامُ لَازِمٌ لَهُمْ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَفِي تَأْوِيلِ السَّمْعِيَّاتِ: فَإِنَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا وَنَفَىٰ شَيْئًا بِالْعَقْلِ إذَا أُلْزِمَ فِيمَا نَفَاهُ مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ نَظِيرُ مَا يَلْزَمُهُ فِيمَا أَثْبَتَهُ، وَلَوْ طُولِبَ بِالْفَرْقِ بَيْنَ الْمَحْذُورِ فِي هَذَا وَهَذَا= لَمْ يَجِدْ بَيْنَهُمَا فَرْقًا.

وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ لِنُفَاةِ بَعْضِ الصِّفَاتِ دُونَ بَعْضٍ؛ الَّذِينَ يُوجِبُونَ فِيمَا نَفَوْهُ: إمَّا التَّفْوِيضَ، وَإِمَّا التَّأْوِيلَ الْمُخَالِفَ لِمُقْتَضَىٰ اللَّفْظِ = قَانُونٌ مُسْتَقِيمٌ.

فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: لِمَ تَأَوَّلْتُمْ هَذَا، وَأَقْرَرْتُمْ هَذَا، وَالسُّؤَالُ فِيهِمَا وَاحِدٌ؟ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ صَحِيحٌ؛ فَهَذَا تَنَاقُضُهُمْ فِي النَّفْيِ.

وَكَذَلِكَ تَنَاقُضُهُمْ فِي الْإِثْبَاتِ؛ فَإِنَّ مَنْ تَأَوَّلَ النُّصُوصَ عَلَىٰ مَعْنًىٰ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي يُثْبِتُهَا فَإِنَّهُمْ إذَا صَرَفُوا النَّصَّ عَنِ الْمَعْنَىٰ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَاهُ إلَىٰ مَعْنًىٰ آخَرَ: لَزِمَهُمْ فِي الْمَعْنَىٰ الْمَصْرُوفِ إلَيْهِ مَا كَانَ يَلْزَمُهُمْ فِي الْمَعْنَىٰ الْمَصْرُوفِ عَنْهُ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: تَأْوِيلُ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَسَخَطِهِ؛ هُوَ: إرَادَتُهُ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ؛ كَانَ مَا يَلْزَمُهُ فِي الْإِرَادَةِ نَظِيرَ مَا يَلْزَمُهُ فِي الْحُبِّ وَالْمَقْتِ وَالرِّضَا وَالسَّخَطِ، وَلَوْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِمَفْعُولَاتِهِ وَهُوَ مَا يَخْلُقُهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ؛ فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ فِي ذَلِكَ نَظِيرُ مَا فَرَّ مِنْهُ.

فَإِنَّ الْفِعْلَ لَا بُدَّ أَنْ يَقُومَ أَوَّلًا بِالْفَاعِلِ، وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ الْمَفْعُولُ إنَّمَا يَكُونُ عَلَىٰ فِعْلٍ



مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَيَسْخَطُهُ وَيُبْغِضُهُ الْمُثِيبُ الْمُعَاقِبُ، فَهُمْ إِنْ أَثْبَتُوا الْفِعْلَ عَلَىٰ مِثْلِ الْوَجْهِ الْمَعْقُولِ فِي الشَّاهِدِ لِلْعَبْدِ مَثَّلُوا، وَإِنْ أَثْبَتُوهُ عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ؛ فَكَذَلِكَ سائر الصِّفَاتُ.



فصلٌ

وَأَمَّا الْمَثَلَانِ الْمَضْرُوبَانِ:

فَإِنَّ اللهَ ﷻ أَخْبَرَنَا عَمَّا فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ: مِنْ أَصْنَافِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَنَاكِحِ وَالْمَسَاكِنِ؛ فَأَخْبَرَنَا أَنَّ فِيهَا لَبَنًا وَعَسَلًا وَخَمْرًا وَمَاءً وَلَحْمًا وَفَاكِهَةً وَحَرِيرًا وَذَهَبًا وَفِضَّةً وَحُورًا وَقُصُورًا.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءَ.

فَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْحَقَائِقُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ عَنْهَا هِيَ مُوَافِقَةٌ فِي الْأَسْمَاءِ لِلْحَقَائِقِ الْمَوْجُودَةِ فِي الدُّنْيَا وَلَيْسَتْ مُمَاثِلَةً لَهَا؛ بَلْ بَيْنَهُمَا مِنَ التَّبَايُنِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ: **فَالْخَالِقُ ﷻ أَعْظَمُ مُبَايَنَةً لِلْمَخْلُوقَاتِ مِنْ مُبَايَنَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ.**

وَمُبَايَنَتُهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ أَعْظَمُ مِنْ مُبَايَنَةِ مَوْجُودِ الْآخِرَةِ لِمَوْجُودِ الدُّنْيَا، إِذِ الْمَخْلُوقُ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْمَخْلُوقِ الْمُوَافِقُ لَهُ فِي الِاسْمِ مِنَ الْخَالِقِ إِلَىٰ الْمَخْلُوقِ. وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ.

وَلِهَذَا افْتَرَقَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ثَلَاثَ فِرَقٍ:

فَالسَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ وَأَتْبَاعُهُمْ: آمَنُوا بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَعَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِالْمُبَايَنَةِ الَّتِي بَيْنَ مَا فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مُبَايَنَةَ اللهِ لِخَلْقِهِ أَعْظَمُ.

وَالْفَرِيقُ الثَّانِي: الَّذِينَ أَثْبَتُوا مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَنَفَوْا كَثِيرًا مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ الصِّفَاتِ؛ مِثْلَ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ: [الْمُعْتَزِلَةُ] وَمَنْ وَافَقَهُمْ.

وَالْفَرِيقُ الثَّالِثُ: نَفَوْا هَذَا وَهَذَا، كَالْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَالْفَلَاسِفَةِ أَتْبَاعِ الْمَشَّائِينَ، وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ حَقَائِقَ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ فَيَجْعَلُونَ الشَّرَائِعَ الْمَأْمُورَ بِهَا، وَالْمَحْظُورَاتِ الْمَنْهِيَّ عَنْهَا، لَهَا تَأْوِيلَاتٌ بَاطِنَةٌ تُخَالِفُ مَا يَعْرِفُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا، كَمَا يَتَأَوَّلُونَ مِنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، فَيَقُولُونَ: إِنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ مَعْرِفَةُ أَسْرَارِهِمْ، وَإِنَّ صِيَامَ رَمَضَانَ كِتْمَانُ أَسْرَارِهِمْ، وَإِنَّ حَجَّ الْبَيْتِ السَّفَرُ إِلَىٰ



شُيُوخِهِمْ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي يُعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّهَا كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ عَلَى الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ - وَتَحْرِيفٌ لِكَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَإِلْحَادٌ فِي آيَاتِ اللهِ.

وَقَدْ يَقُولُونَ: الشَّرَائِعُ تَلْزَمُ الْعَامَّةَ دُونَ الْخَاصَّةِ فَإِذَا صَارَ الرَّجُلُ مِنْ عَارِفِيهِمْ وَمُحَقِّقِيهِمْ وَمُوَحِّدِيهِمْ رَفَعُوا عَنْهُ الْوَاجِبَاتِ، وَأَبَاحُوا لَهُ الْمَحْظُورَاتِ.

وَقَدْ يَدْخُلُ فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى التَّصَوُّفِ وَالسُّلُوكِ مَنْ يَدْخُلُ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ.

وَهَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيَّةُ: هُمْ الْمَلَاحِدَةُ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُمْ أَكْفَرُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

وَمَا يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى الْمَلَاحِدَةِ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِثْبَاتِ: يَحْتَجُّ بِهِ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى مَنْ يَشْرَكُ هَؤُلَاءِ فِي بَعْضِ إِلْحَادِهِمْ فَإِذَا أَثْبَتَ لِلَّهِ تَعَالَى الصِّفَاتِ وَنَفَى عَنْهُ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقَاتِ - كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ - كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْحَقَّ الَّذِي يُوَافِقُ الْمَعْقُولَ وَالْمَنْقُولَ، وَيَهْدِمُ أَسَاسَ الْإِلْحَادِ وَالضَّلَالَاتِ.

وَاللهُ ﷻ لَا تُضْرَبُ لَهُ الْأَمْثَالُ الَّتِي فِيهَا مُمَاثَلَةٌ لِخَلْقِهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا مِثْلَ لَهُ؛ بَلْ لَهُ «**الْمَثَلُ الْأَعْلَى**»، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَشْتَرِكَ هُوَ وَالْمَخْلُوقَاتُ فِي قِيَاسِ تَمْثِيلٍ، وَلَا فِي قِيَاسِ شُمُولٍ تَسْتَوِي أَفْرَادُهُ، وَلَكِنْ يُسْتَعْمَلُ فِي حَقِّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا اتَّصَفَ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ كَمَالٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ، وَكُلَّ مَا تَنَزَّهَ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ مِنْ نَقْصٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِالتَّنْزِيهِ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوقُ مُنَزَّهًا عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِ مَعَ الْمُوَافَقَةِ فِي الِاسْمِ، فَالْخَالِقُ أَوْلَى أَنْ يُنَزَّهَ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِ، وَإِنْ حَصَلَتْ مُوَافَقَةٌ فِي الِاسْمِ.

وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي الْمَثَلِ الثَّانِي. وَهُوَ الرُّوحُ الَّتِي فِينَا، فَإِنَّهَا قَدْ وُصِفَتْ بِصِفَاتٍ ثُبُوتِيَّةٍ وَسَلْبِيَّةٍ، وَقَدْ أَخْبَرَتْ النُّصُوصُ أَنَّهَا تَعْرُجُ وَتَصْعَدُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، وَأَنَّهَا تُقْبَضُ مِنْ الْبَدَنِ، وَتُسَلُّ مِنْهُ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنْ الْعَجِينِ.

وَالنَّاسُ مُضْطَرِبُونَ فِيهَا:

فَمِنْهُمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يَجْعَلُونَهَا جُزْءًا مِنْ الْبَدَنِ، أَوْ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: أَنَّهَا النَّفَسُ أَوْ الرِّيحُ الَّتِي تَتَرَدَّدُ فِي الْبَدَنِ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّهَا الْحَيَاةُ، أَوِ الْمِزَاجُ، أَو نَفَسُ الْبَدَنِ.

وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْفَلْسَفَةِ يَصِفُونَهَا بِمَا يَصِفُونَ بِهِ وَاجِبَ الْوُجُودِ عِنْدَهُمْ، وَهِيَ



أُمُورٌ لَا يَتَّصِفُ بِهَا إِلَّا مُمْتَنِعُ الْوُجُودِ، **فَيَقُولُونَ**: لَا هِيَ دَاخِلَ الْبَدَنِ وَلَا خَارِجه وَلَا مُبَايِنَةٌ لَهُ وَلَا مُدَاخِلَةٌ لَهُ، وَلَا مُتَحَرِّكَةٌ وَلَا سَاكِنَةٌ، وَلَا تَصْعَدُ وَلَا تَهْبِطُ، وَلَا هِيَ جِسْمٌ وَلَا عَرَضٌ.

وَقَدْ يَقُولُونَ: إِنَّهَا لَا تُدْرِكُ الْأُمُورَ الْمُعَيَّنَةَ وَالْحَقَائِقَ الْمَوْجُودَةَ فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا تُدْرِكُ الْأُمُورَ الْكُلِّيَّةَ الْمُطْلَقَةَ.

وَقَدْ يَقُولُونَ: إِنَّهَا لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجهُ وَلَا مُبَايِنَةٌ لَهُ وَلَا مُدَاخِلَةٌ وَرُبَّمَا قَالُوا لَيْسَتْ دَاخِلَةً فِي أَجْسَامِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَةً عَنْهَا مَعَ تَفْسِيرِهِمْ لِلْجِسْمِ بِمَا لَا يَقْبَلُ الْإِشَارَةَ الْحِسِّيَّةَ، فَيَصِفُونَهَا بِأَنَّهَا لَا يُمْكِنُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ الَّتِي تُلْحِقُهَا بِالْمَعْدُومِ وَالْمُمْتَنِعِ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: إِثْبَاتُ مِثْلِ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي ضَرُورَةِ الْعَقْلِ.

قَالُوا: بَلْ هَذَا مُمْكِنٌ بِدَلِيلِ أَنَّ الْكُلِّيَّاتِ مُمْكِنَةٌ مَوْجُودَةٌ وَهِيَ غَيْرُ مُشَارٍ إِلَيْهَا.

وَقَدْ غَفَلُوا عَنْ كَوْنِ الْكُلِّيَّاتِ لَا تُوجَدُ كُلِّيَّةً إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ؛ فَيَعْتَمِدُونَ فِيمَا يَقُولُونَهُ فِي الْمَبْدَإِ وَالْمَعَادِ عَلَىٰ مِثْلِ هَذَا الْخَيَالِ الَّذِي لَا يَخْفَىٰ فَسَادُهُ عَلَىٰ غَالِبِ الْجُهَّالِ.

وَاضْطِرَابُ النُّفَاةِ وَالْمُثْبِتَةِ فِي الرُّوحِ كَثِيرٌ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ - الَّتِي تُسَمَّىٰ بِالنَّفْسِ النَّاطِقَةِ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ - لَيْسَتْ هِيَ مِنْ جِنْسِ هَذَا الْبَدَنِ، وَلَا مِنْ جِنْسِ الْعَنَاصِرِ وَالْمُوَلَّدَاتِ مِنْهَا؛ بَلْ هِيَ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ مُخَالِفٍ لِهَذِهِ الْأَجْنَاسِ، فَصَارَ هَؤُلَاءِ لَا يُعَرِّفُونَهَا إِلَّا بِالسُّلُوبِ الَّتِي تُوجِبُ مُخَالَفَتَهَا لِلْأَجْسَامِ الْمَشْهُودَةِ، وَأُولَئِكَ يَجْعَلُونَهَا مِنْ جِنْسِ الْأَجْسَامِ الْمَشْهُودَةِ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ.

وَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا جِسْمٌ، أَوْ لَيْسَتْ بِجِسْمٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَفْصِيلٍ، فَإِنَّ لَفْظَ الْجِسْمِ لِلنَّاسِ فِيهِ أَقْوَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ اصْطِلَاحِيَّةٌ غَيْرَ مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ.

فَأَهْلَ اللُّغَةِ يَقُولُونَ: الْجِسْمُ هُوَ الْجَسَدُ وَالْبَدَنُ. وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَالرُّوحُ لَيْسَتْ جِسْمًا؛ **وَلِهَذَا يَقُولُونَ**: الرُّوحُ وَالْجِسْمُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾ [المنافقون:٤] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وَأَمَّا أَهْلُ الْكَلَامِ: **فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ**: الْجِسْمُ هُوَ الْمَوْجُودُ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الْقَائِمُ



بِنَفْسِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ**: هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ. **وَكُلُّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ**: إنَّهُ مُشَارٌ إلَيْهِ إشَارَةً حِسِّيَّةً.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَيْسَ بِمُرَكَّبِ لَا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا، بَلْ هُوَ مِمَّا يُشَارُ إلَيْهِ **وَيُقَالُ**: إنَّهُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ.

فَعَلَىٰ هَذَا إذَا كَانَتْ الرُّوحُ مِمَّا يُشَارُ إلَيْهِ وَيَتْبَعُهُ بَصَرُ الْمَيِّتِ - كَمَا قَالَ ﷺ: «**أَنَّ الرُّوحَ إذَا خَرَجَتْ تَبِعَهَا الْبَصَرُ وَأَنَّهَا تُقْبَضُ وَيُعْرَجُ بِهَا إلَىٰ السَّمَاءِ**» - كَانَتْ الرُّوحُ جِسْمًا بِهَذَا الِاصْطِلَاحِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الرُّوحَ إذَا كَانَتْ مَوْجُودَةً حَيَّةً عَالِمَةً قَادِرَةً سَمِيعَةً بَصِيرَةً، تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ وَتَذْهَبُ وَتَجِيءُ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ، وَالْعُقُولُ قَاصِرَةٌ عَنْ تَكْيِيفِهَا وَتَحْدِيدِهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا لَهَا نَظِيرًا، وَالشَّيْءُ إنَّمَا تُدْرَكُ حَقِيقَتُهُ إمَّا بِمُشَاهَدَتِهِ أَوْ مُشَاهَدَةِ نَظِيرِهِ، فَإِذَا كَانَتْ الرُّوحُ مُتَّصِفَةً بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مَعَ عَدَمِ مُمَاثَلَتِهَا لِمَا يُشَاهَدُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فَالْخَالِقُ أَوْلَىٰ بِمُبَايَنَتِهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ مَعَ اتِّصَافِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ وَأَهْلُ الْعُقُولِ هُمْ أَعْجَزُ عَنْ أَنْ يَحُدُّوهُ أَوْ يُكَيِّفُوهُ مِنْهُمْ عَنْ أَنْ يَحُدُّوا الرُّوحَ أَوْ يُكَيِّفُوهَا.

فَإِذَا كَانَ مَنْ نَفَىٰ صِفَاتِ الرُّوحِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا لَهَا، وَمَنْ مَثَّلَهَا بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ جَاهِلًا مُمَثِّلًا لَهَا بِغَيْرِ شَكْلِهَا، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ ثَابِتَةٌ بِحَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ، مُسْتَحِقَّةٌ لِمَا لَهَا مِنْ الصِّفَاتِ، فالْخَالِقُ ﷻ أَوْلَىٰ أَنْ يَكُونَ مَنْ نَفَىٰ صِفَاتِهِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا، وَمَنْ قَاسَهُ بِخَلْقِهِ جَاهِلًا بِهِ مُمَثِّلًا وَهُوَ سُبْحَانَهُ ثَابِتٌ بِحَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ مُسْتَحِقٌّ لِمَا لَهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.



فصلٌ

وَأَمَّا الْخَاتِمَةُ الْجَامِعَةُ فَفِيهَا قَوَاعِدُ نَافِعَةٌ:

الْقَاعِدَةُ الْأُولَىٰ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ. فَالْإِثْبَاتُ كَإِخْبَارِهِ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَالنَّفْيُ كَقَوْلِهِ: لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.



وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّفْيَ لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا كَمَالٌ، إلَّا إذَا تَضَمَّنَ إثْبَاتًا، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ النَّفْيِ لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا كَمَالٌ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ عَدَمٌ مَحْضٌ، وَالْعَدَمُ الْمَحْضُ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَمَا لَيْسَ بِشَيْءٍ هُوَ كَمَا قِيلَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مَدْحًا أَوْ كَمَالًا.

وَلِأَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ يُوصَفُ بِهِ الْمَعْدُومُ وَالْمُمْتَنِعُ، وَالْمَعْدُومُ وَالْمُمْتَنِعُ لَا يُوصَفُ بِمَدْحٍ وَلَا كَمَالٍ.

فَلِهَذَا كَانَ عَامَّةُ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ النَّفْيِ مُتَضَمِّنًا لِإِثْبَاتِ مَدْحٍ.

كَقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فَنَفْيُ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ: يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْحَيَاةِ وَالْقِيَامِ، فَهُوَ مُبَيِّنٌ لِكَمَالِ أَنَّهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] أَيْ لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ، وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَتَمَامِهَا. بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ الْقَادِرِ إذَا كَانَ يَقْدِرُ عَلَى الشَّيْءِ بِنَوْعِ كُلْفَةٍ وَمَشَقَّةٍ، فَإِنَّ هَذَا نَقْصٌ فِي قُدْرَتِهِ، وَعَيْبٌ فِي قُوَّتِهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣] فَإِنَّ نَفْيَ الْعُزُوبِ مُسْتَلْزِمٌ لِعِلْمِهِ بِكُلِّ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق] فَإِنَّ نَفْيَ مَسِّ اللُّغُوبِ الَّذِي هُوَ التَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ دَلَّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَنِهَايَةِ الْقُوَّةِ. بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يَلْحَقُهُ مِنْ النَّصَبِ وَالْكَلَالِ مَا يَلْحَقُهُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، إنَّمَا نَفَى الْإِدْرَاكَ الَّذِي هُوَ الْإِحَاطَةُ، كَمَا قَالَهُ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ. وَلَمْ يَنْفِ مُجَرَّدَ الرُّؤْيَةِ؛ لِأَنَّ الْمَعْدُومَ لَا يُرَى وَلَيْسَ فِي كَوْنِهِ لَا يُرَى مَدْحٌ؛ إذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ الْمَعْدُومُ مَمْدُوحًا، وَإِنَّمَا الْمَدْحُ فِي كَوْنِهِ لَا يُحَاطُ بِهِ وَإِنْ رُئِيَ، كَمَا أَنَّهُ لَا يُحَاطُ بِهِ وَإِنْ عُلِمَ، فَكَمَا أَنَّهُ إذَا عُلِمَ لَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا: فَكَذَلِكَ إذَا رُئِيَ لَا يُحَاطُ بِهِ رُؤْيَةً.

فَكَانَ فِي نَفْيِ الْإِدْرَاكِ مِنْ إثْبَاتِ عَظَمَتِهِ مَا يَكُونُ مَدْحًا وَصِفَةَ كَمَالٍ وَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى إثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ لَا عَلَى نَفْيِهَا لَكِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى إثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ مَعَ عَدَمِ الْإِحَاطَةِ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا.



وَإِذَا تَأَمَّلْت ذَلِكَ: وَجَدْت كُلَّ نَفْيٍ لَا يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتًا هُوَ مِمَّا لَمْ يَصِفْ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَالَّذِينَ لَا يَصِفُونَهُ إلَّا بِالسُّلُوبِ لَمْ يُثْبِتُوا فِي الْحَقِيقَةِ إلَهًا مَحْمُودًا؛ بَلْ وَلَا مَوْجُودًا.

وَكَذَلِكَ مَنْ شَارَكَهُمْ فِي بَعْضِ ذَلِكَ كَالَّذِينَ قَالُوا لَا يَتَكَلَّمُ، أَوْ لَا يَرَىٰ، أَوْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ، أَوْ لَمْ يَسْتَوِ عَلَىٰ الْعَرْشِ، **وَيَقُولُونَ**: لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُبَايِنٍ لِلْعَالَمِ وَلَا محايثٍ لَهُ؛ إذْ هَذِهِ الصِّفَاتُ يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ بِهَا الْمَعْدُومُ وَلَيْسَتْ هِيَ مُسْتَلْزِمَةً صِفَةَ ثُبُوتٍ، وَلِهَذَا «**قَالَ مَحْمُودُ بْنُ سبكتكين**» لِمَنْ ادَّعَىٰ ذَلِكَ فِي الْخَالِقِ: مَيِّزْ لَنَا بَيْنَ هَذَا الرَّبِّ الَّذِي تُثْبِتُهُ وَبَيْنَ الْمَعْدُومِ.

وَكَذَلِكَ كَوْنُهُ لَا يَتَكَلَّمُ، أَوْ لَا يَنْزِلُ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ صِفَةُ مَدْحٍ وَلَا كَمَالٍ؛ بَلْ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِيهَا تَشْبِيهٌ لَهُ بِالْمَنْقُوصَاتِ أَوْ الْمَعْدُومَاتِ، فَهَذِهِ الصِّفَاتُ: مِنْهَا مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ إلَّا الْمَعْدُومُ وَمِنْهَا مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ إلَّا الْجَمَادُ أَوالنَّاقِصُ.

فَمَنْ قَالَ: لَا هُوَ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا مُدَاخِلٌ لِلْعَالَمِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ **مَنْ قَالَ**: لَا هُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ، وَلَا قَدِيمٌ وَلَا مُحْدَثٌ، وَلَا مُتَقَدِّمٌ عَلَىٰ الْعَالَمِ وَلَا مُقَارِنٌ لَهُ.

وَمَنْ قَالَ: إنَّهُ لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ وَلَا مُتَكَلِّمٍ، لَزِمَهُ أَنْ يَكُونَ مَيِّتًا أَصَمَّ أَعْمَىٰ أَبْكَمَ.

فَإِنْ قَالَ: الْعَمَىٰ عَدَمُ الْبَصَرِ عَمَّا مَنْ شَأْنُهُ أَنْ يَقْبَلَ الْبَصَرَ وَمَا لَمْ يَقْبَلْ الْبَصَرَ كَالْحَائِطِ لَا يُقَالُ لَهُ أَعْمَىٰ وَلَا بَصِيرٌ.

قِيلَ لَهُ: هَذَا اصْطِلَاحٌ اصْطَلَحْتُمُوهُ، وَإِلَّا فَمَا يُوصَفُ بِعَدَمِ الْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ يُمْكِنُ وَصْفُهُ بِالْمَوْتِ وَالْعَمَىٰ وَالْخَرَسِ وَالْعُجْمَةِ.

وَأَيْضًا: فَكُلُّ مَوْجُودٍ يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ وَنَقَائِضِهَا، فَإِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ جَعْلِ الْجَمَادِ حَيًّا، كَمَا جَعَلَ عَصَىٰ مُوسَىٰ حَيَّةً، ابْتَلَعَتْ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ.

وَأَيْضًا: فَالَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ أَعْظَمُ نَقْصًا مِمَّنْ يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَا مَعَ اتِّصَافِهِ بِنَقَائِضِهَا. فَالْجَمَادُ الَّذِي لَا يُوصَفُ بِالْبَصَرِ وَلَا الْعَمَىٰ وَلَا الْكَلَامِ وَلَا الْخَرَسِ: أَعْظَمُ نَقْصًا مِنْ الْحَيِّ الْأَعْمَىٰ الْأَخْرَسِ.

فَإِذَا قِيلَ: إنَّ الْبَارِيَ عَزَّوَجَلَّ لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِذَلِكَ كَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ وَصْفِهِ بِالنَّقْصِ أَعْظَمُ مِمَّا إذَا وُصِفَ بِالْخَرَسِ وَالْعَمَىٰ وَالصَّمَمِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، مَعَ أَنَّهُ إذَا جُعِلَ غَيْرَ قَابِلٍ لَهُمَا كَانَ



تَشْبِيهًا لَهُ بِالْجَمَادِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَهَذَا تَشْبِيهٌ بِالْجَمَادَاتِ؛ لَا بِالْحَيَوَانَاتِ، فَكَيْفَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ عَلَىٰ غَيْرِهِ مَا يَزْعُمُ أَنَّهُ تَشْبِيهٌ بِالْحَيِّ!

وَأَيْضًا فَنَفْسُ نَفْيِ هَذِهِ الصِّفَاتِ نَقْصٌ كَمَا أَنَّ إِثْبَاتَهَا كَمَالٌ فَالْحَيَاةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ، هِيَ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ تَعْيِينِ الْمَوْصُوفِ بِهَا صِفَةُ كَمَالٍ. وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ وَالْفِعْلُ وَنَحْوُ ذَلِكَ؛ وَمَا كَانَ صِفَةَ كَمَالٍ فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَحَقُّ أَنْ يَتَّصِفَ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَلَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهِ مَعَ اتِّصَافِ الْمَخْلُوقِ بِهِ لَكَانَ الْمَخْلُوقُ أَكْمَلَ مِنْهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْجَهْمِيَّةَ الْمَحْضَةَ كَالْقَرَامِطَةِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ: يَنْفُونَ عَنْهُ تَعَالَىٰ اتِّصَافَهُ بِالنَّقِيضَيْنِ **حَتَّىٰ يَقُولُوا**: لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ، وَلَا حَيٍّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْخُلُوَّ عَنِ النَّقِيضَيْنِ مُمْتَنِعٌ فِي بَدَائِهِ الْعُقُولِ، كَالْجَمْعِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ.

وَآخَرُونَ وَصَفُوهُ بِالنَّفْيِ فَقَطْ، **فَقَالُوا**: لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ.

وَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ كُفْرًا مِنْ أُولَئِكَ مِنْ وَجْهٍ، وَأُولَئِكَ أَعْظَمُ كُفْرًا مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ وَجْهٍ.

فَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ هَذَا يَسْتَلْزِمُ وَصْفَهُ بِنَقِيضِ ذَلِكَ كَالْمَوْتِ وَالصَّمَمِ وَالْبُكْمِ.

قَالُوا: إِنَّمَا يَلْزَمُ ذَلِكَ لَوْ كَانَ قَابِلًا لِذَلِكَ.

وَهَذَا الِاعْتِذَارُ يَزِيدُ قَوْلَهُمْ فَسَادًا.

وَكَذَلِكَ مَنْ ضَاهَىٰ هَؤُلَاءِ - وَهُمُ الَّذِينَ **يَقُولُونَ**: لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ - إِذَا قِيلَ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي ضَرُورَةِ الْعَقْلِ، كَمَا إِذَا **قِيلَ**: لَيْسَ بِقَدِيمٍ وَلَا مُحْدَثٍ، وَلَا وَاجِبٍ وَلَا مُمْكِنٍ، وَلَا قَائِمٍ بِنَفْسِهِ وَلَا قَائِمٍ بِغَيْرِهِ.

قَالُوا: هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ قَابِلًا لِذَلِكَ، وَالْقَبُولُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُتَحَيِّزِ، فَإِذَا انْتَفَىٰ التَّحَيُّزُ انْتَفَىٰ قَبُولُ هَذَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: عِلْمُ الْخَلْقِ بِامْتِنَاعِ الْخُلُوِّ مِنْهُ هَذَيْنِ النَّقِيضَيْنِ هُوَ عِلْمٌ مُطْلَقٌ، لَا يُسْتَثْنَىٰ مِنْهُ مَوْجُودٌ. وَالتَّحَيُّزُ الْمَذْكُورُ إِنْ أُرِيدَ بِهِ كَوْنُ الأحياز الْمَوْجُودَةِ تُحِيطُ بِهِ، فَهَذَا هُوَ الدَّاخِلُ فِي الْعَالَمِ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّهُ مُنْحَازٌ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ، أَيْ: مُبَايِنٌ لَهَا، مُتَمَيِّزٌ عَنْهَا فَهَذَا هُوَ الْخُرُوجُ.

فَالْمُتَحَيِّزُ يُرَادُ بِهِ تَارَةً مَا هُوَ دَاخِلَ الْعَالَمِ، وَتَارَةً مَا هُوَ خَارِجَ الْعَالَمِ، فَإِذَا **قِيلَ**: لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ، كَانَ مَعْنَاهُ لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ.



فَهُمْ غَيَّرُوا الْعِبَارَةَ لِيُوهِمُوا مَنْ لَا يَفْهَمُ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ أَنَّ هَذَا مَعْنًىٰ آخَرَ، وَهُوَ الْمَعْنَىٰ الَّذِي عُلِمَ فَسَادُهُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ. كَمَا فَعَلَ أُولَئِكَ بِقَوْلِهِمْ: لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا مَيِّتٍ، وَلَا مَوْجُودٍ وَلَا مَعْدُوم، وَلَا عَالِمٍ وَلَا جَاهِلٍ.

الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ عَنْ رَبِّهِ -عَزَّوَجَلَّ- فَإِنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، سَوَاءٌ عَرَفْنَا مَعْنَاهُ أَوْ لَمْ نَعْرِفْ؛ لِأَنَّهُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، فَمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَجَبَ عَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ الْإِيمَانُ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهُ.

وَكَذَلِكَ مَا ثَبَتَ بِاتِّفَاقِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا
مَعَ أَنَّ هَذَا الْبَابَ يُوجَدُ عَامَّتُه مَنْصُوصًا فِي
الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مُتَّفَقًا عَلَيْهِ بَيْنَ سَلَفِ الْأُمَّةِ.

وَمَا تَنَازَعَ فِيهِ الْمُتَأَخِّرُونَ، نَفْيًا وَإِثْبَاتًا، فَلَيْسَ عَلَىٰ أَحَدٍ؛ بَلْ وَلَا لَهُ أَنْ يُوَافِقَ أَحَدًا عَلَىٰ إِثْبَاتِ لَفْظٍ أَوْ نَفْيِهِ، حَتَّىٰ يَعْرِفَ مُرَادَهُ، فَإِنْ أَرَادَ حَقًّا قُبِلَ، وَإِنْ أَرَادَ بَاطِلًا رُدَّ، وَإِنْ اشْتَمَلَ كَلَامُهُ عَلَىٰ حَقٍّ وَبَاطِلٍ لَمْ يُقْبَلْ مُطْلَقًا وَلَمْ يُرِدْ جَمِيعَ مَعْنَاهُ؛ بَلْ يُوقَفُ اللَّفْظُ وَيُفَسَّرُ الْمَعْنَىٰ، كَمَا تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الْجِهَةِ وَالتَّحَيُّزِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَلَفْظُ «الْجِهَةِ» قَدْ يُرَادُ بِهِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ اللهِ فَيَكُونُ مَخْلُوقًا، كَمَا إِذَا أُرِيدَ بِالْجِهَةِ نَفْسُ الْعَرْشِ أَوْ نَفْسُ السَّمَوَاتِ. وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، كَمَا إِذَا أُرِيدَ بِالْجِهَةِ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِي النَّصِّ إِثْبَاتُ لَفْظِ «الْجِهَةِ» وَلَا نَفْيُهُ، كَمَا فِيهِ إِثْبَاتُ «الْعُلُوِّ» وَ«الِاسْتِوَاءِ» وَ«الْفَوْقِيَّةِ» وَ«الْعُرُوجِ إِلَيْهِ» وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ مَا ثَمَّ مَوْجُودٌ إِلَّا الْخَالِقَ وَالْمَخْلُوقَ، وَالْخَالِقُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لَيْسَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ، وَلَا فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.

فَيُقَالُ لِمَنْ نَفَىٰ الْجِهَةَ: أَتُرِيدُ بِالْجِهَةِ أَنَّهَا شَيْءٌ مَوْجُودٌ مَخْلُوقٌ؟ فَاللهُ لَيْسَ دَاخِلًا فِي الْمَخْلُوقَاتِ، أَمْ تُرِيدُ بِالْجِهَةِ مَا وَرَاءَ الْعَالَمِ؟ فَلَا رَيْبَ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَالَمِ، بَائِنٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِمَنْ قَالَ: اللهُ فِي جِهَةٍ أَتُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَالَمِ؟ أَوْ تُرِيدُ بِهِ أَنَّ اللهَ دَاخِلٌ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ؟ فَإِنْ أَرَدْتَ الْأَوَّلَ فَهُوَ حَقٌّ، وَإِنْ أَرَدْتَ الثَّانِيَ فَهُوَ بَاطِلٌ.



وَكَذَلِكَ لَفْظُ «الْمُتَحَيِّزِ»: إِنْ أَرَادَ بِهِ أَنَّ اللهَ تَحُوزُهُ الْمَخْلُوقَاتُ فَاللهُ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ؛ بَلْ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزُّمر:٦٧]. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَقْبِضُ اللهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟**».

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «**وَإِنَّهُ لَيَدْحُوهَا كَمَا يَدْحُو الصِّبْيَانَ بِالْكُرَةِ**» وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ**».

وَإِنْ أَرَادَ بِهِ أَنَّهُ مُنْحَازٌ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ أَيْ: مُبَايِنٌ لَهَا، مُنْفَصِلٌ عَنْهَا، لَيْسَ حَالًّا فِيهَا. فَهُوَ سُبْحَانَهُ **كَمَا قَالَ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ**: فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ.

الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِذَا قَالَ الْقَائِلُ: ظَاهِرُ النُّصُوصِ مُرَادٌ، أَوْ ظَاهِرُهَا لَيْسَ بِمُرَادٍ.

فَإِنَّهُ يُقَالُ: لَفْظُ «الظَّاهِرِ» فِيهِ إِجْمَالٌ وَاشْتِرَاكٌ، فَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَهَا التَّمْثِيلُ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، أَوْ مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِمْ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ.

وَلَكِنِ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ لَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَ هَذَا ظَاهِرًا، وَلَا يَرْتَضُونَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ كُفْرًا وَبَاطِلًا، وَاللهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ الَّذِي وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ لَا يَظْهَرُ مِنْهُ إِلَّا ماهُو كُفْرٌ وَضَلَالٌ.

وَالَّذِينَ يَجْعَلُونَ ظَاهِرَهَا ذَلِكَ يَغْلَطُونَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

تَارَةً يَجْعَلُونَ الْمَعْنَىٰ الْفَاسِدَ ظَاهِرَ اللَّفْظِ، حَتَّىٰ يَجْعَلُوهُ مُحْتَاجًا إِلَىٰ تَأْوِيلٍ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ، وَلَا يَكُونُ كَذَلِكَ.

وَتَارَةً يَرُدُّونَ الْمَعْنَىٰ الْحَقَّ الَّذِي هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ، لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

فَالْأَوَّلُ كَمَا قَالُوا فِي قَوْلِهِ: «**عَبْدِي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي**» الْحَدِيثَ، وَفِي الْأَثَرِ الْآخَرِ: «**الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ صَافَحَهُ أَوْ قَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ**».

وَقَوْلُه: «**قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ**».

فَقَالُوا: قَدْ عُلِمَ أَنَّ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا أَصَابِعُ الْحَقِّ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: لَوْ أَعْطَيْتُمْ النُّصُوصَ حَقَّهَا مِنْ الدَّلَالَةِ لَعَلِمْتُمْ أَنَّهَا لَمْ تَدُلَّ إِلَّا عَلَىٰ حَقٍّ.



أَمَّا الْوَاحِدُ فَقَوْلُهُ: «الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ صَافَحَهُ وَقَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ» صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ لَيْسَ هُوَ صِفَةً لِلَّهِ وَلَا هُوَ نَفْسُ يَمِينِهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: [يَمِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ].

وَقَالَ: «فَمَنْ قَبَّلَهُ وَصَافَحَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ» وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشَبَّهَ لَيْسَ هُوَ الْمُشَبَّهَ بِهِ، فَفِي نَفْسِ الْحَدِيثِ بَيَانُ أَنَّ مُسْتَلِمَهُ لَيْسَ مُصَافِحًا لِلَّهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ نَفْسَ يَمِينِهِ، فَكَيْفَ يُجْعَلُ ظَاهِرُهُ كُفْرًا، وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ التَّأْوِيلِ. مَعَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ إِنَّمَا يُعْرَفُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

المثال الثَّانِي: وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْآخَرُ فَهُوَ فِي الصَّحِيحِ مُفَسَّرًا: «يَقُولُ اللهُ عَبْدِي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. فَيَقُولُ: رَبِّ كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا جَاعَ، فَلَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. عَبْدِي مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. فَيَقُولُ: رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ، فَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ».

وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَمْرَضْ وَلَمْ يَجُعْ؛ وَلَكِنْ مَرِضَ عَبْدُهُ، وَجَاعَ عَبْدُهُ فَجَعَلَ جُوعَهُ جُوعَهُ، وَمَرَضَهُ مَرَضَهُ، مُفَسِّرًا ذَلِكَ بِأَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي وَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؛ فَلَمْ يَبْقَ فِي الْحَدِيثِ لَفْظٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَأْوِيلٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ «قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ»، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي ظَاهِرِهِ أَنَّ الْقَلْبَ مُتَّصِلٌ بِالْأَصَابِعِ، وَلَا مُمَاسٌّ لَهَا، وَلَا أَنَّهَا فِي جَوْفِهِ. وَلَا فِي قَوْلِ الْقَائِلِ: هَذَا بَيْنَ يَدَيَّ. مَا يَقْتَضِي مُبَاشَرَتَهُ لِيَدَيْهِ. وَإِذَا قِيلَ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] لَمْ يَقْتَضِ أَنْ يَكُونَ مُمَاسًّا لِلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا الْقَوْلَ أَنْ يُجْعَلَ اللَّفْظُ نَظِيرًا لِمَا لَيْسَ مِثْلَهُ، كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]؟ فَقِيلَ هُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس:٧١].

فَهَذَا لَيْسَ مِثْلَ هَذَا، لِأَنَّهُ هُنَا أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَىٰ الْأَيْدِي؛ فَصَارَ شَبِيهًا بِقَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، [الشورىٰ:٣٠] وَهُنَاكَ أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥].



وَأَيْضًا فَإِنَّهُ هُنَاكَ ذَكَرَ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ، وَفِي الْيَدَيْنِ ذَكَرَ لَفْظَ التَّثْنِيَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾،[المائدة:٦٥] وَهُنَا أَضَافَ الْأَيْدِي إِلَىٰ صِيغَةِ الْجَمْعِ، فَصَارَ كَقَوْلِهِ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[القمر:١٤].

وَهَذَا فِي الْجَمْعِ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك:١]، و﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران:٢٦] فِي الْمُفْرَدِ.

فَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَذْكُرُ نَفْسَهُ تَارَةً بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ، مُظْهَرًا أَوْ مُضْمَرًا، وَتَارَةً بِصِيغَةِ الْجَمْعِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح:١] وَأَمْثَالُ ذَلِكَ. وَلَا يَذْكُرُ نَفْسَهُ بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ قَطُّ، لِأَنَّ صِيغَةَ الْجَمْعِ تَقْتَضِي التَّعْظِيمَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ؛ وَرُبَّمَا تَدُلُّ عَلَىٰ مَعَانِي أَسْمَائِهِ، وَأَمَّا صِيغَةُ التَّثْنِيَةِ فَتَدُلُّ عَلَىٰ الْعَدَدِ الْمَحْصُورِ، وَهُوَ مُقَدَّسٌ عَنْ ذَلِكَ.

فَلَوْ قَالَ: مَامَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتِ يَدَيَّ. كَانَ كَقَوْلِهِ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس:٧١]، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك:١] وَبِيَدِهِ الْخَيْرُ، وَلَوْ قَالَ: خَلَقْتُ بِيَدَيَّ. بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ، لَكَانَ مُفَارِقًا لَهُ، فَكَيْفَ إِذَا قَالَ خَلَقْت بِيَدَيَّ بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ.

هَذَا، مَعَ دَلَالَةِ الْأَحَادِيثِ الْمُسْتَفِيضَةِ؛ بَلْ الْمُتَوَاتِرَةِ، وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ عَلَىٰ مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، مِثْلَ قَوْلِهِ: «**الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُّوا**». وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَ النُّصُوصِ الْمُتَنَازَعِ فِي مَعْنَاهَا مِنْ جِنْسِ ظَاهِرِ النُّصُوصِ الْمُتَّفَقِ عَلَىٰ مَعْنَاهَا، وَالظَّاهِرُ هُوَ الْمُرَادُ فِي الْجَمِيعِ، فَإِنَّ اللهَ لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَاتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، وَأَنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ مُرَادٌ كَانَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِهَذَا الظَّاهِرِ أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ كَعِلْمِنَا، وَقُدْرَتُهُ كَقُدْرَتِنَا.

وَكَذَلِكَ لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّهُ حَيٌّ حَقِيقَةً، عَالِمٌ حَقِيقَةً، قَادِرٌ حَقِيقَةً، لَمْ يَكُنْ مُرَادُهُمْ أَنَّهُ مِثْلُ الْمَخْلُوقِ الَّذِي هُوَ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.



فَكَذَلِكَ إِذَا قَالُوا فِي قَوْله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] إِنَّهُ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ. لَمْ يَقْتَضِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ اسْتِوَاءً كَاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِ، وَلَا حُبًّا كَحُبِّهِ، وَلَا رِضًا كَرِضَاهُ.

فَإِنْ كَانَ الْمُسْتَمِعُ يَظُنُّ أَنَّ ظَاهِرَ الصِّفَاتِ تُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، لَزِمَهُ أَلَّا يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ظَاهِرِ ذَلِكَ مُرَادًا، وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَهَا مَا يَلِيقُ بِالْخَالِقِ وَيَخْتَصُّ بِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ نَفْيُ هَذَا الظَّاهِرِ، وَنَفْيُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا إِلَّا بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَىٰ النَّفْيِ. وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ وَلَا فِي السَّمْعِ مَا يَنْفِي هَذَا إِلَّا مِنْ جِنْسِ مَا يَنْفِي بِهِ سَائِرَ الصِّفَاتِ، فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِي الْجَمِيعِ وَاحِدًا.

وَبَيَانُ هَذَا، أَنَّ صِفَاتِنَا مِنْهَا مَا هِيَ أَعْيَانٌ وَأَجْسَامٌ، وَهِيَ أَبْعَاضٌ لَنَا كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ؛ وَمِنْهَا مَا هُوَ مَعَانٍ وَأَعْرَاضٌ، وَهِيَ قَائِمَةٌ بِنَا، كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ.

ثُمَّ إِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرَّبَّ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، لَمْ يَقُلِ الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ ظَاهِرَ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ، لِأَنَّ مَفْهُومَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ مِثْلَ مَفْهُومِهِ فِي حَقِّنَا؛ فَكَذَلِكَ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ خَلَقَ آدَمَ بِيَدَيْهِ، لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ غَيْرَ مُرَادٍ لِأَنَّ مَفْهُومَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ كَمَفْهُومِهِ فِي حَقِّنَا، بَلْ صِفَةُ الْمَوْصُوفِ تُنَاسِبُهُ.

فَإِذَا كَانَتْ نَفْسُهُ الْمُقَدَّسَةُ لَيْسَتْ مِثْلَ ذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ فَصِفَاتُهُ كَذَاتِهِ لَيْسَتْ كَصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَنِسْبَةُ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ إِلَيْهِ، كَنِسْبَةِ صِفَةِ الْخَالِقِ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ الْمَنْسُوبُ كَالْمَنْسُوبِ، وَلَا الْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ كَالْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**» فَشَبَّهَ الرُّؤْيَةَ بِالرُّؤْيَةِ، وَلَمْ يُشَبِّهِ الْمَرْئِيَّ بِالْمَرْئِيِّ.

وَهَذَا يَتَبَيَّنُ **بِالْقَاعِدَةِ الرَّابِعَةِ** وَهُوَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ، أَوْ كَثِيرٍ مِنْهَا، أَوْ أَكْثَرِهَا، أَوْ كُلِّهَا، أَنَّهَا تُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ ذَلِكَ الَّذِي فَهِمَهُ فَيَقَعُ فِي أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَحَاذِيرِ:

أَحَدُهَا: كَوْنُهُ مَثَّلَ مَا فَهِمَهُ مِنَ النُّصُوصِ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَظَنَّ أَنَّ مَدْلُولَ النُّصُوصِ هُوَ التَّمْثِيلُ.



الثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا جَعَلَ ذَٰلِكَ هُوَ مَفْهُومَهَا وَعَطَّلَهُ بَقِيَتِ النُّصُوصُ مُعَطَّلَةً عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ اللَّائِقَةِ بِاللهِ، فَيَبْقَىٰ مَعَ جِنَايَتِهِ عَلَىٰ النُّصُوصِ، وَظَنِّهِ السَّيِّءِ الَّذِي ظَنَّهُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ - حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِهِمَا هُوَ التَّمْثِيلُ الْبَاطِلُ - قَدْ عَطَّلَ مَا أَوْدَعَ اللهُ وَرَسُولُهُ فِي كَلَامِهِمَا مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ، وَالْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةِ اللَّائِقَةِ بِجَلَالِ اللهِ سُبْحَانَهُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ يَنْفِي تِلْكَ الصِّفَاتِ عَنِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَيَكُونُ مُعَطِّلًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَصِفُ الرَّبَّ بِنَقِيضِ تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنْ صِفَاتِ الْمَوَاتِ وَالْجَمَادَاتِ، أَوْ صِفَاتِ الْمَعْدُومَاتِ.

فَيَكُونُ قَدْ عَطَّلَ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا الرَّبُّ، وَمَثَّلَهُ بِالْمَنْقُوصَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، وَعَطَّلَ النُّصُوصَ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ، وَجَعَلَ مَدْلُولَهَا هُوَ التَّمْثِيلَ بِالْمَخْلُوقَاتِ، فَيُجْمَعُ فِي اللهِ وَفِي كَلَامِ اللهِ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ، فَيَكُونُ مُلْحِدًا فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ.

مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ النُّصُوصَ كُلَّهَا دَلَّتْ عَلَىٰ وَصْفِ الْإِلَهِ بِالْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ عَلَىٰ الْمَخْلُوقَاتِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ - فَأَمَّا عُلُوُّهُ وَمُبَايَنَتُهُ لِلْمَخْلُوقَاتِ فَيُعْلَمُ بِالْعَقْلِ الْمُوَافِقِ لِلسَّمْعِ، وَأَمَّا الِاسْتِوَاءُ عَلَىٰ الْعَرْشِ فَطَرِيقُ الْعِلْمِ بِهِ هُوَ السَّمْعُ. وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَصْفٌ لَهُ بِأَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، وَلَا مُبَايِنَهُ وَلَا مُدَاخِلَهُ.

فَيَظُنُّ الْمُتَوَهِّمُ أَنَّهُ إِذَا وُصِفَ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَىٰ الْعَرْشِ: كَانَ اسْتِوَاؤُهُ كَاسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ ظُهُورِ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزُّخرُف] فَيَتَخَيَّلُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَىٰ الْعَرْشِ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ كَحَاجَةِ الْمُسْتَوِي عَلَىٰ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ فَلَوْ إِنْخَرَقَتِ السَّفِينَةُ لَسَقَطَ الْمُسْتَوِي عَلَيْهَا، وَلَوْ عَثَرَتِ الدَّابَّةُ لَخَرَّ الْمُسْتَوِي عَلَيْهَا. فَقِيَاسُ هَذَا أَنَّهُ لَوْ عَدِمَ الْعَرْشُ لَسَقَطَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ثُمَّ يُرِيدُ بِزَعْمِهِ أَنْ يَنْفِيَ هَذَا فَيَقُولَ: لَيْسَ اسْتِوَاؤُهُ بِقُعُودٍ وَلَا اسْتِقْرَارٍ.

وَلَا يُعْلَمُ أَنَّ مُسَمَّىٰ «الْقُعُودِ» وَ«الِاسْتِقْرَارِ» يُقَالُ فِيهِ مَا يُقَالُ فِي مُسَمَّىٰ «الِاسْتِوَاءِ»، فَإِنْ كَانَتِ الْحَاجَةُ دَاخِلَةً فِي ذَلِكَ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الِاسْتِوَاءِ وَالْقُعُودِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَلَيْسَ هُوَ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ مُسْتَوِيًا وَلَا مُسْتَقِرًّا وَلَا قَاعِدًا، وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي مُسَمَّىٰ ذَلِكَ إِلَّا مَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّىٰ «الِاسْتِوَاءِ» فَإِثْبَاتُ أَحَدِهِمَا وَنَفْيُ الْآخَرِ تَحَكُّمٌ.



وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ بَيْنَ مُسَمَّىٰ «الِاسْتِوَاءِ» وَ«الِاسْتِقْرَارِ» وَ«الْقُعُودِ» فُرُوقًا مَعْرُوفَةً، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا أَنْ يُعْلَمَ خَطَأُ مَنْ يَنْفِي الشَّيْءَ مَعَ إِثْبَاتِ نَظِيرِهِ.

وَكَأَنَّ هَذَا الْخَطَأَ مِنْ خَطَئِهِ فِي مَفْهُومِ اسْتِوَائِهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ، حَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ مِثْلَ اسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ ظُهُورِ الْأَنْعَامِ وَالْفُلْكِ.

وَلَيْسَ فِي هَذَا اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ أَضَافَ الِاسْتِوَاءَ إِلَىٰ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا أَضَافَ إِلَيْهِ سَائِرَ أَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ ثُمَّ اسْتَوَىٰ، كَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ قَدَّرَ فَهَدَىٰ، وَأَنَّهُ بَنَىٰ السَّمَاءَ بِأَيْدٍ، وَكَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ مَعَ مُوسَىٰ وَهَارُونَ يَسْمَعُ وَيَرَىٰ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. فَلَمْ يَذْكُرْ اسْتِوَاءً مُطْلَقًا يَصْلُحُ لِلْمَخْلُوقِ، وَلَا عَامًّا يَتَنَاوَلُ الْمَخْلُوقَ، كَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ صِفَاتِهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ اسْتِوَاءً أَضَافَهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ.

فَلَوْ قُدِّرَ - عَلَىٰ وَجْهِ الْفَرْضِ الْمُمْتَنِعِ - أَنَّهُ هُوَ مِثْلُ خَلْقِهِ - تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ - لَكَانَ اسْتِوَاؤُهُ مِثْلَ اسْتِوَاءِ خَلْقِهِ. أَمَّا إِذَا كَانَ هُوَ لَيْسَ مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ، بَلْ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ الْغَنِيُّ عَنْ الْخَلْقِ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْعَرْشِ وَلِغَيْرِهِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ،

وَهُوَ لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا اسْتِوَاءً يَخُصُّهُ، لَمْ يَذْكُرْ اسْتِوَاءً يَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ وَلَا يَصْلُحُ لَهُ، كَمَا لَمْ يَذْكُرْ فِي عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَرُؤْيَتِهِ وَسَمْعِهِ وَخَلْقِهِ إِلَّا مَا يَخْتَصُّ بِهِ - فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَتَوَهَّمَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَىٰ الْعَرْشِ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَوْ سَقَطَ الْعَرْشُ لَخَرَّ مَنْ عَلَيْهِ؟ ﷻ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

هَلْ هَذَا إِلَّا جَهْلٌ مَحْضٌ وَضَلَالٌ مِمَّنْ فَهِمَ ذَلِكَ، وَتَوَهَّمَهُ، أَوْ ظَنَّهُ ظَاهِرَ اللَّفْظِ وَمَدْلُولَهُ، أَوْ جَوَّزَ ذَلِكَ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْغَنِيِّ عَنْ الْخَلْقِ. بَلْ لَوْ قُدِّرَ أَنَّ جَاهِلًا فَهِمَ مِثْلَ هَذَا، أَو تَوَهَّمَهُ لَبُيِّنَ لَهُ أَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَدُلَّ اللَّفْظُ عَلَيْهِ أَصْلًا، كَمَا لَمْ يَدُلَّ عَلَىٰ نَظَائِرِهِ فِي سَائِرِ مَا وَصَفَ بِهِ الرَّبُّ نَفْسَهُ.

فَلَمَّا قَالَ ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] فَهَلْ يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ بِنَاءَهُ مِثْلَ بِنَاءِ الْآدَمِيِّ الْمُحْتَاجِ، الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَىٰ زِنْبِيلٍ وَمَجَارِفَ وَضَرْبِ لَبِنٍ وَجَبْلِ طِينٍ.

ثُمَّ قَدْ عُلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ الْعَالَمَ بَعْضَهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَلَمْ يَجْعَلْ عَالِيَهُ مُفْتَقِرًا إِلَىٰ سَافِلِهِ، فَالْهَوَاءُ فَوْقَ الْأَرْضِ، وَلَيْسَ مُفْتَقِرًا إِلَىٰ أَنْ تَحْمِلَهُ الْأَرْضُ، وَالسَّحَابُ أَيْضًا فَوْقَ



الْأَرْضِ، وَلَيْسَ مُفْتَقِرًا إِلَىٰ أَنْ تَحْمِلَهُ، وَالسَّمَوَاتُ فَوْقَ الْأَرْضِ، وَلَيْسَتْ مُفْتَقِرَةً إِلَىٰ حَمْلِ الْأَرْضِ لَهَا؛ فَالْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ إِذَا كَانَ فَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ: كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا إِلَىٰ خَلْقِهِ، أَوْ عَرْشِهِ!

أَوْ كَيْفَ يَسْتَلْزِمُ عُلُوُّهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ هَذَا الِافْتِقَارَ وَهُوَ لَيْسَ بِمُسْتَلْزَمٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ! وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ مَا ثَبَتَ لِمَخْلُوقٍ مِنْ الْغِنَىٰ عَنْ غَيْرِهِ فَالْخَالِقُ ﷻ أَحَقُّ بِهِ وَأَوْلَىٰ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [المُلك] مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ مُقْتَضَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَكُونَ اللهُ فِي دَاخِلِ السَّمَوَاتِ، فَهُوَ جَاهِلٌ ضَالٌّ بِالِاتِّفَاقِ، وَإِنْ كُنَّا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فِي السَّمَاءِ يَقْتَضِي ذَلِكَ، فَإِنَّ حَرْفَ «فِي» مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ وَبِمَا بَعْدَهُ، فَهُوَ بِحَسَبِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ.

وَلِهَذَا يُفَرَّقُ بَيْنَ كَوْنِ الشَّيْءِ فِي الْمَكَانِ، وَكَوْنِ الْجِسْمِ فِي الْحَيِّزِ، وَكَوْنِ الْعَرَضِ فِي الْجِسْمِ، وَكَوْنِ الْوَجْهِ فِي الْمِرْآةِ، وَكَوْنِ الْكَلَامِ فِي الْوَرَقِ، فَإِنَّ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ خَاصَّةً يَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ حَرْفُ «فِي» مُسْتَعْمَلًا فِي ذَلِكَ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الْعَرْشُ فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ؟ لَقِيلَ: فِي السَّمَاءِ. وَلَوْ قِيلَ: الْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ؟ لَقِيلَ: الْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ. وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ دَاخِلَ السَّمَوَاتِ، بَلْ وَلَا الْجَنَّةُ.

فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا سَأَلْتُمْ اللهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَعْلَىٰ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ**».

فَهَذِهِ الْجَنَّةُ، سَقْفُهَا الَّذِي هُوَ الْعَرْشُ فَوْقَ الْأَفْلَاكِ، مَعَ أَنَّ الْجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ، والسَّمَاءِ يُرَادُ بِهِ الْعُلُوُّ، سَوَاءٌ كَانَتْ فَوْقَ الْأَفْلَاكِ أَوْ تَحْتَهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨﴾ [الفرقان].

وَلَمَّا كَانَ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِ الْمُخَاطَبِينَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ، وَأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، كَانَ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ: إِنَّهُ فِي السَّمَاءِ، أَنَّهُ فِي الْعُلُوِّ وَأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

وَكَذَلِكَ الْجَارِيَةُ لَمَّا قَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**». قَالَتْ فِي السَّمَاءِ، إِنَّمَا أَرَادَتْ الْعُلُوَّ مَعَ عَدَمِ تَخْصِيصِهِ بِالْأَجْسَامِ الْمَخْلُوقَةِ وَحُلُولِهِ فِيهَا.



وَإِذَا قِيلَ: الْعُلُوُّ، فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ مَا فَوْقَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، فَمَا فَوْقَهَا كُلَّهَا هُوَ فِي السَّمَاءِ، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ ظَرْفٌ وُجُودِيٌّ يُحِيطُ بِهِ إِذْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ إِلَّا اللهُ كَمَا لَوْ قِيلَ: الْعَرْشُ فِي السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ فِي شَيْءٍ آخَرَ مَوْجُودٌ مَخْلُوقٌ.

وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ السَّمَاءَ الْمُرَادُ بِهَا الْأَفْلَاكُ: كَانَ الْمُرَادُ إِنَّهُ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١] وَكَمَا قَالَ: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٣٧]، وَكَمَا قَالَ: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة:٢]، وَيُقَالُ: فُلَانٌ فِي الْجَبَلِ، وَفِي السَّطْحِ. وَإِنْ كَانَ عَلَىٰ أَعْلَىٰ شَيْءٍ فِيهِ.

القاعدة الخامسة: أَنَّا نَعْلَمُ لَمَّا أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ. فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وَقَالَ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]، فَأَمَرَ بِتَدَبُّرِ الْكِتَابِ كُلِّهِ.

وَقَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران].

وَجُمْهُورُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا عَلَىٰ أَنَّ الْوَقْفَ عَلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران:٧]، وَهَذَا هُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ، وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ، تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ تَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، مَنْ ادَّعَىٰ عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَطَائِفَةٍ: أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ، وَقَدْ قَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَضْت الْمُصْحَفَ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْ تَفْسِيرِهَا.



وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ، فَإِنَّ لَفْظَ التَّأْوِيلِ قَدْ صَارَ بِتَعَدُّدِ الِاصْطِلَاحَاتِ مُسْتَعْمَلًا فِي ثَلَاثَةِ مَعَانٍ:

أَحَدُهَا: وَهُوَ اصْطِلَاحُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْفِقْهِ وَأُصُولِهِ - أَنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَىٰ الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ لِدَلِيلٍ يَقْتَرِنُ بِهِ؛ وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَنَاهُ أَكْثَرُ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي تَأْوِيلِ نُصُوصِ الصِّفَاتِ وَتَرْكِ تَأْوِيلِهَا، وَهَلْ ذَلِكَ مَحْمُودٌ أَوْ مَذْمُومٌ أَوْ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ؟

الثَّانِي: أَنَّ التَّأْوِيلَ بِمَعْنَىٰ التَّفْسِيرِ، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ عَلَىٰ اصْطِلَاحِ الْمُفَسِّرِينَ لِلْقُرْآنِ، كَمَا يَقُولُ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَمْثَالُهُ - مِنْ الْمُصَنِّفِينَ فِي التَّفْسِيرِ - وَاخْتَلَفَ عُلَمَاءُ التَّأْوِيلِ. وَمُجَاهِدٌ إمَامُ الْمُفَسِّرِينَ؛ قَالَ الثَّوْرِيُّ: «**إذَا جَاءَك التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُك بِهِ**». وَعَلَىٰ تَفْسِيرِهِ يَعْتَمِدُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُم فَإِذَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ، فَالْمُرَادُ بِهِ مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِهِ.

الثَّالِثُ: مِنْ مَعَانِي التَّأْوِيلِ: هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُؤَوَّلُ إلَيْهَا الْكَلَامُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣].

فَتَأْوِيلُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَخْبَارِ الْمُعَادِ هُوَ مَا أَخْبَرَ اللهُ تعالىٰ بِهِ فِيهِ، مِمَّا يَكُونُ مِنْ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ لَمَّا سَجَدَ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ قَالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠]، فَجَعَلَ عَيْنَ مَا وَجَدَ فِي الْخَارِجِ هُوَ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا.

فالتأويل الثَّانِي: هُوَ تَفْسِيرُ الْكَلَامِ، وَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يُفَسَّرُ بِهِ اللَّفْظُ حَتَّىٰ يُفْهَمَ مَعْنَاهُ أَوْ تُعْرَفَ عِلَّتُهُ أَوْ دَلِيلُهُ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ الثَّالِثُ هُوَ عَيْنُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَائِشَةَ. كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ يَعْنِي قَوْلَهُ: «**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ**» وَقَوْلُ سُفْيَانَ بْنِ عيينة: السُّنَّةُ هِيَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ.

فَإِنَّ نَفْسَ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ: هُوَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ بِهِ، وَنَفْسَ الْمَوْجُودِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ هُوَ تَأْوِيلُ الْخَبَرِ، وَالْكَلَامُ خَبَرٌ وَأَمْرٌ، وَلِهَذَا يَقُولُ أَبُو عُبَيْدٍ وَغَيْرُهُ: الْفُقَهَاءُ أَعْلَمُ بِالتَّأْوِيلِ مِنْ أَهْلِ



اللُّغَةِ. كَمَا ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ؛ لِأَنَّ الْفُقَهَاءَ يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَ مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ؛ لِعِلْمِهِمْ بِمَقَاصِدِ الرَّسُولِ ﷺ، كَمَا يَعْلَمُ أَتْبَاعُ أَبقراط وَسِيبَوَيْهِ وَنَحْوِهِمَا مِنْ مَقَاصِدِهِمَا مَا لَا يُعْلَمُ بِمُجَرَّدِ اللُّغَةِ. وَلَكِنَّ تَأْوِيلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِخِلَافِ تَأْوِيلِ الْخَبَرِ.

إِذَا عُرِفَ ذَلِكَ. فَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَهَا مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ هُوَ حَقِيقَةٌ لِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَهَا مِنْ حَقَائِقِ الصِّفَاتِ، وَتَأْوِيلِ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ تَعَالَىٰ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ هُوَ نَفْسُ مَا يَكُونُ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

وَلِهَذَا مَا يَجِيءُ فِي الْحَدِيثِ نَعْمَلُ بِمُحْكَمِهِ وَنُؤْمِنُ بِمُتَشَابِهِهِ، لِأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ فِيهِ أَلْفَاظٌ مُتَشَابِهَةٌ، يُشْبِهُ مَعَانِيهَا مَا نَعْلَمُهُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ لَحْمًا وَلَبَنًا وَعَسَلًا وماءً وَخَمْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ وَهَذَا يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا لَفْظًا وَمَعْنًىٰ، وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِثْلَهُ وَلَا حَقِيقَتَهُ كَحَقِيقَتِهِ.

فَأَسْمَاءُ اللهِ تَعَالَىٰ وَصِفَاتُهُ أَوْلَىٰ وَإِنْ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَسْمَاءِ الْعِبَادِ وَصِفَاتِهِمْ تَشَابُهٌ أَلَّا يَكُونَ لِأَجْلِهَا الْخَالِقُ مِثْلَ الْمَخْلُوقِ، وَلَا حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَتِهِ.

وَالْإِخْبَارُ عَنْ الْغَائِبِ لَا يُفْهَمُ إنْ لَمْ يُعَبَّرْ عَنْهُ بِالْأَسْمَاءِ الْمَعْلُومَةِ مَعَانِيهَا فِي الشَّاهِدِ، وَيُعْلَمُ بِهَا مَا فِي الْغَائِبِ بِوَاسِطَةِ الْعِلْمِ بِمَا فِي الشَّاهِدِ، مَعَ الْعِلْمِ بِالْفَارِقِ الْمُمَيِّزِ، وَأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ مِنْ الْغَيْبِ أَعْظَمُ مِمَّا يُعْلَمُ فِي الشَّاهِدِ.

وَفِي الْغَائِبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ. فَنَحْنُ إذَا أَخْبَرَنَا اللهُ بِالْغَيْبِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، عَلِمْنَا مَعْنَىٰ ذَلِكَ وَفَهِمْنَا مَا أُرِيدَ مِنَّا فَهْمُهُ بِذَلِكَ الْخِطَابِ، وَفَسَّرْنَا ذَلِكَ. وَأَمَّا نَفْسُ الْحَقِيقَةِ الْمُخْبَرِ عَنْهَا، مِثْلَ الَّتِي لَمْ تَكُنْ بَعْدُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَذَلِكَ مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ.

وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ عَنْ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، قَالُوا: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ. وَكَذَلِكَ قَالَ رَبِيعَةُ شَيْخُ مَالِكٍ قَبْلَهُ: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَمِنْ اللهِ الْبَيَانُ، وَعَلَىٰ الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا الْإِيمَانُ. فَبَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِوَاءَ مَعْلُومٌ، وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ مَجْهُولٌ.



وَمِثْلُ هَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي كَلَامِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةُ، يَنْفُونَ عِلْمَ الْعِبَادِ بِكَيْفِيَّةِ صِفَاتِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ اللهُ إِلَّا اللهُ، فَلَا يَعْلَمُ مَا هُوَ إِلَّا هُوَ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْك أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلَىٰ نَفْسِك**»، وَهَذَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِه، وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَك، سَمَّيْت بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْته فِي كِتَابِك، أَوْ عَلَّمْته أَحَدًا مَنْ خَلْقِك، أَوْ اسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَك**». وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الْمُسْنَدِ، وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَدْ أَخْبَرَ فِيهِ أَنَّ لِلَّهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ مَا اسْتَأْثَرَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ، فَمَعَانِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ بِهَا فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ لَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ.

وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ عَلِيمٌ، قَدِيرٌ، سَمِيعٌ، بَصِيرٌ، غَفُورٌ، رَحِيمٌ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ. فَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعْنَىٰ ذَلِكَ، وَنُمَيِّزُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَبَيْنَ الرَّحْمَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَنَعْلَمُ أَنَّ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا اتَّفَقَتْ فِي دَلَالَتِهَا عَلَىٰ ذَاتِ اللهِ، مَعَ تَنَوُّعِ مَعَانِيهَا، فَهِيَ مُتَّفِقَةٌ مُتَوَاطِئَةٌ مِنْ حَيْثُ الذَّاتُ، مُتَبَايِنَةٌ مِنْ جِهَةِ الصِّفَاتِ.

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُ مُحَمَّدٍ، وَأَحْمَدَ، وَالْمَاحِي، وَالْحَاشِرِ، وَالْعَاقِبِ. وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ مِثْلُ الْقُرْآنِ، وَالْفُرْقَانِ، وَالْهُدَىٰ، وَالنُّورِ، وَالتَّنْزِيلِ، وَالشِّفَاءِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهَا؛ هَلْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَرَادِفَةِ لِاتِّحَادِ الذَّاتِ، أَوْ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَبَايِنَةِ لِتَعَدُّدِ الصِّفَاتِ، كَمَا إذَا قِيلَ: السَّيْفُ، وَالصَّارِمُ، وَالْمُهَنَّدُ؛ وَقُصِدَ بِالصَّارِمِ مَعْنَىٰ الصَّرْمِ، وَفِي الْمُهَنَّدِ النِّسْبَةُ إِلَىٰ الْهِنْدِ؛ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهَا مُتَرَادِفَةٌ فِي الذَّاتِ مُتَبَايِنَةٌ فِي الصِّفَاتِ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ اللهَ وَصَفَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ وَبِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ جَعَلَ مِنْهُ مَا هُوَ مُحْكَمٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ؛ وَالْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَخُصُّ بَعْضَهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود:١]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَحْكَمَ آيَاتِهِ كُلَّهَا، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمر:٢٣]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّهُ مُتَشَابِهٌ.

وَالْحُكْمُ هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، فَالْحَاكِمُ يَفْصِلُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ، وَالْحُكْمُ فَصْلٌ بَيْنَ الْمُتَشَابِهَاتِ عِلْمًا وَعَمَلًا، إذَا مَيَّزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ فِعْلَ النَّافِعِ وَتَرْكَ الضَّارِّ، فَيُقَالُ: حَكَمْت السَّفِيهَ وَأَحْكَمْته إذَا أَخَذْت عَلَىٰ



يَدِهِ، وَحَكَمْت الدَّابَّةَ وَأَحْكَمْتها إذَا جَعَلْت لَهَا حَكَمَةً وَهُوَ مَا أَحَاطَ بِالْحَنَكِ مِنْ اللِّجَامِ، وَإِحْكَامُ الشَّيْءِ إتْقَانُهُ، فَإِحْكَامُ الْكَلَامِ إتْقَانُهُ بِتَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِنْ الْكَذِبِ فِي أَخْبَارِهِ، وَتَمْيِيزِ الرُّشْدِ مِنْ الْغَيِّ فِي أَوَامِرِهِ.

وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمٌ بِمَعْنَى الْإِتْقَانِ، فَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ حَكِيمًا بِقَوْلِهِ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس]، فَالْحَكِيمُ بِمَعْنَى الْحَاكِمِ؛ كَمَا جَعَلَهُ يَقُصُّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ [النمل]، وَجَعَلَهُ مُفْتِيًا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء:١٢٧]؛ أَيْ: مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ، وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَمُبَشِّرًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الإسراء:٩].

وَأَمَّا التَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ فَهُوَ ضِدُّ الِاخْتِلَافِ الْمَنْفِيِّ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء]؛ وَهُوَ: الِاخْتِلَافُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات].

فَالتَّشَابُهُ هُنَا هُوَ تَمَاثُلُ الْكَلَامِ وَتَنَاسُبُهُ، بِحَيْثُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا؛ فَإِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ لَمْ يَأْمُرْ بِنَقِيضِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ؛ بَلْ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ بِنَظِيرِهِ، أَوْ بِمَلْزُومَاتِهِ؛ إذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَسْخٌ.

وَكَذَلِكَ إذَا أَخْبَرَ بِثُبُوتِ شَيْءٍ لَمْ يُخْبِرْ بِنَقِيضِ ذَلِكَ، بَلْ يُخْبِرُ بِثُبُوتِهِ، أَوْ بِثُبُوتِ مَلْزُومَاتِهِ، وَإِذَا أَخْبَرَ بِنَفْيِ شَيْءٍ لَمْ يُثْبِتْهُ، بَلْ يَنْفِيهِ، أَوْ يَنْفِي لَوَازِمَهُ، بِخِلَافِ الْقَوْلِ الْمُخْتَلِفِ الَّذِي يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَيُثْبِتُ الشَّيْءَ تَارَةً وَيَنْفِيهِ أُخْرَىٰ، أَوْ يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَىٰ عَنْهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ فَيَمْدَحُ أَحَدَهُمَا وَيَذُمُّ الْآخَرَ، فَالْأَقْوَالُ الْمُخْتَلِفَةُ هُنَا هِيَ الْمُتَضَادَّةُ، وَالْمُتَشَابِهَةُ هِيَ الْمُتَوَافِقَةُ.

وَهَذَا التَّشَابُهُ يَكُونُ فِي الْمَعَانِي وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْأَلْفَاظُ، فَإِذَا كَانَتْ الْمَعَانِي يُوَافِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُعَضِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُنَاسِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيَشْهَدُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، وَيَقْتَضِي بَعْضُهَا بَعْضًا، كَانَ الْكَلَامُ مُتَشَابِهًا، بِخِلَافِ الْكَلَامِ الْمُتَنَاقِضِ الَّذِي يُضَادُّ بَعْضُهُ بَعْضًا.

فَهَذَا التَّشَابُهُ الْعَامُّ لَا يُنَافِي الْإِحْكَامَ الْعَامَّ، بَلْ هُوَ مُصَدِّقٌ لَهُ، فَإِنَّ الْكَلَامَ الْمُحْكَمَ الْمُتْقَنَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا.



بِخِلَافِ الْإِحْكَامِ الْخَاصِّ، فَإِنَّهُ ضِدُّ التَّشَابُهِ الْخَاصِّ، وَالتَّشَابُهُ الْخَاصُّ هُوَ مُشَابَهَةُ الشَّيْءِ لِغَيْرِهِ مِنْ وَجْهٍ مَعَ مُخَالَفَتِهِ لَهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ إِنَّهُ هُوَ أَوْ هُوَ مِثْلُهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَالْإِحْكَامُ هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَهُمَا بِحَيْثُ لَا يَشْتَبِهُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ. وَهَذَا التَّشَابُهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِقَدْرٍ مُشْتَرَكٍ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ مَعَ وُجُودِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا.

ثُمَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَهْتَدِي لِلْفَصْلِ بَيْنَهُمَا فَيَكُونُ مُشْتَبِهًا عَلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْتَدِي إِلَىٰ ذَلِكَ؛ فَالتَّشَابُهُ الَّذِي لَا يَتَمَيَّزُ مَعَهُ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ الْإِضَافِيَّةِ بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ وَمِثْلُ هَذَا يَعْرِفُ مِنْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مَا يُزِيلُ عَنْهُمْ هَذَا الِاشْتِبَاهُ.

ثُمَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَهْتَدِي لِلْفَصْلِ بَيْنَهُمَا، فَيَكُونُ مُشْتَبِهًا عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْتَدِي إِلَىٰ ذَلِكَ، فَالتَّشَابُهُ الَّذِي لَا يَتَمَيَّزُ مَعَهُ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ الْإِضَافِيَّةِ، بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، وَمِثْلُ هَذَا يَعْرِفُ مِنْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مَا يُزِيلُ عَنْهُمْ هَذَا الِاشْتِبَاهُ، كَمَا إِذَا اشْتَبَهَ عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ مَا وُعِدُوا بِهِ فِي الْآخِرَةِ بِمَا يَشْهَدُونَهُ فِي الدُّنْيَا فَظَنَّ أَنَّهُ مِثْلُهُ، فَعَلِمَ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَهُ وَإِنْ كَانَ مُشْبِهًا لَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الشُّبَهُ الَّتِي يَضِلُّ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ، وَهِيَ مَا يَشْتَبِهُ فِيهَا الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ، حَتَّىٰ تَشْتَبِهَ عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ، وَمَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ بِالْفَصْلِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا لَمْ يَشْتَبِهْ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ.

وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الشُّبُهَاتِ، لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ لِلشَّيْءِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ بِمَا لَا يُشْبِهُهُ فِيهِ، فَمَنْ عَرَفَ الْفَصْلَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ اهْتَدَىٰ لِلْفَرْقِ الَّذِي يَزُولُ بِهِ الِاشْتِبَاهُ وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ.

وَمَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا وَيَجْتَمِعَانِ فِي شَيْءٍ، وَيَفْتَرِقَانِ فِي شَيْءٍ، فَبَيْنَهُمَا اشْتِبَاهٌ مِنْ وَجْهٍ، وَافْتِرَاقٌ مِنْ وَجْهٍ، فَلِهَذَا كَانَ ضَلَالُ بَنِي آدَمَ مِنْ قِبَلِ التَّشَابُهِ وَالْقِيَاسِ الْفَاسِدِ لَا يَنْضَبِطُ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَكْثَرُ مَا يُخْطِئُ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّأْوِيلِ وَالْقِيَاسِ، **فَالتَّأْوِيلُ** فِي الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ، **وَالْقِيَاسُ** فِي الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَهُوَ كَمَا قَالَ، وَالتَّأْوِيلُ الْخَطَأُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُتَشَابِهَةِ، وَالْقِيَاسُ الْخَطَأُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَعَانِي الْمُتَشَابِهَةِ.

وَقَدْ وَقَعَ بَنُو آدَمَ فِي عَامَّةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ، حَتَّىٰ آلَ الْأَمْرُ إِلَىٰ مَنْ يَدَّعِي التَّحْقِيقَ وَالتَّوْحِيدَ وَالْعِرْفَانَ مِنْهُمْ إِلَىٰ أَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وُجُودُ الرَّبِّ بِوُجُودِ كُلِّ



مَوْجُودٍ فَظَنُّوا أَنَّهُ هُوَ، فَجَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ عَيْنَ وُجُودِ الْخَالِقِ، مَعَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَبْعَدَ عَنْ مُمَاثَلَةِ شَيْءٍ، وَأَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ، أَوْ مُتَّحِدًا بِهِ، أَوْ حَالًّا فِيهِ مِنْ الْخَالِقِ مَعَ الْمَخْلُوقِ.

فَمَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ وُجُودُ الْخَالِقِ بِوُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا حَتَّىٰ ظَنُّوا وُجُودَهَا وُجُودَهُ؛ فَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ ضَلَالًا مِنْ جِهَةِ الِاشْتِبَاهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوْجُودَاتِ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّىٰ الْوُجُودِ فَرَأَوْا الْوُجُودَ وَاحِدًا، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْوَاحِدِ بِالْعَيْنِ وَالْوَاحِدِ بِالنَّوْعِ.

وَآخَرُونَ تَوَهَّمُوا أَنَّهُ إِذَا قِيلَ: الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّىٰ الْوُجُودِ، لَزِمَ التَّشْبِيهُ وَالتَّرْكِيبُ، فَقَالُوا: لَفْظُ الْوُجُودِ مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ، فَخَالَفُوا مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْعُقَلَاءُ مَعَ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ مِنْ أَنَّ الْوُجُودَ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْسَامِ الْمَوْجُودَاتِ.

وَطَائِفَةٌ ظَنَّتْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّىٰ الْوُجُودِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ مَوْجُودٌ مُشْتَرَكٌ فِيهِ، وَزَعَمُوا أَنَّ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ كُلِّيَّاتٍ مُطْلَقَةً: مِثْلَ وُجُودٍ مُطْلَقٍ، وَحَيَوَانٍ مُطْلَقٍ، وَجِسْمٍ مُطْلَقٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَخَالَفُوا الْحِسَّ وَالْعَقْلَ وَالشَّرْعَ، وَجَعَلُوا مَا فِي الْأَذْهَانِ ثَابِتًا فِي الْأَعْيَانِ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ نَوْعِ الِاشْتِبَاهِ.

وَمَنْ هَدَاهُ اللهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْأُمُورِ وَإِنْ اشْتَرَكَتْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَعَلِمَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْجَمْعِ وَالْفَرْقِ، وَالتَّشَابُهِ وَالِاخْتِلَافِ؛ وَهَؤُلَاءِ لَا يَضِلُّونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ الْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُحْكَمِ الْفَارِقِ الَّذِي يُبَيِّنُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْفَصْلِ وَالِافْتِرَاقِ.

وَهَذَا كَمَا أَنَّ لَفْظَ إِنَّا وَنَحْنُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ صِيَغِ الْجَمْعِ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ لَهُ شُرَكَاءُ فِي الْفِعْلِ، وَيَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ الْعَظِيمُ، الَّذِي لَهُ صِفَاتٌ تَقُومُ كُلُّ صِفَةٍ مَقَامَ وَاحِدٍ، وَلَهُ أَعْوَانٌ تَابِعُونَ لَهُ؛ لَا شُرَكَاءَ لَهُ. فَإِذَا تَمَسَّكَ النَّصْرَانِيُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر:٩] وَنَحْوَهُ عَلَىٰ تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ. كَانَ الْمُحْكَمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة] وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنًى وَاحِدًا يُزِيلُ مَا هُنَاكَ مِنْ الِاشْتِبَاهِ؛ وَكَانَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ صِيغَةِ الْجَمْعِ مُبَيِّنًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ الْعَظَمَةِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَطَاعَةِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ.



وَأَمَّا حَقِيقَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْجُنُودِ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَفْعَالِهِ، فَلَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا هُوَ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدَّثر:٣١]، وَهَذَا مِنْ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ.

بِخِلَافِ الْمَلِكِ مِنْ الْبَشَرِ إِذَا قَالَ: قَدْ أَمَرْنَا لَك بِعَطَاءٍ. فَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ هُوَ وَأَعْوَانُهُ مِثْلُ كَاتِبِهِ وَحَاجِبِهِ وَخَادِمِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ أُمِرُوا بِهِ، وَقَدْ يَعْلَمُ مَا صَدَرَ عَنْهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ مِنْ اعْتِقَادَاتِهِ وَإِرَادَاتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَاللهُ ﷻ لَا يُعْلِمُ عِبَادَهُ الْحَقَائِقَ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا مِنْ صِفَاتِهِ وَصِفَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا يَعْلَمُونَ حَقَائِقَ مَا أَرَادَ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ مِنْ الْحِكْمَةِ، وَلَا حَقَائِقَ مَا صَدَرَتْ عَنْهُ مِنَ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ التَّشَابُهَ يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُتَوَاطِئَةِ، كَمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِمُتَوَاطِئَةٍ، وَإِنْ زَالَ الِاشْتِبَاهُ بِمَا يُمَيِّزُ أَحَدَ النَّوْعَيْنِ: مِنْ إِضَافَةٍ أَوْ تَعْرِيفٍ، كَمَا إِذَا قِيلَ: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾[محمد:١٥] فَهُنَاكَ قَدْ خَصَّ هَذَا الْمَاءَ بِالْجَنَّةِ، فَظَهَرَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ مَاءِ الدُّنْيَا، لَكِنَّ حَقِيقَةَ مَا امْتَازَ بِهِ ذَلِكَ الْمَاءُ غَيْرُ مَعْلُومٍ لَنَا، وَهُوَ مَعَ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ - مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ - مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ.

وَكَذَلِكَ مَدْلُولُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهَا، الَّتِي هِيَ حَقِيقَةٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ.

وَلِهَذَا كَانَ الْأَئِمَّةُ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ يُنْكِرُونَ عَلَىٰ الْجَهْمِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ - مِنْ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ - تَأْوِيلَ مَا تَشَابَهَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْقُرْآنِ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ كَمَا قَالَ أَحْمَدُ: فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ الزَّنَادِقَةِ والْجَهْمِيَّةِ فِيمَا شَكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ.

وَإِنَّمَا ذَمَّهُمْ لِكَوْنِهِمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ مَا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ مَعْنَاهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يَشْتَبِهُ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، وَذَمَّهُمْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَلَمْ يَنْفِ مُطْلَقَ لَفْظِ التَّأْوِيلِ، كَمَا تَقَدَّمَ: مِنْ أَنَّ لَفْظَ التَّأْوِيلِ يُرَادُ بِهِ التَّفْسِيرُ الْمُبَيِّنُ لِمُرَادِ اللهِ بِهِ، فَذَلِكَ لَا يُعَابُ بَلْ يُحْمَدُ، وَيُرَادُ بِالتَّأْوِيلِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهَا، فَذَاكَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ، وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.



وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا اضْطَرَبَتْ أَقْوَالُهُ، مِثْلُ طَائِفَةٍ يَقُولُونَ: إنَّ التَّأْوِيلَ بَاطِلٌ، وَإِنَّهُ يَجِبُ إجْرَاءُ اللَّفْظِ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] وَيَحْتَجُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ إبْطَالِ التَّأْوِيلِ.

وَهَذَا تَنَاقُضٌ مِنْهُمْ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَقْتَضِي أَنَّ هُنَاكَ تَأْوِيلًا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ، وَهُمْ يَنْفُونَ التَّأْوِيلَ مُطْلَقًا.

وَجِهَةُ الْغَلَطِ أَنَّ التَّأْوِيلَ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إلَّا هُوَ، وَأَمَّا التَّأْوِيلُ الْمَذْمُومُ وَالْبَاطِلُ فَهُوَ تَأْوِيلُ أَهْلِ التَّحْرِيفِ وَالْبِدَعِ، الَّذِينَ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَىٰ غَيْرِ.

تَأْوِيلِهِ وَيَدَّعُونَ صَرْفَ اللَّفْظِ عَنْ مَدْلُولِهِ إلَىٰ غَيْرِ مَدْلُولِهِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ يُوجِبُ ذَلِكَ وَيَدَّعُونَ أَنَّ فِي ظَاهِرِهِ مِنْ الْمَحْذُورِ مَا هُوَ نَظِيرُ الْمَحْذُورِ اللَّازِمِ فِيمَا أَثْبَتُوهُ بِالْعَقْلِ.

وَيَصْرِفُونَهُ إلَىٰ مَعَانٍ هِيَ نَظِيرُ الْمَعَانِي الَّتِي نَفَوْهَا عَنْهُ فَيَكُونُ مَا نَفَوْهُ.

فَيَكُونُ مَا نَفَوْهُ مِنْ جِنْسِ مَا أَثْبَتُوهُ فَإِنْ كَانَ الثَّابِتُ حَقًّا مُمْكِنًا كَانَ الْمَنْفِيُّ مِثْلَهُ وَإِنْ كَانَ الْمَنْفِيُّ بَاطِلًا مُمْتَنِعًا كَانَ الثَّابِتُ مِثْلَهُ.

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْفُونَ التَّأْوِيلَ مُطْلَقًا وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] قَدْ يَظُنُّونَ أَنَّا خُوطِبْنَا فِي الْقُرْآنِ بِمَا لَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ؛ أَوْ بِمَا لَا مَعْنَىٰ لَهُ أَوْ بِمَا لَا يُفْهَمُ مِنْهُ شَيْءٌ.

وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ فَهُوَ مُتَنَاقِضٌ، لِأَنَّا إذَا لَمْ نَفْهَمْ مِنْهُ شَيْئًا لَمْ يَجُزْ لَنَا أَنْ نَقُولَ: لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ وَلَا يُوَافِقُهُ، لِإِمْكَانَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعْنًىٰ صَحِيحٌ، وَذَلِكَ الْمَعْنَىٰ الصَّحِيحُ لَا يُخَالِفُ الظَّاهِرَ الْمَعْلُومَ لَنَا، فَإِنَّهُ لَا ظَاهِرَ لَهُ عَلَىٰ قَوْلِهِمْ، فَلَا تَكُونُ دَلَالَتُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْمَعْنَىٰ دَلَالَةً عَلَىٰ خِلَافِ الظَّاهِرِ فَلَا يَكُونُ تَأْوِيلًا، وَلَا يَجُوزُ نَفْيُ دَلَالَتِهِ عَلَىٰ مَعَانٍ لَا نَعْرِفُهَا عَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ، فَإِنَّ تِلْكَ الْمَعَانِيَ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَدْ لَا نَكُونُ عَارِفِينَ بِهَا، وَلِأَنَّا إذَا لَمْ نَفْهَمْ اللَّفْظَ وَمَدْلُولَهُ فَلِئَلَّا نَعْرِفَ الْمَعَانِيَ الَّتِي لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا اللَّفْظُ أَوْلَىٰ، لِأَنَّ إشْعَارَ اللَّفْظِ بِمَا يُرَادُ بِهِ أَقْوَىٰ مِنْ إشْعَارِهِ بِمَا لَا يُرَادُ بِهِ؛ فَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ لَا إشْعَارَ لَهُ بِمَعْنَىٰ مِنْ الْمَعَانِي وَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ مَعْنًىٰ أَصْلًا، لَمْ يَكُنْ مُشْعِرًا بِمَا أُرِيدَ بِهِ، فَلِئَلَا يَكُونَ مُشْعِرًا بِمَا لَمْ يُرَدْ بِهِ أَوْلَىٰ.

فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُتَأَوَّلٌ، بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ مَصْرُوفٌ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَىٰ الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ: إنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ، اللَّهُمَّ إلَّا أَنْ يُرَادَ



بِالتَّأْوِيلِ مَا يُخَالِفُ ظَاهِرُهُ الْمُخْتَصَّ بِالْمَخْلُوقِينَ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ أَرَادَ بِالظَّاهِرِ هَـذَا لَا بُـدَّ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ.

لَكِنْ إِذَا قَالَ هَؤُلَاءِ: أَنَّهُ لَيْسَ لَهَا تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّـاهِرَ، أَوْ أَنَّهَـا تَجْـرِي عَلَـىٰ الْمَعَـانِي الظَّاهِرَةِ مِنْهَا، كَانُوا مُتَنَاقِضِينَ. وَإِنْ أَرَادُوا بِالظَّاهِرِ، هُنَا مَعْنًىٰ وَهُنَا مَعْنًىٰ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ كَانَ تَلْبِيسًا، وَإِنْ أَرَادُوا بِالظَّاهِرِ مُجَرَّدَ اللَّفْظِ، أَيْ تَجْرِي عَلَىٰ مُجَـرَّدِ اللَّفْـظِ الَّـذِي يَظْهَرُ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ كَانَ إِبْطَالُهُمْ لِلتَّأْوِيلِ أَوْ إِثْبَاتُهُ تَنَاقُضًا، لِأَنَّ مَنْ أَثْبَتَ تَأْوِيلًا أَوْ نَفَـاهُ فَقَدْ فَهِمَ مَعْنًىٰ مِنَ الْمَعَانِي. وَبِهَذَا التَّقْسِيمِ يَتَبَيَّنُ تَنَاقُضُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِـنْ نُفَـاةِ الصِّـفَاتِ وَمُثْبِتِيهَا فِي هَذَا الْبَابِ.

الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: لَا بُدَّ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ ضَابِطٍ يُعْرَفُ بِهِ مَـا يَجُـوزُ عَلَىٰ اللهِ مِمَّا لَا يَجُوزُ فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، إِذْ الِاعْتِمَادُ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَىٰ مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ أَوْ مُطْلَقِ الْإِثْبَاتِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ لَيْسَ بِسَدِيدٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا بَيْنَهُمَا قَدْرٌ مُشْـتَرَكٌ وَقَدْرٌ مُمَيِّزٌ.

فَالنَّافِي إِنْ اعْتَمَدَ فِيمَا يَنْفِيهِ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ، قِيلَ لَهُ: إِنْ أَرَدْت أَنَّهُ مُمَاثِلٌ لَـهُ مِـنْ كُـلِّ وَجْهٍ فَهَذَا بَاطِلٌ، وَإِنْ أَرَدْت أَنَّهُ مُشَابِهٌ لَهُ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ، أَوْ مُشَارِكٌ لَهُ فِي الِاسْمِ، لَزِمَكَ هَذَا فِي سَائِرِ مَا تُثْبِتُهُ، وَأَنْتُمْ إِنَّمَا أَقَمْتُمْ الدَّلِيلَ عَلَىٰ إِبْطَالِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمَاثُلِ، الَّذِي فَسَّـرْتُمُوهُ بِأَنَّهُ يَجُوزُ عَلَىٰ أَحَدِهِمَا مَا يَجُوزُ عَلَىٰ الْآخَرِ، وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِـعُ عَلَيْـهِ، وَيَجِـبُ لَـهُ مَـا يَجِبُ لَهُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِثْبَاتَ التَّشْبِيهِ بِهَذَا التَّفْسِيرِ مِمَّا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ يَتَصَوَّرُ مَـا يَقُـولُ، فَإِنَّـهُ يُعْلَـمُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ امْتِنَاعُهُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ هَذَا نَفْـيُ التَّشَـابُهِ مِـنْ بَعْـضِ الْوُجُـوهِ، كَمَـا فِـي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْمُتَوَاطِئَةِ.

وَلَكِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ التَّشْبِيهَ مُفَسَّرًا بِمَعْنَىٰ مِنْ الْمَعَانِي، ثُمَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ ذَلِـكَ الْمَعْنَىٰ قَالُوا: إِنَّهُ مُشَبِّهٌ. وَمُنَازِعُهُمْ يَقُولُ: ذَلِكَ الْمَعْنَىٰ لَيْسَ مِنْ التَّشْبِيهِ.

وَقَدْ يُفَرَّقُ بَيْنَ لَفْظِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُعْتَزِلَـةَ وَنَحْـوَهُمْ مِـنْ نُفَـاةِ الصِّـفَاتِ يَقُولُونَ: كُلُّ مَنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ صِفَةً قَدِيمَةً فَهُوَ مُشَبِّهٌ مُمَثِّلٌ، فَمَنْ قَـالَ: إِنَّ لِلَّـهِ عِلْمًـا قَـدِيمًا، أَوْ



قُدْرَةً قَدِيمَةً، كَانَ عِنْدَهُمْ مُشَبِّهًا مُمَثِّلًا، لِأَنَّ الْقَدِيمَ عِنْدَ جُمْهُورِهِمْ هُوَ أَخَصُّ وَصْفِ الْإِلَهِ، فَمَنْ أَثْبَتَ لَهُ صِفَةً قَدِيمَةً فَقَدْ أَثْبَتَ لِلَّهِ مِثْلًا قَدِيمًا، فَيُسَمُّونَهُ مُمَثِّلًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ.

وَمُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَىٰ هَذَا، بَلْ يَقُولُونَ: أَخَصُّ وَصْفِهِ مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ غَيْرُهُ، مِثْلُ كَوْنِهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَالصِّفَةُ لَا تُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ مِنْ **هَؤُلَاءِ الصفاتية** مَنْ لَا يَقُولُ فِي الصِّفَاتِ: إِنَّهَا قَدِيمَةٌ، بَلْ يَقُولُ: الرَّبُّ بِصِفَاتِهِ قَدِيمٌ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ قَدِيمٌ وَصِفَتُهُ قَدِيمَةٌ، وَلَا يَقُولُ: هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي مُشَارَكَةَ الصِّفَةِ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ فَإِنَّ الْقِدَمَ لَيْسَ مِنْ خَصَائِصِ الذَّاتِ الْمُجَرَّدَةِ، بَلْ هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الذَّاتِ الْمَوْصُوفَةِ بِصِفَاتٍ، وَإِلَّا فَالذَّاتُ الْمُجَرَّدَةُ لَا وُجُودَ لَهَا عِنْدَهُمْ، فَضْلًا عَنْ أَنْ تَخْتَصَّ بِالْقِدَمِ، وَقَدْ يَقُولُونَ: الذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَالصِّفَاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَلَيْسَتْ الصِّفَاتُ إِلَهًا وَلَا رَبًّا، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ مُحْدَثٌ وَصِفَاتُهُ مُحْدَثَةٌ، وَلَيْسَتْ صِفَاتُهُ نَبِيًّا.

فَهَؤُلَاءِ إِذَا أَطْلَقُوا عَلَىٰ **الصفاتية** اسْمَ **التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ**: كَانَ هَذَا بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِمْ الَّذِي يُنَازِعُهُمْ فِيهِ أُولَئِكَ، **ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ أُولَئِكَ: هَبْ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَىٰ قَدْ يُسَمَّىٰ فِي اصْطِلَاحِ بَعْضِ النَّاسِ تَشْبِيهًا، فَهَذَا الْمَعْنَىٰ لَمْ يَنْفِهِ عَقْلٌ وَلَا سَمْعٌ، وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ نَفْيُ مَا نَفَتْهُ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ.**

وَالْقُرْآنُ قَدْ نَفَىٰ مُسَمَّىٰ **الْمِثْلِ وَالْكُفْءِ وَالنِّدِّ** وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ يَقُولُونَ: الصِّفَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لَيْسَتْ مِثْلَ الْمَوْصُوفِ وَلَا كُفُؤَهُ وَلَا نِدَّهُ فَلَا تَدْخُلُ فِي النَّصِّ، وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَلَمْ يَنْفِ مُسَمَّىٰ التَّشْبِيهِ فِي اصْطِلَاحِ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَقُولُونَ: إِنَّ الصِّفَاتِ لَا تَقُومُ إِلَّا بِجِسْمٍ مُتَحَيِّزٍ، وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ، فَلَوْ قَامَتْ بِهِ الصِّفَاتُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِسَائِرِ الْأَجْسَامِ، وَهَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ.

وَكَذَلِكَ يَقُولُ: هَذَا كَثِيرٌ مِنْ الصفاتية الَّذِينَ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ وَيَنْفُونَ عُلُوَّهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَقِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: الصِّفَاتُ قَدْ تَقُومُ بِمَا لَيْسَ بِجِسْمٍ، وَأَمَّا الْعُلُوُّ عَلَىٰ الْعَالَمِ فَلَا يَصِحُّ إِلَّا إِذَا كَانَ جِسْمًا، فَلَوْ أَثْبَتْنَا عُلُوَّهُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا، وَحِينَئِذٍ فَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فَيَلْزَمُ التَّشْبِيهُ.



فَلِهَذَا تَجِدُ هَؤُلَاءِ يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ الْعُلُوَّ وَنَحْوَهُ مُشَبِّهًا، وَلَا يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ وَنَحْوَهُ مُشَبِّهًا، كَمَا يَقُولُهُ؛ صَاحِبُ «الْإِرْشَادِ» وَأَمْثَالُهُ.

وَكَذَلِكَ قَدْ يُوَافِقُهُمْ عَلَىٰ الْقَوْلِ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَىٰ وَأَمْثَالُهُ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ وَالْعُلُوِّ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ يَجْعَلُونَ الْعُلُوَّ صِفَةً خَبَرِيَّةً، كَمَا هُوَ أَوَّلُ قَوْلَيْ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَىٰ، فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي الْوَجْهِ، وَقَدْ يَقُولُونَ: إِنَّ مَا يُثْبِتُونَهُ لَا يُنَافِي الْجِسْمَ، كَمَا يَقُولُونَهُ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ . وَالْعَاقِلُ إِذَا تَأَمَّلَ وَجَدَ الْأَمْرَ فِي مَا نَفَوْهُ كَالْأَمْرِ فِي مَا أَثْبَتُوهُ لَا فَرْقَ.

وَأَصْلُ كَلَامِ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ عَلَىٰ أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ مُسْتَلْزِمٌ لِلتَّجْسِيمِ، وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ. وَالْمُثْبِتُونَ يُجِيبُونَ عَنْ هَذَا تَارَةً بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَىٰ، وَتَارَةً بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَةِ الثَّانِيَةِ، وَتَارَةً بِمَنْعِ كُلٍّ مِنْ الْمُقَدِّمَتَيْنِ، وَتَارَةً بِالِاسْتِفْصَالِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ قَوْلَهُمْ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ قَوْلٌ بَاطِلٌ، سَوَاءٌ فَسَّرُوا الْجِسْمَ بِمَا يُشَارُ إِلَيْهِ، أَوْ بِالْقَائِمِ بِنَفْسِهِ، أَوْ بِالْمَوْجُودِ، أَوْ بِالْمُرَكَّبِ مِنْ الْهَيُولَىٰ وَالصُّورَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَأَمَّا إِذَا فَسَّرُوهُ بِالْمُرَكَّبِ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ وَعَلَىٰ أَنَّهَا مُتَمَاثِلَةٌ. فَهَذَا يُبْنَىٰ عَلَىٰ صِحَّةِ ذَلِكَ، وَعَلَىٰ إِثْبَاتِ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ وَعَلَىٰ أَنَّهُ مُتَمَاثِلٌ. وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ يُخَالِفُونَهُمْ فِي ذَلِكَ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُمْ يُطْلِقُونَ التَّشْبِيهَ عَلَىٰ مَا يَعْتَقِدُونَهُ تَجْسِيمًا بِنَاءً عَلَىٰ تَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ، وَالْمُثْبِتُونَ يُنَازِعُونَهُمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ، كَإِطْلَاقِ الرَّافِضَةِ لِلنَّصْبِ عَلَىٰ مَنْ تَوَلَّىٰ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بِنَاءً عَلَىٰ أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُ فَهُوَ نَاصِبِيٌّ؛ وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُنَازِعُونَهُمْ فِي الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَىٰ.

وَلِهَذَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ: إِنَّ الشَّيْئَيْنِ لَا يَشْتَبِهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَخْتَلِفَانِ مِنْ وَجْهٍ وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ، وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَىٰ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَبَيَّنَّا فِيهِ حُجَجَ مَنْ يَقُولُ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ وَحُجَجَ مَنْ نَفَىٰ ذَلِكَ، وَبَيَّنَّا فَسَادَ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِتَمَاثُلِهَا.

وَأَيْضًا، فَالِاعْتِمَادُ بِهَذَا الطَّرِيقِ عَلَىٰ نَفْيِ التَّشْبِيهِ اعْتِمَادٌ بَاطِلٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا أَثْبَتَ تَمَاثُلَ الْأَجْسَامِ فَهُمْ لَا يَنْفُونَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحُجَّةِ الَّتِي يَنْفُونَ بِهَا الْجِسْمَ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ هَذَا يَسْتَلْزِمُ الْجِسْمَ، وَثَبَتَ امْتِنَاعُ الْجِسْمِ، كَانَ هَذَا وَحْدَهُ كَافِيًا فِي نَفْيِ ذَلِكَ، لَا يَحْتَاجُ نَفْيُ ذَلِكَ إِلَىٰ نَفْيِ مُسَمَّىٰ «التَّشْبِيهِ»، لَكِنَّ نَفْيَ التَّجْسِيمِ يَكُونُ مَبْنِيًّا عَلَىٰ نَفْيِ هَذَا التَّشْبِيهِ بِأَنْ يُقَالَ: لَوْ ثَبَتَ



لَهُ كَذَا وَكَذَا لَكَانَ جِسْمًا؛ ثُمَّ يُقَالُ: وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ، فَيَجِبُ اشْتِرَاكُهَا فِيمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ. لَكِنْ حِينَئِذٍ يَكُونُ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ مُعْتَمِدًا فِي نَفْيِ التَّشْبِيهِ عَلَىٰ نَفْيِ التَّجْسِيمِ؛ فَيَكُونُ أَصْلُ نَفْيِهِ نَفْيُ الْجِسْمِ، وَهَذَا مَسْلَكٌ آخَرُ سَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مُجَرَّدَ الِاعْتِمَادِ فِي نَفْيِ مَا يُنْفَىٰ عَلَىٰ مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَا يُفِيدُ، إِذْ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا يَشْتَبِهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَفْتَرِقَانِ مِنْ وَجْهٍ، بِخِلَافِ الِاعْتِمَادِ عَلَىٰ نَفْيِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ سُبْحَانَهُ مُقَدَّسٌ عَنْهُ، فَإِنَّ هَذِهِ طَرِيقَةٌ صَحِيحَةٌ.

وَكَذَلِكَ إِذَا أُثْبِتَ لَهُ صِفَاتُ الْكَمَالِ، وَنُفِيَ مُمَاثَلَةُ غَيْرِهِ لَهُ فِيهَا، فَإِنَّ هَذَا نَفْيُ الْمُمَاثَلَةِ فِيمَا هُوَ مُسْتَحِقٌّ لَهُ، وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ، وَهُوَ أَلَّا يَشْرَكَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يُمَاثِلُهُ فِيهِ أَحَدٌ، وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا إِثْبَاتُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الصِّفَاتِ وَنَفْيُ مُمَاثَلَتِهِ لِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الشَّيْءَ إِذَا شَابَهَ غَيْرَهُ مِنْ وَجْهٍ جَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ، وَوَجَبَ لَهُ مَا وَجَبَ لَهُ، وَامْتَنَعَ عَلَيْهِ مَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ.

قِيلَ: هَبْ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ مَا يَمْتَنِعُ عَلَىٰ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَلَا نَفْيُ مَا يَسْتَحِقُّهُ لَمْ يَكُنْ مُمْتَنِعًا؛ كَمَا إِذَا قِيلَ: إِنَّهُ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَقَدْ سَمِّ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ حَيًّا سَمْعِيًّا عَلِيمًا بَصِيرًا، فَإِذَا قِيلَ: يَلْزَمُ أَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مَوْجُودًا حَيًّا عَلِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا. **قِيلَ**: لَازِمُ هَذَا الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ لَيْسَ مُمْتَنِعًا عَلَىٰ الرَّبِّ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي حُدُوثًا، وَلَا إِمْكَانًا، وَلَا نَقْصًا، وَلَا شَيْئًا مِمَّا يُنَافِي صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ هُوَ مُسَمَّىٰ «الْوُجُودِ» أَوْ «الْمَوْجُودُ»، أَوْ «الْحَيَاةُ» أَوْ «الْحَيُّ»، أَوْ «الْعِلْمُ» أَوْ «الْعَلِيمُ»، أَوْ «السَّمْعُ» أَوْ «الْبَصَرُ» أَوْ «السَّمِيعُ» أَوْ «الْبَصِيرُ»، أَوْ «الْقُدْرَةُ» أَوْ «الْقَدِيرُ»، وَالْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ مُطْلَقٌ كُلِّيٌّ لَا يَخْتَصُّ بِأَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، فَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمَا اشْتِرَاكٌ لَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْمُمْكِنِ الْمُحْدَثِ، وَلَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْوَاجِبِ الْقَدِيمِ، فَإِنَّ مَا يَخْتَصُّ بِهِ أَحَدُهُمَا يَمْتَنِعُ اشْتِرَاكُهُمَا فِيهِ. فَإِذَا كَانَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ الَّذِي اشْتَرَكَا فِيهِ صِفَةَ



كَمَالٍ: كَالْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ، كَمَا لَا يَدُلُّ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِ الْخَالِقِ لَمْ يَكُنْ فِي إِثْبَاتِ هَذَا مَحْذُورٌ أَصْلًا؛ بَلْ إِثْبَاتُ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْوُجُودِ، فَكُلُّ مَوْجُودَيْنِ لَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مَنْ مِثْلِ هَذَا، وَمَنْ نَفْي هَذَا لَزِمَهُ تَعْطِيلُ وُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ.

وَلِهَذَا لَمَّا اطَّلَعَ الْأَئِمَّةُ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا حَقِيقَةُ قَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ سَمَّوْهُمْ مُعَطِّلَةً، وَكَانَ جَهْمٌ يُنْكِرُ أَنْ يُسَمَّىٰ اللهُ شَيْئًا، وَرُبَّمَا قَالَتْ الْجَهْمِيَّةُ: هُوَ شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ، فَإِذَا نَفَىٰ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ مُطْلَقًا لَزِمَ التَّعْطِيلُ التَّامُّ.

وَالْمَعَانِي الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الرَّبُّ تَعَالَىٰ، كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، بَلْ الْوُجُودُ وَالثُّبُوتُ وَالْحَقِيقَةُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، تَجِبُ لَهُ لَوَازِمُهَا؛ فَإِنَّ ثُبُوتَ الْمَلْزُومِ يَقْتَضِي ثُبُوتَ اللَّازِمِ، وَخَصَائِصُ الْمَخْلُوقِ الَّتِي يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْهَا لَيْسَتْ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ أَصْلًا، بَلْ تِلْكَ مِنْ لَوَازِمِ مَا يَخْتَصُّ بِالْمَخْلُوقِ مِنْ وُجُودٍ وَحَيَاةٍ وَعِلْمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ وَمَلْزُومَاتِ خَصَائِصِهِ.

وَهَذَا الْمَوْضِعُ مَنْ فَهِمَهُ فَهْمًا جَيِّدًا، وَتَدَبَّرَهُ، زَالَتْ عَنْهُ عَامَّةُ الشُّبُهَاتِ، وَانْكَشَفَ لَهُ غَلَطُ كَثِيرٍ مِنْ الْأَذْكِيَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَبُيِّنَ فِيهَا أَنَّ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ الْكُلِّيَّ لَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ إِلَّا مُعَيَّنًا مُقَيَّدًا، وَأَنَّ مَعْنَىٰ اشْتِرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ فِي أَمْرٍ مِنْ الْأُمُورِ هُوَ تَشَابُهُهَا مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْمَعْنَىٰ الْعَامَّ يُطْلَقُ عَلَىٰ هَذَا وَهَذَا، لِأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْخَارِجِ لَا يُشَارِكُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فِي شَيْءٍ مَوْجُودٍ فِيهِ، بَلْ كُلُّ مَوْجُودٍ مُتَمَيِّزٌ عَنْ غَيْرِهِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ مُتَنَاقِضًا فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَتَارَةً يَظُنُّ أَنَّ إِثْبَاتَ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ يُوجِبُ التَّشْبِيهَ الْبَاطِلَ، فَيَجْعَلُ ذَلِكَ لَهُ حُجَّةً فِيمَا يَظُنُّ نَفْيَهُ مِنْ الصِّفَاتِ، حَذَرًا مِنْ مَلْزُومَاتِ التَّشْبِيهِ؛ وَتَارَةً يَتَفَطَّنُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ هَذَا عَلَىٰ تَقْدِيرٍ، فَيُجِيبُ بِهِ فِيمَا يُثْبِتُهُ مِنْ الصِّفَاتِ لِمَنْ احْتَجَّ بِهِ مِنْ النُّفَاةِ.

وَلِكَثْرَةِ الِاشْتِبَاهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ: وَقَعَتْ الشُّبْهَةُ فِي أَنَّ وُجُودَ الرَّبِّ هَلْ هُوَ عَيْنُ مَاهِيَّتِهِ، أَوْ زَائِدٌ عَلَىٰ مَاهِيَّتِهِ؛ وَهَلْ لَفْظُ الْوُجُودِ مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ، أَوْ التَّوَاطُيء، أَوْ



التَّشْكِيكِ، كَمَا وَقَعَ الِاشْتِبَاهُ فِي إِثْبَاتِ الْأَحْوَالِ وَنَفْيِهَا؛ وَفِي أَنَّ الْمَعْدُومَ هَلْ هُوَ شَيْءٌ أَمْ لَا؟، وَفِي وُجُودِ الْمَوْجُودَاتِ هَلْ هُوَ زَائِدٌ عَلَىٰ مَاهِيَّتِهَا أَمْ لَا؟.

وَقَدْ كَثُرَ مِنْ أَئِمَّةِ النُّظَّارِ الِاضْطِرَابُ وَالتَّنَاقُضُ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ، فَتَارَةً يَقُولُ أَحَدُهُمْ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ، وَيَحْكِي عَنِ النَّاسِ مَقَالَاتٍ مَا قَالُوهَا، وَتَارَةً يَبْقَىٰ فِي الشَّكِّ وَالتَّحَيُّرِ، وَقَدْ بَسَطْنَا مِنَ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ، وَمَا وَقَعَ مِنْ الِاشْتِبَاهِ وَالْغَلَطِ وَالْحَيْرَةِ فِيهَا لِأَئِمَّةِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ مَا لَا تَتَّسِعُ لَهُ هَذِهِ الْجُمَلُ الْمُخْتَصَرَةُ.

وَبَيَّنَّا أَنَّ الصَّوَابَ هُوَ أَنَّ وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْخَارِجِ هُوَ مَاهِيَّتُهُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ، بِخِلَافِ الْمَاهِيَّةِ الَّتِي فِي الذِّهْنِ فَإِنَّهَا مُغَايِرَةٌ لِلْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ، وَأَنَّ لَفْظَ الْوُجُودِ كَلَفْظِ «الذَّاتِ» وَ«الشَّيْءِ» وَ«الْمَاهِيَّةِ» وَ«الْحَقِيقَةِ» وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ كُلُّهَا مُتَوَاطِئَةٌ، وَإِذَا قِيلَ: إِنَّهَا مُشَكِّكَةٌ ، لِتَفَاضُلِ مَعَانِيهَا ، فَالْمُشَكِّكُ نَوْعٌ مِنَ الْمُتَوَاطِيءِ الْعَامِّ الَّذِي يُرَاعَىٰ فِيهِ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَىٰ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ ، سَوَاءٌ كَانَ الْمَعْنَىٰ مُتَفَاضِلًا فِي مَوَارِدِه ، أَو مُتَمَاثِلًا .

وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ أَيْضًا فِي الْعِلْمِ وَالذِّهْنِ، لَا فِي الْخَارِجِ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الثُّبُوتِ وَالْوُجُودِ، لَكِنَّ الْفَرْقَ ثَابِتٌ بَيْنَ الْوُجُودِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَيْنِيِّ، مَعَ أَنَّ مَا فِي الْعِلْمِ لَيْسَ هُوَ الْحَقِيقَةَ الْمَوْجُودَةَ، وَلَكِنْ هُوَ الْعِلْمُ التَّابِعُ لِلْعَالِمِ الْقَائِمِ بِهِ.

وَكَذَلِكَ الْأَحْوَالُ الَّتِي تَتَمَاثَلُ فِيهَا الْمَوْجُودَاتُ وَتَخْتَلِفُ، لَهَا وُجُودٌ فِي الْأَذْهَانِ، وَلَيْسَ فِي الْأَعْيَانِ إِلَّا الْأَعْيَانُ الْمَوْجُودَةُ، وَصِفَاتُهَا الْقَائِمَةُ بِهَا الْمُعَيَّنَةُ، فَتَتَشَابَهُ بِذَلِكَ وَتَخْتَلِفُ بِهِ.

وَأَمَّا هَذِهِ الْجُمَلُ الْمُخْتَصَرَةُ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا التَّنْبِيهُ عَلَىٰ جُمَلٍ مُخْتَصَرَةٍ جَامِعَةٍ، مَنْ فَهِمَهَا عَلِمَ قَدْرَ نَفْعِهَا، وَانْفَتَحَ لَهُ بَابُ الْهُدَىٰ، وَإِمْكَانُ إِغْلَاقِ بَابِ الضَّلَالِ، ثُمَّ بَسْطُهَا وَشَرْحُهَا لَهُ مَقَامٌ آخَرُ، إِذْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ الِاعْتِمَادَ عَلَىٰ مِثْلِ هَذِهِ الْحُجَّةِ فِيمَا يُنْفَىٰ عَنْ الرَّبِّ، وَيُنَزَّهُ عَنْهُ - كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ الْمُصَنِّفِينَ - خَطَأٌ لِمَنْ تَدَبَّرَ ذَلِكَ، وَهَذَا مِنْ طُرُقِ النَّفْيِ الْبَاطِلَةِ.



فصلٌ

وَأَفْسَدُ مِنْ ذَلِكَ: مَا يَسْلُكُهُ نُفَاةُ الصِّفَاتِ أَوْ بَعْضِهَا، إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُنَزِّهُوهُ عَمَّا يَجِبُ تَنْزِيهُهُ عَنْهُ مِمَّا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ، مِثْلَ أَنْ يُرِيدُوا تَنْزِيهَهُ عَنِ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ،



وَيُرِيدُونَ الرَّدَّ عَلَىٰ الْيَهُودِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ بَكَىٰ عَلَىٰ الطُّوفَانِ حَتَّىٰ رَمِدَ وَعَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِإِلَهِيَّةِ بَعْضِ الْبَشَرِ، وَأَنَّهُ اللهُ.

فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَحْتَجُّ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ بِنَفْيِ التَّجْسِيمِ أَوِ التَّحَيُّزِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: لَوْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ لَكَانَ جِسْمًا أَوْ مُتَحَيِّزًا، وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ.

وَبِسُلُوكِهِمْ مِثْلَ هَذِهِ الطَّرِيقِ اسْتَظْهَرَ عَلَيْهِمُ الْمَلَاحِدَةُ، نُفَاةُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

فَإِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ لِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ وَصْفَ اللهِ تَعَالَىٰ بِهَذِهِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ أَظْهَرُ فَسَادًا فِي الْعَقْلِ وَالدِّينِ مِنْ نَفْيِ التَّحَيُّزِ وَالتَّجْسِيمِ، فَإِنَّ هَذَا فِيهِ مِنَ الِاشْتِبَاهِ وَالنِّزَاعِ وَالْخَفَاءِ مَا لَيْسَ فِي ذَلِكَ، وَكُفْرُ صَاحِبِ ذَلِكَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالدَّلِيلُ مُعَرِّفٌ لِلْمَدْلُولِ، وَمُبَيِّنٌ لَهُ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَىٰ الْأَظْهَرِ الْأَبْيَنِ بِالْأَخْفَىٰ، كَمَا لَا يُفْعَلُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْحُدُودِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصِفُونَهُ بِهَذِهِ الْآفَاتِ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: نَحْنُ لَا نَقُولُ بِالتَّجْسِيمِ وَالتَّحَيُّزِ، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يُثْبِتُ الصِّفَاتِ وَيَنْفِي التَّجْسِيمَ، فَيَصِيرُ نِزَاعُهُمْ مِثْلَ نِزَاعِ مُثْبِتَةِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَيَصِيرُ كَلَامُ مَنْ وَصَفَ اللهَ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَصِفَاتِ النَّقْصِ وَاحِدًا، وَيَبْقَىٰ رَدُّ النُّفَاةِ عَلَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ بِطَرِيقٍ وَاحِدٍ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْفَسَادِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ يَنْفُونَ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَاتِّصَافُهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَاجِبٌ، ثَابِتٌ بِالْعَقْلِ وَالسَّمْعِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَىٰ فَسَادِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ سَالِكِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مُتَنَاقِضُونَ، فَكُلُّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا مِنْهُمْ أَلْزَمَهُ الْآخَرُ بِمَا يُوَافِقُهُ فِيهِ مِنَ الْإِثْبَاتِ، كَمَا أَنَّ كُلَّ مَنْ نَفَىٰ شَيْئًا مِنْهُمْ أَلْزَمَهُ الْآخَرُ بِمَا يُوَافِقُهُ فِيهِ مِنَ النَّفْيِ، فَمُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، إِذَا قَالَتْ لَهُمُ النُّفَاةُ **كَالْمُعْتَزِلَةِ**: هَذَا تَجْسِيمٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَعْرَاضٌ، وَالْعَرَضُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِالْجِسْمِ، أَوْ لِأَنَّا لَا نَعْرِفُ مَوْصُوفًا بِالصِّفَاتِ إِلَّا جِسْمًا. قَالَتْ لَهُمُ **الْمُثْبِتَةُ**: وَأَنْتُمْ قَدْ قُلْتُمْ: إِنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، وَقُلْتُمْ: لَيْسَ بِجِسْمٍ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَوْجُودًا حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا إِلَّا جِسْمًا، فَقَدْ أَثْبَتُّمُوهُ عَلَىٰ خِلَافِ مَا عَلِمْتُمْ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ، وَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَثْبَتُّمْ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا، بِلَا حَيَاةٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا قُدْرَةٍ وَهَذَا تَنَاقُضٌ يُعْلَمُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ.

ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُثْبِتَةُ إِذَا قَالُوا لِمَنْ أَثْبَتَ أَنَّهُ يَرْضَىٰ وَيَغْضَبُ وَيُحِبُّ وَيُبْغِضُ، أَوْ مَنْ وَصَفَهُ

بِالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ، أَوْ بِالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ- إِذَا قَالُوا: هَذَا يَقْتَضِي التَّجْسِيمَ، لِأَنَّا لَا نَعْرِفُ مَا يُوصَفُ بِذَلِكَ إِلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ، قَالَتْ لَهُمُ **الْمُثْبِتَةُ**: فَأَنْتُمْ قَدْ وَصَفْتُمُوهُ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ، وَهَذَا هَكَذَا، فَإِذَا كَانَ هَذَا لَا يُوصَفُ بِهِ إِلَّا الْجِسْمُ فَالْآخَرُ كَذَلِكَ، وَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ يُوصَفَ بِأَحَدِهِمَا مَا لَيْسَ بِجِسْمٍ فَالْآخَرُ كَذَلِكَ، فَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ.

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الرَّدُّ عَلَىٰ مَنْ وَصَفَ اللهَ تَعَالَىٰ بِالنَّقَائِصِ بِهَذَا الطَّرِيقِ طَرِيقًا فَاسِدًا- لَمْ يَسْلُكْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ، فَلَمْ يَنْطِقْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ بِالْجِسْمِ لَا نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا، وَلَا بِالْجَوْهَرِ وَالتَّحَيُّزِ؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِأَنَّهَا عِبَارَاتٌ مُجْمَلَةٌ، لَا تُحِقُّ حَقًّا وَلَا تُبْطِلُ بَاطِلًا، وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ اللهُ فِي كِتَابِهِ فِيمَا أَنْكَرَهُ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْكُفَّارِ مَا هُوَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ، بَلْ هَذَا هُوَ مِنَ الْكَلَامِ الْمُبْتَدَعِ الَّذِي أَنْكَرَهُ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ.



فصلٌ

وَأَمَّا فِي طُرُقِ الْإِثْبَاتِ فَمَعْلُومٌ أَيْضًا أَنَّ الْمُثْبَتَ لَا يَكْفِي فِي إِثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ، إِذْ لَوْ كَفَىٰ فِي إِثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَجَازَ أَنْ يُوصَفَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ الْأَعْضَاءِ وَالْأَفْعَالِ بِمَا لَا يَكَادُ يُحْصَىٰ مِمَّا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ - مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ، وَأَنْ يُوصَفَ بِالنَّقَائِصِ الَّتِي لَا تَجُوزُ عَلَيْهِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ، كَمَا لَوْ وَصَفَهُ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ بِالْبُكَاءِ وَالْحُزْنِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ، وَكَمَا لَوْ قَالَ الْمُفْتَرِي: يَأْكُلُ لَا كَأَكْلِ الْعِبَادِ، وَيَشْرَبُ لَا كَشُرْبِهِمْ، وَيَبْكِي وَيَحْزَنُ لَا كَبُكَائِهِمْ وَلَا حُزْنِهِمْ، كَمَا يُقَالُ: يَضْحَكُ لَا كَضَحِكِهِمْ، وَيَفْرَحُ لَا كَفَرَحِهِمْ، وَيَتَكَلَّمُ لَا كَكَلَامِهِمْ، وَلَجَازَ **أَنْ يُقَالَ**: لَهُ أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ لَا كَأَعْضَائِهِمْ، كَمَا قِيلَ: لَهُ وَجْهٌ لَا كَوُجُوهِهِمْ، وَيَدَانِ لَا كَأَيْدِيهِمْ. حَتَّىٰ يَذْكُرَ الْمَعِدَةَ وَالْأَمْعَاءَ وَالذَّكَرَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَالَىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَإِنَّهُ يُقَالُ: لِمَنْ نَفَىٰ ذَلِكَ مَعَ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنْ الصِّفَاتِ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَمَا أَثْبَتَّهُ، إِذَا نَفَيْت التَّشْبِيهَ، وَجَعَلْت مُجَرَّدَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ كَافِيًا فِي الْإِثْبَاتِ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ فَرْقٍ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ.

فَإِنْ قَالَ: الْعُمْدَةُ فِي الْفَرْقِ هُوَ السَّمْعُ، فَمَا جَاءَ بِهِ السَّمْعُ أَثْبَتَهُ، دُونَ مَا لَمْ يَجِئْ بِهِ



السَّمْعُ.

قِيلَ لَهُ: أَوَّلًا: السَّمْعُ هُوَ خَبَرُ الصَّادِقِ عَمَّا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ، فَمَا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ، وَالْخَبَرُ دَلِيلٌ عَلَىٰ الْمُخْبَرِ عَنْهُ، وَالدَّلِيلُ لَا يَنْعَكِسُ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِهِ عَدَمُ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ، فَمَا لَمْ يَرِدْ بِهِ السَّمْعُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِنْ لَمْ يَرِدْ بِهِ السَّمْعُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ نَفَاهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّمْعَ لَمْ يَنْفِ هَذِهِ الْأُمُورَ بِأَسْمَائِهَا الْخَاصَّةِ، فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ مَا يَنْفِيهَا مِنَ السَّمْعِ، وَإِلَّا فَلَا يَجُوزُ حِينَئِذٍ نَفْيُهَا، كَمَا لَا يَجُوزُ إِثْبَاتُهَا.

وَأَيْضًا: فَلَا بُدَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ مَا يُثْبَتُ لَهُ وَيُنْفَىٰ عَنْهُ، فَإِنَّ الْأُمُورَ الْمُتَمَاثِلَةَ فِي الْجَوَازِ وَالْوُجُوبِ وَالِامْتِنَاعِ، يَمْتَنِعُ اخْتِصَاصُ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ فِي الْجَوَازِ وَالْوُجُوبِ وَالِامْتِنَاعِ، فَلَا بُدَّ مِنِ اخْتِصَاصِ الْمَنْفِيِّ عَنِ الْمُثْبَتِ بِمَا يَخُصُّهُ بِالنَّفْيِ، وَلَا بُدَّ مِنِ اخْتِصَاصِ الثَّابِتِ عَنِ الْمَنْفِيِّ بِمَا يَخُصُّهُ بِالثُّبُوتِ.

وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ يُقَالَ: لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُوجِبُ نَفْيَ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنِ اللهِ، كَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُثْبِتُ لَهُ مَا هُوَ ثَابِتٌ، وَإِنْ كَانَ السَّمْعُ كَافِيًا كَانَ مُخْبِرًا عَمَّا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ، فَمَا الْفَرْقُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا؟

فَيُقَالُ: كُلَّمَا نَفَىٰ صِفَاتُ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لِلَّهِ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، فَإِنَّ ثُبُوتَ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الْآخَرِ، فَإِذَا عُلِمَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ وَاجِبُ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ، وَأَنَّهُ قَدِيمٌ وَاجِبُ الْقِدَمِ: عُلِمَ امْتِنَاعُ الْعَدَمِ وَالْحُدُوثِ عَلَيْهِ، وَعُلِمَ أَنَّهُ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، فَالْمُفْتَقِرُ إِلَىٰ مَا سِوَاهُ فِي بَعْضِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ لَيْسَ هُوَ مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ، بَلْ بِنَفَسِهِ وَبِذَلِكَ الْآخَرِ الَّذِي أَعْطَاهُ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، فَلَا يُوجَدُ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، فَكُلُّ مَا نَافَىٰ غِنَاهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدِيرٌ قَوِيٌّ فَكُلُّ مَا نَافَىٰ قُدْرَتَهُ وَقُوَّتَهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ حَيٌّ قَيُّومٌ فَكُلُّ مَا نَافَىٰ حَيَاتَهُ وَقَيُّومِيَّتِهِ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَالسَّمْعُ قَدْ أَثْبَتَ لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ مَا قَدْ وَرَدَ، فَكُلُّ مَا ضَادَّ ذَلِكَ فَالسَّمْعُ يَنْفِيه، كَمَا يَنْفِي عَنْهُ الْمِثْلَ وَالْكُفُؤَ، فَإِنَّ إِثْبَاتَ الشَّيْءِ نَفْيٌ لِضِدِّهِ. وَلِمَا يَسْتَلْزِمُ ضِدَّهُ وَالْعَقْلُ يَعْرِفُ نَفْيَ ذَلِكَ، كَمَا يَعْرِفُ إِثْبَاتَ ضِدِّهِ، فَإِثْبَاتُ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ نَفْيٌ لِلْآخَرِ وَلِمَا يَسْتَلْزِمُهُ.

فَطُرُقُ الْعِلْمِ بِنَفْيِ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ مُتَّسِعَةٌ، لَا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَىٰ الِاقْتِصَارِ عَلَىٰ مُجَرَّدِ نَفْيِ



التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ كَمَا فَعَلَهُ أَهْلُ الْقُصُورِ وَالتَّقْصِيرِ، الَّذِينَ تَنَاقَضُوا فِي ذَلِكَ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ، حَتَّىٰ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا احْتَجَّ عَلَيْهِ مَنْ نَفَاهُ بِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ.

وَكَذَلِكَ احْتَجَّ الْقَرَامِطَةُ عَلَىٰ نَفْيِ جَمِيعِ الْأُمُورِ حَتَّىٰ نَفَوْا النَّفْيَ، فَقَالُوا: لَا يُقَالُ لَا مَوْجُودَ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ، وَلَا حَيَّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ، لِأَنَّ ذَلِكَ تَشْبِيهٌ بِالْمَوْجُودِ أَوْ الْمَعْدُومِ. فَلَزِمَ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ، وَهُوَ أَظْهَرُ الْأَشْيَاءِ امْتِنَاعًا، ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَلْزَمُهُمْ مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالْمَعْدُومَاتِ وَالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْجَمَادَاتِ: أَعْظَمُ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ مِنَ التَّشْبِيهِ بِالْأَحْيَاءِ الْكَامِلِينَ، فَطُرُقُ تَنْزِيهِهِ وَتَقْدِيسِهِ عَمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ مُتَّسِعَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ هَذَا.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَا يُنْفَىٰ عَنْهُ سُبْحَانَهُ وتعالىٰ- يُنْفَىٰ لِتَضَمُّنِ النَّفْيِ الْإِثْبَاتَ، إِذْ مُجَرَّدُ النَّفْيِ لَا مَدْحٌ فِيهِ وَلَا كَمَالَ، فَإِنَّ الْمَعْدُومَ يُوصَفُ بِالنَّفْيِ، وَالْمَعْدُومَ لَا يُشْبِهُ الْمَوْجُودَ، وَلَيْسَ هَذَا مَدْحًا لَهُ، لِأَنَّ مُشَابَهَةَ النَّاقِصِ فِي صِفَاتِ النَّقْصِ نَقْصٌ مُطْلَقًا، كَمَا أَنَّ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقِ فِي شَيْءٍ مِنْ الصِّفَاتِ تَمْثِيلٌ وَتَشْبِيهٌ، يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَالنَّقْصُ ضِدُّ الْكَمَالِ؛ وَذَلِكَ مِثْلُ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ حَيٌّ وَالْمَوْتُ ضِدُّ ذَلِكَ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ النَّوْمُ وَالسِّنَةُ ضِدَّ كَمَالِ الْحَيَاةِ، فَإِنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ، وَكَذَلِكَ اللُّغُوبُ نَقْصٌ فِي الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ، وَالْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ فِيهِ افْتِقَارٌ، إِلَىٰ مَوْجُودٍ غَيْرِهِ كَمَا أَنَّ الِاسْتِعَانَةَ بِالْغَيْرِ وَالِاعْتِضَادَ بِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ تَتَضَمَّنُ الِافْتِقَارَ إِلَيْهِ وَالِاحْتِيَاجَ إِلَيْهِ، وَكُلُّ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَنْ يَحْمِلُهُ أَوْ يُعِينُهُ عَلَىٰ قِيَامِ ذَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ لَيْسَ مُسْتَغْنِيًا عَنْهُ بِنَفْسِهِ، فَكَيْفَ مَنْ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَالْآكِلُ وَالشَّارِبُ أَجْوَفُ، وَالْمُصْمَتُ الصَّمَدُ أَكْمَلُ مِنْ الْآكِلِ وَالشَّارِبِ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ صمدا لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِمَخْلُوقٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَىٰ بِهِ، وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ فَالْخَالِقُ أَوْلَىٰ بِتَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ. وَالسَّمْعُ قَدْ نَفَىٰ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ. وَهَذِهِ السُّورَةُ هِيَ نَسَبُ الرَّحْمَنِ، أَوْ هِيَ الْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ. وَقَالَ فِي حَقِّ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]، فَجَعَلَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَىٰ نَفْيِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ تَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ وَالْأَحْرَىٰ.



وَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ وَنَحْوُ ذَلِكَ هِيَ أَعْضَاءُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، فَالْغَنِيُّ الْمُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ مُنَزَّهٌ عَنْ آلَاتِ ذَلِكَ، بِخِلَافِ الْيَدِ فَإِنَّهَا لِلْعَمَلِ وَالْفِعْلِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْعَمَلِ وَالْفِعْلِ، إِذْ ذَاكَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ الْفِعْلِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَعَنْ آلَاتِ ذَلِكَ وَأَسْبَابِهِ، وَكَذَلِكَ الْبُكَاءُ وَالْحُزْنُ هُوَ مُسْتَلْزِمٌ الضَّعْفَ وَالْعَجْزَ، الَّذِي يُنَزَّهُ اللهُ عَنْهُ، بِخِلَافِ الْفَرَحِ وَالْغَضَبِ فَإِنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَكَمَا يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ دُونَ الْعَجْزِ، وَبِالْعِلْمِ دُونَ الْجَهْلِ، وَبِالْحَيَاةِ دُونَ الْمَوْتِ، وَبِالسَّمْعِ دُونَ الصَّمَمِ، وَبِالْبَصَرِ دُونَ الْعَمَىٰ، وَبِالْكَلَامِ دُونَ الْبُكْمِ - فَكَذَلِكَ يُوصَفُ بِالْفَرَحِ دُونَ الْحُزْنِ، وَبِالضَّحِكِ دُونَ الْبُكَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَيْضًا فَقَدْ ثَبَتَ بِالْعَقْلِ مَا أَثْبَتَهُ السَّمْعُ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا كُفُؤَ لَهُ، وَلَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا حَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ كَحَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَيُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْمَخْلُوقَاتِ، لَا الْمَلَائِكَةِ وَلَا السَّمَوَاتِ وَلَا الْكَوَاكِبِ، وَلَا الْهَوَاءِ وَلَا الْمَاءِ وَلَا الْأَرْضِ، وَلَا الْآدَمِيِّينَ وَلَا أَبْدَانِهِمْ وَلَا أَنْفُسِهِمْ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ، بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ حَقِيقَتَهُ عَنْ مُمَاثَلَاتِ شَيْءٍ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ أَبْعَدُ مِنْ سَائِرِ الْحَقَائِقِ، وَأَنَّ مُمَاثَلَتَهُ لِشَيْءٍ مِنْهَا أَبْعَدُ مِنْ مُمَاثَلَةِ حَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لِحَقِيقَةِ مَخْلُوقٍ آخَرَ.

فَإِنَّ الْحَقِيقَتَيْنِ إِذَا تَمَاثَلَتَا جَازَ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدَةٍ مَا يَجُوزُ عَلَىٰ الْأُخْرَىٰ، وَوَجَبَ لَهَا مَا وَجَبَ لَهَا، فَيَلْزَمُ أَنْ يَجُوزَ عَلَىٰ الْخَالِقِ الْقَدِيمِ الْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ مَا يَجُوزُ عَلَىٰ الْمُحْدَثِ الْمَخْلُوقِ مِنَ الْعَدَمِ وَالْحَاجَةِ، وَأَنْ يُثْبَتَ لِهَذَا مَا يُثْبَتُ لِذَلِكَ مِنَ الْوُجُوبِ وَالْغِنَىٰ، فَيَكُونُ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ غَيْرَ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ، مَوْجُودًا مَعْدُومًا، وَذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ.

وَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِهِ بُطْلَانُ قَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: بَصَرٌ كَبَصَرِي، أَوْ يَدٌ كَيَدِي وَنَحْوِ ذَلِكَ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ هُنَا اسْتِيفَاءَ مَا يَثْبُتُ لَهُ، وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ، وَاسْتِيفَاءَ طُرُقِ ذَلِكَ، لِأَنَّ هَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَىٰ جَوَامِعِ ذَلِكَ وَطُرُقِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ السَّمْعُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَقْلِ مَا يُثْبِتُهُ وَلَا يَنْفِيهِ، سَكَتْنَا عَنْهُ فَلَا نُثْبِتُهُ وَلَا نَنْفِيهِ، فَنُثْبِتُ مَا عَلِمْنَا ثُبُوتَهُ، وَنَنْفِي مَا عَلِمْنَا نَفْيَهُ، وَنَسْكُتُ عَمَّا لَا نَعْلَمُ نَفْيَهُ وَلَا إِثْبَاتَهُ، وَاللهُ



ﷻ أَعْلَمُ.

الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنْ يُقَالَ: إنَّ كَثِيرًا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ «**السَّمْعُ**» يُعْلَمُ «**بِالْعَقْلِ**» أَيْضًا، وَالْقُرْآنُ يُبَيِّنُ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ الْعَقْلُ، وَيُرْشِدُ إلَيْهِ وَيُنَبِّهُ عَلَيْهِ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ؛ فإِنَّهُ ﷻ بَيَّنَ مِنْ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَعِلْمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مَا أَرْشَدَ الْعِبَادَ إلَيْهِ وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ، كَمَا بَيَّنَ أَيْضًا مَا دَلَّ عَلَىٰ نُبُوَّةِ أَنْبِيَائِهِ، وَمَا دَلَّ عَلَىٰ الْمُعَادِ وَإِمْكَانِهِ.

فَهَذِهِ الْمَطَالِبُ هِيَ شَرْعِيَّةٌ مِنْ جِهَتَيْنِ: مِنْ جِهَةِ أَنَّ الشَّارِعَ أَخْبَرَ بِهَا، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ بَيَّنَ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَيْهَا.

_ وَالْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ فِي الْقُرْآنِ هِيَ «**أَقْيِسَةٌ عَقْلِيَّةٌ**»، وَقَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ _ وَهِيَ أَيْضًا عَقْلِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَيْضًا.

وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يُسَمِّي هَذِهِ «**الْأُصُولُ الْعَقْلِيَّةُ**» لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهَا لَا تُعْلَمُ إلَّا بِالْعَقْلِ فَقَطْ؛ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهَا لَا تُعْلَمُ إلَّا بِالْعَقْلِ فَقَطْ؛ فَإِنَّ السَّمْعَ هُوَ مُجَرَّدُ إخْبَارِ الصَّادِقِ، وَخَبَرُ الصَّادِقِ_ الَّذِي هُوَ النَّبِيُّ _لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْأُصُولِ بِالْعَقْلِ.

ثُمَّ إنَّهُمْ قَدْ يَتَنَازَعُونَ فِي الْأُصُولِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ إثْبَاتُ النُّبُوَّةِ عَلَيْهَا:

فَطَائِفَةٌ تَزْعُمُ أَنَّ تَحْسِينَ الْعَقْلِ وَتَقْبِيحَهُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْأُصُولِ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إثْبَاتُ النُّبُوَّةِ بِدُونِ ذَلِكَ، وَيَجْعَلُونَ التَّكْذِيبَ بِالْقَدَرِ مِمَّا يَنْفِيهِ الْعَقْلُ.

وطَائِفَةٌ تَزْعُمُ أَنَّ حُدُوثَ الْعَالَمِ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ، وَأَنَّ الْعِلْمَ بِالصَّانِعِ لَا يُمْكِنُ إلَّا بِإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ، وَإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ لَا يُمْكِنُ إلَّا بِحُدُوثِ الْأَجْسَامِ، وَحُدُوثُهَا يُعْلَمُ إمَّا بِحُدُوثِ الصِّفَاتِ، وَإِمَّا بِحُدُوثِ الْأَفْعَالِ الْقَائِمَةِ بِهَا فَيَجْعَلُونَ نَفْيَ أَفْعَالِ الرَّبِّ، وَنَفْيَ صِفَاتِهِ مِنْ الْأُصُولِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ إثْبَاتُ النُّبُوَّةِ إلَّا بِهَا.

ثُمَّ هَؤُلَاءِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَىٰ نَقِيضِ قَوْلِهِمْ، لِظَنِّهِمْ أَنَّ الْعَقْلَ عَارِضُ السَّمْعِ - وَهُوَ أَصْلُهُ - فَيَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَيْهِ، وَالسَّمْعُ إمَّا أَنْ يُؤَوَّلَ، وَإِمَّا أَنْ يُفَوَّضَ.

وَهَمَ أَيْضًا عِنْدَ التَّحْقِيقِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَىٰ وَفْقِ قَوْلِهِم، لِمَا تَقَدَّمَ.

وَهَؤُلَاءِ يَضِلُّونَ مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا ظَنُّهُمْ أَنَّ السَّمْعَ بِطَرِيقِ الْخَبَرِ الْمُجَرَّدَ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ الْقُرْآنُ بَيَّنَ مِنْ



الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تُعْلَمُ بِهَا الْمَطَالِبُ الدِّينِيَّةُ مَا لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي كَلَامِ أَئِمَّةِ النَّظَرِ، فتكُونُ هَذِهِ الْمَطَالِبُ شَرْعِيَّةً وعَقْلِيَّةً.

ومِنْهَا ظَنُّهُمْ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إِلَّا بِالطَّرِيقِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي سَلَكُوهَا، وَهُمْ مُخْطِئُونَ قَطْعًا فِي انْحِصَارِ طَرِيقِ تَصْدِيقِهِ فِيمَا ذَكَرُوهُ، فَإِنَّ طُرُقَ الْعِلْمِ بِصِدْقِ الرَّسُولِ كَثِيرَةٌ، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَمِنْهَا ظَنُّهُمْ أَنَّ تِلْكَ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكُوهَا صَحِيحَةٌ، وَقَدْ تَكُونُ بَاطِلَةً.

وَمِنْهَا ظَنُّهُمْ أَنَّ مَا عَارَضُوا بِهِ السَّمْعَ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ، وَيَكُونُونَ غَالِطِينَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِذَا وُزِنَ بِالْمِيزَانِ الصَّحِيحِ وُجِدَ مَا يُعَارِضُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مِنَ الْمَجْهُولَاتِ لَا مِنَ الْمَعْقُولَاتِ، وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَىٰ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنْ «**صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ**» مَا قَدْ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، كَمَا يُعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ، وَأَنَّهُ حَيٌّ، كَمَا أَرْشَدَ إِلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [المُلك:١٤].

وَقَدْ اتَّفَقَ النُّظَّارُ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ: عَلَىٰ أَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ -عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ- أَنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ مُرِيدٌ، وَكَذَلِكَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ يَثْبُتُ بِالْعَقْلِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ منهم.

بَلْ وَكَذَلِكَ الْحُبُّ وَالرِّضَا وَالْغَضَبُ يُمْكِنُ إِثْبَاتُهُ بِالْعَقْلِ.

وَكَذَلِكَ عُلُوُّهُ عَلَىٰ الْمَخْلُوقَاتِ وَمُبَايَنَتُهُ لَهَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، كَمَا أَثْبَتَتْهُ بِذَلِكَ الْأَئِمَّةُ مِثْلُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ. وَمِثْلُ: عَبْدِ الْعَالِي الْمَكِّيِّ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كِلَابٍ.

بَلْ وَكَذَلِكَ إِمْكَانُ الرُّؤْيَةِ يَثْبُتُ بِالْعَقْلِ، لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ تَصِحُّ رُؤْيَتُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ، وَهَذِهِ الطَّرِيقُ أَصَحُّ مِنْ تِلْكَ.

وَقَدْ يُمْكِنُ إِثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ بِغَيْرِ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ، بِتَقْسِيمٍ دَائِرٍ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، كَمَا يُقَالُ: إِنَّ الرُّؤْيَةَ لَا تَتَوَقَّفُ إِلَّا عَلَىٰ أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ، فَإِنَّ مَا لَا يَتَوَقَّفُ إِلَّا عَلَىٰ أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ يَكُونُ الْمَوْجُودُ الْوَاجِبُ الْقَدِيمُ أَحَقَّ بِهِ مِنْ الْمُمْكِنِ الْمُحْدَثِ. وَالْكَلَامُ عَلَىٰ هَذِهِ الْأُمُورِ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنْ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْأَئِمَّةُ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ نُظَّارِ السُّنَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ_ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَوْصُوفًا بِإِحْدَىٰ الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ لَلَزِمَ اتِّصَافُهُ بِالْأُخْرَىٰ، فَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْحَيَاةِ، لَوُصِفَ بِالْمَوْتِ، وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْقُدْرَةِ لَوُصِفَ بِالْعَجْزِ، وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ



بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ لَوُصِفَ بِالصَّمَمِ وَالْخَرَسِ وَالْبُكْمِ.

وَطَرْدُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُوصَفْ بِأَنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ لَكَانَ دَاخِلًا فِيهِ، فَسَلْبُ إِحْدَىٰ الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ عَنْهُ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الْأُخْرَىٰ، وَتِلْكَ صِفَةُ نَقْصٍ يُنَزَّهُ عَنْهَا الْكَامِلُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فَتَنْزِيهُ الْخَالِقِ عَنْهَا أَوْلَىٰ.

وَهَذِهِ الطَّرِيقُ غَيْرُ قَوْلِنَا: إِنَّ هَذِهِ صِفَاتُ كَمَالٍ يَتَّصِفُ بِهَا الْمَخْلُوقُ فَالْخَالِقُ أَوْلَىٰ، فَإِنَّ طَرِيقَ إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِأَنْفُسِهَا مُغَايِرٌ لِطَرِيقِ إِثْبَاتِهَا بِنَفْيِ مَا يُنَاقِضُهَا.

وَقَدْ اعْتَرَضَ طَائِفَةٌ مِنَ النُّفَاةُ عَلَىٰ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ بِاعْتِرَاضٍ مَشْهُورٍ لَبَّسُوا بِهِ عَلَىٰ النَّاسِ، حَتَّىٰ صَارَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ يَظُنُّ صِحَّتَهُ وَيُضَعِّفُ الْإِثْبَاتَ بِهِ، مِثْلَ مَا فَعَلَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ النُّظَّارِ حَتَّىٰ الْآمَادِي وأَمْثَالُهُ، أَمْسَىٰ مَعَ أَنَّهُ أَصْلُ قَوْلِ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ.

فَقَالُوا: «الْقَوْلُ بِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ، مَعَ كَوْنِهِ حَيًّا: لَكَانَ مُتَّصِفًا بِمَا يُقَابِلُهَا _فَالتَّحْقِيقُ فِيهِ مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ بَيَانِ حَقِيقَةِ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَبَيَانُ أَقْسَامِهِمَا.

فَنَقُولُ: وأَمَّا الْمُتَقَابِلَانِ فَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ إِمَّا أَلَّا يَصِحَّ اجْتِمَاعُهُمَا فِي الصِّدْقِ وَلَا فِي الْكَذِبِ، أَوْ يَصِحَّ ذَلِكَ فِي أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ.

وَلِأَنَّهُمَا مُتَقَابِلَانِ بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَهُوَ تَقَابُلُ التَّنَاقُضِ، وَالتَّنَاقُضُ هُوَ اخْتِلَافُ الْقَضِيَّتَيْنِ بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ وَالْإِيجَابِ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الصِّدْقِ وَلَا فِي الْكَذِبِ لِذَاتَيْهِمَا كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ حَيَوَانٌ، زَيْدٌ لَيْسَ بِحَيَوَانٍ، وَمِنْ خَاصَّةِ اسْتِحَالَةِ اجْتِمَاعِ طَرَفَيْهِ فِي الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، أَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَلَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ».

مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَا يَصِحُّ اجْتِمَاعُهُمَا فِي الصِّدْقِ وَلَا فِي الْكَذِبِ، إِذْ كَوْنُ الْمَوْجُودِ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ وَمُمْكِنًا بِنَفْسِهِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ.

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذَا التَّقْسِيمَ غَيْرَ حَاصِلٍ، فَإِنَّهُ يُقَالُ بِالْمَوْجُودِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا بِنَفْسِهِ وَهَذَانِ الْوُجُودُ وَالْإِمْكَانُ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا يَصِحُّ اجْتِمَاعُهُمَا فِي الصِّدْقِ وَلَا فِي الْكَذِبِ؛ إِذْ كَوْنُ الْمَوْجُودِ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ وَمُمْكِنًا بِنَفْسِهِ. لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ.



فَإِذَا جَعَلْتُمْ هَذَا التَّقْسِيمَ: وَهُمَا «**النَّقِيضَانِ مَا لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ**»، فَهَذَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ، وَلَيْسَ هُمَا السَّلْبُ وَالْإِيجَابُ، فَلَا يَصِحُّ حَصْرُ النَّقِيضَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ فِي السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ.

وَحِينَئِذٍ، فَقَدَ ثَبَتَ وَصْفَانِ: شَيْئَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ، وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ.

وَعَلَىٰ هَذَا فَمَنْ جَعَلَ الْمَوْتَ مَعْنًى وُجُودِيًّا فَقَدْ يَقُولُ: إِنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ لَا يَخْلُو مِنْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ.

وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ وَالْجَهْلُ، وَالصَّمَمُ، وَالْبُكْمُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: هَذَا الْتَقْسِيمُ يَتَدَاخَلُ، فَإِنَّ الْعَدَمَ وَالْمَلَكَةَ يَدْخُلُ فِي السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَغَايَتُهُ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْهُ، وَالْمُتَضَايِفَانِ يَدْخُلَانِ فِي الْمُتَضَادَّيْنِ، إِنَّمَا هُمَا نَوْعٌ مِنْهُ.

فَإِنْ قَالَ: أَعْنِي بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ: فَلَا يَدْخُلُ فِي الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ، وَهُوَ أَنْ يُسْلَبَ عَنْ الشَّيْءِ مَا لَيْسَ بِقَابِلٍ لَهُ، وَلِهَذَا جُعِلَ مِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّهُ لَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ طَرَفَيْهِ إِلَىٰ الآخر.

قِيلَ لَهُ: عَنْ هَذَا جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ غَايَةَ هَذَا أَنَّ السَّلْبَ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ نَوْعَيْنِ، **أَحَدُهُمَا**: سَلْبُ مَا يُمْكِنُ اتِّصَافُ الشَّيْءِ بِهِ، **وَالثَّانِي**: سَلْبُ مَا لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِهِ.

فَيُقَالُ الْأَوَّلُ إِثْبَاتُ مَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ وَلَا يَجِبُ، وَالثَّانِي: إِثْبَاتُ مَا يَجِبُ اتِّصَافُهُ بِهِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ سَلْبٌ الْمُمْتَنِعِ وَإِثْبَاتُ الْوَاجِبِ، كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ حَيَوَانٌ، فَإِنَّ هَذَا إِثْبَاتٌ وَاجِبٌ، وَزَيْدٌ لَيْسَ بِحَجَرٍ، فَإِنَّ هَذَا سَلْبٌ مُمْتَنِعٌ.

وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ، فَالْمُمْكِنَاتُ الَّتِي تَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ، كَقَوْلِنَا: الْمُثَلَّثُ إِمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ، يَكُونُ مِنْ قِسْمِ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْقِسْمَ يَخْلُو فِيهِ الْمَوْصُوفُ الْوَاحِدُ عَلَىٰ الْمُتَقَابِلَيْنِ جَمِيعًا، وَلَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنْ الْمُمْكِنَاتِ عَنْ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ عَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ، فَصِفَاتُ الرَّبِّ كُلُّهَا وَاجِبَةٌ لَهُ، فَإِذَا قِيلَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَيًّا أَوْ عَلِيمًا أَوْ سَمِيعًا أَوْ بَصِيرًا أَوْ مُتَكَلِّمًا، أَوْ لَا يَكُونُ - كَانَ مِثْلُ قَوْلِنَا: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ، وَهَذَا مُتَقَابِلٌ تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، فَيَكُونُ الْآخَرُ مِثْلُهُ، وَبِهَذَا يَحْصُلُ



الْمَقْصُودُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا لَا يَصِحُّ حَتَّىٰ يُعْلَمَ إِمْكَانُ قَبُولِهِ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

قِيلَ لَهُ: هَذَا إِنَّمَا اشْتَرَكَا فِيمَا أَمْكَنَ أَنْ يَثْبُتَ لَهُ وَيَزُولَ كَالْحَيَوَانِ، فَأَمَّا الرَّبُّ تَعَالَىٰ: فَإِنَّهُ بِتَقْدِيرِ ثُبُوتِهَا لَهُ فَهِيَ وَاجِبَةٌ ضَرُورَةً؛ فإنه لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِهَا وَبِعَدَمِهَا بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ تَارَةً حَيًّا وَتَارَةً مَيِّتًا، وَتَارَةً أَصَمَّ وَتَارَةً سَمِيعًا، وَهَذَا يُوجِبُ اتِّصَافُهُ بِالنَّقَائِصِ، وَذَلِكَ مُنْتَفٍ قَطْعًا.

بِخِلَافِ مَنْ نَفَاهَا، وَقَالَ: إِنَّ نَفْيَهَا لَيْسَ بِنَقْصٍ، لِظَنِّهِ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَا، فَإِنَّ مَنْ قَالَ هَذَا لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ مَعَ إِمْكَانِ الِاتِّصَافِ بِهَا لَا يَكُونُ نَفْيُهَا نَقْصًا. فَإِنَّ فَسَادَ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ.

وَقِيلَ لَهُ أَيْضًا: أَنْتَ فِي تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، إِنْ اشْتَرَطْت الْعِلْمَ بِإِمْكَانِ الطَّرَفَيْنِ لَمْ يَصِحَّ أَنْ تَقُولَ: وَاجِبُ الْوُجُودِ إِمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ، وَالْمُمْتَنِعُ الْوُجُودِ إِمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ، لِأَنَّ أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ هُنَا مَعْلُومُ الْوُجُوبِ، وَالْآخَرَ مَعْلُومُ الِامْتِنَاعِ.

وَإِنْ اشْتَرَطْت الْعِلْمَ بِإِمْكَانِ أَحَدِهِمَا صَحَّ أَنْ تَقُولَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَيًّا وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ، لِأَنَّ النَّفْيَ إِنْ كَانَ مُمْكِنًا صَحَّ التَّقْسِيمُ، وَإِنْ كَانَ مُمْتَنِعًا كَانَ الْإِثْبَاتُ وَاجِبًا، وَحَصَلَ الْمَقْصُودُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا يُفِيدُ أَنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ يُقَابِلُ السَّلْبَ وَالْإِيجَابَ وَنَحْنُ نُسَلِّمُ ذَلِكَ، كَمَا ذُكِرَ فِي الِاعْتِرَاضِ، لَكِنَّ غَايَتَهُ: أَنَّهُ إِمَّا سَمِيعٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِسَمِيعٍ، وَإِمَّا بَصِيرٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِبَصِيرٍ، وَالْمُنَازِعُ يَخْتَارُ النَّفْيَ.

فَيُقَالُ لَهُ: عَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ فَالْمُثْبَتُ وَاجِبٌ، وَالْمَسْلُوبُ مُمْتَنِعٌ، فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَاتُ وَاجِبَةً لَهُ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مُمْتَنِعَةً عَلَيْهِ، وَالْقَوْلُ بِالِامْتِنَاعِ لَا وَجْهَ لَهُ إِذْ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بِوَجْهٍ.

بَلْ قَدْ يُقَالُ: نَحْنُ نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ بُطْلَانَ الِامْتِنَاعِ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَىٰ امْتِنَاعِ ذَلِكَ إِلَّا بِمَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَىٰ إِبْطَالِ أَصْلِ الصِّفَاتِ، وَقَدْ عُلِمَ فَسَادُ ذَلِكَ، وَحِينَئِذٍ فَيَجِبُ الْقَوْلُ بِوُجُوبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَهُ.



وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يُجْعَلَ طَرِيقَةً مُسْتَقِلَّةً فِي إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ، فَإِنَّهَا إِمَّا وَاجِبَةٌ لَهُ، وَإِمَّا مُمْتَنِعَةٌ عَلَيْهِ، وَالثَّانِي بَاطِلٌ فَتَعَيَّنَ الْأَوَّلُ، لِأَنَّ كَوْنَهُ قَابِلًا لَهَا خَالِيًا عَنْهَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا، وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ، وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ مَعْرُوفَةٌ لِمَنْ سَلَكَهَا مِنَ النُّظَّارِ.

الْجَوَابُ الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ فَعَلَىٰ هَذَا إِذَا قُلْنَا: زَيْدٌ إِمَّا عَاقِلٌ، وَإِمَّا غَيْرُ عَاقِلٍ، وَإِمَّا عَالِمٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِعَالِمٍ، وَإِمَّا حَيٌّ وَإِمَّا غَيْرُ حَيٍّ، وَإِمَّا نَاطِقٌ وَإِمَّا غَيْرُ نَاطِقٍ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ سَلْبُ الصِّفَةِ عَنْ مَحَلٍّ قَابِلٍ لَهَا، لَمْ يَكُنْ هَذَا دَاخِلًا فِي قِسْمِ تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ، وَخِلَافُ اتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ، وَخِلَافُ مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَنْطِقِ وَغَيْرِهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْقَضَايَا تَتَنَاقَضُ بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ عَلَىٰ وَجْهٍ يَلْزَمُ مِنْهُ صِدْقُ إِحْدَاهُمَا كَذِبُ الْأُخْرَىٰ، فَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، فَهَذِهِ شُرُوطُ التَّنَاقُضِ مَوْجُودٌ فِيهَا.

وَغَايَةُ فَرْقِهِمْ أَنْ يَقُولُوا: إِذَا قُلْنَا: هُوَ إِمَّا بَصِيرٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِبَصِيرٍ، كَانَ إِيجَابًا وَسَلْبًا، وَإِذَا قُلْنَا: إِمَّا بَصِيرٌ وَإِمَّا أَعْمَىٰ، كَانَ مَلَكَةً وَعَدَمًا.

وَهَذِهِ مُنَازَعَةٌ لَفْظِيَّةٌ، وَإِلَّا فَالْمَعْنَىٰ فِي الْمَوْضِعَيْنِ سَوَاءٌ، فَعُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ نَوْعٌ مِنْ تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَهُمْ فِي حَدِّ ذَلِكَ التَّقَابُلِ: أَنَّهُ لَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ إِلَىٰ الْآخَرِ، فَإِنَّ الِاسْتِحَالَةَ هُنَا مُمْكِنَةٌ كَإِمْكَانِهَا إِذَا عُبِّرَ بِلَفْظِ «**الْعَمَىٰ**».

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ يُقَالَ: التَّقْسِيمُ الْحَاصِرُ أَنْ يُقَالَ: الْمُتَقَابِلَانِ إِمَّا أَنْ يَخْتَلِفَا بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، وَإِمَّا أَلَّا يَخْتَلِفَا بِذَلِكَ، بَلْ يَكُونَانِ إِيجَابِيَّيْنِ أَوْ سَلْبِيَّيْنِ، فَالْأَوَّلُ هُوَ النَّقِيضَانِ، وَالثَّانِي: إِمَّا أَنْ يُمْكِنَ خُلُوُّ الْمَحَلِّ عَنْهُمَا، وَإِمَّا أَلَّا يُمْكِنَ، وَالْأَوَّلُ هُمَا الضِّدَّانِ كَالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ، وَالثَّانِي هُمَا فِي مَعْنَىٰ النَّقِيضَيْنِ وَإِنْ كَانَا ثُبُوتِيَّيْنِ كَالْوُجُوبِ وَالْإِمْكَانِ، وَالْحُدُوثِ وَالْقِدَمِ، وَالْقِيَامِ بِالنَّفْسِ، وَالْقِيَامِ بِالْغَيْرِ، وَالْمُبَايَنَةِ وَالْمُجَانَبَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ، وَالصَّمَمَ وَالْبُكْمَ وَالسَّمْعَ، لَيْسَ مِمَّا إِذَا خَلَا الْمَوْصُوفُ عَنْهُمَا وُصِفَ بِوَصْفٍ ثَالِثٍ بَيْنَهُمَا كَالْحُمْرَةِ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ، فَعُلِمَ أَنَّ الْمَوْصُوفَ لَا يَخْلُو عَنْ أَحَدِهِمَا فَإِذَا انْتَفَىٰ تَعَيَّنَ الْآخَرُ.

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: الْمَحَلُّ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَنَحْوِهَا،



أَنْقَصُ مِنْ الْمَحَلِّ الَّذِي يَقْبَلُ ذَلِكَ وَيَخْلُو عَنْهَا، وَلِهَذَا كَانَ الْحَجَرُ وَنَحْوُهُ أَنْقَصَ مِنْ الْحَيِّ الْأَعْمَىٰ.

وَحِينَئِذٍ، فَإِذَا كَانَ الْبَارِئُ مُنَزَّهًا عَنْ نَفْيِ هَذِهِ الصِّفَاتِ- مَعَ قَبُولِهِ لَهَا- فَتَنْزِيهُهُ عَنْ امْتِنَاعِ قَبُولِهِ لَهَا أَوْلَىٰ وَأَحْرَىٰ، إذْ بِتَقْدِيرِ قَبُولِهِ لَهَا يَمْتَنِعُ مَنْعُ الْمُتَقَابِلَيْنِ، وَاتِّصَافُهُ بِالنَّقَائِصِ مُمْتَنِعٌ، فَيَجِبُ اتِّصَافُهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَبِتَقْدِيرِ عَدَمِ قَبُولِهِ لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ لَا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَلَا بِصِفَاتِ النَّقْصِ، وَهَذَا أَشَدُّ امْتِنَاعًا، فَثَبَتَ أَنَّ اتِّصَافَهُ بِذَلِكَ مُمْكِنٌ، وَأَنَّهُ وَاجِبٌ لَهُ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْحُسْنِ.

الْوَجْهُ الْخَامِسُ: أَنْ يُقَالَ: أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ تَقَابُلَ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ فِيمَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِثُبُوتٍ، فَإِذَا عَنَيْتُمْ بِالْإِمْكَانِ الْإِمْكَانَ الْخَارِجِيَّ، وَهُوَ أَنْ يُعْلَمَ ثُبُوتُ ذَلِكَ فِي الْخَارِجِ، كَانَ هَذَا بَاطِلًا لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يُلْزِمُكُمْ أَنْ تَكُونَ الْجَامِدَاتُ لَا تُوصَفُ بِأَنَّهَا لَا حَيَّةٌ وَلَا مَيِّتَةٌ، وَلَا نَاطِقَةٌ وَلَا صَامِتَةٌ، وَهُوَ قَوْلُكُمْ، لَكِنَّ هَذَا اصْطِلَاحٌ مَحْضٌ، وَإِلَّا فَالْعَرَبُ يَصِفُونَ هَذِهِ الْجَمَادَاتِ بِالْمَوْتِ وَالصَّمْتِ.

وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِذَلِكَ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾، [النحل] فَهَذَا فِي «**الْأَصْنَامِ**» وَهِيَ مِنْ الْجَمَادَاتِ وَقَدْ وُصِفَتْ بِالْمَوْتِ.

وَالْعَرَبُ تُقَسِّمُ الْأَرْضَ إلَىٰ الْحَيَوَانِ وَالْمَوَتَانِ، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْمَوَتَانُ، بِالتَّحْرِيكِ: خِلَافُ الْحَيَوَانِ، يُقَالُ: اشْتَرِ الْمَوَتَانِ وَلَا تَشْتَرِ الْحَيَوَانَ، أَيْ اشْتَرِ الْأَرْضِينَ وَالدَّوْرَ، وَلَا تَشْتَرِ الرَّقِيقَ وَالدَّوَابَّ. وَقَالُوا أَيْضًا: الْمَوَاتُ: مَا لَا رُوحَ فِيهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَذَا إنَّمَا سُمِّيَ مَوَاتًا بِاعْتِبَارِ قَوْلِهِ: «**لِلْحَيَاةِ**»، الَّتِي هِيَ إحْيَاءُ الْأَرْضِ.

قِيلَ: وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْحَيَاةَ أَعَمُّ مِنْ حَيَاةِ الْحَيَوَانِ، وَأَنَّ الْجَمَادَ يُوصَفُ بِالْحَيَاةِ إذَا كَانَ قَابِلًا لِلزَّرْعِ وَالْعِمَارَةِ.

وَالْخَرَسُ ضِدُّ النُّطْقِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ «**لَبَنٌ أَخْرَسُ**»، أَيْ خَاثِرٌ لَا صَوْتَ لَهُ فِي الْإِنَاءِ، «**وَسَحَابَةٌ خَرْسَاءُ**»، لَيْسَ فِيهَا رَعْدٌ وَلَا بَرْقٌ، «**وَعَلَمٌ أَخْرَسُ**»، إذَا لَمْ يُسْمَعْ لَهُ فِي الْجَبَلِ صَوْتُ صَدًىٰ، وَيُقَالُ: «**كَتِيبَةٌ خَرْسَاءُ**»، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: هِيَ الَّتِي صَمَتَتْ مِنْ كَثْرَةِ الدُّرُوعِ



لَيْسَ لَهُ فَقَاقِعُ.

وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ الصَّمْتُ وَالسُّكُوتُ، فَإِنَّهُ يُوصَفُ بِهِ الْقَادِرُ عَلَىٰ النُّطْقِ إذَا تَرَكَهُ، بِخِلَافِ الْخَرَسِ فَإِنَّهُ عَجْزٌ عَنْ النُّطْقِ، وَمَعَ هَذَا فَالْعَرَبُ تَقُولُ: «**مَا لَهُ صَامِتٌ وَلَا نَاطِقٌ**»، فَالصَّامِتُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَالنَّاطِقُ الْإِبِلُ وَالْغَنَمُ، فَالصَّامِتُ مِنْ اللَّبَنِ: الْخَاثِرُ، وَالصَّمُوتُ: الدِّرْعُ الَّتِي صُبت إذَا لَمْ يُسْمَعْ لَهُ صَوْتٌ.

وَيَقُولُونَ: دَابَّةٌ عَجْمَاءُ، وَخَرْسَاءُ، لِمَا لَا تَنْطِقُ وَلَا يُمَكَّنُ مِنْهُ النُّطْقُ فِي الْعَادَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ**».

وَكَذَلِكَ فِي «**الْعَمْيَاءِ**»، تَقُولُ الْعَرَبُ: عَمَىٰ الْمَوْجُ يَعْمِي عَمْيًا إذَا رَمَىٰ بِالْقَذَىٰ وَالزَّبَدِ، و «**الأعميان**»: السَّيْلُ وَالْجَمَلُ الْهَائِجُ، وَعَمَىٰ عَلَيْهِ الْأَمْرُ إذَا الْتَبَسَ، وَمِنْهُ قَوْلـه تَعَالَىٰ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ [القصص:٦٦].

وَهَذِهِ الْأَمْثِلَةُ قَدْ يُقَالُ فِي بَعْضِهَا: إنَّهُ عَدَمٌ مَا يَقْبَلُ الْمَحَلَّ الِاتِّصَافَ بِهِ كَالصَّوْتِ، وَلَكِنْ فِيهَا مَا لَا يَقْبَلُ كَمَوْتِ الْأَصْنَامِ.

الثَّانِي: أَنَّ الْجَامِدَاتِ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ أَنْ يَخْلُقَ فِي الْجَمَادَاتِ حَيَاةً، كَمَا جَعَلَ عَصَىٰ مُوسَىٰ حَيَّةً تَبْتَلِعُ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ.

وَإِذَا كَانَ فِي إمْكَانِ الْعَادَاتِ: كَانَ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ عُلِمَ بِالتَّوَاتُرِ، وَأَنْتُمْ أَيْضًا قَائِلُونَ بِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ.

وَإِذَا كَانَ الْجَمَادَاتُ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِالْحَيَاةِ وَتَوَابِعِ الْحَيَاةِ ثَبَتَ أَنَّ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِذَلِكَ، فَيَكُونُ الْخَالِقُ أَوْلَىٰ بِهَذَا الْإِمْكَانِ.

وَإِنْ عَنَيْتُمْ الْإِمْكَانَ الذِّهْنِيَّ، وَهُوَ عَدَمُ الْعِلْمِ بِالِامْتِنَاعِ فَهَذَا حَاصِلٌ فِي حَقِّ اللهِ، فَإِنَّهُ لَا يُعْلَمُ امْتِنَاعُ اتِّصَافِهِ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ.

الْوَجْهُ السَّادِسُ: أَنْ يُقَالَ: هَبْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِالْإِمْكَانِ الْخَارِجِيِّ، فَإِمْكَانُ الْوَصْفِ لِلشَّيْءِ يُعْلَمُ تَارَةً بِوُجُودِهِ لَهُ، أَوْ بِوُجُودِهِ لِنَظِيرِهِ، أَوْ بِوُجُودِهِ لِمَا هُوَ الشَّيْءُ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ مِنْهُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ ثَابِتٌ لِلْمَوْجُودَاتِ الْمَخْلُوقَةِ، وَمُمْكِنَةٌ لَهَا، فَإِمْكَانُهَا لِلْخَالِقِ تَعَالَىٰ أَوْلَىٰ وَأَحْرَىٰ، فَإِنَّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ، وَهُوَ قَابِلٌ لِلِاتِّصَافِ بِالصِّفَاتِ، وَإِذَا كَانَتْ مُمْكِنَةً فِي حَقِّهِ فَلَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا لَاتَّصَفَ بِأَضْدَادِهَا.



الْوَجْهُ السَّابِعُ: أَنْ يُقَالَ: مُجَرَّدُ سَلْبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ نَقْصٌ لِذَاتِهِ، سَوَاءٌ سُمِّيَتْ عَمًى وَصَمَمًا وَبُكْمًا، أَوْ لَمْ تُسَمَّ، وَالْعِلْمُ بِذَلِكَ ضَرُورِيٌّ، فَأَمَّا إِذَا قَدَّرْنَا مَوْجُودَيْنِ، أَحَدُهُمَا يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَتَكَلَّمُ، وَالْآخَرُ لَيْسَ كَذَلِكَ- كَانَ الْأَوَّلُ أَكْمَلَ مِنَ الثَّانِي.

وَلِهَذَا عَابَ اللهُ سُبْحَانَهُ مَنْ عَبَدَ مَا تَنْتَفِي فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾[مريم]، وَقَالَ أَيْضًا فِي قِصَّتِهِ: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾[الأنبياء]، وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْهُ: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ [الشُّعراء].

وَكَذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ فِي الْعِجْلِ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ [الأعراف]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾[النَّحل]، فَقَابَلَ بَيْنَ الْأَبْكَمِ الْعَاجِزِ وَبَيْنَ الْآمِرِ بِالْعَدْلِ: الَّذِي هُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.



فصلٌ

وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي، وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْعِبَادَاتِ الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ جَمِيعًا- فَنَقُولُ: لَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِخَلْقِ اللهِ وَأَمْرِهِ، فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَقَدَّرَ الْمَقَادِيرَ وَكَتَبَهَا حَيْثُ شَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾[الحج]، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ**».

وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ، وَبِذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ.



وَعِبَادَتُهُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ وَالْحُبِّ لَهُ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ طَاعَتِهِ، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:٨٠]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:٦٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [آل عمران:٣١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزُّخرُف]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ [الشورىٰ:١٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ [المؤمنون]، فَأَمَرَ الرُّسُلَ بِإِقَامَةِ الدِّينِ وَأَلَّا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، وَإِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا؛ إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ**».

وَهَذَا الدِّينُ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ دِينًا غَيْرَهُ، لَا مِنْ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنْ الآخرين، فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ، قَالَ تَعَالَىٰ عَنْ نُوحٍ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾[يونس:٧١]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٧٢﴾[يونس]. وَقَالَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ؛ ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٣٢﴾[البقرة]، وَقَالَ عَنْ مُوسَىٰ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ۝٨٤﴾[يونس:٨٤]، وَقَالَ فِي خَبَرِ الْمَسِيحِ: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ۝١١١﴾[المائدة]، وَقَالَ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾[المائدة:٤٤]، وَقَالَ عَنْ بَلْقِيسَ أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٤﴾[النمل].



فَالْإِسْلَامُ يَتَضَمَّنُ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا، وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لَهُ كَانَ مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ، وَالْمُشْرِكُ بِهِ وَالْمُسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ كَافِرٌ، وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ وَحْدَهُ يَتَضَمَّنُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ وَطَاعَتَهُ وَحْدَهُ.

فَهَذَا دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ غَيْرَهُ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَإِذَا أَمَرَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ، ثُمَّ أَمَرَ ثَانِيًا بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ، كَانَ كُلٌّ مِنْ الْفِعْلَيْنِ حِينَ أَمَرَ بِهِ دَاخِلًا فِي الْإِسْلَامِ، فَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ لَهُ فِي الْفِعْلَيْنِ، وَإِنَّمَا تَنَوُّعُ بَعْضِ صُوَرِ الْفِعْلِ وَهُوَ وَجْهُ الْمُصَلِّي، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ دِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ الشِّرْعَةُ وَالْمِنْهَاجُ وَالْوَجْهُ وَالْمَنْسَكُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ وَاحِدًا، كَمَا لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْوَاحِدِ.

وَاللهُ تَعَالَىٰ جَعَلَ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ: أَنَّ أَوَّلَهُمْ يُبَشِّرُ بِآخِرِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ، وَآخِرَهُمْ يُصَدِّقُ بِأَوَّلِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَمْ يَبْعَثْ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَىٰ أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة:٤٨].

وَجَعَلَ الْإِيمَانَ مُتَلَازِمًا، وَكَفَّرَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ [النساء]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة]، وَقَدْ قَالَ لَنَا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ



إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة]، فَأَمَرَنَا أَنْ نَقُولَ آمَنَّا بِهَذَا كُلِّهِ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، فَمَنْ بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَمْ يُقِرَّ بِمَا جَاءَ بِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا مُؤْمِنًا، بَلْ يَكُونُ كَافِرًا، وَإِنْ زَعَم أَنَّهُ مُسْلِمٌ أَوْ مُؤْمِنٌ.

كَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[آل عمران]، قَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ: فَنَحْنُ مُسْلِمُونَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾ فَقَالُوا: لَا نَحُجُّ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[آل عمران]، فَإِنَّ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِمَا لَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنْ حِجِّ الْبَيْتِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ**»، وَلِهَذَا لَمَّا وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَفَةَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[المائدة:٣].

وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أُمَّةِ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ هَلْ هُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ لَا؟ «**وَهُوَ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ**»، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ الْخَاصَّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، الْمُتَضَمِّنُ لِشَرِيعَةِ الْقُرْآنِ- لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْإِسْلَامُ الْيَوْمَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَتَنَاوَلُ هَذَا، وَأَمَّا الْإِسْلَامُ الْعَامُّ، الْمُتَنَاوِلُ لِكُلِّ شَرِيعَةٍ بَعَثَ اللهُ بِهَا نَبِيًّا- فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ إِسْلَامَ كُلِّ أُمَّةٍ مُتَّبِعَةٍ لِنَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ.

وَرَأْسُ الْإِسْلَام مُطْلَقًا شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَبِهَا بُعِثَ جَمِيعُ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل:٣٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، وَقَالَ عَنْ الْخَلِيلِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزُّخرُف]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّخرُف] وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْهُ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ



مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، وَقَالَ ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾[الزُّخرُف]؟ وَذَكَرَ عَنْ رُسُلِهِ: كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، وَقَالَ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤﴾ [الكهف]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأعراف:٣٧]، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨]، ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ.

وَقَدْ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ الشِّرْكَ بِالْمَلَائِكَةِ، وَالشِّرْكَ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَالشِّرْكَ بِالْكَوَاكِبِ، وَالشِّرْكَ بِالْأَصْنَامِ - وَأَصْلُ الشِّرْكِ، الشِّرْكُ بِالشَّيْطَانِ - فَقَالَ عَنْ النَّصَارَىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ﴾ [المائدة]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٩]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝٨٠﴾ [آل عمران]؟ فَبَيَّنَ أَنَّ اتِّخَاذَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا كُفْرٌ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ لَمْ يَزْعُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ شَارَكُوا اللهَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، بَلْ وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ أَنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، بَلْ وَلَا أَثْبَتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَهًا مُسَاوِيًا لِلَّهِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ، بَلْ عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ بِاَللهِ مُقِرُّونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ شَرِيكُهُ مِثْلَهُ: بَلْ عَامَّتُهُمْ يُقِرُّونَ أَنَّ الشَّرِيكَ مَمْلُوكٌ لَهُ سَوَاءٌ كَانَ مَلَكًا أَوْ نَبِيًّا أَوْ كَوْكَبًا أَوْ صَنَمًا، كَمَا كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَقُولُونَ فِي



تَلْبِيَتِهِمْ: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك، إلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ» فَأَهَلَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالتَّوْحِيدِ وَقَالَ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك لَبَّيْكَ، إنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَك وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَك».

وَقَدْ ذَكَرَ أَرْبَابُ الْمَقَالَاتِ مَا جَمَعُوا مِنْ مَقَالَاتِ الْأَوَّلِينَ والآخرين فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْآرَاءِ وَالدِّيَانَاتِ، فَلَمْ يَنْقُلُوا عَنْ أَحَدٍ إثْبَاتَ شَرِيكٍ مُشَارِكٍ لَهُ فِي خَلْقِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا مُمَاثِلٍ لَهُ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ، بَلْ مِنْ أَعْظَمِ مَا نَقَلُوا فِي ذَلِكَ قَوْلَ الثنوية، الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْأَصْلَيْنِ: «النُّورِ» و«الظُّلْمَةِ» وَأَنَّ النُّورَ خَلَقَ الْخَيْرَ، وَالظُّلْمَةَ خَلَقَتْ الشَّرَّ، ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُمْ فِي الظُّلْمَةِ قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهَا مُحْدَثَةٌ فَتَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ، وَالثَّانِي أَنَّهَا قَدِيمَةٌ، لَكِنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ إلَّا الشَّرَّ، فَكَانَتْ نَاقِصَةً فِي ذَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَمَفْعُولَاتِهَا عَنْ النُّورِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ إقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ الْمَخْلُوقَاتِ مَا بَيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾[الزُّمَر:٣٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ إلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ إلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]، وَقَالَ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف:١٠٦].

وَبِهَذَا وَغَيْرِهِ يُعْرَفُ مَا وَقَعَ مِنْ الْغَلَطِ فِي مُسَمَّىٰ «التَّوْحِيدِ»، فَإِنَّ عَامَّةَ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ يُقَرِّرُونَ التَّوْحِيدَ فِي كُتُبِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ - غَايَتُهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا التَّوْحِيدَ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ، فَيَقُولُونَ: هُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا قَسِيمَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا شَبِيهَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَرُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ الثَّالِثُ: وَهُوَ «تَوْحِيدُ الْأَفْعَالِ» وَهُوَ أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ، وَهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَىٰ ذَلِكَ بِمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ دَلَالَةِ التَّمَانُعِ وَغَيْرِهَا، وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ



الْمَطْلُوبُ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حَتَّىٰ قَدْ يَجْعَلُوا مَعْنَىٰ الْإِلَهِيَّةِ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ الِاخْتِرَاعِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْعَرَبِ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ أَوَّلًا- لَمْ يَكُونُوا يُخَالِفُونَهُ فِي هَذَا، بَلْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِالْقَدَرِ أَيْضًا، وَهُمْ مَعَ هَذَا مُشْرِكُونَ.

وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مَنْ يُنَازِعُ فِي أَصْلِ هَذَا الشِّرْكِ، وَلَكِنْ غَايَةُ مَا يُقَالُ: إنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْمَوْجُودَاتِ خَلْقًا لِغَيْرِ اللهِ، كَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ الْعِبَادِ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ، وَإِنْ قَالُوا: إنَّهُمْ خَلَقُوا أَفْعَالَهُمْ.

وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْفَلْسَفَةِ وَالطَّبْعِ وَالنُّجُومِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَنَّ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ مُبْدِعَةٌ لِبَعْضِ الْأُمُورِ، هُمْ مَعَ الْإِقْرَارِ بِالصَّانِعِ يَجْعَلُونَ هَذِهِ الْفَاعِلَاتِ مَصْنُوعَةً مَخْلُوقَةً، لَا يَقُولُونَ إنَّهَا غَنِيَّةٌ عَنْ الْخَالِقِ، مُشَارِكَةٌ لَهُ فِي الْخَلْقِ.

فَأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ الصَّانِعَ فَذَاكَ جَاحِدٌ مُعَطِّلٌ لِلصَّانِعِ، كَالْقَوْلِ الَّذِي أَظْهَرَهُ فِرْعَوْنُ، وَالْكَلَامُ الْآنَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِاَللهِ الْمُقِرِّينَ بِوُجُودِهِ، وَالْكَلَامُ الْآنَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِاَللهِ الْمُقِرِّينَ بِوُجُودِهِ، فَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ الَّذِي قَرَّرُوهُ لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، بَلْ يُقِرُّونَ بِهِ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، كَمَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ، وَكَمَا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ.

وَكَذَلِكَ «**النَّوْعُ الثَّانِي**»، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: لَا شَبِيهَ لَهُ فِي صِفَاتِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأُمَمِ مَنْ أَثْبَتَ قَدِيمًا مُمَاثِلًا لَهُ فِي ذَاتِهِ سَوَاءٌ قَالَ إنَّهُ يُشَارِكُهُ، أَوْ قَالَ: إنَّهُ لَا فِعْلَ لَهُ، بَلْ مَنْ شَبَّهَ بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَإِنَّمَا يُشَبِّهُهُ بِهِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ.

وَقَدْ عُلِمَ بِالْعَقْلِ امْتِنَاعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، يُشَارِكُهُ فِيمَا يَجِبُ أَوْ يَجُوزُ أَوْ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْجَمْعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَعُلِمَ أَيْضًا بِالْعَقْلِ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودَيْنِ قَائِمَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا فَلَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مِنْ قَدْرٍ مُشْتَرَكٍ، كَاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّىٰ الْوُجُودِ وَالْقِيَامِ بِالنَّفْسِ وَالذَّاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِنَّ نَفْيَ ذَلِكَ يَقْتَضِي التَّعْطِيلَ الْمَحْضَ، وَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إثْبَاتِ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ ذَلِكَ.



ثُمَّ إنَّ الْجَهْمِيَّةَ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ أَدْرَجُوا نَفْيَ الصِّفَاتِ فِي مُسَمَّىٰ «التَّوْحِيدِ»، فَصَارَ مَنْ قَالَ: إنَّ لِلَّهِ عِلْمًا أَوْ قُدْرَةً، أَوْ إنَّهُ يُرَىٰ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ إنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ -يَقُولُونَ: إنَّهُ مُشَبِّهٌ لَيْسَ بِمُوَحِّدٍ.

وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الْفَلَاسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ فَنَفَوْا أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَىٰ، وَقَالُوا: مَنْ قَالَ: إنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، فَهُوَ مُشَبِّهٌ لَيْسَ بِمُوَحِّدٍ.

وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الْغُلَاةِ، وَقَالُوا: لَا يُوصَفُ بِالنَّفْيِ وَلَا الْإِثْبَاتِ، لِأَنَّ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا تَشْبِيهًا لَهُ.

وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ وَقَعُوا مِنْ جِنْسِ التَّشْبِيهِ فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ فِرَارًا مِنْ تَشْبِيهِهِمْ - بِزَعْمِهِمْ - لَهُ بِالْأَحْيَاءِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةَ لِلَّهِ لَا تَثْبُتُ لَهُ عَلَىٰ حَدٍّ مَا يَثْبُتُ لِمَخْلُوقٍ أَصْلًا، وَهُوَ ﷻ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ إثْبَاتِ الذَّاتِ وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي إثْبَاتِ الذَّاتِ إثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لِلذَّوَاتِ: لَمْ يَكُنْ فِي إثْبَاتِ الصِّفَاتِ إثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لَهُ فِي ذَلِكَ. فَصَارَ هَؤُلَاءِ الْجَهْمِيَّةُ الْمُعَطِّلَةُ يَجْعَلُونَ هَذَا تَوْحِيدًا، وَيَجْعَلُونَ مُقَابِلَ ذَلِكَ التَّشْبِيهَ، وَيُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ «الْمُوَحِّدِينَ».

وَكَذَلِكَ «**النَّوْعُ الثَّالِثُ**»، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: هُوَ وَاحِدٌ لَا قَسِيمَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، أَوْ لَا جُزْءَ لَهُ، أَوْ لَا بَعْضَ لَهُ- لَفْظٌ مُجْمَلٌ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَفَرَّقَ، أَوْ يَتَجَزَّأَ، أَوْ يَكُونَ قَدْ رُكِّبَ مِنْ أَجْزَاءٍ، لَكِنَّهُمْ يُدْرِجُونَ فِي هَذَا اللَّفْظِ نَفْيَ عُلُوِّهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ، وَمُبَايَنَتَهُ لِخَلْقِهِ وَامْتِيَازَهُ عَنْهُمْ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي الْمُسْتَلْزِمَةِ لِنَفْيِهِ وَتَعْطِيلِهِ، وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْ التَّوْحِيدِ.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَا يُسَمُّونَهُ «**تَوْحِيدًا**» فِيهِ مَا هُوَ حَقٌّ وَفِيهِ مَا هُوَ بَاطِلٌ، وَلَوْ كَانَ جَمِيعُهُ حَقًّا، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ إذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي وَصَفَهُمْ بِهِ الْقُرْآنِ، وَقَاتَلَهُمْ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفُوا بِأَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِـ«**الْإِلَهِ**» هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ الِاخْتِرَاعِ، كَمَا ظَنَّهُ مَنْ ظَنَّهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ، حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَىٰ الِاخْتِرَاعِ، وَأَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ الِاخْتِرَاعِ



دُونَ غَيْرِهِ فَقَدْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِهَذَا وَهُمْ مُشْرِكُونَ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ. بَلْ الْإِلَهُ الْحَقُّ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِأَنْ يُعْبَدَ فَهُوَ إِلَهٌ بِمَعْنَىٰ مَأْلُوهٍ، لَا إِلَهَ بِمَعْنَىٰ آلِهٍ.

وَالتَّوْحِيدُ أَنْ يَعْبُدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْإِشْرَاكُ أَنْ يَجْعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ.

وَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ غَايَةَ مَا يُقَرِّرُهُ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ، أَهْلُ الْإِثْبَاتِ لِلْقَدَرِ، الْمُنْتَسِبُونَ إِلَىٰ السُّنَّةِ، إِنَّمَا هُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ هَذَا فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِذَلِكَ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ -فَكَذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ، غَايَةُ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ التَّوْحِيدِ هُوَ شُهُودُ هَذَا التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَشْهَدَ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ، لَا سِيَّمَا إِذَا غَابَ الْعَارِفُ بِمَوْجُودِهِ عَنْ وُجُودِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَدَخَلَ فِي فَنَاءِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، بِحَيْثُ يَفْنَىٰ مَنْ لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَىٰ مَنْ لَمْ يَزَلْ.

فَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا هُوَ تَحْقِيقُ مَا أَقَرَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ التَّوْحِيدِ، وَلَا يَصِيرُ الرَّجُلُ بِمُجَرَّدِ هَذَا التَّوْحِيدِ مُسْلِمًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا لِلَّهِ أَوْ مِنْ سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ.

وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمَعْرِفَةِ يُقَرِّرُونَ هَذَا التَّوْحِيدَ مَعَ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، فَيَفْنَوْنَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ إِثْبَاتِ الْخَالِقِ لِلْعَالَمِ الْمُبَايِنِ لِمَخْلُوقَاتِهِ.

وَآخَرُونَ يَضُمُّونَ هَذَا إِلَىٰ نَفْيِ الصِّفَاتِ فَيَدْخُلُونَ فِي التَّعْطِيلِ مَعَ هَذَا. وَهَذَا شَرٌّ مِنْ حَالِ كَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ.

وَكَانَ **جَهْمٌ** يَنْفِي الصِّفَاتِ، وَيَقُولُ بِالْجَبْرِ، فَهَذَا تَحْقِيقُ قَوْلِ جَهْمٍ، لَكِنَّهُ إِذَا أَثْبَتَ الأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالثَّوَابَ، وَالْعِقَابَ، فَارَقَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، لَكِنْ جَهْمًا وَمَنْ اتَّبَعَهُ يَقُولُ بِالْإِرْجَاءِ، فَيَضْعُفُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عِنْدَه.

وَالنَّجَارِيَّةُ وَالضِّرَارِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ: يَقْرَبُونَ مِنْ جَهْمٍ فِي مَسَائِلِ الْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ، مَعَ مُقَارَبَتِهِمْ لَهُ أَيْضًا فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ.

وَالْكُلَّابِيَّةُ وَالْأَشْعَرِيَّةُ: خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ لِلَّهِ الصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةَ، وَأَئِمَّتُهُمْ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةَ فِي الْجُمْلَةِ، كَمَا فُصِّلَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَأَمَّا فِي بَابِ الْقَدَرِ، وَمَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ فَأَقْوَالُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ.



وَالْكُلَّابِيَّةَ: هُمْ أَتْبَاعُ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كِلَابٍ، الَّذِي سَلَكَ الْأَشْعَرِيُّ خَلفَهُ، وَأَصْحَابُ ابْنُ كِلَابٍ، كَالْحَارِثِ الْمُحَاسَبِيِّ، وَأَبِي الْعَبَّاسِ القلانسي وَنَحْوِهِمَا- خَيْرٌ مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي هَذَا وَهَذَا، فَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ إِلَىٰ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَقْرَبَ كَانَ قَوْلُهُ أَعْلَىٰ وَأَفْضَلَ.

وَالْكَرَامِيَّةُ قَوْلُهُمْ فِي الْإِيمَانِ قَوْلٌ مُنْكَرٌ لَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ، حَيْثُ جَعَلُوا الْإِيمَانَ قَوْلَ اللِّسَانِ، وَإِنْ كَانَ مَعَ عَدَمِ تَصْدِيقِ الْقَلْبِ فَيَجْعَلُونَ الْمُنَافِقَ مُؤْمِنًا، لَكِنَّهُ يَخْلُدُ فِي النَّارِ، فَخَالَفُوا الْجَمَاعَةَ فِي الِاسْمِ دُونَ الْحُكْمِ. وَأَمَّا فِي الصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ، وَالْوَعِيدِ، فَهُمْ أَشْبَهُ مِنْ أَكْثَرِ طَوَائِفِ الْكَلَامِ الَّتِي فِي أَقْوَالِهَا مُخَالَفَةٌ لِلسُّنَّةِ.

وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَهُمْ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ، وَيُقَارِبُونَ قَوْلَ جَهْمٍ، لَكِنَّهُمْ يَنْفُونَ الْقَدَرَ، فَهُمْ وَإِنْ عَظَّمُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ، وَغَلَوْا فِيهِ، فَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ، فَفِيهِمْ نَوْعٌ مِنْ الشِّرْكِ مِنْ هَذَا الْبَابِ.

وَالْإِقْرَارُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، مَعَ إِنْكَارِ الْقَدَرِ، خَيْرٌ مِنْ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ مَعَ إِنْكَارِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَنْ يَنْفِي الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ، وَكَانَ قَدْ نَبَغَ فِيهِمْ الْقَدَرِيَّةُ، كَمَا نَبَغَ فِيهِمْ الْخَوَارِجُ الْحَرُورِيَّةُ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْ الْبِدَعِ أَوَّلًا مَا كَانَ أَخْفَىٰ، وَكُلَّمَا ضَعُفَ مَنْ يَقُومُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ قَوِيَتْ الْبِدْعَةُ.

فَهَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفُونَ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ، مَعَ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ شَرٌّ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ، أُولَئِكَ يُشْبِهُونَ الْمَجُوسَ، وَهَؤُلَاءِ يُشْبِهُونَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨] وَالْمُشْرِكُونَ شَرٌّ مِنْ الْمَجُوسِ.

فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ، عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَهُ، فَإِنَّهُ أَصْلُ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ أَصْلُ الْإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بالوحدانية وَالرِّسَالَةِ شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

وَقَدْ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فِي الْإِخْلَالِ بِحَقِيقَةِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ، أَوْ أَحَدِهِمَا، مَعَ ظَنِّهِ أَنَّهُ فِي غَايَةِ التَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَإِقْرَارُ الْمُشْرِكِ بِأَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ



وَخَالِقُهُ: لَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ إِقْرَارُهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَيَجِبُ تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، فَلَا بُدَّ مِنْ الْكَلَامِ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ.

الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: «**تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ**»، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ كَمَا تَقَدَّمَ بِأَنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ يَدْعُونَهُمْ وَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ بِدُونِ إِذْنِ اللهِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨﴾ [يونس]، فَأَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ شُفَعَاءَ مُشْرِكُونَ وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ مُؤْمِنِ يس: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ٢٥﴾ [يس].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ٩٤﴾[الأنعام]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ شُفَعَائِهِمْ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ فِيهِمْ شُرَكَاءُ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٤٤﴾ [الزُّمر]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ [السجدة:٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٥١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ



ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء].

قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ: كَانَ قَوْمٌ يَدْعُونَ الْعُزَيْرَ وَالْمَسِيحَ وَالْمَلَائِكَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ يُبَيِّنُ فِيهَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَىٰ اللهِ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ.

وَمِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَثْبَتَ لَهُ حَقًّا لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ، كَالْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَىٰ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ۝٢٢﴾ [الإسراء]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزُّمَر]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزُّمَر] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزُّمَر]، وَكُلٌّ مِنْ الرُّسُلِ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ فِي التَّوَكُّلِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة]، وَقَالَ: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ [الزُّمَر]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾. فَقَالَ فِي الْإِتْيَانِ: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وَقَالَ فِي التَّوَكُّلِ: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ [التوبة]، وَلَمْ يَقُلْ: وَرَسُولُهُ، لِأَنَّ الْإِتْيَانَ هُوَ الْإِعْطَاءُ الشَّرْعِيُّ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الْإِبَاحَةَ وَالْإِحْلَالَ الَّذِي بَلَغَهُ الرَّسُولُ، فَإِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ، وَالدِّينَ مَا شَرَعَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[الحشر:٧]، وَأَمَّا الحسب فَهُوَ الْكَافِي، وَاللهُ وَحْدَهُ كَافٍ عَبْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران]، فَهُوَ وَحْدَهُ حَسْبُهُمْ كُلُّهُمْ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفال]، أَيْ حَسْبُكَ وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَك مِنْ



الْمُؤْمِنِينَ هُوَ اللهُ، فَهُوَ كَافِيكُمْ كُلُّكُمْ. وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ اللهَ وَالْمُؤْمِنِينَ حَسْبُكَ، كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الْغَالِطِينَ، إِذْ هُوَ وَحْدَهُ كَافٍ نَبِيَّهُ وَهُوَ حَسْبُهُ، لَيْسَ مَعَهُ مَنْ يَكُونُ هُوَ وَإِيَّاهُ حسبا لِلرَّسُولِ. وَهَذَا فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدُ

وَتَقُولُ الْعَرَبُ: حَسْبُكَ وَزَيْدًا دِرْهَمٌ، أَيْ يَكْفِيك وَزَيْدًا جَمِيعًا دِرْهَمٌ.

وَقَالَ فِي الْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور]، فَأَثْبَتَ الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَثْبَتَ الْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَىٰ لِلَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح]، فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَىٰ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة:٤٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران]، وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨١﴾ [الأنعام]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَىٰ قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١﴾ [النَّحل]، وَقَالَ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ [البقرة].

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «**مَنْ يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ وَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا**» وَقَالَ: «**وَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»، فَفِي الطَّاعَةِ: قَرَنَ اسْمَ الرَّسُولِ بِاسْمِهِ بِحَرْفِ «**الْوَاوِ**»، وَفِي الْمَشِيئَةِ: أَمَرَ أَنْ يُجْعَلَ ذَلِكَ بِحَرْفِ «**ثُمَّ**»، وَذَلِكَ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةٌ لِلَّهِ، فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ. بِخِلَافِ الْمَشِيئَةِ، فَلَيْسَتْ مَشِيئَةُ أَحَدٍ مِنْ الْعِبَادِ



مَشِيئَةً لِلَّهِ، وَلَا مَشِيئَةُ اللهِ مُسْتَلْزِمَةً لِمَشِيئَةِ الْعِبَادِ؛ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَأْ النَّاسُ، وَمَا شَاءَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ إِنْ لَمْ يَشَأْ اللهُ.

الْأَصْلُ الثَّانِي: حَقُّ الرَّسُولِ ﷺ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ، وَنُطِيعَهُ، وَنَتَّبِعَهُ، وَنُرْضِيَهُ، وَنُحِبَّهُ، وَنُسَلِّمَ لِحُكْمِهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:٨٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾[التوبة:٢٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [آل عمران:٣١]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.



فصلٌ

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِخَلْقِ اللهِ وَأَمْرِهِ: بِقَضَائِهِ وَشَرْعِهِ.

وَأَهْلُ الضَّلَالِ الْخَائِضُونَ فِي الْقَدَرِ انْقَسَمُوا إِلَىٰ ثَلَاثِ فِرَقٍ: مَجُوسِيَّةٍ، وَمُشْرِكِيَّةٌ، وَإِبْلِيسِيَّةٌ.

فَالْمَجُوسِيَّةُ: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ آمَنُوا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَغُلَاتُهُمْ أَنْكَرُوا الْعِلْمَ وَالْكِتَابَ، وَمُقْتَصِدُوهُمْ أَنْكَرُوا عُمُومَ مَشِيئَتِهِ، وَخَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ.

وَالْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ: الْمُشْرِكِيَّةُ، الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَأَنْكَرُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام:١٤٨]، فَمَنْ احْتَجَّ عَلَىٰ تَعْطِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِالْقَدَرِ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَهَذَا قَدْ كَثُرَ فِيمَنْ يَدَّعِي الْحَقِيقَةَ مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ.



وَالْفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ: وَهُمْ الإِبْلِيسِيَّةُ، الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْأَمْرَيْنِ، لَكِنْ جَعَلُوا هَذَا مُتَنَاقِضًا مِنْ الرَّبِّ - ﷻ - وَطَعَنُوا فِي حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، كَمَا يُذْكَرُ ذَلِكَ عَنْ إِبْلِيسَ مُقَدِّمِهِمْ، كَمَا نَقَلَهُ أَهْلُ الْمَقَالَاتِ، وَنُقِلَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَا مِمَّا تَقَوَّلَهُ أَهْلُ الضَّلَالِ، وَأَمَّا أَهْلُ الْهُدَىٰ وَالْفَلَاحِ فَيُؤْمِنُونَ بِهَذَا وَهَذَا، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ.

وَيَتَضَمَّنُ هَذَا الْأَصْلُ مِنْ إِثْبَاتِ عِلْمِ اللهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَمَشِيئَتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ مَا هُوَ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ.

وَمَعَ هَذَا فَلَا يُنْكِرُونَ مَا خَلَقَهُ اللهُ مِنْ الْأَسْبَابِ، الَّتِي يَخْلُقُ بِهَا الْمُسَبَّبَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [الأعراف:٥٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ [البقرة:٢٦]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَفْعَلُ بِالْأَسْبَابِ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ يَفْعَلُ عِنْدَهَا لَا بِهَا، فَقَدْ خَالَفَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَأَنْكَرَ مَا خَلَقَهُ اللهُ مِنْ الْقُوَىٰ وَالطَّبَائِعِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِإِنْكَارِ مَا خَلَقَهُ اللهُ مِنْ الْقُوَىٰ الَّتِي فِي الْحَيَوَانِ، الَّتِي يَفْعَلُ الْحَيَوَانُ بِهَا مِثْلَ قُدْرَةِ الْعَبْدِ.

كَمَا أَنَّ مَنْ جَعَلَهَا هِيَ الْمُبْدِعَةَ، لِذَلِكَ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللهِ، وَأَضَافَ فِعْلَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ سَبَبٍ مِنْ الْأَسْبَابِ إِلَّا وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ سَبَبٍ آخَرَ فِي حُصُولِ مُسَبَّبِهِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَانِعٍ يَمْنَعُ مُقْتَضَاهُ إِذَا لَمْ يَدْفَعْهُ اللهُ عَنْهُ، فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ يَسْتَقِلُّ بِفِعْلِ شَيْءٍ إِذَا شَاءَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ [الذاريات]، أَيْ فَتَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ وَاحِدٌ.

وَلِهَذَا مَنْ قَالَ: إِنَّ اللهَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا وَاحِدٌ، لِأَنَّ الْوَاحِدَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا وَاحِدٌ - كَانَ جَاهِلًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ وَاحِدٌ صَدَرَ عَنْهُ وَحْدَهُ شَيْءٌ، لَا وَاحِدَ وَلَا اثْنَانِ، إِلَّا اللهُ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ، فَالنَّارُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ فِيهَا حَرَارَةً، لَا يَحْصُلُ الْإِحْرَاقُ إِلَّا بِهَا وَبِمَحَلٍّ يَقْبَلُ الِاحْتِرَاقَ، فَإِذَا وَقَعَتْ عَلَىٰ



السَّمَنْدَلِ وَالْيَاقُوتِ وَنَحْوِهِمَا لَمْ تُحْرِقْهُمَا، وَقَدْ يُطْلَىٰ الْجِسْمُ بِمَا يَمْنَعُ إِحْرَاقَهُ، وَالشَّمْسُ الَّتِي يَكُونُ عَنْهَا الشُّعَاعُ لَا بُدَّ مِنْ جِسْمٍ يَقْبَلُ انْعِكَاسَ الشُّعَاعِ عَلَيْهِ، وَإِذَا حَصَلَ حَاجِزٌ مِنْ سَحَابٍ أَوْ سَقْفٍ: لَمْ يَحْصُلْ الشُّعَاعُ تَحْتَهُ، وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ «**الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ**»، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ مِنْ تَمَامِ التَّوْحِيدِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ اللهَ وَآمَنَ بِالْقَدَرِ تَمَّ تَوْحِيدُهُ، وَمَنْ وَحَّدَ اللهَ، وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ نَقَضَ تَوْحِيدَهُ.

وَلَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، كَمَا بَعَثَ اللهُ بِذَلِك رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ.

وَالْإِنْسَانُ مُضْطَرٌّ إِلَىٰ شَرْعٍ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَرَكَةٍ يَجْلِبُ بِهَا مَنْفَعَتَهُ، وَحَرَكَةٍ يَدْفَعُ بِهَا مَضَرَّتَهُ؛ وَالشَّرْعُ هُوَ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُ، وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَضُرُّهُ، وَهُوَ عَدْلُ اللهِ فِي خَلْقِهِ وَنُورُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ؛ فَلَا يُمْكِنُ لِلْآدَمِيِّينَ أَنْ يَعِيشُوا بِلَا شَرْعٍ يُمَيِّزُونَ بِهِ بَيْنَ مَا يَفْعَلُونَهُ وَيَتْرُكُونَهُ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ مُجَرَّدَ الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ؛ بَلْ الْإِنْسَانُ الْمُنْفَرِدُ لَا بُدَّ لَهُ مَنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ هَمَّامٌ حَارِثٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَاتِ، فَإِذَا كَانَ لَهُ إِرَادَةٌ فَهُوَ مُتَحَرِّكٌ بِهَا وَلَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ مَا يُرِيدُهُ هَلْ هُوَ نَافِعٌ لَهُ أَوْ ضَارٌّ؟ وَهَلْ يُصْلِحُهُ أَوْ يُفْسِدُهُ؟

وَهَذَا قَدْ يَعْرِفُ بَعْضَهُ النَّاسُ بِفِطْرَتِهِمْ، كَمَا يَعْرِفُونَ انْتِفَاعَهُمْ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَكَمَا يَعْرِفُونَ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ بِفِطْرَتِهِمْ، وَبَعْضُهُمْ يَعْرِفُونَهُ بِالِاسْتِدْلَالِ الَّذِي يَهْتَدُونَ بِهِ بِعُقُولِهِمْ، وَبَعْضُهُ لَا يَعْرِفُونَهُ إِلَّا بِتَعْرِيفِ الرُّسُلِ وَبَيَانِهِمْ لَهُمْ، وَهِدَايَتِهِمْ لَهُمْ.

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْأَفْعَالَ هَلْ يُعْرَفُ حُسْنُهَا وَقُبْحُهَا بِالْعَقْلِ، أَمْ لَيْسَ لَهَا حَسَنٌ وَقَبِيحٌ يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ؟ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَبَيَّنَّا مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ الِاشْتِبَاهِ، فَإِنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّ كَوْنَ الْفِعْلِ يُلَائِمُ الْفَاعِلَ أَوْ يُنَافِرُهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ سَبَبًا لِمَا يُحِبُّهُ الْفَاعِلُ وَيَلْتَذُّ بِهِ، وَسَبَبًا لِمَا يُبْغِضُهُ وَيُؤْذِيه.

وَهَذَا الْقَدْرُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ تَارَةً، وَبِالشَّرْعِ أُخْرَىٰ، وَبِهِمَا جَمِيعًا أُخْرَىٰ، لَكِنَّ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ عَلَىٰ وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَمَعْرِفَةُ الْغَايَةِ الَّتِي تَكُونُ عَاقِبَةُ الْأَفْعَالِ مِنْ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فِي الدَّارِ



الْآخِرَةِ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالشَّرْعِ، فَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفَاصِيلِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَمَرَتْ بِهِ مِنْ تَفَاصِيلِ الشَّرَائِعِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، كَمَا أَنَّ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفْصِيلِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْلَمُونَ بِعُقُولِهِمْ جُمَلَ ذَلِكَ.

وَهَذَا التَّفْصِيلُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْإِيمَانُ، وَجَاءَ بِهِ الْكِتَابُ هُوَ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾[الشورى:٥٢]، وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ]، وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِۚ﴾ [الأنبياء:٤٥].

وَلَكِنْ طَائِفَةٌ تَوَهَّمَتْ أَنَّ لِلْحُسْنِ وَالْقُبْحِ مَعْنًىٰ غَيْرَ هَذَا، وَأَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، وَقَابَلَتْهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ ظَنَّتْ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ مِنَ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ يَخْرُجُ عَنْ هَذَا، فَكِلَا الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَثْبَتَتَا الْحُسْنَ وَالْقُبْحَ الْعَقْلِيَّيْنِ أَوْ الشَّرْعِيَّيْنِ وَأَخْرَجَتَاهُ عَنْ هَذَا الْقِسْمِ غَلِطَتْ.

ثُمَّ إِنَّ كِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ لَمَّا كَانَتَا تُنْكِرُ أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالسُّخْطِ وَالْفَرَحِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ الْإِلَهِيَّةُ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّوَاهِدُ الْعَقْلِيَّةُ- تَنَازَعُوا بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ لَا يَفْعَلُ مَا هُوَ مِنْهُ قَبِيحٌ، وَالْقَوْلَانِ فِي الِانْحِرَافِ مِنْ جِنْسِ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ، أُولَئِكَ لَمْ يُفَرِّقُوا فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ بَيْنَ الْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَالرَّحْمَةِ وَالْعَذَابِ، فَلَا جَعَلُوهُ مَحْمُودًا عَلَىٰ مَا فَعَلَهُ مِنَ الْعَدْلِ أَوْ تَرَكَهُ مِنَ الظُّلْمِ، وَلَا مَا فَعَلَهُ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالنِّعْمَةِ وَمَا تَرَكَهُ مِنَ التَّعْذِيبِ وَالنِّقْمَةِ.

وَالْآخَرُونَ نَزَّهُوهُ بِنَاءً عَلَىٰ الْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي أَثْبَتُوهُ وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ وَسَوَّوْهُ بِخَلْقِهِ فِيمَا يَحْسُنُ وَيَقْبُحُ، وَشَبَّهُوهُ بِعِبَادِهِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَىٰ عَنْهُ.

فَمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ الْقَدَرِ فَقَطْ، وَعَظَّمَ الْفَنَاءَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَوَقَفَ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ، لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَالْبِرِّ وَالْفُجُورِ، وَالْعَدْلِ وَالظُّلْمِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، وَالرَّشَادِ وَالْغَيِّ، وَأَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَعْدَائِهِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَهَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ بِالضَّرُورَةِ لِكُتُبِ اللهِ وَدِينِهِ وَشَرَائِعِهِ، فَهُمْ مُخَالِفُونَ أَيْضًا لِضَرُورَةِ الْحِسِّ وَالذَّوْقِ، وَضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ، فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَلْتَذَّ بِشَيْءٍ وَيَتَأَلَّمَ



بِشَيْءٍ، فَيُمَيِّزَ بَيْنَ مَا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَمَا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَبَيْنَ مَا يُؤْذِيه مِنْ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَمَا لَيْسَ كَذَلِكَ، وَهَذَا التَّمْيِيزُ بَيْنَ مَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ الشَّرْعِيَّةُ الدِّينِيَّةُ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْبَشَرَ يَنْتَهِي إلَىٰ حَدٍّ يَسْتَوِي عِنْدَهُ الْأَمْرَانِ دَائِمًا فَقَدْ افْتَرَىٰ، وَخَالَفَ ضَرُورَةَ الْحِسِّ، وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ عَارِضٌ كَالسُّكْرِ وَالْإِغْمَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَشْغَلُ عَنْ الْإِحْسَاسِ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، فَأَمَّا أَنْ يَسْقُطَ إحْسَاسُهُ بِالْكُلِّيَّةِ مَعَ وُجُودِ الْحَيَاةِ فِيهِ فَهَذَا مُمْتَنِعٌ، فَإِنَّ النَّائِمَ لَمْ يَسْقُطْ إحْسَاسَ نَفْسِهِ، بَلْ يَرَىٰ فِي مَنَامِهِ مَا يَسُوءُهُ تَارَةً وَمَا يَسُرُّهُ أُخْرَىٰ، فَالْأَحْوَالُ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالِاصْطِلَامِ وَالْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ إنَّمَا تَتَضَمَّنُ عَدَمَ الْإِحْسَاسِ بِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ، فَهِيَ مَعَ نَقْصِ صَاحِبِهَا - لِضَعْفِ تَمْيِيزِهِ - لَا تَنْتَهِي إلَىٰ حَدٍّ يَسْقُطُ فِيهِ التَّمْيِيزُ مُطْلَقًا.

وَمَنْ نَفَىٰ التَّمْيِيزَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُطْلَقًا، وَعَظَّمَ هَذَا الْمَقَامَ فَقَدْ غَلِطَ فِي الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ قَدْرًا وَشَرْعًا: غَلِطَ فِي خَلْقِ اللهِ وَفِي أَمْرِهِ حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ وُجُودَ هَذَا؛ لَا وُجُودَ لَهُ، وَحَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ مَمْدُوحٌ، وَلَا مَدْحَ فِي عَدَمِ التَّمْيِيزِ الْعَقْلُ وَالْمَعْرِفَةُ.

وَإِذَا سَمِعْت بَعْضَ الشُّيُوخِ يَقُولُ: أُرِيدُ أَلَّا أُرِيدَ، أَوْ أَنَّ الْعَارِفَ لَا حَظَّ لَهُ، وَأَنَّهُ يَصِيرُ كَالْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيْ الْغَاسِلِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهَذَا إنَّمَا يُمْدَحُ مِنْهُ سُقُوطُ إرَادَتِهِ الَّتِي يُؤْمَرُ بِهَا، وَعَدَمُ حَظِّهِ الَّذِي لَا يُؤْمَرُ بِطَلَبِهِ وَأَنَّهُ كَالْمَيِّتِ فِي طَلَبِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِطَلَبِهِ، وَتَرْكِ دَفْعِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِدَفْعِهِ.

وَمَنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ تَبْطُلُ إرَادَتُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يُحِسُّ بِاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ، وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ، فَهَذَا مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ، وَمَنْ مَدَحَ هَذَا فَهُوَ مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الدِّينِ وَالْعَقْلِ.

وَالْفَنَاءُ يُرَادُ بِهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: هُوَ الْفَنَاءُ الدِّينِيُّ الشَّرْعِيُّ، الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، وَهُوَ أَنْ يَفْنَىٰ عَمَّا لَمْ يَأْمُرْ اللهُ بِهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَيَفْنَىٰ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ، وَعَنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَنْ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ غَيْرِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَعَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ بِمَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ، وَعَنْ خَوْفِ غَيْرِهِ بِخَوْفِهِ، بِحَيْثُ لَا يَتَّبِعُ الْعَبْدُ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًىٰ مِنْ اللهِ، وَبِحَيْثُ يَكُونُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ



كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ [التوبة:٢٤]، فَهَذَا كُلُّهُ هُوَ مِمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ.

وَأَمَّا الْفَنَاءُ الثَّانِي: وَهُوَ الَّذِي يَذْكُرُهُ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَفْنَىٰ عَنْ شُهُودِ مَا سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، فَيَفْنَىٰ بِمَعْبُودِهِ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَبِمَذْكُورِهِ عَنْ ذِكْرِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، بِحَيْثُ قَدْ يَغِيبُ عَنْ شُهُودِ نَفْسِهِ لِمَا سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فَهَذَا حَالٌ نَاقِصٌ، قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِ السَّالِكِينَ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ لَوَازِمَ طَرِيقِ اللهِ وَلِهَذَا لَمْ يُعْرَفْ مِثْلُ هَذَا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِلسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ.

وَمَنْ جَعَلَ هَذَا نِهَايَةَ السَّالِكِينَ فَهُوَ ضَالٌّ ضَلَالًا مُبِينًا، وَكَذَلِكَ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ لَوَازِمِ طَرِيقِ اللهِ فَهُوَ مُخْطِئٌ، بَلْ هُوَ مِنْ عَوَارِضِ طَرِيقِ اللهِ الَّتِي تَعْرِضُ لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، لَيْسَ هُوَ مِنْ اللَّوَازِمِ الَّتِي تَحْصُلُ لِكُلِّ سَالِكٍ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَهُوَ الْفَنَاءُ عَنْ وُجُودِ السِّوِيِّ، بِحَيْثُ يَرَىٰ أَنَّ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْخَالِقِ، وَأَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ، فَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ وَالِاتِّحَادِ، الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَضَلِّ الْعِبَادِ.

وَأَمَّا مُخَالَفَتُهُمْ لِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ، فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَطْرُدَ قَوْلَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُشَاهِدًا لِلْقَدَرِ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ بَيْنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَحْظُورِ، فَعُومِلَ بِمُوجِبِ ذَلِكَ مِثْلَ أَنْ يُضْرَبَ وَيُجَاعَ حَتَّىٰ يُبْتَلَىٰ بِعَظِيمِ الْأَوْصَابِ وَالْأَوْجَاعِ - فَإِنْ لَامَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ وَعَابَهُ فَقَدْ نَقَضَ قَوْلَهُ، وَخَرَجَ عَنْ أَصْلِ مَذْهَبِهِ، وَقِيلَ لَهُ: هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مَقْضِيٌّ مَقْدُورٌ، فَخَلْقُ اللهِ وَقَدَرُهُ وَمَشِيئَتُهُ مُتَنَاوِلٌ لَكَ وَلَهُ، وَهُوَ يَعُمُّكُمَا، فَإِنْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لَكَ فَهُوَ حُجَّةٌ لِهَذَا، وَإِلَّا فَلَيْسَ بِحُجَّةٍ لَا لَكَ وَلَا لَهُ. فَقَدْ تَبَيَّنَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ فَسَادُ قَوْلِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ الْقَدَرِ، وَيُعْرِضُ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَفْعَلَ الْمَأْمُورَ، وَيَتْرُكَ الْمَحْظُورَ، وَيَصْبِرَ عَلَىٰ الْمَقْدُورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران:١٢٠]، وَقَالَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف]، فَالتَّقْوَىٰ فِعْلُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَتَرْكُ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٥٥﴾ [غافر]، فَأَمَرَهُ مَعَ الِاسْتِغْفَارِ بِالصَّبْرِ، فَإِنَّ الْعِبَادَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ



الصَّحِيحِ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرِ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةٍ» وَقَالَ: «إِنَّهُ ليغان عَلَىٰ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرِ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ». وَكَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَئِي وَعَمْدِي، وَهَزْلِي وَجِدِّي، وَكُلُّ ذَٰلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْت وَمَا أَخَّرْت، وَمَا أَسْرَرْت وَمَا أَعْلَنْت، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لا إله إلَّا أنت».

وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ، إِلَيْهِ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ، وَعَنْ إِبْلِيسَ أَبِي الْجِنِّ أَنَّهُ أَصَرَّ مُتَعَلِّقًا بِالْقَدَرِ فَلَعَنَهُ وَأَقْصَاهُ، فَمَنْ أَذْنَبَ فَتَابَ وَنَدِمَ فَقَدْ أَشْبَهَ أَبَاهُ، وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٣﴾ [الأحزاب].

وَلِهَذَا قَرَنَ اللهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي غَيْرِ آيَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾ [محمد:١٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُۗ﴾[فُصِّلَت:٦] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[هود] .

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ وَغَيْرُهُ: «يَقُولُ الشَّيْطَانُ أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَالِاسْتِغْفَارِ، فَلَمَّا رَأَيْت ذَلِكَ بَثَثْتُ فِيهِمْ الْأَهْوَاءَ، فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا».

وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ ذِي النُّونِ أَنَّهُ نَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَك إِنِّي كُنْت مِنْ الظَّالِمِينَ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء]، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللهُ كُرْبَتَهُ».

وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ فِي الْأَمْرِ مَنْ أَصْلَيْنِ، وَلَا بُدَّ لَهُ فِي الْقَدَرِ مِنْ أَصْلَيْنِ، فَفِي «الْأَمْرِ» عَلَيْهِ الِاجْتِهَادُ فِي الِامْتِثَالِ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَلَا تَزَالُ تَجْتَهِدُ فِي الْعِلْمِ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَالْعَمَلِ بِذَلِكَ. ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ مِنْ تَفْرِيطِهِ فِي الْمَأْمُورِ، وَتَعَدِّيهِ لِلْحُدُودِ وَلِهَذَا



كَانَ مِنْ الْمَشْرُوعِ أَنْ يَخْتِمَ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ بِالِاسْتِغْفَارِ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صِلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران]، فَقَامُوا بِاللَّيْلِ وَخَتَمُوهُ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ قَوْلُهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر]، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، أَنَّهُ كَانَ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ.

وَأَمَّا فِي «**الْقَدَرِ**» فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاَللهِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَيَدْعُوَهُ، وَيَرْغَبَ إِلَيْهِ، وَيَسْتَعِيذَ بِهِ، وَيَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ الْمَقْدُورِ، وَيَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَإِذَا آذَاهُ النَّاسُ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مُقَدَّرٌ عَلَيْهِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ احْتِجَاجُ آدَمَ وَمُوسَىٰ، لَمَّا قَالَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ، لِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَكَ مِنْ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَىٰ الَّذِي اصْطَفَاك اللهُ بِكَلَامِهِ، فَبِكَمْ وَجَدْتَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُخْلَقَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه]، قَالَ: بِكَذَا وَكَذَا فَحَجَّ آدَمَ مُوسَىٰ. وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَىٰ لَمْ يَكُنْ عَتَبُهُ لِآدَمَ لِأَجْلِ الذَّنْبِ، فَإِنَّ آدَمَ قَدْ كَانَ تَابَ مِنْهُ، وَالتَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَهُمْ مَأْمُورُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ الْقَدَرِ فِي الْمَصَائِبِ وَأَنْ يَسْتَغْفِرُوا مِنْ الْمَعَائِبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥].

فَمَنْ رَاعَىٰ الْأَمْرَ وَالْقَدَرَ -كَمَا ذُكِرَ- كَانَ عَابِدًا للهِ، مُطِيعًا لَهُ، مُسْتَعِينًا بِهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، مِنْ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ.

وَقَدْ جَمَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ فِي مَوَاضِعَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾[هود:١٢٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورىٰ]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق]، فَالْعِبَادَةُ لِلَّهِ وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ



الْأُضْحِيَّةِ: «**اللَّهُمَّ مِنْك وَلَك**» فَمَا لَمْ يَكُنْ بِاَللهِ لَا يَكُونُ، فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللهِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ بِاَللهِ فَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ.

وَلَا بُدَّ فِي عِبَادَتِهِ مِنْ أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، **وَالثَّانِي:** مُوَافَقَةُ أَمْرِهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا. وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك:٢]، قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ. قَالُوا يَا أَبَا عَلِيٍّ: مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: إنَّ الْعَمَلَ إذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ السُّنَّةِ.

وَلِهَذَا ذَمَّ اللهُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ اتِّبَاعِ مَا شَرَعَ لَهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ مِنْ الدِّينِ الَّذِي لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَفِعْلِ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ مِنْ الدِّينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورىٰ:٢١]، كَمَا ذَمَّهُمْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ حَرَّمُوا مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ، وَالدِّينُ الْحَقُّ أَنَّهُ لَا حَرَامَ إلَّا مَا حَرَّمَهُ اللهُ، وَلَا دِينَ إلَّا مَا شَرَعَهُ اللهُ.

ثُمَّ إنَّ النَّاسَ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

فَالْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ هُمْ لَهُ وَبِهِ يَعْبُدُونَهُ وَيَسْتَعِينُونَهُ.

وَطَائِفَةٌ تَعْبُدُهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ وَلَا صَبْرٍ، فَتَجِدُ عِنْدَ أَحَدِهِمْ تَحَرِّيًا لِلطَّاعَةِ وَالْوَرَعِ، وَلُزُومِ السُّنَّةِ؛ لَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ تَوَكُّلٌ وَاسْتِعَانَةٌ وَصَبْرٌ، بَلْ فِيهِمْ عَجْزٌ وَجَزَعٌ.

وَطَائِفَةٌ فِيهِمْ اسْتِعَانَةٌ وَتَوَكُّلٌ وَصَبْرٌ، مِنْ غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ عَلَىٰ الْأَمْرِ وَلَا مُتَابَعَةٍ لِلسُّنَّةِ، فَقَدْ يُمَكَّنُ أَحَدُهُمْ، وَيَكُونُ لَهُ نَوْعٌ مِنْ الْحَالِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَيُعْطَىٰ مِنْ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ مَا لَمْ يُعْطَهُ الصِّنْفُ الْأَوَّلُ، وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمُتَّقِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ، فَالْأَوَّلُونَ لَهُمْ دِينٌ ضَعِيفٌ، وَلَكِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ بَاقٍ إنْ لَمْ يُفْسِدْهُ صَاحِبُهُ بِالْجَزَعِ وَالْعَجْزِ، وَهَؤُلَاءِ لِأَحَدِهِمْ حَالٌ وَقُوَّةٌ، وَلَكِنْ لَا يَبْقَىٰ لَهُ إلَّا مَا وَافَقَ فِيهِ الْأَمْرَ، وَاتَّبَعَ فِيهِ السُّنَّةَ.

وَشَرُّ الْأَقْسَامِ مَنْ لَا يَعْبُدُهُ وَلَا يَسْتَعِينُهُ، فَهُوَ لَا يَشْهَدُ أَنَّ عَمَلَهُ لِلَّهِ، وَلَا أَنَّهُ بِاَللهِ.



فَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ - مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْقَدَرَ - هُمْ فِي تَعْظِيمِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَبْرِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنْ الشَّرْعِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالصُّوفِيَّةُ هُمْ فِي الْقَدَرِ وَمُشَاهَدَةِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ خَيْرٌ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ، وَلَكِنْ فِيهِمْ مَنْ فِيهِ نَوْعُ بِدَعٍ مَعَ إعْرَاضٍ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، حَتَّى يَجْعَلُوا الْغَايَةَ هِيَ مُشَاهَدَةُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْفَنَاءِ فِي ذَلِكَ، وَيَصِيرُونَ أَيْضًا مُعْتَزِلِينَ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَسُنَّتِهِمْ، فَهُمْ مُعْتَزِلَةٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَقَدْ يَكُونُ مَا وَقَعُوا فِيهِ مِنْ الْبِدْعَةِ شَرًّا مِنْ بِدْعَةِ أُولَئِكَ الْمُعْتَزِلَةِ، وَكِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ نَشَأَتْ مِنْ الْبَصْرَةِ.

وَإِنَّمَا دِينُ اللهِ مَا بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ طَرِيقَةُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، خَيْرِ الْقُرُونِ، وَأَفْضَلِ الْأُمَّةِ، وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَى اللهِ تَعَالَى بَعْدَ النَّبِيِّينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، فَرَضِيَ عَنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ رِضًا مُطْلَقًا، وَرَضِيَ عَنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ: «**خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْت فِيهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَبَرُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقُهَا عِلْمًا، وَأَقَلُّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمْ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَتَمَسَّكُوا بِهَدْيِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ. وَقَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَوَاللهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمُوهُمْ لَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، وَلَئِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا.

وَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، وَخَطَّ حَوْلَهُ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ وَهَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]**»».

وَقَدْ أَمَرَنَا سُبْحَانَهُ أَنْ نَقُولَ فِي صَلَاتِنَا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة]، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:



«الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَىٰ ضَالُّونَ»، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ، وَالنَّصَارَىٰ عَبَدُوا اللهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ. وَلِهَذَا كَانَ يُقَالُ: تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ، فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣﴾ [طه]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَلَّا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَىٰ فِي الْآخِرَةِ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾ [البقرة]، فَأَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُهْتَدُونَ مُفْلِحُونَ، وَذَلِكَ خِلَافُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَهْدِيَنَا وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّيْنِ والصديقين وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ خَيْرِ خَلْقِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَىٰ يَوْمَ الدِّينِ.





«تَقْرِيبُ التَّدْمُرِيَّةِ»

لِلشَّيْخِ العَلَّامَةِ:

مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِين رَحِمَهُ اللَّهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله تعالىٰ بالهدىٰ ودين الحق، فبلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وترك أمته علىٰ محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ آله وأصحابه، وأئمة الهدىٰ من بعدهم، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛

فإن رسول الله ﷺ بيّن للناس ما نزل إليهم من ربهم بيانًا كاملًا شاملًا في دقيق أمورهم وجليلها، وظاهرها وخفيها، حتىٰ علمهم ما يحتاجون إليه في مآكلهم، ومشاربهم، ومناكحهم، وملابسهم، ومساكنهم.

فعلمهم آداب الأكل والشرب، والتخلي منهما، وآداب النكاح، واللباس ودخول المنزل والخروج منه.

كما علمهم ما يحتاجون إليه في عبادة الله عَزَّوَجَلَّ كالطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ... وغير ذلك.

وما يحتاجون إليه في معاملة الخلق من بر الوالدين، وصلة الأرحام وحسن الصحبة والجوار ... وغير ذلك.



وعلمهم كيف يتعاملون بينهم في البيع والشراء، والرهن والارتهان، والتأجير والاستئجار، والهبة والاتهاب ... وغير ذلك.

حتىٰ قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا».

وفي صحيح مسلم عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قيل له: قد علمكم نبيكم كل شيء حتىٰ الخراءة؟ قال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول وذكر تمام الحديث.

هذا فضلًا عن أسس هذه العبادات والأخلاق والمعاملات، وهو ما يعتقده العباد في إلههم ومعبودهم؛ في ذاته، وأسمائه، وصفاته وأفعاله، وما ينشأ عن ذلك من أحكامه الكونية والشرعية المبنية علىٰ بالغ الحكمة وغاية الرحمة.

فأخذ عنه ذلك الصحابة معينًا صافيًا نقيًّا مبنيًا علىٰ التوحيد الكامل المتضمن لركنين أساسيين: **نفي، وإثبات**.

فأما الإثبات فهو: إثبات ما يجب لله تعالىٰ من الربوبية، والألوهية والأسماء والصفات، والأفعال.

وأما النفي فهو: نفي مشاركة غير الله تعالىٰ فيما يجب له.

ومضىٰ عليه التابعون لهم بإحسان ممن أدركوا زمن الصحابة أو جاءوا بعدهم من أئمة الهدىٰ المستحقين لرضا الله عَزَّ وَجَلَّ حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٠٠﴾[التوبة] ثم خلف خلوف عموا عن الحق أو تعاموا عنه فضلوا وأضلوا قصورًا أو تقصيرًا، أو عدوانًا وظلمًا، فأحدثوا في دين الله تعالىٰ ما ليس منه في العقيدة، والعبادة، والسلوك، وحرفوا من أجل ذلك نصوص الكتاب والسنة، أو كذبوها - إن أمكنهم ذلك -.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واعلم أن عامة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات إنما وقع في الأمة في أواخر خلافة الخلفاء الراشدين كما أخبر به النبي ﷺ حيث قال: «**مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي...**»



إلىٰ أن قال: «فلما ذهبت دولة الخلفاء الراشدين، وصار ملكًا ظهر النقص في الأمراء؛ فلابد أن يظهر أيضًا في أهل العلم والدين فحدث في آخر خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدعتا الخوارج والرافضة إذ هي متعلقة بالإمامة والخلافة وتوابع ذلك من الأعمال والأحكام الشرعية.

وكان ملك معاوية ملكًا ورحمة، فلما ذهب وجاءت إمارة يزيد وجرت فيها فتنة قتل الحسين بالعراق، وفتنة أهل الحرة بالمدينة، وحصروا مكة لما قام عبد الله بن الزبير، ثم مات يزيد وتفرقت الأمة: ابن الزبير بالحجاز، وبنو الحكم بالشام، ووثب المختار بن أبي عبيد وغيره بالعراق وذلك في أواخر عصر الصحابة، وقد بقي فيهم مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم حدثت بدعة القدرية والمرجئة فردها بقايا الصحابة مع ما كانوا يردونه هم وغيرهم من بدعة الخوارج والروافض.

وعامة ما كانت القدرية إذ ذاك يتكلمون فيه: أعمال العباد، كما يتكلم فيها المرجئة، فصار كلامهم في الطاعة والمعصية، والمؤمن والفاسق، ونحو ذلك من مسائل الأسماء، والأحكام، والوعد، والوعيد.

ولم يتكلموا بعد في ربهم، ولا في صفاته إلا في أواخر عصر صغار التابعين، من حين أواخر الدولة الأموية حين شرع القرن الثالث - تابعو التابعين - ينقرض أكثرهم؛ فإن الاعتبار بالقرون الثلاثة بجمهور أهل القرن - وهم وسطه -.

وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتىٰ إنه لم يكن بقي من أهل بدر إلا نفر قليل.

وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك.

وجمهور تابعي التابعين في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية.

وصار في ولاة الأمور كثير من الأعاجم، وخرج كثير من الأمور عن ولاية العرب، وعربت بعض الكتب العجمية من كتب الفرس، والهند، والروم، وظهر ما قاله النبي ﷺ: «**ثُمَّ يَفْشُوا الْكَذِبُ حَتَّىٰ يَشْهَدَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَشْهَدَ، وَيَحْلِفَ وَلَا يُسْتَحْلَفَ**».

حدث ثلاثة أشياء: الرأي، والكلام، والتصوف، وحدث التجهم - وهو نفي الصفات -



وبإزائه التمثيل.

إلىٰ أن قال: «فإن معرفة أصول الأشياء ومبادئها ومعرفة الدين وأصله، وأصل ما تولد فيه» من أعظم العلوم نفعًا، إذ المرء ما لم يحط علمًا بحقائق الأشياء التي يحتاج إليها يبقىٰ في قلبه حسكة» اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «بدعة القدر أدركت آخر عصر الصحابة، فأنكرها من كان منهم حيًّا كعبد الله بن عمر وابن عباس وأمثالهما رضي الله عنهم ثم حدثت بدعة الإرجاء بعد انقراض عصر الصحابة، فتكلم فيها كبار التابعين الذين أدركوها، ثم حدثت بدعة التجهم بعد انقراض عصر التابعين واستفحل أمرها واستطار شرها في زمن الأئمة كالإمام أحمد وذويه، ثم حدثت بعد ذلك بدعة الحلول وظهر أمرها في زمن الحسين الحلاج، وكلما أظهر الشيطان بدعة من هذه البدع وغيرها أقام الله لها من حزبه وجنده من يردها، ويحذر المسلمين منها نصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله ولأهل الإسلام» ا.هـ.

وقال ابن حجر رحمه الله في شرح البخاري: «فمما حدث: تدوين الحديث، ثم تفسير القرآن، ثم تدوين المسائل الفقهية المولدة من الرأي المحض، ثم تدوين ما يتعلق بأعمال القلوب.

فأما الأول؛ فأنكره عمر وأبو موسىٰ وطائفة، ورخص فيه الأكثرون.

وأما الثاني؛ فأنكره جماعة من التابعين كالشعبي.

وأما الثالث؛ فأنكره الإمام أحمد وطائفة يسيرة، وكذا اشتد إنكار أحمد للذي بعده.

ومما حدث أيضًا تدوين القول في أصول الديانات فتصدىٰ لها المثبتة والنفاة، فبالغ الأول حتىٰ شبه، وبالغ الثاني حتىٰ عطل، واشتد إنكار السلف لذلك كأبي حنيفة، وأبي يوسف، والشافعي. وكلامهم في ذم أهل الكلام مشهور. وسببه أنهم تكلموا فيما سكت عنه النبي ﷺ وأصحابه.

وثبت عن مالك أنه لم يكن في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر شيء من الأهواء يعني بدع الخوارج، والروافض، والقدرية.

وقد توسع من تأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم.



ولم يقتنعوا بذلك حتىٰ مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلًا يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو مستكرهًا.

ثم لم يكتفوا بذلك حتىٰ زعموا أن الذي تربوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل، فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف، واجتنب ما أحدث الخلف، وإن لم يكن له منه بد فليكتف منه بقدر الحاجة، ويجعل الأول المقصود بالأصالة» ا. هـ.

ولما كان من حكمة الله البالغة أن يجعل للحق معارضين يتبين بمعارضتهم صواب الحق وظهوره علىٰ الباطل، فإن خالص الذهب لا يظهر إلا بعرضه علىٰ النار، قبض الله جل وعلا بقدرته التامة ولطفه الواسع وقهره الغالب من يدحض حجج هؤلاء المعارضين ويبين زيف شبههم وأنها كما قيل:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ

وقال الإمام أحمد رحمه الله في خطبة كتاب «الرد علىٰ الجهمية»: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلىٰ الهدىٰ، ويصبرون منهم علىٰ الأذىٰ، يحيون بكتاب الله الموتىٰ، ويبصرون بنور الله أهل العمىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه هدوه، فما أحسن أثرهم علىٰ الناس وما أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، مجمعون علىٰ مخالفة الكتاب، يقولون علىٰ الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون الجهال بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين» اهـ.

وكان من جملة من قيضهم الله تعالىٰ لنصرة دينه والذب عنه باللسان والبنان والسنان شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميه المولود في حران يوم الاثنين العاشر من شهر ربيع الأول سنة إحدىٰ وستين وستمائة، المتوفىٰ محبوسًا ظلمًا في قلعة دمشق ليلة الاثنين الموافق العشرين من شهر ذي القعدة سنة ثمان وعشرين



وسبعمائة، وصلي عليه في الجامع الأموي بعد صلاة الظهر ولم يتم دفنه – لكثرة الزحام – إلا قبل العصر بيسير، رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة، وجمعنا به مع من أنعم الله عليهم في جنات النعيم.

ولقد كان له رحمه الله مصنفات كثيرة في مجادلة أهل البدع ومجالدة أفكارهم ما بين مطولة ومتوسطة وقليلة، وحصل بذلك نفع كبير.

أشار ابن القيم رحمه الله إلىٰ شيء منها في النونية حيث قال:

وَإِذَا أَرَدْتَ تَرَى مَصَارِعَ مَنْ خَلَا ... مِنْ أُمَّةِ التَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ

إلىٰ أن قال:

فَاقْرَأْ تَصَانِيفَ الْإِمَامِ حَقِيقَةً ... شَيْخِ الْوُجُودِ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

أَعْنِي أَبَا الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ ذَلِكَ الْـ ... بَحْرِ الْمُحِيطِ بِسَائِرِ الْخُلْجَانِ

وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي ... مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِ

وَكَذَاكَ مِنْهَاجٌ لَهُ فِي رَدِّهِ ... قَوْلَ الرَّوَافِضِ شِيعَةِ الشَّيْطَانِ

ثم ذكر عدة من كتبه ورسائله وقال:

هِيَ فِي الْوَرَى مَبْثُوثَةٌ مَعْلُومَةٌ ... تُبْتَاعُ بِالْغَالِي مِنَ الْأَثْمَانِ

إلىٰ أن قال:

وَلَهُ الْمَقَامَاتُ الشَّهِيرَةُ فِي الْوَرَى ... قَدْ قَامَهَا لِلَّهِ غَيْرَ جَبَانِ

نَصَرَ الْإِلَهَ وَدِينَهُ وَكِتَابَهُ ... وَرَسُولَهُ بِالسَّيْفِ وَالْبُرْهَانِ

أَبْدَى فَضَائِحَهُمْ وَبَيَّنَ جَهْلَهُمْ ... وَأَرَى تَنَاقُضَهُمْ بِكُلِّ زَمَانِ

إلىٰ أن قال:

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ بِسِلَاحِهِمْ ... أَرْدَاهُمُ تَحْتَ الْحَضِيضِ الدَّانِي

كَانَتْ نَوَاصِينَا بِأَيْدِيهِمْ فَمَا ... يَلْقَوْنَنَا إِلَّا بِحَبْلِ أَمَانِ



فَغَـدَتْ نَوَاصِـيهِمْ بِأَيْـدِينَا فَمَـا يَلْقَوْنَنَـا إِلَّا بِحَبْـلِ أَمَـانِ
وَغَـدَتْ مُلُـوكُهُمْ مَمَـالِيكًا لِأَنْـ صَـارِ الرَّسُـولِ بِمِنَّـةِ الـرَّحْمَنِ

وكان من جملة رسائل الشيخ رحمه الله رسالة: «تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع» المعروفة باسم: «التدمرية».

الظاهر أن هذه الرسالة ضمن أجوبة أجاب بها الشيخ أهل تدمر.

وكانت هذه الرسالة من أحسن وأجمع ما كتبه في موضوعها علىٰ اختصارها.

ومن أجل ذلك فإني أستعين الله عَزَّوَجَلَّ في: لم شعثها وجمع شملها وتقريب معانيها لقارئها مع زيادة ما تدعو الحاجة إليه، وحذف ما يمكن الاستغناء عنه علىٰ وجه لا يخل بالمقصود، وسميته: «تقريب التدمرية».

وأسأل الله تعالىٰ أن يجعل عملي خالصًا لوجهه موافقًا لمرضاته نافعًا لعباده إنه جواد كريم.

بيان سبب تأليف هذه الرسالة التدمرية:

بين المؤلف سبب تأليف هذه الرسالة بقوله: «أما بعد: فقد سألني من تعينت إجابتهم أن أكتب لهم مضمون ما سمعوه مني في بعض المجالس من الكلام في التوحيد والصفات، وفي الشرع والقدر».

ثم علل وجوب إجابتهم بأمرين:

أحدهما: مسيس الحاجة إلىٰ تحقيق هذين الأصلين؛ لأنه لابد أن يخطر علىٰ القلب في هذين الأصلين ما يحتاج معه إلىٰ بيان الهدىٰ من الضلال والحق من الباطل.

الثاني: كثرة اضطراب أقوال الناس فيهما، والخوض فيهما بالحق تارة وبالباطل تارات؛ فيلتبس الحق بالباطل علىٰ كثير من الناس، ومن ثم احتيج إلىٰ البيان.



فصلٌ: الكلام في التوحيد والصفات وفي الشرع والقدر

الكلام في التوحيد والصفات من باب الخبر: الدائر بين النفي والإثبات من قبل المتكلم،



المقابل بالتصديق أو التكذيب من قبل المخاطب؛ لأنه خبر عما يجب لله تعالىٰ من التوحيد وكمال الصفات، وعما يستحيل عليه من الشرك والنقص ومماثلة المخلوقات.

مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ ففي قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: إثبات التوحيد، وفي قوله ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾: إثبات كمال الصفات، وفي قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾: نفي النقائص عن الله المتضمن لإثبات الكمالات.

وأما الكلام في الشرع والقدر فهو من باب الطلب: الدائر بين الأمر والنهي من قبل المتكلم، المقابل بالطاعة أو المعصية من قبل المخاطب؛ لأن المطلوب إما محبوب لله ورسوله فيكون مأمورًا به، وإما مكروه لله ورسوله فيكون منهيًا عنه.

مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾ [النساء:٣٦] ففي قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: الأمر بعبادة الله، وفي قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾: النهي عن الإشراك به.

والفرق بين الخبر والطلب في حقيقتيهما وحكمهما معلوم.

فالواجب علىٰ العباد إزاء خبر الله ورسوله: التصديق والإيمان به علىٰ ما أراد الله ورسوله تصديقًا لا تكذيب معه؛ وإيمانًا لا كفر معه، ويقينًا لا شك معه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء].

والواجب علىٰ العباد إزاء الطلب: امتثاله علىٰ الوجه الذي أراد الله ورسوله من غير غلو ولا تقصير، فيقومون بالمأمور ويجتنبون المحظور لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال].

وإذا تبين ذلك؛ فها هنا أصلان:

الأصل في الصفات وهو: أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسوله إثباتًا



بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل كما جمع الله تعالىٰ بينهما في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ].

فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ﴾: نفي متضمن لكمال صفاته مبطل لمنهج أهل التمثيل.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾: إثبات لأسمائه وصفاته وإبطال لمنهج أهل التحريف والتعطيل.

فنثبت ما أثبته الله لنفسه وننفي ما نفىٰ الله عن نفسه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

وهذا هو المنهج السليم الواجب المبني علىٰ العلم والحكمة والسداد في القول والاعتقاد.

وله دليلان: أثري ونظري، وإن شئت فقل: سمعي وعقلي.

أما الأثري السمعي فمنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف]. وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ].

وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل]. ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

وأما النظري العقلي فلأن القول في أسماء الله وصفاته من باب الخبر المحض الذي لا يمكن للعقل إدراك تفاصيله، فوجب الوقوف فيه علىٰ ما جاء به السمع.



فصلٌ

والجمع بين النفي والإثبات في باب الصفات هو حقيقة التوحيد فيه؛ وذلك لأن التوحيد مصدر «وحد/ يوحد» ولا يمكن صدق حقيقته إلا بنفي وإثبات، لأن الاقتصار علىٰ النفي المحض تعطيل محض. والاقتصار علىٰ الإثبات المحض لا يمنع المشاركة.

مثال ذلك: لو قلت: ما زيد بشجاع؛ فقد نفيت عنه صفة الشجاعة وعطلته منها.

ولو قلت: زيد شجاع. فقد أثبت له صفة الشجاعة، لكن ذلك لا يمنع أن يكون غيره



شجاعًا أيضًا.

ولو قلت: لا شجاع إلا زيد. فقد أثبت له صفة الشجاعة، ونفيت أن يشاركه غيره فيها، فكنت موحدًا له في صفة الشجاعة.

إذن؛ لا يمكن توحيد أحد بشيء إلا بالجمع بين النفي والإثبات.

واعلم أن الصفات الثبوتية التي وصف الله بها نفسه كلها صفات كمال، والغالب فيها التفصيل، لأنه كلما كثر الإخبار عنها وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصوف بها ما لم يكن معلومًا من قبل؛ ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر من الصفات المنفية التي نفاها الله عن نفسه.

وأما الصفات المنفية التي نفاها الله عن نفسه فكلها صفات نقص ولا تليق به كالعجز، والتعب، والظلم، ومماثلة المخلوقين، والغالب فيها الإجمال؛ لأن ذلك أبلغ في تعظيم الموصوف وأكمل في التنزيه. فإن تفصيلها لغير سبب يقتضيه فيه سخرية وتنقص للموصوف.

ألا ترىٰ أنك لو مدحت ملكًا فقلت له: أنت كريم، شجاع محنك، قوي الحكم، قاهر لأعدائك ... إلىٰ غير ذلك من صفات المدح، لكان هذا من أعظم الثناء عليه، وكان فيه من زيادة مدحه وإظهار محاسنه ما يجعله محبوبًا محترمًا؛ لأنك فصلت في الإثبات.

ولو قلت: أنت ملك لا يساميك أحد ملوك الدنيا في عصرك؛ لكان ذلك مدحًا بالغًا؛ لأنك أجملت في النفي.

ولو قلت: أنت ملك غير بخيل، ولا جبان، ولا فقير، ولا يقال، ولا كناس ولا بيطار، ولا حجام ... وما أشبه ذلك من التفصيل في نفي العيوب التي لا تليق به؛ لعد ذلك استهزاء به وتنقصًا لحقه.

وقد يأتي الإجمال في أسماء الله تعالىٰ وصفاته الثبوتية كقوله تعالىٰ في الأسماء: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف:١٨٠] وقوله في الصفات ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النحل:٦٠]؛ أي: الوصف الأعلىٰ.

وقد يأتي التفصيل في الصفات المنفية لأسباب منها:

١- نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون المفترون كقوله تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا



كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

٢- دفع توهم نقص في كماله كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ٣٨﴾ [قٓ].

الأمثلة علىٰ التفصيل في الإثبات كثيرة جدًّا:

قوله تعالىٰ في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ إلىٰ آخر السورة، [الحشر:٢٢ – ٢٤] فقد تضمنت هذه الآيات أكثر من خمسة عشر اسمًا، وكل اسم منها قد تضمن صفة أو صفتين أو أكثر.

وكقوله تعالىٰ في سورة الحج: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٦٥﴾ [الحج] فهذه سبع آيات متوالية، ختمت كل آية منها باسمين من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وكل اسم منها متضمن لصفة أو صفتين أو أكثر.

وأما أمثلة الإجمال في النفي فمنها قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ﴾ [الشورىٰ:١١]. وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ٦٥﴾ [مريم]. وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ٤﴾ [الإخلاص].



فصلٌ

واعلم أن الاشتراك في الأسماء والصفات لا يستلزم تماثل المسميات والموصوفات، كما دل علىٰ ذلك السمع، والعقل، والحس.

أما السمع: فقد قال الله عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ٥٨﴾ [النساء]. وقال عن الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ٢﴾ [الإنسان]. ونفي أن يكون السميع كالسميع والبصير كالبصير فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ].

وأثبت لنفسه علمًا وللإنسان علمًا، فقال عن نفسه: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٥] وقال عن الإنسان: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ [الممتحنة:١٠]. وليس علم الإنسان كعلم الله تعالىٰ، فقد



قال الله عن علمه: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥﴾ [آل عمران]. وقال عن علم الإنسان: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء].

وأما العقل: فمن المعلوم بالعقل أن المعاني والأوصاف تتقيد وتتميز بحسب ما تضاف إليه، فكما أن الأشياء مختلفة في ذواتها فإنها كذلك مختلفة في صفاتها وفي المعاني المضافة إليها، فإن صفة كل موصوف تناسبه لا يفهم منها ما يقصر عن موصوفها أو يتجاوزه.

ولهذا نصف الإنسان باللين، والحديد المنصهر باللين، ونعلم أن اللين متفاوت المعنىٰ بحسب ما أضيف إليه.

وأما الحس: فإننا نشاهد للفيل جسمًا وقدمًا وقوة، وللبعوضة جسمًا وقدمًا وقوة، ونعلم الفرق بين جسميهما، وقدميهما، وقوتيهما.

فإذا علم أن الاشتراك في الاسم والصفة في المخلوقات لا يستلزم التماثل في الحقيقة مع كون كل منها مخلوقًا ممكنًا، فانتفاء التلازم في ذلك بين الخالق والمخلوق أولىٰ وأجلىٰ، بل التماثل في ذلك بين الخالق والمخلوق ممتنع غاية الامتناع.



فصلٌ: في الزائغين عن سبيل الرسل وأتباعهم في أسماء الله وصفاته

الزائغون عن سبيل الرسل وأتباعهم في أسماء الله وصفاته قسمان: ممثلة، ومعطلة، وكل منهم غلا في جانب، وقصر في جانب. فالممثلة غلوا في جانب الإثبات، وقصروا في جانب النفي. والمعطلة غلوا في جانب النفي. وقصروا في جانب الإثبات، فخرج كل منهم عن الاعتدال في الجانبين.

فالقسم الأول: الممثلة:

وطريقتهم: أنهم اثبتوا لله الصفات علىٰ وجه يماثل صفات المخلوقين، فقالوا: لله وجه، ويدان، وعينان، كوجوهنا، وأيدينا، وأعيننا ... ونحو ذلك.

وشبهتهم في ذلك: أن الله تعالىٰ خاطبنا في القرآن بما نفهم ونعقل قالوا: ونحن لا نفهم ولا نعقل إلا ما كان مشاهدًا، فإذا خاطبنا عن الغائب بشيء وجب حمله علىٰ المعلوم في الشاهد.



ومذهبهم باطل مردود بالسمع، والعقل، والحس:

أما السمع: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ] وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ﴾ [النحل: ٧٤]. ففي الآية الأولىٰ نفىٰ أن يكون له مماثل مع إثبات السمع والبصر له. وفي الثانية نهىٰ أن تضرب له الأمثال، فجمع في هاتين الآيتين بين النفي والنهي.

وأما العقل: فدلالته علىٰ بطلان التمثيل من وجوه:

الأول: التباين بين الخالق والمخلوق في الذات والوجود، وهذا يستلزم التباين في الصفات، لأن صفة كل موصوف تليق به، فالمعاني والأوصاف تتقيد وتتميز بحسب ما تضاف إليه.

الثاني: أن القول بالمماثلة بين الخالق والمخلوق يستلزم نقص الخالق سبحانه؛ لأن تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

الثالث: أن القول بمماثلة الخالق للمخلوق يقتضي بطلان العبودية الحق؛ لأنه لا يخضع عاقل لأحد وبذل له علىٰ وجه التعظيم المطلق إلا أن يكون أعلىٰ منه.

وأما الحس: فإننا نشاهد في المخلوقات ما تشترك أسماؤه وصفاته في اللفظ وتتباين في الحقيقة، فللفيل جسم وقوة، وللبعوضة جسم وقوة، والتباين بين جسميهما وقوتيهما معلوم، فإذا جاز هذا التباين بين المخلوقات كان جوازه بين الخالق والمخلوق من باب أولىٰ، بل التباين بين الخالق والمخلوق واجب، والتماثل ممتنع غاية الامتناع.

وأما قولهم: «إن الله تعالىٰ خاطبنا بما نعقل ونفهم» فصحيح؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف]. وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]. وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾ [إبراهيم:٤]. ولوا أن الله أراد من عباده عقل وفهم ما جاءت به الرسل لكان لسان قومه ولسان غيرهم سواء، ولما حصل البيان الذي تقوم به الحجة علىٰ الخلق.

وأما قولهم: «إذا خاطبنا عن الغائب بشيء وجب حمله علىٰ المعلوم في الشاهد» فجوابه من وجهين:



أحدهما: أن ما أخبر الله به عن نفسه إنما أخبر به مضافًا إلىٰ نفسه المقدسة، فيكون لائقًا به لا مماثلًا لمخلوقاته، ولا يمكن لأحد أن يفهم منه المماثلة إلا من لم يعرف الله تعالىٰ، ولم يقدره حق قدره، ولم يعرف مدلول الخطاب الذي يقتضيه السياق.

الثاني: أنه قد علم بضرورة العقل والشرع ما بين الخالق والمخلوق من التباين العظيم في الذات والوجود فكيف يتصور مؤمن أو عاقل أن يكون بينهما تماثل في الصفات فضلا عن أن يعتقد ذلك في الله عَزَّوَجَلَّ وعلا.



فصلٌ

القسم الثاني: المعطلة وهم الذين أنكروا ما سمىٰ الله تعالىٰ ووصف به نفسه إنكارًا كليًّا أو جزئيًّا، وحرفوا من أجل ذلك نصوص الكتاب والسنة، فهم محرفون للنصوص، معطلون للصفات.

وقد انقسم هؤلاء إلىٰ أربع طوائف:

الطائفة الأولىٰ: الأشاعرة ومن ضاهاهم من الماتريدية وغيرهم:

وطريقتهم: أنهم أثبتوا لله الأسماء، وبعض الصفات، ونفوا حقائق أكثرها، وردوا ما يمكنهم رده من النصوص، وحرفوا ما لا يمكنهم رده، وسموا ذلك التحريف تأويلًا؛ فأثبتوا لله من الصفات سبع صفات: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، علىٰ خلاف بينهم وبين السلف في كيفية إثبات بعض هذه الصفات.

وشبهتهم فيما ذهبوا إليه: أنهم اعتقدوا فيما نفوه أن إثباته يستلزم التشبيه أي التمثيل. وقالوا فيما أثبتوه: إن العقل قد دل عليه؛ فإن إيجاد المخلوقات يدل علىٰ القدرة، وتخصيص بعضها بما يختص به يدل علىٰ الإرادة، وإحكامها يدل علىٰ العلم، وهذه الصفات «القدرة، والإرادة، والعلم» تدل علىٰ الحياة لأنها لا تقوم إلا بحي، والحي إما أن يتصف بالكلام والسمع والبصر - وهذه صفات كمال - أو بضدها - وهو الخرس والصمم والعمىٰ - وهذه صفات ممتنعة علىٰ الله تعالىٰ، فوجب ثبوت الكلام، والسمع، والبصر.

والرد عليهم من وجوه:



الأول: أن الرجوع إلىٰ العقل في هذا الباب مخالف لما كان عليه سلف الأمة من الصحابة، والتابعين، وأئمة الأمة من بعدهم، فما منهم أحد رجع إلىٰ العقل في ذلك وإنما يرجعون إلىٰ الكتاب والسنة، فيثبتون لله تعالىٰ من الأسماء والصفات ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسله إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل.

قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: «نصف الله بما وصف به نفسه، ولا نتعدىٰ القرآن والحديث».

الثاني: أن الرجوع إلىٰ العقل في هذا الباب مخالف للعقل؛ لأن هذا الباب من الأمور الغيبية التي ليس للعقل فيها مجال، وإنما تتلقىٰ من السمع، فإن العقل لا يمكنه أن يدرك بالتفصيل ما يجب ويجوز ويمتنع في حق الله تعالىٰ؛ فيكون تحكيم العقل في ذلك مخالفًا للعقل.

الثالث: أن الرجوع في ذلك إلىٰ العقل مستلزم للاختلاف والتناقض، فإن لكل واحد منهم عقلًا يرىٰ وجوب الرجوع إليه كما هو الواقع في هؤلاء، فتجد أحدهم يثبت ما ينفيه الآخر، وربما يتناقض الواحد منهم فيثبت في مكان ما ينفيه - أو ينفي نظيره - في مكان آخر، فليس لهم قانون مستقيم يرجعون إليه.

قال المؤلف رحمه الله في الفتوىٰ الحموية: «فيا ليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة؟ فرضي الله عنه الإمام مالك بن أنس حيث قال: أوكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلىٰ محمد ﷺ لجدل هؤلاء».

ومن المعلوم أن تناقض الأقوال دليل علىٰ فسادها.

الرابع: أنهم إذا صرفوا النصوص عن ظاهرها إلىٰ معنىٰ زعموا أن العقل يوجبه، فإنه يلزمهم في هذا المعنىٰ نظير ما يلزمهم في المعنىٰ الذي نفوه مع ارتكابهم تحريف الكتاب والسنة.

مثال ذلك: إذا قالوا المراد بيد الله عَزَّ وَجَلَّ: القوة دون حقيقة اليد؛ لأن إثبات حقيقة اليد يستلزم التشبيه بالمخلوق الذي له يد.

فنقول لهم: يلزمكم في إثبات القوة نظير ما يلزمكم في إثبات اليد الحقيقية؛ لأن للمخلوقات قوة، فإثبات القوة لله تعالىٰ يستلزم التشبيه علىٰ قاعدتكم.



ومثال آخر: إذا قالوا المراد بمحبة الله تعالىٰ إرادة ثواب المحبوب أو الثواب نفسه دون حقيقة المحبة؛ لأن إثبات حقيقة المحبة يستلزم التشبيه.

فنقول لهم: إذا فسرتم المحبة بالإرادة لزمكم في إثبات الإرادة نظير ما يلزمكم في إثبات المحبة، لأن للمخلوق إرادة، فإثبات الإرادة لله تعالىٰ يستلزم التشبيه علىٰ قاعدتكم، وإذا فسرتموها بالثواب، فالثواب مخلوق مفعول لا يقوم إلا بخالق فاعل، والفاعل لابد له من إرادة الفعل، وإثبات الإرادة مستلزم للتشبيه علىٰ قاعدتكم.

ثم نقول: إثباتكم إرادة الثواب أو الثواب نفسه مستلزم لمحبة العمل المثاب عليه، ولولا محبة العمل ما أثيب فاعله، فصار تأويلكم مستلزمًا لما نفيتم؛ فإن أثبتموه علىٰ الوجه المماثل للمخلوق ففي التمثيل وقعتم، وإن أثبتموه علىٰ الوجه المختص بالله واللائق به أصبتم ولزمكم إثبات جميع الصفات علىٰ هذا الوجه.

الخامس: أن قولهم فيما نفوه: «إن إثباته يستلزم التشبيه» ممنوع لأن الاشتراك في الأسماء والصفات لا يستلزم تماثل المسميات والموصوفات كما تقرر سابقًا، ثم إنه منقوض بما أثبتوه من صفات الله، فإنهم يثبتون لله تعالىٰ الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، مع أن المخلوق متصف بذلك، فإثباتهم هذه الصفات لله تعالىٰ مع اتصاف المخلوق بها مستلزم للتشبيه علىٰ قاعدتهم.

فإن قالوا: إننا نثبت هذه الصفات لله تعالىٰ علىٰ وجه يختص به ولا يشبه ما ثبت للمخلوق منها.

قلنا: هذا جواب حسن سديد، فلماذا لا تقولون به فيما نفيتموه فتثبتوه لله علىٰ وجه يختص به، ولا يشبه ما ثبت للمخلوق منه؟

فإن قالوا: ما أثبتناه فقد دل العقل علىٰ ثبوته فلزم إثباته.

قلنا: عن هذا ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه لا يصح الاعتماد علىٰ العقل في هذا الباب كما سبق.

الثاني: أنه يمكن إثبات ما نفيتموه بدليل عقلي يكون في بعض المواضع أوضح من أدلتكم فيما أثبتموه.

مثال ذلك: الرحمة التي أثبتها الله تعالىٰ لنفسه في قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾



[الكهف:٥٨]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ [يونس]. فإنه يمكن إثباتها بالعقل كما دل عليها السمع فيقال: الإحسان إلىٰ الخلق بما ينفعهم ويدفع عنهم الضرر يدل علىٰ الرحمة، كدلالة التخصيص علىٰ الإرادة، بل هو أبين وأوضح لظهوره لكل أحد.

الثالث: أن نقول: علىٰ فرض أن العقل لا يدل علىٰ ما نفيتموه فإن عدم دلالته عليه لا يستلزم انتفاء في نفس الأمر، لأن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول، إذ قد يثبت بدليل آخر، فإذا قدرنا أن الدليل العقلي لا يثبته فإن الدليل السمعي قد أثبته، وحينئذ يجب إثباته بالدليل القائم السالم عن المعارض المقاوم.

فإن قالوا: بل العقل يدل علىٰ انتفاء ذلك لأن إثباته يستلزم التشبيه، والعقل يدل علىٰ انتفاء التشبيه.

قلنا: إن كان إثباته يستلزم التشبيه فإن إثبات ما أثبتموه يستلزم التشبيه أيضًا، فإن منعتم ذلك لزمكم منعه فيما نفيتموه إذ لا فرق.

وحينئذ إما أن تقولوا بالإثبات في الجميع فتوافقوا السلف، وإما أن تقولوا بالنفي في الجميع فتوافقوا المعتزلة ومن ضاهاهم، وأما التفريق فتناقض ظاهر.



فصلٌ

الطائفة الثانية: المعتزلة ومن تبعهم من أهل الكلام وغيرهم:

وطريقتهم: أنهم يثبتون لله تعالىٰ الأسماء دون الصفات، ويجعلون الأسماء أعلامًا محضة، ثم منهم من يقول إنها مترادفة فالعليم، والقدير والسميع، والبصير شيء واحد، ومنهم من يقول إنها متباينة، ولكنه عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر ... ونحو ذلك.

وشبهتهم: أنهم اعتقدوا أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه؛ لأنه لا يوجد شيء متصف بالصفات إلا جسم، والأجسام متماثلة، فإثبات الصفات يستلزم التشبيه.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن الله تعالىٰ سمىٰ نفسه بأسماء، ووصف نفسه بصفات، فإن كان إثبات الصفات يستلزم التشبيه فإثبات الأسماء كذلك، وإن كان إثبات الأسماء لا يستلزم التشبيه



فإثبات الصفات كذلك، والتفريق بين هذا وهذا تناقض، فإما أن يثبتوا الجميع فيوافقوا السلف، وإما أن ينفوا الجميع فيوافقوا غلاة الجهمية والباطنية، وإما أن يفرقوا فيقعوا في التناقض.

الثاني: أن الله تعالىٰ وصف أسماءه بأنها حسنىٰ، وأمرنا بدعائه بها فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [لأعراف:١٨٠]. وهذا يقتضي أن تكون دالة علىٰ معاني عظيمة تكون وسيلة لنا في دعائنا، ولا يصح خلوها عنها ولو كانت أعلامًا محضة لكانت غير دالة علىٰ معنىٰ سوىٰ تعيين المسمىٰ، فضلًا عن أن تكون حسن ووسيلة في الدعاء.

الثالث: أن الله تعالىٰ أثبت لنفسه الصفات إجمالًا وتفصيلًا مع نفي المماثلة فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]. وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ]. وهذا يدل علىٰ أن إثبات الصفات لا يستلزم التمثيل، ولو كان يستلزم التمثيل لكان كلام الله متناقضًا.

الرابع: أن من لا يتصف بصفات الكمال لا يصلح أن يكون ربًّا ولا إلهًا، ولهذا عاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه باتخاذه ما لا يسمع ولا يبصر إلهًا فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم].

الخامس: أن كل موجود لابد له من صفة، ولا يمكن وجود ذات مجردة عن الصفات، وحينئذٍ لابد أن يكون الخالق الواجب الوجود متصفًا بالصفات اللائقة به.

السادس: أن القول بأن أسماء الله أعلام محضة مترادفة لا تدل إلا علىٰ ذات الله فقط قول باطل؛ لأن دلالات الكتاب والسنة متضافرة علىٰ أن كل اسم منها دال علىٰ معناه المختص به مع اتفاقها علىٰ مسمىٰ، واحد، وموصوف واحد. فالله تعالىٰ هو الحي القيوم، السميع البصير، العليم القدير، فالمسمىٰ والموصوف واحد، والأسماء والصفات متعددة. ألا ترىٰ أن الله تعالىٰ يسمي نفسه باسمين أو أكثر في موضع واحد كقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر:٢٣]؟ فلو كانت الأسماء مترادفة ترادفًا محضًا لكان ذكرها مجتمعة لغوًا من القول لعدم الفائدة.

السابع: أن القول بأن الله تعالىٰ عليم بلا علم، وقدير بلا قدرة وسميع بلا سمع ... ونحو ذلك؛ قول باطل مخالف لمقتضىٰ اللسان العربي وغير العربي، فإن من المعلوم في



لغات جميع العالم أن المشتق دال علىٰ المعنىٰ المشتق منه، وأنه لا يمكن أن يقال عليم لمن لا علم له، ولا قدير لمن لا قدرة له، ولا سميع لمن لا سمع له ... ونحو ذلك.

وإذا كان كذلك تعين أن تكون أسماء الله تعالىٰ دالة علىٰ ما تقتضيه من الصفات اللائقة به؛ فيتعين إثبات الأسماء والصفات لخالق الأرض والسَّمٰوات.

الثامن: أن قولهم: «لا يوجد شيء متصف بالصفات إلا جسم»: ممنوع؛ فإننا نجد من الأشياء ما يصح أن يوصف وليس بجسم، فإنه يقال: ليل طويل، ونهار قصير، وبرد شديد، وحر خفيف ... ونحو ذلك، وليست هذه أجسامًا.

علىٰ أن إضافة لفظ الجسم إلىٰ الله تعالىٰ إثباتًا أو نفيًا من الطرق البدعية التي يتوصل بها أهل التعطيل إلىٰ نفي الصفات التي أثبتها الله لنفسه.

التاسع: أن قولهم: «الأجسام متماثلة»: باطل ظاهر البطلان، فإن تفاوت الأجسام ظاهر لا يمكن إنكاره. قال الشيخ المؤلف: «ولا ريب أن قولهم بتماثل الأجسام قول باطل».



فصلٌ

الطائفة الثالثة: غلاة الجهمية، والقرامطة، والباطنية ومن تبعهم:

وطريقتهم: أنهم ينكرون الأسماء والصفات، ولا يصفون الله تعالىٰ إلا بالنفي المجرد عن الإثبات، ويقولون: إن الله هو الموجود المطلق بشرط الإطلاق فلا يقال: هو موجود، ولا حي، ولا عليم، ولا قدير، وإنما هذه أسماء لمخلوقاته أو مجاز، لأن إثبات ذلك يستلزم تشبيهه بالموجود الحي، العليم، القدير ويقولون: إن الصفة عين الموصوف، وإن كل صفة عين الصفة الأخرىٰ، فلا فرق بين العلم والقدرة، والسمع والبصر ... ونحو ذلك.

وشبهتهم: أنهم اعتقدوا أن إثبات الأسماء والصفات يستلزم التشبيه والتعدد.

ووجه ذلك في الأسماء: أنه إذا سمي بها لزم أن يكون متصفًا بمعنىٰ الاسم. فإذا أثبتنا «الحي» مثلًا لزم أن يكون متصفًا بالحياة؛ لأن صدق المشتق يستلزم صدق المشتق منه، وذلك يقتضي قيام الصفات به وهو تشبيه.

وأما في الصفات فقالوا: إن إثبات صفات متغايرة مغايرة للموصوف يستلزم التعدد، وهو تركيب ممتنع مناقض للتوحيد.



والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن الله تعالىٰ جمع فيما سمىٰ ووصف به نفسه بين النفي والإثبات «وقد سبق أمثلة من ذلك» فمن اقر بالنفي وأنكر الإثبات فقد آمن ببعض الكتاب دون بعض، والكفر ببعض الكتاب كفر بالكتاب كله. قال الله تعالىٰ منكرًا علىٰ بني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء].

الثاني: أن الموجود المطلق بشرط الإطلاق لا وجود له في الخارج المحسوس، وإنما هو أمر يفرضه الذهن ولا وجود له في الحقيقة، فتكون حقيقة القول به نفي وجود الله تعالىٰ إلا في الذهن، وهذا غاية التعطيل والكفر.

الثالث: قولهم: «إن الصفة عين الموصوف، وإن كل صفة عين الصفة الأخرىٰ» مكابرة في المعقولات، سفسطة في البدهيات، فإن من المعلوم بضرورة العقل والحس أن الصفة غير الموصوف، وأن كل صفة غير الصفة الأخرىٰ، فالعلم غير العالم، والقدرة غير القادر، والكلام غير المتكلم، كما أن العلم والقدرة والكلام صفات متغايرة.

الرابع: أن وصف الله تعالىٰ بصفات الإثبات أدل علىٰ الكمال من وصفه بصفات النفي، لأن الإثبات أمر وجودي يقتضي تنوع الكمالات في حقه، وأما النفي فأمر عدمي لا يقتضي كمالًا إلا إذا تضمن إثباتًا، وهؤلاء النفاة لا يقولون بنفي يقتضي الإثبات.

الخامس: قولهم: «إن إثبات صفات متغايرة مغايرة للموصوف يستلزم التعدد..» قول باطل مخالف للمعقول والمحسوس. فإنه لا يلزم من تعدد الصفات تعدد الموصوف، فها هو الإنسان الواحد يوصف بأنه حي، سميع، بصير، عاقل، متكلم ... إلىٰ غير ذلك من صفاته ولا يلزم من ذلك تعدد ذاته.

السادس: قولهم في الأسماء: «إن إثباتها يستلزم أن يكون متصفًا بمعنىٰ الاسم فيقتضي أن يكون إثباتها تشبيهًا»: جوابه: أن المعاني التي تلزم من إثبات الأسماء صفات لائقة بالله



تعالىٰ غير مستحيلة عليه، والمشاركة في الاسم أو الصفة لا تستلزم تماثل المسميات والموصوفات.

السابع: قولهم: «إن الإثبات يستلزم تشبيهه بالموجودات»: جوابه: أن النفي الذي قالوا به يستلزم تشبيهه بالمعدومات علىٰ قياس قولهم، وذلك أقبح من تشبيهه بالموجودات، وحينئذ فإما أن يقروا بالإثبات فيوافقوا الجماعة، وإما أن ينكروا النفي كما أنكروا الإثبات فيوافقوا غلاة الغلاة من القرامطة والباطنية وغيرهم.

وأما التفريق بين هذا وهذا فتناقض ظاهر.



فصلٌ

الطائفة الرابعة: غلاة الغلاة من الفلاسفة، والجهمية، والقرامطة، والباطنية، وغيرهم:

وطريقتهم: أنهم أنكروا في حق الله تعالىٰ الإثبات والنفي، فنفوا عنه الوجود، والعدم، والحياة، والموت، والعلم، والجهل ... ونحوها، وقالوا: إنه لا موجود، ولا معدوم، ولا حي، ولا ميت، ولا عالم، ولا جاهل ... ونحو ذلك.

وشبهتهم: أنهم اعتقدوا أنهم: إن وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات، وإن وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن تسمية الله ووصفه بما سمىٰ ووصف به نفسه ليس تشبيهًا ولا يستلزم التشبيه، فإن الاشتراك في الاسم والصفة لا يستلزم تماثل المسميات والموصوفات، وتسميتكم ذلك تشبيهًا ليس تمويهًا وتلبيسًا علىٰ العامة والجهال، ولو قبلنا مثل هذه الدعوىٰ الباطلة لأمكن كل مبطل أن يسمي الشيء الحق بأسماء ينفر بها الناس عن قبوله.

الثاني: أنه قد علم بضرورة العقل والحس أن الموجود الممكن لابد له من موجد واجب الوجود، فإننا نعلم حدوث المحدثات ونشاهدها، ولا يمكن أن تحدث بدون محدث، ولا أن تحدث نفسها بنفسها لقوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾ [الطور]. فتعين أن يكون لها خالق واجب الوجود وهو الله تعالىٰ.

ففي الوجود إذن موجودان:



أحدهما: أزلي واجب الوجود نفسه.

الثاني: محدث ممكن الوجود، موجود بغيره.

ولا يلزم من اتفاقهما في مسمىٰ الوجود أن يتفقا في خصائصه، فإن وجود الواجب يخصه، ووجود المحدث يخصه:

وجود الخالق: واجب أزلي ممتنع الحدوث، أبدي ممتنع الزوال.

ووجود المخلوق: ممكن حادث بعد العدم قابل للزوال.

فمن لم يثبت ما بينهما من الاتفاق والافتراق لزمه أن تكون الموجودات كلها إما أزلية واجبة الوجود بنفسها أو محدثة ممكنة الوجود بغيرها، وكلاهما معلوم الفساد بالاضطرار.

الثالث: أن إنكارهم الإثبات والنفي يستلزم نفي النقيضين معًا وهذا ممتنع، لأن النقيضين لا يمكن اجتماعهما ولا ارتفاعهما، بل لابد من وجود أحدهما وحده، فيلزم – علىٰ قياس قولهم – تشبيه الله بالممتنعات لأنه يمتنع أن يكون الشيء لا موجودًا، ولا معدومًا، ولا حيًّا، ولا ميتًا، إلا أمرًا يقدره الذهن ولا حقيقة له، ووصف الله سبحانه بهذا – مع كونه مخالفًا لبداهة العقول – كفر صريح بما جاء به الرسول.

فإن قالوا: نفي النقيضين ممتنع عما كان قابلًا لهما، أما ما كان غير قابل لهما – كالجماد الذي لا يقبل الاتصاف بالسمع والصمم – فإنه يمكن نفيهما عنه فيقال: ليس بسميع ولا أصم.

قلنا: **فالجواب من أربعة أوجه**:

الوجه الأول: أن هذا لا يصح فيما قالوه من نفي الوجود والعدم؛ فإن

تقابلهما تقابل سلب وإيجاب باتفاق العقلاء، فإذا انتفىٰ أحدهما لزم ثبوت الآخر، فإذا قيل ليس بموجود، لزم أن يكون معدومًا، وإذا قيل ليس بمعدوم لزم أن يكون موجودًا، فلا يمكن نفيهما معًا ولا إثباتهما معًا.

الوجه الثاني: أن قولهم في الجماد: إنه لا يقبل الاتصاف بالحياة، والموت، والعمىٰ، والبصر، والسمع، والصمم ... ونحوها مما يكون تقابله تقابل عدم، وملكه قول اصطلاحي لا يغير الحقائق، مردود بما ثبت من جعل الجماد حيًا، كما جعل الله عصا موسىٰ حية تلقف ما صنعه السحرة، وقد وصف الله تعالىٰ الجماد بأنه ميت في قوله:



﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ [النحل]. وأخبر أن الأرض يوم القيامة تحدث أخبارها - وهي ما عمل عليها من خير وشر وهذا يستلزم سمعها لما قيل ورؤيتها لما فعل.

الوجه الثالث: أن الذي يقبل الاتصاف بالكمال أكمل من الذي لا يقبله، فما يقبل أن يوصف بالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر - ولو كان خاليًا منه - أكمل مما لا يقبل ذلك، فقولكم إن الرب لا يقبل أن يتصف بذلك يستلزم أن يكون أنقص من الإنسان القابل لذلك حيث شبهتموه بالجماد الذي لا يقبله.

الوجه الرابع: أنه إذا كان يمتنع انتفاء الوجود والعدم، فانتفاء عدم قبول ذلك أشد، وعلىٰ هذا يكون قولهم: إن الرب لا يقبل الاتصاف بالوجود والعدم مستلزمًا لتشبيهه بأشد الممتنعات.



فصلٌ

المحاذير التي وقعت فيها هذه الطوائف:

علم مما سبق أن كل طائفة من هؤلاء الطوائف الأربع واقعون في محاذير:

الأول: مخالفة طريق السلف.

الثاني: تعطيل النصوص عن المراد بها.

الثالث: تحريفها إلىٰ معان غير مرادة بها.

الرابع: تعطيل الله عن صفات الكمال التي تضمنتها هذه النصوص.

الخامس: تناقض طريقتهم فيما أثبتوه وفيما نفوه.

فنقول لكل واحد منهم في جانب الإثبات: أثبت ما نفيت مع نفي التشبيه، كما أثبت ما أثبت مع نفي التشبيه.

ونقول له في جانب النفي: انف ما أثبت خوفًا من التشبيه، كما نفيت ما نفيت خوفًا من التشبيه وإلا كنت متناقضًا.

والقول الفصل المطرد السالم من التناقض: ما كان عليه سلف الأمة وأئمتها من: إثبات ما أثبته الله تعالىٰ لنفسه من الأسماء والصفات، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وإجراء



النصوص علىٰ ظاهرها علىٰ الوجه اللائق بالله عَزَّوَجَلَّ، مـن غيـر تحريـف، ولا تعطيـل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

ويتبين هذا بأصلين، ومثلين، وخاتمة:

فأما الأصلان:

فأحدهما: أن يقال لمن يثبت بعـض الصـفات دون بعـض: القـول في بعـض الصـفات كالقول في بعض.

أي: أن من أثبت شيئًا مما أثبته الله لنفسه من الصفات ألزم بإثبات الباقي، ومن نفىٰ شيئًا منه ألزم بنفي ما أثبته وإلا كان متناقضًا.

مثال ذلك: إذا كان المخاطب يثبت لله تعـالىٰ حقيقـة الإرادة، وينفـي حقيقـة الغضـب ويفسره: إما بإرادة الانتقام، وإما بالانتقام نفسه.

فيقال له: لا فرق بين ما أثبته من حقيقة الإرادة وما نفيته من حقيقة الغضـب، فـإن كـان إثبات حقيقة الغضب يستلزم التمثيل، فإثبات حقيقة الإرادة يستلزمه أيضًا.

وإن كان إثبات حقيقة الإرادة لا يستلزمه، فإثبات الغضب لا يستلزمه أيضًا، لأن القـول في أحدهما كالقول في الآخر، وعلىٰ هذا يلزمك إثبات الجميع، أو نفي الجميع.

فإن قال: الإرادة التي أثبتها لا تستلزم التمثيل، لأنني أعني بهـا إرادة تليـق بـالله عَزَّوَجَلَّ لا تماثل إرادة المخلوق.

قيل له: فأثبت لله غضبًا يليق به ولا يماثل غضب المخلوق.

فإن قال: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام وهذا لا يليق بالله تعالىٰ.

قيل له: والإرادة ميل النفس إلىٰ جلب منفعة أو دفع مضرة وهذا لا يليـق بـالله سـبحانه وتعالىٰ.

فإن قال: هذه إرادة المخلوق، وأما إرادة الله فتليق به.

قيل له: والغضب بالمعنىٰ الذي قلت غضب المخلوق، وأما غضب الله فيليق به.

وهكذا القول في جميع الصفات التي نفاها يقال له فيها ما يقوله هو فيما أثبته.

فإن قال: أثبت ما أثبته من الصفات بدلالة العقل عليه.

أجبنا عنه بثلاثة أجوبة سبق ذكرها عند الرد علىٰ الطائفة الأولىٰ.



الأصل الثاني: أن يقال لمن يقر بذات الله تعالىٰ ويمثل في صفاته أو ينفيها: القول في الصفات كالقول في الذات.

يعني أن من أثبت لله تعالىٰ ذاتًا لا تماثل ذوات المخلوقين لزمه أن يثبت له صفات لا تماثل صفات المخلوقين، لأن القول في الصفات كالقول في الذات وهذا الأصل يخاطب به أهل التمثيل، وأهل التعطيل من المعتزلة ونحوهم.

فيقال لأهل التمثيل: ألستم لا تثبتون ذات الله ذاتا بلا تمثي؟ فأثبتوا له صفات بلا تمثيل.

ويقال لأهل التعطيل من المعتزلة ونحوهم: ألستم تقولون بوجود ذات لا تشبه الذوات؟ فكذلك قولوا بصفات لا تشبه الصفات.

مثال ذلك: إذا قال: إن الله استوىٰ علىٰ العرش فكيف استواؤه؟

فيقال له: القول في الصفات كالقول في الذات فأخبرنا كيف ذاته؟

فإن قال: لا أعلم كيفية ذاته.

قيل له: ونحن لا نعلم كيفية استوائه.

وحينئذ؛ يلزمه أن يقر باستواء حقيقي غير مماثل لاستواء المخلوقين، ولا معلوم الكيفية، كما أقر بذات حقيقية غير مماثلة لذوات المخلوقين، ولا معلومة الكيفية، كما قال مالك وشيخه ربيعة وغيرهما في الاستواء: «الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

فقوله: «الاستواء معلوم» أي: معلوم المعنىٰ في اللغة العربية التي نزل بها القرآن وله معان بحسب إطلاقه وتقييده بالحرف، فإذا قيد بـ «علىٰ» كان معناه العلو والاستقرار كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨] وقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٣]. فاستواء الله تعالىٰ علىٰ عرشه علوه عليه علوًّا خاصًّا يليق به، علىٰ كيفية لا نعلمها، وليس هو العلو المطلق علىٰ سائر المخلوقات.

وقوله: «والكيف مجهول» أي أن كيفية استواء الله علىٰ عرشه مجهولة لنا وذلك لوجوه ثلاثة:

الأول: أن الله أخبرنا أنه استوىٰ علىٰ عرشه ولم يخبرنا كيف استوىٰ.



الثاني: أن العلم بكيفية الصفة فرع عن العلم بكيفية الموصوف وهو الذات، فإذا كنا لا نعلم كيفية ذات الله، فكذلك لا نعلم كيفية صفاته.

الثالث: أن الشيء لا تعلم كيفيته إلا بمشاهدته، أو مشاهدة نظيره أو الخبر الصادق عنه، وكل ذلك منتف في استواء الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه، وهذا يدل علىٰ أن السلف يثبتون للاستواء كيفية لكنها مجهولة لنا.

وقوله: «والإيمان به واجب»؛ أي: أن الإيمان بالاستواء علىٰ هذا الوجه واجب، لأن الله تعالىٰ أخبر به عن نفسه، وهو أعلم بنفسه، وأصدق قولًا وأحسن حديثًا، فاجتمع في خبره كمال العلم، وكمال الصدق، وكمال الإرادة وكمال الفصاحة والبيان فوجب قبوله والإيمان به.

وقوله: «والسؤال عنه – أي: عن كيفيته بدعة»؛ لأن السؤال عنها لم يعرف في عهد النبي ﷺ ولا خلفائه الراشدين، وهو من الأمور الدينية فكان إيراده بدعة، ولأن السؤال عن مثل ذلك من سمات أهل البدع

ثم إن السؤال عنه مما لا تمكن الإجابة عليه فهو من التنطع في الدين، وقد قال النبي ﷺ: «هلك المتنطعون».

وهذا القول الذي قاله مالك وشيخه يقال في صفة نزول الله تعالىٰ إلىٰ السماء الدنيا وغيره من الصفات: إنها معلومة المعنىٰ، مجهولة الكيفية، وإن الإيمان بها علىٰ الوجه المراد بها واجب، والسؤال عن كيفيتها بدعة.



فصلٌ

وأما المثلان:

فأحدهما: نعيم الجنة: فقد أخبر الله تعالىٰ أن في الجنة طعامًا وشرابًا ولباسًا، وزوجات، ومساكن، ونخلًا، ورمانًا، وفاكهة، ولحمًا، وخمرًا، ولبنًا، وعسلًا، وماءً، وحلية من ذهب ولؤلؤ وفضة ... وغير ذلك.

وكله حق علىٰ حقيقته، وهو في الاسم موافق لما في الدنيا من حيث المعنىٰ لكنه مخالف له في الحقيقة.



أما موافقته لما في الدنيا في المعنىٰ فلأن الله تعالىٰ قال عن القرآن: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف]. ولولا موافقته له في المعنىٰ؛ ما فهمناه ولا عقلناه.

وأما مخالفته له في الحقيقة فلقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة]. وقوله في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر» قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء» فإذا كانت هذه الأسماء دالة علىٰ مسمياتها حقيقة، وكان اتفاقها مع ما في الدنيا من الأسماء لا يستلزم اتفاق المسميات في الحقيقة، بل بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله، فإن مباينة الخالق للمخلوق أعظم وأظهر من مباينة المخلوق للمخلوق؛ لأن التباين بين المخلوقات تباين بين مخلوق ومخلوق مثله، فإذا ظهر التباين بينها كان بينها وبين الخالق أظهر وأولىٰ.

وقد انقسم الناس في هذا المقام مقام الإيمان بالله واليوم الآخر إلىٰ ثلاث فرق:

الفرقة الأولىٰ: السلف والأئمة وأتباعهم: آمنوا بما أخبر الله به عن نفسه، وعن اليوم الآخر، وأنه حق علىٰ حقيقته مع اعتقادهم التباين بين ما في الدنيا وما في الآخرة، وأن التباين بين الخالق والمخلوق أولىٰ وأعظم وأبين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورىٰ].

الفرقة الثانية: طوائف من أهل الكلام يؤمنون بما أخبر الله به عن اليوم الآخر من الثواب والعقاب، وينفون كثيرًا مما أخبر الله به عن نفسه من الصفات.

الفرقة الثالثة: القرامطة، والباطنية، والفلاسفة لا يؤمنون بما أخبر الله به عن نفسه، ولا عن اليوم الآخر، بل ينكرون حقائق هذا وهذا.

فمذهبهم فيما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر أنه تخييل لا حقيقة له.

وأما في الأمر والنهي فكثير منهم يجعلون للمأمورات والمنهيات تأويلات باطنة تخالف ما يعرفه المسلمون منها، **فيقولون**: المراد بالصلوات معرفة أسرارهم، وبالصيام كتمان أسرارهم، وبالحج السفر إلىٰ شيوخهم ... ونحو ذلك مما يعلم بالضرورة من دين الإسلام أنه كذب وافتراء وكفر وإلحاد.

وقد يقولون: إن الشرائع تلزم العامة دون الخاصة، فإذا وصل الرجل إلىٰ درجة



العارفين والمحققين عندهم ارتفعت عنه التكاليف، فسقطت عنه الواجبات وحلت له المحظورات.

وقد يوجد في المنتسبين إلىٰ التصوف والسلوك من يدخل في بعض هذه المذاهب.

وهؤلاء الباطنية هم الملاحدة، الذين أجمع المسلمون علىٰ أنهم أكفر من اليهود والنصارىٰ لعظم إلحادهم ومخالفتهم لجميع الشرائع الإلهية.

المثل الثاني: الروح التي بها الحياة: وهي أقرب شيء إلىٰ الإنسان، بل هي قوام الإنسان، وقد وصفت في النصوص بأنها تقبض من البدن، ويصعد بها إلىٰ السماء، وتعاد إلىٰ البدن، ولا ينكر أحد وجودها حقيقة.

وقد عجز الناس عن إدراك كنهها وحقيقتها، إلا ما علموه عن طريق الوحي، واضطربوا فيها اضطرابًا كثيرًا لكونهم لا يشاهدون لها نظيرًا:

فمنهم طوائف من أهل الكلام: جعلوها البدن، أو جزءًا منه، أو صفة من صفاته.

ومنهم طوائف من أهل الفلسفة وصفوها بأمور لا يتصف بها إلا ممتنع الوجود، فقالوا: لا هي داخل البدن ولا خارجه، ولا مداخلة له ولا مباينة، ولا متحركة ولا ساكنة، ولا تصعد ولا تهبط، ولا هي جسم ولا عرض. وقد يقولون إنها لا داخل العالم ولا خارجه، ولا مباينة له ولا مداخلة، كما يصفون بذلك الخالق الواجب الوجود.

فإذا قيل لهم: إثبات هذا القول ممتنع في العقل ضرورة.

قالوا: هذا ممكن، بدليل أن الكليات ممكنة موجودة وهي غير مشار إليها. وقد غفلوا عن كون الكليات لا توجد كلية إلا في الأذهان لا في الأعيان، فإن الذهن يفرض أشياء في الخيال لا يمكن وجودها في الخارج، كأن يتخيل ارتفاع النقيضين أو اجتماعهما مع أن هذا ممتنع.

واعلم أن اضطراب المتكلمين والفلاسفة في الروح كثير وله سببان:

أحدهما: قلة بضاعتهم مما جاء به الوحي في صفاتها.

والثاني: أنهم لا يشاهدون لها نظيرًا، فإن الروح ليست من جنس هذا البدن، ولا من جنس العناصر والمولدات منها، وإنما هي من جنس آخر مخالف لهذه الأجناس.

فعرفها الفلاسفة بالأسلوب التي توجب مخالفتها للأجسام المشهودة، وجعلها



المتكلمون من جنس الأجسام المشهودة.

فطريق الفلاسفة فيها تعطيل، وطريق المتكلمين فيها تمثيل، وكلا الطريقين خطأ.

وقد صح عن النبي ﷺ أن الروح إذا قبضت اتبعها البصر وأن الملائكة تجعلها في كفن وتصعد بها إلىٰ السماء، ومع هذا فالعقول قاصرة عن إدراك كنهها وحقيقتها كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

فإذا كانت الروح حقيقة، واتصافها بما وصفت به في الكتاب والسنة حقيقة، مع أنها لا تماثل الأجسام المشهودة، كان اتصاف الخالق بما يستحقه من صفات الكمال مع مباينته للمخلوقات من باب أولىٰ، وكان عجز أهل العقول عن أن يحدوا الله أو يكيفوه أبين من عجزهم عن حد الروح وتكييفها.

وإذا كان من نفىٰ صفات الروح جاحدًا معطلًا، ومن مثلها بما يشاهد من المخلوقات جاهلًا بها ممثلًا، فالخالق سبحانه أولىٰ أن يكون من نفىٰ صفاته جاحدًا معطلًا، ومن قاسه بخلقه جاهلًا به ممثلًا.



الخاتمة

القاعدة الأولىٰ: في أن الله تعالىٰ موصوف بالنفي والإثبات:

هذه الخاتمة تشتمل علىٰ قواعد عظيمة مفيدة:

القاعدة الأولىٰ: في أن الله تعالىٰ موصوف بالنفي والإثبات: يعني أن الله تعالىٰ جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ].

وإنما جمع الله تعالىٰ لنفسه بين النفي والإثبات؛ لأنه لا يتم كمال الموصوف إلا بنفي صفات النقص، وإثبات صفات الكمال.

وكل الصفات التي نفاها الله عن نفسه صفات نقص كالإعياء، واللغوب، والعجز، والظلم، ومماثلة المخلوقين ... وكل ما أثبته الله تعالىٰ لنفسه فهو صفات كمال كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ﴾ [النحل:٦٠] سواء كانت من الصفات الذاتية التي يتصف بها



أزلًا وأبدًا، أم من الصفات الفعلية التي يتصف بها حيث تقتضيها حكمته، وإن كان أصل هذه الصفات الفعلية ثابتًا له أزلًا، وأبدًا، فإن الله تعالىٰ لم يزل ولا يزال فعالًا لما يريد.



فصلٌ

فمن صفات الله تعالىٰ التي أثبتها لنفسه: الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام والعزة، والحكمة، والمغفرة، والرحمة.

فحياته تعالىٰ: حياة كاملة مستلزمة لكل صفات الكمال، لم يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]. وقال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد:٣]. وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وعلمه تعالىٰ: كامل شامل لكل: صغير وكبير، وقريب وبعيد، لم يسبقه جهل، ولا يلحقه نسيان، كما قال الله تعالىٰ عن موسىٰ حين سأله فرعون: ما بال القرون الأولىٰ؟ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة].

وقدرته تعالىٰ: كاملة، لم تسبق بعجز ولا يلحقها تعب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر]. وقال: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [قٓ].

وحكمته تعالىٰ: حكمة بالغة، منزهة عن العبث، شاملة لخلقه وشرعه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان]. وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك:٢]. وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة].

وحكمته كسائر صفاته لا يحيط بها الخلق، فقد نعجز عن إدراك الحكمة فيما خلقه أو شرعه، وقد ندرك منها ما يفتح الله به علينا.



وعلىٰ هذا تجري سائر الصفات التي أثبتها الله تعالىٰ لنفسه، فكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.



فصلٌ

ومن الصفات التي نفاها الله تعالىٰ عن نفسه: الموت والجهل والنسيان والعجز والسنة والنوم، واللغوب، والإعياء، والظلم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

وقال عن موسىٰ: ﴿فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [فاطر:٤٤].

وقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [قٓ]. وقال: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف:٣٣].

وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

وكل صفة نفاها الله تعالىٰ عن نفسه فإنها متضمنة لشيئين:

أحدهما: انتفاء تلك الصفة.

الثاني: ثبوت كمال ضدها.

ألا ترىٰ إلىٰ قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر]؛ فإن الله تعالىٰ لما نفىٰ عن نفسه العجز بين أن ذلك لكمال علمه وقدرته؟

وعلىٰ هذا فنفي الظلم عن نفسه متضمن لكمال عدله. ونفي اللغوب والعي متضمن لكمال قوته. ونفي السنة والنوم متضمن لكمال حياته وقيوميته؛ ونفي الموت متضمن لكمال حياته وعلىٰ هذا تجري سائر الصفات المنفية.

ولا يمكن أن يكون النفي في صفات الله عَزَّوَجَلَّ نفيًا محضًا، بل لابد أن يكون لإثبات كمال وذلك للوجوه التالية:

الأول: أن الله تعالىٰ قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾ [النحل:٦٠]. أي الوصف الأكمل، وهذا معدوم في النفي المحض.



الثاني: أن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فكيف يكون مدحًا وكمالًا؟

الثالث: أن النفي إن لم يتضمن كمالًا فقد يكون لعدم قابلية الموصوف لذلك المنفي أو ضده، لا لكمال الموصوف، كما إذا قيل: «الجدار لا يظلم، فنفي الظلم عن الجدار ليس لكمال الجدار، ولكن لعدم قابلية اتصافه بالظلم أو العدل، وحينئذ لا يكون نفي الظلم عنه مدحًا له ولا كمالًا فيه.

الرابع: أن النفي؛ إن لم يتضمن كمالًا؛ فقد يكون لنقص الموصوف أو لعجزه عنه كما لو قيل عن شخص عاجز عن الانتصار لنفسه ممن ظلمه: «**إنه لا يجزي السيئة بالسيئة**» فإن نفي مجازاته السيئة بمثلها ليس لكمال عفوه، ولكن لعجزه عن الانتصار لنفسه، وحينئذ يكون نفي ذلك عنه نقصًا وذمًا لا كمالًا ومدحًا.

ألم تر إلىٰ قول الحماسي يهجو قومه:

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تُسْتَبَحْ إِبِلِي ... بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا

إلىٰ أن قال:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يَجْزُونَ مَنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

يريد بذلك ذمهم ووصفهم بالعجز لا مدحهم بكمال العفو بدليل قوله بعد:

فَلَيْتَ لِي بِهِمُ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا ... شَنُّوا الْإِغَارَةَ رُكْبَانًا وَفُرْسَانَا

وبهذا علم أن الذين لا يصفون الله تعالىٰ إلا بالنفي المحض لم يثبتوا في الحقيقة إلهًا محمودًا، بل ولا موجودًا؛ كقولهم في الله عَزَّوَجَلَّ: إنه ليس بداخل العالم، ولا خارجه، ولا مباين، ولا محايث، ولا فوق، ولا تحت، ولا متصل، ولا منفصل ... ونحو ذلك.

ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن أدعىٰ ذلك في الخالق جل وعلا: «ميز لنا بين هذا الرب الذي تثبته وبين المعدوم» ولقد صدق رحمه الله فإنه لن يوصف المعدوم بوصف أبلغ من هذا الوصف الذي وصفوا به الخالق جل وعلا:

فمن قال: لا هو مباين للعالم، ولا مداخل للعالم فهو بمنزلة من قال: لا هو قائم بنفسه،



ولا بغيره، ولا قديم، ولا محدث، ولا متقدم علىٰ العالم، ولا مقارن له.

ومن قال: ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا متكلم، لزمه أن يكون ميتًا، أصم، أعمىٰ، أبكم.



فصلٌ

القاعدة الثانية: في وجوب الإيمان بما أخبر الله به ورسوله سواء عرف معناه أم لم يعرف:

ما أخبر الله تعالىٰ به في كتابه، أو أخبر به رسوله ﷺ وجب علينا الإيمان به، سواء عرفنا معناه، أم لم نعرفه:

لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء].

ولأن خبر الله تعالىٰ صادر عن علم تام، فهو أعلم بنفسه وبغيره كما قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة:١٤٠].

ولأن خبر الله تعالىٰ أصدق الأخبار كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء].

ولأن كلام الله تعالىٰ أفصح الكلام، وأبلغه، وأبينه كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان]. وقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر:٢٣]. متشابهًا: يشبه بعضه بعضًا في الكمال والبيان. وقال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

ولأن الله تعالىٰ يريد بما أنزل إلىٰ عباده من الوحي أن يهتدوا ولا يضلوا كما قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:٢٦]. وقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء].

وهكذا خبر النبي ﷺ صادر عن علم فإنه ﷺ أعلم الناس بربه وأسمائه وصفاته



وأحكامه وخبره أصدق أخبار البشر، وكلامه أفصح كلام البشر، وقصده أفضل مقصود البشر، فهو أنصح الخلق للخلق.

فقد اجتمع في خبر الله تعالىٰ وخبر رسوله كمال العلم، وكمال الصدق وكمال البيان، وكمال القصد والإرادة، وهذه هي مقومات قبول الخبر.

ولهذا لو صدر الخبر عن جاهل، أو كاذب، أو عيي، أو سيئ قصد لم يكن مقبولًا لفقد مقومات القبول أو أحدها.

فإذا كانت مقومات قبول الخبر تامة علىٰ أكمل وجه في خبر الله ورسوله وجب الإيمان به وقبوله سواء كان نفيًا أم إثباتًا، ولم يبق عذر لمعتذر في رده، أو تحريفه، أو الشك في مدلوله، لاسيما في أسماء الله تعالىٰ وصفاته.

وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها وجب قبوله.

وعامة هذا الباب «باب الأسماء والصفات» منصوص عليه في الكتاب والسنة متفق عليه بين سلف الأمة.

وأما ما تنازع فيه المتأخرون مما ليس في الكتاب والسنة ولا عند سلف الأمة فليس علىٰ أحد، بل وليس لأحد أن يثبت لفظه أو ينفيه لعدم ورود السمع به، وليس له أن يقبل معناه أو يرده حتىٰ يعلم المراد منه. فإن كان حقًّا وجب قبوله، وإن كان باطلًا وجب رده.

ولذلك أمثلة منها:

المثال الأول: الجهة: أي لو قال قائل: إن الله في جهة، أو هل لله جهة؟

فيقال له: لفظ «الجهة» ليس في الكتاب والسنة إثباته ولا نفيه، فليس فيهما أنه في جهة، أو له جهة، ولا أنه ليس في جهة، أو ليس له جهة، وفي النصوص ما يغني عنه كالعلو، والفوقية، والاستواء علىٰ العرش، وصعود الأشياء إليه ونزولها منه.

وقد اضطرب المتأخرون في إثباته ونفيه.

فإذا أجريناه علىٰ القاعدة قلنا:

أما اللفظ فلا نثبته ولا ننفيه لعدم ورود ذلك.

وأما المعنىٰ فنري ماذا يراد بالجهة؟

أيراد بالجهة شيء مخلوق محيط بالله عَزَّوَجَلَّ؟ فهذا معنىٰ باطل لا يليق بالله سبحانه، فإن



الله لا يحيط به شيء من مخلوقاته، فقد وسع كرسيه السَّمٰوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما، ولا يمكن أن يكون داخل شيء من مخلوقاته.

أم يراد بالجهة ما فوق العالم؟ فهذا حق ثابت لله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله تعالىٰ فوق خلقه عال عليهم، كما دل علىٰ ذلك الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي أن النبي ﷺ قال لجارية كانت له: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة».

المثال الثاني: الحيز أو المتحيز:

فإذا قال قائل: هل نصف الله تعالىٰ بأنه متحيز أو في حيز؟

قلنا: لفظ «التحيز» أو «الحيز» ليس في الكتاب والسنة ثابتة ولا نفيه عن الله تعالىٰ، فليس فيهما أنه في حيز، أو متحيز، ولا أنه ليس كذلك، وفي النصوص ما يغني عنه مثل الكبير المتعال.

وقد اضطرب المتأخرون في إثبات ذلك لله تعالىٰ أو نفيه عنه.

فإذا أجريناه علىٰ القاعدة قلنا:

أما اللفظ فلا نثبته ولا ننفيه لعدم ورود السمع به.

وأما المعنىٰ؛ فينظر ماذا يراد بالحيز أو المتحيز؟

أيراد به أن الله تعالىٰ تحوزه المخلوقات وتحيط به؟ فهذا معنىٰ باطل منفي عن الله تعالىٰ لا يليق به، فإن الله أكبر وأعظم وأجل من أن تحيط به المخلوقات وتحوزه كيف وقد وسع كرسيه السَّمٰوات والأرض، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه؟! وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**يَقْبِضُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمٰوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟**». وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَا السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

أم يراد بالحيز أو المتحيز: أن الله منحاز عن المخلوقات أي مباين لها منفصل عنها ليس حالًا فيها، ولا هي حالة فيه، فهذا حق ثابت لله عَزَّوَجَلَّ، كما قال أئمة أهل السنة: هو فوق سمواته علىٰ عرشه، بائن من خلقه.



تنبيه: جاء في القاعدة أنه يجب علينا الإيمان بما أخبر الله به ورسوله سواء عرفنا معناه أم لا.

لكن؛ ليعلم أنه ليس في كلام الله ورسوله شيء لا يعرف معناه جميع الأمة، بل لابد أن يكون معروفًا لجميع الأمة أو بعضها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]. ولأنه؛ لو كان فيه ما لا يعلم معناه أحد لكان بعض الشريعة مجهولًا للأمة.

ولكن المعرفة والخفاء أمران نسبيان، فقد يكون معروفًا لشخص ما كان خفيًّا علىٰ غيره: إما لنقص في علمه، أو قصور في فهمه، أو تقصير في طلبه، أو سوء في قصده.



فصلٌ

القاعدة الثالثة: في إجراء النصوص علىٰ ظاهرها:

ظاهر النصوص: ما يتبادر منها من المعاني بحسب ما تضاف إليه وما يحتف بها من القرآن.

والواجب في النصوص: إجراؤها علىٰ ظاهرها بدون تحريف لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]. وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف]. وقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [لأعراف:٣].

فإذا كان الله تعالىٰ أنزله باللسان العربي من أجل عقله وفهمه، وأمرنا باتباعه، وجب علينا إجراؤه علىٰ ظاهره بمقتضىٰ ذلك اللسان العربي، إلا أن تمنع منه حقيقة شرعية.

ولا فرق في هذا بين نصوص الصفات وغيرها، بل قد يكون وجوب التزام الظاهر في نصوص الصفات أولىٰ وأظهر؛ لأن مدلولها توقيفي محض لا مجال للعقول في تفاصيله.

فإن قال قائل في نصوص الصفات: لا يجوز إجراؤها علىٰ ظاهرها لأن ظاهرها غير مراد.



فجوابه أن يقال: ماذا تريد بالظاهر؟

أتريد ما يظهر من النصوص من المعاني اللائقة بالله من غير تمثيل؟ فهذا الظاهر مراد لله ورسوله قطعًا، وواجب علىٰ العباد قبوله، والإيمان به شرعًا؛ لأنه حق ولا يمكن أن يخاطب الله عباده بما يريد منهم خلاف ظاهره بدون بيان كيف، وقد قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:٢٦] وقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء:١٧٦] ويقول عن رسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]. ويقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورىٰ]. ومن خاطب غيره بما يريد منه خلاف ظاهره بدون بيان فإنه لم يبين له ولم يهده.

أم تريد بالظاهر ما فهمته من التمثيل؟ فهذا غير مراد لكنه ليس ظاهر نصوص الكتاب والسنة؛ لأن هذا الظاهر الذي فهمته كفر وباطل بالنص والإجماع، ولا يمكن أن يكون ظاهر كلام الله ورسوله كفرًا وباطلًا، ولا يرتضي ذلك أحد من المسلمين.

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها علىٰ أن نصوص الصفات تجري علىٰ ظاهرها اللائق بالله عَزَّوَجَلَّ من غير تحريف، وأن ظاهرها لا يقتضي تمثيل الخالق بالمخلوق.

فاتفقوا علىٰ: أن لله تعالىٰ حياة، وعلمًا، وقدرة، وسمعًا، وبصرًا، حقيقة، وأنه مستوٍ علىٰ عرشه حقيقة، وأنه يحب ويرضىٰ، ويكره ويغضب حقيقة، وأن له وجهًا ويدين حقيقة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]. وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [الأنعام]. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ۝١٢٠﴾ [المائدة]. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورىٰ]. وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩]. ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦]. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣] وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن]. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].

فأجروا هذه النصوص وغيرها من نصوص الصفات علىٰ ظاهرها وقالوا: إنه مراد علىٰ الوجه اللائق بالله تعالىٰ فلا تحريف ولا تمثيل.

وبيان ذلك: أن من صفاتنا ما هو معان وأعراض قائمة بنا كالحياة والعلم والقدرة،



ومنها ما هو أعيان وأجسام وهي أبعاض لنا كالوجه واليدين. ومن المعلوم أن الله وصف نفسه بأنه حي، عليم، قدير، ولم يقل المسلمون إن المفهوم من حياته وعلمه وقدرته كالمفهوم من حياتنا وعلمنا وقدرتنا، فكذلك لما وصف نفسه بأن له وجهًا ويدين لم يكن المفهوم من وجهه ويديه كالمفهوم من وجوهنا وأيدينا. وإنما قال المسلمون إن المفهوم من صفات الله في هذا وهذا لا يماثل المفهوم منها في صفاتنا، بل كل صفة تناسب الموصوف وتليق به، فلما كانت ذات الخالق لا تماثل ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته لا تماثل صفات المخلوقين.

وقد سبق أن القول في الصفات كالقول في الذات.

فتبين بذلك أن من قال: إن ظاهر نصوص الصفات غير مراد فقد أخطأ علىٰ كل تقدير، لأنه إن فهم من ظاهرها معنىٰ فاسدًا وهو التمثيل، فقد أخطأ في فهمه وأصاب في قوله «غير مراد»، وإن فهم من ظاهرها معنىٰ صحيحًا وهو المعنىٰ اللائق بالله، فقد أصاب في فهمه وأخطأ في قوله «غير مراد» فهو إن أصاب في معنىٰ ظاهرها أخطأ في نفي كونه مرادًا، وإن أخطأ في معنىٰ ظاهرها أصاب في نفي كونه مرادًا، فيكون قوله خطأ علىٰ كل تقدير.

والصواب الذي لا خطأ فيه: أن ظاهرها مراد، وأنه ليس إلا معنىٰ يليق بالله.



فصلٌ

والذين يجعلون ظاهر النصوص معنىٰ فاسدًا فينكرونه يكون خطؤهم علىٰ وجهين:

الأول: أن يفسروا النص بمعنىٰ فاسد لا يدل عليه اللفظ فينكرونه لذلك، ويقولون: إن ظاهره غير مراد.

مثال ذلك: قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «**يَا ابْنَ آدَمَ! مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، يَا ابْنَ آدَمَ! اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، يَا ابْنَ آدَمَ! اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي ...**». الحديث رواه مسلم.

قالوا: فظاهر الحديث أن الله يمرض، ويجوع، ويعطش، وهذا معنىٰ فاسد فيكون غير مراد.

فنقول: لو أعطيتم النص حقه لتبين لكم أن هذا المعنىٰ الفاسد ليس ظاهر اللفظ، لأن سياق الحديث يمنع ذلك فقد جاء مفسرًا بقول الله تعالىٰ في الحديث نفسه: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ**



عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّه اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ وَاسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ؟». وهذا صريح في أن الله سبحانه لم يمرض، ولم يجع، ولم يعطش، وإنما حصل المرض والجوع والعطش من عبد من عباده.

ومثال آخر: قوله تعالىٰ عن سفينة نوح: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤].

قالوا: فظاهر الآية أن السفينة تجري في عين الله، وهذا معنىٰ فاسد فيكون غير مراد.

فنقول: دعواكم أن ظاهر الآية أن السفينة تجري في عين الله سبحانه مردودة من جهة التركيب اللفظي ومن جهة المعنىٰ أيضًا:

أما التركيب اللفظي: فإنه إذا قال القائل: فلان يسير بعيني لم يفهم أحد من هذا التركيب أنه يسير داخل عينيه، ولو أدعىٰ مدع أن هذا ظاهر لفظه لضحك منه السفهاء فضلًا عن العقلاء، وإنما يفهم منه أن عينيه تصحبه بالنظر والرعاية، لأن الباء هنا للمصاحبة وليست للظرفية.

وأما المعنىٰ: فإن من المعلوم أن نوحًا عليه الصلاة والسلام كان في الأرض، وأنه صنع السفينة في الأرض، وجرت علىٰ الماء في الأرض كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود:٣٨]. وقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾ [القمر].

ولا يمكن لأحد أن يدعي أن ظاهر اللفظ أن السفينة تجري في عين الله عَزَّوَجَلَّ، لأن ذلك ممتنع غاية الامتناع في حق الله تعالىٰ، ولا يمكن لمن عرف الله وقدره حق قدره، وعلم أنه مستو علىٰ عرشه، بائن من خلقه، ليس حالًا في شيء من مخلوقاته، ولا شيء من مخلوقاته حالًا فيه أن يفهم من هذا اللفظ هذا المعنىٰ الفاسد.

وعلىٰ هذا؛ فمعنىٰ الآية الذي هو ظاهر اللفظ أن السفينة تجري والله تعالىٰ يكلؤها بعينه.

ومثال ثالث: في الأثر: «**الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ صَافَحَهُ وَقَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ**».



قالوا: فظاهر الأثر أن الحجر نفسه يمين الله في الأرض، وهذا معنىٰ فاسد فيكون غير مراد.

فنقول: أولًا: هذا الأثر روي عن النبي ﷺ بإسناد لا يثبت والمشهور أنه عن ابن عباس.

قلت: قال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح». وقال ابن العربي: «حديث باطل فلا يلتفت إليه» أهـ.

ثانيًا: أنه علىٰ تقدير صحته صريح في أن الحجر الأسود ليس نفس يمين الله لأنه قال: «يمين الله في الأرض» فقيده في الأرض ولم يطلق، وحكم اللفظ المقيد يخالف المطلق، ومعلوم أن الله تعالىٰ في السماء، ولأنه قال: «فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه» ومعلوم أن المشبه غير المشبه به.

فالأثر ظاهر في أن مستلم الحجر ليس مصافحًا لله، وليس الحجر نفس يمين الله، فكيف يجعل ظاهره كفرًا يحتاج إلىٰ تأويل؟

الوجه الثاني: أن يفسروا اللفظ بمعنىٰ صحيح موافق لظاهره، لكن يردونه لاعتقادهم أنه باطل وليس بباطل.

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه].

قالوا: فظاهر الآية أن الله علا علىٰ العرش، والعرش محدود فيلزم أن يكون الله سبحانه محدودًا، وهذا معنىٰ فاسد فيكون غير مراد.

فنقول: إن علو الله تعالىٰ علىٰ عرشه – وإن كان العرش محدودًا – لا يستلزم معنىٰ فاسدًا، فإن الله تعالىٰ قد علا علىٰ عرشه علوًّا يليق بجلاله وعظمته، ولا يماثل علو المخلوق علىٰ المخلوق، ولا يلزم منه أن يكون الله محدودًا، وهو علو يختص بالعرش، والعرش أعلىٰ المخلوقات فيكون الله

تعالىٰ عاليًا علىٰ كل شيء وهذا من كماله وكمال صفاته، فكيف يكون معنىٰ فاسدًا غير مراد؟

مثال آخر: قوله تعالىٰ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة:٦٤].

قالوا: فظاهر الآية أن الله تعالىٰ يدين حقيقتين وهما جارحة، وهذا معنىٰ فاسد فيكون غير مراد.



فنقول: إن ثبوت اليدين الحقيقيتين لله عَزَّوَجَلَّ لا يستلزم معنىٰ فاسدًا، فإن لله تعالىٰ يدين حقيقيتين تلقيان بجلاله وعظمته، وبهما يأخذ ويقبض، ولا تماثلان أيدي المخلوقين، وهذا من كماله وكمال صفاته.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٧].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ -وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ- إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ -وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً-، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّىٰ تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ**».

فأي معنىٰ فاسد يلزم من ظاهر النص حتىٰ يقال إنه غير مراد؟

وقد يجتمع الخطأ من الوجهين: في مثال واحد مثل قوله ﷺ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**».

فقالوا علىٰ الوجه الأول: ظاهر الحديث أن قلوب بني آدم بين أصابع الرحمن فيلزم منه المباشرة والمماسة، وأن تكون أصابع الله سبحانه داخل أجوافنا، وهذا معنىٰ فاسد فيكون غير مراد.

وقالوا علىٰ الوجه الثاني: ظاهر الحديث أن لله أصابع حقيقية والأصابع جوارح، وهذا معنىٰ فاسد فيكون غير مراد.

فنقول علىٰ الوجه الأول: إن كون قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن حقيقة لا يلزم منه المباشرة والمماسة، ولا أن تكون أصابع الله عَزَّوَجَلَّ داخل أجوافنا.

ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]؛ فإن السحاب لا يباشر السماء ولا الأرض ولا يماسهما.

ويقال: سترة المصلي بين يديه وليست مباشرة له ولا مماسة له.

فإذا كانت البينية لا تستلزم المباشرة والمماسة فيما بين المخلوقات فكيف بالبينية فيما بين المخلوق والخالق الذي وسع كرسيه السَّمٰوات والأرض وهو بكل شيء محيط؟

وقد دل السمع والعقل علىٰ أن الله تعالىٰ بائن من خلقه، ولا يحل في شيء من خلقه، ولا يحل فيه شيء من خلقه، وأجمع السلف علىٰ ذلك.



ونقول على الوجه الثاني: إن ثبوت الأصابع الحقيقية لله تعالىٰ لا يستلزم معنىٰ فاسدًا، وحينئذ يكون مرادًا قطعًا، فإن لله تعالىٰ أصابع حقيقية تليق بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا تماثل أصابع المخلوقين.

وفي صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء حبر من الأحبار إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السَّمٰوات علىٰ إصبع والأرضين علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، والماء والثرىٰ علىٰ إصبع، وسائر الخلائق علىٰ إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتىٰ بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر]. هذا لفظ البخاري في تفسير سورة الزمر.

فأي معنىٰ فاسد يلزم من ظاهر النص حتىٰ يقال إنه غير مراد؟

ويشبه هذا الخطأ أن يجعل اللفظ نظيرًا لما ليس مثله:

كما قيل في قوله تعالىٰ: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]. إنه مثل قوله تعالىٰ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ [يس:٧١]. فيكون المراد باليد نفس الفاعل في الآيتين.

وهذا غلط؛ فإن الفرق بينهما ثابت من وجوه ثلاثة:

الأول: من حيث الصيغة، فإن الله قال في الآية الأولىٰ: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] وهي تخالف الصيغة في الآية الثانية، فإن الله قال فيها: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ [يس: ٧١] ولو كانت الأولىٰ نظيرة للثانية لكان لفظها: «لما خلقت يداي» فيضاف الخلق إليهما، كما أضيف العمل إليهما في الثانية.

الثاني: أن الله تعالىٰ أضاف في الآية الفعل إلىٰ نفسه معدىٰ بالباء إلىٰ اليدين، فكان سبحانه هو الخالق وكان خلقه بيديه. ألا ترىٰ إلىٰ قول القائل: كتبت بالقلم؟ فإن الكاتب هو فاعل الكتابة، ومدخول الباء – وهو القلم – حصلت به الكتابة.

وأما الآية الثانية: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ [يس: ٧١] فأضاف الفعل فيها إلىٰ الأيدي المضافة إليه، وإضافة الفعل إلىٰ الأيدي كإضافته إلىٰ النفس فكأنه قال: مما عملنا. ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ:٣٠].



والمراد بما كسبتم؛ بدليل قوله في آية أخرىٰ: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ﴾ [الزمر:٥١].

الوجه الثالث: أن الله تعالىٰ أضاف الفعل في الآية الأولىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّۖ﴾ [ص: ٧٥] معدّىٰ بالباء إلىٰ يدين اثنتين، ولا يمكن أن يراد بهما نفسه لدلالة التثنية علىٰ عدد محصور باثنين، والرب جل وعلا إله واحد، فلا يمكن أن يذكر نفسه بصيغة التثنية لدلالة ذلك علىٰ صريح العدد وحصره، ولكنه تعالىٰ يذكر نفسه تارة بصيغة الإفراد للتوحيد، وتارة يذكر نفسه بصيغة الجمع للتعظيم، وربما يدل الجمع علىٰ معاني أسمائه.

أما في الآية الثانية فأضاف الفعل إلىٰ الأيدي المضافة إليه مجموعة للتعظيم، فصار المراد بها نفسه المقدسة جل وعلا.

وبهذا تبين الفرق بين قوله ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّۖ﴾ [ص: ٧٥]. وقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١]، وأنها ليست نظيرًا لها. وتبين أيضًا أن ظاهر النصوص في الصفات حق ثابت مراد لله تعالىٰ علىٰ الوجه اللائق به، وأنه لا يستلزم نقصًا في حقه ولا تمثيلًا له بخلقه.

لكن؛ لو كنا نخاطب شخصًا لا يفهم من ظاهرها إلا ما يقتضي التمثيل فإننا نقول له: إن هذا الظاهر الذي فهمته غير مراد، ثم نبين له أن هذا ليس ظاهر النصوص؛ لأنه باطل لا يقتضيه السياق كما سبق بيانه.

القاعدة الرابعة: توهم بعض الناس في نصوص الصفات والمحاذير المترتبة علىٰ ذلك:

اعلم أن كثيرًا من الناس يتوهم في بعض الصفات التي دلت عليها النصوص - أو كثير منها، أو أكثرها، أو كلها - أنها تماثل صفات المخلوقين، ثم

يريد أن ينفي ذلك الوهم الذي توهمه؛ فيقع في أربعة محاذير:

الأول: أنه فهم من النصوص صفات تماثل صفات المخلوقين، وظن أن ذلك هو مدلول النص، وهذا فهم خاطئ؛ فإن الصفة التي دلت عليها النصوص تناسب موصوفها وتليق به.

وتمثيل الخالق بالمخلوق كفر وضلال؛ لأنه تكذيب لقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورىٰ:١١].

ولا يمكن أن يكون ظاهر النصوص الكفر والضلال؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:٢٦]. وقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن



تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء:١٧٦].

الثاني: أنه جنىٰ علىٰ النصوص؛ حيث نفىٰ ما تدل عليه من المعاني الإلهية، ثم أثبت لها معاني من عنده لا يدل عليها ظاهر اللفظ، فكان جانيًا علىٰ النصوص من وجهين.

الثالث: أنه نفىٰ ما دلت عليه النصوص من الصفات بغير علم فيكون بذلك قائلًا علىٰ الله ما لا يعلم، وهذا محرم بالنص والإجماع، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف].

الرابع: أنه إذا نفىٰ عن الله عَزَّوَجَلَّ ما تقتضيه النصوص من صفات الكمال لزم أن يكون الله سبحانه متصفًا بنقيضها من صفات النقص؛ وذلك لأنه ما من موجود إلا وهو متصف بصفة، ولا يمكن وجود ذات مجردة عن الصفات، فإذا انتفت صفة الكمال عنها، لزم اتصافها بصفات النقص.

وحينئذٍ؛ يكون من نفىٰ عن الله تعالىٰ ما تقتضيه النصوص من صفات الكمال متعديًا في حق الله تعالىٰ، حيث جمع بين نفي صفات الكمال عنه، وتمثيله بالمنقوصات والمعدومات، بل قد يرتقي به الغلو في النفي إلىٰ تمثيله بالممتنعات المستحيلات.

ويكون أيضًا جانيًا علىٰ النصوص حيث عطلها عما دلت عليه من صفات الكمال لله تعالىٰ، وأثبت لها معاني من عنده لا يدل عليها ظاهرها.

فيجمع بين النفي والتمثيل في صفات الله، وبين التحريف والتعطيل في نصوص الكتاب والسنة، ويكون ملحدًا في أسماء الله وآياته، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصلت].

مثال ذلك: أن الله تعالىٰ أخبر عن نفسه أنه استوىٰ علىٰ العرش فيتوهم واهم أنه كاستواء الإنسان علىٰ ظهور الفلك والأنعام، وأنه محتاج إلىٰ العرش كحاجة الإنسان للأنعام والفلك، فلو عثرت الدابة لخر المستوي عليها، ولو انخرقت السفينة لغرق المستوي عليها، فقياس هذا أنه لو عدم العرش لسقط الرب - علىٰ قياسه الفاسد - فينفي بذلك



حقيقة الاستواء.

ومنشأ هذا الوهم الذي توهمه في استواء الله علىٰ عرشه ظنه أنه مثل استواء الإنسان علىٰ ظهور الأنعام والفلك، وهذا ظن فاسد؛ لأن الله تعالىٰ أضاف الاستواء إلىٰ نفسه الكريمة، لم يذكر استواء مطلقًا يصلح للمخلوق، ولا عامًا يتناول المخلوق، فتعين أن يكون استواءً خاصًا يليق به؛ كسائر صفاته

وأفعاله لا يماثل استواء المخلوقين، كما أن الله نفسه لا يماثل المخلوقين.

ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]؟ هل يتوهم أحد أن بناءه إياها كبناء المخلوق سقف البيت، بحيث يحتاج إلىٰ زنبيل ومجارف وضرب لبن، وجبل طين ونحو ذلك، فإذا كان لا يحتاج إلىٰ ذلك في هذا الفعل من أفعاله، لزم ألا يكون محتاجًا إلىٰ العرش في استوائه عليه، بل هو سبحانه الغني عن العرش وغيره.

فتجد هذا نفي حقيقة الاستواء الذي هو ظاهر النصوص وقع في تلك المحاذير الأربعة:

فقد مثل ما فهمه من استواء الله علىٰ عرشه باستواء المخلوقين.

وعطل النصوص عما دلت عليه من صفة الاستواء اللائق بالله، ثم حرفها إلىٰ معان لا تدل عليها.

وكان نفيه لذلك وتعطيله بلا علم، بل عن جهل وظن فاسد.

ولزم من نفيه لصفة الكمال التي تضمنها الاستواء ثبوت صفة نقص بفوات هذا الكمال.

مثال آخر: قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [الملك]. فيتوهم واهم أن الله تعالىٰ داخل السماء، وأن السماء تحيط به كما لو قلنا: فلان في الحجرة فإن الحجرة محيطة به، فينفي بناء علىٰ هذا الوهم كون الله تعالىٰ في السماء ويقول: إن الذي في السماء ملكه وسلطانه ... ونحو ذلك.

ومنشأ هذا الوهم ظنه أن «في» التي للظرفية تكون بمعنىٰ واحد في جميع مواردها، وهذا ظن فاسد؛ فإن «في» يختلق معناه بحسب متعلقها؛ فإنه يفرق بين كون الشيء في المكان، وكون العرض في الجسم، وكون الوجه في المرآة، وكون الكلام في الورق المكتوب فيه، فلو قيل: هل العرش في السماء أو في الأرض؟ لقيل: في السماء؛ مع أن العرش أكبر من السماء كثيرًا.



وعلىٰ هذا فيخرج قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ علىٰ أحد وجهين:

إما أن تكون السماء بمعنىٰ العلو، فإن السماء يراد بها العلو كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النمل:٦٠]. والمطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض لا من السماء نفسها، فيكون معنىٰ كونه تعالىٰ في السماء أنه في العلو المطلق فوق جميع المخلوقات، وليس هناك ظرف وجودي يحيط به إذ ليس فوق العالم شيء سوىٰ الله تعالىٰ.

وإما أن تكون «في» بمعنىٰ «علىٰ» كما جاءت بمعناها في مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٣٧]؛ أي علىٰ الأرض، وقوله عن فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي علىٰ جذوع النخل، وعلىٰ هذا فيكون معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]؛ أي علىٰ السماء أي فوقه، والله تعالىٰ فوق السَّمٰوات وفوق كل شيء.

فتجد هذا الذي نفىٰ أن يكون الله في السماء حقيقة وقع في المحاذير الأربعة:

فقد مثل ما فهمه من كون الله تعالىٰ في السماء يكون المخلوق في الحجرة ونحو ذلك.

وعطل النصوص عما دلت عليه من علو الله في السماء، ثم حرفها إلىٰ معان لا تدل عليها.

وكان نفيه وتعطيله بلا علم، بل عن جهل وظن فاسد.

ولزم من نفيه لصفة الكمال التي تضمنها كونه في السماء ثبوت صفة النقص؛ لأن نفيه لصفة العلو يستلزم أحد أمرين ولابد:

فإما أن يكون الله تعالىٰ في كل مكان بذاته! والقول بهذا في غاية الضلال والكفر، لأنه يستلزم إما تعدد الخالق، وإما تبعضه، ويستلزم كذلك: أن يكون في محلات القذر والأذىٰ التي يتنزه عنها كل ذي مروءة، فضلًا عن الخالق.

وإما أن يكون الله تعالىٰ لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق ولا تحت، ولا متصلًا ولا منفصلًا، ولا مباينًا ولا محايثًا ... ونحو ذلك من العبارات المتضمنة للتعطيل المحض، وحقيقة هذا نفي وجود الخالق جل وعلا.

القاعدة الخامسة: في علمنا بما أخبر الله تعالىٰ به عن نفسه:



ما أخبرنا الله به عن نفسه فهو معلوم لنا من جهة، ومجهول من جهة. معلوم لنا من جهة المعنىٰ، ومجهول لنا من جهة الكيفية.

أما كونه معلومًا لنا من جهة المعنىٰ فثابت بدلالة السمع؛ والعقل.

فمن أدلة السمع قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]. وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء]. وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد] وقوله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**».

فحث الله تعالىٰ علىٰ تدبر القرآن كله ولم يستثن شيئًا منه، ووبخ من لم يتدبره، وبين أن الحكمة من إنزاله أن يتدبره الذين أنزل إليهم ويتعظ به أصحاب العقول، ولولا أن له معنىٰ يعلم بالتدبر لكان الحث علىٰ تدبره من لغو القول، ولكان الاشتغال بتدبره من إضاعة الوقت، ولفاتت الحكمة من إنزاله، ولما حسن التوبيخ علىٰ تركه.

والحث علىٰ تدبر القرآن شامل لتدبر جميع آياته الخبرية العلمية والحكمية العملية، فكما أننا مأمورون بتدبر آيات الأحكام لفهم معناها والعمل بمقتضاها، إذ لا يمكن العمل بها بدون فهم معناها - فكذلك نحن مأمورون بتدبر آيات الأخبار لفهم معناها، واعتقاد مقتضاها، والثناء علىٰ الله تعالىٰ بها، إذ لا يمكن اعتقاد ما لم نفهمه، أو الثناء علىٰ الله تعالىٰ به-.

وأما دلالة العقل علىٰ فهم معاني ما أخبر الله تعالىٰ به عن نفسه فمن وجهين:

أحدهما: أن ما أخبر الله به عن نفسه أعلىٰ مراتب الإخبار وأغلىٰ مطالب الأخيار، فمن المحال أن يكون ما أخبر الله به عن نفسه مجهول المعنىٰ، وما أخبر به عن فرعون، وهامان، وقارون، وعن قوم نوح، وعاد، وثمود، والذين من بعدهم، معلوم المعنىٰ من أن ضرورة الخلق لفهم معنىٰ ما أخبر الله به عن نفسه أعظم وأشد.

الوجه الثاني: أنه من المحال أن ينزل الله تعالىٰ علىٰ عباده كتابًا يعرفهم به بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، ويصفه بأنه عليٍّ حكيم كريم عظيم مجيد مبين بلسان عربي ليعقل ويفهم ثم تكون كلماته في أعظم المطالب غير معلومة المعنىٰ، بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يعلمها الناس إلا أماني، ولا يخرجون بعلمها عن صفة الأمية كما قال



تعالىٰ: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨].

فإن قلت: ما الجواب عن قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: ٧]، فإن هذا يقتضي أن في القرآن آيات متشابهات لا يعلم تأويلهن إلا الله؟

قلنا: الجواب أن للسلف في الوقف في هذه الآية قولين:

أحدهما: الوقف عند قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ وهو قول جمهور السلف والخلف، وبناء عليه يكون المراد بالتأويل في قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٧] الحقيقة التي يؤول الكلام إليها، لا التفسير الذي هو بيان المعنىٰ. فتأويل آيات الصفات - علىٰ هذا - هو حقيقة تلك الصفات وكنهها، وهذا من الأمور الغيبية التي لا يدركها العقل ولم يرد بها السمع فلا يعلمها إلا الله.

الثاني: الوصل فلا يقفون علىٰ قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ وهو قول جماعة من السلف والخلف، وبناء عليه يكون المراد بالتأويل في قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧] التفسير الذي هو بيان المعنىٰ. وهذا معلوم للراسخين في العلم كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله». وقال مجاهد: «عرضت المصحف علىٰ ابن عباس من فاتحته إلىٰ خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عن تفسيرها؟».

وبهذا تبين أن الآية لا تدل علىٰ أن في القرآن شيئًا لا يعلم معناه إلا الله تعالىٰ، وإنما تدل علىٰ أن في القرآن شيئًا لا يعلم حقيقته وكنهه إلا الله علىٰ قراءة الوقف، وتدل علىٰ أن الراسخين في العلم يعلمون معنىٰ المتشابه الذي يخفىٰ علىٰ كثير من الناس علىٰ قراءة الوصل.

وعلىٰ هذا؛ فلا تعارض مع ما ذكرناه من أنه ليس في القرآن شيء لا يعلم معناه.



فصلٌ

وأما كون ما أخبرنا الله به عن نفسه مجهولًا لنا من جهة الكيفية فثابت بدلالة السمع



والعقل.

فأما دلالة السمع فمن وجهين:

الأول: قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ فإن نفي الإحاطة علمًا شامل للإحاطة بذاته وصفاته، فلا يعلم حقيقة ذاته وكنهها إلا هو سبحانه وتعالىٰ، وكذلك صفاته.

الثاني: أن الله أخبرنا عن ذاته وصفاته، ولم يخبرنا عن كيفيتها، وعقولنا لا تدرك ذلك، فتكون الكيفية مجهولة، لنا، لا يحل لنا أن نتكلم فيها أو نقدرها بأذهاننا لقوله تعلىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

وأما دلالة العقل علىٰ ذلك: فلأن الشيء لا تدرك كيفيته إلا بمشاهدته، أو بمشاهدة نظير المساوي له، أو الخبر الصادق عنه، وكل هذه الطرق منتفية في كيفية ذات الله تعالىٰ وصفاته، فتكون كيفية ذات الله وصفاته مجهولة لنا.

وأيضًا؛ فإننا نقول: ما هي الكيفية التي تقدرها لذات الله تعالىٰ وصفاته؟! إن أي كيفية تقدرها في ذهنك، أو تنطق بها بلسانك فالله أعظم وأجل من ذلك، وإن أي كيفية تقدرها في ذهنك، أو تنطق بها بلسانك فستكون كاذبًا فيها؛ لأنه ليس لك دليل عليها.



تتمَّةٌ

بهذا التقرير الذي تبين به أنه لا يمكن أن يكون في القرآن شيء لا يعلم معناه إلا الله — يتبين بطلان مذهب المفوضة الذين يفوضون علم معاني آيات الصفات، ويدعون أن هذا هو مذهب السلف، وقد ضلوا فيما ذهبوا إليه، وكذبوا فيما نسبوه إلىٰ السلف، فإن السلف إنما يفوضون علم الكيفية دون علم المعنىٰ، وقد تواتر القول عنهم بإثبات معاني هذه النصوص إجمالًا أحيانًا، وتفصيلًا أحيانًا، فمن الإجمال قوله: «أمروها كما جاءت بلا كيف» ومن التفصيل ما سبق عن مالك في الاستواء.



قال شيخ الإسلام ابن تيميه في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» المعروف باسم «العقل والنقل» ١/ ١٦ المطبوع علىٰ هامش منهاج السنة ١/ ٢٠١ تحقيق رشاد سالم: «وأما التفويض؛ فمن المعلوم أن الله أمرنا

بتدبر القرآن، وحضنا علىٰ عقله وفهمه، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله؟».

إلىٰ أن قال: «فعلىٰ قول هؤلاء يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص، ولا الملائكة، ولا السابقون الأولون، وحينئذ فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن أو كثير مما وصف الله به نفسه لا يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلامًا لا يعقلون معناه».

قال: «ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء إذ كان الله أنزل القرآن وأخبر أنه جعله هدىٰ وبيانًا للناس، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه وهو ما أخبر به الرب عن صفاته، أو عن كونه خالقًا لكل شيء وهو بكل شيء عليم، أو عن كونه أمر ونهىٰ، ووعد وتوعد، أو عما أخبر به عن اليوم الآخر لا يعلم أحد معناه فلا يعقل، ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بين الناس ما نزل إليهم، ولا بلغ البلاغ المبين.

وعلىٰ هذا التقدير؛ فيقول كل ملحد ومبتدع: الحق في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي، وليس في النصوص ما يناقض ذلك، لأن تلك النصوص مشكلة متشابهة، ولا يعلم أحد معناها، وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يستدل به.

فيبقىٰ هذا الكلام سدًّا لباب الهدىٰ والبيان من جهة الأنبياء، وفتحًا لباب من يعارضهم ويقول: إن الهدىٰ والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء؛ لأنا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالأدلة العقلية، والأنبياء لم يعلموا ما يقولون، فضلًا عن أن يبينوا مرادهم، فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد». أهـ كلامه رحمه الله.



فصلٌ: في التأويل



التأويل لغة: ترجيع الشيء إلىٰ الغاية المرادة منه، من «الأول» وهو الرجوع.

وفي الاصطلاح: رد الكلام إلىٰ الغاية المرادة منه بشرح معناه أو حصول مقتضاه.

ويطلق علىٰ ثلاثة معان:

الأول: التفسير: وهو توضيح الكلام بذكر معناه المراد به، ومنه قوله تعالىٰ عن صاحبي السجن يخاطبان يوسف: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ [يوسف:٣٦]. وقول النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» وسبق قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله». ومنه قول ابن جرير وغيره من المفسرين «تأويل قوله تعالىٰ» أي: تفسيره.

والتأويل بهذا المعنىٰ معلوم لأهل العلم.

المعنىٰ الثاني: مآل الكلام إلىٰ حقيقته، فإن كان خبرًا فتأويله نفس حقيقة المخبر عنه - وذلك في حق الله كنه ذاته وصفاته التي لا يعلمها غيره - وإن كان طلبًا فتأويله امتثال المطلوب.

مثال الخبر: قوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ [الأعراف:٥٣]. أي ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا وقوع حقيقة ما أخبروا به من البعث والجزاء، ومنه قوله تعالىٰ عن يوسف: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف:١٠٠].

ومثال الطلب: قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يتأول القرآن؛ أي: يمتثل ما أمره الله به في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر].

وتقول: فلان لا يتعامل بالربا يتأول قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة:٢٧٥].

والتأويل بهذا المعنىٰ مجهول حتىٰ يقع فيدرك واقعًا.

فأما قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]. فيحتمل أن يكون المراد بالتأويل فيها التفسير، ويحتمل أن يكون المراد به مآل الكلام إلىٰ حقيقته بناء علىٰ الوقف فيها والوصل.



فعلىٰ قراءة الوقف عند قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾؛ يتعين أن يكون المراد به مآل الكلام إلىٰ حقيقته؛ لأن حقائق ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وعلىٰ قراءة الوصل يتعين أن يكون المراد به التفسير، لأن تفسيره معلوم للراسخين في العلم فلا يختص علمه بالله تعالىٰ.

فنحن نعلم معنىٰ الاستواء أنه العلو والاستقرار، وهذا هو التأويل المعلوم لنا، لكننا نجهل كيفيته وحقيقته التي هو عليها، وهذا هو التأويل المجهول لنا.

وكذلك نعلم معاني ما أخبرنا الله به من أسمائه وصفاته، ونميز الفرق بين هذه المعاني فنعلم معنىٰ الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر ونحو ذلك

ونعلم أن الحياة ليس هي العلم، وأن العلم ليس هو القدرة، وأن القدرة ليس هي السمع، وأن السمع ليس هو البصر ... وهكذا بقية الصفات والأسماء، لكننا نجهل حقائق هذه المعاني وكنهها الذي هي عليه بالنسبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا المعنيان للتأويل هما المعنيان المعروفان في الكتاب والسنة وكلام السلف.

المعنىٰ الثالث للتأويل: صرف اللفظ عن المعنىٰ الراجح إلىٰ المعنىٰ المرجوح لدليل يقتضيه.

وإن شئت فقل: صرف اللفظ عن ظاهره إلىٰ معنىٰ يخالف الظاهر لدليل يقتضيه.

وهذا اصطلاح كثير من المتأخرين الذين تكلموا في الفقه وأصوله، وهو الذي عناه أكثر من تكلم من المتأخرين في تأويل نصوص الصفات وهل هو محمود أو مذموم؟ وهل هو حق أو باطل؟

والتحقيق: أنه إن دل عليه دليل صحيح فهو حق محمود يعمل به ويكون من المعنىٰ الأول للتأويل وهو التفسير؛ لأن تفسير الكلام تأويله إلىٰ ما أراده المتكلم به سواء كان علىٰ ظاهره، أم علىٰ خلاف ظاهره ما دمنا نعلم أنه مراد المتكلم.

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل:١]. فإن الله تعالىٰ يخوف عباده بإتيان أمره المستقبل، وليس يخبرهم بأمر أتىٰ وانقضىٰ بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾



[النحل]؛ فإن ظاهر اللفظ إذا فرغت من القراءة، والمراد إذا أردت أن تقرأ؛ لأن النبي ﷺ كان يستعيذ إذا أراد أن يقرأ لا إذا فرغ من القراءة.

وإن لم يدل عليه دليل صحيح كان باطلًا مذمومًا، وجديرًا بأن يسمىٰ تحريفًا لا تأويلًا.

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]. فإن ظاهره أن الله تعالىٰ علا علىٰ العرش علوًا خاصًا يليق بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو المراد، فتأويله إلىٰ أن معناه «استولىٰ» و«ملك» تأويل باطل مذموم، وتحريف للكلم عن مواضعه؛ لأنه ليس عليه دليل صحيح.



فصلٌ

اعلم أن الله تعالىٰ وصف القرآن بأنه محكم، وبأنه متشابه، وبأن بعضه محكم وبعضه متشابه.

فالأول كقوله تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ [لقمان].

والثاني كقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣].

والثالث كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ [آل عمران: ٧].

فالإحكام الذي وصف به جميع القرآن هو: الإتقان والجودة في اللفظ والمعنىٰ، فألفاظ القرآن كله في أكمل البيان والفصاحة والبلاغة، ومعانيه أكمل المعاني وأجلها وأنفعها للخلق حيث تتضمن كمال الصدق في الأخبار، وكمال الرشد والعدل في الأحكام، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقًا وَعَدۡلًاۚ﴾ [الأنعام:١١٥].

والتشابه الذي وصف به جميع القرآن هو: تشابه القرآن في الكمال والإتقان والائتلاف، فلا يناقض بعضه بعضًا في الأحكام، ولا يكذب بعضه بعضًا في الأخبار كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء].

والإحكام الذي وصف به بعض القرآن هو: الوضوح والظهور بحيث يكون معناه واضحًا بينًا لا يشتبه علىٰ أحد، وهذا كثير في الأخبار والأحكام.



مثاله في الأخبار قوله تعالىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]. فكل أحد يعرف شهر رمضان، وكل أحد يعرف القرآن.

ومثاله في الأحكام قوله تعالىٰ: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء:٢٣]. فكل أحد يعرف والديه، وكل أحد يعرف الإحسان.

وأما التشابه الذي وصف به بعض القرآن فهو: الاشتباه أي خفاء المعنىٰ بحيث يشتبه علىٰ بعض الناس دون غيرهم، فيعلمه الراسخون في العلم دون غيرهم.

موقفنا من اختلاف هذه الأوصاف وكيفية الجمع بينها:

موقفنا من اختلاف هذه الأوصاف وكيف نجمع بينها أن نقول: إن وصف القرآن جميعه بالإحكام، ووصفه جميعه بالتشابه لا يتعارضان والجمع بينهما: أن الكلام المحكم المتقن يشبه بعضه بعضًا في الكمال والصدق، فلا يتناقض في أحكامه، ولا يتكاذب في أخباره.

وأما وصف القرآن بأن بعضه محكم وبعضه متشابه فلا تعارض بينهما أصلًا؛ لأن كل وصف وارد علىٰ محل لم يرد عليه الآخر، فبعض القرآن محكم ظاهر المعنىٰ، وبعضه متشابه خفي المعنىٰ، وقد انقسم الناس في ذلك إلىٰ قسمين:

فالراسخون في العلم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، وإذا كان من عنده فلن يكون فيه اشتباه يستلزم ضلالًا أو تناقضًا، ويردون المتشابه إلىٰ المحكم فصار مآل المتشابه إلىٰ الإحكام.

وأما أهل الضلال والزيغ فاتبعوا المتشابه وجعلوه مثارًا للشك والتشكيك فضلوا وأضلوا، وتوهموا بهذا المتشابه ما لا يليق بالله عَزَّوَجَلَّ ولا بكتابه ولا برسوله.

مثال الأول: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [يس:١٢]. وقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] ... ونحوهما مما أضاف الله فيه الشيء إلىٰ نفسه بصيغة الجمع.

فاتبع النصراني هذا المتشابه وادعىٰ تعدد الآلهة وقال: إن الله ثالث ثلاثة، وترك المحكم الدال علىٰ أن الله واحد.

وأما الراسخون في العلم: فيحملون الجمع علىٰ التعظيم لتعدد صفات الله وعظمها، ويردون هذا المتشابه إلىٰ المحكم في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾



[البقرة:١٦٣] ويقولون للنصراني: إن الدعوىٰ التي ادعيت – بما وقع لك من الاشتباه – قد كفرك الله بها وكذبك فيها فاستمع إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ [المائدة: ٧٣]؛ أي كفروا بقولهم إن الله ثالث ثلاثة.

ومثال الثاني: قوله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص:٥٦]. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورىٰ].

ففي الآيتين موهم تعارض فيتبعه من في قلبه زيغ ويظن بينهما تناقضًا وهو النفي في الأولىٰ، والإثبات في الثانية. فيقول: في القرآن تناقض.

وأما الراسخون في العلم؛ فيقولون: لا تناقض في الآيتين فالمراد بالهداية في الآية الأولىٰ هداية التوفيق، وهذه لا يملكها إلا الله وحده فلا يملكها الرسول ولا غيره. والمراد بها في الآية الثانية هداية الدلالة، وهذه تكون من الله تعالىٰ ومن غيره فتكون من الرسل وورثتهم من العلماء الربانيين.

ومثال الثالث: قوله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٩٤﴾ [يونس].

ففي الآية ما يوهم وقوع الشك من النبي ﷺ مما أنزل إليه فيتبعه من في قلبه زيغ فيدعي أن النبي ﷺ وقع منه ذلك فيطعن في رسول الله ﷺ.

وأما الراسخون في العلم؛ فيقولون: إن النبي ﷺ لم يقع منه شك ولا امتراء فيما أنزل إليه، كيف وقد شهد الله له بالإيمان في قوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٨٥]. وقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥٨﴾ [لأعراف]؟

ويقولون: إن مثل هذا التعبير - ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ﴾ [يونس: ٩٤] – لا يلزم منه وقوع الشرط، بل ولا إمكانه كقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ۝٨١﴾ [الزخرف: ٨١]؛ فإن وجود الولد لله عَزَّوَجَلَّ ممتنع غاية الامتناع كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم]. فكذلك الشك والامتراء من رسول الله ﷺ فيما أنزل



إليه ممتنع غاية الامتناع، ولكن جاءت العبارة بهذه الصيغة الشرطية لتأكيد امتناع الشك والامتراء من رسول الله ﷺ فيما أنزل إليه من الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قلت: ما الحكمة من كون بعض القرآن متشابهًا؟

فالجواب: أن الحكمة من ذلك ابتلاء العباد واختبارهم ليتبين الصادق في إيمانه من الشاك الجاهل الزائغ، فالصادق في إيمانه الراسخ في عمله الذي يؤمن بالله وكلماته، ويعلم أن كلام الله عَزَّوَجَلَّ ليس فيه تناقض، ولا اختلاف فيرد ما تشابه منه إلىٰ ما كان محكمًا، ليصير كله محكمًا. وأما من الشاك الجاهل الزائغ الذي يتبع ما تشابه منه، ليضرب كتاب الله تعالىٰ بعضه ببعض، فيضل ويضل، ويكون إمامًا في الضلال والشقاء فيفتن الناس في دينهم، ويوقعهم في الشك والحيرة، ويفتن بعضهم ببعض ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران] .



تتمَّةٌ

التشابه الواقع في القرآن نوعان: حقيقي ونسبي:

- **فالحقيقي**: ما لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ مثل: حقيقة ما أخبر الله به عن نفسه، وعن اليوم الآخر فإنا – وإن كنا نعلم معاني تلك الأخبار – لا نعلم

حقائقها وكنهها كما قال الله تعالىٰ عن نفسه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]. وقال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ﴾ [الأنعام:١٠٣]. وقال عما في اليوم الآخر: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة:]. وفي الحديث القدسي الثابت في الصحيحين عن النبي ﷺ أن الله قال: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**».

فما أخبر الله به عن نفسه، وعن اليوم الآخر فيه ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا، كما أخبر عن نفسه أنه حي، عليم، قدير، سميع، بصير ... ونحو ذلك.



ونحن نعلم أن ما دلت عليه هذه الأسماء من الصفات ليس مماثلًا في الحقيقة لما للمخلوق منها، فحقيقتها لا يعلم معناها إلا الله.

كما نعلم أن في الجنة لحمًا، ولبنًا، وعسلًا، وماء، وخمرًا ... ونحو ذلك، ولكن ليس حقيقة ذلك من جنب ما في الدنيا، وحينئذ لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالىٰ.

والإخبار عن الغائب لا يفهم إن لم يعبر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في الشاهد، ويعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد، مع العلم بالفارق المميز، وأن ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم في الشاهد.

وهذا النوع الذي لا يعلمه إلا الله لا يسأل عنه لتعذر الوصول إليه.

وأما النسبي؛ فهو ما يكون مشتبهًا علىٰ بعض الناس دون بعض، فيعلم منه الراسخون في العلم والإيمان ما يخفىٰ علىٰ غيرهم، إما لنقص في علمهم أو تقصير في طلبهم، أو قصور في فهمهم، أو سوء في قصدهم.

وهذا النوع يسأل عن بيانه، لأنه يمكن الوصول إليه، إذ ليس في القرآن شيء لا يتبين معناه لأحد من الناس، كيف وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء]. وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

ولهذا النوع أمثلة كثيرة في المسائل العلمية الخبرية، والمسائل العملية الحكمية، وغالب المسائل التي اختلف الناس فيها أوكلها من هذا النوع.

فمن أمثلة ذلك في المسائل العلمية الخبرية: قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١]. حيث اشتبه علىٰ النفاة أهل التعطيل ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالىٰ، ظنًّا منهم أن إثباتها يستلزم مماثلة الله تعالىٰ للمخلوقين؛ فنفوا عن الله تعالىٰ ما وصف به نفسه أو بعضه، وأعرضوا عن الأدلة السمعية والعقلية الدالة علىٰ ثبوت صفات الكمال لله عَزَّوَجَلَّ، وغفلوا عن كون الاشتراك في أصل المعنىٰ لا يستلزم المماثلة في الحقيقة.



ثم لو أمعنوا في النظر في هذا المنفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١] لتبين لهم أنه يدل علىٰ ثبوت الصفات لا علىٰ انتفائها، لأن نفي المماثلة يدل علىٰ ثبوت أصل المعنىٰ، لكن لكماله تعالىٰ لا يماثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولولا ثبوت أصل الصفة لم يكن لنفي المثل فائدة.

ومن أمثلة ذلك في المسائل العملية الحكمية قوله ﷺ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**».

حيث اشتبه علىٰ بعض الناس ففهموا منه أنه شامل للكمية والكيفية، وبنوا علىٰ ذلك أنه لا تجوز الزيادة في صلاة الليل علىٰ العدد الذي كان النبي ﷺ يقوم به، فلا يزاد في التراويح في رمضان علىٰ إحدىٰ عشرة، أو ثلاثة عشرة ركعة.

ولكن من تأمل الحديث وجده دالًّا علىٰ الكيفية فقط دون الكمية، إلا أن تكون الكمية في ضمن الكيفية كعدد الصلاة الواحدة.

ويدل لذلك ما ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا سأل النبي ﷺ وهو علىٰ المنبر: ما ترىٰ في صلاة الليل؟ قال: «**مَثْنَىٰ مَثْنَىٰ، فَإِذَا خَشِيَ الصُّبْحَ صَلَّىٰ وَاحِدَةً فَأَوْتَرَتْ لَهُ مَا صَلَّىٰ**». وفي رواية: أن السائل قال: كيف صلاة الليل؟ ولو كان عدد قيام الليل محصورًا لبينه النبي ﷺ لهذا السائل، ولهذا كان الراجح أن يقتصر في قيام الليل علىٰ إحدىٰ عشرة أو ثلاثة عشرة وإن زاد علىٰ ذلك فلا بأس.

وأمثلة ذلك كثيرة، تعلم من كتب الفقه المعنية بذكر الخلاف والترجيح بين الأقوال والله المستعان.

القاعدة السادسة: في ضابط ما يجوز لله ويمتنع عنه نفيًا وإثباتًا: صفات الله تعالىٰ دائرة بين النفي والإثبات – كما سبق – فلابد من ضابط لهذا وذاك.

فالضابط في النفي أن ينفىٰ عن الله تعالىٰ:

أولًا: كل صفة عيب كالعمىٰ والصمم والخرس والنوم والموت ... ونحو ذلك.

ثانيًا: كل نقص في كماله كنقص حياته أو علمه أو قدرته أو عزته أو حكمته ... أو نحو ذلك.

ثالثًا: مماثلته للمخلوقين كأن يجعل علمه كعلم المخلوق، أو وجهه كوجه المخلوق، أو استواؤه علىٰ عرشه كاستواء المخلوق ... ونحو ذلك.



فمن أدلة انتفاء الأول عنه: قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]. فإن ثبوت المثل الأعلىٰ له – وهو الوصف الأعلىٰ – يستلزم انتفاء كل صفة عيب.

ومن أدلة انتفاء الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [قٓ:٣٨].

ومن أدلة انتفاء الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١].

وبهذا علم أنه لا يصح الاعتماد في ضابط النفي علىٰ مجرد نفي التشبيه وذلك لوجهين:

الأول: أنه إن أريد بالنفي نفي التشابه المطلق أي: نفي التساوي من كل وجه بين الخالق والمخلوق فإن هذا لغو من القول إذ لم يقل أحد بتساوي الخالق والمخلوق من كل وجه، بحيث يثبت لأحدهما من الجائز والممتنع والواجب ما يثبت للآخر، ولا يمكن أن يقوله عاقل يتصور ما يقول، فإنه مما يعلم بضرورة العقل وبداهة الحس انتفاؤه، وإذا كان كذلك لم يكن لنفيه فائدة.

وإن أريد بالنفي مطلق التشابه أي: نفي التشابه من بعض الوجوه فهذا النفي لا يصح إذ ما من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك يشتركان فيه، وقدر مختص يتميز به كل واحد عن الآخر، فيشتبهان من وجه، ويفترقان من وجه.

فالحياة – مثلًا – وصف مشترك بين الخالق والمخلوق، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]. وقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم:١٩]. لكن حياة الخالق تختص به فهي حياة كاملة من جميع الوجوه لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، بخلاف حياة المخلوق فإنها حياة ناقصة مسبوقة بعدم متلوة بفناء قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن].

فالقدر المشترك – وهو مطلق الحياة – كلي لا يختص بأحدهما دون الآخر، لكن ما يختص به كل واحد ويتميز به لم يقع فيه اشتراك، وحينئذ لا محذور من الاشتراك في هذا المعنىٰ الكلي، وإنما المحذور أن يجعل أحدهما مشاركًا للآخر فيما يختص به.

ثم إن إرادة ذلك – أعني: نفي مطلق التشابه – تستلزم التعطيل المحض، لأنه إذا نفي عن الله تعالىٰ صفة الوجود مثلًا – بحجة أن للمخلوق صفة وجود فإثباتها للخالق يستلزم



التشبيه علىٰ هذا التقدير – لزم علىٰ نفيه أن يكون الخالق معدومًا، ثم يلزمه علىٰ هذا اللازم الفاسد أن يقع في تشبيه آخر وهو تشبيه الخالق بالمعدوم لاشتراكهما في صفة العدم فيلزمه – علىٰ قاعدته – تشبيه بالمعدوم. فإن نفىٰ عنه الوجود والعدم وقع في تشبيه ثالث أشد وهو تشبيه بالممتنعات؛ لأن الوجود والعدم نقيضان يمتنع انتفاؤهما كما يمتنع اجتماعهما.

فإن قال قائل: إن الشيء إذا شارك غيره من وجه جاز عليه من ذلك الوجه ما يجوز علىٰ الآخر، وامتنع عليه ما يمتنع، ووجب له ما يجب؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: المنع، فيقال لا يلزم من اشتراك الخالق والمخلوق في أصل الصفة أن يتماثلا فيه فيما يجوز ويمتنع ويجب، لأن مطلق المشاركة لا يستلزم المماثلة.

الثاني: التسليم، فيقال هب أن الأمر كذلك، ولكن إذا كان ذلك القدر المشترك لا يستلزم إثبات ما يمتنع علىٰ الرب سبحانه، ولا نفي ما يستحقه لم يكن ممتنعًا، فإذا اشتركا في صفة الوجود، والحياة، والعلم، والقدرة، واختص كل موصوف بما يستحقه ويليق به كان اشتراكهما في ذلك أمرًا ممكنًا لا محذور فيه أصلًا، بل إثبات هذا من لوازم الوجود، فإن كل موجودين لابد بينهما من مثل هذا، ومن نفاه لزمه تعطيل وجود كل موجود، لأن نفي القدر المشترك يلزم منه التعطيل العام.

وهذا الموضع من فهمه فهمًا جيدًا وتدبره زالت عنه عامة الشبهات وانكشف له غلط كثير من الأذكياء في هذا المقام.



فصلٌ

الوجه الثاني: مما يدل علىٰ أنه لا يصح الاعتماد في ضابط النفي علىٰ مجرد نفي التشبيه: أن الناس اختلفوا في تفسير التشبيه فقد يفسره بعضهم بما لا يراه الآخرون تشبيهًا.

مثال ذلك مع المعتزلة ومن سلك طريقهم من النفاة: أنهم جعلوا من أثبت لله تعالىٰ علمًا قديمًا، أو قدرة قديمة مشبهًا ممثلًا، لأن القدم أخص وصف الإله عند جمهورهم، فمن أثبت له علمًا قديمًا أو قدرة قديمة فقد أثبت له مثيلًا.

والمثبتون يجيبونهم تارة بالمنع، وبالتسليم تارة.



أما المنع؛ فيقولون: ليس القدم أخص وصف الإله، وإنما أخص وصف الإله ما لا يتصف به غيره، مثل: كونه رب العالمين، وأنه بكل شيء قدير، وأنه الإله ... ونحو ذلك.

والصفات وإن وصفت بالقدم كما توصف به الذات لا يقتضي ذلك أن تكون إلهًا أو ربًّا أو نحو ذلك، كما أن النبي – مثلًا – يوصف بالحدوث، وتوصف صفاته بالحدوث، ولا يقتضي ذلك أن تكون صفاته نبيًّا.

وعلىٰ هذا فلا يكون إثبات الصفات القديمة لله تعالىٰ تمثيلًا، ولا تشبيهًا.

وأما التسليم فيقولون: نحن وإن سلمنا أن هذا المعنىٰ قد يسمىٰ في اصطلاح بعض الناس تشبيهًا أو تمثيلًا فإنه لم ينفه عقل ولا سمع، وحينئذ فلا مانع من إثباته.

فالقرآن إنما نفىٰ مسمىٰ المثل، والكفء والند ... ونحو ذلك، والصفة في لغة العرب التي نزل بها القرآن ليست مثل الموصوف، ولا كفؤًا له، ولا ندًّا فلا تدخل فيما نفاه القرآن.

فالواجب نفي ما نفته الأدلة الشرعية والعقلية فقط.

مثال آخر: مع الأشاعرة ونحوهم ممن ينفي علوه علىٰ عرشه ونحوه دون صفة الحياة، والعلم، والقدرة ونحوها فيقول: إن هذه الصفات قد تقوم بما ليس بجسم بخلاف العلو فإنه لا يقوم إلا بجسم فلو أثبتناه لزم أن يكون جسمًا، والأجسام متماثلة فيلزم التشبيه.

والمثبتون يجيبونهم تارة بمنع المقدمة الأولىٰ وهي قولهم: «إن العلو لا يقوم إلا بجسم» وتارة بمنع المقدمة الثانية وهي قولهم: «إن الأجسام متماثلة» وتارة بمنع المقدمتين، وتارة بالاستفصال، فيقولون: إن أردتم بالجسم جسمًا مؤلفًا من لحم وعظم وأجزاء يفتقر بعضها إلىٰ بعض، أو يحتاج إلىٰ مقومات خارجية، فهذا ممتنع بالنسبة إلىٰ الله الغني الحميد، وليس بلازم من إثبات الصفات، وإن أردتم بالجسم ما كان قائمًا بنفسه موصوفًا بالصفات اللائقة به، فهذا حق ثابت لله عَزَّوَجَلَّ ولا يلزم عليه شيء من اللوازم الباطلة.

وإذا تبين اختلاف الناس في تفسير التشبيه صار الاعتماد علىٰ مجرد نفيه باطلًا، لأنه يلزم منه نفي صفات الكمال عن الله تعالىٰ عند من يرىٰ أن إثباتها يستلزم التشبيه.

وعلىٰ هذا فالضابط الصحيح فيما ينفىٰ عن الله تعالىٰ ما سبق في أول القاعدة.





فصلٌ

فإذا تبين أنه لا يصح الاعتماد في ضابط النفي علىٰ مجرد نفي التشبيه وأنه طريق فاسد، فإن أفسد منه ما يسلكه بعض الناس حيث يعتمدون فيما ينفىٰ عن الله تعالىٰ علىٰ نفي التجسيم والتحيز ... ونحو ذلك، فتجدهم إذا أرادوا أن يحتجوا علىٰ من وصف الله تعالىٰ النقائص من: الحزن، والبكاء، والمرض والولادة ... ونحوها يقولون له: لو اتصف الله بذلك لكان جسمًا، أو متحيزًا، وهذا ممتنع، هذه حجتهم عليه وهذه طريقة فاسدة لا يحصل بها المقصود لوجوه:

الأول: أن لفظ «الجسم» و «الجوهر» و «التحيز» ونحوها عبارات مجملة مشتبهة لا تحق حقًّا، ولا تبطل باطلًا، ولذلك لم تذكر فيما وصف الله وسمىٰ به نفسه؛

لا نفيًا ولا إثباتًا، لا في كتاب الله تعالىٰ، ولا في سنة رسوله ﷺ، ولم يسلكه أحد من سلف الأمة وأئمتها، وإنما هي عبارات مبتدعة أنكرها السلف والأئمة.

الثاني: أو وصف الله تعالىٰ بهذه النقائض أظهر فسادًا في العقل والدين من وصفه بالتحيز والتجسيم، فإن كفر من وصفه بهذه النقائص معلوم بالضرورة من الدين، بخلاف التحيز والتجسيم لما فيهما من الاشتباه والخفاء.

وإذا كان وصف الله تعالىٰ بهذه النقائص أظهر فسادًا من وصفه بالحيز والجسم، فإنه لا يصح الاستدلال بالأخفىٰ علىٰ الأظهر؛ لأن الدليل مبين للمدلول ومثبت له فلابد أن يكون أبين وأظهر منه.

الثالث: أن من وصفوه بهذه النقائص يمكنهم أن يقولوا نحن نصفه بذلك، ولا نقول بالتجسيم والتحيز كما يقوله من يثبت لله صفات الكمال مع نفي القول بالتجسيم والتحيز، فيكون كلام من يصف الله بصفات الكمال ومن يصفه بصفات النقص واحدًا، ويبقىٰ الرد عليهما بطريق واحد وهو أن الإثبات مستلزم للتجسيم والتحيز، وهذا في غاية الفساد والبطلان.

الرابع: أن الذين اعتمدوا في ضابط ما ينفىٰ عن الله علىٰ نفي التجسيم والتحيز نفوا عن الله تعالىٰ صفات الكمال بهذه الطريقة. واتصاف الله تعالىٰ بصفات الكمال واجب ثابت بالسمع والعقل؛ فيكون كل ما اقتضىٰ نفيه باطلًا بالسمع والعقل، وبه يتبين فساد تلك



الطريقة وبطلانها.

الخامس: أن سالكي هذه الطريقة متناقضون، فكل من أثبت شيئًا ونفىٰ غيره ألزمه الآخر بما يوافقه فيه من الإثبات، وكل من نفىٰ شيئًا واثبت غيره ألزمه الآخر بما يوافقه فيه من النفي.

مثال ذلك: أن من أثبتوا لله تعلىٰ الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر، والكلام دون غيرها من الصفات قال لهم نفاة ذلك – كالمعتزلة -: إثبات هذه تجسيم؛ لأن هذه الصفات أعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم.

فيرد عليهم أولئك بأنكم أنتم أثبتم أنه حي، عليم، قدير، وقلتم ليس بجسم مع أنكم لا تعرفون حيًّا عالمًا قادرًا إلا جسمًا، فأثبتموه علىٰ خلاف ما عرفتم، فكذلك نحن نثبت هذه الصفات ولا نقول إنه جسم فهذا تناقض المعتزلة.

أما تناقض خصومهم الذين أثبتوا الصفات السبع السابقة دون غيرها فقد قالوا لمن أثبت صفة الرضا، والغضب، ونحوها: إثبات الرضا والغضب، والاستواء، والنزول، والوجه، واليدين ونحوها تجسيم لأننا لا نعرف ما يوصف بذلك إلا ما هو جسم. فيرد عليهم المثبتة بأنكم أنتم وصفتموه بالحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، ولا يعرف ما يوصف بذلك إلا ما هو جسم، فإن لزمنا التجسيم فيما أثبتناه لزمكم فيما أثبتموه، وإن لم يلزمكم فيما أثبتموه لم يلزمنا فيما أثبتناه وإن ألزمتمونا به، لأنه لا فرق بين الأمرين، وتفريقكم بينهما تناقض منكم.



فصلٌ

وأما الضابط في باب الإثبات: فأن نثبت لله تعالىٰ ما أثبته لنفسه من صفات الكمال علىٰ وجه لا نقص فيه بأي حال من الأحوال لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾ [النحل]. والمثل الأعلىٰ هو الوصف الأكمل الذي لا يماثله شيء.

فصفات الله تعالىٰ كلها صفات كمال، سواء كانت صفات ثبوت، أم صفات نفي. وقد سبق أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله تعالىٰ، وأن المقصود بصفات النفي نفي تلك الصفة لا تصافه بكمال ضدها.



ولهذا لا يصح في ضابط الإثبات أن نعتمد علىٰ مجرد الإثبات بلا تشبيه؛ لأنه لـو صـح ذلك لجاز أن يثبت المفتري لله سبحانه كل صفة نقـص مـع نفـي التشـبيه فيصـفه بـالحزن والبكاء والجوع والعطش ... ونحوها مما ينزه الله عنه مع نفي التشبيه، فيقول: إن الله يحزن لا كحزن العباد، ويبكي لا كبكائهم، ويجوع لا كجوعهم، ويعطش لا كعطشهم، ويأكل لا كأكلهم، كما أنه يفرح لا كفرحهم، ويضحك لا كضحكهم، ويتكلم لا ككلامهم.

ولجاز أيضًا أن يثبت المفتري لله سبحانه أعضاء كثيرة مـع نفـي التشـبيه فيقـول: إن لله تعالىٰ كبدًا لا كأكباد العباد، وأمعاء لا كأمعائهم ... ونحو ذلك مما ينزه الله تعالىٰ عنه، كما أن له وجهًا لا كوجوههم، ويدين لا كأيديهم.

ثم يقول المفتري لمن نفىٰ ذلك وأثبت الفرح، والضحك، والكلام، والوجـه، واليـدين: أي فرق بين ما نفيت وما أثبت، إذا جعلت مجرد نفـي التشـبيه كافيًـا في الإثبـات؛ فأنـا لـم أخرج عن هذا الضابط فإني اثبت ذلك بدون تشبيه؟

فإن قال النافي: الفرق هو السمع أي الدليل من الكتاب والسنة فما جاء بـه الـدليل أثبتـه وما لم يجئ به لم أثبته.

قال المفتري: السمع خبر والخبر دليل علىٰ المخبر عنه، والدليل لا يـنعكس فـلا يلـزم من عدمه عدم المدلول عليه؛ لأنه قد يثبت بدليل آخر، فما لم يرد به السمع يجوز أن يكون ثابتًا في نفس الأمر وإن لم يرد به السمع، ومن المعلوم أن السـمع لـم يـرد بنفـي كـل هـذه الأمور بأسمائها الخاصة فلم يرد بنفي الحزن، والبكاء، والجوع، والعطش، ونفـي الكبـد، والمعدة، والأمعاء، وإذا لم يرد بنفيها جاز أن تكون ثابتة في نفس الأمر، فلا يجوز نفيها بلا دليل.

وبهذا ينقطع النافي لهذه الصفات حيث اعتمد فيما ينفيه علىٰ مجرد نفي التشبيه، ويعلـم أنه لا يصح الاعتماد عليها، وإنما الاعتماد علىٰ ما دل عليه السمع والعقل مـن وصـف الله تعالىٰ بصفات الكمال علىٰ وجه لا نقص فيه، وعلىٰ هذا فكـل مـا ينـافي صـفات الكمـال الثابتة لله، فالله منزه عنه؛ لأن ثبوت أحد الضدين نفي للآخر ولما يستلزمه.

وبهذا يمكن دفع ما أثبته هذا المفتري لله تعـالىٰ مـن صـفات الـنقص فيقـال: الحـزن، والبكاء، والجوع، والعطش صفات نقص منافية لكماله فتكون منتفية عن الله، ويقال أيضًا:



الأكل، والشرب مستلزم للحاجة والحاجة نقص، وما استلزم النقص فهو نقص، ويقال أيضًا، الكبد، والمعدة، والأمعاء آلات الأكل والشرب، والمنزه عن الأكل والشرب منزه عن آلات ذلك.

وأما الفرح، والضحك، والغضب، ونحوها فهي صفات كمال لا نقص فيها فلا تنتفي عنه لكنها لا تماثل ما يتصف به المخلوق منها فإنه سبحانه لا كفء له، ولا سمي، ولا مثل، فلا يجوز أن تكون حقيقة ذاته كحقيقة شيء من ذوات المخلوقين، ولا حقيقة شيء من صفاته كحقيقة شيء من صفات المخلوقين؛ لأنه ليس من جنس المخلوقات، لا الملائكة، ولا الآدميين، ولا السَّمٰوات، ولا الكواكب، ولا الهواء، ولا الأرض وغير ذلك.

بل يعلم أن حقيقته علىٰ مماثلة شيء من الموجودات أبعد من سائر الحقائق، لأن الحقيقتين إذا تماثلتا جاز علىٰ الواحدة ما يجوز علىٰ الأخرىٰ، ووجب لها ما يجب للأخرىٰ، وامتنع عليها ما يمتنع علىٰ الأخرىٰ، فيلزم أن يجوز علىٰ الخالق الواجب بنفسه ما يجوز علىٰ المخلوق المحدث، وأن يثبت لهذا المخلوق ما يثبت للخالق فيكون الشيء الواجد واجبًا بنفسه غير واجب بنفسه، موجودًا معدومًا، وهذا جمع بين النقيضين.



الأصل الثاني في القدر والشرع

القدر: تقدير الله تعالىٰ لما كان وما يكون أزلًا وأبدًا.

والإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان السنة التي بينها رسول الله ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

والإيمان بالقدر والشرع من تمام الإيمان بربوبية الله تعالىٰ.

وللإيمان بالقدر مراتب أربع:

المرتبة الأولىٰ: الإيمان بأن الله تعالىٰ قد علم بعلمه الأزلي الأبدي ما كان وما يكون من صغير وكبير، وظاهر وباطن مما يكون من أفعاله، أو أفعال مخلوقاته.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله تعالىٰ كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة، فما من شيء كان أو يكون إلا وهو مكتوب مقدر قبل أن يكون.



ودليل هاتين المرتبتين في كتاب الله تعالىٰ، وفي سنة رسوله ﷺ:

أما الكتاب: فمنه قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام].

وأما السنة: فمنها قوله ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ**» قال: «**وَعَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ**». أخرجه مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وروىٰ البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**».

وروىٰ الإمام أحمد والترمذي من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ؛ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**». وهو حديث حسن.

المرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئة الله تعالىٰ وأنها عامة في كل شيء، فما وجد موجود، ولا عدم معدوم من صغير وكبير، وظاهر وباطن في السَّمٰوات والأرض إلا بمشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ سواء كان ذلك من فعله تعالىٰ أم من فعل مخلوقاته.

المرتبة الرابعة: الإيمان بخلق الله تعالىٰ وأنه خالق كل شيء من صغير وكبير، وظاهر وباطن، وأن خلقه شامل لأعيان هذه المخلوقات وصفاتها وما يصدر عنها من أقوال، وأفعال، وآثار.

ودليل هاتين المرتبتين قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الزمر]. وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات].

ولم يخلق شيئًا إلا بمشيئته؛ لأنه تعالىٰ لا مكره له لكمال ملكه وتمام سلطانه.

قال الله تعالىٰ مبينًا أن فعله بمشيئته: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم]. وقال: ﴿ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢].

وقال مبينًا أن فعل مخلوقاته بمشيئته: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير]. وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة].

والقدر لا ينافي الأسباب القدرية أو الشرعية التي جعلها الله تعالىٰ أسبابًا، فإن الأسباب من قدر الله تعالىٰ، وربط المسببات بأسبابها هو مقتضىٰ الحكمة التي هي من أجل صفات الله عَزَّوَجَلَّ، والتي أثبتها الله لنفسه في مواضع كثيرة من كتابه.

فمن الأسباب القدرية قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم].

ومن الأسباب الشرعية قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

وكل فعل رتب الله عليه عقابًا أو ثوابًا فهو من الأسباب الشرعية باعتبار كونه مطلوبًا من العبد، ومن الأسباب القدرية باعتبار وقوعه بقضاء الله وقدره.

والناس في الأسباب طرفان ووسط:

فالطرف الأول: نفاة أنكروا تأثير الأسباب وجعلوها مجرد علامات يحصل الشيء عندها لا بها، حتىٰ قالوا: إن انكسار الزجاجة بالحجر إذا رميتها به حصل عند الإصابة لا بها. وهؤلاء خالفوا السمع، وكابروا الحس، وأنكروا حكمة الله تعالىٰ في ربط المسببات بأسبابها.

والطرف الثاني: غلاة أثبتوا تأثير الأسباب، لكنهم غلوا في ذلك وجعلوها مؤثرة بذاتها،



وهؤلاء وقعوا في الشرك، حيث أثبتوا موجدًا مع الله تعالىٰ وخالفوا السمع والحس. فقد دل الكتاب والسنة وإجماع الأمة علىٰ أنه لا خالق إلا الله، كما أننا نعلم بالشاهد المحسوس أن الأسباب قد تتخلف عنها مسبباتها بإذن الله، كما في تخلف إحراق النار لإبراهيم الخليل حين ألقي فيها فقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء]. فكانت بردًا وسلامًا عليه ولم يحترق بها.

وأما الوسط: فهم الذين هدوا إلىٰ الحق وتوسطوا بين الفريقين وأخذوا بما مع كل واحد منهما من الحق، فأثبتوا للأسباب تأثيرًا في مسبباتها لكن لا بذاتها، بل بما أودعه الله تعالىٰ فيها من القوىٰ الموجبة.

وهؤلاء هم الطائفة الوسط الذين وفقوا للصواب وجمعوا بين المنقول والمعقول، والمحسوس.

وإذا كان القدر لا ينافي الأسباب الكونية والشرعية فهو لا ينافي أن يكون للعبد إرادة وقدرة يكون بهما فعله، فهو مريد قادر فاعل لقوله تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران:١٥٢]. وقوله: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ۝٢٥﴾ [القلم]. وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ۝٦٦﴾ [النساء:٦٦]. وقوله: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت:٤٦].

لكنه غير مستقل بإرادته وقدرته وفعله، كما لا تستقل الأسباب بالتأثير في مسبباتها لقوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير]. ولأن إرادته وقدرته وفعله من صفاته وهو مخلوق، فتكون هذه الصفات مخلوقة أيضًا، لأن الصفات تابعة للموصوف، فخالق الأعيان خالق لأوصافها.

فإن قال قائل: أفلا يصح علىٰ هذا التقرير أن يحتج بالقدر من خالف الشرع؟

فالجواب: أن الاحتجاج بالقدر علىٰ مخالفة الشرع لا يصح كما دل علىٰ ذلك الكتاب والسنة والنظر:

أما الكتاب: فمن أدلته قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام:١٤٨] فأبطل الله حجتهم هذه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ [الأنعام:١٤٨].

ومنها قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء:١٦٥].

فبين الله تعالىٰ أن الحجة قامت علىٰ الناس بإرسال الرسل، ولا حجة لهم علىٰ الله بعد ذلك، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل.

وأما السنة: فمن أدلتها ما ثبت في الصحيحين عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ**». قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل؟ قال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: «﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۞﴾[اللَّيل]».

وأما النظر: فمن أدلته:

١- أن تارك الواجب وفاعل المحرم يقدم علىٰ ذلك باختياره لا يشعر أن أحدًا أكرهه عليه، ولا يعلم أن ذلك مقدر؛ لأن القدر سر مكتوم فلا يعلم أحد أن شيئًا ما قدره الله تعالىٰ إلا بعد وقوعه.

فكيف يصح أن يحتج بحجة لا يعلمها قبل إقدامه علىٰ ما اعتذر بها عنه؟

ولماذا لم يقدر أن الله تعالىٰ كتبه من أهل السعادة، فيعمل بعملهم، دون أن يقدر أن الله كتبه من أهل الشقاوة، ويعمل بعملهم؟

٢- أن إقحام النفس في مآثم ترك الواجب وفعل المحرم ظلم لها وعدوان عليها، كما قال الله تعالىٰ عن المكذبين للرسل: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ [هود:١٠١]. ولو أن أحدًا ظلم المحتج بالقدر علىٰ مخالفته، ثم قال له: ظلمي إياك كان بقدر الله. لم يقبل منه هذه الحجة، فكيف لا يقبل هذه الحجة بظلم غيره له، ثم يحتج بها بظلمه هو لنفسه؟

٣- أن هذا المحتج لو خير في السفر بين بلدين أحدهما: بلد آمن مطمئن فيه أنواع المآكل، والمشارب، والتنعم، والثاني: بلد خائف قلق، فيه أنواع البؤس، والشقاء، لاختار السفر إلىٰ البلد الأول ولا يمكن أن يختار الثاني محتجًا بالقدر، فلماذا يختار الأفضل في



مقر الدنيا، ولا يختاره في مقر الآخرة؟

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ١٠٦ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ [الأنعام]. فأخبر أن شركهم واقع بمشيئة الله تعالىٰ؟

قيل له: الجواب عنه: أن الله تعالىٰ أخبر أن شركهم واقع بمشيئته تسلية لرسوله ﷺ لا دفاعًا عنهم، وإقامة للعذر لهم، بخلاف احتجاج المشركين علىٰ شركهم بمشيئة الله، فإنما قصدوا به دفع اللوم عنهم وإقامة العذر علىٰ استمرارهم علىٰ الشرك؛ ولهذا أبطل الله احتجاجهم ولم يبطل أن شركهم واقع بمشيئته.

فإن قال قائل: ما الجواب عما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَىٰ**»، وفي لفظ: «**تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَىٰ، فَقَالَ مُوسَىٰ: يَا آدَمُ! أَنْتَ أَبُونَا، خَيَّبْتَنَا، وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَىٰ، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ، ثَلَاثًا**». وعند أحمد: «**فَحَجَّهُ آدَمُ**». أي غلبه في الحجة.

قيل له: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن احتجاج آدم بالقدر كان علىٰ المصيبة التي حصلت عليه وهي إخراجه وزوجه من الجنة، فإن موسىٰ عليه الصلاة والسلام لم يكن ليعتب علىٰ آدم في معصية تاب منها إلىٰ الله تعالىٰ فاجتباه ربه وتاب عليه وهدىٰ، فإن هذا بعيد جدًّا أن يقع من موسىٰ عليه الصلاة والسلام وهو أجل قدرًا من أن يلوم أباه ويعتب عليه في هذا، وإنما عنىٰ بذلك المصيبة التي حصلت لآدم وبنيه وهي الإخراج من الجنة الذي قدره الله عليه بسبب المعصية، فاحتج آدم علىٰ ذلك بالقدر من باب الاحتجاج بالقدر علىٰ المصائب، لا علىٰ المعايب فهو كقوله ﷺ: «**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ اللهُ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**». رواه مسلم.

فقد أرشد النبي ﷺ إلىٰ تفويض الأمر إلىٰ قدر الله بعد فعل الأسباب التي يحصل بها المطلوب ثم يتخلف.



ونظير هذا أن يسافر شخص فيصاب بحادث في سفره فيقال له: لماذا تسافر؟ فيقول: هذا أمر مقدر والمقدر لا مفر منه، فإنه لا يحتج هنا بالقدر علىٰ السفر لأنه يعلم أنه لا مكره له وأنه لم يسافر ليصيبه الحادث، وإنما يحتج بالقدر علىٰ المصيبة التي ارتبطت به.

وهذا هو الوجه الذي اختاره الشيخ المؤلف في هذه العقيدة.

الوجه الثاني: أن الاحتجاج بالقدر علىٰ ترك الواجب، أو فعل المحرم بعد التوبة جائز مقبول، لأن الأثر المترتب علىٰ ذلك قد زال بالتوبة فانمحىٰ به توجه اللوم علىٰ المخالفة، فلم يبق إلا محض القدر الذي احتج به لا ليستمر علىٰ ترك الواجب، أو فعل المحظور، ولكن تفويضًا إلىٰ قدر الله تعالىٰ الذي لابد من وقوعه.

وقد أشار إلىٰ هذا ابن القيم في شفاء العليل وقال إنه لم يدفع بالقدر حقًّا ولا ذكره حجة له علىٰ باطل ولا محذور في الاحتجاج به، وأما الموضوع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل بأن يرتكب فعلًا محرمًا، أو يترك واجبًا فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر علىٰ إقامته عليه وإصراره، فيبطل بالاحتجاج به حقًّا ويرتكب باطلًا، كما احتج به المصرون علىٰ شركهم وعبادتهم غير الله فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]. ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف:٢٠]. فاحتجوا به مصوبين لما هم عليه وأنهم لم يندموا علىٰ فعله ولم يعزموا علىٰ تركه ولم يقروا بفساده، فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه، وندم وعزم كل العز علىٰ ألا يعود ... ونكتة المسألة: أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر، وإذا كان اللوم واقعًا فالاحتجاج بالقدر باطل، ثم ذكر حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين طرقه النبي ﷺ وفاطمة ليلًا فقال: «ألا تصليان». الحديث. وأجاب عنه بأن احتجاج علي صحيح، ولذلك لم ينكر عليه النبي ﷺ وصاحبه يعذر فيه؛ فالنائم غير مفرط، واحتجاج غير المفرط بالقدر صحيح.



فصلٌ: في ضرورة الإيمان بالقدر والشرع

لابد للإنسان من الإيمان بالقدر لأنه أحد أركان الإيمان الستة، ولأنه من تمام توحيد الربوبية، ولأن به تحقيق التوكل علىٰ الله تعالىٰ وتفويض الأمر إليه مع القيام بالأسباب الصحيحة النافعة، ولأن به اطمئنان الإنسان في



حياته حيث يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ولأن به ينتفي الإعجاب بالنفس عند حصول المراد، لأنه يعلم أن حصوله بقدر الله، وأن عمله الذي حصل به مراده ليس إلا مجرد سبب يسره الله له، ولأن به يزول القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه، لأنه يعلم أن الأمر كله لله فيرضىٰ ويسلم. وإلىٰ هذين الأمرين يشير قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد].

ولابد للإنسان أيضًا من الإيمان بالشرع وهو ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من أمر الله ونهيه، وما يترتب عليهما من الجزاء ثوابًا أو عقابًا، فيقوم بما يلزمه نحو الأمر والنهي، ويؤمن بما يترتب عليهما من الجزاء.

وذلك لأن الإنسان مريد فلابد له من فعل يدرك به ما يريد، ويدفع به ما لا يريد، ولابد له من ضابط يضبط تصرفه لئلا يقع فيما يضره، أو يفوته ما ينفعه من حيث لا يشعر.

والشرع الإلهي الذي جاءت به الرسل هو الذي يضبط ذلك، ويصدر الحكم به، ويكون به التمييز بين النافع والضار، والصالح والفاسد، لأنه من عند الله العليم، الرحيم، الحكيم.

والعقول وإن كانت تدرك النافع والضار في الجملة، لكن تفصيل ذلك والإحاطة به إحاطة تامة إنما يكون من جهة الشرع.

ولهذا نقول: النفع أو الضرر قد يكون معلومًا بالفطرة، وقد يكون معلومًا بالعقل، وقد يكون معلومًا بالتجارب، وقد يكون معلومًا بالشرع. فالشرع يأتي مؤيدًا لما شهدت به الفطرة والعقل والتجارب، وهذه تأتي شاهدة لما جاء به الشرع.

وفي هذا المقام اختلف الناس في الأعمال هل يعرف حسنها وقبحها بالشرع أو بالعقل والتحقيق: أن ذلك يعرف تارة بالشرع، وتارة بالعقل، وتارة بهما، لكن علم ذلك علىٰ وجه الشمول والتفصيل وعلم غايات الأعمال في الآخرة من سعادة، وشقاء ونحو ذلك لا يعلم إلا بالشرع.



فصلٌ



إذا تبين أنه لابد للإنسان من الإيمان بالقدر والإيمان بالشرع، فاعلم أن الناس انقسموا في ذلك إلىٰ قسمين:

القسم الأول: أهل الهدىٰ والفلاح الذين آمنوا بقضاء الله وقدره علىٰ ما سبق بيانه من المراتب الأربع، وآمنوا أيضًا بشرعه فقاموا بأمره ونهيه وآمنوا بما ترتب علىٰ ذلك من جزاء، ولم يحتجوا بقدره علىٰ شرعه، أو بشرعه علىٰ قدره، ولم يجعلوا ذلك تناقضًا من الخالق، وهؤلاء هم أهل الحق الذين حققوا مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة] المؤمنين بمقتضىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

القسم الثاني: أهل الضلال والهلاك المخالفون للجماعة، وهم ثلاث فرق: مجوسية ... ومشركية ... وإبليسية.

فالمجوسية هم: القدرية الذين آمنوا بشرع الله، وكذبوا بقدره. فغلاتهم أنكروا عموم علم الله تعالىٰ وقالوا: إن الله تعالىٰ لم يقدر أعمال العباد ولا علم له بها قبل وقوعها، ومقتصدوهم آمنوا بعلم الله بها قبل وقوعها. وأنكروا أن تكون واقعة بقدر الله تعالىٰ وأن تكون مخلوقة له.

وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم. ومذهبهم باطل بما سبق في أدلة مراتب القدر.

والمشركية هم: الذين أقروا بقدر الله واحتجوا به علىٰ شرعه كما قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨].

والإبليسية هم: الذين أقروا بالأمرين بالقدر وبالشرع لكن جعلوا ذلك تناقضًا من الله عَزَّوَجَلَّ، وطعنوا في حكمته تعالىٰ، وقالوا: كيف يأمر العباد وينهاهم، وقد قدر عليهم ما قد يكون مخالفًا لما أمرهم به ونهاهم عنه؟ فهل هذا إلا التناقض المحض والتصرف المنافي للحكمة؟

وهؤلاء أتباع إبليس فقد احتج علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ حين أمره أن يسجد لآدم فقال إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف:١٢].

والرد علىٰ هاتين الفرقتين معلوم من الرد علىٰ المحتجين بالقدر علىٰ معصية الله تعالىٰ.





فصلٌ

وأما الشرع فهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله تعالىٰ التي من أجلها خلق الله الجن والإنس لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]. وذلك هو الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] فالإسلام هو الاستسلام لله وحده بالطاعة فعلًا للمأمور وتركًا للمحظور في كل زمان ومكان كانت الشريعة فيه قائمة.

وهذا هو الإسلام بالمعنىٰ العام.

وعلىٰ هذا يكون أصحاب الملل السابقة مسلمين حين كانت شرائعهم قائمة لم تنسخ كما قال الله تعالىٰ عن نوح وهو يخاطب قومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس] وقال عن إبراهيم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران] وقال أيضًا: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة] وقال عن موسىٰ في مخاطبته قومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس] وقال عن التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة:٤٤] . وقال عن الحواريين أتباع عيسىٰ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة:١١١]. وقال عن ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل].

وأما الإسلام بالمعنىٰ الخاص فيختص بشريعة محمد ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام]. وقال في أمته: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

فلا إسلام بعد بعثته إلا باتباعه، لأن دينه مهيمن علىٰ الأديان كلها ظاهر عليها، وشريعته ناسخة للشرائع السابقة كلها.



قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]. والذي جاء مصدقًا لما مع الرسل قبله هو محمد ﷺ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة:٤٨]. وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]. وهذا يعم الظهور قدرًا وشرعًا.

فمن بلغته رسالة النبي ﷺ فلم يؤمن به ويتبعه لم يكن مؤمنًا ولا مسلمًا؛ بل هو كافر من أهل النار؛ لقول النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ**» يعني أمة الدعوة «**يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وبهذا يعلم أن النزاع فيمن سبق من الأمم هل هم مسلمون أو غير مسلمين؟ نزاع لفظي، وذلك لأن الإسلام بالمعنىٰ العام يتناول كل شريعة قائمة بعث الله بها نبيًا فيشمل إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء ما دامت شريعته قائمة غير منسوخة بالاتفاق كما دلت علىٰ ذلك النصوص السابقة، وأما بعد بعثة النبي محمد ﷺ فإن الإسلام يختص بما جاء به، فمن لم يؤمن به ويتبعه فليس بمسلم ومن زعم أن مع دين محمد ﷺ دينًا سواه قائمًا مقبولًا عند الله تعالىٰ من دين اليهود، أو النصارىٰ، أو غيرهما فهو مكذب؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران:١٩] وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وإذا كان الإسلام اتباع الشريعة القائمة؛ فإنه إذا نسخ شيء منها لم يكن المنسوخ دينًا بعد نسخه ولا اتباعه إسلامًا فاستقبال بيت المقدس -مثلًا- كان دينًا وإسلامًا قبل نسخه، ولم يكن دينًا ولا إسلامًا بعده. وزيارة القبور لم تكن دينًا ولا إسلامًا حين النهي عنها، وكانت دينًا وإسلامًا بعد الأمر بها.



فصلٌ



مبنىٰ الإسلام علىٰ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء]. ولابد في التوحيد من الجمع بين النفي والإثبات، لأن النفي وحده تعطيل، والإثبات وحده لا يمنع المشاركة، فلا توحيد إلا بنفي وإثبات.

وقد قسمه العلماء – بالتتبع والاستقراء إلىٰ ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية توحيد الألوهية توحيد الأسماء والصفات.

وقد جمع الله هذه الأقسام في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم].

فأما توحيد الربوبية: فهو إفراد لله تعالىٰ بالخلق، والملك، والتدبير:

ومن أدلته قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف]. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [آل عمران:١٨٩]. وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ﴾ [سبأ:٢٢].

وهذا قد أقر به المشركون الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان:٢٥]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يونس:٣١]. وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾ إلىٰ قوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المؤمنون].

ولم يكن أحد من هؤلاء المشركين ولا غيرهم ممن يقر بالخالق يعتقد أن أحدًا من الخلق شارك الله تعالىٰ في خلق السَّمٰوات والأرض أو غيرهما، ولا أن للعالم صانعين متكافئين في الصفات والأفعال، ولم ينقل أرباب المقالات الذين جمعوا ما قبل في الملل والنحل والآراء والديانات عن أحد من الناس أنه قال بذلك.

وغاية ما نقلوا قول الثنوية القائلين بالأصلين: النور، والظلمة، وأن النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، لكنهم لا يقولون بتساويهما وتكافئهما:

فالنور مضيء موافق للفطرة، بخلاف الظلمة.

والنور قديم، ولهم في الظلمة قولان: أحدهما: أنها محدثة مخلوقة للنور، فيكون النور أكمل منها. الثاني: أنها قديمة لكنها لا تخلق إلا الشر.

فصارت الظلمة ناقصة عن النور في مفعولاتها، كما أنها ناقصة عنه في وجودها وصفاتها.

وأما قول فرعون لقومه حين جمعهم فنادىٰ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]؛ فمكابرة لم يصدر عن عقيدة، بل كان يعتقد في قرارة نفسه أن الله هو رب السَّمٰوات والأرض، ولهذا لم يكذب موسىٰ حين قال له: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء:١٠٢]. واقرأ قوله تعالىٰ عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

وأما قول من قال من الناس: إن بعض الحوادث مخلوقة لغير الله كالقدرية الذين يقولون إن العباد خلقوا أفعالهم، فإنهم يقرون بأن العباد مخلوقون والله تعالىٰ هو خالقهم وخالق قدرتهم.

وكذلك أهل الفلسفة والطبع والنجوم الذين يجعلون بعض المخلوقات مبدعة لبعض الأمور يعتقدون أن هذه الفاعلات مخلوقة حادثة.

وبهذا يتقرر أنه لم يكن أحد من الناس يدعي أن للعالم صانعين متكافئين.



فصلٌ

وأما توحيد الألوهية فهو: إفراد الله تعالىٰ بالعبادة بأن يعبد وحده ولا يعبد غيره من ملك، أو رسول، أو نبي، أو ولي، أو شجر، أو حجر، أو شمس، أو قمر، أو غير ذلك كائنًا من كان.

ومن أدلته قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦]. وقوله: ﴿وَمَآ



أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]. وقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة]. وقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

وهذا النوع قد أنكره المشركون الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ كما قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات]. وقال تعالىٰ: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [صٓ].

ومن أجل إنكارهم إياه قاتلهم النبي ﷺ واستباح دماءهم وأموالهم وسبي نسائهم وذرياتهم بإذن الله تعالىٰ وأمره، ولم يكن إقرارهم بتوحيد الربوبية مخرجًا لهم عن الشرك، ولا عاصمًا لدمائهم وأموالهم.

وتحقيق هذا النوع أن يعبد الله وحده لا شريك له بشرعه الذي جاءت به رسله كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]. فمن لم يعبد الله تعالىٰ فهو مستكبر غير موحد، ومن عبده وعبد غيره فهو مشرك غير موحد، ومن عبده بما لم يشرعه فهو مبتدع ناقص التوحيد حيث جعل لله تعالىٰ شريكًا في التشريع.

والعبادة تطلق علىٰ معنيين:

أحدهما: التعبد، وهو فعل العابد فتكون بمعنىٰ التذلل للمعبود حبًّا وتعظيمًا. وهذان – أعني الحب والتعظيم – أساس العبادة؛ فبالحب يكون طلب الوصول إلىٰ مرضاة المعبود بفعل ما أمر به، وبالتعظيم يكون الهرب من أسباب غضبه بترك ما نهىٰ عنه.

الثاني: المتعبد به، فتكون اسمًا جامعًا لكل ما يتعبد به لله تعالىٰ كالطهارة، والصلاة، والصدقة، والصوم، والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام ... وغير ذلك من أنواع العبادة.

وللعبادة شرطان:

أحدهما: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ بألا يريد بها سوىٰ وجه الله والوصول إلىٰ دار كرامته،



وهذا من تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.

الثاني: المتابعة لرسول الله صلىٰ الله بألا يتعبد لله تعالىٰ بغير ما شرعه، وهذا من تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله.

فالمشرك في العبادة لا تقبل عبادته، ولا تصح لفقد الشرط الأول.

والمبتدع فيها لا تقبل ولا تصح لفقد الشرط الثاني.

وقد دل علىٰ هذين الشرطين كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ:

فمن أدلة اشتراط الإخلاص من كتاب الله: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر]. وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٨٨﴾ [الأنعام]... إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة المتنوعة الدلالة.

ومن أدلته من السنة: ما أخرجه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ هَاجَرَ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**». هذا أحد ألفاظ البخاري.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».

ومن أدلة اشتراط المتابعة لرسول الله ﷺ من كتاب الله تعالىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣] وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران]. وقوله في وصف النبي ﷺ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾ [الأعراف] ... إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة المتنوعة الدلالة.

ومن أدلته من السنة: ما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**». أي: مردود.

وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ كان يقول إذا خطب الناس



يوم الجمعة: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». وصح عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». رواه أحمد وأبو داود.

ولا تتحقق المتابعة إلا بموافقة العبادة للشرع في سببها، وجنسها، وقدرها، وكيفيتها، وزمانها، ومكانها.

والعبادة أنواع كثيرة:

فمنها الصلاة والذبح، لقوله تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر]. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ۝١٦٣﴾ [الأنعام]. فمن صلىٰ لغير الله فهو مشرك، ومن ذبح لغير الله تقربًا وتعظيمًا فهو مشرك.

ومنها التوكل لقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة]. وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود:١٢٣].

ولهذا لما كان التوكل خاصًّا به كان وحده هو الحسب كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الطلاق:٣].

فأما قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفال]. فمعناه أن الله هو حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين فقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ معطوف علىٰ الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ وليس معطوفًا علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾ كما ظنه بعض الغالطين، فإن هذا يفسد به المعنىٰ إذ يكون المعنىٰ علىٰ هذا التقدير: أن الله والمؤمنين حسب النبي ﷺ وهذا باطل، فإن مقام النبي ﷺ أعلىٰ وأقوىٰ من مقام من اتبعه، فكيف يكون الأدنىٰ حسبًا للأعلىٰ والأقوىٰ؟

ومنها الخشية والخوف تعبدًا وتقربًا لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران]. وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ﴾ [المائدة:٣]. وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣﴾



[التوبة] وقوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة]. فجعل الرهبة له وحده كما جعل العبادة له وحده في قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [العنكبوت].

ومنها التقوىٰ تعبدًا وتقربًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ [البقرة]. وقوله: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾ [النحل]. وقوله: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾ [النحل] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب].



فصلٌ

وأما توحيد الأسماء والصفات: فهو إفراد الله تعالىٰ بأسمائه وصفاته وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات في كتابه أو علىٰ لسان رسوله ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

فلا يجوز نفي شيء مما سمىٰ الله به نفسه، أو وصف به نفسه لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [الأعراف]. ولأن ذلك تعطيل يستلزم تحريف النصوص أو تكذيبها مع وصف الله تعالىٰ بالنقائص والعيوب.

ولا يجوز تسمية الله تعالىٰ أو وصفه بما لم يأت في الكتاب والسنة؛ لأن ذلك قول علىٰ الله تعالىٰ بلا علم وقد قال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف:٣٣]. وقال: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ۝٣٦﴾ [الإسراء].

ولا يجوز إثبات اسم أو صفة لله تعالىٰ مع التمثيل لقوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورىٰ]. وقوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧٤﴾ [النحل:٧٤]. ولأن ذلك إشراك بالله تعالىٰ يستلزم تحريف النصوص أو تكذيبها مع تنقص الله تعالىٰ بتمثيله بالمخلوق الناقص.

ولا يجوز إثبات اسم أو صفة لله تعالىٰ مع التكييف؛ لأن ذلك قول علىٰ الله تعالىٰ بلا



علم، يستلزم الفوضىٰ والتخبط في صفات الله تعالىٰ إذ كل واحد يتخيل كيفية معينة غير ما تخيله الآخر، ولأن ذلك محاولة لإدراك مالا يمكن إدراكه بالعقول، فإنك مهما قدرت من كيفية فالله أعلىٰ وأعظم.

وهذا النوع من التوحيد هو الذي كثر فيه الخوض بين **أهل القبلة فانقسموا في النصوص الواردة فيه إلىٰ ستة أقسام:**

القسم الأول: من أجروها علىٰ ظاهرها اللائق بالله تعالىٰ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وهؤلاء هم السلف، وهذا هو الصواب المقطوع به لدلالة الكتاب، والسنة، والعقل، والإجماع السابق عليه دلالة قطعية أو ظنية.

القسم الثاني: من أجروها علىٰ ظاهرها لكن جعلوها من جنس صفات المخلوقين. وهؤلاء هم الممثلة، ومذهبهم باطل بالكتاب، والسنة والعقل، وإنكار السلف.

القسم الثالث: من أجروها علىٰ خلال ظاهرها، وعينوا لها معاني بعقولهم، وحرفوا من أجلها النصوص. وهؤلاء هم أهل التعطيل فمنهم من عطل تعطيلًا كبيرًا كالجهمية والمعتزلة ونحوهم، ومنهم من عطل دون ذلك كالأشاعرة.

القسم الرابع: من قالوا: الله أعلم بما أراد بها، فوضوا علم معانيها إلىٰ الله وحده. وهؤلاء هم أهل التجهيل المفوضة، وتناقض بعضهم فقال: الله أعلم بما أراد، لكنه لم يرد إثبات صفة خارجية له تعالىٰ.

القسم الخامس: من قالوا: يجوز أن يكون المراد بهذه النصوص إثبات صفة تليق بالله تعالىٰ وألا يكون المراد ذلك. وهؤلاء كثير من الفقهاء وغيرهم.

القسم السادس: من أعرضوا بقلوبهم وأمسكوا بألسنتهم عن هذا كله واقتصروا علىٰ قراءة النصوص ولم يقولوا فيها بشيء.

وهذه الأقسام سوىٰ الأولىٰ باطلة كما قد تبين في غير هذا الموضع.



فصلٌ

وبهذا التقرير عن أقسام التوحيد يتبين غلط عامة المتكلمين في مسمىٰ التوحيد حيث جعلوه ثلاثة أنواع:



الأول: أن الله واحد في ذاته لا قسيم له، أو لا جزء له، أو لا بعض له.

الثاني: أنه واحد في صفاته لا شبيه له.

الثالث: أنه واحد في أفعاله لا شريك له.

وبيان غلطهم في وجوه:

أحدها: أنهم لم يدخلوا فيه توحيد الألوهية، وهو أن الله تعالىٰ واحد في ألوهيته لا شريك له فيفرد وحده بالعبادة.

مع أن هذا النوع من التوحيد هو الذي من أجله خلق الجن والإنس؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

ومن أجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. وقد قام الرسل عليهم الصلاة والسلام بذلك يدعون قومهم ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٨٩]. أي: ما لكم من معبود حق غير الله، فجميع الآلهة سواه باطلة كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠﴾ [لقمان].

ومن أجله قامت المعارك الكلامية والقتالية بين الرسل وأقوامهم المكذبين لهم كما قال الله تعالىٰ عن قوم نوح: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢﴾ [هود]. وقال عن قوم هود: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ [هود]. وقال في إبراهيم وقومه: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء]. وقال عن المكذبين لمحمد ﷺ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦] وقال: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ



مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص]. وقال في أعدائه: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة].

والمهم أن هذا التوحيد الذي هذا شأنه قد أغفله عامة المتكلمين الذين يتكلمون في أنواع التوحيد، وهو أحد وجوه غلطهم في مسمىٰ التوحيد.

الوجه الثاني: قولهم: «إن الله واحد في ذاته لا قسيم له ...» الخ فيه إجمال:

فإن أرادوا به أن الله تعال لا يتجزأ ولا يتفرق ولا يكون مركبًا من أجزاء فهذا حق، فإن الله تعالىٰ أحد صمد، لم يلد ولم يكن له كفوًا أحد.

وإن أرادوا به مع ذلك نفي ما وصف به نفسه كعلوه واستوائه علىٰ عرشه، ووجهه، ويديه ونحو ذلك – وهذا مرادهم – فهو باطل، لأن الله تعالىٰ قد أثبت لنفسه من صفات الكمال من هذا وغيره ما هو أهل له. وتوحيده فيها إثباتها له علىٰ الوجه اللائق به بدون تمثيل لا أن تنفىٰ عنه بنوع من التحريف والتعطيل.

الوجه الثالث: قولهم: «واحد في صفاته لا شبيه له» فيه إجمال:

فإن أرادوا به إثبات صفات الله تعالىٰ علىٰ الوجه اللائق به من غير أن يماثله أحد فيما يختص به فهذا حق، وهو مذهب السلف لكن عامة المتكلمين لا يريدون ذلك.

وإن أرادوا به نفي أن يكون شيء من المخلوقات مماثلًا له من كل وجه، لهذا لغو لا حاجة إليه فهو كقول القائل: السماء فوقنا والأرض تحتنا، لأن مماثلة الخالق للمخلوق من كل وجه معلوم الانتفاء، - بل الامتناع – بضرورة العقل، والسمع، وإجماع العقلاء؛ ولهذا لم يثبت أحد من الأمم أحدًا مماثلًا لله تعالىٰ من كل وجه، وغاية من شبه به شيئًا أن يشبهه به في بعض الأمور.

وإن أرادوا به نفي أن يكون بين صفات الخالق والمخلوق قدر مشترك مع تميز كل منهما بما يختص به – وهذا مرادهم – فهو باطل، لأنه قد علم بضرورة العقل أن كل موجودين قائمين بأنفسهما لابد من قدر مشترك بينهما مع تميز كل واحد منهما بما يختص به، كاتفاقهما في مسمىٰ الوجود والذات والقيام بالنفس ... ونحو ذلك، ونفي هذا القدر



تعطيل محض.

والقول بهذا المراد لا يمنع نفي ما يجب لله تعالىٰ من صفات الكمال عند من يرىٰ أن إثبات ذلك يستلزم التشبيه، فقد سبق أن أهل التعطيل من الجهمية والمعتزلة وغيرهم أدخلوا نفي الصفات في مسمىٰ التوحيد وقالوا: من أثبت لله علمًا أو قدرة ونحو ذلك فهو مشبه غير موحد، وزاد عليهم غلاة الفلاسفة والقرامطة فأدخلوا فيه نفي الأسماء وقالوا: من قال إن الله عليم قدير ... ونحو ذلك فهو مشبه غير موحد، وزاد عليهم غلاة الغلاة فقالوا: إن الله لا يوصف بما يتضمن إثباتًا أو نفيًا، فمن نفىٰ عنه صفة، أو أثبت له صفة فهو مشبه غير موحد!

وقد سبق الرد علىٰ هؤلاء الطوائف في أول الرسالة ولله الحمد.

الوجه الرابع: قولهم: «واجد في أفعاله لا شريك له» وهذا أشهر أنواع التوحيد عندهم، ويعنون به أن خالق العالم واحد، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب وأن هذا معنىٰ «لا إله إلا الله» فيجعلون معناها: لا قار علىٰ الاختراع إلا الله.

ومعلوم أن هذا خطأ من وجهين:

الأول: أن هذا الذي قرروه قد أقر به المشركون الذين قاتلهم النبي ﷺ فإنهم لم يجعلوا لله شريكًا في أفعاله كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت]. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. ومع هذا لم يكونوا موحدين، بل هم مشركون بدلالة الكتاب والسنة والإجماع المعلوم بالضرورة من دين الإسلام لكونهم أنكروا توحيد الألوهية وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [صّ] ولهذا قاتلهم النبي ﷺ مستبيحًا دماءهم وأموالهم، وسبىٰ ذراريهم ونساءهم.

الثاني: أن تفسيرهم «لا إله إلا الله» بهذا التفسير الذي ذكروه أي أنه لا قادر علىٰ الاختراع إلا الله، يقتضي أن من أقر بأن الله وحده هو القادر علىٰ الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا الله وعصم دمه وماله.

ومعلوم أن تفسيرها بهذا المعنىٰ باطل مخالف لما عرفه المسلمون منها فإن تفسيرها الصحيح: أن لا معبود حق إلا الله، هذا هو الذي يعرفه المسلمون من معناها، بل



والمشركون، ألا ترىٰ إلىٰ قول الله تعالىٰ فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات]. وكانوا لا يستكبرون عن الإقرار بقلوبهم وألسنتهم بأن الله هو الخالق وحده، ولا يدعون أن آلهتهم تخلق شيئًا، فتبين بذلك أن المشركين أعلم وأفقه بمعنىٰ لا إله إلا الله من هؤلاء المتكلمين، وأن غاية ما يقرره هؤلاء المتكلمون من التوحيد توحيد الربوبية الذي لا يخلص الإنسان من الشرك، ولا يعصم به دمه وماله، ولا يسلم به من الخلود في النار.

وقد سلك هذا المسلك طوائف من أهل التصوف المنتسبين إلىٰ المعرفة والتحقيق والتوحيد، فكان غاية ما عندهم من التوحيد: أن يشهد المرء أن الله رب كل شيء، ومليكه، وخالقه لاسيما إذا غاب العارف بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمعروفه عن معرفته، ودخل في فناء توحيد الربوبية بحيث ينفىٰ من لم يكن ويبقىٰ من لم يزل.

ومعلوم أن هذه الغاية هي ما أقر به المشركون من التوحيد، وهي غاية لا يكون بها الرجل مسلمًا، فضلًا عن أن يكون من أولياء الله تعالىٰ وسادة خلقه.



فصلٌ: في الفناء وأقسامه

الفناء لغة: الزوال. قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن].

والفناء في الاصطلاح ثلاثة أقسام:

الأول: ديني شرعي: وهو الفناء عن إرادة السوىٰ، أي: عن إرادة ما سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بحيث يفنىٰ بالإخلاص لله عن الشرك، وبشريعته عن البدعة، وبطاعته عن معصيته، وبالتوكل عليه عن التعلق بغيره، وبمراد ربه عن مراد نفسه ... إلىٰ غير ذلك مما يشتغل به من مرضاة الله عما سواه.

وحقيقته: انشغال العبد بما يقربه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عما لا يقربه إليه وإن سمي فناء في اصطلاحهم.

وهذا فناء شرعي به جاءت الرسل، ونزلت الكتب، وبه قيام الدين، والدنيا، وصلاح الآخرة، والدنيا.



قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء]. وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون].

وهذا هو الذوق الإيماني الحقيقي الذي لا يعادله ذوق:

ففي «الصحيحين» عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

وفي «صحيح مسلم» عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا**».

القسم الثاني: صوفي بدعي: وهو: الفناء عن شهود السوىٰ، أي: عن شهود ما سوىٰ الله تعالىٰ، وذلك أنه بما ورد علىٰ قلبه من التعلق بالله عَزَّ وَجَلَّ وضعفه عن تحمل هذا الوارد ومقاومته غاب عن قلبه كل ما سوىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، ففني بهذه الغيبوبة عن شهود ما سواه، ففني بالمعبود عن العبادة وبالمذكور عن الذكر، حتىٰ صار لا يدري أهو في عبادة وذكر أم لا؟ لأنه غائب عن ذلك بالمعبود والمذكور لقوة سيطرة الوارد علىٰ قلبه.

وهذا فناء يحصل لبعض أرباب السلوك.

وهو فناء ناقص من وجوه:

الأول: أنه دليل علىٰ ضعف قلب الفاني، وأنه لم يستطع الجمع بين شهود المعبود والعبادة، والآمر والمأمور به، واعتقد أنه إذا شاهد العبادة والأمر اشتغل به عن المعبود والآمر، بل إذا ذكر العبادة والذكر كان ذلك اشتغالًا عن المعبود والمذكور.

الثاني: أنه يصل بصاحبه إلىٰ حال تشبه حال المجانين والسكارىٰ، حتىٰ إنه ليصدر عنه من الشطحات القولية والفعلية المخالفة للشرع ما يعلم هو وغيره غلطه فيها كقول بعضهم



في هذه الحال: سبحاني.. سبحاني ... أنا الله ... ما في الجبة إلا الله ... أنصب خيمتي علىٰ جهنم ... ونحو ذلك من الهذيان والشطح.

الثالث: أن هذا الفناء لم يقع من المخلصين الكمل من عباد الله؛ فلم يحصل للرسل ولا للأنبياء ولا للصديقين والشهداء.

فهذا رسول الله ﷺ رأىٰ ليلة المعراج من آيات الله اليقينية ما لم يقع لأحد من البشر وفي هذه الحال كان ﷺ علىٰ غاية من الثبات في قواه الظاهرة والباطنة كما قال الله تعالىٰ عن قواه الظاهرة: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [لنجم] وقال عن قواه الباطنة: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [لنجم].

وهاهم الخلفاء الراشدون أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم أفضل البشر بعد الأنبياء، وسادات أوليائهم، لم يقع لهم مثل هذا الفناء.

وهاهم سائر الصحابة مع علو مقامهم وكمال أحوالهم لم يقع لهم مثل هذا الفناء.

وإنما حدث هذا في عصر التابعين، فوقع منه من بعض العباد والنساك ما وقع، فكان منهم من يصرخ، ومنهم من يصعق، ومنهم من يموت، وعرف هذا كثيرًا في بعض مشايخ الصوفية.

ومن جعل هذا نهاية السالكين فقد ضل ضلالًا مبينًا، ومن جعله من لوازم السير إلىٰ الله فقد أخطأ.

وحقيقته: أنه من العوارض التي تعرض لبعض السالكين لقوة الوارد علىٰ قلوبهم وضعفها عن مقاومته، وعن الجمع بين شهود العبادة والمعبود ونحو ذلك.

القسم الثالث: فناء إلحادي كفري: وهو الفناء عن وجود السوىٰ. أي: عن وجود ما سوىٰ الله عز وجل بحيث يرىٰ أن الخالق عين المخلوق، وأن الموجود عين الموجد، وليس ثمة رب ومربوب، وخالق ومخلوق، وعابد ومعبود، وآمر ومأمور، بل الكل شيء واحد وعين واحدة.

وهذا فناء أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود كابن عربي، والتلمساني وابن سبعين، والقونوي ونحوهم.

وهؤلاء أكفر من النصارىٰ من وجهين:



أحدهما: أن هؤلاء جعلوا الرب الخالق عين المربوب المخلوق، وأولئك النصارىٰ جعلوا الرب متحدًا بعبده الذي اصطفاه بعد أن كانا غير متحدين.

الثاني: أن هؤلاء جعلوا اتحاد الرب ساريًا في كل شيء في الكلاب والخنازير، والأقذار، والأوساخ ... وأولئك النصارىٰ خصوه بمن عظموه كالمسيح.

وتصور هذا القول كاف في رده، إذ مقتضاه: أن الرب والعبد شيء واحد، والآكل والمأكول شيء واحد، والناكح والمنكوح شيء واحد، والخصم والقاضي شيء واحد، والمشهود له وعليه شيء واحد، وهذا غاية ما يكون من السفه والضلال.

قال الشيخ رحمه الله: ويذكر عن بعضهم أنه كان يأتي ابنه ويدعي أنه الله رب العالمين قبح الله طائفة يكون إلهها الذي تعبده هو موطؤها الذي تفترشه.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في النونية عن هذه الطائفة:

فَالْقَوْمُ مَا صَانُوهُ عَنْ إِنْسٍ ... وَلَا جِنٍّ وَلَا شَجَرٍ وَلَا حَيَوَانِ
لَكِنَّهُ الْمَطْعُومُ وَالْمَلْبُوسُ وَالْـ ... مَشْمُومُ وَالْمَسْمُوعُ بِالْآذَانِ
وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ الْمَنْكُوحُ وَالْـ ... مَذْبُوحُ بَلْ عَيْنُ الْغَوِيِّ الزَّانِي

إلىٰ أن قال:

هَذَا هُوَ الْمَعْبُودُ عِنْدَهُمُ فَقُلْ ... سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ
يَا أُمَّةً مَعْبُودُهَا مَوْطُوؤُهَا ... أَيْنَ الْإِلَهُ وَثَغْرَةُ الطَّعَّانِ
يَا أُمَّةً قَدْ صَارَ مِنْ كُفْرَانِهَا ... جُزْءًا يَسِيرًا جُمْلَةُ الْكُفْرَانِ



فصلٌ

ولا يتم الإسلام إلا بالبراءة مما سواه كما قال الله تعالىٰ عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ



سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف]. وبين أن لنا فيه أسوة حسنة فقال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١]. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة]. وقال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

والبراءة نوعان: براءة من عمل، براءة من عامل.

فأما البراءة من العمل: فتجب من كل عمل محرم سواء كان كفرًا أم دونه، فيبرأ المؤمن من الشرك، والزنىٰ، وشرب الخمر ونحو ذلك بحيث لا يرضاه ولا يقره، ولا يعمل به، لأن الرضا بذلك، أو إقراره، أو العمل به مضادة لله تعالىٰ ورضا بما لا يرضاه.

وأما البراءة من العامل: فإن كان عمله كفرًا وجبت البراءة منه بكل حال من كل وجه لما سبق من الآيات الكريمة، ولأنه لم يتصف بما يقتضي ولاءه.

وإن كان عمله دون الكفر وجبت البراءة منه من وجه دون وجه، فيوالىٰ بما معه من الإيمان والعمل الصالح، ويتبرأ منه بما معه من المعاصي؛ لأن الفسوق لا ينافي أصل الإيمان، فقد يكون في الإنسان خصال فسوق، وخصال طاعة، وخصال إيمان، وخصال كفر كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا



بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات]. فجعل الله تعالىٰ الطائفتين المقتتلتين إخوة للطائفة المصلحة، ووصفهم بالإيمان مع أن قتال المؤمن لأخيه من خصال الكفر لقول النبي ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ». ولم تكن هذه الخصلة الكفرية منافية لأصل الإيمان ولا رافعة للأخوة الإيمانية، ولا ريب أن الأخوة الإيمانية مقتضية للمحبة والولاية، ويقوىٰ مقتضاها بحسب قوة الإيمان والاستقامة.

وهذا الأصل – أعني: أنه قد يجتمع في الإنسان خصلة إيمان، وخصلة كفر – هو ما دل عليه الكتاب والسنة وكان عليه السلف والأئمة، فتكون المحبة والولاية تابعة لما معه من خصال الإيمان، والكراهة والعداوة تابعة لما عنده من خصال الكفر.



فصلٌ

المؤمن مأمور بفعل المأمور، وترك المحظور، والصبر علىٰ المقدور: قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران] وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف]. وقال عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝١٧﴾ [لقمان:١٧]. وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة].

ومأمور في جانب الطاعة بالإخلاص والاستغفار: قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد:١٩]. وقال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [هود:٢ – ٣]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت:٦].

وقال النبي ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ». وقال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ». أخرجهما مسلم.

وروىٰ البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».



والجامع لهذا: أنه لابد في الأمر من أصلين، ولابد في القدر من أصلين أيضًا:

أما الأصلان في الأمر فهما:

أصل قبل العمل أو مقارن له وهو: الاجتهاد في الامتثال علمًا وعملًا، فيجتهد في العلم بالله تعالىٰ، وأسمائه وصفاته، وأحكامه، ثم يعمل بما يقتضيه ذلك العلم من تصديق الأخبار، والعمل بالأحكام فعلًا للمأمور، وتركًا للمحظور.

والثاني: أصل بعد العمل: وهو الاستغفار والتوبة من التفريط في المأمور، أو التعدي في المحظور، ولهذا كان من المشروع ختم الأعمال بالاستغفار كما قال الله تعالىٰ:

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران]. فقاموا الليل وختموه بالاستغفار.

وكان النبي ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا.

وآخر سورة نزلت عليه سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر]. فكان بعد نزولها يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**». وكان نزولها إيذانًا بقرب أجله ﷺ كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في مجلس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمحضر من الصحابة فأقره عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: ما أعلم منها إلا ما تقول.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: «**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**». فجعل الاستغفار والتوبة خاتمة العمر كما جعلتا خاتمة العمل.

وأما الأصلان في القدر فهما:

أصل قبل المقدور وهو: الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، والاستعاذة به ودعاؤه رغبة ورهبة، فيكون معتمدًا علىٰ ربه، ملتجئًا إليه في حصول المطلوب ودفع المكروه.

والثاني: بعد المقدور وهو: الصبر علىٰ المقدور حيث يفوت مطلوبه، أو يقع مكروهه فيوطن نفسه عليه بحيث يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الحال لا يمكن أن تتغير عما قدره والحزن.

كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ

وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ [التغابن]. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال علقمة في الآية: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلم.

فإذا راعىٰ الأمر والقدر علىٰ الوجه الذين ذكرنا عابدًا لله تعالىٰ مستعينًا به متوكلًا عليه من الذين أنعم الله عليهم.

وقد جمع الله بين هذين الأصلين في أكثر من موضع كقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]. وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]. وقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود].



فصلٌ

والناس في هذا المقام – مقام الشرع والقدر – أربعة أقسام:

الأول: من حققوا هذه الأصول الأربعة: أصلي الشرع، وأصلي القدر، وهم المؤمنون المتقون الذي كان عندهم من عبادة الله تعالىٰ والاستعانة به ما تصلح به أحوالهم، فكانوا لله، وفي الله، وهؤلاء أهل القسط والعدل الذين شهدوا مقام الربوبية والألوهية، وهم أعلىٰ الأقسام، فإن هذا مقام الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء، والصالحين.

الثاني: من فاتهم التحقيق في أصلي القدر، فكان عندهم من عبادة الله تعالىٰ والاستقامة في شرعه ما عندهم، لكن ليس عندهم قوة في الاستعانة بالله والصبر علىٰ أحكامه الكونية والشرعية، فيصيبهم عند العمل من العجز والكسل ما يمنعهم من العمل أو إكماله، ويلحقهم بعد العمل من العجب والفخر ما قد يكون سببًا لحبوط عملهم وخذلانهم، وهؤلاء أضعف ممن سبقهم وأدنىٰ مقامًا وأقل عدلًا، لأن شهودهم مقام الإلهية غالب علىٰ شهود مقام الربوبية.

الثالث: من فاتهم التحقيق في أصلي الشرع، فكانوا ضعفاء في الاستقامة علىٰ أمر الله تعالىٰ ومتابعة شرعه، لكن عندهم قوة في الاستعانة بالله والتوكل عليه، ولكن قد يكون ذلك في أمور عندهم قوة في الاستعانة بالله والتوكل عليه، ولكن قد يكون ذلك في أمور لا يحبها



الله تعالىٰ ولا يرضاها، فيعان ويمكن له بقدر حاله، ويحصل له من المكاشفات والتأثيرات ما لا يحصل للقسم الذي قبله، لكن ما يحصل له من هذه الأمور يكون من نصيب العاجلة الدنيا، أما عاقبته فعاقبة سيئة، لأنه ليس من المتقين وإنما العاقبة للمتقين.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت].

فالله تعالىٰ يعلم أن هؤلاء سيشركون بعد أن ينجيهم لكن لما كانوا في البحر كانوا مخلصين في دعائهم الله تعالىٰ أن ينجيهم صادقين في تفويض الأمر إليه حصل مرادهم، ولما لم يكن لهم عبادة لم يستقم أمرهم وكان عاقبة أمرهم خسرًا.

فالفرق بين هؤلاء وبين القسم الذين قبلهم: أن الذين قبلهم كان لهم دين ضعيف لضعف استعانتهم بالله وتوكلهم عليه، لكنه مستمر باق إن لم يفسده صاحبه بالعجز والجزع. وهؤلاء لهم حال وقوة لكن لا يبقىٰ لهم إلا ما وافقوا فيه الأمر واتبعوا فيه السنة.

القسم الرابع: من فاتهم تحقيق أصلي الشرع، وأصلي القدر، فليس عندهم عبادة لله تعالىٰ، ولا استعانة به ولا لجوء إليه عند الشدة فهم مستكبرون عن عبادة الله مستغنون بأنفسهم عن خالقهم، وربما لجئوا في الشدائد وإدراك مطالبهم إلىٰ الشياطين فأطاعوها فيما تريد وأعانتهم فيما يريدون، فيظن الظان أن هذا من باب الكرامات، وهو من باب الإهانات؛ لأن عاقبتهم الذل والهوان. وهذا القسم شر الأقسام.



فصلٌ: في المفاضلة والمقارنة بين أرباب البدع

نظار المتكلمين الذين يدعون التحقيق وينتسبون إلىٰ السنة: يرون التوحيد عبارة عن تحقيق توحيد الربوبية.

وطوائف من أهل التصوف الذين ينتسبون إلىٰ التحقيق والمعرفة: غاية التوحيد عندهم شهود توحيد الربوبية. ومعلوم أن هذا هو ما أقر به المشركون، وأن الرجل لا يكون به مسلمًا، فضلًا عن أن يكون وليًا من أولياء الله، أو من سادات أولياء الله تعالىٰ.

وطائفة أخرىٰ: تقرر هذا التوحيد مع نفي الصفات، فيقعون في التقصير والتعطيل، وهذا شر من حال كثير من المشركين.



والجهم بن صفوان إمام الجهمية نفاة الصفات: يغلو في القضاء والقدر ويقول بالجبر، فيوافق المشركين في قولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، لكنه يثبت الأمر والنهي فيفارق المشركين إلا أنه يقول بالإرجاء فيضعف الأمر والنهي والعقاب عنده، لأن فاعل الكبيرة عنده مؤمن كامل الإيمان غير مستحق للعقاب.

والنجارية – أتباع الحسين بن محمد النجار – والضرارية – أتباع ضرار ابن عمرو وحفص الفرد –: يقربون من جهم في مسائل القدر والإيمان مع مقاربتهم له أيضًا في نفي الصفات.

والكلابية – أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب – والأشعرية – المنتسبون لأبي الحسن الأشعري –: خير من هؤلاء في باب الصفات، فإنهم يثبتون لله الصفات العقلية، وأئمتهم يثبتون الصفات الخبرية في الجملة، وأما في القدر ومسائل الأسماء والأحكام فأقوالهم متقاربة.

وأصحاب ابن كلاب – كالحارث المحاسبي –: خير من الأشعرية في هذا وهذا.

والكرامية أتباع محمد بن كرام: قولهم في الصفات، والقدر، والوعد، والوعيد أشبه من أكثر طوائف أهل الكلام التي في أقوالها مخالفة للسنة. وأما في الإيمان فقولهم منكر لم يسبقهم إليه أحد، فإنهم جعلوا الإيمان قول اللسان فقط وإن لم يكن معه تصديق القلب، فالمنافق عندهم مؤمن، ولكنه مخلد في النار.

والمعتزلة – أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري –: يقاربون قول جهم في الصفات فيقولون بنفيها، وأما في القدر والأسماء والأحكام فيخالفونه:

ففي القدر يقولون: إن العبد مستقل بعمله كامل الإرادة فيه، ليس لله في عمله تقدير ولا خلق. ففيهم نوع من الشرك من هذا الباب وجهم يقول: إن العبد مجبر علىٰ عمله، وليس له إرادة فيه.

وفي الأسماء والأحكام: يقول المعتزلة: إن فاعل الكبيرة خارج عن الإيمان غير داخل في الكفر فهو في منزلة بين منزلتين، ولكنه مخلد في النار. ويقول جهم: إنه مؤمن كامل الإيمان غير مستحق لدخول النار.

والمعتزلة خير من الجهمية فيما خالفوهم فيه من القدر والأسماء والأحكام، فإن إثبات



الأمر والنهي، والوعد والوعيد، مع نفي القدر خير من إثبات القدر مع نفي الأمر والنهي، والوعد والوعيد.

ولهذا لم يوجد في زمن الصحابة والتابعين من ينفي الأمر والنهي، والوعد والوعيد ووجد في زمنهم القدرية والخوارج الحرورية وإنما يظهر من البدع أولًا ما كان أخف، وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة، وكلما كان الرجل إلىٰ السلف والأئمة أقرب كان قوله أعلىٰ وأفضل.

والمتصوفة الذين يشهدون الحقيقة الكونية مع إعراضهم عن الأمر والنهي شر من القدرية المعتزلة ونحوهم، لأن هؤلاء المتصوفة يشبهون المشركين الذين قالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]. والقدرية يشبهون المجوس الذين قالوا: إن للعالم خالقين. والمشركون شر من المجوس.

أما الصوفية الذين عندهم شيء من تعظيم الأمر والنهي مع مشاهدة توحيد الربوبية وإقرارهم بالقدر، فهم خير من المعتزلة، لكنهم معتزلة من وجه آخر حيث جعلوا غاية التوحيد مشاهدة توحيد الربوبية، والفناء فيه فاعتزلوا بذلك جماعة المسلمين وسنتهم. وقد يكون ما وقعوا فيه من البدعة شرًّا من بدعة أولئك المعتزلة.

وكل هذه الطوائف عندها من الضلال والبدع بقدر ما فارقت به جماعة المسلمين وسنتهم.

ودين الله تعالىٰ: ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، وهو الصراط المستقيم طريق رسول الله ﷺ وأصحابه خير الأمة التي هي خير الأمم.

وقد أمرنا الله تعالىٰ أن نقول في صلاتنا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة]. فالمغضوب عليهم كاليهود عرفوا الحق فلم يتبعوه، والضالون كالنصارىٰ عبدوا الله بغير علم.

وكان يقال: تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا بيده ثم قال: «**هَـذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا**» وخط عن يمينه وشماله ثم قال: «**هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**» ثم قرأ: «﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ



عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٥٣]».

وقال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا معشر القراء استقيموا وخذوا طريق من قبلكم فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا.

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: من كان منك مستنًا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله تعالىٰ لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم علىٰ الهدىٰ المستقيم. نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا منهم، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، والحمد لله رب العالمين.

تم في ٢٢/ ٥/ ١٤١٠هـ.





متن: «مُقَدِّمَةٌ فِي أُصُولِ التَّفْسِيرِ»

لِشَيْخِ الإِسْلَامِ:

أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الحَلِيمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ ﷺ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ سَأَلَنِي بَعْضُ الْإِخْوَانِ أَنْ أَكْتُبَ لَهُ «مُقَدِّمَةً» تَتَضَمَّنُ قَوَاعِدَ كُلِّيَّةً، تُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَمَعْرِفَةِ تَفْسِيرِهِ وَمَعَانِيهِ، وَالتَّمْيِيزِ -فِي مَنْقُولِ ذَلِكَ وَمَعْقُولِهِ- بَيْنَ الْحَقِّ وَأَنْوَاعِ الْأَبَاطِيلِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ الدَّلِيلِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْأَقَاوِيلِ؛ فَإِنَّ الْكُتُبَ الْمُصَنَّفَةَ فِي التَّفْسِيرِ مَشْحُونَةٌ بِالْغَثِّ وَالسَّمِينِ، وَالْبَاطِلِ الْوَاضِحِ وَالْحَقِّ الْمُبِينِ.

وَالْعِلْمُ إِمَّا نَقْلٌ مُصَدَّقٌ عَنْ مَعْصُومٍ، وَإِمَّا قَوْلٌ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مَعْلُومٌ، وَمَا سِوَىٰ هَـٰذَا فَإِمَّا مُزَيَّفٌ مَرْدُودٌ، وَإِمَّا مَوْقُوفٌ لَا يُعْلَمُ أَنَّهُ بَهْرَجٌ وَلَا مَنْقُودٌ.

وَحَاجَةُ الْأُمَّةِ مَاسَّةٌ إِلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ: **حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَىٰ كَثْرَةِ التَّرْدِيدِ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، مَنْ قَالَ بِهِ صُدِّقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه].



وَقَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [إبراهيم].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

وَقَدْ كَتَبْتُ هٰذه «الْمُقَدِّمَةَ» مُخْتَصَرَةً، بِحَسَبِ تَيْسِيرِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ إمْلَاءِ الْفُؤَادِ، وَاللهُ الْهَادِي إِلَىٰ سَبِيلِ الرَّشَادِ.



فَصْلٌ فِي أَنّ النَّبِي ﷺ بيَّن لأَصْحَابِهِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ

يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ لأَصْحَابِهِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ؛ كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَلْفَاظَهُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] يَتَنَاوَلُ هٰذا وَهٰذا.

وَقَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ، -كَـ: عُثْمَانَ بْنِ عفَّان، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَغَيْرِهِمَا-: (أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا). وَلِهٰذا كَانُوا يَبْقَوْنَ مُدَّةً فِي حِفْظِ السُّورَةِ.

وَقَالَ أَنَسٌ: (كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ «الْبَقَرَةَ» وَ«آلَ عِمْرَانَ» جَدَّ فِي أَعْيُنِنَا).

وَأَقَامَ ابْنُ عُمَرَ عَلَىٰ حِفْظِ «الْبَقَرَةِ» عِدَّةَ سِنِينَ -قِيلَ: ثَمَانِي سِنِينَ- ذَكَرَهُ مَالِكٌ.

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد:٢٤]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾



[المؤمنون:٦٨]، وَتَدَبُّــرُ الْكَلَامِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ لَا يُمْكِنُ.

وَكَذَٰلِكَ قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسـف]، وَعَقْـلُ الْكَلَامِ مُتَضَمِّنٌ لِفَهْمِه.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ فَالْمَقْصُودُ مِنْهُ: فَهْمُ مَعَانِيهِ، دُونَ مُجَرَّدِ أَلْفَاظِهِ، فَالْقُرْآنُ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ.

وَأَيْضًا فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِـنَ الْعِلْـمِ كَـ«الطِّبِّ» وَ«الْحِسَـابِ»، وَلَا يَسْتَشْرِحُوهُ، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ الَّذِي هُوَ عِصْـمَتُهُمْ، وَبِـهِ نَجَـاتُهُمْ وَسَـعَادَتُهُمْ، وَقِيَـامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟!

وَلِهَـٰذا كَانَ النِّزَاعُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» قَلِيلًا جِدًّا، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الصَّحَابَةِ، فَهُوَ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَكُلَّمَـا كَـانَ الْعَصْـرُ أَشْـرَفَ كَـانَ الِاجْتِمَاعُ والِائتِلَافُ وَالْعِلْمُ وَالْبَيَانُ فِيهِ أَكْثَرَ.

وَمِنَ التَّابِعِينَ مَنْ تَلَقَّـىٰ جَمِيـعَ التَّفْسِـيرِ عَـنِ الصَّـحَابَةِ؛ كَمَـا قَـالَ مُجَاهِـدٌ: (عَرَضْـتُ الْمُصْحَفَ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ، وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا).

وَلِهَـٰذا قَالَ الثَّوْرِيُّ: (إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُك بِهِ).

وَلِهَـٰذا يَعْتَمِدُ عَلَىٰ تَفْسِيرِهِ: الشَّافِعِيُّ وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَكَذَٰلِكَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ مِمَّنْ صَنَّفَ فِي التَّفْسِيرِ يُكَرِّرُ الطُّرُقَ عَنْ مُجَاهِـدٍ أَكْثَـرَ مِـنْ غَيْرِهِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ التَّابِعِينَ تَلَقَّوُا التَّفْسِيرَ عَنْ الصَّحَابَةِ كَمَا تَلَقَّوْا عَنْهُمْ عِلْمَ السُّنَّةِ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَتَكَلَّمُونَ فِي بَعْضِ ذَلِـكَ بِالِاسْـتِنْبَاطِ وَالِاسْـتِدْلَالِ؛ كَمَـا يَتَكَلَّمُـونَ فِـي بَعْـضِ السُّـنَنِ بِالِاسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِدْلَالِ.



فَصْلٌ فِي اخْتِلَافِ السَّلَفِ فِي التَّفْسِيرِ وَأَنَّهُ اخْتِلَافُ تَنَوُّعٍ

وَالْخِلَافُ بَيْنَ السَّلَفِ فِي التَّفْسِيرِ قَلِيلٌ، وَخِلَافُهُمْ فِي الْأَحْكَامِ أَكْثَـرُ مِـنْ خِلَافِهِـمْ فِـي التَّفْسِيرِ، وَغَالِبُ مَا يَصِحُّ عَنْهُمْ مِنَ الْخِلَافِ يَرْجِعُ إِلَىٰ «اخْتِلَافِ تَنَوُّعٍ» لَا «اخْتِلَافِ تَضَادٍّ»، وَذَلِكَ صِنْفَانِ:



أَحَدُهُمَا: أَنْ يُعَبِّرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنِ الْمُرَادِ بِعِبَارَةٍ غَيْرِ عِبَارَةِ صَاحِبِهِ، تَدُلُّ عَلَىٰ مَعْنًىٰ فِي الْمُسَمَّىٰ غَيْرِ الْمَعْنَىٰ الْآخَرِ، مَعَ اتِّحَادِ الْمُسَمَّىٰ، بِمَنْزِلَةِ الْأَسْمَاءِ الْمُتَكَافِئَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمُتَرَادِفَةِ وَالْمُتَبَايِنَةِ؛ كَمَا قِيلَ فِي اسْمِ السَّيْفِ: «الصَّارِمُ» وَ«الْمُهَنَّدُ». وَذَلِكَ مِثْلُ: أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، وَأَسْمَاءِ رَسُولِ الله ﷺ، وَأَسْمَاءِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ أَسْمَاءَ اللهِ كُلَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ مُسَمًّىٰ وَاحِدٍ.

فَلَيْسَ دُعَاؤُهُ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ مُضَادًّا لِدُعَائِهِ بِاسْمٍ آخَرَ؛ بَلْ إِنَّ الأَمْرَ كَمَا قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء:١١٠]، وَكُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ الْمُسَمَّاةِ وَعَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا الاسْمُ؛ كَـ«الْعَلِيمِ» يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ وَالْعِلْمِ، وَ«الْقَدِيرِ» يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ وَالْقُدْرَةِ، وَ«الرَّحِيمِ» يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ وَالرَّحْمَةِ.

وَمَنْ أَنْكَرَ دَلَالَةَ أَسْمَائِهِ عَلَىٰ صِفَاتِهِ مِمَّنْ يَدَّعِي الظَّاهِرَ، فَقَوْلُهُ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ غُلَاةِ الْبَاطِنِيَّةِ «الْقَرَامِطَةِ» الَّذِينَ يَقُولُونَ: (لَا يُقَالُ هُوَ حَيٌّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ)؛ بَلْ يَنْفُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ؛ فَإِنَّ أُولَئِكَ «الْقَرَامِطَةَ الْبَاطِنِيَّةَ» لَا يُنْكِرُونَ اسْمًا هُوَ عَلَمٌ مَحْضٌ كَالْمُضْمَرَاتِ وَإِنَّمَا يُنْكِرُونَ مَا فِي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ مِنْ صِفَاتِ الْإِثْبَاتِ؛ فَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَىٰ مَقْصُودِهِمْ كَانَ -مَعَ دَعْوَاهُ الْغُلُوَّ فِي الظَّاهِرِ- مُوَافِقًا لِغُلَاةِ الْبَاطِنِيَّةِ فِي ذَلِكَ، وَلَيْسَ هَـٰذَا مَوْضِعَ بَسْطِ ذَلِكَ.

وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ: أَنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ ذَاتِهِ، وَعَلَىٰ مَا فِي الاسْمِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي فِي الِاسْمِ الآخَرِ بِطَرِيقِ اللُّزُومِ.

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُ: «مُحَمَّدٍ»، وَ«أَحْمَدَ»، وَ«الْمَاحِي»، وَ«الْحَاشِرِ»، وَ«الْعَاقِبِ».

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ؛ مِثْلُ: «الْقُرْآنِ»، وَ«الْفُرْقَانِ»، وَ«الْهُدَىٰ»، وَ«الشِّفَاءِ»، وَ«الْبَيَانِ»، وَ«الْكِتَابِ»، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

فَإِذَا كَانَ مَقْصُودُ السَّائِلِ تَعْيِينَ الْمُسَمَّىٰ، عَبَّرْنَا عَنْهُ بِأَيِّ اسْمٍ كَانَ إِذَا عُرِفَ مُسَمَّىٰ هَـٰذَا الاسْمِ، وَقَدْ يَكُونُ الاسْمُ عَلَمًا، وَقَدْ يَكُونُ صِفَةً.

كَمَنْ يَسْأَلُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ [طه:١٢٤] مَا ذِكْرُهُ؟، فَيُقَالُ لَهُ: هُوَ «الْقُرْآنُ» مَثَلًا، أَوْ: مَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْكُتُبِ، فَإِنَّ «الذِّكْرَ» مَصْدَرٌ، وَالْمَصْدَرُ تَارَةً يُضَافُ إِلَىٰ



الْفَاعِلِ، وَتَارَةً إِلَىٰ الْمَفْعُولِ.

فَإِذَا قِيلَ: ذِكْرُ اللهِ بِالْمَعْنَىٰ الثَّانِي، كَانَ مَا يُذْكَرُ بِهِ؛ مِثْلَ قَوْلِ الْعَبْدِ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ».

وَإِذَا قِيلَ بِالْمَعْنَىٰ الْأَوَّلِ كَانَ مَا يَذْكُرُهُ هُوَ، وَهُوَ كَلَامُهُ، وَهٰذا هُوَ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ [طه:١٢٤]؛ لِأَنَّهُ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه]، وَهُدَاهُ هُوَ: مَا أَنْزَلَهُ مِنَ الذِّكْرِ، وَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾[طه].

وَالْمَقْصُودُ: أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الذِّكْرَ هُوَ كَلَامُهُ الْمُنَزَّلُ، أَوْ هُوَ ذِكْرُ الْعَبْدِ لَهُ، فَسَوَاءٌ قِيلَ: (ذِكْرِي) كِتَابِي، أَوْ كَلَامِي، أَوْ هُدَايَ.. أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْمُسَمَّىٰ وَاحِدًا.

وَإِنْ كَانَ مَقْصُودُ السَّائِلِ مَعْرِفَةَ مَا فِي الِاسْمِ مِنَ الصِّفَةِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ قَدْرٍ زَائِدٍ عَلَىٰ تَعْيِينِ الْمُسَمَّىٰ؛ مِثْلُ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣]، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ اللهُ؛ لَكِنَّ مُرَادَهُ: مَا مَعْنَىٰ كَوْنِهِ قُدُّوسًا سَلَامًا مُؤْمِنًا؟، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

إِذَا عُرِفَ هٰذا، فَالسَّلَفُ كَثِيرًا مَا يُعَبِّرُونَ عَنِ الْمُسَمَّىٰ بِعِبَارَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ عَيْنِهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الصِّفَةِ مَا لَيْسَ فِي الِاسْمِ الْآخَرِ؛ كَمَنْ يَقُولُ: (أَحْمَدُ هُوَ: الْحَاشِرُ، وَالْمَاحِي، وَالْعَاقِبُ). وَ(الْقُدُّوسُ: هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)؛ أَيْ: أَنَّ الْمُسَمَّىٰ وَاحِدٌ، لَا أَنَّ هٰذه الصِّفَةَ هِيَ هٰذه الصِّفَةُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هٰذا لَيْسَ اخْتِلَافَ تَضَادٍّ كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ النَّاسِ؛ مِثَالُ ذَلِكَ: تَفْسِيرُهُمْ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ «الْقُرْآنُ»؛ أَيْ: اتِّبَاعُهُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَرَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ -مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ-: «**هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ**».

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ «الإِسْلَامُ»؛ لِقَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا: صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، وَفِي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، وَدَاعٍ يَدْعُو عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ**»، قَالَ: «**فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ،**



وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ، وَالدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ».

فَهٰذانِ الْقَوْلَانِ مُتَّفِقَانِ؛ لِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ اتِّبَاعُ «الْقُرْآنِ»؛ وَلَكِنْ كُلٌّ مِنْهُمَا نَبَّهَ عَلَىٰ وَصْفٍ غَيْرِ الْوَصْفِ الْآخَرِ، كَمَا أَنَّ لَفْظَ (الصِّرَاطِ) يُشْعِرُ بِوَصْفٍ ثَالِثٍ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ «السُّنَّةُ وَالْجَمَاعَةُ».

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ «طَرِيقُ الْعُبُودِيَّةِ».

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ «طَاعَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ»، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ أَشَارُوا إِلَىٰ ذَاتٍ وَاحِدَةٍ؛ لَكِنْ وَصَفَهَا كُلٌّ مِنْهُمْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهَا.

الصِّنْفُ الثَّانِي: أَنْ يَذْكُرَ كُلٌّ مِنْهُمْ مِنَ الِاسْمِ الْعَامِّ بَعْضَ أَنْوَاعِهِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، وَتَنْبِيهِ الْمُسْتَمِعِ عَلَىٰ النَّوْعِ، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْحَدِّ الْمُطَابِقِ لِلْمَحْدُودِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ.

مِثْلُ سَائِلٍ أَعْجَمِيٍّ سَأَلَ عَنْ مُسَمَّىٰ لَفْظِ «الْخُبْزِ» فَأُرِيَ رَغِيفًا، وَقِيلَ لَهُ: هٰذا. فَالْإِشَارَةُ إِلَىٰ نَوْعِ هٰذَا، لَا إِلَىٰ هٰذا الرَّغِيفِ وَحْدَهُ.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَا نُقِلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢].

فَمَعْلُومٌ أَنَّ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ يَتَنَاوَلُ الْمُضَيِّعَ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُنْتَهِكَ لِلْمُحَرَّمَاتِ، وَالْمُقْتَصِدُ يَتَنَاوَلُ فَاعِلَ الْوَاجِبَاتِ وَتَارِكَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالسَّابِقُ يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ سَبَقَ فَتَقَرَّبَ بِالْحَسَنَاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ.

فَالْمُقْتَصِدُونَ هُمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة].

ثُمَّ إِنَّ كُلًّا مِنْهُمْ يَذْكُرُ هٰذا فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ.

كَقَوْلِ الْقَائِلِ: «السَّابِقُ»: الَّذِي يُصَلِّي فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، وَ«الْمُقْتَصِدُ»: الَّذِي يُصَلِّي فِي أَثْنَائِهِ، وَ«الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ»: الَّذِي يُؤَخِّرُ الْعَصْرَ إِلَىٰ الاصْفِرَارِ.

أو يَقُولُ: السَّابِقُ وَالْمُقْتَصِدُ قَدْ ذَكَرَهُمْ فِي آخِرِ «سُورَةِ الْبَقَرَةِ»، فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْمُحْسِنَ بِالصَّدَقَةِ، وَالظَّالِمَ بِأَكْلِ الرِّبَا، وَالْعَادِلَ بِالْبَيْعِ، وَالنَّاسُ فِي الْأَمْوَالِ إِمَّا مُحْسِنٌ، وَإِمَّا عَادِلٌ، وَإِمَّا ظَالِمٌ؛ فَـ«السَّابِقُ» الْمُحْسِنُ بِأَدَاءِ الْمُسْتَحَبَّاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ وَ«الظَّالِمُ» آكِلُ الرِّبَا، أَوْ



مَانِعُ الزَّكَاةِ، وَ«الْمُقْتَصِدُ» الَّذِي يُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَلَا يَأْكُلُ الرِّبَا، وَأَمْثَالَ هَٰذِه الأَقَاوِيل.

فَكُلُّ قَوْلٍ: فِيهِ ذِكْرُ نَوْعٍ دَاخِلٌ فِي الآيَةِ، إِنَّمَا ذُكِرَ لِتَعْرِيفِ الْمُسْتَمِعِ بِتَنَاوُلِ الْآيَةِ لَهُ، وَتَنْبِيهِهِ بِهِ عَلَىٰ نَظِيرِه، فَإِنَّ التَّعْرِيفَ بِالْمِثَالِ قَدْ يُسَهِّلُ أَكْثَرَ مِنَ التَّعْرِيفِ بِالْحَدِّ الْمُطابِقِ.

وَالْعَقْلُ السَّلِيمُ يَتَفَطَّنُ لِلنَّوْعِ؛ كَمَا يَتَفَطَّنُ إِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَىٰ رَغِيفٍ، فَقِيلَ لَهُ: هَٰذا هُوَ الْخُبْزُ.

وَقَدْ يَجِيءُ كَثِيرًا مِنْ هَٰذا الْبَابِ قَوْلُهُمْ: هَٰذه الآيَةُ نَزَلَتْ فِي كَذَا، لَاسِيَّمَا إِنْ كَانَ الْمَذْكُورُ شَخْصًا؛ كَأَسْبَابِ النُّزُولِ الْمَذْكُورَةِ فِي التَّفْسِيرِ؛ كَقَوْلِهِمْ:

إِنَّ «آيَةَ الظِّهَارِ» نَزَلَتْ فِي امْرَأَةِ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ.

وَإِنَّ «آيَةَ اللِّعَانِ» نَزَلَتْ فِي عُوَيْمَرْ العَجْلَانِي، أَوْ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ.

وَإِنَّ «آيَةَ الْكَلَالَةِ» نَزَلَتْ فِي جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ.

وَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة:٤٩]، نَزَلَتْ فِي «بَنِي قُرَيْظَةَ» وَ«النَّضِيرِ».

وَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ ﴾ [الأنفال:١٦]، نَزَلَتْ فِي «بَدْرٍ».

وَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ [المائدة:١٠٦] نَزَلَتْ فِي قَضِيَّةِ تَمِيمٍ الدَّارِي وَعَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ.

وَقَوْلُ أَبِي أَيُّوبَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، نَزَلَتْ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ... الْحَدِيثَ.

وَنَظَائِرُ هَٰذا كَثِيرٌ مِمَّا يَذْكُرُونَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، أَوْ فِي قَوْم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَالَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمْ يَقْصِدُوا أَنَّ حُكْمَ الْآيَةِ مُخْتَصٌّ بِأُولَئِكَ الأَعْيَانِ دُونَ غَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ هَٰذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ.

وَالنَّاسُ وَإِنْ تَنَازَعُوا فِي اللَّفْظِ الْعَامِّ الْوَارِدِ عَلَىٰ سَبَبٍ، هَلْ يَخْتَصُّ بِسَبَبِهِ أَمْ لَا؟ فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ: إِنَّ عُمُومَاتِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَخْتَصُّ بِالشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ، وَإِنَّمَا غَايَةُ مَا يُقَالُ: إِنَّهَا تَخْتَصُّ بِنَوْعِ ذَلِكَ الشَّخْصِ؛ فَتَعُمُّ مَا يُشْبِهُهُ، وَلَا يَكُونُ الْعُمُومُ فِيهَا



بِحَسَبِ اللَّفْظِ.

وَالآيَةُ الَّتِي لَهَا سَبَبٌ مُعَيَّنٌ؛ إنْ كَانَتْ «أَمْرًا» أَوْ «نَهْيًا» فَهِيَ مُتَنَاوِلَةٌ لِذَلِكَ الشَّخْصِ وَلِغَيْرِهِ مِمَّنْ كَانَ بِمَنْزِلَتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ «خَبَرًا» بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ فَهِيَ مُتَنَاوِلَةٌ لِذَلِكَ الشَّخْصِ وَلِمَنْ كَانَ بِمَنْزِلَتِهِ.

وَمَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ تُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ الْآيَةِ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُورِثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ؛ وَلِهَٰذا كَانَ أَصَحُّ قَوْلَيِ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ إذَا لَمْ يُعْرَفْ مَا نَوَاهُ الْحَالِفُ: رُجِعَ إلَىٰ سَبَبِ يَمِينِهِ وَمَا هَيَّجَهَا وَأَثَارَهَا.

وَقَوْلُهُمْ: «نَزَلَتْ هَٰذه الآيَةُ فِي كَذَا» يُرَادُ بِهِ تَارَةً أَنَّهُ سَبَبُ النُّزُولِ، وَيُرَادُ بِهِ تَارَةً أَنَّ هَٰذَا دَاخِلٌ فِي الْآيَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ السَّبَبُ؛ كَمَا تَقُولُ: (عَنَىٰ بِهَٰذه الآيَةِ كَذَا).

وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِ الصَّاحِبِ: «نَزَلَتْ هَٰذِهِ الْآيَةُ فِي كَذَا»، وَهَلْ يَجْرِي مَجْرَىٰ «الْمُسْنَدِ» -كَمَا لَوْ ذُكِرَ السَّبَبُ الَّذِي أُنْزِلَتْ لأَجْلِهِ-؟، أَوْ يَجْرِي مَجْرَىٰ التَّفْسِيرِ مِنْهُ الَّذِي لَيْسَ بِـ«مُسْنَدٍ»؟

فَالْبُخَارِيُّ يُدْخِلُهُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَغَيْرُهُ لَا يُدْخِلُهُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَأَكْثَرُ «الْمَسَانِيدِ» عَلَىٰ هَٰذا الاصْطِلَاحِ كَـ«مُسْنَدِ أَحْمَدَ» وَغَيْرِهِ؛ بِخِلَافِ مَا إذَا ذَكَرَ سَبَبًا نَزَلَتْ عَقِبَهُ، فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ يُدْخِلُونَ مِثْلَ هَٰذا فِي «الْمُسْنَدِ».

وَإِذَا عُرِفَ هَٰذَا؛ فَقَوْلُ أَحَدِهِمْ: «نَزَلَتْ فِي كَذَا»، لَا يُنَافِي قَوْلَ الْآخَرِ: «نَزَلَتْ فِي كَذَا» إذَا كَانَ اللَّفْظُ يَتَنَاوَلُهُمَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمِثَالِ.

وَإِذَا ذَكَرَ أَحَدُهُمْ لَهَا سَبَبًا نَزَلَتْ لأَجْلِهِ وَذَكَرَ الآخَرُ سَبَبًا؛ فَقَدْ يُمْكِنُ صِدْقُهُمَا بِأَنْ تَكُونَ نَزَلَتْ عَقِبَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ، أَوْ تَكُونَ نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ؛ مَرَّةً لِهَٰذا السَّبَبِ وَمَرَّةً لِهَٰذا السَّبَبِ.

وَهَٰذَانِ الصِّنْفَانِ اللَّذَانِ ذَكَرْنَاهُمَا فِي تَنَوُّعِ التَّفْسِيرِ:

تَارَةً لِتَنَوُّعِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

وَتَارَةً لِذِكْرِ بَعْضِ أَنْوَاعِ الْمُسَمَّىٰ وَأَقْسَامِهِ؛ كَالتَّمْثِيلَاتِ -هُمَا الْغَالِبُ فِي تَفْسِيرِ سَلَفِ الأُمَّةِ الَّذِي يُظَنُّ أَنَّهُ مُخْتَلِفٌ.

وَمِنَ التَّنَازُعِ الْمَوْجُودِ عَنْهُمْ مَا يَكُونُ اللَّفْظُ فِيهِ مُحْتَمِلًا لِلأَمْرَيْنِ:

إمَّا لِكَوْنِهِ مُشْتَرَكًا فِي اللُّغَةِ؛ كَلَفْظِ (قَسْوَرَة) الَّذِي يُرَادُ بِهِ الرَّامِي وَيُرَادُ بِهِ الأَسَدُ. وَلَفْظِ



(عَسْعَسَ) الَّذِي يُرَادُ بِهِ إِقْبَالُ اللَّيْلِ وَإِدْبَارُهُ.

وَإِمَّا لِكَوْنِهِ مُتَوَاطِئًا فِي الأَصْلِ؛ لَكِنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَحَدُ النَّوْعَيْنِ، أَوْ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ؛ كَالضَّمَائِرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم]، وَكَلَفْظِ: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر]، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَمِثْلُ هَـٰذا قَدْ يُرَادَ بِهِ كُلُّ الْمَعَانِي الَّتِي قَالَهَا السَّلَفُ، وَقَدْ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ.

فَالأَوَّلُ إِمَّا لِكَوْنِ الآيَةِ نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ، فَأُرِيدَ بِهَا هَـٰذا تَارَةً وَهَـٰذا تَارَةً، وَإِمَّا لِكَوْنِ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ مَعْنَيَاهُ؛ إِذْ قَدْ جَوَّزَ ذَلِكَ أَكْثَرُ فُقَهَاءِ: الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنْبَلِيَّةُ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ، وَإِمَّا لِكَوْنِ اللَّفْظِ مُتَوَاطِئًا فَيَكُونُ عَامًّا، إِذَا لَمْ يَكُنْ لِتَخْصِيصِهِ مُوجِبٌ. فَهَـٰذا النَّوْعُ إِذَا صَحَّ فِيهِ الْقَوْلَانِ كَانَ مِنَ الصِّنْفِ الثَّانِي.

وَمِنَ الأَقْوَالِ الْمَوْجُودَةِ عَنْهُمْ -وَيَجْعَلُهَا بَعْضُ النَّاسِ اخْتِلَافًا-: أَنْ يُعَبِّرُوا عَنِ الْمَعَانِي بِأَلْفَاظٍ مُتَقَارِبَةٍ لَا مُتَرَادِفَةٍ، فَإِنَّ التَّرَادُفَ فِي اللُّغَةِ قَلِيلٌ، وَأَمَّا فِي أَلْفَاظِ «الْقُرْآنِ» فَإِمَّا نَادِرٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ، وَقَلَّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي جَمِيعَ مَعْنَاهُ؛ بَلْ يَكُونُ فِيهِ تَقْرِيبٌ لِمَعْنَاهُ، وَهَـٰذا مِنْ أَسْبَابِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.

فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩﴾ [الطور]، إِنَّ «الْمَوْرَ» هُوَ الْحَرَكَةُ كَانَ تَقْرِيبًا، إِذِ الْمَوْرُ حَرَكَةٌ خَفِيفَةٌ سَرِيعَةٌ.

وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ: «الْوَحْيُ» الإِعْلَامُ، أَوْ قِيلَ: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [النحل:١٢٣]: أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ، أَوْ قِيلَ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء:٤]؛ أَيْ: أَعْلَمْنَا، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

فَهَـٰذا كُلُّهُ تَقْرِيبٌ لَا تَحْقِيقٌ، فَإِنَّ «الْوَحْيَ» هُوَ إِعْلَامٌ سَرِيعٌ خَفِيٌّ، وَالْقَضَاءُ إِلَيْهِمْ أَخَصُّ مِنَ الإِعْلَامِ فَإِنَّ فِيهِ إِنْزَالًا إِلَيْهِمْ وَإِيحَاءً إِلَيْهِم.

وَالْعَرَبُ تُضَمِّنُ الْفِعْلَ مَعْنَىٰ الْفِعْلِ، وَتُعَدِّيهِ تَعْدِيَتَهُ.

وَمِنْ هُنَا غَلِطَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْحُرُوفِ تَقُومُ مَقَامَ بَعْضٍ؛ كَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ [ص:٢٤]، أَيْ: مَعَ نِعَاجِهِ، وَ: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:٥٢، الصف:١٤] أَيْ: مَعَ اللهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَالتَّحْقِيقُ مَا قَالَهُ نُحَاةُ الْبَصْرَةِ مِنَ التَّضْمِينِ؛ فَسُؤَالُ النَّعْجَةِ يَتَضَمَّنُ جَمْعَهَا وَضَمَّهَا إِلَىٰ نِعَاجِهِ.



وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء:٧٣]، ضُمِّنَ مَعْنَىٰ (يُزِيغُونَك وَيَصُدُّونَك).

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء:٧٧]، ضُمِّنَ مَعْنَىٰ (نَجَّيْنَاهُ وَخَلَّصْنَاهُ). وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، ضُمِّنَ (يُرْوَىٰ بِهَا)، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ.

وَمَنْ قَالَ: ﴿لَا رَيْبَ﴾ [البقرة:٢]: لَا شَكَّ. فَهَـٰذا تَقْرِيبٌ، وَإِلَّا فَالرَّيْبُ فِيهِ اضْطِرَابٌ وَحَرَكَةٌ؛ كَمَا قَالَ: «دَعْ مَا يَرِيبُك إِلَىٰ مَا لَا يَرِيبُك»، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ: مَرَّ بِظَبْيٍ حَاقِفٍ. فَقَالَ: «لَا يَرِيبُهُ أَحَدٌ»؛ فَكَمَا أَنَّ «الْيَقِينَ» ضُمِّنَ السُّكُونَ وَالطُّمَأْنِينَةَ، فَـ«الرَّيْبُ» ضِدُّهُ ضُمِّنَ الِاضْطِرَابَ وَالْحَرَكَةَ.

وَلَفْظُ «الشَّكِّ» وَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ هَـٰذا الْمَعْنَىٰ؛ لَكِنَّ لَفْظَهُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:٢]: هَـٰذا الْقُرْآنُ، فَهَـٰذا تَقْرِيبٌ؛ لِأَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا فَالْإِشَارَةُ بِجِهَةِ الْحُضُورِ غَيْرُ الْإِشَارَةِ بِجِهَةِ الْبُعْدِ وَالْغَيْبَةِ، وَلَفْظُ «الْكِتَابِ» يَتَضَمَّنُ مِنْ كَوْنِهِ مَكْتُوبًا مَضْمُومًا مَا لَا يَتَضَمَّنُهُ لَفْظُ «الْقُرْآنِ» مِنْ كَوْنِهِ مَقْرُوءًا مُظْهَرًا بَادِيًا، فَهَـٰذه الْفُرُوقُ مَوْجُودَةٌ فِي «الْقُرْآنِ».

فَإِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ: ﴿أَن تُبْسَلَ﴾ [الأنعام:٧٠]؛ أَيْ: تُحْبَسَ، وَقَالَ الْآخَرُ: تُرْتَهَنَ، وَنَحْوُ ذَلِكَ؛ لَمْ يَكُنْ مِنْ اخْتِلَافِ التَّضَادِّ، وَإِنْ كَانَ الْمَحْبُوسُ قَدْ يَكُونُ مُرْتَهَنًا، وَقَدْ لَا يَكُونُ؛ إِذْ هَـٰذَا تَقْرِيبٌ لِلْمَعْنَىٰ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَجَمْعُ عِبَارَاتِ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَـٰذا نَافِعٌ جِدًّا؛ لِأَنَّ مَجْمُوعَ عِبَارَاتِهِمْ أَدَلُّ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ مِنْ عِبَارَةٍ أَوْ عِبَارَتَيْنِ.

وَمَعَ هَـٰذا فَلَا بُدَّ مِنْ اخْتِلَافٍ مُحَقَّقٍ بَيْنَهُمْ؛ كَمَا يُوجَدُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْأَحْكَامِ.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ عَامَّةَ مَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ عُمُومُ النَّاسِ مِنَ الِاخْتِلَافِ مَعْلُومٌ؛ بَلْ مُتَوَاتِرٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ أَو الْخَاصَّةِ؛ كَمَا فِي عَدَدِ الصَّلَوَاتِ وَمَقَادِيرِ رُكُوعِهَا وَمَوَاقِيتِهَا، وَفَرَائِضِ الزَّكَاةِ وَنُصُبِهَا، وَتَعْيِينِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَالطَّوَافِ وَالْوُقُوفِ وَرَمْيِ الْجِمَارِ وَالْمَوَاقِيتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّ اخْتِلَافَ الصَّحَابَةِ فِي «الْجَدِّ وَالْإِخْوَةِ» وَفِي «الْمُشَرَّكَةِ»، وَنَحْوِ ذَلِكَ لَا يُوجِبُ رَيْبًا فِي جُمْهُورِ مَسَائِلِ الْفَرَائِضِ؛ بَلْ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عَامَّةُ النَّاسِ -وَهُوَ عَمُودُ النَّسَبِ مِنَ



الْآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ، وَالْكَلَالَةِ مِنَ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ، وَمِنْ نِسَائِهِم كَالأَزْوَاجِ- فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي الْفَرَائِضِ ثَلَاثَ آيَاتٍ مُفَصَّلَةٍ؛ ذَكَرَ فِي الأُولَىٰ الأُصُولَ وَالْفُرُوعَ، وَذَكَرَ فِي الثَّانِيَةِ الْحَاشِيَةَ الَّتِي تَرِثُ بِالْفَرْضِ كَالزَّوْجَيْنِ وَوَلَدِ الْأُمِّ، وَفِي الثَّالِثَةِ الْحَاشِيَةَ الْوَارِثَةَ بِالتَّعْصِيبِ، وَهُمُ الْإِخْوَةُ لأَبَوَيْنِ أَوْ لِأَبٍ. وَاجْتِمَاعُ الْجَدِّ وَالإِخْوَةِ نَادِرٌ؛ وَلِهَـٰذا لَمْ يَقَعْ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالِاخْتِلَافُ قَدْ يَكُونُ لِخَفَاءِ الدَّلِيلِ وَالذُّهُولِ عَنْهُ، وَقَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ سَمَاعِهِ، وَقَدْ يَكُونُ لِلْغَلَطِ فِي فَهْمِ النَّصِّ، وَقَدْ يَكُونُ لِاعْتِقَادِ مُعَارِضٍ رَاجِحٍ.

فَالْمَقْصُودُ هُنَا: التَّعْرِيفُ بِمُجْمَلِ الْأَمْرِ دُونَ تَفَاصِيلِهِ.



فَصْلٌ فِي نَوْعَيْ الاخْتِلافِ فِي التَّفْسِيرِ الْمُسْتَنَدِ إِلَى النَّقْلِ، وَإِلَى طَرِيقِ الاسْتِدْلالِ

الِاخْتِلَافُ فِي التَّفْسِيرِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

- مِنْهُ مَا مُسْتَنَدُهُ النَّقْلُ فَقَطْ.
- وَمِنْهُ مَا يُعْلَمُ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

إِذِ الْعِلْمُ:

- إِمَّا نَقْلٌ مُصَدَّقٌ.
- وَإِمَّا اسْتِدْلَالٌ مُحَقَّقٌ.

وَالْمَنْقُولُ:

- إِمَّا عَنِ الْمَعْصُومِ.
- وَإِمَّا عَنْ غَيْرِ الْمَعْصُومِ.

وَالْمَقْصُودُ بِأَنَّ جِنْسَ الْمَنْقُولِ سَوَاءٌ كَانَ عَنِ الْمَعْصُومِ أَوْ غَيْرِ الْمَعْصُومِ -وَهَـٰذا هُوَ النَّوْعُ الأَوَّلُ- فَمِنْهُ مَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ الصَّحِيحِ مِنْهُ وَالضَّعِيفِ، وَمِنْهُ مَا لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ فِيهِ.

وَهَـٰذا الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ الْمَنْقُولِ -وَهُوَ مَا لَا طَرِيقَ لَنَا إِلَىٰ الْجَزْمِ بِالصِّدْقِ مِنْهُ-؛ عَامَّتُهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَالْكَلَامُ فِيهِ مِنْ فُضُولِ الْكَلَامِ.

وَأَمَّا مَا يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَصَبَ عَلَىٰ الْحَقِّ فِيهِ دَلِيلًا.



فَمِثَالُ مَا لَا يُفِيدُ وَلَا دَلِيلَ عَلَىٰ الصَّحِيحِ مِنْهُ: اخْتِلَافُهُمْ فِي لَوْنِ «كَلْبِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ»، وَفِي الْبَعْضِ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ قَتِيلُ مُوسَىٰ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَفِي مِقْدَارِ سَفِينَةِ نُوحٍ وَمَا كَانَ خَشَبُهَا، وَفِي اسْمِ الْغُلَامِ الَّذِي قَتَلَهُ الْخِضْرُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَهٰذه الأُمُورُ طَرِيقُ الْعِلْمِ بِهَا النَّقْلُ، فَمَا كَانَ مِنْ هٰذا مَنْقُولًا نَقْلًا صَحِيحًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ كَاسْمِ صَاحِبِ مُوسَىٰ أَنَّهُ الْخِضْرُ، فَهٰذا مَعْلُومٌ، وَمَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ بَلْ كَانَ مِمَّا يُؤْخَذُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ -كَالْمَنْقُولِ عَنْ كَعْبٍ، وَوَهْبٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ يَأْخُذُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ- فَهٰذا لَا يَجُوزُ تَصْدِيقُهُ وَلَا تَكْذِيبُهُ إِلَّا بِحُجَّةٍ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، فَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوهُ**».

وَكَذَلِكَ مَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ -وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ أَخَذَهُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ-؛ فَمَتَىٰ اخْتَلَفَ التَّابِعُونَ لَمْ يَكُنْ بَعْضُ أَقْوَالِهِمْ حُجَّةً عَلَىٰ بَعْضٍ.

وَمَا نُقِلَ فِي ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ نَقْلًا صَحِيحًا فَالنَّفْسُ إِلَيْهِ أَسْكَنُ مِمَّا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ؛ لأَنَّ احْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، أَوْ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ مِنْهُ أَقْوَىٰ، وَلِأَنَّ نَقْلَ الصَّحَابَةِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَقَلُّ مِنْ نَقْلِ التَّابِعِينَ، وَمَعَ جَزْمِ الصَّاحِبِ بِمَا يَقُولُهُ؛ كَيْفَ يُقَالُ: إِنَّهُ أَخَذَهُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَدْ نُهُوا عَنْ تَصْدِيقِهِمْ؟!

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مِثْلَ هٰذا الاخْتِلَافِ الَّذِي لَا يُعْلَمُ صَحِيحُهُ وَلَا تُفِيدُ حِكَايَةُ الأَقْوَالِ فِيهِ؛ هُوَ كَالْمَعْرِفَةِ لِمَا يُرْوَىٰ مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي لَا دَلِيلَ عَلَىٰ صِحَّتِهِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الأَوَّلُ الَّذِي يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ «الصَّحِيحِ» مِنْهُ فَهٰذا مَوْجُودٌ فِيمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، فَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي: «التَّفْسِيرِ» وَ«الْحَدِيثِ» وَ«الْمَغَازِي» أُمُورٌ مَنْقُولَةٌ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ-، وَالنَّقْلُ الصَّحِيحُ يَدْفَعُ ذَلِكَ؛ بَلْ هٰذا مَوْجُودٌ فِيمَا مُسْتَنَدُهُ النَّقْلُ، وَفِيمَا قَدْ يُعْرَفُ بِأُمُورٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ النَّقْلِ.

فَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْمَنْقُولَاتِ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي الدِّينِ قَدْ نَصَبَ اللهُ الأَدِلَّةَ عَلَىٰ بَيَانِ مَا فِيهَا مِنْ «صَحِيحٍ» وَغَيْرِهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَنْقُولَ فِي «التَّفْسِيرِ» أَكْثَرُهُ كَالْمَنْقُولِ فِي «الْمَغَازِي» وَ«الْمَلَاحِمِ»، وَلِهٰذا قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد: (ثَلَاثَةُ أُمُورٍ لَيْسَ لَهَا إِسْنَادٌ: التَّفْسِيرُ وَالْمَلَاحِمُ وَالْمَغَازِي.) وَيُرْوَىٰ:



(لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ)؛ أَيْ: إِسْنَادٌ؛ لأَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهَا «الْمَرَاسِيلُ»، مِثْلُ مَا يَذْكُرُهُ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالزُّهْرِيُّ، وَمُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ، وَابْنُ إِسْحَاقَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ كَيَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ الأَمَوِيِّ، وَالْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، وَالْوَاقِدِيِّ، وَنَحْوِهِمْ فِي الْمَغَازِي.

فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْمَغَازِي «أَهْلُ الْمَدِينَةِ»، ثُمَّ «أَهْلُ الشَّامِ»، ثُمَّ «أَهْلُ الْعِرَاقِ».

فَـ«أَهْلُ الْمَدِينَةِ» أَعْلَمُ بِهَا؛ لأَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ، وَ«أَهْلُ الشَّامِ» كَانُوا أَهْلَ غَزْوٍ وَجِهَادٍ، فَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِالْجِهَادِ وَالسِّيَرِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ، وَلِهَـٰذا عَظَّمَ النَّاسُ كِتَابَ أَبِي إِسْحَاقَ الفَزَارِيِّ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي ذَلِكَ، وَجَعَلُوا الأَوْزَاعِيَّ أَعْلَمَ بِهَـٰذا الْبَابِ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الأَمْصَارِ.

وَأَمَّا «التَّفْسِيرُ» فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِهِ «أَهْلُ مَكَّةَ»؛ لأَنَّهُمْ أَصْحَابُ ابْنِ عَبَّاسٍ كَـ: مُجَاهِدٍ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَعِكْرِمَةَ مَوْلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ كَـ: طَاوُسٍ، وَأَبِي الشَّعْثَاءِ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَأَمْثَالِهِمْ.

وَكَذَلِكَ «أَهْلُ الْكُوفَةِ» مِنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا تَمَيَّزُوا بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ.

وَعُلَمَاءُ «أَهْلِ الْمَدِينَةِ» فِي «التَّفْسِيرِ» مِثْلُ: زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ الَّذِي أَخَذَ عَنْهُ مَالِكٌ التَّفْسِيرَ، وَأَخَذَهُ عَنْهُ أَيْضًا ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَعَنْهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ.

و«الْمَرَاسِيلُ» إِذَا تَعَدَّدَتْ طُرُقُهَا وَخَلَتْ عَنِ الْمُوَاطَأَةِ قَصْدًا أَوِ اتِّفَاقًا بِغَيْرِ قَصْدٍ؛ كَانَتْ صَحِيحَةً قَطْعًا.

فَإِنَّ النَّقْلَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ صِدْقًا مُطَابِقًا لِلْخَبَرِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَذِبًا تَعَمَّدَ صَاحِبُهُ الْكَذِبَ أَوْ أَخْطَأَ فِيهِ؛ فَمَتَىٰ سَلِمَ مِنَ الْكَذِبِ الْعَمْدِ وَالْخَطَأِ كَانَ صِدْقًا بِلَا رَيْبٍ.

فَإِذَا كَانَ الْحَدِيثُ جَاءَ مِنْ جِهَتَيْنِ، أَوْ جِهَاتٍ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الْمُخْبِرِينَ لَمْ يَتَوَاطَأُوا عَلَىٰ اخْتِلَاقِهِ وَعُلِمَ أَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ لَا تَقَعُ الْمُوَافَقَةُ فِيهِ اتِّفَاقًا بِلَا قَصْدٍ عُلِمَ أَنَّهُ صَحِيحٌ.

مِثْلُ شَخْصٍ يُحَدِّثُ عَنْ وَاقِعَةٍ جَرَتْ، وَيَذْكُرُ تَفَاصِيلَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَيَأْتِي شَخْصٌ آخَرُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوَاطِئْ الأَوَّلَ فَيَذْكُرُ مِثْلَ مَا ذَكَرَهُ الأَوَّلُ مِنْ تَفَاصِيلِ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ؛ فَيُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ تِلْكَ الْوَاقِعَةَ حَقٌّ فِي الْجُمْلَةِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا كَذَبَ بِهَا عَمْدًا أَوْ أَخْطَأَ، لَمْ يَتَّفِقْ فِي الْعَادَةِ أَنْ يَأْتِيَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِتِلْكَ التَّفَاصِيلِ الَّتِي تَمْنَعُ الْعَادَةُ



اتِّفَاقَ الِاثْنَيْنِ عَلَيْهَا بِلَا مُوَاطَأَةٍ مِنْ أَحَدِهِمَا لِصَاحِبِهِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَتَّفِقُ أَنْ يَنْظِمَ بَيْتًا وَيَنْظِمُ الآخَرُ مِثْلَهُ، أَوْ يَكْذِبَ كِذْبَةً وَيَكْذِبَ الآخَرُ مِثْلَهَا، أَمَّا إِذَا أَنْشَأَ قَصِيدَةً طَوِيلَةً ذَاتَ فُنُونٍ عَلَىٰ قَافِيَةٍ وَرَوِيٍّ، فَلَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِأَنَّ غَيْرَهُ يُنْشِئُ مِثْلَهَا لَفْظًا وَمَعْنًىٰ، مَعَ الطُّولِ الْمُفْرِطِ؛ بَلْ يُعْلَمُ بِالْعَادَةِ أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنْهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا حَدَّثَ حَدِيثًا طَوِيلًا فِيهِ فُنُونٌ، وَحَدَّثَ آخَرُ بِمِثْلِهِ، فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ وَاطَأَهُ عَلَيْهِ، أَوْ أَخَذَهُ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ الْحَدِيثُ صِدْقًا.

وَبِهَٰذِه الطَّرِيقِ يُعْلَمُ صِدْقُ عَامَّةِ مَا تَتَعَدَّدُ جِهَاتُهُ الْمُخْتَلِفَةُ عَلَىٰ هَٰذَا الْوَجْهِ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا كَافِيًا؛ إِمَّا لِإِرْسَالِهِ وَإِمَّا لِضَعْفِ نَاقِلِهِ.

لَكِنَّ مِثْلَ هَٰذَا لَا تُضْبَطُ بِهِ الأَلْفَاظُ وَالدَّقَائِقُ الَّتِي لَا تُعْلَمُ بِهَٰذِه الطَّرِيقِ؛ بَلْ يَحْتَاجُ ذَلِكَ إِلَىٰ طَرِيقٍ يَثْبُتُ بِهَا مِثْلُ تِلْكَ الأَلْفَاظِ وَالدَّقَائِقِ؛ وَلِهَٰذَا ثَبَتَتْ «غَزْوَةُ بَدْرٍ» بِالتَّوَاتُرِ وَأَنَّهَا قَبْلَ «أُحُدٍ»؛ بَلْ يُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ: حَمْزَةَ، وَعَلِيًّا، وَأَبَا عُبَيْدَةَ بَرَزُوا إِلَىٰ: عُتْبَةَ، وَشَيْبَةَ، وَالْوَلِيدِ، وَأَنَّ عَلِيًّا قَتَلَ الْوَلِيدَ، وَأَنَّ حَمْزَةَ قَتَلَ قِرْنَهُ، ثُمَّ يُشَكُّ فِي قِرْنِهِ هَلْ هُوَ عُتْبَةُ أَمْ شَيْبَةُ؟

وَهَٰذَا الأَصْلُ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ، فَإِنَّهُ أَصْلٌ نَافِعٌ فِي الْجَزْمِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ فِي: «الْحَدِيثِ»، وَ«التَّفْسِيرِ»، وَ«الْمَغَازِي»، وَمَا يُنْقَلُ مِنْ أَقْوَالِ النَّاسِ وَأَفْعَالِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَلِهَٰذَا إِذَا رُوِيَ الْحَدِيثُ الَّذِي يَتَأَتَّىٰ فِيهِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَجْهَيْنِ -مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ أَحَدَهُمَا لَمْ يَأْخُذْهُ عَنِ الآخَرِ- جُزِمَ بِأَنَّهُ حَقٌّ، لَاسِيَّمَا إِذَا عُلِمَ أَنَّ نَقَلَتَهُ لَيْسُوا مِمَّنْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَىٰ أَحَدِهِمْ النِّسْيَانُ وَالْغَلَطُ؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ الصَّحَابَةَ؛ كَـ: ابْنِ مَسْعُودٍ، وأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَجَابِرٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ = عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَضْلًا عَمَّنْ هُوَ فَوْقَهُمْ؛ كَمَا يَعْلَمُ الرَّجُلُ مِنْ حَالِ مَنْ جَرَّبَهُ وَخَبِرَهُ خِبْرَةً بَاطِنَةً طَوِيلَةً؛ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ يَسْرِقُ أَمْوَالَ النَّاسِ، وَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ، وَيَشْهَدُ بِالزُّورِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ «التَّابِعُونَ» بِالْمَدِينَةِ، وَمَكَّةَ، وَالشَّامِ، وَالْبَصْرَةِ، فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ مِثْلَ: أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ، وَالأَعْرَجِ، وَسُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَأَمْثَالِهِمْ؛ عَلِمَ قَطْعًا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِمَّنْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ فِي الْحَدِيثِ؛ فَضْلًا عَمَّنْ هُوَ فَوْقَهُمْ مِثْلَ: مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، أَوِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، أَوْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَوْ عَبِيدَةَ السَّلْمَانِيِّ، أَوْ عَلْقَمَةَ، أَوْ الأَسْوَدِ، أَوْ نَحْوِهِمْ .

وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَىٰ الْوَاحِدِ مِنَ الْغَلَطِ؛ فَإِنَّ الْغَلَطَ وَالنِّسْيَانَ كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ، وَمِنَ



الْحُفَّاظِ مَنْ قَدْ عَرَفَ النَّاسُ بُعْدَهُ عَنْ ذَلِكَ جِدًّا؛ كَمَا عَرَفُوا حَالَ: الشَّعْبِيِّ، وَالزُّهْرِيِّ، وَعُرْوَةَ، وَقَتَادَةَ، وَالثَّوْرِيِّ، وَأَمْثَالِهِمْ، لَاسِيَّمَا الزُّهْرِيَّ فِي زَمَانِهِ، وَالثَّوْرِيَّ فِي زَمَانِهِ.

فَإِنَّهُ قَدْ يَقُولُ الْقَائِلُ: إِنَّ ابْنَ شِهَابٍ الزُّهْرِيَّ لَا يُعْرَفُ لَهُ غَلَطٌ؛ مَعَ كَثْرَةِ حَدِيثِهِ وَسَعَةِ حِفْظِهِ.

والْمَقْصُودُ: أَنَّ الْحَدِيثَ الطَّوِيلَ إِذَا رُوِيَ مَثَلًا مِنْ وَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةٍ؛ امْتَنَعَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ غَلَطًا، كَمَا امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ كَذِبًا؛ فَإِنَّ الْغَلَطَ لَا يَكُونُ فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَإِنَّمَا يَكُونُ فِي بَعْضِهَا، فَإِذَا رَوَىٰ هٰذا قِصَّةً طَوِيلَةً مُتَنَوِّعَةً، وَرَوَاهَا الْآخَرُ مِثْلَمَا رَوَاهَا الأَوَّلُ مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةٍ؛ امْتَنَعَ الْغَلَطُ فِي جَمِيعِهَا، كَمَا امْتَنَعَ الْكَذِبُ فِي جَمِيعِهَا مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةٍ.

وَلِهٰذا إِنَّمَا يَقَعُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَلَطٌ فِي بَعْضِ مَا جَرَىٰ فِي الْقِصَّةِ؛ مِثْلُ حَدِيثِ اشْتِرَاءِ النَّبِيِّ ﷺ الْبَعِيرَ مِنْ جابِرٍ؛ فَإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ طُرُقَهُ عَلِمَ قَطْعًا أَنَّ الْحَدِيثَ صَحِيحٌ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ الثَّمَنِ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ فِي: «صَحِيحِهِ».

فَإِنَّ جُمْهُورَ مَا فِي «الْبُخَارِيِّ» وَ«مُسْلِمٍ» مِمَّا يُقْطَعُ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ؛ لأَنَّ غَالِبَهُ مِنْ هٰذا النَّحْوِ؛ وَلأَنَّهُ قَدْ تَلَقَّاهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ، وَالأُمَّةُ لَا تَجْتَمِعُ عَلَىٰ خطَإٍ؛ فَلَوْ كَانَ الْحَدِيثُ كَذِبًا فِي نَفْسِ الأَمْرِ؛ وَالْأُمَّةُ مُصَدِّقَةٌ لَهُ قَابِلَةٌ لَهُ ،لَكَانُوا قَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ تَصْدِيقِ مَا هُوَ فِي نَفْسِ الأَمْرِ كَذِبٌ، وَهٰذا إِجْمَاعٌ عَلَىٰ الخَطَإِ، وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ، وَإِنْ كُنَّا نَحْنُ بِدُونِ الإِجْمَاعِ نُجَوِّزُ الْخَطَأَ أَوْ الْكَذِبَ عَلَىٰ الْخَبَرِ؛ فَهُوَ كَتَجْوِيزِنَا قَبْلَ أَنْ نَعْلَمَ الْإِجْمَاعَ عَلَىٰ الْعِلْمِ الَّذِي ثَبَتَ بِـ«ظَاهِرٍ» أَوْ «قِيَاسٍ ظَنِّيٍّ» -أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ فِي الْبَاطِنِ؛ بِخِلَافِ مَا اعْتَقَدْنَاهُ-، فَإِذَا أَجْمَعُوا عَلَىٰ الْحُكْمِ جَزَمْنَا بِأَنَّ الْحُكْمَ ثَابِتٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

وَلِهٰذا كَانَ جُمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ عَلَىٰ أَنَّ «خَبَرَ الْوَاحِدِ» إِذَا تَلَقَّتْهُ الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ؛ تَصْدِيقًا لَهُ، أَوْ عَمَلًا بِهِ؛ أَنَّهُ يُوجِبُ الْعِلْمَ، وَهٰذا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُونَ فِي «أُصُولِ الْفِقْهِ» مِنْ أَصْحَابِ: أَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ، إِلَّا فِرْقَةً قَلِيلَةً مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ اتَّبَعُوا فِي ذَلِكَ طَائِفَةً مِنْ «أَهْلِ الْكَلَامِ» أَنْكَرُوا ذَلِكَ؛ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ «أَهْلِ الْكَلَامِ» أَوْ أَكْثَرَهُمْ يُوَافِقُونَ «الْفُقَهَاءَ» وَ«أَهْلَ الْحَدِيثِ» وَ«السَّلَفَ» عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ «الْأَشْعَرِيَّةِ» كَـ: أَبِي إِسْحَاقَ، وَابْنِ فُورَك.



وَأَمَّا ابْنُ البَاقْلَانِيِّ فَهُوَ الَّذِي أَنْكَرَ ذَلِكَ، وَتَبِعَهُ مِثْلُ: أَبِي الْمَعَالِي، وَأَبِي حَامِدٍ، وَابْنِ عَقِيلٍ، وَابْنِ الْجَوْزِيِّ، وَابْنِ الْخَطِيبِ، وَالْآمِدِيِّ، وَنَحْوِ هَؤُلَاءِ.

وَالأَوَّلُ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ، وَأَبُو الطَّيِّبِ، وَأَبُو إِسْحَاقَ، وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَئِمَّةِ الشَّافِعِيَّةِ.

وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ، وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ.

وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ شَمْسُ الدِّينِ السَّرَخْسِيُّ، وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ.

وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو يَعْلَىٰ، وَأَبُو الْخَطَّابِ، وَأَبُو الْحَسَنِ بْنُ الزَّاغُونِيِّ، وَأَمْثَالُهُمْ مِنَ الْحَنْبَلِيَّةِ.

وَإِذَا كَانَ الْإِجْمَاعُ عَلَىٰ تَصْدِيقِ الْخَبَرِ مُوجِبًا لِلْقَطْعِ بِهِ، فَالِاعْتِبَارُ فِي ذَلِكَ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ؛ كَمَا أَنَّ الاعْتِبَارَ بِالإِجْمَاعِ عَلَىٰ الأَحْكَامِ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالإِبَاحَةِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ تَعَدُّدَ الطُّرُقِ مَعَ عَدَمِ التَّشَاعُرِ أَوْ الِاتِّفَاقِ فِي الْعَادَةِ؛ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِمَضْمُونِ الْمَنْقُولِ؛ لَكِنَّ هَـٰذَا يُنْتَفَعُ بِهِ كَثِيرًا فِي عِلْمِ أَحْوَالِ النَّاقِلِينَ.

وَفِي مِثْلِ هـٰذا يُنْتَفَعُ بِرِوَايَةِ «الْمَجْهُولِ» وَ«السَّيِّءِ الْحِفْظِ»، وَبِـ«الْحَدِيثِ الْمُرْسَلِ» وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ وَلِهـٰذا كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَكْتُبُونَ مِثْلَ هَـٰذِهِ الأَحَادِيثِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يَصْلُحُ لِلشَّوَاهِدِ وَالِاعْتِبَارِ مَا لَا يَصْلُحُ لِغَيْرِهِ.

قَالَ أَحْمَد: (قَدْ أَكْتُبُ حَدِيثَ الرَّجُلِ لأَعْتَبِرَهُ)، وَمَثَّلَ ذَلِكَ بِـ«عَبْدِ اللهِ بْنِ لَهِيعَةَ» قَاضِي «مِصْرَ»؛ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ حَدِيثًا، وَمِنْ خِيَارِ النَّاسِ؛ لَكِنْ بِسَبَبِ احْتِرَاقِ كُتُبِهِ وَقَعَ فِي حَدِيثِهِ الْمُتَأَخِّرِ غَلَطٌ، فَصَارَ يُعْتَبَرُ بِذَلِكَ وَيُسْتَشْهَدُ بِهِ.

وَكَثِيرًا مَا يَقْتَرِنُ هُوَ وَ«اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ» وَاللَّيْثُ حُجَّةٌ، ثَبْتٌ، إِمَامٌ.

وَكَمَا أَنَّهُمْ يَسْتَشْهِدُونَ وَيَعْتَبِرُونَ بِحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ «سُوءُ حِفْظٍ»، فَإِنَّهُمْ أَيْضًا يُضَعِّفُونَ مِنْ حَدِيثِ الثِّقَةِ الصَّدُوقِ الضَّابِطِ أَشْيَاءَ تَبَيَّنَ لَهُمْ غَلَطُهُ فِيهَا بِأُمُورٍ يَسْتَدِلُّونَ بِهَا وَيُسَمُّونَ هـٰذا عِلْمَ عِلَلِ الْحَدِيثِ؛ وَهُوَ مِنْ أَشْرَفِ عُلُومِهِمْ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ الْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ ثِقَةٌ ضَابِطٌ وَغَلِطَ فِيهِ، وَغَلَطُهُ فِيهِ عُرِفَ، إِمَّا بِسَبَبٍ ظَاهِرٍ؛ كَمَا عَرَفُوا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَ مَيْمُونَةَ وَهُوَ حَلَالٌ».



وَأَنَّهُ «صَلَّىٰ فِي الْبَيْتِ رَكْعَتَيْنِ»، وَجَعَلُوا رِوَايَةَ ابْنِ عَبَّاسٍ لِتَزَوُّجِهَا حَرَامًا، وَكَوْنَهُ لَمْ يُصَلِّ؛ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ.

وَكَذَلِكَ «أَنَّهُ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ»، وَعَلِمُوا أَنَّ قَوْلَ ابْنِ عُمَرَ: «إِنَّهُ اعْتَمَرَ فِي رَجَبٍ»؛ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ.

وَعَلِمُوا أَنَّهُ تَمَتَّعَ وَهُوَ «آمِنٌ» فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَأَنَّ قَوْلَ عُثْمَانَ لِعَلِيٍّ: (كُنَّا يَوْمَئِذٍ خَائِفِينَ)؛ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ.

وَأَنَّ مَا وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ «الْبُخَارِيِّ»: «أَنَّ النَّارَ لَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ»؛ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ.

وَهَـٰذَا كَثِيرٌ.

وَالنَّاسُ فِي هَـٰذَا الْبَابِ طَرَفَانِ:

طَرَفٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ «الْحَدِيثِ» وَأَهْلِهِ، لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ «الصَّحِيحِ» وَ«الضَّعِيفِ»؛ فَيَشُكُّ فِي صِحَّةِ أَحَادِيثَ، أَوْ فِي الْقَطْعِ بِهَا؛ مَعَ كَوْنِهَا مَعْلُومَةً مَقْطُوعًا بِهَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهِ.

وَطَرَفٌ مِمَّنْ يَدَّعِي اتِّبَاعَ الْحَدِيثِ وَالْعَمَلَ بِهِ، كُلَّمَا وَجَدَ لَفْظًا فِي حَدِيثٍ قَدْ رَوَاهُ «ثِقَةٌ» أَوْ رَأَىٰ حَدِيثًا بِإِسْنَادٍ ظَاهِرُهُ الصِّحَّةُ، يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ مَا جَزَمَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِصِحَّتِهِ، حَتَّىٰ إِذَا عَارَضَ «الصَّحِيحَ» الْمَعْرُوفَ أَخَذَ يَتَكَلَّفُ لَهُ التَّأْوِيلَاتِ الْبَارِدَةَ، أَوْ يَجْعَلُهُ دَلِيلًا فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ؛ مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ يَعْرِفُونَ أَنَّ مِثْلَ هَـٰذَا غَلَطٌ.

وَكَمَا أَنَّ عَلَىٰ الْحَدِيثِ أَدِلَّةً يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهُ صِدْقٌ، وَقَدْ يُقْطَعُ بِذَلِكَ؛ فَعَلَيْهِ أَدِلَّةٌ يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهُ كَذِبٌ، وَيُقْطَعُ بِذَلِكَ؛ مِثْلُ مَا يُقْطَعُ بِكَذِبِ مَا يَرْوِيهِ الْوَضَّاعُونَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْغُلُوِّ فِي «الْفَضَائِلِ»:

مِثْلَ حَدِيثِ «يَوْمِ عَاشُورَاءَ» وَأَمْثَالِهِ مِمَّا فِيهِ: «أَنَّ مَنْ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ كَذَا وَكَذَا نَبِيًّا».

وَفِي «التَّفْسِيرِ» مِنْ هَـٰذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ قِطْعَةٌ كَبِيرَةٌ؛ مِثْلُ الْحَدِيثِ الَّذِي يَرْوِيهِ «الثَّعْلَبِيُّ» وَ«الْوَاحِدِيُّ» وَ«الزَّمَخْشَرِي» فِي فَضَائِلِ سُوَرِ الْقُرْآنِ سُورَةً سُورَةً؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ



الْعِلْمِ.

والثَّعْلَبِيُّ هُوَ فِي نَفْسِهِ كَانَ فِيهِ خَيْرٌ وَدِينٌ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ حَاطِبَ لَيْلٍ يَنْقُلُ مَا وَجَدَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مِنْ صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ وَمَوْضُوعٍ.

والْوَاحِدِيُّ صَاحِبُهُ كَانَ أَبْصَرَ مِنْهُ بِالْعَرَبِيَّةِ؛ لَكِنْ هُوَ أَبْعَدُ عَنِ السَّلامَةِ وَاتِّبَاعِ السَّلَفِ.

وَالْبَغَوِيُّ تَفْسِيرُهُ مُخْتَصَرٌ عَنِ الثَّعْلَبِيِّ؛ لَكِنَّهُ صَانَ تَفْسِيرَهُ عَنِ الأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ وَالْآرَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ.

وَ«الْمَوْضُوعَاتُ» فِي «كُتُبِ التَّفْسِيرِ» كَثِيرَةٌ.

مِنْهَا الأَحَادِيثُ الْكَثِيرَةُ الصَّرِيحَةُ فِي الْجَهْرِ بِالْبَسْمَلَةِ، وَحَدِيثُ عَلِيٍّ الطَّوِيلِ فِي تَصَدُّقِهِ بِخَاتَمِهِ فِي الصَّلاةِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَمِثْلُ مَا رُوِيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد]: أَنَّهُ عَلِيٌّ، ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾ [الحاقة]، أُذُنُكَ يَا عَلِيُّ.



فَصْلٌ فِي النَّوْعُ الثَّانِي: الخِلافُ الوَاقِعُ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ جِهَةِ الاسْتِدْلال

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ مُسْتَنَدَيْ الِاخْتِلَافِ، وَهُوَ مَا يُعْلَمُ بِالاسْتِدْلَالِ لا بِالنَّقْلِ، فَهَـٰذا أَكْثَرُ مَا فِيهِ الْخَطَأُ مِنْ جِهَتَيْنِ حَدَثَتَا بَعْدَ تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ؛ فَإِنَّ التَّفَاسِيرَ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَلَامُ هَؤُلَاءِ صِرْفًا لَا يَكَادُ يُوجَدُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ؛ مِثْلُ: «تَفْسِيرِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ» وَ«وَكِيعٍ» وَ«عَبْدِ بْنِ حُمَيْد» وَ«عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ دُحَيْمٍ»، وَمِثْلُ: «تَفْسِيرِ الإِمَامِ أَحْمَدَ»، وَ«إِسْحَاقَ بْنِ رَاهُويَه»، وَ«بَقِي بْنِ مَخْلَدٍ»، وَ«أَبِي بَكْرِ بْنِ الْمُنْذِرِ»، وَ«سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ»، وَ«سُنَيْدٍ»، وَ«ابْنِ جَرِيرٍ»، وَ«ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ»، وَ«أَبِي سَعِيدٍ الأَشَجِّ»، وَ«أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ مَاجَه»، وَ«ابْنِ مَرْدَوَيْه»:

إِحْدَاهُمَا: قَوْمٌ اعْتَقَدُوا مَعَانِيَ ثُمَّ أَرَادُوا حَمْلَ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ عَلَيْهَا.

والثَّانِيَةُ: قَوْمٌ فَسَّرُوا «الْقُرْآنَ» بِمُجَرَّدِ مَا يُسَوِّغُ أَنْ يُرِيدَهُ بِكَلامِهِ مَنْ كَانَ مِنَ النَّاطِقِينَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ الْمُتَكَلِّمِ بِالْقُرْآنِ وَالْمُنْزَلِ عَلَيْهِ وَالْمُخَاطَبِ بِهِ.

فَالْأَوَّلُونَ رَاعَوْا الْمَعْنَىٰ الَّذِي رَأَوْهُ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ مَا تَسْتَحِقُّهُ أَلْفَاظُ «الْقُرْآنِ» مِنَ الدَّلَالَةِ وَالْبَيَانِ.



وَالآخِرُونَ رَاعَوْا مُجَرَّدَ اللَّفْظِ، وَمَا يَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْعَرَبِيُّ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ مَا يَصْلُحُ لِلْمُتَكَلِّمِ بِهِ وَسِيَاقِ الْكَلَامِ.

ثُمَّ هَؤُلَاءِ كَثِيرًا مَا يَغْلَطُونَ فِي احْتِمَالِ اللَّفْظِ لِذَلِكَ الْمَعْنَىٰ فِي اللُّغَةِ؛ كَمَا يَغْلَطُ فِي ذَلِكَ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ.

كَمَا أَنَّ الأَوَّلِينَ كَثِيرًا مَا يَغْلَطُونَ فِي صِحَّةِ الْمَعْنَىٰ عَلَىٰ الَّذِي فَسَّرُوا بِهِ «الْقُرْآنَ» كَمَا يَغْلَطُ فِي ذَلِكَ الْآخِرُونَ، وَإِنْ كَانَ نَظَرُ الْأَوَّلِينَ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ أَسْبَقَ، وَنَظَرُ الْآخِرِينَ إِلَىٰ اللَّفْظِ أَسْبَقُ.

وَالْأَوَّلُونَ صِنْفَانِ: تَارَةً يَسْلُبُونَ لَفْظَ الْقُرْآنِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ وَأُرِيدَ بِهِ.

وَتَارَةً يَحْمِلُونَهُ عَلَىٰ مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ وَلَمْ يُرَدْ بِهِ.

وَفِي كِلَا الْأَمْرَيْنِ قَدْ يَكُونُ مَا قَصَدُوا نَفْيَهُ أَوْ إِثْبَاتَهُ مِنَ الْمَعْنَىٰ بَاطِلًا؛ فَيَكُونُ خَطَؤُهُمْ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ.

وَقَدْ يَكُونُ حَقًّا فَيَكُونُ خَطَؤُهُمْ فِي الدَّلِيلِ لَا فِي الْمَدْلُولِ.

وَهَـٰذَا كَمَا أَنَّهُ وَقَعَ فِي «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»، فَإِنَّهُ وَقَعَ أَيْضًا فِي «تَفْسِيرِ الْحَدِيثِ».

فَالَّذِينَ أَخْطَؤُوا فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ مِثْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ؛ اعْتَقَدُوا مَذْهَبًا يُخَالِفُ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِ الأُمَّةُ الْوَسَطُ الَّذِينَ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ، كَسَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا، وَعَمَدُوا إِلَىٰ الْقُرْآنِ فَتَأَوَّلُوهُ عَلَىٰ آرَائِهِمْ؛ تَارَةً يَسْتَدِلُّونَ بِآيَاتٍ عَلَىٰ مَذْهَبِهِمْ وَلَا دِلَالَةَ فِيهَا، وَتَارَةً يَتَأَوَّلُونَ مَا يُخَالِفُ مَذْهَبَهُمْ بِمَا يُحَرِّفُونَ بِهِ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ فِرَقُ الْخَوَارِجِ، وَالرَّوَافِضِ، وَالْجَهْمِيَّةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَالْقَدَرِيَّةِ، وَالْمُرْجِئَةِ، وَغَيْرِهِمْ.

وَهَـٰذَا كَالْمُعْتَزِلَةِ مَثَلًا؛ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ كَلَامًا وَجِدَالًا، وَقَدْ صَنَّفُوا تَفَاسِيرَ عَلَىٰ أُصُولِ مَذْهَبِهِمْ؛ مِثْلَ: «تَفْسِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَيْسَانَ الأَصَمِّ» -شَيْخِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُلَيَّةَ الَّذِي كَانَ يُنَاظِرُ الشَّافِعِيَّ-، وَمِثْلَ: «كِتَابِ أَبِي عَلِيٍّ الْجُبَّائِيِّ»، وَ«التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ» لِلْقَاضِي عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ أَحْمَدَ الهَمْدَانِي، وَ«الجَامِعِ لِعِلْمِ القُرْآنِ» لِعَلِيِّ بْنِ عِيسَىٰ الرُّمَّانِيِّ، وَ«الْكَشَّافِ» لِأَبِي الْقَاسِمِ الزَّمَخْشَرِي، فَهَؤُلَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ اعْتَقَدُوا مَذَاهِبَ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَأُصُولُ الْمُعْتَزِلَةِ خَمْسَةٌ يُسَمُّونَهَا هُمْ: التَّوْحِيدَ، وَالْعَدْلَ، وَالْمَنْزِلَةَ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَإِنْفَاذَ



الْوَعِيدِ، وَالأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

و«تَوْحِيدُهُمْ» هُوَ تَوْحِيدُ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِي مَضْمُونُهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

قَالُوا: إنَّ اللهَ لَا يُرَىٰ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَإِنَّهُ تَعَالَىٰ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ، وَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِهِ عِلْمٌ، وَلا قُدْرَةٌ، وَلَا حَيَاةٌ، وَلَا سَمْعٌ، وَلَا بَصَرٌ، وَلَا كَلَامٌ، وَلَا مَشِيئَةٌ، وَلَا صِفَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ.

وَأَمَّا «عَدْلُهُمْ» فَمِنْ مَضْمُونِهِ أَنَّ اللهَ لَمْ يَشَأْ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ، وَلَا خَلَقَهَا كُلَّهَا، وَلَا هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا؛ بَلْ عِنْدَهُمْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ لَمْ يَخْلُقْهَا اللهُ، لَا خَيْرَهَا وَلَا شَرَّهَا، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا مَا أَمَرَ بِهِ شَرْعًا، وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِغَيْرِ مَشِيئَتِهِ.

وَقَدْ وَافَقَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ مُتَأَخِّرُو الشِّيعَةِ كَالْمُفِيدِ، وَأَبِي جَعْفَرٍ الطُّوسِيِّ، وَأَمْثَالِهِمَا، وَلِأَبِي جَعْفَرٍ هٰذا «تَفْسِيرٌ» عَلَىٰ هٰذِهِ الطَّرِيقَةِ؛ لَكِنْ يَضُمُّ إِلَىٰ ذَلِكَ قَوْلَ الْإِمَامِيَّةِ الِاثْنَيْ عَشَرِيَّةَ؛ فَإِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ بِذَلِكَ، وَلَا مَنْ يُنْكِرُ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ.

وَمِنْ أُصُولِ الْمُعْتَزِلَةِ مَعَ الْخَوَارِجِ «إِنْفَاذُ الْوَعِيدِ فِي الآخِرَةِ»، وَأَنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ شَفَاعَةً، وَلَا يُخْرِجُ مِنْهُمْ أَحَدًا مِنَ النَّارِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ طَوَائِفُ مِنَ الْمُرْجِئَةِ والكَرَّامِيَّة والكُلَّابِيَّة وَأَتْبَاعِهِمْ؛ فَأَحْسَنُوا تَارَةً وَأَسَاؤُوا أُخْرَىٰ؛ حَتَّىٰ صَارُوا فِي طَرَفَيْ نَقِيضٍ؛ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هٰذا الْمَوْضِعِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ اعْتَقَدُوا رَأْيًا ثُمَّ حَمَلُوا أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُمْ سَلَفٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، لَا فِي رَأْيِهِمْ وَلَا فِي تَفْسِيرِهِمْ.

وَمَا مِنْ تَفْسِيرٍ مِنْ تَفَاسِيرِهِمْ الْبَاطِلَةِ إِلَّا وَبُطْلَانُهُ يَظْهَرُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ؛ وَذَلِكَ مِنْ جِهَتَيْنِ:

تَارَةً مِنَ الْعِلْمِ بِفَسَادِ قَوْلِهِمْ.

وَتَارَةً مِنَ الْعِلْمِ بِفَسَادِ مَا فَسَّرُوا بِهِ الْقُرْآنَ؛ إِمَّا دَلِيلًا عَلَىٰ قَوْلِهِمْ، أَوْ جَوَابًا عَلَىٰ الْمُعَارِضِ لَهُمْ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَكُونُ حَسَنَ الْعِبَارَةِ فَصِيحًا يَدُسُّ الْبِدَعَ فِي كَلَامِهِ -وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ-؛ كَصَاحِبِ «الْكَشَّافِ» وَنَحْوِهِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ يَرُوجُ عَلَىٰ خَلْقٍ كَثِيرٍ مِمَّنْ لَا يَعْتَقِدُ



الْبَاطِلَ مِنْ تَفَاسِيرِهِمْ الْبَاطِلَةِ مَا شَاءَ اللهُ.

وَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ مَنْ يَذْكُرُ فِي كِتَابِهِ وَكَلَامِهِ مِنْ تَفْسِيرِهِمْ مَا يُوَافِقُ أُصُولَهُمْ الَّتِي يَعْلَمُ أَوْ يَعْتَقِدُ فَسَادَهَا، وَلَا يَهْتَدِي لِذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّهُ بِسَبَبِ تَطَرُّفِ هَؤُلَاءِ وَضَلَالِهِمْ دَخَلَتِ الرَّافِضَةُ الإِمَامِيَّةُ، ثُمَّ الْفَلَاسِفَةُ، ثُمَّ الْقَرَامِطَةُ وَغَيْرُهُمْ؛ فِيمَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ، وَتَفَاقَمَ الأَمْرُ فِي الْفَلَاسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ وَالرَّافِضَةِ؛ فَإِنَّهُمْ فَسَّرُوا الْقُرْآنَ بِأَنْوَاعٍ لَا يَقْضِي مِنْهَا الْعَالِمُ عَجَبًا.

فَتَفْسِيرُ الرَّافِضَةِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] وَهُمَا: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

و: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]؛ أَيْ: بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَلِيٍّ فِي الْخِلَافَةِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ [البقرة:٦٧]، هِيَ: عَائِشَةُ.

وَ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة:١٢] طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ.

وَ: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ [الفرقان:٥٣] عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ.

وَ: ﴿ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ۝٢٢﴾ [الرَّحمٰن] الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ۝١٢﴾ [يس] فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبإ] عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

وَ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ [المائدة]، هُوَ عَلِيٌّ، وَيَذْكُرُونَ الْحَدِيثَ الْمَوْضُوعَ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ وَهُوَ تَصَدُّقُهُ بِخَاتَمِهِ فِي الصَّلَاةِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ [البقرة:١٥٧]، نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ لَمَّا أُصِيبَ بِحَمْزَةِ.

وَمِمَّا يُقَارِبُ هَٰذَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ مَا يَذْكُرُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران]، أَنَّ الصَّابِرِينَ رَسُولُ اللهِ، وَالصَّادِقِينَ أَبُو بَكْرٍ، وَالْقَانِتِينَ عُمَرُ، وَالْمُنْفِقِينَ عُثْمَانُ، وَالْمُسْتَغْفِرِين عَلِيٌّ.

وَفِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾: أَبُو بَكْرٍ، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾: عُمَرُ،



﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾: عُثْمَانُ، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح:٢٩]: عَلِيٌّ.

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: ﴿وَٱلتِّينِ﴾: أَبُو بَكْرٍ، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: عُمَرُ، ﴿وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾: عُثْمَانُ، ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التِّين]: عَلِيٌّ.

وَأَمْثَالُ هَـٰذِهِ الْخُرَافَاتِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ:

تَارَةً تَفْسِيرَ اللَّفْظِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِحَالٍ؛ فَإِنَّ هـٰذه الأَلْفَاظَ الَّتِي لا تَدُلُّ عَلَىٰ هَـؤُلَاءِ الأَشْخَاصِ بِحَالٍ.

وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ كُلُّ ذَلِكَ نَعْتٌ لِلَّذِينَ مَعَهُ، وَهِيَ الَّتِي يُسَمِّيهَا النُّحَاةُ خَبَرًا بَعْدَ خَبَرٍ.

والْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهَا كُلَّهَا صِفَاتٌ لِمَوْصُوفٍ وَاحِدٍ وَهُمْ الَّذِينَ مَعَهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنْهَا مُرَادًا بِهِ شَخْصًا وَاحِدًا.

وَتَتَضَمَّنُ تَارَةً جَعْلَ اللَّفْظِ الْمُطْلَقِ الْعَامِّ مُنْحَصِرًا فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ؛ كَقَوْلِهِمْ: إنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أُرِيدَ بِهَا عَلِيٌّ وَحْدَهُ.

وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر:٣٣]، أُرِيدَ بِهَا أَبُو بَكْرٍ وَحْدَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد:١٠]، أُرِيدَ بِهَا أَبُو بَكْرٍ وَحْدَهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَ«تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةَ» وَأَمْثَالِهِ أَتْبَعُ لِلسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَأَسْلَمُ مِنَ الْبِدْعَةِ مِنْ «تَفْسِيرِ الزَّمَخْشَرِي»، وَلَوْ ذَكَرَ كَلَامَ السَّلَفِ الْمَوْجُودَ فِي التَّفَاسِيرِ الْمَأْثُورَةِ عَنْهُمْ عَلَىٰ وَجْهِهِ لَكَانَ أَحْسَنَ وَأَجْمَلَ؛ فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَنْقُلُ مِنْ «تَفْسِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيّ»، وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ التَّفَاسِيرِ الْمَأْثُورَةِ وَأَعْظَمِهَا قَدْرًا، ثُمَّ إِنَّهُ يَدَعُ مَا نَقَلَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ السَّلَفِ لَا يَحْكِيهِ بِحَالٍ، وَيَذْكُرُ مَا يَزْعُمُ أَنَّهُ قَوْلُ الْمُحَقِّقِينَ، وَإِنَّمَا يَعْنِي بِهِمْ طَائِفَةً مِنْ «أَهْلِ الْكَلام» الَّذِينَ قَرَّرُوا أُصُولَهُمْ بِطُرُقٍ مِنْ جِنْسِ مَا قَرَّرَتْ بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ أُصُولَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا أَقْرَبَ إِلَىٰ السُّنَّةِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ؛ لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْطَىٰ كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَيُعْرَفَ أَنَّ هَـٰذَا مِنْ جُمْلَةِ التَّفْسِيرِ عَلَىٰ الْمَذْهَبِ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ وَالأَئِمَّةَ إِذَا كَانَ لَهُمْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَوْلٌ وَجَاءَ قَوْمٌ فَسَّرُوا الآيَةَ بِقَوْلٍ آخَرَ لأَجْلِ مَذْهَبٍ اعْتَقَدُوهُ -وَذَلِكَ الْمَذْهَبُ لَيْسَ مِنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ



وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ- صَارُوا مُشَارِكِينَ لِلْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنْ مِثْلِ هَـٰذَا.

وَفِي الْجُمْلَةِ مَنْ عَدَلَ عَنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفْسِيرِهِمْ إِلَىٰ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ؛ كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ؛ بَلْ مُبْتَدِعًا، وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مَغْفُورًا لَهُ خَطَؤُهُ، فَالْمَقْصُودُ بَيَانُ طُرُقِ الْعِلْمِ وَأَدِلَّتِهِ وَطُرُقِ الصَّوَابِ.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ قَرَأَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَتَابِعُوهُمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِتَفْسِيرِهِ وَمَعَانِيهِ، كَمَا أَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِالْحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، فَمَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ وَفَسَّرَ الْقُرْآنَ بِخِلَافِ تَفْسِيرِهِمْ؛ فَقَدْ أَخْطَأَ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ كُلُّ مَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ لَهُ شُبْهَةٌ يَذْكُرُهَا؛ إِمَّا عَقْلِيَّةٌ، وَإِمَّا سَمْعِيَّةٌ؛ كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

والْمَقْصُودُ هُنَا: التَّنْبِيهُ عَلَىٰ مَثَارِ الِاخْتِلَافِ فِي التَّفْسِيرِ، وَأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِهِ: الْبِدَعَ الْبَاطِلَةَ الَّتِي دَعَتْ أَهْلَهَا إِلَىٰ أَنْ حَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَفَسَّرُوا كَلَامَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ بِغَيْرِ مَا أُرِيدَ بِهِ، وَتَأَوَّلُوهُ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ.

فَمِنْ أُصُولِ الْعِلْمِ بِذَلِكَ:

أَنْ يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ الْقَوْلَ الَّذِي خَالَفُوهُ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ.

وَأَنْ يَعْرِفَ أَنَّ تَفْسِيرَ السَّلَفِ يُخَالِفُ تَفْسِيرَهُمْ.

وَأَنْ يَعْرِفَ أَنَّ تَفْسِيرَهُمْ مُحْدَثٌ مُبْتَدَعٌ.

ثُمَّ أَنْ يَعْرِفَ بِالطُّرُقِ الْمُفَصَّلَةِ فَسَادَ تَفْسِيرِهِمْ بِمَا نَصَبَهُ اللهُ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ بَيَانِ الْحَقِّ.

وَكَذَلِكَ وَقَعَ مِنَ الَّذِينَ صَنَّفُوا فِي «شَرْحِ الْحَدِيثِ» وَتَفْسِيرِهِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ جِنْسِ مَا وَقَعَ فِيمَا صَنَّفُوهُ مِنْ شَرْحِ الْقُرْآنِ وَتَفْسِيرِهِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ يُخْطِئُونَ فِي الدَّلِيلِ لَا فِي الْمَدْلُولِ؛ فَمِثْلُ كَثِيرٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَالْوُعَّاظِ وَالْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ، يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِمَعَانٍ صَحِيحَةٍ؛ لَكِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا؛ مِثْلُ كَثِيرٍ مِمَّن ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي فِي «حَقَائِقِ التَّفْسِيرِ»، وَإِنْ كَانَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مَا هُوَ مَعَانٍ بَاطِلَةٌ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْخُلُ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْخَطَأُ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا حَيْثُ يَكُونُ الْمَعْنَىٰ الَّذِي قَصَدُوهُ فَاسِدًا.

فَصْلٌ فِي أَحْسَنُ طُرُقِ التَّفْسِيرِ



فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا أَحْسَنُ طُرُقِ التَّفْسِيرِ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ أَصَحَّ الطُّرُقِ فِي ذَلِكَ:

أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ، فَمَا أُجْمِلَ فِي مَكَانٍ فَإِنَّهُ قَدْ فُسِّرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَا اخْتُصِرَ فِي مَكَانٍ فَقَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

فَإِنْ أَعْيَاك ذَلِكَ فَعَلَيْك بِـ«السُّنَّةِ»؛ فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ، وَمُوَضِّحَةٌ لَهُ؛ بَلْ قَدْ قَالَ الإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ: كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَهُوَ مِمَّا فَهِمَهُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾[النَّحل]؛ وَلِهَـٰذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**» يَعْنِي السُّنَّةَ.

وَالسُّنَّةُ أَيْضًا تَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ كَمَا يَنْزِلُ الْقُرْآنُ؛ لَا أَنَّهَا تُتْلَىٰ كَمَا يُتْلَىٰ.

وَقَدْ اسْتَدَلَّ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الأَئِمَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ بِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ، لَيْسَ هَـٰذَا مَوْضِعَ ذَلِكَ.

وَالْغَرَضُ: أَنَّك تَطْلُبُ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فَمِنَ السُّنَّةِ؛ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَىٰ الْيَمَنِ: «**بِمَ تَحْكُمُ؟**»

قَالَ: بِكِتَابِ اللهِ.

قَالَ: «**فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟**»

قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ.

قَالَ: «**فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟**»

قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي.

قَالَ: فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِصَدْرِهِ، وَقَالَ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ**».



وَهَـٰذَا الحَدِيثُ فِي المَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَحِينَئِذٍ إِذَا لَمْ تَجِدْ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ رَجِعْتَ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ؛ فَإِنَّهُمْ أَدْرَىٰ بِذَلِكَ، لِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْقَرائِنِ، وَالأَحْوَالِ الَّتِي اخْتُصُّوا بِهَا؛ وَلِمَا لَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ التَّامِّ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لَاسِيَّمَا عُلَمَاؤُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ؛ كَالأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ؛ مِثْلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

قَالَ الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: أَنْبَأَنَا جَابِرُ بْنُ نُوحٍ، أَنْبَأَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ عَبْدُ اللهِ -يَعْنِي: ابْنَ مَسْعُودٍ-: وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَا نَزَلَتْ، وَأَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ مَكَانَ أَحَدٍ أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللهِ مِنِّي تَنَالُهُ الْمَطَايَا لَأَتَيْتُهُ.

وَقَالَ الأَعْمَشُ أَيْضًا عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ، حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ.

وَمِنْهُمُ الْحَبْرُ الْبَحْرُ: عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَ«تُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ» بِبَرَكَةِ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُ، حَيْثُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**».

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: أَنْبَأَنَا وَكِيعٌ، قَالَ: أَنْبَأَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ، قَالَ عَبْدُ اللهِ -يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ-: نِعْمَ تُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ.

ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ دَاوُدَ، عَنْ إِسْحَاقَ الْأَزْرَقِ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ صُبَيْحٍ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: نِعْمَ التُّرْجُمَانُ لِلْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ.

ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ بُنْدَارٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَوْنٍ، عَنْ الأَعْمَشِ بِهِ كَذَلِكَ.

فَهَـٰذَا «إِسْنَادٌ صَحِيحٌ» إِلَىٰ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّهُ قَالَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ، وَقَدْ مَاتَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ عَلَىٰ الصَّحِيحِ، وَعُمِّرَ بَعْدَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً فَمَا ظَنُّك بِمَا كَسَبَهُ مِنَ الْعُلُومِ بَعْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ؟

وَقَالَ الأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ: اسْتَخْلَفَ عَلِيٌّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ عَلَىٰ الْمَوْسِمِ؛ فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَرَأَ فِي خُطْبَتِهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: سُورَةَ النُّورِ- فَفَسَّرَهَا تَفْسِيرًا لَوْ سَمِعَتْهُ الرُّومُ وَالتُّرْكُ وَالدَّيْلَمُ لَأَسْلَمُوا.



وَلِهـٰذا فإنّ غَالِبَ مَا يَرْوِيهِ إسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّـدِّيُّ الْكَبِيـرُ فِـي تَفْسِـيرِهِ عَـنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ.

وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يُنْقَلُ عَنْهُمْ مَا يَحْكُونَهُ مِنْ أَقَاوِيـلِ أَهْـلِ الْكِتَـابِ الَّتِـي أَبَاحَهَـا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِـي إِسْـرَائِيلَ وَلَا حَـرَجَ، وَمَـنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو.

وَلِهـٰذا كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو قَدْ أَصَابَ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ زَامِلَتَيْنِ مِـنْ كُتُـبِ أَهْـلِ الْكِتَـابِ؛ فَكَانَ يُحَدِّثُ مِنْهُمَا، بِمَا فَهِمَهُ مِنْ هـٰذا الْحَدِيثِ مِنَ الْإِذْنِ فِي ذَلِكَ.

وَلَكِنَّ هـٰذِهِ الأَحَادِيثَ الْإِسْرَائِيلِيَّة تُذْكَرُ لِلاسْتِشْهَادِ لَا لِلاعْتِقَاد فَإِنَّهَا عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: مَا عَلِمْنَا صِحَّتَهُ مِمَّا بِأَيْدِينَا مِمَّا يَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ، فَذَاكَ صَحِيحٌ.

وَالثَّانِي: مَا عَلِمْنَا كَذِبَهُ بِمَا عِنْدَنَا مِمَّا يُخَالِفُهُ.

وَالثَّالِثُ: مَا هُوَ مَسْكُوتٌ عَنْهُ، لَا مِنْ هـٰذا الْقَبِيلِ، وَلَا مِنْ هـٰذا الْقَبِيلِ، فَلَا نُؤْمِنُ بِهِ، وَلَا نُكَذِّبُهُ، وَتَجُوزُ حِكَايَتُهُ لِمَا تَقَدَّمَ، وَغَالِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ تَعُودُ إِلَىٰ أَمْرٍ دِينِيٍّ.

وَلِهـٰذا يَخْتَلِفُ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي مِثْلِ هـٰذا كَثِيرًا، وَيَـأْتِي عَـنِ الْمُفَسِّـرِينَ خِـلَافٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ؛ كَمَا يَذْكُرُونَ فِي مِثْلِ هـٰذا أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَلَـوْنَ كَلْـبِهِمْ، وَعِـدَّتَهُمْ، وَعَصَا مُوسَىٰ مِنْ أَيِّ الشَّجَرِ كَانَتْ، وَأَسْـمَاءَ الطُّيُـورِ الَّتِـي أَحْيَاهَـا اللهُ لِإِبْـرَاهِيمَ، وَتَعْيِـينَ الْبَعْضِ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ الْمَقْتُولُ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَنَوْعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي كَلَّمَ اللهُ مِنْهَا مُوسَىٰ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَبْهَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْقُرْآنِ؛ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ تَعُودُ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِينَ فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا فِي دِينِهِمْ، وَلَكِنَّ نَقْلَ الْخِلَافِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ جَائِزٌ.

كَمَا قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف]، فَقَدْ اشْتَمَلَتْ هـٰذه الآيَـةُ الْكَرِيمَةُ عَلَىٰ الأَدَبِ فِي هـٰذا الْمَقَامِ، وَتَعْلِيمِ مَا يَنْبَغِي فِي مِثْلِ هـٰذا؛ فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ أَخْبَرَ عَـنْهُمْ فِي ثَلاثَةِ أَقْوَالٍ، وَضَعَّفَ الْقَوْلَيْنِ الأَوَّلَيْنِ، وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثِ، فَدَلَّ عَلَىٰ صِحَّتِهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ بَاطِلًا لَرَدَّهُ كَمَا رَدَّهُمَا.

ثُمَّ أَرْشَدَ إِلَىٰ أَنَّ الاطِّلَاعَ عَلَىٰ عِدَّتِهِمْ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، فَيُقَالُ فِي مِثْلِ هــٰذَا: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ



بِعِدَّتِهِم ﴾؛ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَلِهَـٰذا قَالَ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا ﴾؛ أَيْ: لَا تُجْهِدْ نَفْسَك فِيمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَلَا تَسْأَلْهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا رَجْمَ الْغَيْبِ.

فَهَـٰذا أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِي حِكَايَاتِ الْخِلَافِ: أَنْ تُسْتَوْعَبَ الْأَقْوَالُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ، وَأَنْ يُنَبَّهَ عَلَىٰ الصَّحِيحِ مِنْهَا، وَيُبْطَلَ الْبَاطِلُ، وَتُذْكَرَ فَائِدَةُ الْخِلَافِ وَثَمَرَتُـهُ؛ لِئَلَّا يَطُولَ النِّزَاعُ وَالْخِلَافُ فِيمَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ، فَيُشْتَغَلَ بِهِ عَنِ الْأَهَمِّ.

فَأَمَّا مَنْ حَكَىٰ خِلَافًا فِي مَسْأَلَةٍ وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ أَقْوَالَ النَّاسِ فِيهَا فَهُوَ نَاقِصٌ؛ إِذْ قَدْ يَكُونُ الصَّوَابُ فِي الَّذِي تَرَكَهُ، أَوْ يَحْكِي الْخِلَافَ وَيُطْلِقُهُ وَلَا يُنَبِّهُ عَلَىٰ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَقْوَالِ فَهُوَ نَاقِصٌ أَيْضًا، فَإِنْ صَحَّحَ غَيْرَ الصَّحِيحِ عَامِدًا فَقَدْ تَعَمَّدَ الْكَذِبَ، أَوْ جَاهِلًا فَقَدْ أَخْطَأَ.

كَذَلِكَ مَنْ نَصَبَ الْخِلَافَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ، أَوْ حَكَىٰ أَقْوَالًا مُتَعَدِّدَةً لَفْظًا، وَيَرْجِعُ حَاصِلُهَا إِلَىٰ قَوْلٍ أَوْ قَوْلَيْنِ مَعْنًىٰ؛ فَقَدْ ضَيَّعَ الزَّمَانَ وَتَكَثَّرَ بِمَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ.



فَصْلٌ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِأَقْوَالِ التَّابِعِينَ

إِذَا لَمْ تَجِدْ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ وَلَا وَجَدْتَهُ عَنْ الصَّحَابَةِ؛ فَقَدْ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ أَقْوَالِ التَّابِعِينَ؛ كَـمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرٍ، فَإِنَّهُ آيَةً فِي التَّفْسِيرِ كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنَا أَبَانُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرْضَات مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا.

وَبِهِ إِلَىٰ التِّرْمِذِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ مَهْدِيٍّ الْبَصْرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مُعَمَّرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ سَمِعْتُ فِيهَا شَيْئًا.

وَبِهِ إِلَيْهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، قَالَ: قَالَ مُجَاهِدٌ: لَوْ كُنْتُ قَرَأْتُ قِرَاءَةَ ابْنِ مَسْعُودٍ لَمْ أَحْتَجْ أَنْ أَسْأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْقُرْآنِ مِمَّا سَأَلْتُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا طَلْقُ بْنُ غَنَّامٍ، عَنْ عُثْمَانَ الْمَكِّيِّ، عَنْ ابْنِ



أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: رَأَيْتُ مُجَاهِدًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَمَعَهُ أَلْوَاحُهُ؛ فَيَقُولُ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: اكْتُبْ حَتَّىٰ سَأَلَهُ عَنِ التَّفْسِيرِ كُلِّهِ.

وَلِهَـٰذَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ.

وَكَـ: سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةَ مَوْلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَمَسْرُوقِ بْنِ الأَجْدَعِ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ التَّابِعِينَ، وَتَابِعِيهِمْ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ.

فَتُذْكَرُ أَقْوَالُهُمْ فِي الْآيَةِ فَيَقَعُ فِي عِبَارَاتِهِمْ تَبَايُنٌ فِي الْأَلْفَاظِ يَحْسَبُهَا مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ اخْتِلَافًا فَيَحْكِيهَا أَقْوَالًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُعَبِّرُ عَنِ الشَّيْءِ بِلَازِمِهِ أَوْ نَظِيرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنُصُّ عَلَىٰ الشَّيْءِ بِعَيْنِهِ، وَالْكُلُّ بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ فِي كَثِيرٍ مِنْ الأَمَاكِنِ، فَلْيَتَفَطَّنِ اللَّبِيبُ لِذَلِكَ، وَاللهُ الْهَادِي.

وَقَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ وَغَيْرُهُ: أَقْوَالُ التَّابِعِينَ فِي الْفُرُوعِ لَيْسَتْ حُجَّةً؛ فَكَيْفَ تَكُونُ حُجَّةً فِي التَّفْسِيرِ؟!

يَعْنِي: أَنَّهَا لَا تَكُونُ حُجَّةً عَلَىٰ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ خَالَفَهُمْ، وَهَـٰذَا صَحِيحٌ؛ أَمَّا إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَىٰ الشَّيْءِ فَلَا يُرْتَابُ فِي كَوْنِهِ حُجَّةً، فَإِنْ اخْتَلَفُوا فَلَا يَكُونُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ حُجَّةً عَلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا عَلَىٰ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَيُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ، أَوْ السُّنَّةِ، أَوْ عُمُومِ لُغَةِ الْعَرَبِ، أَوْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ.

فَأَمَّا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِمُجَرَّدِ «الرَّأْيِ» فَحَرَامٌ.

حَدَّثَنَا مُؤَمَّلٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَىٰ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**».

حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ الأَعْلَىٰ الثَّعْلَبِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**».

وَبِهِ إِلَىٰ التِّرْمِذِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي حِبَّانُ بْنُ هِلَالٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُهَيْلٌ أَخُو حِزَامٍ القَطْعِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ، عَنْ جُنْدُبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ**».

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَـٰذَا الحَدِيثُ غَرِيبٌ، وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ أَهْلِ الْحَدِيثِ فِي سُهَيْلِ بْنِ أَبِي



حَزْم.

وَهَكَذَا رَوَىٰ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ شَدَّدُوا فِي أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

وَأَمَّا الَّذِي رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَنَّهُمْ فَسَّرُوا الْقُرْآنَ، فَلَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي الْقُرْآنِ وَفَسَّرُوهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَوْ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَا قُلْنَا: (أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)، فَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَقَدْ تَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَسَلَكَ غَيْرَ مَا أُمِرَ بِهِ، فَلَوْ أَنَّهُ أَصَابَ الْمَعْنَىٰ فِي نَفْسِ الأَمْرِ لَكَانَ قَدْ أَخْطَأَ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ كَمَنْ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ عَنْ جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَإِنْ وَافَقَ حُكْمُهُ الصَّوَابَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ؛ لَكِنْ يَكُونُ أَخَفَّ جُرْمًا مِمَّنْ أَخْطَأَ وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَهَكَذَا سَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ «الْقَذَفَةَ» كَاذِبِينَ؛ فَقَالَ: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور]، فَالْقَاذِفُ كَاذِبٌ، وَلَوْ كَانَ قَدْ قَذَفَ مَنْ زَنَىٰ فِي نَفْسِ الأَمْرِ؛ لأَنَّهُ أَخْبَرَ بِمَا لَا يَحِلُّ لَهُ الإِخْبَارُ بِهِ وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَلِهَٰذا تَحَرَّجَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ عَنْ تَفْسِيرِ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ؛ كَمَا رَوَىٰ شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُرَّةَ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؛ إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لَمْ أَعْلَمْ؟!

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ، عَنِ الْعَوَّامِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس]، فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي؛ إِنْ أَنَا قُلْت فِي كِتَابِ اللهِ مَا لا أَعْلَمُ؟ مُنْقَطِعٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ أَيْضًا: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَرَأَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس]، فَقَالَ: هَٰذه الْفَاكِهَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا هُوَ الأَبُّ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ نَفْسِهِ فَقَالَ: إِنَّ هَٰذا لَهُوَ التَّكَلُّفُ يَا عُمَرُ.

وَقَالَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَفِي ظَهْرِ قَمِيصِهِ أَرْبَعُ رِقَاعٍ فَقَرَأَ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ فَقَالَ: وَمَا الأَبُّ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ التَّكَلُّفُ فَمَا عَلَيْكَ أَلَّا تَدْرِيهِ.



وَهـٰذا كُلُّهُ مَحْمُولٌ عَلَىٰ أَنَّهُمَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إِنَّمَا أَرَادَا اسْتِكْشَافَ مَاهِيَـةَ الْأَبِّ، وَإِلَّا فَكَوْنُـهُ نَبْتًـا مِنَ الأَرْضِ ظَاهِرٌ لَا يُجْهَلُ؛ لِقَوْلِهِ تَعـالَىٰ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾﴾ [عبس].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ؛ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ آيَةٍ لَوْ سُئِلَ عَنْهَا بَعْضُكُمْ لَقَالَ فِيهَا، فَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ فِيهَا.

إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَـالَ: سَـأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ: ﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [السجدة:٥]، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا: ﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾﴾ [المعارج]؟، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّمَا سَـأَلْتُك لِتُحَـدِّثَنِي؛ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا يَوْمَانِ ذَكَرَهُمَا اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِهِمَا. فَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ فِي كِتَـابِ اللهِ مَا لَا يَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنَ إِبْرَاهِيمَ، قَـالَ: حَـدَّثَنَا ابْـنُ عُلَيَّـةَ، عَـنْ مَهْـدِيِّ بْـنِ مَيْمُونٍ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، قَالَ: جَاءَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ إِلَىٰ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، فَسَأَلَهُ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: أُحَرِّجُ عَلَيْك إِنْ كُنْت مُسْلِمًا لَمَا قُمْتَ عَنِّي، أَوْ قَالَ: أَنْ تُجَالِسَنِي.

وَقَالَ مَالِكٌ: عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ؛ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ آيَـةٍ مِنَ الْقُرْآنِ؛ قَالَ: إِنَّا لَا نَقُولُ فِي الْقُرْآنِ شَيْئًا.

وَقَالَ اللَّيْثُ: عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَـعِيدِ بْـنِ الْمُسَـيَّبِ؛ إِنَّـهُ كَـانَ لَا يَـتَكَلَّمُ إِلَّا فِـي الْمَعْلُومِ مِنَ الْقُرْآنِ.

وَقَالَ شُعْبَةُ: عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ عَنْ آيَـةٍ مِـنَ الْقُـرْآنِ؛ فَقَالَ: لَا تَسْأَلْنِي عَنِ الْقُرْآنِ، وَسَلْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ؛ يَعْنِي عِكْرِمَةَ.

وَقَالَ ابْنُ شَوْذَبٍ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي يَزِيدَ، قَالَ: كُنَّـا نَسْـأَلُ سَـعِيدَ بْـنَ الْمُسَـيَّبِ عَـنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ، فَإِذَا سَأَلْنَاهُ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ سَـكَتَ؛ كَـأَنْ لَـمْ يَسْمَعْ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي أَحْمَد بْنُ عَبْدَةَ الضَّبِّيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، قَـالَ: حَـدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: لَقَدْ أَدْرَكْتُ فُقَهَاءَ الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهُمْ لَيُعَظِّمُونَ الْقَوْلَ فِي التَّفْسِيرِ؛ مِنْهُمْ



سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَنَافِعٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ، عَنِ اللَّيْثِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، قَالَ: مَا سَمِعْتُ أَبِي تَأَوَّلَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ قَطُّ.

وَعَنْ أَيُّوبَ، وَابْنُ عَوْنٍ، وَهِشَامٌ الدَّسْتَوَائِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: سَأَلْت عُبَيْدَةَ السَّلْمَانِيَّ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: ذَهَبَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ، فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَاتَّقِ اللهَ، وَعَلَيْك بِالسَّدَادِ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا مُعَاذٌ، عَنْ ابْنِ عَوْنٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: إذَا حَدَّثْتَ عَنِ اللهِ فَقِفْ حَتَّىٰ تَنْظُرَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ.

حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ إبْرَاهِيمَ، قَالَ: كَانَ أَصْحَابُهُ يَتَّقُونَ التَّفْسِيرَ وَيَهَابُونَهُ.

وَقَالَ شُعْبَةُ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي السَّفَرِ، قَالَ: قَالَ الشَّعْبِيُّ: وَاللهِ مَا مِنْ آيَةٍ إلَّا وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا؛ وَلَكِنَّهَا الرِّوَايَةُ عَنِ اللهِ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، قَالَ: أَنْبَأَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي زَائِدَةَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: اتَّقُوا التَّفْسِيرَ؛ فَإِنَّمَا هُوَ الرِّوَايَةُ عَنِ اللهِ.

فَهٰذه الآثَارُ الصَّحِيحَةُ، وَمَا شَاكَلَهَا عَنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ مَحْمُولَةٌ عَلَىٰ تَحَرُّجِهِمْ عَنِ الْكَلَامِ فِي التَّفْسِيرِ بِمَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ؛ فَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ لُغَةً وَشَرْعًا فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ؛ وَلِهٰذا رُوِيَ عَنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَقْوَالٌ فِي التَّفْسِيرِ وَلَا مُنَافَاةَ؛ لأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيمَا عَلِمُوهُ وَسَكَتُوا عَمَّا جَهِلُوهُ.

وَهٰذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَىٰ كُلِّ أَحدٍ، فَإِنَّهُ كَمَا يَجِبُ السُّكُوتُ عَمَّا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ الْقَوْلُ فِيمَا سُئِلَ عَنْهُ مِمَّا يَعْلَمُهُ؛ لقوله تعالَىٰ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وَلِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طُرُقٍ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ».

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُؤَمَّلٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ.

وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ.



«الْقَوَاعِدُ الْحِسَانُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»

لِلشَّيْخِ العَلَّامَةِ:

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرٍ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد؛ فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النَّفع، تعين قارئها ومتأملها علىٰ فهم كلام الله، والاهتداء به، ومخبرها أجل من وصفها. فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير، ومنهاج الفهم عن الله: ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة.

أرجو الله وأسأله أن يتم ما قصدنا إيراده، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سببًا للوصول إلىٰ العلم النافع، والهدىٰ الكامل.

واعلم أن علم التفسير أجل العلوم علىٰ الإطلاق، وأفضلها وأوجبها وأحبها إلىٰ الله، لأن الله أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنىٰ علىٰ القائمين بذلك، وجعلهم في أعلىٰ المراتب، ووعدهم أسنىٰ المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن، لم يكن ذلك كثيرًا في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساس السعادة في الدارين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة، وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدىٰ والخير والرحمة، ويهيئ الله له أطيب الحياة والباقيات الصالحات.



فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط علىٰ وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود، لأنه إذا انفتح للعبد الباب، وتمهدت بفهم القاعدة الأسباب، وتدرب منها بعدة أمثلة توضحها وتبين طريقها ومنهجها، لم يحتج إلىٰ زيادة البسط وكثرة التفاصيل، ونسأله تعالىٰ أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه وإحسانه.

القاعدة الأولى:

في كيفية تلقي التفسير

كل من سلك طريقًا وعمل عملًا، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[البقرة:١٨٩].

وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه، ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها، بل هو أساسها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم، وأنه في كل وقت وزمان ومكان يرشد إلىٰ أهدىٰ الأمور وأقومها ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩].

فعلىٰ الناس أن يتلقوا معني كلام الله كما تلقاه الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتىٰ يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلوها علىٰ الأحوال الواقعة يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويطبقونها علىٰ جميع ما يشاهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم، **ويحاسبون أنفسهم**: هل هم قائمون بها أو مخلون بحقوقها ومطلوبها؟ وكيف الطريق إلىٰ الثبات علىٰ الأمور النافعة، وتدارك ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجه إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه، وجَدّ واجتهد في تدبر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته واستنارت بصيرته، واستغنىٰ بهذه الطريقة عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية، وخصوصًا إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانبًا قويًا، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإن ذلك أكبر



عون علىٰ هذا المطلب.

ومتىٰ علم العبد أن القرآن فيه بيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزلها علىٰ كل واقع وحادث سابق أو لاحق، ظهر له عظم مواقعها وكثرة فوائدها وثمارها.

ويلحق بهذه القاعدة:



القاعدة الثانية:

العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب

وهذه القاعدة نافعة جدًا، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط والارتباك الخطير.

وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتىٰ راعيت القاعدة حق الرعاية وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنما هو علىٰ سبيل المثال لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظ والآيات مقصورةً عليها. فقولهم: نزلت في كذا وكذا، معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يراد بها، فإن القرآن ـ كما تقدم ـ إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها، حيث تكون وأنىٰ تكون.

والله تعالىٰ قد أمرنا بالتفكر والتدبر لكتابه، فإذا تدبرنا الألفاظ العامة، وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة، فلأي شيء نخرج بعض هذه المعاني، مع دخول ما هو مثلها ونظيرها فيها؟ ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ إِمَّا خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، وَإِمَّا شَرٌّ تُنْهَىٰ عَنْهُ».

فمتىٰ مر بك خبر عن صفات الله وأسمائه، وعما يستحقه من الكمال، وما يتنزه عنه من النقص. فأَثْبِتْ جميع ذلك المعنىٰ الكامل الذي أثبته سبحانه لنفسه ونزّهه عن كل ما نزه نفسه عنه، وكذلك إذا مر بك خبر عن رسله وكتبه واليوم الآخر، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة، فاجزم جزمًا لا شك فيه أنه حق علىٰ حقيقته، بل هو أعلىٰ أنواع الحق والصدق، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾[النساء] وحديثا.

وإذا أمر بشيء نظرت إلىٰ معناه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، وعلمت أن ذلك الأمر



موجه إلىٰ جميع الأمة، وكذلك في النهي.

ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله أصلَ كل الخير والفلاح، والجهل بذلك أصل كل الشر والخسران.

فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون علىٰ معرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله والقيام بها. والقرآن قد جمع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[الفرقان]، يوضح ذلك ويبينه وينهج طريقته.



القاعدة الثالثة:

الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه

وقد نص علىٰ ذلك أهل الأصول وأهل العربية، واتفق علىٰ اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان، فمثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[الأحزاب] يدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان والقنوت والصدق إلىٰ آخرها. وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها ما رتب عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبنقصانها ينقص، وبعدمها يفقد، وهكذا كل وصف رتب عليه خير وأجر وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك كل وصف نَهىٰ الله عنه ورتب عليه وعلىٰ المتصف به عقوبة وشرًا ونقصًا، يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور، وكذلك مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾[المعارج] عام لجنس الإنسان.

فكل إنسان هذا وصفه إلا من استثنىٰ الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾[المعارج] إلىٰ آخرها كما أن قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾[العصر] دال علىٰ أن كل إنسان عاقبته ومآله إلىٰ الخسار ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[العصر] وأمثال ذلك كثير.

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة: في الأسماء الحسنىٰ، فإن في القرآن منها شيئًا كثيرًا، وهي من أجل علوم القرآن، بل هي المقصد الأول للقرآن.



فمثلًا يخبر الله عن نفسه: أنه الرب الحي القيوم، وأنه الملك والعليم والحكيم، والعزيز والرحيم، والقدوس السلام، والحميد المجيد. فالله هو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يؤله لأجلها وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها له، والفضل كله، والإحسان كله، وأنه لا يُشارِك اللهَ أحد في معنىٰ من معاني [الربوبية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورىٰ] لا بشر ولا مَلَك، بل هم جميعًا عبيدون مربوبون لربهم خاضعون لجلاله وعظمته.

فلا ينبغي أن يكون أحد منهم ندًا، ولا شريكا لله في عبادته وإلهيته، فبربوبيته سبحانه يربي الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وإحياء وإماتة، وهم يشكرونه علىٰ ذلك بإخلاص العبادة كلها له وحده، فيؤلهونه ولا يتخذون من دونه وليًا ولا شفيعًا، فالإلهية حق له سبحانه علىٰ عباده بصفة ربوبيته.

وأنه الملك الذي له جميع معاني الملك، وهو الملك الكامل والتصرف النافذ، وأن الخلق كلهم مماليك لله، عبيد تحت أحكام ملكه القدرية والشرعية والجزائية.

وأنه العليم بكل شيء، الذي لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي أحاط علمه بالبواطن والظواهر والخفيات والجليات والواجبات والمستحيلات، والجائزات والأمور السابقة واللاحقة والعالم العلوي، والسفلي، والكليات، والجزئيات. وما يعلم الخلق وما لا يعلمون ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾[البقرة] وأنه الحكيم الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه وقدره وخلقه، وجميع ما شرعه لا يخرج عن حكمته، لا مخلوق ولا مشروع، وأنه العزيز الذي له جميع معاني العزة علىٰ وجه الكمال التام من كل وجه، عزة القوة وعزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وأن جميع الخلق في غاية الذل ونهاية الفقر، ومنتهىٰ الحاجة والضرورة إلىٰ ربهم، وأنه الرحمن الرحيم الذي له جميع معاني الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، ولم يخل مخلوق من إحسانه وبره طرفة عين تبلغ رحمته حيث يبلغ علمه ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر:٧] وأنه القدوس السلام، المعظم المنزه عن كل عيب وآفة ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له ند من خلقه.

وهكذا بقية الأسماء الحسنىٰ، اعتبرْها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك باب عظيم من



أبواب معرفة الله، بل أصل معرفة الله تعالىٰ معرفة ما تحتوي عليه أسماؤه الحسنىٰ، وتقتضيه من المعاني العظيمة، بحسب ما يقدر عليه العبد، وإلا فلن يبلغ علم أحد من الخلق ذلك، ولن يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢] يشمل جميع أنواع البر والخير، وتشمل التقوىٰ جميع ما يجب اتقاؤه من أنواع المَخُوفات والمعاصي والمحرمات.

والإثم: اسم جامع لكل ما يؤثم، ويوقع في المعصية.

كما أن العدوان: اسم جامع يدخل فيه جميع أنواع التعدي علىٰ الناس في الدماء والأموال والأعراض، والتعدي علىٰ مجموع الأمة، وعلىٰ الحكومات والتعدي علىٰ حدود الله.

والمعروف في القرآن: اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، **وعكسه**: المنكر والسوء والفاحشة.

وقد نبه النبي ﷺ أمته إلىٰ هذه القاعدة، وأرشدهم إلىٰ اعتبارها إذ علمهم أن يقولوا في التشهد في الصلاة: «**السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**» فقال: «**فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ سَلَّمْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**»، رواه البخاري، وأمثلتها في القرآن كثيرة جدًا.



القاعدة الرابعة:

إذا وقعت النكرة في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام، دلت على العموم

كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦] فإنه نهىٰ عن الشرك به في النيات، والأقوال والأفعال، وعن الشرك الأكبر، والأصغر والخفي، والجلي. فلا يجعل العبد لله ندًا ومشاركًا في شيء من ذلك.

ونظيرها قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢].

وقوله في وصف يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار:١٩]، يعم كل



نفس، وأنها لا تملك شيئًا من الأشياء، لأي نفس أخرىٰ، مهما كانت الصلة، لا إيصال شيء من المنافع، ولا دفع شيء من المضار.

وكقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾[يونس:١٠٧]، فكل ضر قدره الله علىٰ العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كائنا من كان كشفه بوجه من الوجوه.

ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية: إنما هو جزء من أجزاء كثيرة داخلة في قضاء الله وقدره.

وقوله: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾[فاطر:٢] وقوله ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [النحل:٥٣] يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد، وكل نعمة فيها حصول محبوب، أو دفع مكروه، فإن الله هو المنفرد بذلك وحده.

وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ ﴾ [فاطر:٣]، وإذا دخلت [من] صارت نصًا في العموم كهذه الآية: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الحاقة] وقوله ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[الأعراف:٥٩]، ولها أمثلة كثيرة جدًّا.



القاعدة الخامسة:

المقرر أن المفرد المضاف يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع

فكما أن قوله تعالىٰ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾[النساء:٢٣] إلىٰ آخرها يشمل كل أم انتسبت إليها، وإن علت. وكل بنت انتسبت إليك وإن نزلت - إلىٰ آخر المذكورات - فكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾[الضحىٰ] فإنها تشمل النعم الدينية والدنيوية، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾[الأنعام] فإنها تعم الصلوات كلها، والأنساك كلها، وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته، الجميع من الله فضلًا وإحسانًا، وأنك قد أتيت ما أتيت منه وأوقعته وأخلصته لله وحده، لا شريك له.

وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ ﴾[البقرة:١٢٥] **علىٰ أحد القولين**: إنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحج: اتخذوه معبدًا.



وأصْـــرَح مـــن هـــذا قولـــه تعـــالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣]، وهذا شامل لكل ما هو عليه من التوحيد والإخلاص لله تعالىٰ، والقيام بحق العبودية.

وأعـم مـن ذلـك وأشـمل: قولـه تعـالىٰ لمـا ذكـر الأنبيـاء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠] فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهـدىٰ، الذي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدىٰ المستقيم. وهـذه الآية أحد الأدلة علىٰ الأصل المعروف: [أن شرع من قبلنا شـرع لنـا مـا لـم يـرد شـرعنا بخلافه] وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه وكذلك قولـه تعـالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[الأنعام:١٥٣] وهذا يعم جميع ما شـرعه لعبـاده، فعـلًا وتركًا، اعتقادًا وانقيادًا، وأضافه إلىٰ نفسه في هذه الآية لكونه هو الذي نصـبه لعبـاده، كمـا أضافه إلىٰ الذين أنعم عليهم في قولـه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحـة:٧] لكـونهم هـم السالكين له. فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ما اتصفوا به من العلوم والأخلاق والأوصاف والأعمال وكـذلك قولـه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[الكهف] يدخل في ذلك جميع العبادات الظاهرة والباطنة، العبادات الاعتقاديـة والعملية، كما أن وصف الله لرسوله ﷺ بالعبودية المضافة إلىٰ الله كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[الاسـراء:١] وكقولـه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقـرة:٢٣] وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[الفرقان:١] تدل علىٰ أنـه وفَّـىٰ جميـع مقامـات العبودية، حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبودية، وقولـه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر:٣٦] فكلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله لـه أكمـل وأتم، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.

وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾[القمر].

وقولـه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[النحـل] يشـمل جميـع أوامره القدرية الكونية. وهذا في القرآن شيء كثير.



القاعدة السادسة:



في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده

يكاد القرآن أن يكون كله لتقرير التوحيد ونفي ضده، وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الألوهية، وإخلاص العبادة لله وحده، لا شريك له، ويخبر أن جميع الرسل إنما أرسلت تدعوا قومها إلىٰ أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأن الله تعالىٰ إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه، وأن الكتب والرسل بل الفطر والعقول السليمة كلها اتفقت علىٰ هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها، وأن من لم يَدِنْ بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده فعمله باطل، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥]، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنعام] ويدعوا العباد إلىٰ ما تقرر في فطرهم وعقولهم من أن الله المنفرد بالخلق والتدبير والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة: هو الذي يستحق العبادة وحده، ولا ينبغي أن يكون شيء منها لغيره، وأن سائر الخلق ليس عندهم أي قدرة علىٰ خلق، ولا نفع، ولا دفع ضر، عن أنفسهم فضلا عن أن يغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئا.

ويدعوهم أيضًا إلىٰ هذا الأصل بما يَتَمَدَّح به، ويُثني علىٰ نفسه الكريمة، من تفرده بصفات العظمة والمجد، والجلال والكمال، وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك: أحق من أُخلصت له الأعمال الظاهرة والباطنة.

ويقرر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده، فلا يحكم غيره شرعًا ولا جزاء: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ﴾[يوسف:٤٠].

وتارة يقرر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعًا وعقلًا وفطرة، علىٰ جميع العبيد، ويذكر مساوئ الشرك وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم أضل من الأنعام سبيلا.

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتب علىٰ ضده من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة: فكل خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شر عاجل وآجل، فإنه من ثمرات الشرك والله أعلم.





القاعدة السابعة:

في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد ﷺ

هذا الأصل الكبير: قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ﷺ فأخبر أنه صدق المرسلين، ودعا إلىٰ ما دعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد ﷺ وما نُزِّهوا عنه من النقائص والعيوب، (فمحمد ﷺ أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه، وأن شريعته مهيمنة علىٰ جميع الشرائع، وكتابه مهيمن علىٰ كل الكتب. فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره، وقرر نبوته بأنه أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحدًا من أهل العلم بالكتب السابقة، بل لم يَفْجَأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثله ما أَتوا ولا قَدِروا، ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو أن يكون قد تقوَّله علىٰ ربه، أو أن يكون علىٰ الغيب ظنينًا.

وأعاد في القرآن وأبدىٰ في هذا النوع، وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة علىٰ الوجه الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يخبر تعالىٰ: أنه ليس له طريق ولا وصول إلىٰ هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالىٰ لما ذكر قصة موسىٰ مطولة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص:٤٤] ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[يوسف] فهذه الأمور والإخبارات المفصلة التي يفصلها الرسول ﷺ بما أوحي إليه تفصيلًا، صحح به أكثر الأخبار والحوادث التي كانت في كتب أهل الكتاب محرفة ومشوهة بما أضافوا إليها من خرافات وأساطير، حتىٰ ما يتعلق منها بعيسىٰ وأمه وولادتهما ونشأتهما، وبموسىٰ وولادته ونشأته، كل ذلك وغيره لم يكن يعرفه أهل الكتاب علىٰ حقيقته حتىٰ جاء القرآن، فقص ذلك علىٰ ما وقع وحصل، مما أدهش أهل الكتاب وغيرهم، وأخرس ألسنتهم حتىٰ لم يقدر أحد منهم ممن كان في وقته، ولا ممن كانوا بعد ذلك، أن يكذبوا بشيء منها، فكان ذلك من أكبر الأدلة علىٰ أنه رسول الله حقًا.



وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله، وتمام قدرته، وأن تأييده لرسوله ونصره على أعدائه، وتمكينه في الأرض هو مقتضى حكمةِ ورحمةِ العزيز الحكيم، وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله وفي قدرته. وفي رحمته، بل وفي ربوبيته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبي ﷺ على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته، وأدلة توحيده، كما هو ظاهر للمتأملين.

وتارة يقرر نبوته ورسالته بما جمع له وكمله به من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خلق عال سام فلرسول الله ﷺ منه أعلاه وأكمله.

فمن عظمت صفاته، **وفاقت نعوته جميع الخلق التي أعلاها**: الصدق والأمانة، أليس هذا أكبرَ الأدلة على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟

وتارة يقررها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين السابقين، إما باسمه العلم أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أمته وأوصاف دينه.

وتارة يقرر رسالته بما أخبر به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة، التي وقعت في زمان مضى على زمانه، أو وقعت في زمانه والتي لا تزال تقع في كل وقت، فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا كان له ولا لغيره طريق إلى العلم به.

وتارة يقررها بحفظه إياه، وعصمته له من الخلق، مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه، وجِدِّهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم، والله يعصمه ويمنعه منهم وينصره عليهم، وما ذاك إلا لأنه رسوله حقا، وأمينه على وحيه.

وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به وهو القرآن الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾[فصلت] ويتحدى أعداءه، ومن كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة، فعجزوا ونكصوا وباءوا بالخيبة والفشل، وأن هذا القرآن لأكبرُ أدلة رسالته وأجلُّها وأعمُّها.

وتارة يقرر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات، الدالِّ كل واحد منها بمفرده -فكيف إذا اجتمعت؟- على أنه رسول الله ﷺ الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وتارة يقررها بعظيم شفقته على الخلق، وحُنوِّه الكامل على أمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف



رحيم، وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا برًا وإحسانًا إلى الخلق منه، وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه وقررها بعبارات متنوعة، ومعاني مفصلة وأساليب عجيبة، وأمثلتها تفوق العد والإحصاء. والله أعلم.



القاعدة الثامنة:

طريقة القرآن في تقرير المعاد

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها وهي: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد وحشر العباد.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه، وقرره بطرق متنوعة:

منها: إخباره وهو أصدق القائلين عنه وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى، مع إكثار الله من ذكره، فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه، كقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة].

ومنها: الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء، فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها: تذكيره العباد بالنشأة الأولى، وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا، لابد أن يعيدهم كما بدأهم، وأن الإعادة أهون عليه، وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة.

ومنها: إحياؤه الأرضَ الهامدة الميتة بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وقرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السماوات والأرض، والمخلوقات العظيمة، فمتى أثبت المنكرون ذلك، ولن يقدروا على إنكاره، فلأي شيء يستبعدون إحياء الموتى؟ وقرر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به، ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين، لا يُؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون. وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من



أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضين والقرون الغابرة. وكيف نجىٰ الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث، ونوَّعَ عليهم العقوبات، وأحل بهم المَثُلات، فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده، ليهلك من هلك عن بينة، ويحي من حي عن بينة.

ومن ذلك: ما أرىٰ الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل، والذي مر علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها، وقصة إبراهيم الخليل والطيور، وإحياء عيسىٰ بن مريم للأموات وغيرها مما أراه الله عباده في هذه الدار، ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار، وأن العباد لابد أن يَرِدوا دار القرار، إما الجنة أو النار.

وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة. والله أعلم.



القاعدة التاسعة:

في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية

قد أمر الله تعالىٰ بالدعاء إلىٰ سبيله بالتي هي أحسن، أي بأقرب طريق موصل للمقصود، محصل للمطلوب، ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها.

فأكثر ما يدعوهم إلىٰ الخير وينهاهم عن الشر بالوصف الذي من عليهم به وهو الإيمان، فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا واتركوا كذا لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما: من جهة الحث علىٰ القيام بلوازم الإيمان، وشروطه ومكملاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق بكل خلق حميد والتجنب لكل خلق رذيل.

فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي، ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلت علىٰ هذا الأصل الأدلة الكثيرة، من الكتاب والسنة ـ وهذا أحدها ـ حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[البقرة:١٠٤] أو يعلق فعل ذلك علىٰ الإيمان وأنه لا يتم



الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني: أن يدعوهم بقوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة، التي هي أجل المنن، أي: يا من مَنَّ الله عليهم بالإيمان قوموا بشكر هذه النعمة بفعل كذا وترك كذا:

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطن.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلىٰ شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو الانقياد التام لأمره ونهيه، وتارة يدعوا المؤمنين إلىٰ الخير، وينهاهم عن الشر، بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلىٰ ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة، وإن النعم تقتضي فهم القيام بشكرها، وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلىٰ ذلك بالترغيب والترهيب، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب وما للعصاة من العقاب.

وتارة يدعوهم إلىٰ ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنىٰ، وما له من الحق العظيم علىٰ عباده، وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهرًا وباطنًا، ويتعبدوا له وحده، ويدعوه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته المقدسة.

فالعبادات كلها شكر لله وتعظيم وتكبير، وإجلال وإكرام، وتودد إليه، وتقرب منه.

وتارة يدعوهم إلىٰ ذلك، لأجل أن يتخذوه وحده وليًا وملجأ، وملاذا ومَعاذا، ومفزعا إليه في الأمور كلها، وينيبوا إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليه الخاص تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنيه ويغره، حتىٰ يفوِّته المنافع والمصالح ويوقعه في المهالك وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثهم علىٰ ذلك ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والإعراض، والأديان المُبَدَّلة، لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام. كقوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾[الزمر]، ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[البقرة]، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾[الأعراف]، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ



ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[الحديد] إلىٰ غير ذلك من الآيات.



القاعدة العاشرة:

في طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم

يدعوهم إلىٰ الإسلام، والإيمان بمحمد ﷺ بما يصفه من محاسن شـرعه ودينـه، ومـا يذكره من براهين رسالة محمد ﷺ ليهتدي من قصد الحق والإنصاف، وتقوم الحجة علىٰ المعاند وهذه أعظم طريق يدعىٰ بها جميع المخالفين لدين الإسلام.

فإن محاسن دين الإسلام ومحاسن النبي ﷺ وآياته وبراهينه فيها كفايـة تامـة للـدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبههم، وما يحتجون به، فإن الحق إذا اتضح علم أن كل مـا خالفـه فهو باطل وضلال.

ويدعوهم بما يخوفهم من أحداث الأمم وعقوبات الـدنيا والآخـرة، وبمـا في الأديـان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة، وأنها إنما تقوم علىٰ الغفلة والتكذيب لآيـات الله الكونية والعلمية بـالوقوع تحـت سـلطان الجهـل والتقليـد الأعمـىٰ للآبـاء والشـيوخ والسادة، ويحذرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء، فإنهم رؤساء الشر، ودعاة النار، وأنهـم لابـد أن تتقطع نفوسهم علىٰ ما عملوه وقدموه حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول ﷺ ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأن مودتهم وصداقتهم وموالاتهم ستتبدل بغضاء وعداوة.

ويدعوهم أيضًا بنحو ما يدعوا المؤمنين بذكر آلائه ونعمه، وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب علىٰ العباد طاعته، وامتثال أمره واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضًا بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القـبح، ويقـارن بينهـا وبين دين الإسلام، ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره، وما يتعين اختياره، ويدعوهم بالتي هـي أحسن. فإذا وصلت بهم الحال إلىٰ العناد والمكابرة الظاهرة توعدهم بالعقوبات الصوارم، وبين للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلًا وضلالًا أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف، وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد.

ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدىٰ، وأنها رياسات وأغراض نفسية،



وأنهم لما آثروا الباطل علىٰ الحق طبع علىٰ قلوبهم وختم عليها، وسد عليهم طريق الهدىٰ عقوبة لهم علىٰ إعراضهم وتوليهم الشيطان، وإعراضهم عن الرحمن، وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم.

وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة، فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحة جلية، والله أعلم.



القاعدة الحادية عشرة:

مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام

كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني التي لم يعرج في اللفظ علىٰ ذكرها.

وهذه القاعدة: من أجل قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر، وصحة قصد. فإن الذي أنزله للهدىٰ والرحمة هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكن الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها، وتتوقف هي عليه.

ولهذا أجمع العلماء علىٰ الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب.

والطريق إلىٰ سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني فإذا فهمتها فهمًا جيدًا، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها. وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه، حتىٰ يصير لك ملكة جيدة في الغوص علىٰ المعاني الدقيقة. فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف علىٰ الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كله حق ولابد.

فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقًا ونورًا، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجليلة، والأخلاق السامية، والآداب الكريمة العالية.

ولنمثل لهذا الأصل أمثلة توضحه:

منها: في أسماء الله الحسنىٰ «الرحمن الرحيم» فإنها تدل بلفظها علىٰ وصفه بالرحمة،



وسعة.

فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة: هي وصفه الثابت، وأنه أوصل رحمته إلىٰ كل مخلوق، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين: عرفت أن هذا الوصف يدل علىٰ كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، لتوقف الرحمة علىٰ ذلك كله، ثم استدللت بسعة رحمته علىٰ أن شرعه نور ورحمة. ولهذا يعلل تعالىٰ كثيرًا من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[النساء:٥٨] فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلىٰ أهلها: استدللت بذلك علىٰ وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدي فيها، وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك.

وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل، استدللت بذلك علىٰ أن كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار، لابد أن يكون عالمًا بما يحكم به: فإن كان حاكمًا عامًا، فلابد أن يحصل من العلم ما يؤهله إلىٰ ذلك، وإن كان حاكمًا ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين، حيث أمر الله أن نبعث حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، فلا بد أن يكون عارفًا بهذا الأمور التي يريد أن يحكم فيها، ويعرف الطريق التي توصله إلىٰ الصواب منها.

وبهذا بعينه نستدل علىٰ وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد، فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة ونهانا عن أمور كثيرة.

ومن المعلوم أن امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقف علىٰ معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه، فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمرَ الذي لا يعرفه، أو يتجنب النهي الذي لا يعرفه؟

وكذلك أمره لعباده أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، يتوقف ذلك علىٰ العلم بالمعروف والمنكر، ليأمروا بهذا وينهَوْا عن هذا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب.

فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم علىٰ القيام به، والعلم بضد ذلك متقدم علىٰ



تركه؛ لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصدًا وتقربًا وتعبدًا.

ومن ذلك الأمر بالجهاد، والحث عليه، من لازم ذلك الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به، من تعلم الرمي بكل ما يرمىٰ به، والركوب لكل ما يُركب، وعمل آلاته وصناعاته، مع أن ذلك كله داخل دخول مطابقة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] فإنها تتناول كل قوة عقلية وبدنية، وسياسية وصناعية ومالية ونحوها.

ومن ذلك أن الله استشهد بأهل العلم علىٰ توحيده، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته وهذا يدل علىٰ عدالتهم وأنهم حجة من الله تعالىٰ علىٰ من كذب بمنزلة آياته وأدلته.

ومن ذلك سؤال عباد الرحمن ربهم أن يجعلهم للمتقين إماما، يقتضي سؤالهم اللهَ جميع ما تتم به الإمامة في الدين، من علوم ومعارف جليلة وأعمال صالحة وأخلاق فاضلة؛ لأن سؤال العبد لربه شيئا سؤال له ولما لا يتم إلا به، كما إذا سأل العبد اللهَ الجنة، واستعاذ به من النار، فإنه يقتضي سؤاله كل ما يقرب إلىٰ هذه ويبعد من هذه.

ومن ذلك: أنه أمر بالصلاح والإصلاح، وأثنىٰ علىٰ المصلحين، وأخبر أنه لا يُصلح عمل المفسدين، فيُسْتدل بذلك علىٰ أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم، وكل أمر يعين علىٰ ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه، وأن كل فساد وضرر وشر، فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلىٰ الصلاح والإصلاح، بحسب استطاعة العبد، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨].

ومن ذلك قوله تعالىٰ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأحزاب:٤٧]، وقوله: ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾[الأنفال:٦٥] يقتضي الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به، والأمر بكل ما فيه حث وتحريض علىٰ القتال وما يتوقف علىٰ ذلك، ويتبعه من الاستعداد والتمرن علىٰ أسباب الشجاعة والسعي والقوة المعنوية من التآلف واجتماع الكلمة ونحو ذلك.

ومن ذلك الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية، والتذكير بها، وتعليمها، فإن كل أمر يحصل به التبليغ وإيصال الأحكام إلىٰ المكلفين يدخل في ذلك، حتىٰ إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية، وَوُجدت أسبابها، وكانت تخفىٰ عادة علىٰ أكثر الناس، كثبوت الصيام والفطر



والحج وغيره بالأهلة إبلاغها بالأصوات والرمي، وإبلاغها بما هو أبلغ من ذلك، كالبرقيات ونحوها وكذلك يدخل فيه كل ما أعان علىٰ إيصال الصوت إلىٰ السامعين، من الآلات الحادثة، فحدوثها لا يقتضي منعها، فكل أمر ينفع الناس فإن القرآن لا يمنعه، بل يدل عليه لمن أحسن الاستدلال والانتفاع به، وهذا من آيات القرآن وأكبر براهينه، أنه لا يمكن أن يحدث علم صحيح ينقض شيئًا منه، فإنه يرد بما تشهد به العقول جملة وتفصيلًا، أو يرد بما لا تهتدي إليه العقول.

وأما وروده بما تحيله العقول الصحيحة وتمنعه فهذا محال، والحس والتجربة شاهدان بذلك، فإنه مهما توسعت الاختراعات وعظمت الصناعات، وتبحرت المعارف الطبيعية، وظهر للناس في هذه الأوقات ما كانوا يجهلونه قبل ذلك، فإن القرآن ـ ولله الحمد ـ لا يخبر بإحالته، بل نجد بعض الآيات فيها إجمال أو إشارة تدل عليه.

وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في غير هذا الموضع. والله أعلم وأحكم وبالله التوفيق.



القاعدة الثانية عشرة:

الآيات القرآنية التي يفهم منها قصَّار النظر التعارض

يجب حمل كل نوع منها علىٰ ما يليق ويناسب المقام كل بحسبه.

وهذا في مواضع متعددة من القرآن:

منها: الإخبار في بعض الآيات أن الكفار لا ينطقون، ولا يتكلمون يوم القيامة، وفي بعضها: أنهم ينطقون ويحاجُّون ويعتذرون ويعترفون: فمحمل كلامهم ونطقهم أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون، وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر، ويقسمون علىٰ ذلك، ثم إذا ختم علىٰ ألسنتهم وأفواههم، وشهدت عليهم جوارحُهم بما كانوا يكسبون، ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم أُخْرِسوا فلم ينطقوا.

وكذلك الإخبار بأن الله تعالىٰ لا يكلمهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، مع أنه أثبت الكلام لهم معه، فالنفي واقع علىٰ الكلام الذي يسرهم، ويجعل لهم نوع اعتبار.

وكذلك النظر والإثبات واقع علىٰ الكلام الواقع بين الله وبينهم علىٰ وجه التوبيخ لهم والتقريع، فالنفي يدل علىٰ أن الله ساخط عليهم، غير راض عنهم، والإثبات يوضح



أحوالهم، ويبين للعباد كمال عدل الله فيهم، إذ هو يضع العقوبة موضعها.

ونظير ذلك أن في بعض الآيات أخبر أنه: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن] وفي بعضها: أنه يسألهم: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾﴾[الشعراء]، و﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾[القصص] ويسألهم عن أعمالهم كلها.

فالسؤال المنفي: هو سؤال الاستعلام والاستفهام عن الأمور المجهولة، فإنه لا حاجة إلىٰ سؤالهم، مع كمال علم الله، واطلاعه علىٰ ظاهرهم وباطنهم وجليل أمورهم ودقيقها.

والسؤال المُثْبَت: واقع علىٰ تقريرهم بأعمالهم وتوبيخهم وإظهارِ أن الله حكم فيها بعدله وحكمته.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه لا أنساب بين الناس يوم القيامة، وفي بعضها: أثبت لهم ذلك، فالمثبت هو الأمر الواقع والنسب الحاصل بين الناس؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾[عبس] إلىٰ آخرها، والمنفي: هو الانتفاع بها، فإن الكفار يدعون أن أنسابهم تنفعهم يوم القيامة فأخبر تعالىٰ أنه: ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[الشعراء].

ونظير ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أن النسب نافع يوم القيامة، كما في إلحاق ذرية المؤمنين بآبائهم في الدرجات، وإن لم يبلغوا منزلتهم، وأن الله يجمع لأهل الجنات والدرجات العالية من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فهذا لما اشتركوا في الإيمان وأصل الصلاح زادهم من فضله وكرمه، من غير أن ينقص من أجور السابقين لهم شيئًا.

ومن ذلك: الشفاعة فإنه أثبتها في عدة مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيدها في بعض المواضع بإذنه ولمن ارتضىٰ من خلقه، فتعين حمل المطلق علىٰ المقيد، وأنها حيث نفيت فهي الشفاعة التي بغير إذنه، ولغير من رضي الله قوله وعمله، وحيث أثبتت فهي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه الله وأذن فيه.

ومن ذلك: أن الله أخبر في آيات كثيرة أنه لا يهدي القوم الكافرين والفاسقين والظالمين ونحوها، وفي بعضها: أنه يهديهم ويوفقهم، فتعين حمل المنفيات علىٰ من حقت عليه كلمة الله، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾[يونس] وحمل المثبتات علىٰ من لم تحق عليهم الكلمة.



وإنما حقت كلمة الله بالعذاب والطرد علىٰ من ارتكسوا في حمأة التقليد وغرقوا في بحر الغفلة وأبوا أن يستجيبوا لداعي آيات الله الكونية والعلمية، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾[محمد:١٧]، وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أنه العلي الأعلىٰ، وأنه فوق عباده وعلىٰ عرشه، وفي بعضها: أنه مع العباد أينما كانوا، وأنه مع الصابرين والصادقين والمحسنين ونحوهم، فعُلوُّه تعالىٰ أمر ثابت له، وهو من لوازم ذاته.

ودنوه ومعيته لعباده لأنه أقرب إلىٰ كل أحد من حبل الوريد، فهو علىٰ عرشه عَليٌّ علىٰ خلقه، ومع ذلك فهو معهم في كل أحوالهم، ولا منافاة بين الأمرين؛ لأن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وما يُتوهم بخلاف ذلك فإنه في حق المخلوقين.

وأما تخصيص المعية بالمحسنين ونحوها، فهي معية أخص من المعية العامة، فإنها تتضمن محبتهم وتوفيقهم، وكلاءتهم، وإعانتهم في كل أحوالهم، فحيث وقعت في سياق المدح والثناء فهي من هذا النوع، وحيث وقعت في سياق التحذير والترغيب والترهيب فهي من النوع الأول.

ومن ذلك: النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين وعن مودَّتهم والاتصال بهم، وفي بعضها الأمر بالإحسان إلىٰ من له حق علىٰ الإنسان منهم، ومصاحبته بالمعروف، كالوالدين والجار ونحوهم، فهذه الآيات العامات من الطرفين، قد وضحها الله غاية التوضيح في قوله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾[الممتحنة] فالنهي واقع علىٰ التولي والمحبة لأجل الدين، والأمر بالإحسان والبر واقع علىٰ الإحسان لأجل القرابة أو لأجل الجيرة والإنسانية علىٰ وجه لا يُخل بدين الإنسان.

ومن ذلك: أنه أخبر في بعض الآيات أن الله خلق الأرض ثم استوىٰ إلىٰ السماء فسواهن سبع سماوات، وفي بعضها أنه لما أخبر عن خلق السماوات أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها.

فهذه الآية تفسر المراد، وأن خلق الأرض متقدم علىٰ خلق السماوات، ثم لما خلق الله



السماوات بعد ذلك دحا الأرض، فأودع فيها جميع مصالحها المحتاج إليها سكانها.

ومن ذلك: أنه تارة يخبر أنه بكل شيء عليم، وتارة يخبر بتعلق علمه ببعض أعمال العباد وببعض أحوالهم، وهذا الأخير فيه زيادة معنىٰ، وهو يدل علىٰ المجازاة علىٰ ذلك العمل، سواء كان خيرًا أو شرًا، فيتضمن مع إحاطة علمه الترغيب والترهيب.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد في آيات كثيرة، وفي بعض الآيات الأمر بكف الأيدي، والإخلاد إلىٰ السكون، فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة، ولا قدرة علىٰ الجهاد باليد، والآيات الأخر حين قووا وصار ذلك عين المصلحة؛ والطريق إلىٰ قمع الأعداء.

ومن ذلك: أنه تارة يضيف الأشياء إلىٰ أسبابها التي وقعت وتقع بها، وتارة يضيفها إلىٰ عموم قدرته، وأن جميع الأشياء واقعة بإرادته ومشيئته، فيفيد مجموع الأمرين إثبات التوحيد، وتفرد الباري بإيقاع الأشياء بقدرته ومشيئته، وإثبات الأسباب والمسبَّبات، والأمر بالمحبوب منها، والنهي عن المكروه، وإباحة مستوىٰ الطرفين فيستفيد المؤمن الجد والاجتهاد في الأخذ بالأسباب النافعة وتدقيق النظر وملاحظة فضل الله في كل أحواله، وألا يتكل علىٰ نفسه في أمر من الأمور، بل يتكل علىٰ الله ويستعين بربه.

وقد يخبر أن ما أصاب العبد من حسنة فمن الله، وما أصاب من سيئة فمن نفسه، ليعرف عباده أن الخير والحسنات والمحاب تقع بمحض فضله وجوده، وإن جرت ببعض الأسباب الواقعة من العباد، فإنه هو الذي أنعم بالأسباب وهو الذي يسرها، وأن السيئات وهي المصائب التي تصيب العبد فإنما أسبابها من نفس العبد، وبتقصيره في حقوق ربه، وتعديه لحدوده، فالله وإن كان هو المقدر لها. فإنه قد أجراها علىٰ العبد بما كسبت يداه، ولهذا أمثلة يطول عدها.



القاعدة الثالثة عشرة:

طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأمل الطرق التي نصب الله المحاجَّة بها مع المبطلين علىٰ أيدي رسله رآها من أوضح الحجج وأقواها، وأقومها وأدلها علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل، علىٰ وجه لا تشويش فيه ولا إزعاج.



فتأمل محاجة الرسل مع أممهم، وكيف دعَوْهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك لـه، مـن جهة أنه المتفرد بالربوبية، والمتوحـد بـالنعم، وهـو الـذي أعطـاهم العافيـة، والأسـماع والأبصار، والعقول والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم، وأن أحدًا من الخلق ليس يقدر علىٰ رفع ولا دفع، ولا ضر ولا نفع، فإنه بمجـرد معرفـة العبـد ذلـك واعترافه به لابد أن ينقاد للدين الحق، الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها.

وكثيرًا ما يحتج علىٰ المشركين في شركهم وعبادتهم لآلهتهم مـن دون ربهـم بـإلزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شـيء، والـرازق لكـل شـيء، فيتعـين أن يكـون هـو المعبود وحده.

فانظر إلىٰ هذا البرهان، وكيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلىٰ وجوب عبادة مـن هـذا شأنه، ذلك أن آثار ربوبيته تنادي بوجوب الإخلاص له.

ويجادل المبطلين أيضًا بذكر عيب آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغنىٰ عن نفسها فضلًا عن عابديها شيئًا.

ويقيم الأدلة علىٰ أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم مـا لا يسـتغرب معه مخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ﷺ الذي جاء مصدقًا لما سبقه مـن الرسـالات التـي مقصدها جميعًا واحد، وهو فـك أغـلال التقليـد عـن قلـوب بنـي آدم لينتفعـوا بسـمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بالتفكر في آيات ربهم، فيعرفوا بذلك أنه الإله الحق، وأن كل ما اتخذه الناس بوحي شياطين الإنس والجن من آلهة، فلا يخرج شيء منها عن أن يكـون أثـرًا مـن آثار هذه الآيات، وأنها لذلك لا تليق بأي وجه لمشاركة ربها وخالقها في الإلهية، ولا ينبغي أن تعطىٰ إلا حقها في المخلوقية والعبودية.

وأن الخالق الذي ليس كمثله شيء هو المستحق لكل أنواع العبـادة، وألا يعبـد إلا بمـا أحب وشرع.

وينقض علىٰ رؤساء المشركين ودعـاة الباطـل دعـاويهم الباطلـة وتـزكيتهم لأنفسـهم بالزور، ببيان ما يضاد ذلك مـن أحـوالهم وأوصـافهم، ويجـادلهم بتوضـيح الحـق وبيـان براهينه، وأن صدقه وحقِّيتَه تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له فماذا بعد الصـدق إلا الكذب: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢] وهذا الأصل في القرآن كثير، فإنه يفيد فىٰ



الدعوة للحق، ورد كل باطل ينافيه.

ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها، وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه شيئًا من حقوق الرب الخالق الغني الكامل من جميع الوجوه.

ويتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدىٰ وأحسن من هذا الكتاب وهذه الشريعة، وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين.

ويأمر نبيه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده فينكصون عنها، لعلمهم أنه رسول الله الصادق الذي لا ينطق عن الهوىٰ وأنهم لو باهلوه لهلكوا.

وفي الجملة لا تجد طريقًا نافعًا فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد رسمه القرآن علىٰ أكمل الوجوه.



القاعدة الرابعة عشرة:

حذف المتعلق المعمول فيه يفيد تعميم المعنى المناسب له

وهذه قاعدة مفيدة جدًا، متىٰ اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة.

وذلك أن الفعل وما هو في معناه متىٰ قيد بشيء تقيد به، فإذا أطلقه الله تعالىٰ، وحذف المتعلق كان القصد من ذلك التعميم، ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيرًا من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعاني النافعة.

ولذلك أمثلة كثيرة جدًا:

منها: أنه قال في عدة آيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[الأنعام] فيدل ذلك علىٰ أن المراد: لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، ولعلكم تذكرون، فلا تنسون ولا تغفلون، فتكونون دائمًا متيقظين مُرْهفي الحواس تحسون كل ما تمرون به من سنن الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية، ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه من الغفلة والجهل والتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه من جميع الذنوب والمعاصي، ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفراد هذا المعنىٰ العام.



ولهـذا كـان قولـه تعـالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾[البقرة] : يفيد كـل مـا قيـل في حكمـة الصـيام، أي لعلكم تتقون المحارم عمومًا، ولعلكم تتقون ما حرم الله علىٰ الصـائمين مـن المفطـرات والممنوعات، ومن كل الأحـوال والصـفات السـيئة والخبيثـة، ولعلكـم تتصـفون بصـفة التقوىٰ، وتحصلون علىٰ كل ما يقيكم مما تكرهون، وتتخلقون بأخلاقها، وهكذا سائر مـا ذكر فيه هذا اللفظ مثل قوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾[البقرة] أي المتقين لكل ما يُتقىٰ من ما يقتل الإنسانية الكريمة مـن الغفلـة والجهـل والتقليـد الكفـر والفسـوق والعصـيان، المـؤدين للفرائض والنوافل التي هي خصال التقوىٰ.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾[الأعراف] أي إن الذين كانت التقوىٰ وصـفهم، واليقظـة والتـدبر لسـنن الله وآياتـه حالهم، وترك المحارم شعارهم متىٰ زيـن لهـم الشـيطان بعـض الـذنوب ولـبس علـيهم الطريق، وحاول تخديرهم بالشبهات أو الشهوات، تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلىٰ المتاب إجلالًا لعظمة الله، وما يقتضيه الإيمان وما توجبه التقوىٰ.

وتذكروا عقابه ونكاله، وتذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص وما تسلبه من الكمالات، ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾[الأعراف] من أين أُتوا، ومبصرون الوجـه الـذي فيـه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه، فبادروا بالتوبة النصوح والرجوع إلىٰ صـراط الله المستقيم، فعادوا إلىٰ مرتبتهم وعاد الشيطان خاسئًا مدحورًا.

وكذلك ما ذكره علىٰ وجه الإطلاق عن المؤمنين بلفظ «المـؤمنين» وبلفـظ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البقرة:٦٢] ونحوها، فإنه يدخل فيه جميع ما يجب الإيمان به من الأصول والعقائد والأعمال والأحكام، مع أنه قيد ذلك في بعض الآيات مثل قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآيـة [البقرة:١٣٦].

وكذلك ما أمر به من الصلاح والإصلاح، وما نهىٰ عنـه مـن الفسـاد والإفسـاد مطلقًـا، يدخل فيه كل صلاح كما يدخل في النهي كل فساد كذلك.

وكـذلك قولـه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾[البقـرة]، ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾[البقـرة:١٩٥]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[يونس:٢٦]، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾[الرحمن]، يـدخل في



ذلك كله الإحسان في عبادة الخالق بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإحسان إلىٰ المخلوقين بجميع وجوه الإحسان من قول وفعل وجاه، وعلم ومال وغيرها.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾[التكاثر] فحذف المتكاثَر به ليعم جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة: من الرياسات والأموال والجاه والضيعات والأولاد، وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس فيلهيها ذلك عن طاعة الله.

وكذلك قوله تعالىٰ ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾[العصر] أي في خسارة لازمة من جميع الوجوه إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وقوله: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣﴾[النحل] فذكر المسئولين وأطلق المسئول عنه، ليعم كل ما يحتاجه العبد ولا يعلمه.

وكذلك أمره تعالىٰ بالصبر، ومحبته للصابرين، وثناؤه عليهم، وبيان كثرة أجورهم، من غير أن يقيد ذلك بنوع، ليشمل أنواع الصبر الثلاثة، وهي الصبر علىٰ طاعة الله، وعن معصية الله، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة.

ومقابل ذلك ذمه للكافرين والظالمين والفاسقين والمشركين والمنافقين والمعتدين ونحوهم، من غير أن يقيده بشيء ليشمل جميع ذلك المعنىٰ.

ومن هذا قوله ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾[البقرة:١٩٦] ليشمل كل حصر، ومنه قوله ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ﴾[البقرة:٢٣٩] ليعم كل خوف.

وقد يقيد ذلك ببعض الأمور فيتقيد به ما سيق الكلام لأجله.

وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر أمثلة عليه لطالت، ولكن قد فتح لك الباب، فامش علىٰ هذا السبيل المفضي إلىٰ رياض بهيجة من أصناف العلوم.



القاعدة الخامسة عشرة:

جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات لطمئنة القلوب وزيادة الإيمان

وهذا في عدة مواضع من كتابه، فمن ذلك:



النصر قال في إنزال الملائكة به: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال:١٠]، وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾[الروم:٤٦].

وأعم من ذلك كله قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[يونس]، وهي كل دليل وعلامة تدلهم على أن الله قد أراد لهم الخير، وأنهم من أوليائه وصفوته، فيدخل فيه الثناء الحسن والرؤيا الصالحة، ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف والتوفيق، والتيسير لليسرىٰ، وتجنيبهم العسرىٰ.

ومن ذلك: بل من ألطف ذلك أنه يجعل الشدائد مبشرة بالفرج، والعسر مؤذنًا باليسر، وإذا تأملت ما قصه عن أنبيائه وأصفيائه، وكيف لما اشتدت بهم الحال، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾[البقرة:٢١٤] يأتيهم الجواب من لطف الله بهم ومن إيمانهم به وبحكمته ورحمته وأخذهم سبيل سننه التي جعلها أسبابا مؤدية إلىٰ النصر فيجيبهم الحق من كل ذلك: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[البقرة] رأيت من ذلك العجب العجاب.

وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾[الشرح]، ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾[الطلاق]، وقال ﷺ «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»، وأمثلة ذلك كثيرة والله أعلم.



القاعدة السادسة عشرة:

حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد

وذلك كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[السجدة:١٢]، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ ﴾[سبأ:٥١]، ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[البقرة:١٦٥]، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾[الأنعام:٣٠]، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[الأنعام:٢٧]، فحذف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولىٰ من ذِكْره، ليدل علىٰ عظمة ذلك المقام، وأنه لهوله وشدته وفظاعته لا يمكن يعبَّر عنه بلفظ ولا يُدرك بالوصف،



مثله قوله تعالىٰ: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥﴾[التكاثر]، أي: لو علمتم علم اليقين لما أقمتم علىٰ ما أنتم عليه من التفريط والغفلة واللهو.



القاعدة السابعة عشرة:

بعض الأسماء الواردة في القرآن إذا أفرد دل على المعنى المناسب له، وإذا قرن مع غيره دل على بعض المعنى، ودل ما قرن معه على باقيه

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة:

منها: الإيمان، أفرده وحده في آيات كثيرة، وقرنه مع العمل الصالح في آيات كثيرة.

فالآيات التي أُفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة، ولهذا يرتب الله عليه حصول الثواب، والنجاة من العقاب، ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره وهو عند السلف: قول القلب واللسان، وعمل القلب، واللسان، والجوارح.

والآيات التي قرن الإيمان فيها بالعمل الصالح: كقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة:٢٧٧] يُفسَّر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والاعتقاد والإنابة. والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية.

وكذلك لفظ «البر والتقوىٰ» فحيث أفرد البر دخل فيه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وكذلك إذا أفردت التقوىٰ ولهذا يرتب الله علىٰ البر والتقوىٰ عند الإطلاق: الثواب المطلق والنجاة المطلقة كما يرتبه علىٰ الإيمان.

وتارة يُفسِّر أعمال البر بما يتناول أفعال الخير وترك المعاصي، وكذلك في بعض الآيات تفسير خصال التقوىٰ، كما في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[آل عمران] إلىٰ آخر ما ذكره من الأوصاف التي تتم بها التقوىٰ.

وإذا جمع بين البر والتقوىٰ مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾[المائدة:٢] كان «البر» اسمًا جامعًا لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة. وكانت «التقوىٰ» اسمًا جامعًا يتناول ترك جميع المحرمات.

وكذلك لفظ «الإثم» و «العدوان» إذا قرنا، فسر الإثم بالمعاصي التي بين العبد وبين



ربه، والعدوان بالتجرئ علىٰ الناس في دمائهم وأعراضهم. وإذا أفرد «الإثم» دخل فيه كل المعاصي التي تُؤثِّم صاحبها، سواء كانت بينه وبين ربه أو بينه وبين الخلق، وكذلك إذا أفرد «العدوان».

وكذلك لفظ «العبادة والتوكل» ولفظ [العبادة والاستعانة» إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهرًا وباطنًا، ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة. وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة نحو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفسر التوكل باعتماد القلب علىٰ الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار ـ مع الثقة التامة بالله في حصولها ـ.

وكذلك «الفقير والمسكين» إذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر كما في أكثر الآيات، وإذا جمع بينهما كما في آية الصدقات وهي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] فسِّر الفقير بمن اشتدت حاجته وكان لا يجد شيئًا، أو من يجد شيئًا لا يقع منه موقعًا، وفسر «المسكين» بمن حاجته دون ذلك.

ومثل ذلك الألفاظ الدالة علىٰ تلاوة الكتاب والتمسك به وهو اتباعه، ويشمل ذلك: القيامَ بالدين كله، فإذا قُرِنت معه الصلاة كما في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[العنكبوت:٤٥]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[الأعراف:١٧٠] كان ذكر الصلاة تعظيمًا لها وتأكيدًا لشأنها، وحثًا عليها، وإلا فهي داخلة في الاسم العام وهو التلاوة والتمسك به وما أشبه ذلك من الأسماء.



القاعدة الثامنة عشرة:

في كثير من الآيات يخبر الله بأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وفي بعضها يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد، الموجبة للهداية أو الموجبة للإضلال، وكذلك حصول المغفرة وضدها، وبسط الرزق وتقديره

وذلك في آيات كثيرة، فحيث أخبر أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدره علىٰ من يشاء.



يدل ذلك على كمال توحيده وانفراده بخلق الأشياء، وتدبير جميع الأمور، وأن خزائن الأشياء كلها بيده، يعطي ويمنع ويخفض ويرفع، فيقتضي مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك، وأن يعلقوا أملهم ورجاءهم به وحده في حصول كل ما يحبون منها، وفي دفع كل ما يكرهون، وأن لا يسألوا أحدًا غيره، كما في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**» إلى آخره.

وفي بعض الآيات: يذكر فيها أسباب ذلك، ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها، فيسلكوا النافع ويدعوا الضار، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾[الليل]، فبيَّن أن أسباب الهداية والتيسير إيمان العبد بحكمة ربه في سننه وخلقه وشرعه وأخذه بهذه السنن وانقياده لأمره الشرعي، وأن أسباب الضلال والتعسير ضد ذلك.

وكذلك قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [المائدة:١٦]، ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[الأعراف:٣٠]، فأخبر أن الله يهدي بالقرآن من كان قصده حسنًا، ومن رغب في الخير، واتبع رضوان الله، وأنه يضل من فسق عن سنن الله الحكيمة، وتمرد على الله، وتولى أعداءه من شياطين الإنس والجن، ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين.

وكذلك قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾[الصف]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الأنعام:١١٠].

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسبابَ التي تنال بها المغفرة والرحمة، والتي تحق بها كلمة العذاب، كقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[طه]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[الأعراف]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[آل عمران]، ثم ذكر الأسبابَ التي تنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ



هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾[البقرة:٢١٨]، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾[الأعراف]، وأعم من ذلك كله قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾[آل عمران]، فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عمومًا، وهذه الأسباب المذكورة خصوصًا.

وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة، **وكلها راجعة إلىٰ شيئين**: التكذيب لله ورسوله، والتولي عن طاعة الله ورسوله، كقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾[الليل]، وقوله: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨﴾[طه].

وكذلك يذكر أسباب الرزق، وأنها لزوم طاعة الله ورسوله، والسعي الجميل مع لزوم التقوىٰ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[الطلاق]، وانتظار الفرج والرزق كقوله تعالىٰ: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾[الطلاق]، وكثرة الذكر والاستغفار: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾[هود:٣]، ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١﴾[نوح]، فأخبر أن الاستغفار سبب يُستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره، وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرىٰ.

وأمثلة هذه القاعدة كثيرة قد عرفت طريقها فالزمه.



القاعدة التاسعة عشرة:

ختم الآيات بأسماء الله الحسنى يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم

وهذه القاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلك علىٰ أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه، وهو من أجل المعارف وأشرف العلوم.

فتجد آية الرحمة مختومةً بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة، والحكمة، والعلم، والقهر.

ولا بأس هنا أن نسوق بعض الآيات في هذا، ونشير إلىٰ مناسبتها بحسب ما وصل إليه



علمنا القاصر وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا لأنها من أهم المهمات، ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيرًا منها.

قال تعالىٰ: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾[البقرة]، فذكرُ إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسماوات يدل علىٰ إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾[الملك]، فخلقه للمخلوقات وتسويتها علىٰ ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد: من أكبر الأدلة العقلية علىٰ علمه، فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟

ولما ذكر كلامَ الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، ومراجعتهم لربهم في ذلك، فلما خلق آدم وعلمه أسماء كل شيء مما جعله الله له وبين يديه، وعجزت الملائكة عن معرفتها وأنبأهم آدم بها: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾[البقرة] فاعترفوا لله تعالىٰ بسعة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم ربهم في استخلافه آدم في الأرض التي خلقت له وهيئت لنزوله.

وفي هذا: أن الملائكة علىٰ عظمتهم وسعة معارفهم بربهم اعترفوا بأن علومهم تضمحل بجانب علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلا منه، فختم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين، الدالين علىٰ علم الله بآدم وما خلق له وما خلق عليه وتمام حكمته في خلقه، وما يترتب علىٰ ذلك من المصالح المتنوعة: من أحسن المناسبات.

وأما قوله عن آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾[البقرة] وختمه كثيرًا من الآيات بهذين الاسمين بعد ذكر ما يدعو به العبد إلىٰ التعرض من رحمته ومغفرته، وتوفيقه وحلمه، فمناسبته جليَّة لكل أحد، وأنه لما كان هو التواب الرحيم، أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفقهم للأخذ بالأسباب التي ترجعهم إلىٰ الفطرة السليمة التي يعرفون بها نعمة ربهم فيقدرونها ويشكرونها ويستجيبون لما يدعوهم بها سبحانه، فيرجعون في كل شئونهم وأمورهم إلىٰ ربهم، فيفرح بهم ويزيدهم من فضله ويتوب عليهم ثم يغفر لهم ويرحمهم، فتاب عليهم أولًا بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانيًا حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم، ولهذا قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾[التوبة:١١٨]،



أي أقبل بقلوبهم عليه، فإنه لولا توفيقه وجذب قلوبهم إلىٰ ذلك بنعمه الكونية والعلمية لـم يكن لهم سبيل إلىٰ ذلـك حـين اسـتولت علـيهم الـنفس الأمـارة، وركبهـا العـدو المبـين ببهيميتها وجهلها مطية فإنها لا تأمر إلا بالسوء، إلا من رحم الله فأعاذه منها ومـن نزغـات الشيطان.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كماله قدرته وتفرده بالملك فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقـرة] وفي هـذا رد علـىٰ مـن أنكر النسخ كاليهود، وأن نسخه لما ينسخه من آثار قدرته وتمام ملكه وحكمته، فإنه تعالىٰ يتصرف في عباده، ويحكم بينهم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، فـلا حجـر عليـه في شيء من ذلك.

ولما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١١٥]، قـال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[البقـرة] أي: واسـع الفضـل، واسـع الملـك، جميـع العـالم العلـوي والسفلي داخل في ملكه، ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بـذلك كلـه، ومحـيط علمه بالأمور الماضية والمستقبَلَة، ومحيط علمه بما في التوجه إلـىٰ القبلـة المتنوعـة مـن الحكمة، ومحيط علمه بنيات المستقبلين لكل جهة من الجهات إذا أخطئوا القبلة المعينة، فحيث ولىٰ المصلىٰ منهم فما قصد إلا وجه ربه.

وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيـت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[البقرة] فإنه توسل إلىٰ الله بهذين الاسمين إلىٰ قبـول هـذا العمـل الجليل، حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما، ويجيب دعاءهمـا فإنـه يراد **بالسميع في مقام الدعاء**: دعاء العبادة ودعـاء المسـألة ـ معنـىٰ المسـتجيب كمـا قـال الخليل في **الآية الأخرىٰ**: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾[ابراهيم].

وأمـا خـتم قولـه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[البقـرة:١٢٩] بقولـه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[البقرة] **فمعناه**: كما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزة الله وكمال حكمته، فإنه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يـترك الخلـق سـدىٰ عبثـا، لا يرسل إليهم رسولا، فحقق الله حكمته ببعثه خاتما، كما حقق حكمته لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة، **والأمور كلها**: قدريها وشرعيها، لا تقوم إلا بعزة الله، ونفوذ حكمته.



وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنىٰ عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها، لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذكر الاسم العظيم، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام، مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[البقرة:٢٠٩] لم يقل: فلكم من العقوبة كذا، بل قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾[البقرة] أي: فإذا عرفتم عزته وهو قهره وغلبته وقوته وامتناعه، وعرفتم حكمته -وهي وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها محالها- أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء علىٰ ذنوبكم وزللكم، لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة: وهو المصر علىٰ الذنب مع علمه، وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه، لكمال قهره وعزته.

وكذلك لما قال في سورة المائدة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:٣٤] لم يقل: فاعفوا عنهم أو اتركوهم ونحوها، بل قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[المائدة] يعني: فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه، عرفتم أن من تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه، فيدفع عنه العقوبة.

ولما ذكر عقوبة السارق قال في آخرها: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾[المائدة] أي: عز وحكم فقطع يد السارق، وعز وحكم فعاقب المعتدي شرعًا وقدرًا وجزاء.

ولما ذكر مواريث الورثة وقدرها قال: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾[النساء] فكونه عليمًا حكيمًا يعلم ما لا يعلم العباد، ويضع الأشياء مواضعها، فاخضعوا لما قاله وفِعْله، وفصَّله في توزيع الأموال علىٰ مستحقيها الذين يستحقونها بحسب علم الله وحكمته، فلو وكل العبادَ إلىٰ أنفسهم، وقيل لهم: وزعوها أنتم بحسب اجتهادكم لدخلها الجهل والهوىٰ والغي والظلم وعدم الحكمة، وصارت المواريث فوضىٰ، وحصل بذلك من الضرر ما الله به عليم، ولكن تولاها وقسمها بأحكم قسمة وأوفقها للأحوال وأقربها للنفع.

ولهذا من قدح في شيء من أحكامه، أو قال: لو كان كذا وكذا فهو كافر لأنه قادح في علم الله وفي حكمته.

ولهذا يذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام، كما يذكرها في آيات الوعيد ليبين للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته، غير خارج عن علمه.



ويختم الأدعية بأسماء تناسب المطلوب وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠] أي: تعبَّدوا لله بدعائه بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالىٰ في سورة الحج: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾[الحج] والآيات المتتابعة التي بعدها، كل واحدة ختمت باسمين كريمين.

فالأول منها: ختمها بالعلم والحلم: يقتضي علمه بنياتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة ومقاماتهم الشامخة، فيجازيهم علىٰ ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويحلم عن سيئاتهم فكأنهم ما فعلوها.

وختم الثانية: بالعفو الغفور، فإنه أباح المعاقبة بالمثل، وندب إلىٰ مقام الفضل، وهو العفو وعدم معاقبة المسيء، وأنه ينبغي لكم أن تتعبدوا لله بالاتصاف بهذين الوصفين الجليلين لتنالوا عفوه ومغفرته.

وختم الآية الثالثة: بالسميع البصير يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصره بحركاتهم علىٰ اختلاف الأوقات وتباين الحالات.

وختم الآية الرابعة: بالعلي الكبير، لأن علوه المطلق وكبرياءه وعظمته ومجده تضمحل معه جميع المخلوقات، ويبطل معها كل ما عبد من دونه، وبإثبات كمال علوه وكبريائه، يتعين أنه هو الحق وما سواه هو الباطل.

وختم الآية الخامسة: باللطيف الخبير، الدالين علىٰ سعة علمه ودقيق خبرته بالبواطن. كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق، بما أنزله من الماء النَّمير، والخير الغزير.

وختم الآية السادسة: بالغني الحميد، بعد ما ذكر ملكه للسماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يخلقها لحاجة منه لها، فإنه غني مطلق، ولا ليتكمَّل بها فإنه الحميد الكامل، وليدلهم علىٰ أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه، وأنه حميد في أقداره، حميد في شرعه، حميد في جزائه، فله الحمد المطلق ذاتا وصفات وأفعالًا.

وختم الآية السابعة: بالرؤوف الرحيم، أي: من رأفته ورحمته تسخيره المخلوقات لبني آدم وحفظ السماوات والأرض وإبقاؤها لئلا تزول، فتختل مصالحهم ومن رحمته سخر



لهم البحار لتجري فيها الفلك في منافعهم ومصالحهم، فرحمهم حيث خلق لهم المسكن، وأودع لهم فيه كل ما يحتاجونه، وحفظه عليهم وأبقاه.

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم، ختم كل قصة بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾[آل عمران] فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه، وذلك برحمة الله ولطفه، وتضمنت إهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته.

وقد يتعلق مقتضىٰ الاسمين بكل من الحالتين، فإنه نجىٰ الرسول وأتباعه بكمال قوته وعزته ورحمته، وأهلك المكذبين بعزته وحكمته ويكون ذكر الرحمة دالًا علىٰ عِظم جرمهم، وأنه طالما فتح لهم أبواب رحمته بآياته ونعمه ورسله فأغلقوها دونهم بتمردهم علىٰ الله وكفرهم وشركهم فلم يكن لهم طريق إليها، ولولا ذلك لما حل بهم هذا العقاب الصارم.

وأما قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة] ولم يقل: أنت الغفور الرحيم، لأن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام، إنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه وأمه إلهين من دون الله، فناسب ذكر العزة والحكمة، وصار أولىٰ من ذكر الرحمة والمغفرة.

ومن ألطف مقامات الرجاء: أنه يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل علىٰ الرحمة؛ مثل قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾[آل عمران]، وقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾[الأحزاب] وذلك يدل علىٰ أن رحمته سبقت غضبه وغلبته وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من وجد فيه أدنىٰ سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنىٰ حبة خردل من الإيمان ولنقتصر علىٰ هذه الأمثلة فإنه يعرف بها صفة الاستدلال بذلك.



القاعدة العشرون:

القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث

وقد وصفه الله تعالىٰ بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاث.

فوصفه بأنه محكم في عدة آيـات، وأنـه: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود] ومعنىٰ ذلك أنه في غاية الإحكام ونهايـة الانتظـام، فأخبـاره كلهـا حـق وصـدق، لا تناقض فيها ولا اختلاف، وأوامـره كلهـا خيـر وهـدىٰ وبركـة وصـلاح، ونواهيـه متعلقـة بالشرور والأضرار والأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة فهذا إحكامه.

ووصــفه بأنـــه متشـــابه في قولـــه مـــن ســـورة الزمـــر: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[الزمر:٢٣] أي: متشابها في الحسن والصـدق والحـق، ووروده بالمعـاني النافعـة المزكية للعقول، المطهرة للقلوب، المُصلحة للأحوال، فألفاظه أحسـن الألفـاظ ومعانيـه أحسن المعاني.

ووصفه بأنه: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾[آل عمران:٧] فهنا وصفه بأن بعضه هكذا وبعضه هكذا، وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلـىٰ المحكـم، فيصير كله محكمًا ويقولون: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران:٧] أي: وما كان مـن عنـده فـلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع، فسره الموضع الآخر المحكـم، فحصـل العلـم وزال الإشكال.

ولهذا النوع أمثلة؛ منها: ما تقدم من الإخبار بأنه علىٰ كل شيء قدير، وأنـه مـا شـاء الله كان وما لـم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

فإذا اشتبهت علىٰ من ظن به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضـلاله يكـون جزافًـا لغيـر سبب

وضحت هذا الإطلاق الآيات الأخر الدالة علىٰ أن هدايته لهـا أسـباب، يفعلهـا العبـد ويتصـف بهـا مثـل قولـه في سـورة المائـدة: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[المائدة:١٦] وأن إضلاله لعبده له أسباب في العبد، وهو توليه للشـيطان: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[الأعـراف:٣٠]، وفي سورة الصف: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[الصف:٥].

وإذا اشتبهت آيات علىٰ الجبري الذي يرىٰ أن العباد مجبـورون علـىٰ أفعـالهم، بينتهـا الآيات الأخر الكثيرة الدالة علىٰ أن الله لـم يجبـر العبـاد، وأن أعمـالهم واقعـة باختيـارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة.



كما أن هذه الآيات التي أضاف الله فيها الأعمال إلىٰ العباد حسنها وسيئها، إذا اشتبهت علىٰ القدرية النفاة، وظنوا أنها منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأن الله ما شاءها منهم ولا قدرها، تليت عليهم الآيات الكثيرة الصريحة بتناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان والأعمال والأوصاف، وأن الله خالق كل شيء.

ومن ذلك: أعمال العباد، وأن العباد لا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلها حق، ويجب علىٰ كل مسلم تصديقها والإيمان بها كلها، وأنها لا تتنافىٰ، فهي واقعة منهم وبقدرتهم وإرادتهم، والله تعالىٰ خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

وما أُجْمِلَ في بعض الآيات فسرته آيات أخر، وما لم يتضح في موضع اتضح في موضع آخر، وما كان معروفًا بين الناس وورد فيه القرآن أمرًا أو ناهيًا، كالصلاة والزكاة والزنا والظلم، ولم يفصله فليس مجملًا، لأنه أرشدهم إلىٰ ما كانوا يعرفون، وأحالهم علىٰ ما كانوا به متلبسين، فليس فيه إشكال بوجه والله أعلم.



القاعدة الحادية والعشرون:

القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد

وهذه قاعدة جليلة المقدار، عظيمة النفع، فإن الله أمر عباده بالمعروف، وهو ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا وعرفًا، ونهاهم عن المنكر، وهو ما ظهر قبحه شرعا وعقلا وعرفا.

وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك.

فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال والأوقات كالصلاة والزكاة، والصوم والحج، وغيرها من الشرائع الراتبة، والأخلاق الكريمة من البر والإحسان والمروءة والشجاعة والفهم، والاعتبار بكل ما يعرض للإنسان ويقع له وعليه، فإنه أمر به في كل وقت، والواجب علىٰ الآخِرِين نظير الواجب علىٰ الأولين من هذه الأمة وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات كالشرك والقتل بغير حق، والزنا وشرب الخمر ونحوها من كل ما هو ضد المعروف ثبتت أحكامه في كل زمان ومكان لا تتغير ولا يختلف حكمها.



وما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة والأحوال، هو المراد هنا.

فإن الله تعالىٰ يردهم فيه إلىٰ العرف والعادة والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت.

وذلك أنه أمر بالإحسان إلىٰ الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعين لعباده شيئا مخصوصًا من الإحسان والبر، ليعم كل ما تجدد من الأوصاف والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص دون حق الشخص الآخر.

فالواجب الذي أوجبه الله: النظر في الإحسان المعروف في وقتك ومكانك، في حق والديك.

ومثل ذلك: ما أمر به من الإحسان إلىٰ الأقارب والجيران والأصحاب ونحوهم، فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلىٰ ما يتعارفه الناس إحسانًا ولا يكون معارضا للمعروف من التشريع، **وكذلك** ضده من العقوق والإساءة، ينظر فيه إلىٰ العرف وكذلك قوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾[النساء:١٩] وفي سورة البقرة ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾[البقرة:٢٢٨] فرد الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما علىٰ الآخر علىٰ المعروف المعتاد عند الناس في قطرك، وبلدك وحالك ومركزك الاجتماعي.

وذلك يختلف اختلافًا عظيمًا، لا يمكن إحصاؤه عدًا.

فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة، وهذا من آيات إحكام القرآن وبراهين صدقه.

وقال تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾[الأعراف:٣١]، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾[الأعراف:٢٦] فقد أباح لعباده الأكل والشرب واللباس، ولم يعين شيئًا من الطعام والشراب واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة، فيتعلق بها أمره حيث كانت، ولا ينظر إلىٰ ما كان موجودًا منها وقت نزول القرآن فقط.

وكذلك قوله في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[الأنفال:٦٠] ومن المعلوم: أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن غير نوع القوة التي وجدت بعد ذلك..



فهذا النص يتناول كل ما يستطاع من القوة في كل وقت بحسبه وبما يناسبه ويليق به.

وكذلك لما قال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾ [النساء:٢٩] لم يعين لنا نوعًا من التجارة ولا جنسًا، ولم يحدد لنا ألفاظًا يحصل بها الرضىٰ في البيع والتجارة، وهذا يدل علىٰ أن الله أباح كل ما عد تجارة ما لم ينه عنه الشارع، وأن ما حصل به الرضىٰ من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقق الرضىٰ من قول أو فعل، انعقدت به المعاوضات والتبرعات وفي القرآن من هذا النوع شيء كثير.



القاعدة الثانية والعشرون:

في مقاصد أمثلة القرآن

اعلم أن القرآن الكريم احتوىٰ علىٰ أعلىٰ وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوىٰ علىٰ أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلىٰ القلوب بأيسر شيء وأوضحه.

فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال، وهذا النوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمة، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة، ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي العين وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه بهم.

فقد مثّل الله الوحي والعلم الذي أنزله علىٰ رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأراضي والأودية، وإن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأرض.

فمنها: أراضٍ طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير كمثل القلوب الفاهمة التي تفهم عن الله ورسوله وحيه وكلامه، وتعقله، وتعمل به علمًا وتعليمًا بحسب حالها. كالأراضي بحسب حالها.

ومنها: أراض تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، فينتفع الناس بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأراضهم، كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة وتلقيه إلىٰ الأمة، ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة والانتفاع بمعانيه والتغذي بغذائه ما عند



الأولين وهؤلاء علىٰ خير، ولكنهم دون أولئك.

ومنها: أراض لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي لا علما ولا حفظا ولا عملا.

ومناسبة الأراضي للقلوب كما ترىٰ في الظهور وأما مناسبة تشبيه الوحي بالغيث فكذلك لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية، والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية.

وكذلك مثّل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها فكذلك شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها لأنها غرس معرفة وتصديقا وإيمانا وإرادة لموجبها، وتؤتي أكلها وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية، والأعمال الصالحة والهدي المستقيم، ونفع صاحبها وانتفاع الناس به وهي صاعدة إلىٰ السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه.

ومثّل الله الشرك والمشرك الذي اتخذ مع الله إلهًا يتعزز به، ويزعم أنه سينال منه النفع، ودفع الضرر بأن اتخاذه هذا في ضعفه كالعنكبوت اتخذت بيتًا وهو أوهن البيوت وأوهاها، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا إلىٰ ضعفها كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه وليًا ونصيرًا من دون الله إلا ضعفًا، لأن قلبه انقطع عن الله، ومن انقطع قلبه عن الله حلّه الضعف من كل وجه وتعلقه بالمخلوق زاده وهنًا إلىٰ وهنه، فإنه اتكل عليه وظن منه حصول المنافع، فخاب ظنه وانقطع أمله، وأما المؤمن فإنه قوي بقوة إيمانه بالله وتوحيده وتعلقه بالله وحده، لأنه يوقن أن الذي بيده الأمر والنفع ودفع الضرر، وهو المتصرف في أحواله كلها، كالعبد الذي استقام علىٰ صراط مستقيم في أقواله وأفعاله، منطلق الإرادة تحرر عن رق المخلوقين، غير مقيد لهم بوجه من الوجوه، بخلاف المشرك فإنه كالعبد الأصم الأبكم الذي هو كَلٌّ وعالة علىٰ مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير، لأن قلبه متقيد للمخلوقين مُسْتَرَق لهم، ليس له انطلاق ولا تصرف في الخير ولا شعور به.

ومثله أيضًا كالذي خر من السماء فتخطفته الطيور ومزقته كل ممزق.

وهؤلاء: الذين زعموا أنهم آلهة ينفعون ويدعون لو اجتمعوا كلهم علىٰ خلق أضعف المخلوقات، وهو الذباب لم يقدروا باجتماعهم علىٰ خلقه، فكيف ببعضهم فكيف بفرد



من مئات الألـوف مـنهم وأبلـغ مـن ذلـك أن الـذباب لـو يسـلبهم شـيئًا لا يقـدروا علـىٰ استخلاصه منه ورده، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك شيء؟ وهو مع هذا الغرور وهذا الوهن والضعف متقسِّم قلبه بين عـدة آلهـة، كالعبد بين الشركاء المتشاكسين، لا يتمكن من إرضاء أحدهم دون الآخر فهو معهم في شر دائم وشقاء متراكم فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لربأ بنفسه عما هـو عليه، ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعدما أضاع دينه وأما الموحد فإنه خـالص لربـه، ولا يعبد إلا خالقه وبارئه ولا يرجو غيره ولا يخشىٰ سواه، وقد اطمأن قلبه واسـتراح ضـميره، وعلم أن الدين هو الحق وأن عاقبته أحمـد العواقـب، ومآلـه الخيـر والفـلاح والسـعادة الأبدية، فهو في حياة طيبة، ويطمع في حياة أطيب منها في الدنيا والآخرة.

ومثَّل الله الأعمال بالبساتين، فذكر العمل الكامل الخالص له الذي لـم يعـرض لـه مـا يفسده كبستان في أحسـن المواضـع وأعلاهـا، تنتابـه الريـاح النافعـة، وقـد ضَـحَىٰ وبـرز للشمس، وفي خلاله الأنهار الجارية المتدفقة، فإن لم تكن غزيرةً فإنها كافيةٌ له كالطل الذي ينزل من السماء، ومع ذلك فأرضُه أطيب الأراضي وأزكاهـا فمـع تـوفر هـذه الشـروط لا تسأل عما هو عليه من زَهاءِ الأشجار وطيب الظلال ووفور الثمار، فصاحبه في نعيم ورغـد متواصل، وهو آمن من انقطاعه وتلفه ولثقته ويقينه بحفظ مولاه وسيده وفاطره ومعبوده له فهو مطمئن لحفظ وكلاءة أرحم الراحمين الحي القيوم الذي لا تأخذه سـنة ولا نـوم فأمـا الآخر الذي قد ركن إلىٰ غير بارئه وفاطره فاعتمد علىٰ الميت الذي لا يملـك لنفسـه نفعـا ولا ضرا ووثق به وفوض إليه حراسـته وكلاءتـه في مالـه وولـده فـالله يغضـب عليـه أشـد الغضب ويبعث علىٰ بستانه الأعاصير والآفات المتلفة المهلكة فلا تغني عنه آياته أو ليـاؤه من شيء فيقلب كفيه حسرة وندامة وقد كبر سنه ونالت منه الشيخوخة والهرم ، فإن كـان هذا البستان لإنسان قد كبر وضعف من العمل، وعنده عائلة ضعاف لا مسـاعدة مـنهم ولا كفاءة، وقد اغتبط به حيث كان مادته ومادة عائلته، ثم إنه جاءته آفة وإعصار أحرقه وأتلفـه عن آخرهم. فكيف تكون حسرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جـاء بعد العمل بما يبطل عمله الصالح من الشرك أو النفاق أو المعاصي المحرقة فيا ويحه، بعد ما كان بستانه زاكيا زاهيا أصبح تالفا قد أيس من عوده وبقي بحسرته مع عائلته.



فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها فقد ذكر الله صفة بستان من ثبته الله علىٰ الإيمان، والعمل الصالح وبستان من أبطل عمله بما ينافيه ويضاده، ويؤخذ من ذلك أن الذي لم يوفق للإيمان ولا للعمل أصلا أنه ليس له بستان أصلًا.

ووجه تشبيه الأعمال بالبساتين: أن البساتين تمدها المياه وطيب المحل وحسن الموقع، فكذلك الأعمال يمدها الوحي النازل من حياة القلوب الطيبة وقد جمع العامل جميع شروط قبول العمل من الاجتهاد والإخلاص والمتابعة، فأثمر عملُه كل زوج بهيج.

وقد مثّل الله عمل الكافر بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء، فيأتيه وقد اشتد به الظمأ، وأنهكه الإعياء، فيجده سرابًا.

ومثّله برماد الشيء المحترق، فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية وهذا مناسب لحال الكافر وبطلان عمله، فإن كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة، وعمله بمنزلة الرماد والسراب الذي لا حقيقة له، وهو كان يعتقده نافعا له، فإذا وصله ولم يجده شيئا تقطعت نفسه حسرات، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه.

كما مثّل نفقات المخلصين بذلك البستان الذكي الزاهي.

ومثّل نفقات المرائين بحجر أمْلسَ عليه شيء من تراب، فأصابه مطر شديد فتركه صلدًا لا شيء عليه، لأن قلب المرائي لا إيمان فيه ولا تصديق ولا إخلاص، فهو قاس كالحجر، فنفقته حيث لم تصدر عن إيمان، بل عن رياء وسمعة لم تؤثر في قلبه حياةً ولا زكاةً كهذا المطر الذي لم يؤثر في هذا الحجر الأملس شيئًا.

وهذه الأمثال إذا طبقت علىٰ مُمَثَّلاتها وضَّحتها وبينتها وبينت مراتبها من الخير، والشر، والكمال، والنقصان.

ومثّل الله حال المنافقين بحال من هو في ظلمة، فاستوقد نارًا من غيره، ثم لما أضاءت ما حوله، وتبين له الطريق، ذهب نورهم وانطفأ ضوءهم، فبقوا في ظلمة عظيمة أعظمَ من الظلمة التي كان عليها أولًا وهكذا المنافق استنار بنور الإيمان، فلما تبين له الهدىٰ غلبت عليه الشقوة، واستولت عليه الحيرة، أيبقىٰ علىٰ دين الآباء والشيوخ أم يخرج عنه إلىٰ دين الهدىٰ والحق، كما يقتضيه من الطاعات والأعمال فغلب عليه شيطان التقليد ورده إلىٰ ظلمات ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[الزُّخرُف:٢٢] فذهب عنه نوره أحوج ما هو إليه، وبقي



في ظلمة متحيرًا فهم لا يرجعون لأن سنة الله في عباده أن من بان له الهدىٰ، واتضح له الحق ثم رجع عنه أنه لا يوفقه بعد ذلك للهداية، لأنه رأىٰ الحق فتركه، وعرف الضلال فاتبعه.

وهذا المثل ينطبق علىٰ المنافقين الذين تبصروا وعرفوا، ثم غلبت عليهم الأغراض الضارة فتركوا الإيمان.

والمثال الثاني وهو قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[البقرة] ينطبق علىٰ المنافقين الضالين المتحيرين الذين يسمعون القرآن ولم يعرفوا المراد منه، لأنهم أعرضوا عنه، وكرهوا سماعه اتباعًا لرؤسائهم وسادتهم.

ومثّل الله الحياة الدنيا وزهرتها والاغترار بها بحالة زهرة الربيع، تعجب الناظرين، وتغر الجاهلين، ويظنون بقاءها، ولا يؤَمِّنون زوالها، فَلَهَوا بها عما خلقوا له، فأصبحت عنهم زائلة وأضحوا لنعيمها مفارقين في أسرع وقت كهذا الربيع إذا أصبح بعد الاخضرار هشيمًا، وبعد الحياة يبسًا رميمًا.

وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البر والفاجر، ولكن سكر الشهوات وضعف داعي الإيمان اقتضىٰ إيثار العاجل علىٰ الآجل.



القاعدة الثالثة والعشرون:

إرشادات القرآن على نوعين

أحدهما: أن يرشد أمرًا ونهيًا وخبرًا إلىٰ أمر معروف شرعًا أو معروف عرفًا كما تقدم.

والنوع الثاني: أن يرشد إلىٰ استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة، ويعمل الفكر في استفادة المنافع منها وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر.

أما النوع الأول: فأكثر إرشادات القرآن في الأمور الخبرية والأمور الحكمية داخلة فيها.

وأما النوع الثاني: وهو المقصود هنا، فإنه دعا عباده في آيات كثيرة إلىٰ التفكر في خلق السماوات والأرض، وما خلق الله فيها من العوالم، وإلىٰ النظر فيها.

وأخبر أنه سخرها لمصالحنا ومنافعنا، وأنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴾[الجاثية:١٣] فنبه العقول علىٰ التفكر فيها،



واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها.

وذلك أننا إذا فكرنا فيها، ونظرنا حالها وأوصافها وانتظامها، ولأي شيء خلقت ولأي فائدة أبقيت؟ وماذا فيها من الآيات وما احتوت عليه من المنافع؟ أفادنا هذا الفكر فيها علمين جليلين:

أحدهما: أننا نستدل بها علىٰ ما لله من صفات الكمال والعظمة، والحكم البالغة، وما له من النعم الواسعة والأيادي المتكاثرة، وعلىٰ صدق ما أخبر به من المعاد والجنة والنار، وعلىٰ صدق رسله وحقيقة ما جاءوا به من عنده.

وهذا النوع قد أكثر أهل العلم من الاستشهاد به وكل عالم ومحقق قد ذكر منه ما وصل إليه علمه وما بلغه تفكيره وفهمه، فإن الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولو الألباب.

وهذا أجل العِلْمين وأعلاهما، وأكملهما.

والعلم الثاني: أننا نتفكر فيها لنستخرج منها المنافع المتنوعة، فإن الله سخرها لنا، وجعلها طوع علومنا وأعمالنا وسلطنا علىٰ استخراج جميع ما لنا فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية فذلل لنا أرضها وما ادخر فيها من بركات وكنوز ومعادن ومواد نافعة لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج منها ما نتخذه لحاجاتنا المعاشية من الصناعات النافعة. فجميع فنون الصناعات علىٰ كثرتها وتنوعها وتفوقها ـ لا سيما في هذه الأوقات ـ كل ذلك داخل في تسخيرها لنا. وقد عُرفت الحاجة، بل الضرورة في هذه الأوقات إلىٰ استنباط المنافع وترقية الصنائع إلىٰ ما لا حد له وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمور فيها فوائد عظيمة للخلق.

وقد تقدم لنا في قاعدة اللازم: أن ما لا تتم الأمور المطلوبة إلا به فهو مطلوب. وهذا يدل علىٰ أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعًا، كما هي مطلوبة لازمة عقلًا، وأنها من الجهاد في سبيل الله، ومن علوم القرآن.

فإن الله نبه العباد أنه جعل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه سخر لهم ما في الأرض. فعليهم أن يسعوا لتحصيل هذه المنافع من أقرب الطرق وهي لا تعرف إلا بالبحث والتنقيب والتجارب المتكررة والدراسات المناسبة لكل نوع منها وهذا من آيات القرآن. وهو أكبر دليل علىٰ سعة علم الله وحكمته ورحمته بعباده بأن أباح لهم جميع



النعم، وييسر لهم الوصول إليها بطرق لا تزال تحدث وقتًا بعد وقت. وقد أخبر أن القرآن تذكرة يتذكر بها العباد كل ما ينفعهم فيسلكونه وما يضرهم فيتركونه، وأنه هداية لجميع المصالح.



القاعدة الرابعة والعشرون:
التوسط والاعتدال وذم الغلو

القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال وذم التقصير والغلو ومجاوزة الحد في كل الأمور

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[النحل:٩٠] وقال: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأعراف:٢٩] والآيات الآمرة بالعدل والإحسان والناهية عن ضدهما كثيرة.

والعدل في كل الأمور: لزوم الحد فيها وألا يغلو ويتجاوز الحد، كما لا يقصر ويدع بعض الحق.

ففي عبادة الله أمر بالتمسك بما كان عليه النبي ﷺ في آيات كثيرة ونهىٰ عن مجاوزة ذلك، وتعدي الحدود وذم المقصرين عنه في آيات كثيرة.

فالعبادة التي أمر الله بها ما جمعت الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، فإذا خلت من الأمرين أو أحدهما فهي لاغية.

وفي حق الأنبياء والرسل ـ صلىٰ الله عليهم وسلم ـ أمر بالاعتدال وهو الإيمان بهم، ومحبتهم المقدمة علىٰ محبة الخلق، وتوقيرهم واتباعهم، ومعرفة أقدارهم ومراتبهم التي أكرمهم الله بها. ونهىٰ في آيات كثيرة عن الغلو فيهم وهو أن يُرفعوا فوق منزلتهم التي أنزلهم الله، ويجعل لهم من حقوق الله التي لا يشاركه فيها مشارك شيء. كما نهىٰ عن التقصير في حقهم بتكذيبهم أو ترك محبتهم وتوقيرهم أو عدم اتباعهم. وذمَّ الغالين فيهم كالنصارىٰ ونحوهم في عيسىٰ، كما ذمَّ الجافين لهم كاليهود حين قالوا في عيسىٰ ما قالوا، وذمَّ من فرق بينهم فآمن ببعض دون بعض، وأخبر أن هذا كفر بجميعهم.

وكذلك يتعلق هذا الأمر في حق العلماء والأولياء فتجب محبتهم ومعرفة أقدارهم، ولا يحلُّ الغلو فيهم، وإعطاؤهم شيئًا من حق الله، وحق رسوله الخالص، ولا يحلُّ جفاؤهم ولا عداوتهم، فمن عادىٰ لله وليًا فقد بارزه بالحرب.



وأمر بالتوسط في النفقات والصدقات، ونهىٰ عن الإمساك والتقصير والبخل، كما نهىٰ عن الإسراف والتبذير.

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال، ونهىٰ عن الجبن، وذم الجبناء وأهل الخور وضعفاء النفوس، كما ذم المتهورين الذين يلقون بأيديهم إلىٰ التهلكة.

وأمر وحث علىٰ الصبر في آيات كثيرة، ونهىٰ عن الجزع والهلع والتسخط، كما نهىٰ عن التجبر والقسوة وعدم الرحمة في آيات كثيرة.

وأمر بأداء الحقوق لكل من له حق عليك: من الوالدين وذوي القربىٰ والجار والإخوان والولاة والحكام، والأجراء والطلبة، وغيرهم من كل ذيحق هو فرع الله سبحانه وتعالىٰ نفهمه وتعرفه وتؤديه بالمعروف والإحسان إليهم قولا وفعلًا، وذمَّ من قصر في حقهم أو أساء إليهم قولًا وفعلًا، كما ذم من غلا فيهم وفي غيرهم حتىٰ قدم رضاهم علىٰ رضا الله وطاعتهم علىٰ طاعة الله.

وأمرنا بالاقتصاد في الأكل والشرب واللباس، ونهىٰ عن السرف والترف، كما نهىٰ عن التقصير الضار بالقلب والبدن.

وبالجملة فما أمر الله بشيء إلا كان بين خلقين ذميمين: تفريط وإفراط.



القاعدة الخامسة والعشرون:

حدود الله قد أمر بحفظها ونهى عن تعديها وقربانها

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:١١٢] وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[البقرة:٢٢٩] وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[البقرة:١٨٧].

أما حدود الله: فهي ما حده لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة، التي أمرهم بفعلها، والمحرمات التي أمرهم بتركها. فالحفظ لها يكون بأداء الحقوق اللازمة، وترك المحرمات الظاهرة والباطنة.

ويتوقف هذا الفعل وهذا الترك علىٰ معرفة الحدود علىٰ وجهها، ليعرفَ ما يدخل في الواجبات والحقوق، فيؤديها علىٰ ذلك الوجه كاملة غير ناقصة، وما يدخل في المحرمات ليتمكن من تركها، ولئلا يلبس الشيطان عليهم بعضا منها ولهذا ذمَّ الله من لم يعرف حدود



ما أنزل الله علىٰ رسوله، وأثنىٰ علىٰ من عرف ذلك.

وحيث قال الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[البقرة:٢٢٩] كان المراد بها: ما أحله لعباده، وما فصله من الشرائع. فإنه نهىٰ عن مجاوزتها وأمر بملازمتها.

كما أمر بملازمة ما أحله من الطعام والشراب واللباس والنكاح، ونهىٰ عن تعدي ذلك إلىٰ ما حرم من الخبائث.

وكما أمر بملازمة ما شرعه من الأحكام في النكاح والطلاق والعدة وتوابع ذلك، ونهىٰ عن تعدي ذلك إلىٰ فعل ما لا يجوز شرعًا.

وكما أمر بالمحافظة علىٰ ما فصله من أحكام المواريث ولزوم حده ونهىٰ عن تعدي ذلك، وتوريث من لا يرث، وحرمان من يرث، وتبديل ما فرضه وفصله بغيره.

وحيث قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[البقرة:١٨٧] كان المراد بذلك: المحرمات فإن قوله: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ نهي عن فعلها، ونهي عن مقدماتها وعن أسبابها الموصلة إليها والموقعة فيها.

كما نهاهم عن المحرمات علىٰ الصائم، وبين لهم وقت الصيام فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ وكما حرم علىٰ الأزواج أن يأخذوا مما آتوا أزواجهم شيئًا إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، ثم قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ وكما بين المحرمات في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾[الإسراء:٣٢] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[الإسراء:٣٤] وفي الخمر والميسر أنهما ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[المائدة:٩٠] فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله، والمحافظة عليها. كما أن أصل كل الشر وأسباب العقوبات الجهل بحدود الله، أو ترك المحافظة عليها أو الجمع بين الشرين. والله أعلم.



القاعدة السادسة والعشرون:

الأحكام في الآيات المقيدة

الأصل: أن الآيات التي فيها قيود لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود، إلا في آيات يسيرة

وهذه قاعدة لطيفة: فإن الله متىٰ رتب في كتابه حكمًا علىٰ شيء، وقيده بقيد، أو شرط لذلك شرطًا، تعلق الحكم به علىٰ ذلك الوصف، الذي وصفه الله تعالىٰ.



وهذا في القرآن لا حصر له. وإنما المقصود ذكر المستثنىٰ من هذا الأصل الذي يقول كثير من المفسرين - إذا تكلموا عليها -: هذا قيد غير مراد. ففي هذه العبارة نظر؛ فإن كل لفظة في كتاب الله فإن الله أرادها لما فيها من فائدة، وقد تظهر للمخاطب وقد تخفىٰ وإنما مرادهم بقولهم: «غير مراد» ثبوت الحكم لها.

فاعلم أن الله تعالىٰ يذكر الأحكام الشرعية من أصول وفروع، ويذكر أعلىٰ حالة لها ليبرزها لعباده، وليظهر لهم حسنها، إن كانت مأمورًا بها، أو قبحها إن كانت منهيًا عنها.

وعند تأمل هذه الآيات التي بهذا الصدد يظهر لك هذا منها عيانًا.

فمنها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾[المؤمنون:١١٧] ومن المعلوم أن من دعا مع الله إلهًا آخر فإنه كافر، وأنه ليس له برهان مطلقًا. وإنما قيدها الله بهذا القيد بيانًا لشناعة الشرك والمشرك وأن الشرك قطعًا ليس له دليل شرعي، ولا عقلي، والمشرك ليس بيده ما يُسوِّغ له شيئًا من ذلك.

ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ علىٰ المشركين بما تملكهم لغبائهم وبلادتهم التقليدية من المعاندة ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية، وأنه ليس بأيديهم إلا أغراض نفسية بهيمية ومقاصد سيئة، وأنهم لو التفتوا أدنىٰ التفات لعرفوا أن ما هم عليه لا يستجيزه يستسيغه من له أدنىٰ إيمان ولا معقول فهم وعقل.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[النساء:٢٣] مع أن كونها في حجره أو في غير حجره ليس شرطًا لتحريمها، فإنها تحرم مطلقًا. ولكن ذكر الله هذا القيد تشنيعًا لهذه الحالة، وأنه من أقبح القبيح إباحة الربيبة التي هي في حجر الإنسان بمنزلة بنته. فذكر الله المسألة متجلية بثياب قبحها، لينفر عنها ذوي الألباب، مع أن التحريم لم يُعلَّق بمثل هذه الحالة فالأنثىٰ إما أن تكون مباحة مطلقًا، أو محرمة مطلقًا، سواء كانت عند الإنسان أم لا. كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾[الإسراء:٣١] و: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾[الأنعام:١٥١] مع أنه المعلوم النهي علىٰ عن قتل الأولاد علىٰ أي حال.

فالفائدة في ذكر هذه الحالة: أنها حالة جامعة للشر كله كونه قتل بغير حق، وقتل مَنْ جُبلت النفوس علىٰ شدة الشفقة عليه شفقة لا نظير لها، وكون ذلك صادرًا عن التسخط



لقدر الله، وإساءة الظن بالله فأولئك الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق إنما يقتلونهم تبرمًا وتسخطًا بقدر الله، فهم قد تبرموا بالفقر هذا التبرم، وأساءوا ظنونهم بربهم حيث ظنوا أنهم إن أبقوهم زاد فقرهم، واشتدت فاقتهم، فصار الأمر بالعكس.

وأيضًا فإنه إذا كان منهيًا عن قتلهم في هذه الحال التي دفعهم إليها خشية الفقر وحدوثه، ففي حال سعة الرزق من باب أولىٰ وأحرىٰ.

وأيضًا ففي هذا: بيان للحالة الموجودة غالبًا عندهم، فالتعرض لذكر الأسباب الموجودة في الحادثة يكون أجلىٰ وأوضح للمسائل.

وأما قوله تعالىٰ في الرجعة: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾[البقرة:٢٢٨] **فمن العلماء من قال:** إنه من هذا النوع، وإنه يستحق ردها سواء أراد المراجع الإصلاح أم لم يرده، فيكون ذكر هذا القيد حثًا علىٰ لزوم ما أمر الله به من قصد الإصلاح، وتحريم إمساكها وردها إلىٰ زوجيته علىٰ وجه المضارة، وإن كان يملك ردها، كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[البقرة:٢٣١].

ومن العلماء من جعل هذا القيد علىٰ الأصل العام، وأن الزوج لا يستحق رجعة زوجته في عدتها إلا إذا قصد الإصلاح فأما إذا قصد ضد ذلك فلا حق له في رجعتها، وهذا هو الصواب.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾[البقرة:٢٨٣] مع أن الرهن يصح حضرًا وسفرًا **ففائدة هذا القيد:** أن الله ذكر أعلىٰ الحالات، وأشد الحاجات للرهن، وهي هذه الحالة في السفر، والكاتب مفقود، والرهن مقبوض، فأحوج ما يحتاج الإنسان للرهن في هذه الحالة التي تعذرت فيها التوثيقات إلا بالرهن المقبوض، وكما قاله الناس في قيد السفر فكذلك علىٰ الصحيح في قيده بالقبض، وأن قبضه ليس شرطًا لصحته، وإنما ذلك للاحتياط وزيادة الاستيثاق، وكذلك فقد الكاتب.

ومنها قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾[البقرة:٢٨٢] مع أن الحق يثبت بالرجل والمرأتين ومع وجود الرجلين، ولكن ذكر الله أكمل حالة يحصل بها الحفظ للحقوق، بدليل أن النبي ﷺ قضىٰ بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية ليس فيها ذلك لهذه الحكمة، وهو أن الآية أرشد الله فيها عباده



إلىٰ أعلىٰ حالة يحفظون بها حقوقهم، لتمام راحتهم وحسم اختلافهم ونزاعهم.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾[الأعلىٰ] فإنها من أصل هذه القاعدة، ويظن بعض الناس أنها من هذا النوع، وأنه يجب التذكير، نفعت الذكرىٰ أو لم تنفع ولكن قصر الآية علىٰ هذا غلط، فإن الآية تعطي أيضا لمن تدبر أنه أن الذكرىٰ إذا كان يحصل بها الخير كله أو بعضه أو يزول بها الشر كله أو بعضه وجب توجيهها فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه فإنه منهي عنه في هذه الحالة، كما نهىٰ الله عن سب آلهة المشركين إذا كان وسيلة لسب الله. وكما ينهىٰ عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتب عليه شر أكبر أو فوات خير أكثر من الخير الذي يؤمر به، وكذلك النهي عن المنكر إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه من شرا أو ضرر فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به، بل منهي عنه، وكل هذا من تفصيل قوله تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾[النحل:١٢٥] فعُلم أن هذا قيد مراد ويرتبط الحكم به ثبوتًا وانتفاء والله أعلم.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[البقرة:٦١] مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير الحق. فهذا نظير ما ذكره في الشرك، وأن هذا إنما هو لتشنيع هذه الحالة التي لا شبهة فيها لصاحبها، بل صاحبها أعظم الناس جرمًا، وأشدهم إساءة.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الأنعام:١٥١] فليست من هذا النوع وإنما هي من النوع الأول الذي هو الأصل، والحق الذي قيّدها الله به جاء مفسَّرًا في قوله ﷺ: «**النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِي الْمُحْصَنُ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**». رواه البخاري [٦٨٧٨] ومسلم [١٦٧٦].

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾[النساء:٤٣] مع أن فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر، فإنه إذا فُقد جاز التيمم حضرًا وسفرًا، ولكن ذكر السفر لبيان الحالة التي يغلب أن يفقد فيها الماء، أما الحضر فإنه يندر فيه عدم وجود الماء جدًا.

ومن هذا السبب ظن بعض العلماء أن السفر وحده مبيح للتيمم وإن كان الماء موجودًا، وهذا في غاية الضعف، وما ثبت من هدي الرسول وأصحابه مخالف لهذا القول.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن



﴿يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾[النساء:١٠١] مع أن الخوف ليس شرطًا لصحة القصر ومشروعيته بالاتفاق ولما سئل النبي ﷺ عن هذا أجاب «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ» ويعني بصدقة الله وإحسانه في كل زمان ومكان لا يتقيد بخوف ولا غيره.

ومن العلماء من قال: إن هذا القيد من القسم الأول وأن القصر التام ـ وهو قصر العدد وقصر الأركان والهيئات ـ شرطه اجتماع السفر والخوف كما في الآية، فإن وجد الخوف وحده لم يقصر عدد الصلاة وإنما تقصر هيئاتها وصفاتها. وإن وجد السفر وحده لم تقصر هيئاتها وشروطها وإنما يقصر عددها. ولا ينافي هذا كلام النبي ﷺ فإنهم إنما سألوه عن قصر العدد فقط فأجابهم بأن الرخصة فيه عامة في كل الأحوال.

وهذا تقرير مليح موافق لظاهر الآية غير مخالف لحديث الرسول فيتعين الأخذ به.



القاعدة السابعة والعشرون:

المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع في أشد الحاجة إليها

وهذه القاعدة جليلة النفع، وعظيمة الوقع وذلك أن كل موضع يسوق الله فيه حكمًا من الأحكام أو خبرًا من الأخبار فيتشوف الذهن فيه إلىٰ شيء آخر، إلا وجدت الله قد قرن به ذلك الأمر الذي يعلق في الأذهان، فيبينه أحسن بيان وهذا أعلىٰ أنواع التعليم، الذي لا يبقي إشكالًا إلا أزاله، ولا احتمالًا إلا أوضحه. وهذا يدل علىٰ سعة علم الله وحكمته. وذلك في القرآن كثير جدًا.

ولنذكر بعض أمثلة توضح هذه القاعدة، وتحسن للداخل الدخول إليها.

فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾[النمل:٩١] لمَّا خصها بالذكر ربما وقع في بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾[النمل:٩١].

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾[هود:١٠٩] لمَّا كان قد يقع في الذهن أنهم علىٰ حجة وبرهان فأبان بقوله: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾[هود:١٠٩] أنهم ضُلَّال اقتدوا بمثلهم، ثم لما كان قد يتوهم المتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم، وعلىٰ بعض يقين من مذهبهم، وربما يتوهم أيضًا أن الأليق ألا يبسط لهم الدنيا احترز من ذلك



بقولـــه: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾[هود] ولما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النساء:٩٥] ربما يظن الظان أنهم لا يستوون مع المجاهدين ولو كان القاعدون معذورين. أزال هذا الوهم بقوله: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾[النساء:٩٥].

وكذلك لما قال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ﴾[الحديد:١٠] ربما توهم أحد أن المفضولين ليس لهم عند الله مقام ولا مرتبة، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[الحديد:١٠] ثم لما كان ربما يتوهم أن هذا الأجر يُستحق بمجرد هذا العمل المذكور، ولو خلا من الإخلاص، أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾[الحديد].

ومنها: قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[النمل:٤٨] ربما وقع في الذهن أنهم قد يصلحون، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾[النمل] أي: لا خير فيهم أصلًا مع شرهم العظيم.

ومنها: أنه قال في عدة مواضع: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾[النمل:٨٠] فربما توهم أحد أنهم وإن لم يسمعوا فإنهم يفهمون الإشارة فأزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾[النمل] فهذه الحالة لا تقبل سماعًا ولا رؤية لتحصل الإشارة، وهذا نهاية الإعراض.

ومنها قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ ربما توهم أحد أن هدايته تأتي جزافًا من غير سبب فأزال هذا بقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[القصص] أي: بمن يصلح للهداية لزكاته وخيره ممن ليس كذلك، فأبان أن هدايته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها. ومن كان حسن الفهم رأىٰ من هذا النوع شيئًا كثيرًا.



القاعدة الثامنة والعشرون:

في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن

لما كان الإيمان أصل كل الخير كله والفلاح، وبفقده يفقد كل خير ديني ودنيوي وأخروي، أكثر الله من ذكره في القرآن جدًا: أمرًا به، ونهيًا عن ضده، وترغيبًا فيه، وبيانًا لأوصاف أهله، وما لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.



فأما إذا كان المقام مقامَ خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي، أو مقامَ إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان، فإنها تتناول كل مؤمن، سواء كان متمما لواجبات الإيمان وأحكامه، أو ناقصًا في شيءٍ منها.

وأما إذا كان المقام مقام مدح وثناء وبيان الجزاء الكامل للمؤمن: فإنما المراد بذلك المؤمن حقًا الجامع لمعاني الإيمان.

وهذا هو المراد بيانه هنا. فنقول:

وصف الله المؤمن في كتابه باعترافه وتصديقه بجميع عقائد الدين وبإرادة ما يحبه الله ويرضاه، وبالعمل بما يحبه الله ويرضاه، وبترك جميع المعاصي، وبالمبادرة بالتوبة مما صدر منه منها، وبأن إيمانهم أثر في أخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم الآثار الطيبة.

فوصف المؤمنين بالإيمان بالأصول الجامعة: وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأنهم يؤمنون بكل ما أتت به الرسل كلهم ويؤمنون بالغيب، ووصفهم بالسمع والطاعة، والانقياد ظاهرًا وباطنًا، ووصفهم بأنهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ ﴾ [الأنفال:٢] وأما إذا كان السياق سياق مدح وثناء، فالمراد به الإيمان الكامل، فلا يدخل فيه الفاسق: ﴿إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[الأنفال].

ووصفهم بأن جلودهم تقشعر، وعيونهم تفيض من الدمع، وقلوبهم تلين وتطمئن لآيات الله وذكره، وبأنهم يخشون ربهم بالغيب والشهادة، وأنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلىٰ ربهم راجعون.

ووصفهم بالخشوع في أحوالهم عمومًا، وفي الصلاة خصوصًا وأنهم عن اللغو معرضون، وللزكاة فاعلون، ولفروجهم حافظون إلا علىٰ أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وأنهم بشهاداتهم قائمون، ولأماناتهم وعهدهم مُراعون.

ووصفهم باليقين الكامل الذي لا ريب فيه، وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ووصفهم بالإخلاص لربهم في كل ما يأتون ويذرون.

ووصفهم بمحبة المؤمنين والدعاء لإخوانهم من المؤمنين السابقين واللاحقين، وأنهم



مجتهدون في إزالة الغل من قلوبهم علىٰ المؤمنين، وبأنهم يتولون الله ورسوله وعباده المؤمنين، ويتبرؤن من موالاة جميع أعداء الدين، وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويطيعون الله ورسوله في كل أحوالهم.

فجمع الله لهم بين العقائد الحقة واليقين الكامل، والإنابة التامة التي آثارها الانقياد لفعل المأمورات وترك المنهيات، والوقوف الحدود الشرعيات.

فهذه الأوصاف الجليلة هي وصف المؤمن المطلق الذي سلم من العقاب، واستحق الثواب، ونال كل خير رُتِّب علىٰ الإيمان.

فإن الله رتب علىٰ الإيمان في كتابه من الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مائة فائدة، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

رتب علىٰ الإيمان نيل رضاه الذي هو أكبر من كل شيء، ورتب عليه دخول الجنة والنجاة من النار، والسلامة من عذاب القبر ومن صعوبات القيامة، والبشرىٰ الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والثبات في الدنيا علىٰ الإيمان والطاعات وعند الموت وفي القبر علىٰ الإيمان والتوحيد والجواب النافع السديد، ورتب عليه الحياة الطيبة في الدنيا والرزق والحسنة وتيسيره لليسرىٰ وتجنيبه للعسرىٰ، وطمأنينة القلوب وراحة النفوس والقناعة التامة، وصلاح الأحوال، وصلاح الذرية، وجعلهم قرة عين للمؤمن، والصبر عند المحن والمصائب.

وحمل الله عنهم الأثقال، ومدافعة الله عنهم جميع الشرور، والنصر علىٰ الأعداء، ورفع المؤاخذة عن الناسي والجاهل والمخطئ منهم، وأن الله قد وضع عنهم الآصار والأغلال ولم يحملهم ما لا طاقة لهم فيه، ومغفرة الذنوب بإيمانهم والتوفيق للتوبة.

فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من الله والقرب من رحمته، ونيل ثوابه، وأكبر وسيلة لمغفرة الذنوب، وإزالة الشدائد أو تخفيفها.

وثمرات الإيمان علىٰ وجه التفصيل كثيرة، وبالجملة خيرات الدنيا والآخرة مرتبة علىٰ الإيمان، كما أن الشرور مرتبة علىٰ فقده، والله أعلم.



القاعدة التاسعة والعشرون:



في الفوائد التي يجتنيها العبد في معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن

وهذه القاعدة تكاد تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير وذلك أن القرآن مشتمل علىٰ علوم متنوعة، وأصناف جليلة من العلوم. فعلىٰ العبد أن يعرف المقصود من كل نوع منها، ويعمل علىٰ هذا، ويتتبع الآيات الواردة فيه، فيحصِّل المراد منها: **علمًا، وتصديقًا، وحالًا، وعملًا.**

فأجلُّ علوم القرآن علىٰ الإطلاق: علم التوحيد، وما لله من صفات الكمال، فإذا مرت عليه الآيات في توحيد الله وأسمائه وصفاته أقبل عليها، فإذا فهمها وفهم المراد بها أثبتها لله علىٰ وجه لا يماثله فيه أحد، وعَرَفَ ليس لله مثيل في ذاته فليس له مثيل في صفاته، وامتلأ قلبه من معرفة ربه وحبه بحسب علمه بكمال الله وعظمته فإن القلوبَ مجبولةٌ علىٰ محبة الكمال، فكيف بمن له كل الكمال؟ ومنه جميع النعم الجِزَال ويعرف أن أصل الأصول هو الإيمان بالله، وأن هذا الأصل يقوىٰ ويكمل بحسب معرفة العبد لربه، وفهمه لمعاني صفاته ونعوته وامتلاء القلب بمعرفتها ومحبتها.

وأيضًا يعرف أنه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله. فإن هذا هو أصل العلم وأصل التعبد.

ومن علوم القرآن: صفات الرسل وأحوالهم، وما جرىٰ لهم وعليهم، مع من وافقهم ومن خالفهم. وما هم عليه من الأوصاف الوافية. فإذا مرت عليه هذه الآيات عرف بها أوصافهم وازدادت معرفته ومحبته لهم، وعرف ما هم عليه من الأخلاق والأعمال خصوصًا إمامهم وسيدهم محمد ﷺ فيقتدي بأخلاقهم وأعمالهم بحسب ما يقدر عليه، ويفهم أن الإيمان بهم تمامه وكماله: بمعرفته التامة بأحوالهم ومحبتهم واتباعهم. وفي القرآن من نعوتهم الشيء الكثير الذي يحصل به تمام الهدىٰ.

ويستفيد أيضًا الاقتداء بتعليماتهم العالية وإرشاداتهم للخلق وحسن خطابهم ولطفَ جوابهم وتمام صبرهم. فليس القصد من قصصهم أن تكون سمرًا وإنما القصد أن تكون عبرًا.

ومن علوم القرآن: علم أهل السعادة، والخير، وأهل الشقاوة، والشر وفي معرفته لهم ولأوصافهم ونعوتهم فوائد الترغيب والاقتداء بالأخيار، والترهيب من أحوال الأشرار،



والفرقان بين هؤلاء وهؤلاء، وبيان الصفات والطرق التي وصل بها هؤلاء إلىٰ دار النعيم، ووصل بها أولئك إلىٰ دار الجحيم، ومحبة هؤلاء الأتقياء من الإيمان، كما أن بغض أولئك من الإيمان وكلما كان العبد أعرف بأحوالهم تمكن من هذه المقاصد.

ومن علوم القرآن: علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة علىٰ أعمال الخير وأعمال الشر.

وفي ذلك مقاصد جليلة: الإيمان بكمال عدل الله وسعة فضله والإيمان باليوم الآخر، فإن تمامَ الإيمان بذلك يتوقف علىٰ معرفة ما يكون فيه، والرغبة في الأعمال التي رتب الله عليها الجزاء الجزيل، والرهبةُ من ضدها.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي.

وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله؛ فإن العباد محتاجون إلىٰ معرفة ما أمروا به وما نهوا عنه، وبالعمل بذلك والعلم سابق للعمل، وطريق ذلك: إذا مر علىٰ القارئ نص فيه أمر بشيء عرفه وفَهِم ما يدخل فيه وما لا يدخل فيه، وحاسب نفسه: هل هو قائم بذلك كله أو بعضه أو تاركه؟ فإن كان قائمًا به فليحمد الله، ويسأله الثبات والزيادة من الخير. وإن كان مقصرًا فيه فليعلم أنه مطالب به وملزم به فليستعن بالله علىٰ فعله، وليجاهد نفسه علىٰ ذلك.

وكذلك في النهي ليعرف ما يراد منه، وما يدخل في ذلك الذي نهىٰ الله عنه، ثم لينظر إلىٰ نفسه فإن كان قد ترك ذلك فليحمد الله علىٰ توفيقه، ويسأله أن يثبته علىٰ ترك المناهي كما يسأله الثبات علىٰ فعل الطاعات؛ وليجعل الداعي له علىٰ الترك امتثال طاعة الله، ليكونَ تركه عبادةً، كما كان فعله للطاعة عبادة، وإن كان غير تارك له فليتب إلىٰ الله منه توبة نصوحا جازمة وليبادر، ولا تمنعه الشهوات الدنية ما تدعوه إليه النفس الأمارة بالسوء.

فمن كان عند هذه المطالب وغيرها عاملًا علىٰ هذه الطريقة فإنه ثابت علىٰ الصراط المستقيم والطريقة المثلىٰ فيما عليه من الاسترشاد بكتاب الله وحصل له بذلك علم غزير وخير كثير.



القاعدة الثلاثون:



أركان الإيمان بالأسماء الحسنى

ثلاثة: إيماننا بالاسم، وبما دل عليه من المعنىٰ، وبما تعلق به من الآثار.

وهذه القاعدة العظيمة: خاصة بأسماء الرب سبحانه وتعالىٰ وفي القرآن من الأسماء الحسنىٰ ما ينيف عن ثمانين اسمًا ـ كُررت في آيات متعددة، بحسب ما يناسب المقام، كما تقدم بعض الإشارة إليها.

وهذه القاعدة تنفعك في كل اسم من أسمائه الحسنىٰ المتعلقة بالخلق والأمر، والثواب والعقاب فعليك أن تؤمن بأنه عليم، وذو علم عظيم، ومحيط بكل شيء، قدير، وذو قدرة وقوة عظيمة ويقدر علىٰ كل شيء، ورحيم، وذو رحمة عظيمة ورحمته وسعت كل شيء والثلاثة متلازمة فالاسم دل علىٰ الوصف، وذلك دل علىٰ المتعلق فمن نفىٰ واحدًا من هذه الأمور الثلاثة فإنه لم يتم إيمانه بأسماء الرب وصفاته، الذي هو أصل التوحيد.

ولنكتف بهذا الأنموذج ليعرف أن الأسماء كلها علىٰ هذا النمط.



القاعدة الحادية والثلاثون:
ربوبية الله في القرآن على نوعين: عامة وخاصة

كثر في القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده ومتعلقاتها ولوازمها.

وهي علىٰ نوعين:

ربوبية عامة: يدخل فيها جميع المخلوقات برها وفاجرها، بل مكلفوها وغير المكلفين، حتىٰ الجمادات. وهي أنه تعالىٰ المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها، وإعطائها ما تحتاجه أو تضطر إليه في بقائها، وحصول منافعها ومقاصدها فهذه التربية لا يخرج عنها أحد.

والنوع الثاني: في تربيته لأصفيائه وأوليائه، فيربيهم بالإيمان الكامل، ويوفقهم لتكميله ويُكملهم بالأخلاق الجميلة، ويدفع عنهم الأخلاقَ الرذيلة، وييسرهم لليسرىٰ ويجنبهم العسرىٰ.

وحقيقتها: التوفيق لكل خير، والحفظ من كل شر، وإنالة المحبوبات العاجلة والآجلة،



وصرف المكروهات العاجلة والآجلة.

فحيث أُطلقت ربوبيته تعالىٰ فإن المراد بها المعنىٰ الأول، مثل قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾[الفاتحة] ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٦٤] ونحو ذلك.

وحيث قُيدت بما يحبه ويرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم، فإن المراد بها النوع الثاني. وهو متضمن للمعنىٰ الأول وزيادة؛ ولهذا تجد أسئلة الأنبياء وأتباعهم في القرآن بلفظ الربوبية غالبًا فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة فملاحظة هذا المعنىٰ نافعة أعظم النفع للعبد.

ونظير هذا المعنىٰ الجليل: أن الله أخبر في عدة آيات أن الخلق كلهم عباده وعبيده: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾[مريم] فكلهم مماليكه، وليس لهم من الملك والأمر شيء ويخبر في بعض الآيات أن عباده بعض خلقه كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[الفرقان:٦٣] ثم ذكر صفاتهم الجليلة وكقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر:٣٦] وفي قراءة ﴿عَبْدِهِ﴾ وقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[الإسراء:١] وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة:٢٣] فالمراد بهذا النوع من قاموا بعبودية الله، وأخلصوا له الدين علىٰ اختلاف طبقاتهم.

فالعبودية الأولىٰ: يدخل فيها البر والفاجر.

والعبودية الثانية: صفة الأبرار. ولكنَّ الفرق بين الربوبية والعبودية: أن الربوبية وصف الرب وفعله، والعبودية وصف العبيد وفعلهم.



القاعدة الثانية والثلاثون:

الأمر بالشيء نهي عن ضده

إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمرًا بضده، وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص كان ذلك إثباتًا للكمال

وذلك: بأنه لا يمكن امتثال الأمر علىٰ وجه الكمال إلا بترك ضده، فحيث أمر بالتوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والعدل والإحسان، كان ناهيًا عن الشرك وعن ترك الصلاة وترك الزكاة وترك الصوم وترك الحج وعن العقوق



والقطيعة والظلم والإساءة، وحيث نهىٰ عن الشرك وترك الصلاة إلىٰ آخر المذكورات كان آمرًا بالتوحيد وفعل الصلاة إلىٰ آخرها.

وحيث أمر بالصبر والشكر، وإقبال القلب علىٰ الله إنابة ومحبة وخوفًا ورجاءً، كان ناهيًا عن الجزع والسخط وكفران النعم وإعراض القلب عن الله في تعلق هذه الأمور بغيره وحيث نهىٰ عن الجزع وكفران النعم وغفلة القلب، كان آمرًا بالصبر إلىٰ آخر المذكورات.

وهذا ضربُ مثلٍ، وإلا فكل الأوامر والنواهي علىٰ هذا النمط، وكذلك المدح لا يكون إلَّا بإثبات الكمالاتٍ، فحيث أثنىٰ علىٰ نفسه، وذكر تنزهه عن النقائص والعيوب كالنوم والسِّنة واللُّغوب والموت، وخفاء شيء في العالم من الأعيان والصفات والأعمال وغيرها، والظلم والعبث واللعب وخلق شيء باطلًا وأن يكون عطاؤه أو جزاؤه جزافًا بلا حكمة، فَلْتَضمن ذلك الثناء عليه بكمال حياته، وكمال قيوميته، وقدرته، وسعة علمه، وكمال عدله وحكمته؛ لأن العدم المحض لا كمال فيه، حتىٰ ينفي تكميلًا للكمال.

وكذلك إذا نفىٰ الله عن كتابه الريب والاختلافَ والشك والإخبارَ بخلاف الواقع كان ذلك لكمال دلالته علىٰ اليقين في جميع المطالب، واشتماله علىٰ الأحكام، والانتظام التام والصدق الكامل، إلىٰ غير ذلك من صفات كتابه.

وكذلك إذا نفىٰ عن رسوله ﷺ الكذب، والتقول علىٰ الله، واتباع الهوىٰ والجنون والسحر والشعر ونحوها، كان ذلك لأجل إثبات كمال صدقه، وأنه لا ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ، ولكمال عقله ولزوال كل ما يقدح في كمال نبوته ورسالته.

فتفطن لهذه القاعدة في كل ما يمر عليك من الآيات القرآنية في هذه الأمور وغيرها، تنل خيرًا كثيرًا. والله أعلم.



القاعدة الثالثة والثلاثون:

المرض في القرآن

مرض القلوب نوعان: **مرض شبهات وشكوك، ومرض شهوات ومحرمات** والطريق إلىٰ تميز هذا من هذا ـ مع كثرة ورودهما في القرآن ـ يُدرك من السياق.

فإن كان هذا السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين، كان مرضَ



الشكوك والشبهات، وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل كان مرضَ الشهوات ووجه انحصار المرض في هذين النوعين: أن مرض القلب خلاف صحته، وصحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه، وكمال إرادته وحبه لما يحبه الله ويرضاه.

فالقلب الصحيح: هو الذي عرف الحق واتبعه، وعرف الباطل واجتنبه، فإن كان علمه شكًا وعنده شبهات تُعارض ما أخبر الله به من أصول الدين وفروعه، كان علمه منحرفًا وكان مرض قلبه قوة وضعفًا بحسب هذه الشكوك والشبهات وإن كانت إرادته ومحبته مائلة لشيء من معاصي الله، كان ذلك انحرافا في إرادته ومرضًا.

وقد يجتمع الأمران فيكون القلب منحرفًا في علمه وفي إرادته.

فمن النوع الأول: قوله تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[البقرة:١٠] وهي التقاليد والشكوك والشبهات المعارضة لرسالة محمد ﷺ ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة:١٠] عقوبة علىٰ ذلك المرض الناتج عن أسباب متعددة، كلها منهم، وهم فيها غير معذورين.

ونظير هذا قوله تعالىٰ في سورة براءة: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥].

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج:٥٣] فإن مريض القلب بالشكوك وضعف العلم أقل شيء يريبه ويؤثر فيه ويفتتن به.

ومن الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾[الأحزاب] أي: مرض شهوة وإرادة للفجور، أقل شيء من أسباب الافتنان يوقعه في الفتنة طمعًا أو فعلًا. فكل من أراد شيئًا من معاصي الله فقلبه مريض مرض شهوة، ولو كان صحيحًا لاتصف بصفات الأذكياء الأبرياء الأتقياء الموصوفين بقوله في سورة الحجرات: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾[الحجرات].

فمن كان قلبه علىٰ هذا الوصف الذي ذكره الله، فليحمده علىٰ هذه النعمة التي لا يقاومها شيء من النعم. وليسأل الله الثبات علىٰ ذلك، والزيادة من فضل الله ورحمته.





القاعدة الرابعة والثلاثون:

دلَّ القرآن في عدة آيات أنَّ من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلي بالاشتغال بما يضره، وحُرِم الأمرَ الأول

وذلك أنه ورد في عدة آيات: أن المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل، بزعمهم: أنهم بشر، ابتلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين، ولما عرض عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه، ثم تركوه، قلب الله قلوبهم، وطبع عليها وختم، فلا يؤمنون حتىٰ يروا العذاب الأليم.

ولما بين لهم الصراط المستقيم، وزاغوا عنه اختيارًا ورضًا بطريق الغي علىٰ طريق الهدىٰ والرشد، عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم خاسرين في كل سعيهم.

ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بالعذاب المهين.

ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة.

ولما منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأخربوها ما كان لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[التوبة] والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًا، يخبر الله فيها أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي وأن يسلك الطريق المستقيم ثم تركها بعد أن عرفها، وزهد فيها بعد أن سلكها عوقب بإبعاده في طريق الضلالة الذي ارتضاه لنفسه وترك به طريق الهدىٰ.

فالاهتداء غير ممكن في حقه ما دام سادرًا في طريق غوايته ممعنًا في سبيل ضلالته.

جزاء علىٰ فعله، كقوله في اليهود في سورة البقرة: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾[البقرة] فإنهم لما تركوا اتباع كتب الله المنزلة من عنده لهداية العباد، وإصلاح



كل شئونهم وإسعادهم، وهي خير ما يشتغل به العاقل الناصح لنفسه وأنفعها وأصدقها، ابتلوا باتباع أرذلها وأخسئها وأضرها للعقول، وأفتكها في إفساد المجتمع، ولما ترك المحاربون لله ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن، ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان.



القاعدة الخامسة والثلاثون:

تقديم أعلى المصلحتين وأهون المفسدتين في القرآن عدة آيات في الحث على أعلى المصلحتين وتقديم أهون المفسدتين، ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته

وهذه قاعدة جليلة نبه الله عليها في آيات كثيرة:

فمن الأول: المفاضلة بين الأعمال وتقديم الأعلىٰ منها كقوله في سورة الحديد: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾[الحديد:١٠] وقوله في سورة التوبة: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة:١٩] وكقوله في سورة النساء: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ﴾[النساء:٩٥].

ومن الثاني: قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾[البقرة:٢١٧] بين تعالىٰ أن ما نقمه الكفار علىٰ المسلمين من قتال في الشهر الحرام ـ أنه وإن كان مفسدة ـ فما أنتم عليه من الصد عن سبيل الله والكفر به وبسبيل هداه وبالمسجد الحرام وصدكم عنه، وإخراج أهله منه أكبرُ عند الله، وفتنتكم المؤمنين بشديد الأذىٰ محاولين إرجاعهم إلىٰ الشرك أكبرُ من القتال في الشهر الحرام.

وقوله في سورة الفتح: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ﴾[الفتح:٢٥] فكف الله المؤمنين عن القتال في المسجد الحرام في صلح الحديبية مع وجود المقتضىٰ من الكفار اتقاء للمفسدة المترتبة علىٰ ذلك من إصابة المؤمنين والمؤمنات المستضعفين الذين حبسهم المشركون بمكة عن الهجرة بأنواع من الأذىٰ أو القتل، ما يكون سببًا في لحوق المعرة بجيش المؤمنين.

وكذلك جميع ما جرىٰ في صلح الحديبية من هذا الباب من التزام تلك الشروط التي



ظاهرها الضرر على المسلمين، ولكن تبين لهم بعد أنها عين المصلحة لهم والفتح المبين.

ومن هذا: أمره بكف الأيدي عن القتال قبل أن يهاجر الرسول إلى المدينة، لأن الأمر بالقتال في ذلك الوقت أعظم ضررًا من الصبر والإخلاد إلى السكينة، مع متابعة تبليغ الرسالة وإقامة الحجة والجهاد الكبير بالقرآن.

ولعل من هذا مفهوم قوله في سورة الأعلى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾[الأعلى] يعني فإن ضرت فترك التذكير الموجب للضرر الكثير هو المتعين والآيات في هذا النوع كثيرة جدًا.

ومن النوع الثالث: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾[البقرة:٢١٩].

وهذا كالتعليل العام أن كل ما كانت مضرته وإثمه أكبر من نفعه، فإن رحمة الله وحكمته لابد أن تقتضي المنع منه وتحريمه على عباده.

وهذا الأصل العظيم كما أنه ثابت شرعًا فإنه هو المعقول بين الناس المفطورون على استحسانه، والعمل به في الأمور الدينية والدنيوية، والله أعلم.



القاعدة السادسة والثلاثون:

مقابلة المعتدي بمثل عدوانه طريقة القرآن: إباحة الاقتصاص من المعتدي ومقابلته بمثل عدوانه، والنهي عن ظلمه، والندب إلى العفو عنه والإحسان

وهذا في آيات كثيرة، كقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾[النحل] وقوله في سورة الشورى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾[الشورى] فذكر المراتب الثلاثة ولما كان القتال في المسجد الحرام محرمًا قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٢



وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ [البقرة] وهو كل ما حرم الله وأمر باحترامه.

فمن انتهكه فقد أباح الله الاقتصاص منه، بقدر ما اعتدىٰ به لا أكثر وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[البقرة:١٩٤] وقوله في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾[البقرة:١٧٨] وقوله في سورة المائدة: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾[المائدة:٤٥] وقوله في سورة الإسراء: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣﴾[الإسراء] وقوله في سورة النساء: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨﴾[النساء] والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، والله أعلم.



القاعدة السابعة والثلاثون:

اعتبار المقاصد في ترتيب الأحكام اعتبر الله القصد والإرادة في ترتيب الأحكام على أعمال العباد

وهذا الأصل العظيم: صرح به النبي ﷺ في قوله: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**». متفق عليه.

والمقصود هنا: أنه ورد آيات كثيرة جدًا في هذا الأصل فمنها ـ وهو أعظمها ـ أنه رتب حصول الآجر العظيم علىٰ الأعمال بإرادة وجهه تعالىٰ، لما ذكر الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس، قال في سورة النساء: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾[النساء] وقال في سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٦٥] وفي مقابله قال: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:٢٦٤].

ووصف الله نبيه وخيار خلقه من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ومن تبعهم بأنهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانا وقال في الرجعة في سورة البقرة: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ﴾[البقرة:٢٢٨] وقال في سورة البقرة: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾[البقرة:٢٢٥].

وقال في سورة النساء: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾[النساء:١٢] وقال



في سورة النساء: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾[النساء] وفي سورة البقرة: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[البقرة:١٨٨] وفي سورة البقرة: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ ﴾[البقرة:٢٢٠] وفي دعاء المؤمنين في سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ ﴾[البقرة:٢٨٦] فقال الله: «**قَدْ فَعَلْتُ**»، وقال في سورة الأحزاب: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ ﴾ [الأحزاب:٥].

وذكر الله قتل الخطأ ورتب عليه الدية والكفارة، ثم قال في سورة النساء: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[النساء] وقال في جزاء الصيد في سورة المائدة: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ الآية [المائدة:٩٥] وقال في سورة البقرة: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ ﴾[البقرة:٢٣٥] إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ أن أعمال الأبدان وأقوال اللسان، وصحتها وفسادها، ورتب أجرها أو وزرها: بحسب ما قام بالقلب من القصد والنية.



القاعدة الثامنة والثلاثون:

قد دلت آيات كثيرة على جبر المنكسر قلبه، ومن تشوفت نفسه لأمر من الأمور إيجابًا أو استحبابًا

وهذه قاعدة لطيفة، اعتبرها الباري وأرشد عباده إليها في عدة آيات.

منها: المُطلَّقة: فإنها لما كانت في الغالب منكسرة القلب حزينة علىٰ فراق بعلها، أمر الله بتمتعها علىٰ الموسع قدره وعلىٰ المقتر قدره، متاعًا بالمعروف.

وكذلك من مات زوجها عنها: فإن من تمام جبر خاطرها: أن تمكث عند أهله سنة كاملة وصية ومتعة مرغّب فيها.

وكذلك أوجب الله للزوجة علىٰ الزوج النفقة والكسوة في مدة العدة، إن كانت رجعية، أو كانت حاملًا مطلقة.

وقال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾[النساء] ويدخل الواجب والمستحب في مثل



قوله في سورة الأنعام: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[الأنعام:١٤١].

وكذلك إخباره عن عقوبة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين، وتواصوا ألا يدخلنها اليوم عليهم مسكين.

وقال تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[الإسراء] إلىٰ قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾[الإسراء:٢٦].

وقد ذكر الله جبره لقلوب أنبيائه وأصفيائه أوقات الشدائد وإجابته لأدعيتهم بتفريج الكربات أوقات الحاجات والضرورات وأمر عباده بانتظار الفرج عند الأزمات.

فهذا أصل قد اعتبره الله، وأرشد إليه فينبغي للعبد أن يكون هذا علىٰ باله في وقت المناسبات ويعتبره عند وجود سببه.



القاعدة التاسعة والثلاثون:

في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية

طريقة القرآن في هذا أعلىٰ طريقة، وأقرب إلىٰ حصول جميع المصالح الكلية، وإلىٰ دفع المفاسد، ولو لم يكن في القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران١٥٩] وإخباره عن المؤمنين في سورة الشورىٰ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورىٰ٣٨] فالأمر مفرد ومضاف إلىٰ المؤمنين، وفي الآية الأولىٰ: قد دخلت عليه: «ال»، المفيدة للعموم والاستغراق، يعني أن جميع أمور المؤمنين وشئونهم واستجلاب مصالحهم واستدفاع مضارهم، معلقٌ بالشورىٰ والتعاون علىٰ الاهتداء إلىٰ الأمر الذي يجرون عليه في حل مشكلاتهم، وتدعيم سلطانهم وتجنيبهم الخلاف المفضي إلىٰ تفكك قواهم وانحلال عراهم.

وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورىٰ.

فالمسلمون قد أرشدهم الله إلىٰ أن يهتدوا إلىٰ مصالحهم وكيفية الوصول إليها بأعمال أفكارهم مجتمعة، فإذا تعينت المصلحة في طريق سلكوه، وإذا تعينت المضرة في طريق تركوه، وإذا كان في ذلك مصلحة ومضرة، نظروا: أيها أقوىٰ وأولىٰ وأحسن عاقبة، وإذا رأوا



أمرًا من الأمور هو المصلحة، ولكن ليست أسبابه عتيدة عندهم ولا لهم قدرة عليها نظروا بأي شيء تدرك الأسباب وبأي حالة تنال علىٰ وجه لا يضر سلوكها.

وإذا رأوا مصالحهم تتوقف علىٰ الاستعداد بالفنون الحديثة والاختراعات الباهرة، سعوا لذلك بحسب اقتدارهم، ولم يملكهم اليأس والاتكال علىٰ غيرهم الملقي إلىٰ التهلكة، وإذا عرفوا ـ وقد عرفوا ـ أن السعي لاتفاق الكلمة وتوحيد الأمة هو الطريق الأقوم للقوة المعنوية جدوا في هذا واجتهدوا، وإذا رأوا المصلحة في المقاومة والمهاجمة أو في المسالمة والمدافعة بحسب الإمكان، سلكوا ما تعينت مصلحته فيقدمون في موضع الإقدام، ويحجمون في موضع الإحجام، وبالجملة لا يدعون مصلحة داخلية ولا خارجية، دقيقة ولا جليلة إلا تشاوروا فيها، وفي طريق تحصيلها وتنميتها، ودفع ما يضادها وينقصها.

فهذا النظام العجيب الذي أرشدهم إليه القرآن: هو النظام الذي يصلح لكل زمان ومكان، ولكل أمة ومن ذلك قوله في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[الأنفال:٦٠] فهذه الآية تصرح بوجوب الاستعداد للأعداء بكل ما نستطيعه من قوة عقلية، ومعنوية ومادية، مما لا يمكن حصر أفراده، وفي كل وقت يتعين سلوك ما يلائم ذلك الوقت ويناسبه ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء:٧١] ونحوها من الآيات التي أرشد الله فيها إلىٰ شدة التحرز من الأعداء، فكل طريق وسبب يتحرز به من الأعداء فإنه داخل في هذا، ولكل وقت لبوسه، وأن نكون منهم أبدا علىٰ حذر في وقت السلم فضلا عن وقت الحرب وأن تكون لنا العيون والأرصاد عليهم لنعلم كل حركاتهم الحربية والعلمية لنأخذ السبيل عليهم ونسبقهم حتىٰ لا يكون لهم من ضعفنا وجهلنا فرصة تمكنهم منا وألا نمكنهم من الاطلاع علىٰ أسرارنا الحربية ولا علىٰ مواردنا الاقتصادية فضلا عن تمكينهم منها وفضلا عن أن نكون عالة عليهم فيها فكل ذلك وغيره داخل تحت قوله: خذوا حذركم ومن عجيب ما نبه إليه القرآن من النظام الوحيد، أن الله عاتب المؤمنين بقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾[آل عمران:١٤٤] فأرشد عباده إلىٰ أنه ينبغي أن يكونوا بحالة من الحكمة واستقامة الأمور علىٰ طريقها، بحيث لا يزعزعهم عنها فَقْدُ رئيس وإن عظم.



وما يكون ذلك إلا بأن يستعدوا لكل أمر من أمورهم الدينية والدنيوية بعدة أناس، إذا فقد أحدهم قام مقامه غيره، وأن تكون الأمة متوحدة في إرادتها وعزمها ومقاصدها وجميع شئونها قصدهم جميعًا أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تكون أمتهم ذات شوكة يرهبها العدو فلا يستطيع أن يغتصبها بعض حقوقها المادية في أرضها ومنافعها ولا بعض حقوقها في سيادتها وحريتها وأن تقوم جميع الأمور بحسب قدرتهم وقواهم التي أنعم الله بها عليهم ومكنهم بها من المحافظة التامة علىٰ حقوقهم في هذا الوجود مؤمنين أوثق الإيمان أن الله ما استخلفهم في الأرض إلا لإصلاحها باستثمار خيراتها واستخراج دفائنها وكنوزها وتنمية قواهم وطاقاتهم الإنسانية بالعلم والفنون والصناعات مؤمنين أنه يبغض منهم أشد البغض أن يكونوا ضعفاء أذلة عالة علىٰ غيرهم فإن سنة الله في هذا الوجود أن الحياة العزيزة لا تكون إلا لمن أكرم نفسه وأعزها بحيث يكون الموت أحب إليه من أن يعيش آلاف السنين مهينا ذليلا لا يعرفه الوجود إلا تابعا قد تلاشت شخصيته وانماع في متبوعه ولقد خلق الله من العرب الضعفاء القليلين خير أمة أخرجت للناس في كل معان الحياة العزيزة الكريمة حين فهموا هذا القرآن علىٰ وجهه الصحيح وآمنوا به واهتدوا بهداه وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[التغابن:١٦] أي: اتقوا الله واحذروا شديد غضبه وعقابه بالقيام بما أمر به من كل ما فيه الخير والصلاح لكم جماعة ومنفردين، بكل جهدكم وبكل ما أعطاكم من طاقة وقوىٰ، فإن هذا هو حق تقواه وأن يبذل العبد كل ما في وسعه وليست ناسخة لآية آل عمران بل هي مفسرة لها فكل مصلحة أمر الله بها وهي متوقفة في حصولها أو في كمالها علىٰ أمر من الأمور السابقة واللاحقة، فإنه يجب تحصيلها بحسب الاستطاعة فلا يكلفهم الله ما لا يطيقون وكذلك كل مفسدة ومضرة لا يمكن اجتنابها إلا بسلوك بعض الطرق السابقة واللاحقة فإنها داخلة في تقوىٰ الله تعالىٰ، وذلك بأسبابها، لازم الحق حق، والوسائل لها أحكام المقاصد.

كذلك كل ما نهاهم عنه، فإنه أعطاهم من القوىٰ والأسباب ما يمكنهم من البعد عنه ومن الحلال ما يستغنون به. ومن الآيات الجامعة في السياسة قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾[النساء] والآية التي بعدها.



فالأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة، من أجَلّها: الولايات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة، الدينية والدنيوية فقد أمر الله أن تؤدىٰ الأمانات إلىٰ أهلها بأن يجعل فيها الأكفاء لها، وكل ولاية لها أكفاء مخصوصون فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات من أصلح الطرق لصلاح جميع الأحوال، فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها والمدبرين لها والعاملين عليها، فيجب تولية الأمثل فالأمثل: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص].

ولن يتم ذلك للأمة علىٰ ما أرشد الله وأمر إلا بأن يشعر كل واحد بلواجب عليه لنفسه ومالها وماعليها من الأمانات والواجبات عليه لأبنائه وزوجه وخدمه ومواليه وبهائمه وأرضه ومتجره وكل شيء وضعه الله تحت يده واسترعاه إياه ويقدر المسئولية أمام الله سبحانه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[الشعراء] فيقوم بكل ما في مكنته وجهده لهذا الواجب غير متوان ولا متواكل فعندئذ -فقط- تكون الأمة صالحة في أفرادها وأسرها وحكامها وأمرائها فصلاح المتولين للولايات الكبرىٰ والصغرىٰ عنوان صلاح الأمة وضده بضده.

وأصدق البراهين علىٰ ذلك قول الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد:١١] فهل آن للذين يتجنون بالشكوىٰ من ولاة أمورهم أن يعقلوا عن الله سننه وحكمته فيعلموا أن الواجب عليه فيما استرعاه الله من الرعية وخيانته لما استأمنه الله من آمانات وأن الولاة إنما هم من أفراد الأمة والصورة المصغرة التي تمثل الأمة وتصورها ولكن أكثر الناس لا يعقلون ثم أرشدهم الله إلىٰ الحكم بين الناس بالعدل الذي ما قامت السماوات والأرض إلا به، فالعدل قوام الأمور وروحها، وبفقده تفسد الأمور كلها ويختل الميزان لكل شيء.

والحكم بالعدل من لازمه معرفة حقيقة العدل في كل أمر من الأمور، فإن فهمت الأمة حقيقة العدل وعرفت حدوده وضعت كل شيء في موضعه، وكان المتولون للولايات هم الكمل من الرجال والأكفاء للأعمال فَجَرَتْ تدابيرهم وأفعالهم علىٰ العدل والسداد، متجنبين للظلم والفساد، ترقت الأمة وصَلَحت أحوالها، وتمام ذلك في الآية الأخرىٰ التي أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ



مِنكُمْ﴾[النساء:٥٩] فهل يوجد أكمل وأغنىٰ من هذه السياسة الحكيمة الرشيدة التي عواقبها أحمد العواقب؟

ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية: جميع الآيات التي شرع الله فيها الحدود علىٰ الجرائم، العقوبات علىٰ المتجرئين علىٰ حقوقه وحقوق عباده وهي في غاية العدالة والحسن وردع المجرمين والنكال والتخويف لأهل الشر والفساد، وتطهير المجتمع من فسادهم، وتنقيته من جرائمهم صيانة لدماء الخلق وأموالهم وأعراضهم.

والآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتكلم بالحق مع من كان وفي أي حال من الأحوال.

وكذلك ما فيها من النهي عن الظلم فيه إرشاد لإعطاء الناس الحرية النافعة التي معناها التكلم بالحق، والدعوة إلىٰ الصالح للأمة، وفي الأمور التي لا محظور فيها، كما أن الحدود والعقوبات والنهي عن الكلام القبيح والفعل القبيح فيها رد الحرية الزائفة الكاذبة الباطلة التي يتشدق بها الحمقىٰ والسفهاء الذي عموا وصموا، فلا يرون ما حل بأمم الغرب من الدمار من ثمرات هذه الحرية الفاجرة الخاسرة إن ميزان الحرية الصحيحة النافعة هو ما أرشد إليه القرآن والنبي ﷺ.

وأما إطلاق عِنان الجهل والظلم والأقوال الضارة للمجتمع المحللة للأخلاق، فإن من أكبر أسباب الشر والفساد، المؤدية إلىٰ الفوضىٰ المحضة وانحلال الأخلاق التي هي قوام كل أمة.

فنتائج الحرية الصحيحة أحسن النتائج، ونتائج الحرية الفاسدة أقبح النتائج، فالشارع فتح الباب للأولىٰ، وأغلقه عن الثانية، تحصيلًا للمصالح ودفعًا للمضار والمفاسد، والله أعلم.

القاعدة الأربعون:

في دلالة القرآن على أصول الطب

أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحمية عن الأمور الضارة، ودفع ما يعرض للبدن من المؤذيات.

ومسائل الطب كلها تدور علىٰ هذه القواعد.



وقد نبه القرآن عليها في قوله تعالىٰ في حفظ الصحة ودفع المؤذي: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾[لأعراف:٣١] فأمر الله بالأكل والشرب اللذي لا تستقيم الأبدان إلا بهما، وأطلق ذلك ليدل علىٰ أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الإنسان، وينفعه في كل وقت وحال. ونهىٰ عن الإسراف في ذلك، إما بالزيادة في كثرة المأكولات والمشروبات، وإما بالتخليط في المطعوم والأوقات، وهذا حمية عن كل ما يؤذي الإنسان. فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب يصير بحالة يتأذىٰ منه البدن ويتضرر منع منه، فكيف بغيره؟

وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره، حمية له عن المضرات كلها.

وأباح للمحرم الذي به أذىٰ من رأسه أن يحلقه ويفدي، وهذا من باب الاستفراغ وإزالة ما يؤذي البدن، فكيف بما ضرره أكبر من هذا؟

ونهىٰ عن الإلقاء باليد إلىٰ التهلكة، فيدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية، ودفع ما يضر بمدافعته الذي لم يقع، والتحرز عنه وبمعالجة الحادث بالطرق الطبية النافعة.

وكذلك ما ذكره الله في كتابه من الأعمال كلها كالجهاد والصلاة والصوم والحج وبقية الأعمال والإحسان إلىٰ الخلق فإنها وإن كان المقصود الأعظم منها نيل رضا الله وقربه وثوابه، والإحسان إلىٰ عبيده، فإن فيها صحة للأبدان وتمرينًا لها، ورياضة وراحة للنفس، وفرحًا للقلب وأسرارًا خاصة تحفظ الصحة وتنميها وتزيل عنها المؤذيات.

وبالجملة فإن جميع الشرائع ترجع إلىٰ صلاح القلوب والأرواح والأخلاق والأبدان والأموال والدنيا والآخرة، والله أعلم.



القاعدة الحادية والأربعون:

يرشد الله عباده في كتابه من جهة العمل إلى قصر نظرهم على الحالة الحاضرة التي هم فيها، ومن جهة الترغيب في الأمر والترهيب من ضده إلى ما يترتب عليها من المصالح، ومن جهة النعم إلى النظر إلى ضدها



وهذه القاعدة الجليلة دعا إليها القرآن في آيات عديدة، وهي من أعظم ما يدل علىٰ حكمة الله، ومن أعظم ما يرقي العاملين إلىٰ كل خير ديني ودنيوي، فإن العامل إذا كان مشتغلا بعمله الذي هو وظيفة وقته، فإن قصر فِكره وظاهره وباطنه عليه نجح، ويتم له الأمر بحسب حاله.

وإن نظر وتشوقت نفسه إلىٰ أعمال أخرىٰ لم يحن وقتها بعدُ شغل بها ثم استبعد فترت عزيمته، وانحلت همته وصار نظره إلىٰ الأعمال الأخرىٰ كليلا ينقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمة عليه.

ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته وقل نشاطه، وربما كان الثاني متوقفًا علىٰ الأول في حصوله أو تكميله، فيفوت الأول والثاني، بخلاف من جمع قلبه وقالبه، وصار أكبر همه هو القيام بعمله الذي هو وظيفة وقته؛ فإنه إذا جاء العمل الثاني فإذا هو قد استعد له بقوة ونشاط وتلقاه بشوق، وصار قيامه بالأول معونة علىٰ قيامه بالثاني.

ومن هذا قوله تعالىٰ مصرحًا بهذا المعنىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧].

فانظر كيف حالهم الأولىٰ وأمنيتهم وهم مأمورون بكف الأيدي، فلما لم يقبلوا موعضة الله فلما جاءهم العمل الثاني ضعفوا كل الضعف عنه.

ونظير هذا ما عاتب الله به أهل أُحد في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[آل عمران] وقد كشف هذا المعنىٰ كل الكشف قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾[النساء] لأن فيه تكميلًا للعمل الأول، وتثبيتًا من الله، وتمرنًا علىٰ العمل الثاني.

ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾[التوبة] فالله أرشد العباد أن يكونوا أبناء وقتهم، وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته، ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت، فاجتمعت الهمة والعزيمة



الصادقة عليه، وصار القيام بالعمل الأول معينًا علىٰ الثاني، وهذا المعنىٰ في القرآن كثير.

وأما الأمور المتأخرة فإن الله يرشد العاملين إلىٰ ملاحظتها لتقوىٰ هممهم علىٰ العمل المثمر للمصالح والخيرات. وهذا كالترغيب المتنوع من الله علىٰ أعمال الخير، والترهيب من أفعال الشر، بذكر عقوباتها، وثمرتها الذميمة.

فاعرف الفرق بين النظر إلىٰ العمل الآخر الذي لم يجئ وقته، وبين النظر إلىٰ ثواب العمل الحاضر الذي كلما فترت همة صاحبه، زاد وهنا وضعفا وكلما اتسع أمله فيما يترتب عليه من الخيرات استجد نشاطه، وقوي عليه وهانت عليه مشقته، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[النساء:١٠٤].

وأما إرشاده من جهة النعم التي علىٰ العبد مِنَ الله بالنظر إلىٰ ضدها ليعرف قدرها، ويزداد شكره لله تعالىٰ عليها، ففي القرآن منه كثير، يُذكِّر عباده نعمته عليهم بالدين والإسلام وما ترتب علىٰ ذلك من النعم، كقوله في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران] وفي قوله في سورة آل عمران: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[آل عمران] أي تهتدون إلىٰ الزيادة من هذه الأسباب والنعم.

وقوله في سورة الأنفال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[الأنفال].

وقوله في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[القصص:٧٢] إلىٰ آخر الآيات، حيث يذكرهم أن ينظروا إلىٰ ضد ما هم فيه من النعم والخير، ليعرفوا قدر ما هم فيه منها.

وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ، حيث قال: «**انْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ



ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[الأعراف] وقوله: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[الضحىٰ] إلىٰ آخرها.



القاعدة الثانية والأربعون:

في أن الله قد ميز في كتابه بين حقه الخاص وحق رسوله الخاص والحق المشترك

واعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة:

حق لله وحده، لا يكون لغيره: وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات.

وحق لرسوله ﷺ خاص: وهو التعزير والتوقير والقيام بحقه اللائق واتباعه والاقتداء به.

وحق مشترك: وهو الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله ومحبة الله ومحبة رسوله.

وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن، فأما حقه الخاص: فكل آية فيها الأمر بعبادته وإخلاص العمل له، والترغيب في ذلك، وهذا شيء لا يحصىٰ.

وقد جمع الله ذلك في قوله في سورة الفتح: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، فهذا مشترك ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾، فهذا خاص بالرسول ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[الفتح] فهذا حق لله وحده. وقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[النساء:٥٩] في آيات كثيرة وكذلك: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[النساء:١٣٦].

وكذلك قوله في سورة التوبة: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ ﴾[التوبة:٦٢] وقوله تعالىٰ: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ فهذا مشترك ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[التوبة] هذا مختص بالله تعالىٰ.

ولكن ينبغي أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه أن ما لله منه يثبت لرسوله مثله ونظيره في كل خصائصه، بل المحبة والإيمان بالله والطاعة لله لابد أن يصحبها التعبد، والتعظيم لله، والخضوع رغبة، ورهبة.

وأما المتعلق بالرسول من ذلك: فإنه حب في الله، وطاعة لله فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، بل حق الرسول علىٰ أمته من حق الله تعالىٰ عليهم، فيقوم المؤمن بحق رسوله وطاعته امتثالًا لأمر الله، وعبودية له.



وإنما قيل له حق الرسول، لتعلقه بالرسول، وإلا فجميع ما أمر الله به وحث عليه من القيام بحقوق رسوله، وحقوق الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب والجيران والعلماء والولاة والأمراء، والكبير علىٰ الصغير والصغير علىٰ الكبير وغيرهم، كله حق لله تعالىٰ، فيقوم به العبد امتثالا لأمر الله وتعبدًا له، وقيامًا بحق ذي الحق، وإحسانًا إليه، إلا الرسول فإن الإحسان منه كله إلىٰ أمته فما وصل إليهم خير إلا علىٰ يديه ﷺ تسليمًا.



القاعدة الثالثة والأربعون:

يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يخشى من سوء عواقبها، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يخشى فواتها

وهذه القاعدة في القرآن كثيرة:

قال تعالىٰ في القسم الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤] الآية وفي قراءة: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾[الحجرات:٦].

وقد عاب الله المتسرعين إلىٰ إذاعة الأخبار التي يخشىٰ من إذاعتها وأن ذلك من اتباع خطوات الشيطان، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾[النساء:٨٣] وقال تعالىٰ: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾[يونس:٣٩] **ومن هذا الباب**: الأمر بالمشاورة في الأمور، وأخذ الحذر، وأن لا يقول الإنسان ما ليس له به علم، وفي هذا آيات كثيرة.

وأما القسم الثاني: كقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[آل عمران:١٣٣] وقوله: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[البقرة:١٤٨] وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾[المؤمنون] وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾[الواقعة] أي: **السابقون في الدنيا إلىٰ الخيرات**: هم السابقون في الآخرة إلىٰ الجنات والكرامات والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

وهذا الكمال الذي أرشد الله عباده إليه، هو أن يكونوا حازمين لا يفوتون فرص الخيرات، وأن يكونوا متثبتين خشية الوقوع في المكروهات والمضرّات.



﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[المائدة].



القاعدة الرابعة والأربعون:

عند ميل النفوس أو خوف ميلها إلى ما لا ينبغي، يذكرها الله ما يفوتها من الخير، وما حصل لها من الضرر بهذا الميل

وهذا في القرآن كثير، وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة، لأن الأمر بالمعروف والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفهم عما لا ينبغي، حتىٰ يقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات التي تزيد ثمراتها الطيبة أضعافًا مضاعفة علىٰ الذي يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتب عليه كذلك.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[الأنفال:٢٨] فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن طريق الاستقامة، قال مذكرًا لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلموا من فتنتها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال].

وقال تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾[النساء] وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورىٰ] وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء].

والآيات في هذا المعنىٰ الجليل كثيرة جدًا فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كل ما يرد منها علىٰ الأصل المقرر، والله أعلم.



القاعدة الخامسة والأربعون:

حث الباري سبحانه في كتابه على الصلاح والإصلاح



هذه القاعدة من أهم القواعد، فإن القرآن يكاد يكون كله داخلًا تحتها فإن الله أمر بالصلاح في آيات متعددة والإصلاح، وأثنىٰ علىٰ الصالحين والمصلحين في آيات أخر.

والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة آخذة سبيلها الذي سنه الله مقصودًا بها غايتها الحميدة، التي قصد الله إليها فأمر الله بالأعمال الصالحة وأثنىٰ علىٰ الصالحين في آيات أخر، لأن أعمال الخير تصلح القلوب والإيمان، وتصلح الدين والدنيا والآخرة، وضدها فساد هذه الأشياء، وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء علىٰ المصلحين لما أفسد الناس، والمصلحين بين الناس والتصالح فيما بين المتنازعين، وأخبر علىٰ وجه العموم أن الصلح خير.

فإصلاح الأمور الفاسدة: السعي في إزالة ما تحتوي عليه من الشرور والضرر العام والخاص.

ومن أهم أنواع الإصلاح: السعي في إصلاح أحوال المسلمين في إصلاح دينهم ودنياهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾[هود:٨٨] فكل ساعٍ في مصلحة دينية أو دنيوية، فإنه مصلح، والله يهديه ويرشده ويسدده، وكل ساعٍ بضد ذلك فهو مفسد، والله لا يصلح عمل المفسدين.

ومن أهم ما حث الله عليه: السعي في الصلح بين المتنازعين، كما أمر الله بذلك في الدماء والأموال والحقوق المتنازع بين الزوجين، والواجب أن يصلح بالعدل، ويسلك كل طريق توصل إلىٰ الملائمة بين المتنازعين، فإن آثار الصلح بركة وخير وصلاح، حتىٰ إن الله أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحربيون إلىٰ المسالمة والمصالحة أن يوافقوهم علىٰ ذلك متوكلين علىٰ الله.

وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر، **وحقيقتها**: السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح، أو تكميلها، أو إزالة المفاسد والمضار، أو تقليلها: الكلية منها والجزئية، والمتعدية والقاصرة، والله أعلم.



القاعدة السادسة والأربعون:

ما أمر الله به في كتابه إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه فهذا أمر له بالدخول فيه، وإما أن يوجه لمن دخل فيه فهذا أمره به ليصحح ما وجد منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد فيه

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية: أصولها وفروعها؛ فقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا﴾[النساء:٤٧] من القسم الأول.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[النساء:١٣٦] من الثاني والثالث، فإنه أمرهم بما يصحح ويكمل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكمال الإخلاص فيها، ونهاهم عما يفسدها وينقصها.

وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويصوموا رمضان أمر بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل، والنهي عن كل مفسد وناقص لذلك العمل.

وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب هو أمر بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه.

وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يورد علىٰ طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، والله قد هداهم للإسلام.

جوابه: ما تضمنته هذه القاعدة.

ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل، فافهم هذا الأصل الجليل النافع، الذي يفتح لك من أبواب العلم كنوزًا، وهو في غاية اليسر والوضوح لمن تفطن.

القاعدة السابعة والأربعون:

إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها وذلك الحكم لا يختص بها، بل يشملها ويشمل غيرها، جاء الله بالحكم العام

وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل علىٰ إحكامه وانتظامه العجيب.

وأمثلة هذه القاعدة كثيرة:

منها: لما ذكر الله المنافقين وذمهم، واستثنىٰ منهم التائبين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾[النساء:١٤٦]، فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، بل قال: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ



ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾، ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن، ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم.

ولما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء:١٥٠] إلىٰ قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء] لم يقل: وأعتدنا لهم، للحكمة التي ذكرناها، ومثله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ [الأنعام:٦٤] أي: هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾[الأنعام:٦٤].



القاعدة الثامنة والأربعون:

متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها، كان المراد بذلك العلم الذي يترتب عليه الجزاء

وذلك أنه قد تقرر في الكتاب والسنة والإجماع أن الله بكل شيء عليم، وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي، والظواهر والبواطن والجليات والخفيات والماضي والمستقبل، وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا الأعمال.

وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع وقدر كذا؛ ليعلم كذا.

فوجه هذا: أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء. وأما علمه بأعمال العباد وما هم عاملون قبل أن يعملوا، فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء، لأنه إنما يجازي علىٰ ما وجد من الأعمال.

وعلىٰ هذا الأصل نزل ما يرد عليك من الآيات كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾[المائدة:٩٤] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ﴾[البقرة:١٤٣] وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾ [الحديد:٢٥] وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾[العنكبوت] وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾[الكهف].

وما أشبه هذه الآيات كلها علىٰ هذا الأصل.



القاعدة التاسعة والأربعون:



إذا منع الله عباده المؤمنين شيئًا تتعلق به إرادتهم، فتح لهم بابًا أنفع لهم منه وأسهل وأولى

وهذا من لطفه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾[النساء:٣٢] فنهاهم عن تمني ما ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان المقال وبلسان الحال.

ولما سأل موسىٰ ﷺ ربَّه الرؤية حين سمع كلامه، ومنعه منها، وبلسان المقال سلّاه بما أعطاه من الخير العظيم، فقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾[الأعراف] وقوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾[البقرة:١٠٦] وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾[النساء:١٣٠] وفي هذا المعنىٰ آيات كثيرة.

القاعدة الخمسون:

آيات الرسول: هي التي يبديها الباري ويبتديها، وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه، فليست آيات وإنما هي تعنتات وتعجيزات

وبهذا يعرف الفرق بينها وبين الآيات: وهي البراهين والأدلة علىٰ صدق الرسول وغيره من الرسل، وعلىٰ صدق كل خبر أخبر الله به، وأنها الأدلة والبراهين التي يلزم من فهمها علىٰ وجهها صدق ما دلت عليه ويقينه.

وبهذا المعنىٰ الحديث: «**مَا أَرْسَلَ اللهُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا أَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَىٰ مِثْلِهِ آمَنَ الْبَشَرُ**»، وأما ما آتىٰ الله محمدًا ﷺ من الآيات فهي لا تحد ولا تعد من كثرتها وقوتها ووضوحها ـ ولله الحمد ـ فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر.

فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعينونها ليست من هذا القبيل، وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطنوا أنفسهم علىٰ دينهم الباطل وعدم اتباع النبي ﷺ.

فلما دعاهم إلىٰ الإيمان وأراهم شواهد الآيات أرادوا أن يبرروا ما هم عليه عند الأغمار والسفهاء، بقولهم: ائتنا بالآية الفلانية والآية الفلانية إن كنت صادقًا، وإن لم تأت بذلك فإننا لا نصدقك، فهذه طريقة لا يرتضيها أدنىٰ منصف، ولهذا يخبر تعالىٰ أنه لو أجابهم إلىٰ ما طالبوا لم يؤمنوا لأنهم وطنوا أنفسهم علىٰ الرضا بدينهم بعدما عرفوا الحق ورفضوه.



وأيضًا فهذا من جهلهم في الحال والمآل:

أما الحال: فإن هذه الآيات التي يقترحونها جرت العادة أن المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق، فإذا جاءت ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقوبة الحاضرة.

وأما المآل: فإنهم جزموا جزمًا لا تردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا وهذا قلب للحقائق، وإخبار بغير الذي في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية اقترحوها لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله تعالىٰ.

وهذا النوع ذكره الله في كتابه عن المكذبين في آيات كثيرة جدًا، كقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾[الإسراء] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾[الأنعام:١١١] إلىٰ آخرها.

وأيضًا فإن اقتراحهم هذا ينادي صريحًا بأنهم ينسبون إلىٰ الله العجز والعبث، إذ أنه أرسل رسولًا لم يؤيده بالآيات الكافية في الدلالة علىٰ صدقه، ولم يعطه من البراهين والحجج ما يبطل دعاوىٰ خصمه.

وهذا ينافي الحكمة، ولا يتفق مع الغرض الذي من أجله أرسل الله رسوله.

وهذا أعظم كفرًا وإجرامًا وأشد من شركهم وفسوقهم، وما كان يتولىٰ كبره منهم إلا السادة والرؤساء الذين تبين لهم صدق الرسول بدون أي خفاء، ولكنهم يحاولون بذلك صرف العامة والدهماء عن الاستماع إليه والإصغاء إلىٰ قوله، ولذلك يدمغهم الله بمَيْسَم الخزي عقب كل تحدٍ واقتراحٍ لآية، بعد أن ينزه نفسه سبحانه عما ينتقصونه به.

ففي سورة الإسراء يقول عقب سرد ما اقترحوا من آيات: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾[الإسراء:٩٣] ثم يقول: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[الإسراء:٩٧].

ويقول في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ



أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[العنكبوت].

وأيضًا إذا تدبرت الاقتراحات التي عينوها لم تجدها في الحقيقة من جنس البراهين، وإنما هي ـ لو فرض الإتيان بها ـ شبيهة بآيات الاضطرار التي لا ينفع الإيمان معها، ويصير شهادة، وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب فكما أن الله المنفرد بالحكم بين العباد في أديانهم، وحقوقهم وأنه لا حكم إلا حكمه، وأنه من قال ينبغي أو يجب أن يكون الحكم كذا وكذا، فهو متجرئ علىٰ الله، متوثب علىٰ حرمات الله وأحكامه، فكذلك براهينُ أحكامه لا يتولاها إلا هو، فمن اقترح شيئًا من عنده فقد ادعىٰ مشاركة الرب في حكمه، ومنازعته في الطرق التي يهدي ويرشد بها عباده: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾[الأنعام:٩٣].



القاعدة الحادية والخمسون:

كلّما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء والنهي عن دعاء غير الله، والثناء على الداعين: يتناول دعاء المسألة، ودعاء العبادة

وهذه قاعدة نافعة، فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة: دعاء المسألة فقط، ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء.

ويدل علىٰ عموم ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[غافر:٦٠] أي أستجب طلبكم، وأتقبل عملكم ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[غافر] فسمىٰ ذلك عبادة، وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب مسئوله بلسان المقال، والعابد يطلب من ربه القبول والثواب، ومغفرة ذنوبه بلسان الحال.

فلو سألت أي عابد مؤمن: ما قصدك بصلاتك وصيامك وحجك وأدائك لحقوق الله وحق الخلق؟ لكان قلب المؤمن ناطقًا ـ قبل أن يجيبك لسانه -: بأن قصدي من ذلك رضىٰ ربي ونيل ثوابه والسلامة من عقابه، ولهذا كانت هذه النية شرطًا لصحة الأعمال وقبولها، وإثمارها الثمرة الطيبة في الدنيا والآخرة.

وقال تعالىٰ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[غافر:١٤] فوضع كلمة: ﴿ٱلدِّينَ﴾، موضع



كلمة «العبادة»، **وهو في القرآن كثير جدًا**: يدل علىٰ أن الدعاء هو لب الدين وروح العبادة.

ومعنىٰ الآية هنا: أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم، وأخلصوا له أعمال البر والطاعة.

وقد يقيد أحيانًا بدعاء الطلب، كقوله: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ ﴾[القمر] وأما قوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا ﴾[يونس:١٢] الآية، فيدخل فيه دعاء الطلب، فإنه لا يزال ملحًا بلسانه، سائلًا دفع ضرورته، ويدخل فيه دعاء العبادة فإن قلبه في هذه الحال يكون راجيًا طامعًا، منقطعًا عن غير الله، عالمًا أنه لا يكشف ما به من السوء إلا الله، وهذا دعاء عبادة.

وقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ ﴾[لأعراف:٥٥]، يدخل فيه الأمران، فكما أن من كمال دعاء الطلب، كثرة التضرع والإلحاح، وإظهار الفقر والمسكنة، وإخفاء ذلك وإخلاصه، فكذلك دعاء العبادة فإن العبادة لا تتم ولا تكتمل إلا بالمداومة عليها ومقارنة الخشوع والخضوع لها وإخفائها، وإخلاصها لله تعالىٰ.

وكذلك قوله عن خلاصة الرسل: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ ﴾[الأنبياء:٩٠] فإن الرغبة والرهبة وصف لهم كلما طلبوا وسألوا، ووصف لهم كلما تعبدوا وتقربوا بأعمال الخير والقرب.

وقوله: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ ﴾ [المؤمنون:١١٧] ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨ ﴾[الجن] ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ ﴾ [القصص: ٨٨] يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

فكما أن من طلب من غير الله حاجة لا يقدر عليها إلا الله فهو مشرك وكافر، فكذلك من عبد مع الله غيره فهو مشرك وكافر.

ومثله: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦ ﴾ [يونس] كل هذا يدخل فيه الأمران.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ﴾[الأعراف:١٨٠]، يشتمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

أما دعاء المسألة: فإنه يسأل الله تعالىٰ في كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب ويقتضيه، فمن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الغفور الرحيم ومن سأل الرزق سأله



باسم الرزاق، وهكذا.

وأما دعاء العبادة: فهو التعبد لله تعالىٰ بأسمائه الحسنىٰ، فيفهم أولًا معنىٰ ذلك الاسم الكريم، ثم يديم استحضاره بقلبه، حتىٰ يمتلئ قلبه منه.

فالأسماء الدالة علىٰ العظمة والجلال والكبرياء تملأ القلب تعظيمًا وإجلالًا لله تعالىٰ.

والأسماء الدالة علىٰ الرحمة والفضل والإحسان تملأ القلب طمعًا في فضل الله ورجاءً لروحه ورحمته.

والأسماء الدالة علىٰ الود والحب والكمال تملأ القلب محبة وودًا وتألهًا وإنابة لله تعالىٰ.

والأسماء الدالة علىٰ سعة علمه ولطيف خبره توجب للعبد مراقبة الله تعالىٰ والحياء منه.

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتىٰ تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية.

فنسأل الله تعالىٰ أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الجوادين.



القاعدة الثانية والخمسون:

إذا وضح الحق وبان، لم يبق للمعارضة العلمية، ولا العملية محل

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية، قد وردت في القرآن وأرشد إليها في مواضع كثيرة.

وذلك: أنه من المعلوم أن محل المعارضات وموضع الاستشكالات وموضع التوقفات ووقت المشاورات إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات فترد عليه هذه الأمور؛ لأنها الطريق إلىٰ البيان والتوضيح.

فأما إذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنىٰ واحدًا واضحًا، وقد تعينت المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارِضُ هنا لا يُلتفت إلىٰ اعتراضاته، لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات.



قال تعالىٰ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[البقرة:٢٥٦]، يعني وإذا تبين هـذا من هذا لم يبق للإكراه محل، لأن الإكراه إنما يكون علىٰ أمر فيه مصلحة خفية، فأما أمر قد اتضح أن مصالح وسعادة الدارين مربوطة ومتعلقة به، فأي داع للإكراه فيه؟

ونظيـــر هـــذا قولـــه تعـــالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف:٢٩] أي هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة علىٰ حقِّيَّته فمـن شـاء فليـؤمن ومن شاء فليكفر.

كقوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ ﴾[لأنفال:٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾[آل عمران:١٥٩]، أي: في الأمور التي تحتاج إلىٰ مشاورة، ويُطلب فيها وجه المصلحة، فأما أمر قد تعينت مصلحته، وظهر وجوبه فقال فيـه: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾[آل عمران:١٥٩].

وقد كشف الله هـذا المعنـىٰ غايـة الكشـف، في قولـه: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ [الأنفال:٦] أي فكل من حاول في الحق بعد ما تبين علمه، أو طريق عمله، فإنه غالط شرعًا وعقلًا.

وقـال تعـالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [الأنعام:١١٩] فلامَهُم علىٰ عدم التزام الأكل مما ذكـر اسـم الله عليـه، وذكـر السـبب لهـذا اللوم؛ وهو أنه تعالىٰ فصل لعباده كل ما حرم عليهم، فمـا لـم يـذكر تحريمـه فإنـه حـلال واضح ليس للتوقف عنه محل.

ولما ذكر تعالىٰ الآيات الدالة علىٰ وجـوب الإيمـان، وَبَّـخَ ولام المتـوقفين عنـه بعـد البيان، فقال: ﴿ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ٢١ ﴾[الانشقاق].

ولما بين جلال القرآن وأنه أعلىٰ الكلام، وأوضحه بيانًـا وأصـدقه وأنفعـه ثمـرة، قـال تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾[الجاثية].

ولما ذكر عظم نعمه الظاهرة والباطنة، قال تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ٥٥ ﴾[النجم] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ ﴾[الـرحمن] وقـال تعـالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ ﴾ [يونس:٣٢].



وكذلك في آيات كثيرة يأمره بمجادلة المكذبين ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتىٰ إذا وصل معهم إلىٰ حالة وضوح الحق التام وإزالة الشبه كلها انتقل من مجادلتهم إلىٰ الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة، والآيات في هذا المعنىٰ الجليل كثيرة جدًا.



القاعدة الثالثة والخمسون:

من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئًا

وهذه القاعدة تبين من لطف الله وإحسانه بالعباد، وحكمته الواسعة ما هو أثر عظيم من آثار تعريفاته ونفحة عظيمة من نفحاته، وأنه أرحم الراحمين، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[البقرة] فبين تعالىٰ أن هذه العبادة العظيمة لعظم مصلحتها وكثرة فوائدها العامة والخاصة أنه فرضها علىٰ العباد وإن شقت عليهم وكرهتها نفوسهم لما فيها من التعرض للأخطار وتلف النفوس والأموال، ولكن هذه المشقات بالنسبة إلىٰ ما تفضي إليه من الكرامات ليست بشر بل هي خير محض وإحسان صرف من الله علىٰ عباده، حيث قيض لهم هذه العبادة التي توصلهم إلىٰ منازل من العز والكرامة في الدنيا والآخرة لولاها لم يكونوا واصليها، وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾[النساء:١٠٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[البقرة] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر].

فكلما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات لقوة الداعي إليها، وفي الصبر علىٰ المصيبات لشدة وقعها، كان الأجر أعظم والثواب أكبر، وقال تعالىٰ في بيان لطفه في تسهيل العبادة الشاقة: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾



[الأنفال].

فذكر منته على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي يسر بها العبادة، مزيلة لمشقتها محصلة لثمراتها.

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[يونس].

فالبشرى التي وعد الله بها أولياءه في الحياة الدنيا من أشرفها وأجلها: أنه يسر لهم العبادات وهون عليهم مشقة القربات، وأنه ييسرهم للخير، ويجنبهم الشر بأيسر عمل.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾[الليل] أي لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[النحل:٩٧].

ومن الحياة الطيبة التي يرزقونها: ذوقُ حلاوة الطاعات، واستعذاب المشقات في رضا الله تعالى، فهذه الأحوال كلها خير للمؤمن، إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حَمِدَ اللهَ وشكره، وإن قامت العقبات صبر في اقتحامها، واحتسب الخير في عنائه وجهاده ورجا عظيم الثواب، وهذا المعنى في القرآن في آيات متعددة، والله أعلم.



القاعدة الرابعة والخمسون:

كثيرًا ما ينفي الله الشيء لعدم فائدته وثمرته المقصودة منه، وإن كانت صورته موجودة

وذلك أن الله خلق الإنسان وركب فيه القوى، من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ليعرف بها ربه ويقوم بحقه، فهذا المقصود منها، وبوجود ما خلقت له تكمل ويكمل صاحبها.

وبفقد ذلك يكون وجودها أضر على الإنسان من عدمها، فإنها حجة الله على عباده، ونعمته التي توجد بها مصالح الدين والدنيا، فإما أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها أو تكون محنة وحجة على صاحبها إذا استعملها في غير ما خلقت له ولهذا كثيرًا ما ينفي الله تعالى هذه الأمور الثلاثة عن أصناف الكافرين بها المكبلين بسلاسل وأغلال التقليد الأعمى للآباء والسادة والرؤساء، المنسلخين من آيات الله، وإن تسموا بأسماء إسلامية ولبسوا ثيابًا وألقابًا علمية، فهم المعنيون في كلام الله بوصف الكفار والمنافقين.



كقولــــــــــه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[البقرة]. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[المائدة]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الأنعام] وقال في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ﴾[الأعراف:١٧٢].

وهذه آيات ربوبيته واضحة ناطقة فيكم، وفي تكوينكم في أصلاب آبائكم وأرحام أمهاتكم، وإخراجكم منها بشرًا سويا، وتسخير ما في السماوات والأرض جميعًا لكم، ثم ساقت الآيات في عاقبة غفلة الإنسان عن تلك الآيات.

وبين سبب هذه الغفلة بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] أي ألقاها وخلعها كارهًا لها: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٧٦] فما أعطيناها له إلا ليتفكر بها في خلق الله وحكمته فيرتفع علىٰ درجات الكمال، ولكنه أخلد إلىٰ الأرض البهيمية ورضي بالتقليد الأعمىٰ الذي هو من خصائص الأنعام، ثم ختمها بسوء عاقبة هذا المنسلخ المقلد بقوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[الأعراف].

فأخبر أن صور الحواس الحيوانية موجودة، ولكن فوائدها الإنسانية مفقودة ولذلك قال: ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[الحج].

وقــــال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل].

والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًا.

وقـال تعـالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾[النساء]، فأثبت لهم الكفر من كل وجه؛ لأن دعواهم الإيمانَ بما يقولون آمنا به من الكتب والرسل لم يوجب لهم الدخول في حقيقة الإيمان؛ لأن ثمرة إيمانهم مفقودة حيث كذبوهم في صحة رسالة محمد ﷺ، وغيره ممن كفروا به وحيث أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم مما أثبتوا به رسالة من زعموا الإيمان به، وكذلك قوله تعالىٰ:



﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾[البقرة] لما كان الإيمان النافع هو الذي يُغرس في قلب سليم من الجهل والشكوك والشبهات والتقاليد ويُسقىٰ بعصارة تدبر آيات الله الكونية والقرآنية فيثمر في القلب والجوارح أطيب الثمرات من العبادة والطاعة، ولما كان الإيمان النافع هو الذي يتفق عليه القلب واللسان وهو المثمر لكل خير، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، نفىٰ عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته.

ويشبه هذا: ترتيب الباري كثيرًا من الواجبات والفروض علىٰ الإيمان كقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[آل عمران] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[المائدة] وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[الأنفال:٤١] إلىٰ قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[الأنفال:٤١] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال] وذلك أن الإيمان الصادق يقتضي صدق العقيدة وأداء الفرائض والواجبات، واجتناب الشرك والمحرمات فما لم يحصل ذلك فهو بعد لم يتم ولم يتحقق، ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسله، قال تعالىٰ عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾[البقرة].

ونظير ذلك: قول موسىٰ ﷺ لما قال له بنو إسرائيل: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾[البقرة] فكما أن فقد العلم جهل ففقد العمل به جهل قبيح.



القاعدة الخامسة والخمسون:

يُكتب للعبد عمله الذي باشره. ويكمل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله قهرًا عنه، ويكتب له ما نشأ عن عمله

فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن أما الأعمال التي باشرها العبد فأكثر من أن تحصىٰ



النصوص الدالة عليها، كقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٠٥﴾[المائدة] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة:٢٨٦] ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾[يونس:٤١] ونحو ذلك.

وأما الأعمال التي شرع العبد فيها وعجز العبد عن تكميلها: فكقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[النساء:١٠٠] فهذا خرج قاصدًا الهجرة، وأدركه الأجل قبل تكميل عمله، فأتم الله له ما قصد إليه وأعطاه أجره، فكل من شرع في عمل من أعمال الخير، ثم عجز عن إتمامه بموت، أو عجز بدني، أو عجز مالي، أو مانع داخلي، أو خارجي، وكان من نيته ـ لولا المانع ـ إكمالُه فقد وقع أجره علىٰ الله؛ فـ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩] فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه، سواء كمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه.

وأما آثار أعمال العبد: فقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾[يس:١٢] أي: باشروا عمله ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ التي ترتبت علىٰ أعمالهم من خير وشر في الدنيا والآخرة، وقال في المجاهدين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢٠﴾[التوبة] فكل هذه الأمور من آثار عملهم ثم ذكر أعمالهم التي باشروها بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٢١﴾ [التوبة].

والأعمال التي هي من آثار عمل العبد نوعان:

أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان، كأن يعمل أعمالًا صالحة خيرية، فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله وكمن يتزوج بقصد الإعفاف فقط، فيعطيه الله أولادًا صالحين ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني: وهو أشرف النوعين: أن يقع ذلك بقصده، كمن علم غيره علمًا نافعًا فنفس تعليمه ومباشرته له من أجل الأعمال، ثم ما حصل من العلم والخير المترتب علىٰ ذلك، فإنه من آثار عمله.



وكمن يفعل الخير ليقتدي بـه النـاس، أو يتـزوج للعفـة ولحصـول الذريـة الصـالحة، فيحصل مراده، فإن هذا من آثار عمله، وكذلك من يزرع زرعًـا أو يغـرس غرسًـا أو يباشـر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمر دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع له ولغيره، فما ترتب من نفع ديني أو دنيوي علىٰ هذا العمل فإنه من آثار عمله، وإن كـان يأخـذ علـىٰ عمله أجرًا وعوضًا، فإن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: **صانعه وراميه والممد به.**



القاعدة السادسة والخمسون:

تحال المصالح على قدر الوسع والطاقة

يرشد القرآن الكريم المسلمين إلى إقامة جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقدر على القيام بها، وليوفر وقته عليها لتتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعًا واحدة

وهذه من القواعد الجليلة ومن السياسة الشرعية الحكيمة، فإن كثيرًا من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها، فالطريق إلىٰ حصولها ما أرشد الله عباده إليه، قال تعالىٰ في الجهاد والعلم اللذين هما من أعظم مصالح الدين: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾[التوبة:١٢٢] فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية وبالعلم طائفـة أخـرىٰ، وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت.

وقـال تعـالىٰ: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾[آل عمـران:١٠٤] وقـال تعـالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾[المائـدة:٢] وقـال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[التغابن:١٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾[الشورىٰ:٣٨].

إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالات علىٰ هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصـالح كلهـا، لأن كـل فـرد مـأمور أن يراعـي المصالح الكلية، ويكون سائرًا في جميع أعماله إليها، فلـو وفـق المسـلمون لسـلوك هـذه الطريق لاستقامت أحوالهم وصلحت أمورهم وانجابت عنهم شرور كثيرة، فالله المستعان.





القاعدة السابعة والخمسون:

في كيفية الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيهما على التوحيد والمطالب العالية

قد دعا الله عباده إلىٰ التفكير في هذه المخلوقات في آيات كثيرة وأثنىٰ علىٰ المتفكرين فيها، وأخبر أن فيها آياتٍ وعِبرًا نحن محتاجون إلىٰ فهمها ومعرفة ما فيها لمصالح ديننا ودنيانا، فينبغي لنا أن نسلك هذا الطريق المنتج للمطلوب بأيسر وأوضح ما يكون.

وحاصل ذلك علىٰ وجه الإجمال: أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم، عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد، ولا أوجد نفسه ـ هذا أمر بديهي ـ فتيقنا أن الذي أوجده هو الأول الذي ليس قبله شيء وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل القدرة عظيم السلطان واسع العلم، وأن إعادتنا في النشأة الثانية للجزاء أسهل عليه من نشأتنا الدنيوية بكثير: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[غافر:٥٧] وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم.

وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع عرفنا بذلك كمال حكمة الله وحسن خلقه وسعة علمه، وعرفنا من آثار حكمته فينا وفي هذا الوجود أنه ما خلقنا لهذه الحياة قصدًا وإنما خلقنا لنستعد فيها للنشأة الأخرىٰ.

وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تعد ولا تحصىٰ، عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل والبر والإحسان، والجود والامتنان، وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات، فإن ذلك دال علىٰ إرادة الله ونفوذ مشيئته ونعرف بذلك كله أن مَن هذه أوصافه وهذا شأنه؛ هو الذي لا يستحق العبادة أحد إلا هو وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه، ولا ينبغي صرف خالص الدعاء إلا له؛ لأن غيره من المخلوقات المربوبات مفتقرات إليه وحده في جميع شئونها.

ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خلقت لمصالحنا، وأنها مسخرة لنا، وأن عناصرها ومواردها وأرواحها قد مكن الله الآدمي من استخراج أصناف المنافع منها، عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة، من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها، فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه من استخراج ما يصلح أحوالنا منها، بحسب القدرة،



ولم نخلد إلىٰ الكسل والبطالة، أو نزعم أن علم هذه الأمور واستخراجها علوم باطلة، بحجة أن الكفار سبقونا إليها وفاقونا فيها، فإنها كلها ـ كما نبه الله عليه ـ داخلة في تسخير الله الكون لنا، وأن يُعلم الإنسان ما لم يعلم.



القاعدة الثامنة والخمسون:

الكمال إنما يظهر إذا قُرن بضده إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة أراهم نقصها في غيرهم من المستعدين للكمال

وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن.

منها: لما أراد الله إظهار شرف آدم علىٰ الملائكة بالعلم، وعلمه أسماء كل شيء ثم امتحن الملائكة فعجزوا عن معرفتها، فحينئذ نبأهم آدم بها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله تعالىٰ إظهار شرف يوسف في سعة العلم والتعبير رأىٰ المَلِكَ تلك الرؤيا، وعرضها علىٰ كل من له علم بها ومعرفة فعجزوا عن معرفتها، ثم بعد ذلك عَبَّرها يوسف ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبير عنه.

ولما عارض فرعون الآيات التي أُرسل بها موسىٰ، وزعم أنه سيأتي بسحر يغلبه، فجمع كل سحار عليم من جميع أنحاء المملكة، واجتمع الناس في يوم عيدهم وألقىٰ السحرة عصيهم وحبالهم في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السحر فـ: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾[الأعراف] فحينئذ ألقىٰ موسىٰ عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأىٰ الناس جميع حبالهم وعصيهم، فظهرت هذه الآية الكبرىٰ، وكان السحرة أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهرًا وباطنًا.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ، وتمالأ عليه جميع أعداؤه، ومكروا مكرتهم الكبرىٰ للإيقاع به، نصره الله ذلك النصر العجيب، فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عدوه الشديد حَرْدُه ـ الغضب والغيظ، القوي مكره، الذي جمع كل كيده ليوقع به أشد الأخذات وأعظم النكبات، وتخلصه وانفراج الأمر له، من أعظم أنواع النصر.



كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[التوبة].

وقريب من هذا نصره له يوم حنين، حيث أعجبت المسلمين كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين وثبت الله نبيه ﷺ فأنزل عليه سكينته ونصره في هذه الحال الحرجة، فكان لهذا النصر من الموقع الكبير ما لا يعبر عنه، وكذلك ما ذكره الله من الشدائد التي جرت علىٰ أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتد البأس، وكاد أن يستولي علىٰ النفوس اليأس، أنزل الله فرجه ونصره ليصير لذلك موقع في القلوب وليعرف العباد ألطاف علام الغيوب.

ويقارب هذا المعنىٰ: إنزاله الغيث علىٰ العباد، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين، فيحصل من آثار نعمة الله والاستبشار بفضله، ما يملأ القلوب حمدًا وشكرًا وثناء علىٰ الباري تعالىٰ.

وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلىٰ تأمل ضدها، كقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ﴾[الأنعام:٤٦] وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[القصص].

ونلمح مثل هذا المعنىٰ في قصة يعقوب وبنيه: حين اشتدت بهم الأزمة ودخلوا علىٰ يوسف، وقالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾[يوسف:٨٨] الآية ثم بعد قليل قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[يوسف] في تلك النعمة الواسعة والعيش الرغيد والعز المكين، والجاه العريض فتبارك من لا يدرك العباد من ألطافه ودقيق بره أقل القليل.

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يذكر عباده في أثناء المصائب ما يقابلها من



النعم، لئلا تسترسل النفوس في الجزع، فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب، وهان عليها حملها، كما ذكّر الله المؤمنين حين أصيبوا بأحد ما أصابوا من المشركين ببدر، فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾[آل عمران:١٦٥] وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أحد: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣﴾[آل عمران] وكذلك يبشر الله عبده بالمخرج منها حين تباشره المصائب، ليكون هذا الرجاء مخففًا لما نزل به من البلاء، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾[يوسف] وكذلك رؤيا يوسف كان يعقوب إذا ذكرها رجاء الفرج وهب علىٰ قلبه نسيم الرجاء، ولهذا قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾[يوسف:٨٧].

وكذلك قوله تعالىٰ لأم موسىٰ في سورة القصص: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص].

وأعظم من هذا كله: أن وعد الله لرسله بالنصر وبتمام الأمر وحسن العاقبة يهون عليهم به المشقات ويسهل عليهم الكريهات، فيتلقوها بقلوب مطمئنة وصدور منشرحة، وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.



القاعدة التاسعة والخمسون:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[الإسراء:٩]

ما أعظمَ هذه القاعدةَ، وما أحكم هذا الأصلَ العظيمَ الذي نص الله نصًا صريحًا علىٰ عموم ذلك، وعدم تقيد هذا الهدىٰ بحالة من الأحوال فكل حالة هي أقوم، في العقائد والأخلاق والأعمال والسياسات الكبار والصغار والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية فإن القرآن يهدي إليها ويرشد إليها، ويأمر بها ويحث عليها.

ومعنىٰ ﴿أَقۡوَمُ﴾ أيْ أكرم وأنفس وأصلح وأكمل استقامة، وأعظم قيامًا وصلاحًا للأمور.

فأما العقائد فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب وحياتها



وكمالها، فإنها تملأ القلوب عزة وكرامة بشعورها بالتجرد من الذل لمخلوق مثلها، وشرفها بتخصصها لمحبة الله تعظيمًا له وتألهًا وتعبدًا وإنابة، وهذا المعنىٰ هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعو إليها فإنه يدعو إلىٰ التحلي بكل خلق جميل، من الصبر والحلم والعفو والأدب وحسن الخلق مع الله ومع الخلق وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق ويرشد إليها بكل وسيلة **وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها**: فهي أحسن الأعمال التي قيها القيام بحقوق الله وحقوق العباد علىٰ أكمل الحالات وأجلها وأسهلها وأوصلها إلىٰ المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنيوية: فهو يرشد إلىٰ سلوك الطرق النافعة في تحصيل المقاصد والمصالح الكلية، وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور علىٰ ما لم تتضح مصلحته والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال حتىٰ في سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله وخادمه وأصحابه ومعامليه، فلا يمكن أنه وجد أو يوجد حالة يتفق العقلاء أنها أقوم وأصلح من غيرها، إلا القرآن يرشد إليها نصًا أو ظاهرًا، أو دخولًا تحت قاعدة من قواعده الكلية.

وتفصيل هذا الأصل لا يمكن استيفاؤه.

في هذه القواعد الإجمالية، فكل التفاصيل الواردة في الكتاب والسنة، وما تقتضيه المصالح تفصيلًا لهذا الأصل المحيط.

وبهذا وغيره تبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنىٰ نافع أو طريق صلاح ينافي القرآن. والله ولي الإحسان.



القاعدة الستون:

أنواع التعليم القصصي في القرآن

من قواعد التعليم التي أرشد الله إليها في كتابه: أن القصص المبسوطة يجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها، وأن الأمور المهمة ينتقل في تقريرها نفيًا وإثباتًا من درجة إلى أعلى أو أنزل منها

وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتتقرر فيه المطالب



المهمة، وذلك أن القصة إذا أجملت بكلام يكون لها كالأصل والقاعدة، ثم يقع التفصيل لذلك الإجمال، يحصل به الإيضاح والبيان التام الكامل الذي يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم صورة إجمالية لها، فإن الصورة تشوق إلىٰ التفصيل.

وقد ورد هذا في القرآن في مَواضع:

منها في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام: في قوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]، ثم أخذ في تفصيلها: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف]، ثم ساق القصة بتمامها.

وكذلك قصة أهل الكهف: قال في تصويرها الإجمالي: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾[الكهف]، فهذه الكلمات القليلة قد حوت مقصودها وزبدتها، ثم بسطها بقوله: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ﴾[الكهف:١٣] الآيات إلىٰ آخر القصة، وكذلك قصة موسىٰ: لما قال تعالىٰ: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾[القصص] إلىٰ قوله: ﴿يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾[القصص] وهذا مجملها ثم أتىٰ بعد ذلك بالتفصيل.

وقال في قصة آدم: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[طه] فأجملها، ثم وقع بعده التفصيل، ثم أتىٰ بعد ذلك بالقصة وأما التنقل في تقرير الأشياء من أمر إلىٰ ما هو أولىٰ منه فكثير.

منه: قوله تعالىٰ في الإنكار علىٰ من جعل مع الله إلهًا آخر، وإبطال زعمه الكاذب الذي هو أساس الوثنية أن هؤلاء الأولياء والآلهة أبناء الله؛ لأنهم النور الذي انبثق منه ثم تجسدوا بشرًا ثم عادوا إلىٰ النورانية، فيقول: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ﴾[الكهف:٥] فأبان أن **قولهم هذا بلا علم ومن المعلوم**: أنه كل قول بلا علم من الطرق الباطلة ثم صرح بقبحه قولُه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ﴾[الكهف:٥] ثم ذكر له مرتبة من البطلان أسفل: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾[الكهف] **وقال في حق المنكرين للعبث**: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾[النمل:٦٦] أي علمهم فيها علم ضعيف سافل إلىٰ أحط الدركات، لا يعتمد عليه



إلا سفيه ثم انتقل إلىٰ ما هو ابلغ منه، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل] والعمىٰ آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال عن نوح في تقرير رسالته وإبطال قول من كذبه، وزعم أنه في ضلال مبين: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾[الأعراف:٦١] ثم لما نفىٰ الضلالة من كل وجه أثبت الهدىٰ الكامل له فقال: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾﴾[الأعراف] ثم انتقل إلىٰ ما هو أعلىٰ منه، وأن مادة هذا الهدىٰ الذي جئت به من الوحي الذي هو أصل الهدىٰ ومنبعه ومادته، فقال: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾[الأعراف] وكذلك هود عليه الصلاة والسلام وقال في تقرير رسالة أفضل الرسل وخاتمهم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾[النجم] فنفىٰ عنه ما ينافي الهدىٰ من كل وجه ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[النجم] إلىٰ آخر الآيات.

وهو في القرآن كثير جدًا، كانتقاله من ذكر هبة الولد لزكريا علىٰ كبره وعقم زوجته، إلىٰ ذكر مريم وعيسىٰ، وكذلك أمر بالتوجيه إلىٰ الكعبة بعد أن قرر في الآيات السابقة حرمتها وعظمتها، وهذا في القرآن كثير.



القاعدة الحادية والستون:

معرفة الأوقات وضبطها للاستفادة منها وحفظها من الضياع حث الله عليه، حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص

وذلك أن الله رتب كثيرا من الأحكام العامة والخاصة علىٰ مُدد وأزمنة تتوقف الأحكام عملًا وتنفيذًا علىٰ ضبط تلك المدة وإحصائها وتحديدها.

قال تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾[البقرة:١٨٩].

فقوله: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ يدخل فيه مواقيت الصلوات والصيام والزكاة والعقود وغيرها، وخص بالذكر الحج لكثرة ما يترتب عليه من الأوقات العامة والخاصة وكذلك مواقيت للعدد والديون والإيجارات وغيرها، وقال تعالىٰ لما ذكر العدة: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ﴾ [الطلاق:١] وقوله في الصيام: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ﴾[البقرة:١٨٤] وقال تعالىٰ: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ﴾[البقرة:٢٢٦] وقال تعالىٰ:﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا



مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾[النساء] وقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف] وذلك لمعرفة كمال قدرة الله في إفاقتهم، فلو استمروا علىٰ نومهم لم يحصل الاطلاع علىٰ شيء من ذلك من قصتهم، فمتىٰ ترتب علىٰ ضبط الحساب وإحصاء المدة، مصلحة في الدين والدنيا، كان مما حث وأرشد إليه القرآن.

ويقارب هذا المعنىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩] الآية، وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾[الإسراء:١٢]، ونحوها من الآيات.



القاعدة الثانية والستون:

الصبر أكبر عون على جميع الأمور، والإحاطة بالشيء علما وخبرا هو الذي يعين على الصبر

وهذه القاعدة عظيمة النفع قد دل القرآن عليها صريحا وظاهرا في أماكن كثيرة:

قال تعالىٰ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾[البقرة:٤٥] أي: استعينوا علىٰ جميع المطالب، وفي جميع شئونكم بالصبر، فبالصبر يسهل علىٰ العبد القيام بالطاعات، وأداء حقوق الله وحقوق عباده، وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات، فينهاها عن هواها حذر شقاها، وطلبًا لرضىٰ مولاها، وبالصبر تخف عليه الكريهات.

ولكن لهذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبني عليها، ولا يتم وجوده إلا بها: وهي معرفة الشيء المصبور عليه، ومعرفة ما فيه من الفضائل وما يترتب عليه من الثمرات.

فمتىٰ عرف العبد ما في الطاعات من زيادة الإيمان، وصلاح القلوب واستكمال الفضائل، وما تثمره من الخيرات والكرامات، وما في المحرمات من الضرر والرذائل وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجور إذا عرف ذلك هان عليه الصبر علىٰ جميع الشدائد.

وبهذا يعلم فضل العلم، وأنه أصل الفضائل كلها ولهذا يذكر الله تعالىٰ كثيرًا في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة ما انحرفوا إلا لقصور علمهم، وعدم إحاطتهم التامة بها.

وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر:٢٨] وقال: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾[النساء:١٧] ليس معناه: أنهم لا يعترفون أنها



ذنوب وسوء، وإنما قصر عملهم وخبرتهم، بما توجبه الذنوب من العقوبات وأنواع المضرّات وزوال المانع.

وقال تعالىٰ مبينا أنه متقرر أن الذي لا يعرف ما يحتوي عليه الشيء يتعذر عليه الصبر، فقال عن الخضر لما قال له موسىٰ وطلب منه أن يتعين ليتعلم مما علمه الله قال: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾[الكهف] فعدم إحاطته به خبرا يمتنع معه الصبر، ولو تجلد ما تجلد فلابد أن يُعال صبره.

وقال تعالىٰ مبينًا عظمة القرآن وما هو عليه من الجلالة والصدق الكامل: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾[يونس:٣٩] فبين أن الأعداء المكذبين به إنما كان تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه، وأنهم لو أدركوه وأحاطوا به كما هو عليه، لألجأهم إلىٰ التصديق والإذعان، فهم وإن كانت الحجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه، ولم يعرفوه حق معرفته، فقال في حق المعاندين الذين بان لهم علمه وخبروا صدقه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾[النمل:١٤] وقال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾[الأنعام] والمقصود أن الله تعالىٰ أرشد العباد إلىٰ الاستعانة علىٰ كل أمورهم بملازمة الصبر، وأرشدهم إلىٰ تحصيل الصبر بالنظر إلىٰ الأمور، ومعرفة حقائقها وفضائلها ورذائلها. والله أعلم.





القاعدة الثالثة والستون:

العبرة بصدق الإيمان وصلاح الأعمال

يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان وإيمانه الصحيح وعمله الصالح، وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوى المجردة أو بإعطاء الله للعبد من الدنيا بالرياسات والأمور الدنيوية والتقاليد الموروثة: كل ذلك من طرق المنحرفين

والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلًا لهذا الأصل وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبأ:٣٧] وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

وقد أكثر الله من هذا المعنىٰ في عدة مواضع وأما حكاية المعنىٰ الآخر عن المنحرفين فقال عن اليهود والنصارىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة] ثم ذكر البرهان الذي من أقامه وأتىٰ به فهو المستحق للجنة فقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة] وقال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم]، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف] ونحوها من الآيات التي يستدل بها الكفار علىٰ حسن حالهم، بتفوقهم في الأمور الدنيوية، والرياسات ويذمون المؤمنين مستدلين بنقصهم في هذه الأمور الدنيوية الزائفة، وهذا من أكبر مواضع الفتن؛ فإن الرياسات والأمور الدنيوية مشتركة بين الخليقة: بَرِّها وفاجرها.



القاعدة الرابعة والستون:

الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد تَردُ على الحق وعلى الأمور اليقينية، ولكن سرعان ما تضمحل وتزول

وهذه قاعدة شريفة جليلة قد وردت في عدة مواضع من القرآن، فمن لم يحكمها حصل



له من الغلط في فهم بعض الآيات ما يوجب الخروج عن ظاهر النص، ومن عرف حكمة تعالىٰ الله في ورودها علىٰ الحق الصريح: لأسباب مزعجة تدفعها أو لشبهة قوية تحدثها ثم بعد هذا إذا رجع إلىٰ اليقين والحق الصريح، وتقابل الحق والباطل، ووقعت الخصومة بينهما، فغلب الحقُ الباطل، ودمغه فزهق الباطل وثبت الحقُّ، حصلت العاقبة الحسنة، وزيادة الإيمان واليقين، فكان في ذلك التقدير حكمٌ بالغة، وأيادٍ سابغة.

ولنمثل لهذا بأمثلة:

فمنها: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الخلق إيمانًا ويقينًا، وتصديقًا بوعد الله ووعيده، وهذا أمر يجب علىٰ الأمم أن يعتقدوا في الرسل، من أنهم قد بلغوا الذروة فيه، وأنهم معصومون من ضده، ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض لهم بعض الأمور المزعجة ـ المنافية حسًا لما علم يقينا ـ ما يوجب لهؤلاء الكمل أن يستبطئوا معه النصر، ويقولون: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾[البقرة:٢١٤] وقد يخطر في هذه الحالة علىٰ القلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات وتأثيرها في القلوب، ثم في أسرع وقت تنجلي هذه الحال وتنفرج الأزمة ويأتي النصر من قريب ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾[البقرة] فعندئذ يصير لنصر الله وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة أمر كبير، لا يحصل بدون هذه الحالة، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾[يوسف:١١٠] فلهذا الوارد الذي لا قرار له، وعندما حقت الحقائق اضمحل وتلاشىٰ، لا ينكر ويطلب للآيات تأويلات مخالفة لظاهرها.

ومن هذا الباب، بل من صريحه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾[الحج:٥٢] أي يلقي من الشبه ما يعارض اليقين.

ثم ذكر الحكم المترتبة علىٰ هذا الإلقاء، ولكن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يبطل ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آياته، والله عليم حكيم، فقد أخبر الله بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء، لهذه الحكم التي ذكرها، فمن أنكر وقوع ذلك بناء علىٰ أن الرسل لا ريب ولا شك أنهم معصومون، وظن أن هذا ينافي العصمة، فقد غلط أكبر غلط، ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل إلا قولًا يخالف فيه الواقع ويخالف بعض الآيات ويطلب التأويلات المستبعدات.



ومن هذا ـ على أحد قولي المفسرين ـ قوله تعالى عن يونس: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] وأنه ظنٌّ عرضَ في الحال ثم زال، نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين ترد على قلبه، ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويذهبها ولهذا قال ﷺ عندما شكى إليه أصحابه هذه الحال التي أقلقتهم، مبشرًا لهم: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**»، وأخبرهم أن هذا صريح الإيمان.

ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات الإيمان لقوة وارد من شهوة أو غضب، وأن المؤمن الكامل الإيمان قد يقع في قلبه همٌّ وإرادة، لفعل بعض المعاصي التي تنافي الإيمان الواجب ثم يأتي برهان الإيمان، وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة، فيدفع هذا العارض.

ومن هذا: قوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[يوسف:٢٤] وهو أنه لما رجع إلى ما معه من الإيمان ومراقبة الله وخوفه وخشيته ورجائه، دفع عنه هذا الهم وموجبه واضمحل، وصارت إرادته التامة فيما يرضي ربه ولهذا فاز بمرتبة الصديقية؛ لقوة إخلاصه ويقظة إيمانه بآيات ربه، وانتصر بعد المعالجة الشديدة من النسوة التي لا يصبر عليها إلا سادات الخلق حتى دعا ربه أن يبعده عن مواطن الفتن، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾[يوسف:٣٣] وكان كل من يتشبه به ويقف أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**».

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[الأعراف] يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان أو الذي يعرض في إرادته، فإذا مسهم تذكروا ما يدعو إلى الإيمان وواجباته، من آيات الله وسننه وحكمته وأحكامه فأبصروا، فاندفعت الشبهات والشهوات فرجع الشيطان خاسئًا وهو حسير.

ولعل من هذا: قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾[هود] وقول النبي ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**»، يعني: وهو الله القوي العزيز، لكن غلب على لوط عليه السلام في تلك الحالة الحرجة وملاحظة الأسباب العادية، فقال ما قال، مع علمه التام بقوة ذي العظمة والجلال.



القاعدة الخامسة والستون:

قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح إذا كان يفضي إلى ترك الواجب، أو فعل محرم

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة، وهي من قاعدة: الوسائل لها أحكام المقاصد.

فمنها: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] وقوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[النور:٣١] وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[الأحزاب:٣٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾[الجمعة:٩]. وقد ورد بعض آيات تدل علىٰ هذا الأصل الكبير فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوسل بها إليه، فإن توسل بها إلىٰ فعل واجب أو مسنون كانت مأمورًا بها.

وإن توسل بها إلىٰ فعل محرم أو ترك واجب، كانت محرمة منهيًا عنها وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية، والله الموفق.



القاعدة السادسة والستون:

من قواعد القرآن أنه يستدل بالأقوال والأفعال على ما صدرت عنه من الأخلاق والصفات

وهذه قاعدة جليلة فإن أكثر الناس يُقْصر نظره علىٰ نفس اللفظ الدال علىٰ ذلك القول أو الفعل من دون أن يفكر في أصله وقاعدته التي أوجبت حضور ذلك الفعل والقول، والفطن اللبيب ينظر إلىٰ الأمرين ويعرف أن هذا لازم لهذا، أو هذا ملزم لهذا وقد تقدم ما يقارب هذا المعنىٰ الجليل، ولكن لشدة الحاجة إليه أوردناه علىٰ أسلوب آخر، فمن ذلك أن قوله عن عباد الرحمن أنهم: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾[الفرقان] وذلك صادر عن وقارهم وسكينتهم وخشوعهم وعن حلمهم الواسع وخلقهم الكامل وتنزيههم لأنفسهم عن مقابلة الجاهلين، ومثل قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[النمل] يدل علىٰ ذلك حسن إدارة المُلْك



وكمال السياسة وحسن النظام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[القصص] يدل علىٰ حسن الخلق ونزاهة النفس عن الخلاق الرذيلة وعلىٰ سعة عقولهم وقوة حلمهم واحتمالهم ومثل الأخبار عن أهل الجاهلية في تقتيل أولادهم خشية الفقر أو من الإملاق يدل علىٰ شدة هلعهم وسوء ظنونهم بربهم وعدم ثقتهم بكفايته، وكذلك قوله عن أعداء رسول الله: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ [القصص:٥٧] يدل علىٰ ظنونهم بالله وأن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته، وأمثلة هذا الأصل كثيرة واضحة لكل صاحب فكرة حسنة.

القاعدة السابعة والستون:

يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق، للخروج من الشبهات والتوهمات

وهذه القاعدة جليلة يعبر عنها: بأن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يعارض المحقق ونحوها من العبارات.

وقد نبه الله عليها في مواضع كثيرة:

منها: لما أخبر تعالىٰ عن الراسخين في العلم، وأن طريقتهم في المتشبهات: أنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧] فالأمور المحكمة المعلومة، يتعين أن يرد إليها كل أمر مشتبه مظنون وقال تعالىٰ في زجر المؤمنين عن مجاراة الشائعات التي يقولها أهل السوء في إخوانهم المؤمنين: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾[النور] فأمرهم بالرجوع إلىٰ ما عُلم من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل المعلوم، ولا يعتبروا كلام الخبيثين بما يناقضه، ويقدح فيه.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾[الأحزاب] فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من كل عيب ونقص قاله فيه من آذاه لأنه لا يكون وجيها عند ربه حتىٰ يسلم من جميع المنقصات ويتحلىٰ بجميع الكمالات اللائقة بأمثاله من أولي العزم فيحذر الله هذه الأمة أن يسلكوا مسلك من آذىٰ



موسىٰ مع وجاهته، فيؤذوا أعظم الرسل جاهًا عند الله، وأرفعهم مقامًا ودرجة، وأرأفهم بالمؤمنين وأكثرهم إحسانًا إلىٰ الخلق.

وقال تعالىٰ: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾[يونس]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾[سبأ:٦].



القاعدة الثامنة والستون:

ذكر الأوصاف المتقابلات يغني عن التصريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلومًا

وهذه القاعدة في القرآن كثير يذكرها في المقامات المهمة كالمقابلة بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وبين إلهية الحق وإلهية من سواه، ويذكر تباين الأوصاف التي يعرف العقلاء بالبداهة التفاوت بينها ويدع التصريح بالمفاضلة للعقلاء، قال تعالىٰ: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾[يوسف]، ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[النمل] والآيات التي بعدها: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾[الزمر:٢٩]، ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾[هود:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾[البقرة:١٤٠]، ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾[يونس]، ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾[الزمر:٩]، وقال قبلها: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾[الزمر:٩] فهذا الموضع ترك القسم الآخر كما ترك التصريح بالمفاضلة، لعلمه من المقام، فقوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾، إلخ يعنىٰ كمن ليس كذلك، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه العجيب كقوله: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾[الملك] ولما ذكر أوصاف الرسول الداعي وما يدعو إليه وأعظم الناس معارضة له قال: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾[سبأ]، ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦﴾[القلم]، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[البقرة:٢٥٦]، ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن



شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾[الكهف:٢٩]، وذلك أنه إذا ميزت الأشياء تمييزًا تامًا وعرفت مراتبها في الخير والشر والكمال والنقص صار التصريح بعد ذلك أفضل لا معنىٰ له والله أعلم.



القاعدة التاسعة والستون:

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة:

فمنها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله،

فعوضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعز والتمكين.

وإبراهيم ﷺ لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله، وهب له إسحاق ويعقوب والذرية الصالحين.

ويوسف ﷺ لما ملك نفسه وعصمه من الوقوع مع امرأة العزيز، مع ما كانت تمنيه به من الحظوة وقوة النفوذ في قصر العزيز ورياسته وصبر علىٰ السجن وأحبه وطلبه ليبعده عن دائرة الفساد والفتنة عوضه الله أن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، ويستمتع بما شاء مما أحل الله له من الأموال والنساء والسلطان.

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، نشر لهم من رحمته وهيأ لهم أسباب المرافق والراحة وجعلهم سببًا لهداية الضالين.

ومريم ابنة عمران لما أحصنت فرجها أكرمها الله ونفخ فيه من روحه وجعلها وابنها آية للعالمين.

وسليمان ﷺ لما ألهته الخيل عن ذكر ربه فأتلفها، عوضه الله الريح تجري بأمره، والشياطين كل بناء وغواص.

ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالىٰ عوضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق لذات الدنيا كلها.





القاعدة السبعون:

القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسكُ بأصوله وفروعه وتنفيذ شرائعه وأحكامه

قد تقدم من الأدلة علىٰ هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلىٰ الإصلاح والصلاح، وفي طريقته في محاجة أهل الباطل، وفي سياسته الداخلية والخارجية ما يدل علىٰ هذا الأصل.

ويعرف الخلق أن العصمة من الشرور كلها لا طريق لها إلا التمسك بهذا القرآن وأصوله وعقائده، وأخلاقه، وآدابه، وشرائعه.

ولكن نزيد هنا بعض التفصيلات، فنقول: **أهل الشر والفساد نوعان:**

أحدهما: المبطلون في عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم الذين يدعون إليها، ففي القرآن من الاحتجاج علىٰ هؤلاء وإقامة الحجج والبراهين علىٰ فساد قولهم شيء كثير، لا يأتي مبطل يقول إلا وفي القرآن بيانه بالحق الواضح والبرهان الجلي، ففيه الرد علىٰ جميع المبطلين من الدهريين والماديين والمعطلين والمشركين والمتمسكين بالأديان المبدلة والمنسوخة من اليهود والنصارىٰ والأميين: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان] يذكر الله حجج هؤلاء ويرفضها ويبدي من الأساليب المتنوعة في إفسادها ما هو معروف، وتفصيل هذا بالجملة لا يحتمله هذا الموضع.

النوع الثاني: من المقومين للأديان والدنيا والسياسات والحقوق الشيوعيون الذين انتشر شرهم وتفاقم أمرهم وسرت دعايتهم في طبقات الخلق سريان النار في العشب الهشيم ولم يكن عند الأكثرين ما يرد صولتهم ويقمع شرهم، وإنما عندهم من الأصول والعقائد والأخلاق والسياسات ما يمكن امثال هؤلاء الذين هم فساد العباد والبلاد؛ ولكن ـ ولله الحمد ـ القرآن العظيم والدين القويم قد تكفل بمقاومة هؤلاء كما تكفل بمقاومة غيرهم وفيه من الأصول والأخلاق والآداب الراقية ما يردهم علىٰ أعقابهم منهزمين فما فيه من العدل ووجوب الحقوق العادلة بين طبقات الناس بحسب أحوالهم وما فيه من إيجاب الزكاة والإلزام بها، ودفع حاجات الفقراء والمساكين ووجوب القيام بالمصالح الكلية والجزئية ووجوب حفظ الملاك والحقوق، كل هذا أعظم صدق وأحسن حكم للوقاية من



شرور هؤلاء المفسدين، وكذلك ما حَضَّ عليه القرآن من لزوم الآداب العالية والأخلاق السامية والأخوة الدينية والرابطة الإسلامية يمنع من تغلل شرورهم التي طريقها الأقوم تحليل الأخلاق وانحلال الآداب وتحلل الروابط النافعة والثورة العامة علىٰ الرأسماليين الذين يجمعون ويمنعون، فهؤلاء وإن أبدوا من القوة المادية والتسلط علىٰ العباد بالقهر والاستعباد والطمع والجشع فإنهم لا ثبوت لهم علىٰ مقاومة هذا التيار المزعج المخرب المدمر ما مر عليه، فما معهم من سلاح يقاوم سلاحهم، ولا قوة تجابه قوتهم، لكونهم لم يتمسكوا بالقرآن الذي فيه العصمة والقوة المعنوية والصلاح والإصلاح والعدل ودفع الظلم والآداب والأخلاق العالية التي لا تزعزعها عواصف الخراب، بل تقذف بالحق علىٰ الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق، فإذا جاء هؤلاء المفسدون بالتعطيل المحصن والإنكار والصرف أبدىٰ القرآن من الحجج والبراهين علىٰ وجود الله وعظمته وتوحيده وصدقه وصدق من جاء به ما تصدع له الجبال وتخضع له فحول الرجال، وإذا تسرب هؤلاء الأشرار لتوسط الأخلاق الرذيلة وانحلال الآداب الجميلة ووجدوا مسلكًا في هذا الطريق يعينهم علىٰ تنفيذ باطلهم جاءهم هذا القرآن بالحث علىٰ الأخلاق العالية والأعمال الصالحة والآداب الجميلة التي لا تدع للشر علىٰ صاحبه سبيلًا، وإذا صالوا بالفقر والفقراء ووجوب المساواة واحتجوا علىٰ أرباب الأموال بالاحتكار والسيطرة واستعبادهم، للعباد واستبدادهم بالأملاك والأموال ولم يجد هؤلاء قوة عليهم وليس بهم طاقة بوجه من الوجوه تصدىٰ هذا القرآن العظيم بعدله وقسطه وإيجاب الحقوق المتنوعة الدافعة للحاجات كلها بعد قيامها بالضرورات بصدهم ومقاومتهم وإبطال كل ما به يصولون ويجولون ثم إذا برز بصلاحه وإصلاحه العظيم ونظامه الحكيم وهديه القويم وحثه علىٰ سلوك الصراط المستقيم ونوره الساطع وحججه القواطع لم يبق في وجهه باطل إلا محقه ولا شر إلا سحقه ولا بقىٰ من قصده الحق والصواب إلا اختاره، واعتنقه ولا تأمله صاحب عقل إلا صدع له، فهو الحصن الحصين من جميع الشرور، وهو القامع لكل من قاومه في كل الأمور.



القاعدة الواحدة والسبعون:



في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني

اعلم أن ما مضىٰ من القواعد السابقة هي المقصود بوضع هذا الكتاب، وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التي يرجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها وتفاصيلها، فإنها ترجع إلىٰ أصل واحد، وقاعدة كلية.

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم فإن كثيرًا منها من الألفاظ الجوامع، وهي من أعظم الأدلة علىٰ أنها تنزيل من حكيم حميد وعلىٰ صدق من أعطي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارًا.

ولنضرب لهذا أمثلة ونماذج فمنها:

قوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾[فصلت:٤٦]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾[يونس:٢٦]، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[الرحمن]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾[الواقعة]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[النحل:٩٠]، الآية، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[المائدة:٢]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[النحل]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾[الزلزلة]، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾[المزمل:٢٠]، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ﴾[البقرة:١٩٧] ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء:١٢٣]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[الزمر]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾[النساء:٩٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾[الحجرات:٦]، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورىٰ:٣٨] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾[آل عمران:١٥٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾[النساء:٤٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾[يونس:٤٤]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ﴾الآية [آل عمران:٣٠]، ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾[النساء:١٢٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[يونس]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[البقرة]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ﴾[الانفطار:١٩]، ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[الجن]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾[الزمر:٣]، ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾[غافر:١٤]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى



فَضۡلٍ فَضۡلَهُۥۖ ﴾[هود:٣]، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ ﴾[هود:٨٨]، ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ ﴾[البقرة:٢٣٧]، ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾[الأعراف:٨٥]، ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾[هود:١١٢]، ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾[فصلت:٦]، ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١١٥) ﴾[هود]، ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾[هود:١١٤]، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ (٢٤) ﴾[يوسف]، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٨٠) ﴾[الصافات]، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾[الرعد:٢١] الآيات، ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾[الشورى:٤٠]، ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ (١٢٦) ﴾[النحل]، ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾[البقرة:١٩٤]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾[الإسراء:٩]، ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ ﴾[الجن:٢] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا (١٥) ﴾[الإسراء]، ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ ﴾[التوبة:٩١]، ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾[الأعراف:١٥٧] الآية، ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾[الشورى:٤٠]، ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا (٤٦) ﴾[الكهف]، ﴿وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾[مريم]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾[البقرة:١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾[الحج:٧٨]، ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾[البقرة:٢٣٣]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴾[الطلاق:٧]، ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ ﴾[الطلاق:٧]، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ (٤) ﴾[الأحزاب]، ﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا (٣٣) ﴾[الفرقان]، ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾[الأحزاب:٢١]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ ﴾[الحشر:٧]، ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾[الأحزاب:٥٣]، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾[الأحزاب:٥٨] الآية، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾[الأنفال:٦٠]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (٢٠١) ﴾[البقرة].

فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها كل كلمة منها قاعدة، وأصل كلي يحتوي علىٰ معان كثيرة.



وقد تقدَّم في أثناء القواعد منها شيء كثير، وهي متيسرة علىٰ حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانيه ولله الحمد.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد يسر الله تعالىٰ علينا ما من بجمعه، فجاء ـ ولله الحمد ـ علىٰ اختصاره ووجازته ووضوحه كتابا يسر الناظرين ويعين علىٰ فهم كلام رب العالمين، وقد حوىٰ من الأصول الكلية والقواعد العامة التي هي أجل القواعد وأنفعها وأصحها وأقواها شيئا كثيرا وعلما واسعا غزيرا ويبدي لأهل البصائر والعلم من المعاقل والمسالك والطرق والأصول النافعة ما لا يجده مجموعا في محل واحد، ومخبر الكتاب يغني عن وصفه.

وأسأله تعالىٰ أن يجعله خالصًا لوجه الكريم، مقربا لديه في جنات النعيم، وأن ينفع به مؤلفه وقارئه، والناظر فيه وجميع المسلمين، بمنه وكرمه وجوده وإحسانه وهو خير الراحمين، وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلىٰ التابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

قال ذلك وكتبه جامعه العبد الفقير إلىٰ الله في كل أحواله عبد الرحمن بن ناصر أبو عبد الله السعدي.

وقد تم ذلك في ٦ شوال سنة ١٣٦٥ هـ والحمد لله رب العالمين.

